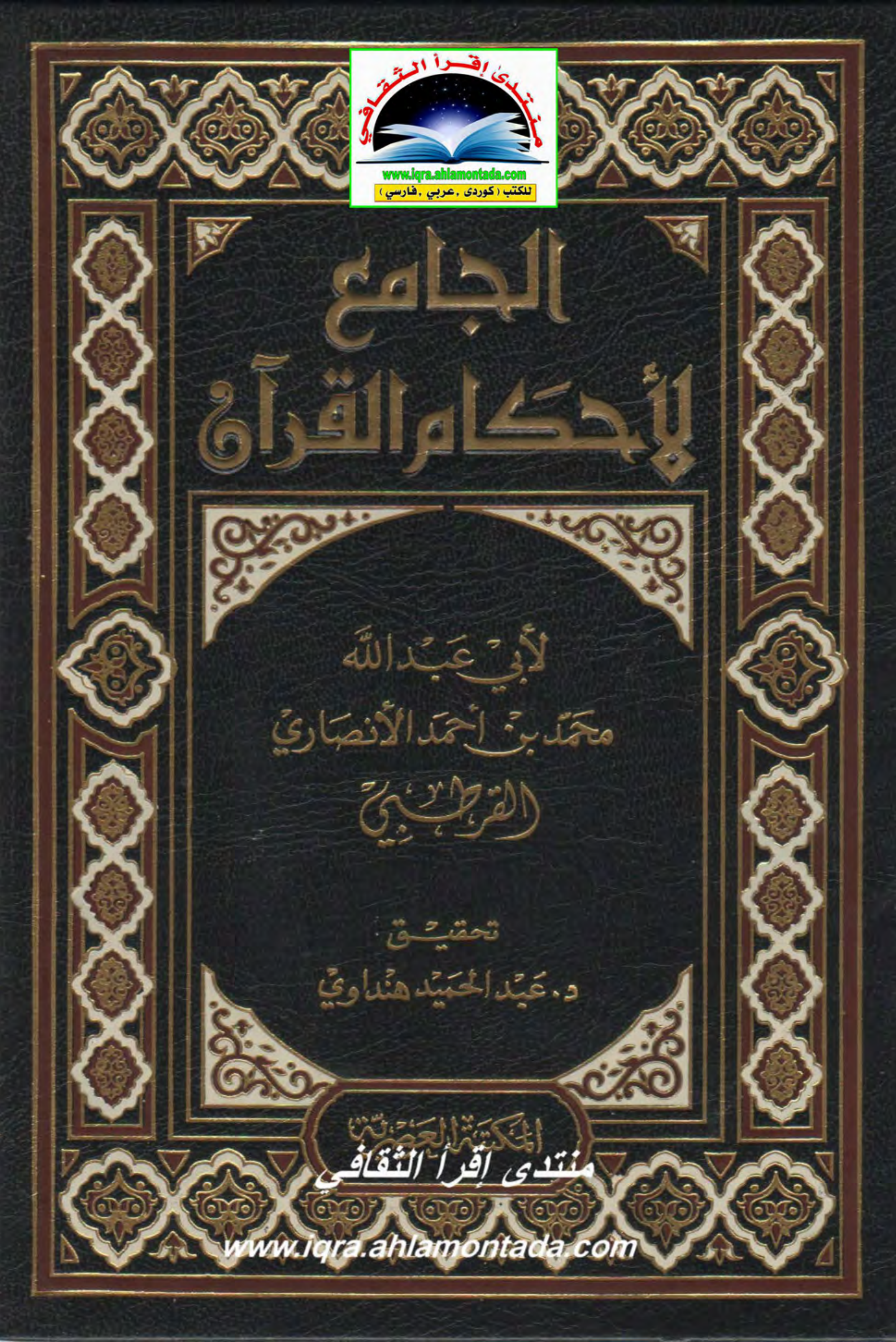

منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى ، عربي ، فارسي)
الجامع لأحكام القرآن
لأبي عبد الله
محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي
تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي
المكتبة العصرية
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com



لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي

تحقيق
د. عبدالحميد هنداوي

المجلّد السابع





شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

1437 هـ - 2016

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
alassrya.com

ISBN 978-614-414-942-3

9 786144 149423

ISBN 978-614-414-942-3

سورة الفرقان

مقدمة السورة:

مكية كلها في قول الجمهور. وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلـهًا آخر ﴾ (الفرقان: ٦٨) إلى قوله: ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (الفرقان: ٧٠). وقال الضحاك: هي مدنية، وفيها آيات مكية؛ قوله: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلـهًا آخر ﴾ الآيات. ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن، وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد على مقالاتهم (وجهالاتهم)[1]؛ فمن جملتها قولهم: إن القرآن افتراه محمد، وإنه ليس من عند الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان ﴾ "تبارك" اختلف في معناه؛ فقال الفراء: هو في العربية و"تقدس" واحد، وهما للعظمة. وقال الزجاج: "تبارك" تفاعل من البركة. قال: ومعنى البركة الكثرة من كل ذي خير. وقيل: "تبارك" تعالى. وقيل: تعالى عطاؤه، أي زاد وكثر. وقيل: المعنى دام وثبت إنعامه. قال النحاس: وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق؛ من برك الشيء إذا ثبت؛ ومنه برك الجمل والطير على الماء، أي دام وثبت. فأما القول الأول فمخلّط؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة وليس من ذا في شيء. قال الثعلبي: ويقال تبارك الله، ولا يقال متبارَك ولا مبارَك؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته إلى حيث ورد التوقيف. وقال الطرماح:

تباركت لا معط لشيء منعته ... وليس لما أعطيت يا رب مانع

وقال آخر:

تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشكرُ

قلت: قد ذكر بعض العلماء في أسمائه الحسنى "المبارك" وذكرناه أيضاً في كتابنا. فإن كان وقع اتفاق على أنه لا يقال فيسلَّم للإجماع. وإن كان وقع فيه اختلاف فكثير من الأسماء اختلف في عدّه؛ كالدهر وغيره. وقد نبهنا على ذلك هنالك، والحمد لله.

---

(١) زيادة من نسخة.

و"الفرقان" القرآن. وقيل: إنه اسم لكل منزل؛ كما قال: ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ (الأنبياء: ٤٨). وفي تسميته فرقانا وجهان: أحدهما: لأنه فرّق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر. الثاني: لأن فيه بيان ما شرع من حلال وحرام؛ حكاه النقاش. ﴿على عبده﴾ يريد محمداً ﷺ. ﴿ليكون للعالمين نذيرا﴾ اسم "يكون" مضمر يعود على "عبده" وهو أولى لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون يعود على "الفرقان". وقرأ عبد الله بن الزبير: "على عباده". ويقال: أنذر إذا خوف؛ وقد تقدم في أول "البقرة". والنذير: المحذر من الهلاك. الجوهري: والنذير المنذر، والنذير الإنذار. والمراد بـ "العالمين" هنا الإنس والجن، لأن النبي ﷺ قد كان رسولاً إليهما، ونذيراً لهما، وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عام الرسالة إلا نوح فإنه عم برسالته جميع الإنس بعد الطوفان، لأنه بدأ به الخلق.

قوله تعالى: ﴿ الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ عظم تعالى نفسه. ﴿ولم يتخذ ولدا﴾ نزه سبحانه وتعالى نفسه عما قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله؛ يعني بنات الله سبحانه وتعالى. وعما قالت اليهود: عزير ابن الله؛ جل الله تعالى. وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله؛ تعالى الله عن ذلك. ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ كما قال عبدة الأوثان. ﴿وخلق كل شيء﴾ لا كما قال المجوس والثنوية: إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء. ولا كما يقول من قال: للمخلوق قدرة الإيجاد. فالآية رد على هؤلاء. ﴿فقدره تقديرا﴾ أي قدر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، لا عن سهوة وغفلة، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة، وبعد القيامة، فهو الخالق المقدر؛ فإياه فاعبدوه.

قوله تعالى: ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب في اتخاذهم الآلهة، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته. ﴿لا يخلقون شيئا﴾ يعني الآلهة. ﴿وهم يخلقون﴾ لما اعتقد المشركون فيها أنها تضر وتنفع، عبَّر عنها كما يعبِّر عما يعقل. ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي لا دفع ضر وجلب نفع، فحذف المضاف. وقيل: لا يقدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء، ولا لمن يعبدهم، لأنها جمادات. ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا﴾ أي لا يميتون أحداً، ولا يحيونه. والنشور: الإحياء بعد الموت؛ أنشر الله الموتى فنشروا. وقد تقدم وقال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميِّت الناشـــرُ

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني مشركي قريش. وقال ابن عباس: القائل منهم ذلك النضر بن الحارث؛ وكذا كل ما في القرآن فيه ذكر الأساطير. قال محمد بن إسحاق: كان مؤذياً للنبي ﷺ. ﴿إن هذا﴾ يعني القرآن. ﴿إلا إفك افتراه﴾ أي كذب اختلقه. ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ يعني اليهود؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: المراد بقولـه: "قوم آخرون" أبو فُكَيْهَة مولى بني الحضرمي وعداس وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب. وقد مضى في "النحل" ذكرهم. ﴿فقد جاءوا ظلماً وزورا﴾ أي بظلم. وقيل: المعنى فقد أتوا ظلماً. ﴿وقالوا أساطير الأولين﴾ قال الزجاج: واحد الأساطير أسطورة؛ مثل أحدوثة وأحاديث. وقال غيره: أساطير جمع أسطار؛ مثل أقوال وأقاويل. ﴿اكتتبها﴾ يعني محمداً. ﴿فهي تملى عليه﴾ أي تلقى عليه وتقرأ ﴿بكرة وأصيلا﴾ حتى تحفظ. و"تملى" أصلـه تملل؛ فأبدلت اللام الأخيرة ياء من التضعيف: كقولـهم: تَقَضَّى البازي؛ وشبهه.

قولـه تعالى: ﴿ قل أنزلـه الذي يعلم السر في السماوات والأرض ﴾ أي قل يا محمد أنزل هذا القرآن الذي يعلم السر، فهو عالم الغيب، فلا يحتاج إلى معلم. وذكر "السر" دون الجهر؛ لأنه من علم السر فهو في الجهر أعلم. ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لما زاد عليها، وقد جاء بفنون تخرج عنها، فليس مأخوذاً منها. وأيضاً ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكن محمد ﷺ؛ فهلا عارضوه فبطل اعتراضهم من كل وجه. ﴿إنه كان غفوراً رحيما﴾ يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم.

قولـه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وقالوا ﴾ ذكر شيئا آخر من مطاعنهم. والضمير في "قالوا" لقريش؛ وذلك أنهم كان لـهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهور، وقد تقدم في "سبحان". ذكره ابن إسحاق في السيرة وغيره. مضمنه ـ أن سادتهم عتبة بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا: يا محمد! إن كنت تحب الرياسة ولّيناك علينا، وإن كنت تحب المال جمعنا لك من أموالنا؛ فلما أبى رسول الله ﷺ عن ذلك رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا: ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام، وتقف بالأسواق! فعيّروه بأكل الطعام؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول مَلَـكاً، وعيّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق، وكان ﷺ يخالطهم في أسواقهم، ويأمرهم وينهاهم؛ فقالوا: هذا يطلب أن يتملك علينا، فما لـه يخالف سيرة الملوك؛ فأجابهم الله بقولـه، وأنزل على نبيه: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ (الفرقان: ٢٠) فلا تغتم ولا تحزن، فإنها شكاة ظاهر عنك عارها.

الثانية : دخول الأسواق مباح للتجارة وطلب المعاش. وكان ﷺ يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله ودعوته، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق. وفي البخاري في صفته ﷺ: "ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق"(١). وقد تقدم في (الأعراف). وذكر السوق مذكور في غير ما حديث، ذكره أهل الصحيح. وتجارة الصحابة فيها معروفة، وخاصة المهاجرين؛ كما قال أبو هريرة: وإن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق(٢)؛ خرَّجه البخاري. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿ لولا أنزل إليه ملك ﴾ أي هلا. ﴿فيكون معه نذيرا﴾ جواب الاستفهام. ﴿أو يلقى إليه كنز﴾ في موضع رفع؛ والمعنى: أو هلا يلقى ﴿إليه كنز﴾ . ﴿أو﴾ هلا ﴿تكون له جنة يأكل منها﴾ "يأكل" بالياء قرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم. وقرأ سائر الكوفيين بالنون، والقراءتان حسنتان تؤديان عن معنى، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه قد تقدم ذكر النبي ﷺ وحده فأن يعود الضمير عليه أبين؛ ذكره النحاس. ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ تقدم في "سبحان" والقائل عبد الله بن الزبعرى فيما ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال ﴾ أي ضربوا لك هذه الأمثال ليتوصلوا إلى تكذيبك. ﴿فضلوا﴾ عن سبيل الحق وعن بلوغ ما أرادوا. ﴿فلا يستطيعون سبيلا﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك.

قوله تعالى: ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات ﴾ شرط ومجازاة، ولم يدغم "جعل لك" لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين. ﴿ويجعل لك﴾ في موضوع جزم عطفاً على موضع "جعل". ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعاً من الأول. وكذلك قرأ أهل الشام. ويروى عن عاصم أيضاً: "ويجعل لك" بالرفع؛ أي وسيجعل لك في الآخرة قصوراً. قال مجاهد: كانت قريش ترى البيت من حجارة قصراً كائناً ما كان. والقصر في اللغة الحبس، وسمي القصر قصراً لأن من فيه مقصور عن أن يوصل إليه. وقيل: العرب تسمي بيوت الطين القصر. وما يتخذ من الصوف والشعر البيت. حكاه القشيري. وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الدنيا ومفاتيحها ولم يعط ذلك من قبلك ولا يعطاه أحد بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئاً؛ وإن شئت جمعنا لك ذلك في الآخرة؛ فقال: "يجمع ذلك لي في الآخرة" فأنزل الله عز وجل: ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (١١٨)، ومسلم (٢٤٩٢).

من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ﴾[١] . ويروى أن هذه الآية أنزلها رضوان خازن الجنان إلى النبي ﷺ ؛ وفي الخبر: إن رضوان لما نزل سلم على النبي ﷺ ؛ ثم قال: يا محمد! رب العزة يقرئك السلام، وهذا سَفَط ـ فإذا سفط من نور يتلألأ ـ يقول لك ربك: هذه مفاتيح خزائن الدنيا، مع أنه لا ينقص مالك في الآخرة مثل جناح بعوضة؛ فنظر النبي ﷺ إلى جبريل كالمستشير له؛ فضرب جبريل بيده الأرض يشير أن تواضع؛ فقال: "يا رضوان لا حاجة لي فيها الفقر أحب إلي وأن أكون عبداً صابراً شكوراً". فقال رضوان: أصبت! الله لك[٢]. وذكر الحديث.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا﴾ يريد جهنم تتلظى عليهم. ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ أي من مسيرة خمسمائة عام. ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيرا﴾ قيل: المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم. وقيل: المعنى إذا رأتهم خزانها سمعوا لهم تغيظا وزفيراً حرصاً على عذابهم. والأول أصح؛ لما روي مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً" قيل: يا رسول الله! ولها عينان؟ قال: "أما سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً ﴾ يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول وكِّلت بكل من جعل مع الله إلهاً آخر فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه" في رواية "فيخرج عنق من النار فيلتقط الكفار لقط الطائر حب السمسم"[٣] ذكره رَزين في كتابه، وصححه ابن العربي في قبسه، وقال: أي تفصلهم عن الخلق في المعرفة كما يفصل الطائر حب السمسم من التربة. وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول إني وكلت بثلاث بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله إلها آخر وبالمصورين"[٤]. وفي الباب عن أبي سعيد قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال الكلبي: سمعوا لها تغيظاً كتغيظ بني آدم وصوتاً كصوت الحمار. وقيل: فيه تقديم وتأخير، سمعوا لها زفيراً وعلموا لها تغيظاً. وقال قطرب: التغيظ لا يسمع، ولكن يرى، والمعنى: رأوا لها تغيظاً وسمعوا لها زفيراً؛ كقول الشاعر:

ورأيت زوجك في الورى   متقلداً سيفاً ورمحا

أي وحاملاً رمحاً. وقيل: "سمعوا لها" أي فيها؛ أي سمعوا فيها تغيظاً وزفيراً للمعذَّبين. كما قال تعالى: ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ (هود: ١٠٦) و"في واللام" يتقاربان؛ تقول: أفعل هذا في الله

---

(١) ضعيف، ومع كونه منقطعاً فيه عنعنه حبيب بن أبي ثابت.
(٢) ضعيف بهذا السياق.
(٣) ضعيف.
(٤) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٨٠٥١).

ولله. ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن عبد الله كان يقول: إن جهنم لتضيق على الكافر كتضييق الزجِّ على الرمح؛ ذكره ابن المبارك في رقائقه. وكذا قال ابن عباس، ذكره الثعلبي والقشيري عنه، وحكاه الماوردي عن عبد الله بن عمرو. ومعنى "مقرنين" مكتفين؛ قاله أبو صالح. وقيل: مصفّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: قرنوا مع الشياطين؛ أي قرن كل واحد منهم إلى شيطانه؛ قاله يحيى بن سلام. وقد مضى هذا في "إبراهيم" وقال عمرو بن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأُبنا بالملوك مقرَّنينا

﴿دعوا هنالك ثبورا﴾ أي هلاكاً؛ قاله الضحاك. ابن عباس: ويلاً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "أول من يقوله إبليس وذلك أنه أول من يكسى حلة من النار فتوضع على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول وا ثبوراه"[1]. وانتصب على المصدر، أي ثبرنا ثبوراً؛ قاله الزجاج. وقال غيره: هو مفعول به.

قوله تعالى: ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيرا ﴾ فإن هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة. وقال: ثبوراً لأنه مصدر يقع للقليل والكثير فلذلك لم يجمع؛ وهو كقولك: ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلاً. ونزلت الآيات في ابن خطل وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون ﴾ إن قيل: كيف قال "أذلك خير" ولا خير في النار؛ فالجواب أن سيبويه حكى عن العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة، وقد علم أن السعادة أحب إليه. وقيل: ليس هو من باب أفعل منك، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس: وهذا قول حسن؛ كما قال:

فشرُّكُمَا لخيرِكُما الفداء

قيل: إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين. وقيل: هو مردود على قوله: ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ الآية. وقيل: هو مردود على قوله: ﴿ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ (الفرقان: ٨). وقيل: إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار؛ وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيراً.

قوله تعالى: ﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ أي من النعيم. ﴿ خالدين كان على ربك وعداً مسئولا ﴾.

قال الكلبي: وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم، فسألوه ذلك الوعد فقالوا: ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ (آل عمران: ١٩٤). وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: إن الملائكة تسأل

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣١١) وقال: "لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة".

لـهم الجنة؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿ ربنا وأدخلـهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ (غافر: ٨) الآية. وهذا قول محمد بن كعب القرظي. وقيل: معنى "وعداً مسئولا" أي واجباً وإن لم يكن يسأل كالدَّين؛ حكي عن العرب: لأعطينك ألفاً. وقيل: "وعداً مسئولاً" يعني أنه واجب لك فتسألـه. وقال زيد ابن أسلم: سألوا الله الجنة في الدنيا ورغبوا إليه بالدعاء، فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا. وهذا يرجع إلى القول الأول.

قولـه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ قرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وحفص ويعقوب وأبو عمرو في رواية الدوري: ﴿ يحشرهم ﴾ بالياء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقولـه في أول الكلام: ﴿ كان على ربك ﴾ وفي آخره ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾. الباقون بالنون على التعظيم. ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾ من الملائكة والإنس والجن والمسيح وعزير؛ قالـه مجاهد وابن جريج. الضحاك وعكرمة: الأصنام. ﴿فيقول﴾ قراءة العامة بالياء وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ ابن عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم. ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ﴾ وهذا استفهام توبيخ للكفار. ﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي قال المعبودون من دون الله سبحانك؛ أي تنزيهاً لك ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾. فإن قيل: فإن كانت الأصنام التي تعبد تحشر فكيف تنطق وهي جماد؟ قيل لـه: ينطقها الله تعالى يوم القيامة كما ينطق الأيدي والأرجل. وقرأ الحسن وأبو جعفر: "أن نتخذ" بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول. وقد تكلم في هذه القراءة النحويون؛ فقال أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر: لا يجوز "نتخذ". وقال أبو عمرو: لو كانت "نتخذ" لحذفت "من" الثانية فقلت: أن نُتَّخذَ من دونك أولياء. كذلك قال أبو عبيدة، لا يجوز "نتخذ" لأن الله تعالى ذكَر "من" مرتين، ولو كان كما قرأ لقال: أن نتخذ من دونك أولياء. وقيل: إن "من" الثانية صلة؛ قال النحاس: ومثل أبي عمرو على جلالته ومحلـه يستحسن ما قال؛ لأنه جاء ببينة. وشرح ما قال أنه يقال: ما اتخذت رجلاً ولياً؛ فيجوز أن يقع هذا للواحد بعينه؛ ثم يقال: ما اتخذت من رجل ولياً فيكون نفياً عاماً، وقولك "ولياً" تابع لما قبلـه فلا يجوز أن تدخل فيه "من" لأنه لا فائدة في ذلك. ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ أي في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم.

﴿حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا﴾ أي تركوا ذكرك فأشركوا بك بطراً وجهلاً فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك. وفي الذكر قولان: أحدهما: القرآن المنزل على الرسل؛ تركوا العمل به؛ قاله ابن زيد. الثاني: الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم. إنهم ﴿كانوا قوما بورا﴾ أي هلكى؛ قاله ابن عباس. مأخوذ من البوار وهو الهلاك. وقال أبو الدرداء ﷺ وقد أشرف على أهل حمص: يا أهل حمص! هلم إلى أخ لكم ناصح، فلما اجتمعوا حوله قال: ما لكم لا تستحون! تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنوا مشيداً وجمعوا عبيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وآمالهم غروراً، ومساكنهم قبوراً. فقوله: "بورا" أي هلكى. وفي خبر آخر: فأصبحت منازلهم بورا؛ أي خالية لا شيء فيها. وقال الحسن: "بورا" لا خير فيهم. مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع فلا يكون فيها خير. وقال شهر بن حوشب: البوار: الفساد والكساد؛ مأخوذ من قولهم: بارت السلعة إذا كسدت كساد الفاسد؛ ومنه الحديث: "نعوذ بالله من بوار الأيم". وهو اسم مصدر كالزور يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث. قال ابن الزِّبعرى:

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بورُ
إذ أباري الشيطان في سنن الغـ ... ـي ومن مال ميله مثبورُ

وقال بعضهم: الواحد بائر والجمع بور. كما يقال: عائذ وعوذ، وهائد وهود. وقيل: "بورا" عمياً عن الحق.

قوله تعالى: ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ أي يقول الله تعالى عند تبري المعبودين: "فقد كذبوكم بما تقولون" أي في قولكم إنهم آلهة. ﴿فما تستطيعون﴾ يعني الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم. وقيل: فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿صرفا﴾ للعذاب ﴿ولا نصرا﴾ من الله. وقال ابن زيد: المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد؛ وعلى هذا فمعنى "بما تقولون" بما تقولون من الحق. وقال أبو عبيد: المعنى؛ فيما تقولون فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه، ولا نصراً لأنفسهم مما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم. وقراءة العامة "بما تقولون" بالتاء على الخطاب. وقد بينا معناه. وحكى الفراء أنه يقرأ "فقد كذبوكم" مخففاً، "بما يقولون". وكذا قرأ مجاهد والبزي بالياء، ويكون معنى "يقولون" بقولهم. وقرأ أبو حيوة: "بما يقولون" بياء. "فما تستطيعون" بتاء على الخطاب لمتخذي الشركاء. ومن قرأ بالياء فالمعنى: فما يستطيع الشركاء. ﴿ومن يظلم منكم﴾ قال ابن عباس: من يشرك منكم ثم مات عليه. ﴿نذقه﴾ أي في الآخرة. ﴿عذابا كبيرا﴾ أي شديدا؛ كقوله تعالى: ﴿ ولتعلن علواً كبيرا ﴾ (الإسراء: ٤) أي شديداً.

﴿ قوله تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ فيه تسع مسائل:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين ﴾ نزلـت جواباً للمشركين حيث قالوا: ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ (الفرقان: ٧). وقال ابن عباس: لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة وقالوا: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام﴾ الآية حزن النبي ﷺ لذلك فنزلت تعزية لـه؛ فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسول الله! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسوق ﴾ أي يبتغون المعايش في الدنيا.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ إلا إنهم ليأكلون الطعام ﴾ إذا دخلت اللام لم يكن في "إن" إلا الكسر، ولو لـم تكن اللام ما جاز أيضا إلا الكسر؛ لأنها مستأنفة. هذا قول جميع النحويين. قال النحاس: إلا أن علي بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال: يجوز في "إنّ" هذه الفتح وإن كان بعدها اللام؛ وأحسبه وهماً منه. قال أبو إسحاق الزجاج: وفي الكلام حذف؛ والمعنى وما أرسلنا قبلك رسلاً إلا إنهم ليأكلون الطعام، ثم حذف رسلاً، لأن في قولـه: "من المرسلين" ما يدل عليه. فالموصوف محذوف عند الزجاج. ولا يجوز عنده حذف الموصول وتبقية الصلة كما قال الفراء. قال الفراء: والمحذوف "من" والمعـنى إلا مَـنْ إنهـم ليأكلون الطعام. وشبهه بقولـه: ﴿ وما منا إلا لـه مقام معلوم ﴾ (الصافات: ١٦٤)، وقولـه ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ (مريم: ٧١) أي ما منكم إلا من هو واردها. وهذا قول الكسائي أيضاً. وتقول العرب: ما بعثت إليك من الناس إلا مَنْ إنه ليطيعك. فقولك: إنه ليطيعك صلة مَنْ. قال الزجاج: هذا خطأ؛ لأن مَنْ موصولة فلا يجوز حذفها. وقال أهل المعاني: المعنى؛ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل إنهم ليأكلون؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ (فصلت: ٤٣). وقال ابن الأنباري: كسرت "إنهم" بعد "إلا" للاستئناف بإضمار واو. أي إلا وإنهم. وذهبت فرقة إلى أن قولـه: "ليأكلون الطعام" كناية عن الحدث. قلت: وهذا بليغ في معناه، ومثله ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبلـه الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ (المائدة: ٧٥). ﴿ويمشون في الأسواق﴾ قرأ الجمهور "يمشون" بفتح الياء وسكون الميم وتخفيف الشين. وقرأ علي وابن عوف وابن مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى يدعون إلى المشي ويحملون عليه. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة، وهي بمعنى يمشون؛ قال الشاعر:

ومشى بأعطان المباءة وابتغى قلائص منها صعبة وركوب

وقال كعب بن زهير:

منه تظل سباع الجو ضامزة ولا تمشي بواديه الأراجيل

بمعنى تمشي.

الثالثة : هذه الآية أصل في تناول الأسباب وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع، لكنا نذكر هنا من ذلك ما يكفي فنقول: قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جرى: إن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء؛ فقلت مجيباً لـه:

هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء، والرعاع السفهاء، أو من طاعن في الكتاب والسنة العلياء؛ وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفيائه ورسلـه وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقولـه الحق: ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ (الأنبياء: ٨٠). وقال: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ قال العلماء: أي يتجرون ويحترفون. وقال عليه الصلاة والسلام: "جعل رزقي تحت ظل رمحي"[1] وقال تعالى: ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيبا ﴾ (الأنفال: ٦٩) وكان الصحابة ﷺ يتجرون ويحترفون وفي أموالـهم يعملون، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون؛ أتراهم ضعفاء! بل هم كانوا والله الأقوياء، وبهم الخلف الصالح اقتدى، وطريقهم فيه الـهدى والاهتداء. قال: إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء، فأما في حق أنفسهم فلا؛ وبيان ذلك أصحاب الصفة.

قلت: لوكان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيان؛ كما ثبت في القرآن ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ (النحل: ٤٤) وقال: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والـهدى ﴾ (البقرة: ١٥٩) الآية. وهذا من البينات والـهدى. وأما أصحاب الصفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام عند ضيق الحال، فكان ﷺ إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلـها معهم، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول ﷺ. كذا وصفهم البخاري وغيره[2]. ثم لما افتتح الله عليهم البلاد ومهد لـهم المهاد تأمروا. وبالأسباب أمروا. ثم إن هذا القول يدل على ضعف النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم أيدوا بالملائكة وثبتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر؛ نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسولـه، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذي انعقد عليه إجماع المسلمين؛ وإلا كان يكون قولـه الحق: ﴿ وأعدوا لـهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ (الأنفال: ٦٠) ـ الآية ـ مقصوراً على الضعفاء، وجميع الخطابات كذلك.

وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكليم ﴿ اضرب بعصاك البحر ﴾ (الشعراء: ٦٣) وقد كان قادراً على فلق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾ (مريم: ٢٥) وقد كان قادراً على سقوط الرطب دون هز ولا تعب؛ ومع هذا كلـه فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان، أو تجاب دعوته، أو يكرم بكرامة في خاصة نفسه أو لأجل غيره، ولا تهد لذلك القواعد الكلية والأمور الجملية. هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى: ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (الذاريات: ٢٢) فإنا نقول: صدق الله العظيم، وصدق رسولـه الكريم، وأن الرزق هنـا المطر بإجماع أهل التأويل؛ بدليل قولـه: ﴿ وينزل لكم من السماء رزقا ﴾ (غافر: ١٣) وقـال: ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ﴾ (ق: ٩) ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل في وجود ذلك؛ وهو معنى قولـه ﷺ:

---

(١) "صحيح" وهو جزء من حديث أخرجه أحمد وغيره كما في صحيح الجامع (٢٨٣١).
(٢) البخاري في "الجهاد"، (٣٠٦٤).

(اطلبوا الرزق في خبايا الأرض)[١] أي بالحرث والحفر والغرس. وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه، وسمي المطر رزقاً لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور في كلام العرب. وقال ﷺ: "لأن يأخذ أحدكم حبلـه فيحتطب على ظهره خير لـه من أن يسأل أحداً أعطاه أو منعه"[٢] وهذا فيما خرج من غير تعب من الحشيش والحطب. ولو قدر رجل بالجبال منقطعاً عن الناس لما كان لـه بد من الخروج إلى ما تخرجه الآكام وظهور الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يعيش به؛ وهو معنى قولـه ﷺ: (لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكلـه لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا)[٣] فغدّوها ورواحها سبب؛ فالعجب العجب ممن يدعي التجريد والتوكل على التحقيق، ويقعد على ثنيات الطريق، ويدع الطريق المستقيم، والمنهج الواضح القويم. ثبت في البخاري عن ابن عباس قال: كان أهـل اليمن يحجـون ولا يتـزودون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس؛ فأنزل الله تعالى ﴿ وتزودوا ﴾[٤] (البقرة: ١٩٧). ولـم ينقل عن النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد، وكانوا المتوكلين حقاً. والتوكل اعتماد القلب على الرب في أن يلم شعثه ويجمع عليه أربه؛ ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر. وهذا هو الحق. سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال: إني أريد الحج على قدم التوكل. فقال: اخرج وحدك؛ فقال: لا، إلا مع الناس. فقال لـه: أنت إذن متكل على أجربتهم. وقد أتينا على هذا في كتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال (بالكسب والصناعة)[٥]".

الرابعة: خرّج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها"[٦]. وخرج البزار عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته". أخرجه أبو بكر البرقاني مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ ـ من رواية عاصم ـ عن أبي عثمان النهدي عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ"[٧]. ففي هذه الأحاديث ما يدل على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان. وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر: كره دخولـها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدين تنزيهاً لـهم عن البقاع التي يُعصى الله فيها. فحق على من ابتلاه الله بالسوق أن يخطر ببالـه أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وإنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حالـه اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته.

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٩٠٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٧١)، وفي غير موضع.
(٣) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٢٥٤).
(٤) أخرجه البخاري (١٧٧٠).
(٥) في نسخة (بالكتب والشفاعة).
(٦) أخرجه مسلم (٦٧١).
(٧) ضعيف.

الخامسة : تشبيه النبي ﷺ السوق بالمعركة تشبيه حسن؛ وذلك أن المعركة موضع القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً. فشبه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاط الأصوات وغير ذلك بمعركة الحرب ومن يصرع فيها.

السادسة : قال ابن العربي: أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون: لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة؛ ومن الأحاديث الموضوعة "الأكل في السوق دناءة"[1].

قلت: ما ذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو؛ فإن ذلك خال عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن. وأما غيرهما من الأسواق، فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا. نعوذ بالله من سخطه.

السابعة : خرَّج أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا حماد بن زيد قال حدثنا عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير عن سالم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال: (من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له قصراً في الجنة) خرَّجه الترمذي أيضاً وزاد بعد (ومحا عنه ألف ألف سيئة): (ورفع له ألف ألف درجة وبنى له بيتا في الجنة)[2]. وقال: هذا حديث غريب. قال ابن العربي: وهذا إذا لم يقصد في تلك البقعة سواه ليعمرها بالطاعة إذ عمرت بالمعصية، وليحليها بالذكر إذ عطلت بالغفلة، وليعلم الجهلة ويذكر الناسين.

الثامنة : قوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ أي إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني. ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه؛ فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق؛ كما قال الضحاك في معنى "أتصبرون": أي على الحق. وأصحاب البلايا يقولون: لمَ لم نعاف؟ والأعمى يقول: لمَ لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة. والرسول المخصوص بكَرامة النبوة فتنة لأشراف الناس مَن الكفار في عصره. وكذلك العلماء وحكام العدل. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ (الزخرف: ٣١). فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى. والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر. "أتصبرون" محذوف الجواب، يعني أم لا

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٢٢٩٠).

(٢) "حسن" انظر صحيح الجامع (٦٢٣١).

تصبرون. فيقتضي جواباً كما قاله المزني، وقد أخرجته الفاقة فرأى خصياً في مراكب ومناكب، فخطر بباله شيء فسمع من يقرأ الآية: "أتصبرون" فقال: بلى ربنا! نصبر ونحتسب. وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، ثم أجاب نفسه بقوله: سنصبر. وعن أبي الدرداء أنه سمع النبي ﷺ أنه قال: "ويل للعالم من الجاهل وويل للجاهل من العالم وويل للمالك من المملوك وويل للمملوك من المالك وويل للشديد من الضعيف وويل للضعيف من الشديد وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وبعضهم لبعض فتنة"[1] وهو قوله: ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ أسنده الثعلبي تغمده الله برحمته. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط وعتبة بن ربيعة والنضر ابن الحارث حين رأوا أبا ذر وعبد الله بن مسعود، وعماراً وبلالاً وصهيباً وعامر بن فهيرة، وسالماً مولى أبي حذيفة ومهجعاً مولى عمر بن الخطاب وجبراً مولى الحضرمي، وذويهم؛ فقالوا على سبيل الاستهزاء: أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء المؤمنين: "أتصبرون" على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر؛ فالتوقيف بـ "أتصبرون" خاص للمؤمنين المحققين من أمة محمد ﷺ. كأنه جعل إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين، أي اختباراً لهم. ولما صبر المسلمون أنزل الله فيهم: ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ (المؤمنون: ١١١).

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وكان ربك بصيرا﴾ أي بكل امرئ وبمن يصبر أو يجزع، ومن يؤمن ومن لا يؤمن، وبمن أدى ما عليه من الحق ومن لا يؤدي. وقيل: "أتصبرون" أي اصبروا. مثل ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ (المائدة: ٩١) أي انتهوا؛ فهو أمر للنبي ﷺ بالصبر.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ يريد لا يخافون البعث ولقاء الله، أي لا يؤمنون بذلك. قال:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعتها وخالفها في بيت نوب عوامل

وقيل: "لا يرجون" لا يبالون. قال:

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

ابن شجرة: لا يأملون؛ قال:

أترجو أمة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب

﴿لولا أنزل﴾ أي هلا أنزل. ﴿علينا الملائكة﴾ فيخبروا أن محمداً صادق. ﴿أو نرى ربنا﴾ عياناً فيخبرنا برسالته. نظيره قوله تعالى: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ (الإسراء:

(١) ليس هذا حديثاً واحداً، وإنما هو بعض أحاديث ملفقة أسانيدها ضعيفه، انظر ضعيف الجامع (٦١٤٠، ٦١٤١، ٦١٤٢).

٩٠) إلى قولـه: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾ (الإسراء: ٩٢). قال الله تعالى: ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا﴾ حيث سألوا الله الشطط؛ لأن الملائكة لا ترى إلا عند الموت أو عند نزول العذاب، والله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، فلا عين تراه. وقال مقاتل: "عتوا" علواً في الأرض. والعتو: أشد الكفر وأفحش الظلم. وإذا لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين، ولا بد لـهم من معجزة يقيمها من يدَّعي أنه مَلَك، وليس للقوم طلب معجزة بعد أن شاهدوا معجزة، وأن ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحد إلا عند الموت: فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تخرج أنفسهم. ﴿ويقولون حجراً محجورا﴾ يريد تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل الجنة إلا من قال لا إلـه إلا الله، وأقام شرائعها؛ عن ابن عباس وغيره. وقيل: إن ذلك يوم القيامة؛ قاله مجاهد وعطية العوفي. قال عطية: إذا كان يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى: فإذا رأى ذلك الكافر تمناه فلم يره من الملائكة. وانتصب "يوم يرون" بتقدير لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة. "يومئذ" تأكيد لـ "يوم يرون". قال النحاس: لا يجوز أن يكون "يوم يرون" منصوباً بـ "بشرى" لأن ما في حيز النفي لا يعمل فيما قبلـه، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى يمنعون البشارة يوم يرون الملائكة؛ ودل على هذا الحذف ما بعده، ويجوز أن يكون التقدير: لا بشرى تكون يوم يرون الملائكة، و"يومئذ" مؤكد. ويجوز أن يكون المعنى: اذكر يوم يرون الملائكة: ثم ابتدأ فقال: "لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجورا" أي وتقول الملائكة حراماً محرماً أن تكون لـهم البشرى إلا للمؤمنين. قال الشاعر:

ألا أصبحت أسماء حجراً محرما وأصبـحت من أدنى حمّوتها حما

أراد ألا أصبحت أسماء حراماً محرماً. وقال آخر:

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لـها حجـر حـرام ألا تلك الدهاريـس

وروي عن الحسن أنه قال: "ويقولون حجرا" وقف من قول المجرمين؛ فقال الله عز وجل: "محجورا" عليهم أن يعاذوا أو يجاروا؛ فحجر الله ذلك عليهم يوم القيامة. والأول قول ابن عباس وبه قال الفراء؛ قالـه ابن الأنباري. وقرأ الحسن وأبو رجاء: "حجرا" بضم الحاء والناس على كسرها. وقيل: إن ذلك من قول الكفار قالوه لأنفسهم؛ قالـه قتادة فيما ذكر الماوردي. وقيل: هو من قول الكفار للملائكة. وهي كلمة استعاذة وكانت معروفة في الجاهلية؛ فكان إذا لقي الرجل من يخافه قال: حجراً محجوراً؛ أي حراماً عليك التعرض لي. وانتصابه على معنى: حجرت عليك، أو حجر الله عليك؛ كما تقول: سقياً ورعياً. أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكة يلقونهم في النار قالوا: نعوذ بالله منكم؛ ذكره القشيري، وحكى معناه المهدوي عن مجاهد. وقيل: "حجراً" من قول المجرمين. "محجورا" من قول الملائكة؛ أي قالوا للملائكة نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا. فتقول الملائكة: "محجورا" أن تعاذوا من شر هذا اليوم؛ قالـه الحسن.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ هذا تنبيه على عظم قدر يوم القيامة؛ أي قصدنا في ذلك إلى ما كان يعمله المجرمون من عمل بر عند أنفسهم. يقال: قدم فلان إلى أمر كذا أي قصده. وقال مجاهد: "قدمنا" أي عمدنا. وقال الراجز:

وقدم الخوارج الضلال إلى عباد ربهم فقالوا
إن دماءكم لنا حلال

وقيل: هو قدوم الملائكة، أخبر به عن نفسه تعالى فاعله. ﴿فجعلناه هباء منثورا﴾ أي لا ينتفع به؛ أي أبطلناه بالكفر. وليس "هباء" من ذوات الهمز وإنما همزت لالتقاء الساكنين. والتصغير هُبَيٌّ في موضع الرفع، ومن النحويين من يقول: هبيٌ في موضع الرفع؛ حكاه النحاس. وواحده هباة والجمع أهباء. قال الحارث بن حلزة يصف ناقة:

فترى خلفها من الرجع والوقـ ـع منيناً كأنه أهباء

وروى الحارث عن علي قال: الهباء المنثور شعاع الشمس الذي يدخل من الكوة. وقال الأزهري: الهباء ما يخرج من الكوة في ضوء الشمس شبيه بالغبار. تأويله: إن الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور. فأما الهباء المنبث فهو ما تثيره الخيل بسنابكها من الغبار. والمنبث المتفرق. وقال ابن عرفة: الهبوة والهباء التراب الدقيق. الجوهري: ويقال له إذا ارتفع هُبُوّاً وأهبيته أنا. والهبوة الغبرة. قال رؤبة.

تبدو لنا أعلامه بعد الغرق في قطع الآل وهبوات الدقق

وموضع هابي التراب أي كأن ترابه مثل الهباء في الرقة. وقيل: إنه ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس أيضاً: إنه الماء المهراق. وقيل: إنه الرماد؛ قاله عبيد بن يعلى.

قوله تعالى: ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا ﴾. تقدم القول فيه عند قوله تعالى: ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون ﴾ (الفرقان: ١٥). قال النحاس: والكوفيون يجيزون "العسل أحلى من الخل" وهذا قول مردود؛ لأن معنى فلان خير من فلان أنه أكثر خيراً منه ولا حلاوة في الخل. ولا يجوز أن يقال: النصراني خير من اليهودي؛ لأنه لا خير فيهما فيكون أحدهما أزيد في الخير. لكن يقال: اليهودي شر من النصراني؛ فعلى هذا كلام العرب. و"مستقرا" نصب على الظرف إذا قدر على غير باب "أفعل منك" والمعنى لهم خير في مستقر. وإذا كان من باب "أفعل منك" فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس والمهدوي. قال قتادة: "وأحسن مقيلا" منزلاً ومأوى. وقيل: هو على ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار. ومنه الحديث المرفوع: "إن الله تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار" ذكره

المهدوي. وقال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة من نهار الدنيا حتى يقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرأ: "ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم" كذا هي في قراءة ابن مسعود. وقال ابن عباس: الحساب من ذلك اليوم في أوله، فلا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. ومنه ما روي: (قيلوا فإن الشياطين لا تقيل)[١]. وذكر قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا)[٢].

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ أي واذكر يوم تشقق السماء بالغمام. وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وأبو عمرو: "تشقق" بتخفيف الشين وأصله تتشقق بتاءين فحذفوا الأولى تخفيفاً، واختاره أبو عبيد. الباقون "تشقق" بتشديد الشين على الإدغام، واختاره أبوحاتم. وكذلك في "ق". "بالغمام" أي عن الغمام. والباء وعن يتعاقبان؛ كما تقول: رميت بالقوس وعن القوس. روي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم فتنشق السماء عنه؛ وهو الذي قال تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ (البقرة: ٢١٠). ﴿ونزل الملائكة﴾ من السماوات، ويأتي الرب جل وعز في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء، على ما يجوز أن يحمل عليه إتيانه؛ لا على ما تحمل عليه صفات المخلوقين من الحركة والانتقال. وقال ابن عباس: تتشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجن والإنس، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعة، ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش؛ وهو معنى قوله: ﴿ ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ أي من السماء إلى الأرض لحساب الثقلين. وقيل: إن السماء تنشق بالغمام الذي بينها وبين الناس؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماء؛ فإذا انشقت السماء انتقض تركيبها وطويت ونزلت الملائكة إلى مكان سواها. وقرأ ابن كثير: "وننزل الملائكة" بالنصب من الإنزال. الباقون. "ونزل الملائكة" بالرفع. دليله "تنزيلا" ولو كان على الأول لقال إنزالا. وقد قيل: إن نزل وأنزل بمعنى؛ فجاء "تنزيلا" على "نزل" وقد قرأ عبد الوهاب عن أبي عمرو: "ونزل الملائكة تنزيلا". وقرأ ابن مسعود: "وأنزل الملائكة". أبي بن كعب: "ونُزِّلت الملائكة". وعنه "وتنزلت الملائكة".

قوله تعالى: ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ "الملك" مبتدأ و"الحق" صفة له و"للرحمن" الخبر؛ لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك؛ فبطلت يومئذ أملاك المالكين وانقطعت دعاويهم، وزال كل

---

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٤٤٣١).
(٢) ضعيف.

ملك وملكه. وبقي الملك الحق لله وحده. ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيرا﴾ أي لما ينالـهم من الأهوال ويلحقهم من الخزي والـهوان، وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة؛ على ما تقدم في الحديث. وهذه الآية دال عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيراً فهو على المؤمنين يسير. يقال: عسِر يعسَر، وعسُر يعسُر.

قولـه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ الماضي عضضت. وحكى الكسائي عضضت بفتح الضاد الأولى. وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهم ابن عباس وسعيد بن المسيب أن الظالم ههنا يراد به عقبة بن أبي معيط، وأن خليلـه أمية بن خلف؛ فعقبة قتلـه علي بن أبي طالب ﷺ؛ وذلك أنه كان في الأسارى يوم بدر فأمر النبي ﷺ بقتلـه؛ فقال: أأقتل دونهم؟ فقال: نعم، بكفرك وعتوّك. فقال: من للصبية؟ فقال: النار. فقام علي ﷺ فقتلـه[1]. وأمية قتلـه النبي ﷺ، فكان هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ؛ لأنه خبَّر عنهما بهذا فقتلا على الكفر. ولم يسميا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة، ليعلم أن هذا سبيل كل ظالم قبل من غيره في معصية الله عز وجل. قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: وكان عقبة قد همَّ بالإسلام فمنعه منه أبي بن خلف وكانا خدنين، وأن النبي ﷺ قتلـهما جميعاً: قتل عقبة يوم بدر صبراً، وأبي بن خلف في المبارزة يوم أحد؛ ذكره القشيري والثعلبي، والأول ذكره النحاس. وقال السهيلي: "ويوم يعض الظالم على يديه" هو عقبة بن أبي معيط، وكان صديقاً لأمية بن خلف الجمحي ويروى لأبي بن خلف أخ أمية، وكان قد صنع وليمة فدعا إليها قريشاً، ودعا رسول الله ﷺ فأبى أن يأتيه إلا أن يسلم. وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه من أشراف قريش أحد فأسلم ونطق بالشهادتين، فأتاه رسول الله ﷺ وأكل من طعامه، فعاتبه خليلـه أمية بن خلف، أو أُبي بن خلف وكان غائباً. فقال عقبة: رأيت عظيماً ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش. فقال لـه خليلـه: لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت. ففعل عدو الله ما أمره به خليلـه؛ فأنزل الله عز وجل: "ويوم يعض الظالم على يديه". قال الضحاك: لما بصق عقبة في وجه رسول الله ﷺ رجع بصاقه في وجهه وشوى وجهه وشفتيه، حتى أثر في وجهه وأحرق خديه، فلم يزل أثر ذلك في وجهه حتى قتل. وعضه يديه فعل النادم الحزين لأجل طاعته خليلـه. ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾ في الدنيا، يعني طريقاً إلى الجنة. ﴿يا ويلتا﴾ دعاء بالويل والثبور على محالفة الكافر ومتابعته. ﴿ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا﴾ يعني أمية، وكني عنه ولم يصرح باسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصاً به ولا مقصوراً، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلـهما. وقال مجاهد وأبو رجاء: الظالم عام

(١) "حسن" أخرجه أبوداود وغيره.

في كل ظالم، وفلان: الشيطان. واحتج لصاحب هذا القول بأن بعده "وكان الشيطان للإنسان خذولا". وقرأ الحسن: "يا ويلتي". والخليل: الصاحب والصديق. ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ أي يقول هذا النادم: لقد أضلني من اتخذته في الدنيا خليلا عن القرآن والإيمان به. وقيل: "عن الذكر" أي عن الرسول. ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ قيل: هذا من قول الله لا من قول الظالم. وتمام الكلام على هذا عند قوله: ﴿ بعد إذ جاءني ﴾. والخذل الترك من الإعانة؛ ومنه خذلان إبليس للمشركين لما ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك، فلما رأى الملائكة تبرأ منهم. وكل من صد عن سبيل الله وأطيع في معصية الله فهو شيطان للإنسان، خذولا عند نزول العذاب والبلاء.
ولقد أحسن من قال:

تجنب قرين السوء واصرم حباله ... فإن لم تجد عنه محيصا فداره
وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه ... تنل منه صفو الود ما لم تماره
وفي الشيب ما ينهى الحليم عن الصبا ... إذا اشتعلت نيرانه في عذاره

آخر:

اصحب خيار الناس حيث لقيتهم ... خير الصحابة من يكون عفيفا
والناس مثل دراهم ميزتها ... فوجدت منها فضة وزيوفا

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة"[1] لفظ مسلم. وأخرجه أبو داود من حديث أنس. وذكر أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله؛ أي جلسائنا خير؟ قال: "من ذكركم بالله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وذكركم بالآخرة عمله"[2]. وقال مالك بن دينار: إنك إن تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار. وأنشد:

وصاحب خيار الناس تنج مسلّما ... وصاحب شرار الناس يوماً فتندما

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الرسول يا رب ﴾ يريد محمداً ﷺ، يشكوهم إلى الله تعالى. ﴿إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ أي قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر؛ عن مجاهد والنخعي. وقيل: معنى "مهجورا" أي متروكاً؛ فعزاه الله تبارك وتعالى وسلاّه بقوله: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ أي كما جعلنا لك يا محمد عدواً من مشركي قومك ـ وهو أبو جهل في قول ابن عباس ـ فكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من مشركي قومه، فاصبر لأمري كما صبروا، فإني هاديك وناصرك

(١) أخرجه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨).
(٢) ضعيف.

على كل من ناوأك. وقد قيل: إن قول الرسول "يا رب" إنما يقوله يوم القيامة؛ أي هجروا القرآن وهجروني وكذبوني. وقال أنس: قال النبي ﷺ: "من تعلّم القرآن وعلّق مصحفه لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا اتخذني مهجوراً فاقض بيني وبينه"[1]. ذكره الثعلبي. ﴿وكفى بربك هادياً ونصيرا﴾ نصب على الحال أو التمييز، أي يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك. وقال ابن عباس: عدو النبي ﷺ أبو جهل لعنه الله.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما: أنهم كفار قريش؛ قاله ابن عباس. والثاني: انهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقاً قالوا: هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود. فقال الله تعالى: ﴿كذلك﴾ أي فعلنا ﴿لنثبت به فؤادك﴾ نقوي به قلبك فتعيه وتحمله؛ لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرأون، والقرآن أنزل على نبي أمي؛ ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبي ﷺ، وأيسر على العامل به؛ فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب.

قلت: فإن قيل: هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته؟. قيل: في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه، وقد بينا وجه الحكمة في ذلك. وقد قيل: إن قوله "كذلك" من كلام المشركين، أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أي كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على "كذلك" ثم يبتدئ "لنثبت به فؤادك". ويجوز أن يكون الوقف على قوله: "جملة واحدة" ثم يبتدئ "كذلك لنثبت به فؤادك" على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقاً لنثبت به فؤادك. قال ابن الأنباري: والوجه الأول أجود وأحسن، والقول الثاني قد جاء به التفسير، حدثنا محمد بن عثمان الشيبي قال حدثنا منجاب قال حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (القدر: ١) قال: أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء، فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل عليه السلام على محمد عشرين سنة. قال: فهو قوله ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ (الواقعة: ٧٥) يعني نجوم القرآن ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم ﴾ (الواقعة: ٧٦ ـ ٧٧). قال: فلما لم ينزل على النبي ﷺ جملة واحدة، قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة؛ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ يا محمد. ﴿ورتلناه ترتيلا﴾ يقول: ورسلناه ترسيلا؛ يقول: شيئاً بعد شيء.

---

(١) موضوع.

قولـه تعالى: ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت. قال النحاس: وكان ذلك من علامات النبوة، لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلا من نبي، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم، ويدل على هذا "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا" ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وعلم الله عز وجل أن الصلاح في إنزالـه متفرقاً، لأنهم ينبهون به مرة بعد مرة، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ، فكانوا يتعبدون بالشيء إلى وقت بعينه قد علم الله عز وجل فيه الصلاح، ثم ينزل النسخ بعد ذلك؛ فمحال أن ينزل جملة واحدة: افعلوا كذا ولا تفعلوا. قال النحاس: والأولى أن يكون التمام "جملة واحدة" لأنه إذا وقف على "كذلك" صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدم لـها ذكر. قال الضحاك: "وأحسن تفسيرا" أي تفصيلا. والمعنى: أحسن من مثلـهم تفصيلا؛ فحذف لعلم السامع. وقيل: كان المشركون يستمدون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف والتبديل، فكان ما يأتي به النبي ﷺ أحسن تفسيراً مما عندهم؛ لأنهم كانوا يخلطون الحق بالباطل، والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل، ولـهذا قال تعالى: ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ (البقرة: ٤٢). وقيل: "لا يأتونك بمثل" كقولـهم في صفة عيسى إنه خلق من غير أب ﴿إلا جئناك بالحق ﴾ أي بما فيه نقض حجتهم كآدم إذ خلق من غير أب وأم.

قولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴾ تقدم في "سبحان". ﴿أولئك شر مكانا﴾ لأنهم في جهنم. وقال مقاتل: قال الكفار لأصحاب محمد ﷺ هو شر الخلق. ﴿وأضل سبيلا﴾ أي ديناً وطريقاً. ونظم الآية: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق، وأنت منصور عليهم بالحجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم.

قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يريد التوراة. ﴿وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا﴾ تقدم في "طه". ﴿فقلنا اذهبا﴾ الخطاب لـهما. وقيل: إنما أمر موسى ﷺ بالذهاب وحده في المعنى. وهذا بمنزلة قولـه: ﴿ نسيا حوتهما ﴾ (الكهف: ٦١). وقولـه: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (الرحمن: ٢٢) وإنما يخرج من أحدهما. قال النحاس: وهذا مما لا ينبغي أن يجترأ به على كتاب الله تعالى، وقد قال جل وعز: ﴿ فقولا لـه قولا لينا لعلـه يتذكر أو يخشى. قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى. فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ﴾ (طه: ٤٤ ـ ٤٧). ونظير هذا: ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ (الرحمن: ٦٢). وقد قال جل ثناؤه: ﴿ ثم أرسلنا موسى

وأخاه هارون بآياتنا ﴾ (المؤمنون: ٤٥) قال القشيري: وقوله في موضع آخر: ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ (طه: ٢٤) لا ينافي هذا؛ لأنهما إذا كانا مأمورين فكل واحد مأمور. ويجوز أن يقال: أمر موسى أولاً، ثم لما قال: ﴿ واجعل لي وزيرا من أهلي ﴾ (طه: ٢٩) قال: ﴿ اذهبا إلى فرعون ﴾ (طه: ٤٣). ﴿إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ يريد فرعون وهامان والقبط. ﴿فدمرناهم تدميرا﴾ في الكلام إضمار؛ أي فكذبوهما ﴿فدمرناهم تدميرا﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً.

قولـه تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقوم نوح ﴾ في نصب "قوم" أربعة أقوال: العطف على الهاء والميم في "دمرناهم". الثاني: بمعنى اذكر. الثالث: بإضمار فعل يفسره ما بعده؛ والتقدير: وأغرقنا قوم نوح أغرقناهم. الرابع: إنه منصوب بـ "أغرقناهم" قالـه الفراء. ورده النحاس قال: لأن "أغرقنا" ليس مما يتعدى إلى مفعولين فيعمل في المضمر وفي "قوم نوح". ﴿لما كذبوا الرسل﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده؛ فنوح إنما بعث بلا إلـه إلا الله، وبالإيمان بما ينزل الله، فلما كذبوه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة. وقيل: إن من كذب رسولاً فقد كذب جميع الرسل؛ لأنهم لا يفرق بينهم في الإيمان، ولأنه ما من نبي إلا يصدق سائر أنبياء الله، فمن كذب منهم نبياً فقد كذب كل من صدقه من النبيين. ﴿أغرقناهم﴾ أي بالطوفان. ﴿وجعلناهم للناس آية﴾ أي علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿وأعتدنا للظالمين﴾ أي للمشركين من قوم نوح ﴿عذابا أليما﴾ أي في الآخرة. وقيل: أي هذه سبيلي في كل ظالم.

قولـه تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيرا ﴾ كلـه معطوف على "قوم نوح" إذا كان "قوم نوح" منصوباً على العطف، أو بمعنى اذكر. ويجوز أن يكون كلـه منصوباً على أنه معطوف على المضمر في "دمرناهم" أو على المضمر في "جعلناهم" وهو اختيار النحاس؛ لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار فعل؛ أي اذكر عاداً الذين كذبوا هوداً فأهلكهم الله بالريح العقيم، وثموداً كذبوا صالحاً فأهلكوا بالرجفة. ﴿وأصحاب الرس﴾ والرس في كلام العرب البئر التي تكون غير مطوية، والجمع رساس. قال:

تنابلة يحفرون الرساسا

يعني آبار المعادن. قال ابن عباس: سألت كعباً عن أصحاب الرس قال: صاحب "يس" الذي قال: ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ (يس: ٢٠) قتلـه قومه ورسُّوه في بئر لـهم يقال لـها الرس طرحوه فيها، وكذا قال مقاتل. السدي: هم أصحاب قصة "يس" أهل أنطاكية، والرس بئر بأنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار مؤمن آل "يس" فنسبوا إليها. وقال علي رضي الله عنه: هم قوم كانوا يعبدون شجرة

صنوبر فدعا عليهم نبيهم؛ وكان من ولد يهوذا، فيبست الشجرة فقتلوه ورسُّوه في بئر، فأظلتهم سحابة سوداء فأحرقتهم. وقال ابن عباس: هم قوم بأذربيجان قتلوا أنبياء فجفت أشجارهم وزروعهم فماتوا جوعاً وعطشاً. وقال وهب بن منبه: كانوا أهل بئر يقعدون عليها وأصحاب مواشي، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً فكذبوه وآذوه، وتمادوا على كفرهم وطغيانهم، فبينما هم حول البئر في منازلـهم انهارت بهم وبديارهم؛ فخسف الله بهم فهلكوا جميعاً. وقال قتادة: أصحاب الرس وأصحاب الأيكة أمتان أرسل الله إليهما شعيباً فكذبوه فعذبهما الله بعذابين. قال قتادة: والرس قرية بفلج اليمامة. وقال عكرمة: هم قوم رسُّوا نبيهم في بئر حياً. دليلـه ما روى محمد بن كعب القرظي عمن حدثه أن النبي ﷺ قال: "أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة عبد أسود وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى قومه فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود فحفر أهل القرية بئراً وألقوا فيها نبيهم حياً وأطبقوا عليه حجراً ضخماً وكان العبد الأسود يحتطب على ظهره ويبيعه ويأتيه بطعامه وشرابه فيعينه الله على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه فبينما هو يحتطب إذ نام فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ثم هب من نومه فتمطى واتكأ على شقه الآخر فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم هب فاحتمل حزمة الحطب فباعها وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر فلم يجده وكان قومه قد أراهم الله تعالى آية فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه ومات ذلك النبي". قال النبي ﷺ: "إن ذلك العبد الأسود لأول من يدخل الجنة"[1] وذكر هذا الخبر المهدوي والثعلبي، واللفظ للثعلبي، وقال: هؤلاء آمنوا بنبيهم فلا يجوز أن يكونوا أصحاب الرس؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرس أنه دمرهم، إلا أن يدمروا بأحداث أحدثوها بعد نبيهم. وقال الكلبي: أصحاب الرس قوم أرسل الله إليهم نبياً فأكلوه. وهم أول من عمل نساؤهم السَّحْق؛ ذكره الماوردي. وقيل: هم أصحاب الأخدود الذين حفروا الأخاديد وحرقوا فيها المؤمنين، وسيأتي. وقيل: هم بقايا من قوم ثمود، وأن الرس البئر المذكورة في "الحج" في قولـه: ﴿ وبئر معطلة ﴾ (الحج: ٤٥) على ما تقدم. وفي الصحاح: والرس اسم بئر كانت لبقية من ثمود. وقال جعفر بن محمد عن أبيه: أصحاب الرس قوم كانوا يستحسنون لنسائهم السَّحْق، وكان نساؤهم كلـهم سحاقات. وروي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: "إن من أشراط السـاعة أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء وذلك السحق"[2]. وقيل: الرس ماء ونخل لبني أسد. وقيل: الثلج المتراكم في الجبال؛ ذكره القشيري. وما ذكرناه أولاً هو المعروف، وهو كل حفر احتفر كالقبر والمعدن والبئر. قال أبو عبيدة: الرس كل ركية لم تطو؛ وجمعها رساس. قال الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم فيا ليتهم يحفرون الرساسا

والرسّ اسم واد في قول زهير:

بَكرن بكوراً واستحرن بسحرة فهـن لوادي الرس كاليد للفم

ورسست رسًّا: حفرت بئراً. ورُسَّ الميت أي قُبر. والرس: الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضاً وقد رسست بينهم؛ فهو من الأضداد. وقد قيل في أصحاب الرس غير ما ذكرنا، ذكره الثعلبي وغيره. ﴿وقرونا بين ذلك كثيرا﴾ أي أمما لا يعلمهم إلا الله بين قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس. وعن

---

(١) لا يصح، في إسناده مجاهيل.

(٢) ضعيف.

الربيع بن خيثم اشتكى فقيل لـه: ألا تتداوى فإن رسول الله ﷺ قد أمر به؟ قال: لقد هممت بذلك ثم فكرت فيما بيني وبين نفسي فإذا عاد وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً كانوا أكثر وأشد حرصاً على جمع المال، فكان فيهم أطباء، فلا الناعت منهم بقي ولا المنعوت؛ فأبى أن يتداوى فما مكث إلا خمسة أيام حتى مات، رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكلاً ضربنا لـه الأمثال ﴾ قال الزجاج. أي وأنذرنا كلاً ضربنا لـه الأمثال وبينا لـهم الحجة، ولم نضرب لـهم الأمثال الباطلة كما يفعلـه هؤلاء الكفرة. وقيل: انتصب على تقدير ذكرنا كلاً ونحوه؛ لأن ضرب الأمثال تذكير ووعظ؛ ذكره المهدوي. والمعنى واحد. ﴿وكلاً تبرنا تتبيرا﴾ أي أهلكنا بالعذاب. وتبرت الشيء كسرته. وقال المؤرج والأخفش: دمرناهم تدميراً. تبدل التاء والباء من الدال والميم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد أتوا على القرية ﴾ يعني مشركي مكة. والقرية قرية قوم لوط. و﴿مطر السوء﴾ الحجارة التي أمطروا بها. ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ أي في أسفارهم ليعتبروا. قال ابن عباس: كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كما قال الله تعالى: ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ﴾ (الصافات: ١٣٧) وقال: ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ (الحجر: ٧٩). ﴿بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ أي لا يصدقون بالبعث. ويجوز أن يكون معنى "يرجون" يخافون. ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه: بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ جواب "إذا" "إن يتخذونك" لأن معناه يتخذونك. وقيل: الجواب محذوف وهو قالوا أو يقولون: "أهذا الذي" وقوله: "إن يتخذونك إلا هزوا" كلام معترض. ونزلت في أبي جهل كان يقول للنبي ﷺ مستهزئاً: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ والعائد محذوف، أي بعثه الله. "رسولاً" نصب على الحال والتقدير: أهذا الذي بعثه الله مرسلاً. "أهذا" رفع بالابتداء و"الذي" خبره. "رسولاً" نصب على الحال. و"بعث" في صلة "الذي" واسم الله عز وجل رفع بـ "بعث". ويجوز أن يكون مصدراً؛ لأن معنى "بعث" أرسل ويكون معنى "رسولاً" رسالة على هذا. والألف للاستفهام على معنى التقرير والاحتقار. ﴿إن كاد

ليضلنا﴾ أي قالوا قد كاد أن يصرفنا. ﴿عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها﴾ أي حبسنا أنفسنا على عبادتها. قال الله تعالى: ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ يريد من أضل ديناً أهم أم محمد، وقد رأوه في يوم بدر.

قولـه تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أرأيت من اتخذ إلـهه هواه ﴾ عَجَّب نبيه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم، ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة. قال الكلبي وغيره: كانت العرب إذا هوي الرجل منهم شيئاً عبده من دون الله، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن؛ فعلى هذا يعني: أرأيت من اتخذ إلـهه بهواه؛ فحذف الجار. وقال ابن عباس: الـهوى إلـه يعبد من دون الله، ثم تلا هذه الآية. قال الشاعر:

لعمـــر أبـــيها لـــو تـــبدت لناســـك ... قــد اعــتزل الدنــيا بــإحدى المناســك
لصلـــى لـهـا قبـــل الصـــلاة لربه ... ولا ارتـد فـي الدنيـا بأعمـــال فاتك

وقيل: "اتخذ إلـهه هواه" أي أطاع هواه. وعن الحسن: لا يهوى شيئاً إلا اتبعه، والمعنى واحد. ﴿أفأنت تكون عليه وكيلا﴾ أي حفيظاً وكفيلاً حتى ترده إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد. أي ليست الـهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك، وإنما عليك التبليغ. وهذا رد على القدرية. ثم قيل: إنها منسوخة بآية القتال. وقيل: لم تنسخ؛ لأن الآية تسلية للنبي ﷺ.

قولـه تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ﴾ ولـم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن. وذمهم جل وعز بهذا. "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون" سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه؛ أي هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع. وقيل: المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا؛ والمراد أهل مكة. وقيل: "أم" بمعنى بل في مثل هذا الموضع. ﴿إن هم إلا كالأنعام﴾ أي في الأكل والشرب لا يفكرون في الآخرة. ﴿بل هم أضل سبيلا﴾ إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام. وقال مقاتل: البهائم تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلـها، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم. وقيل: لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك أيضاً.

قولـه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين، ويجوز أن تكون من العلم. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

وقيل: هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها. والأول أصح؛ والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة؛ فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علة، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوس الأحياء فيها. وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب. وقال أبو العالية: نهار الجنة هكذا؛ وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر. أبو عبيدة: الظل بالغداة والفيء بالعشي؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس؛ سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب. قال الشاعر، وهو حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن امرأة:

فلا الظل من برد الضحا تستطيعه ولا الفيء من برد العشي تذوق

وقال ابن السكيت: الظل ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل، وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل. ﴿ولو شاء لجعله ساكنا﴾ أي دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس. ابن عباس: يريد إلى يوم القيامة، وقيل: المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع. ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ أي جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل، ولولا النور ما عرفت الظلمة. فالدليل فعيل بمعنى الفاعل. وقيل: بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب. أي دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به؛ أي أتبعناها إياه. فالشمس دليل أي حجة وبرهان، وهو الذي يكشف المشكل ويوضحه. ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه في معنى الاسم؛ كما يقال: الشمس برهان والشمس حق. ﴿ثم قبضناه﴾ يريد ذلك الظل الممدود. ﴿إلينا قبضاً يسيرا﴾ أي يسيراً قبضه علينا. وكل أمر ربنا عليه يسير. فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً، وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظل، إنما ذلك بقية نور النهار. وقال قوم: قبضه بغروب الشمس؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية، وإنما يتم زواله بمجيء الليل ودخول الظلمة عليه. وقيل: إن هذا القبض وقع بالشمس؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً؛ قاله أبو مالك وإبراهيم التيمي. وقيل: "ثم قبضناه" أي قبضنا ضياء الشمس بالفيء "قبضا يسيرا". وقيل: "يسيراً" أي سريعاً، قاله الضحاك. قتادة: خفياً؛ أي إذا غابت الشمس قبض الظل قبضاً خفياً؛ كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة. فهذا معنى قول قتادة؛ وهو قول مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى : قولـه تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباسا ﴾ يعني ستراً للخلق يقوم مقام اللباس في ستر البدن. قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء ويغشاها.

الثانية : قال ابن العربي : ظن بعض الغفلة أن من صلّى عرياناً في الظلام أنه يجزئه ؛ لأن الليل لباس. وهذا يوجب أن يصلي في بيته عرياناً إذا أغلق عليه بابه. والستر في الصلاة عبادة تختص بها ليست لأجل نظر الناس. ولا حاجة إلى الإطناب في هذا.

الثالثة : قولـه تعالى : ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال. وأصل السبات من التمدد. يقال : سبتت المرأة شعرها أي نقضته وأرسلته. ورجل مسبوت أي ممدود الخلقة. وقيل : للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل : السبت القطع ؛ فالنوم انقطاع عن الاشتغال ؛ ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل : السبت الإقامة في المكان ؛ فكأن السبات سكون ما وثبوت عليه ؛ فالنوم سبات على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل : السبات نوم ثقيل ؛ أي جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة.

الرابعة : قولـه تعالى : ﴿ وجعل النهار نشورا ﴾ من الانتشار للمعاش ؛ أي النهار سبب الإحياء للانتشار. شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة. وكان ﷺ إذا أصبح قال : " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور "[1].

قولـه تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قولـه تعالى : ﴿ وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ تقدم في " الأعراف ".

قولـه تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ فيه خمس عشرة مسألة :

الأولى : قولـه تعالى : ﴿ ماء طهوراً ﴾ يتطهر به ؛ كما يقال : وضوء للماء الذي يتوضأ به. وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهوراً. فالطَّهور (بفتح الطاء) الاسمُ. وكذلك الوضوء والوقود. وبالضم المصدر، وهذا هو المعروف في اللغة ؛ قاله ابن الأنباري. فبين أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهر لغيره ؛ فإن الطهور بناء مبالغة في طاهر، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهراً مطهراً. وإلى هذا ذهب الجمهور. وقيل : إن " طهوراً " بمعنى طاهر ؛ وهو قول أبي حنيفة ؛ وتعلق بقولـه تعالى : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ (الإنسان : ٢١) يعني طاهراً. وبقول الشاعر :

خليلي هل في نظرة بعد توبة ... أداوي بها قلبي عليَّ فُجورُ
إلى رُجَّحِ الأكفالِ غيد من الظبا ... عِذاب الثنايا ريقهنّ طهورُ

فوصف الريق بأنه طهور وليس بمطهر. وتقول العرب : رجل نؤوم وليس ذلك بمعنى أنه منيم لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعل نفسه. ولقد أجاب علماؤنا عن هذا فقالوا : وصف شراب الجنة بأنه طهور يفيد التطهير عن أوضار الذنوب وعن خسائس الصفات كالغل والحسد، فإذا شربوا هذا الشراب

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٣١٢)، وفي غير موضع من صحيحه.

يطهرهم الله من رحض الذنوب وأوضار الاعتقادات الذميمة، فجاؤوا الله بقلب سليم، ودخلوا الجنة بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ (الزمر: ٧٣). ولما كان حكمه في الدنيا بزوال حكم الحدث بجريان الماء على الأعضاء كانت تلك حكمته في الآخرة. وأما قول الشاعر:

. . . ريقهن طهور

فإنه قصد بذلك المبالغة في وصف الريق بالطهورية لعذوبته وتعلقه بالقلوب، وطيبه في النفوس، وسكون غليل المحب برشفه حتى كأنه الماء الطهور، وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازاة الشعرية؛ فإن الشعراء يتجاوزون في الاستغراق حد الصدق إلى الكذب، ويسترسلون في القول حتى يخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية، وربما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون. ألا ترى إلى قول بعضهم:

ولو لم تلامس صفحة الأرض رجلها   لما كنت أدري علة للتيمم

وهذا كفر صراح، نعوذ بالله منه. قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا منتهى لباب كلام العلماء، وهو بالغ في فنه؛ إلا أني تأملت من طريق العربية فوجدت فيه مطلعاً مشرفاً، وهو أن بناء فعول للمبالغة، إلا أن المبالغة قد تكون في الفعل المتعدي كما قال الشاعر:

ضروب بنصل السيف سوق سمانها

وقد تكون في الفعل القاصر كما قال الشاعر:

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وإنما تؤخذ طهورية الماء لغيره من الحسن نظافة ومن الشرع طهارة؛ كقوله ﷺ: "لا يقبل الله صلاة بغير طهور"[1]. وأجمعت الأمة لغة وشريعة على أن وصف طهور يختص بالماء فلا يتعدى إلى سائر المائعات وهي طاهرة؛ فكان اقتصارهم بذلك على الماء أدل دليل على أن الطهور هو المطهر، وقد يأتي فعول لوجه آخر ليس من هذا كله وهو العبارة به عن الآلة للفعل لا عن الفعل كقولنا: وقود وسحور بفتح الفاء، فإنها عبارة عن الحطب والطعم المتسحر به؛ فوصف الماء بأنه طهور (بفتح الطاء) أيضاً يكون خبراً عن الآلة التي يتطهر بها. فإذا ضمت الفاء في الوقود والسحور والطهور عاد إلى الفعل وكان خبراً عنه. فثبت بهذا أن اسم الفعول (بفتح الفاء) يكون بناء للمبالغة ويكون خبراً عن الآلة، وهو الذي خطر ببال الحنفية، ولكن قصرت أشداقها عن لوكه، وبعد هذا يقف البيان عن المبالغة وعن الآلة على الدليل بقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾. وقوله ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا"[2] يحتمل المبالغة ويحتمل العبارة به عن الآلة؛ فلا حجة فيه لعلمائنا، لكن يبقى قوله: ﴿ ليطهركم به ﴾ (الأنفال: ١١) نص في أن فعله يتعدى إلى غيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤).

(٢) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

الثانية : المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها، والمخالط للماء على ثلاثة أضرب: ضرب يوافقه في صفتيه جميعاً، فإذا خالطه فغيره لم يسلبه وصفاً منهما لموافقته لـهما وهو التراب. والضرب الثاني يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة، فاذا خالطه فغيَّره سلبه ما خالفه فيه وهو التطهير؛ كماء الورد وسائر الطاهرات. والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعاً، فإذا خالطه فغيَّره سلبه الصفتين جميعاً لمخالفته لـه فيهما وهو النجس.

الثالثة : ذهب المصريون من أصحاب مالك إلى أن قليل الماء يفسده قليل النجاسة، وأن الكثير لا يفسده إلا ما غيَّر لونه أو طعمه أو ريحه من المحرمات. ولم يحدوا بين القليل والكثير حداً يوقف عنده، إلا أن ابن القاسم روى عن مالك في الجنب يغتسل في حوض من الحياض التي تسقى فيها الدواب، ولم يكن غسل ما به من الأذى أنه قد أفسد الماء؛ وهو مذهب ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ومن اتبعهم من المصريين. إلا ابن وهب فإنه يقول في الماء بقول المدنيين من أصحاب مالك. وقولـهم ما حكاه أبو مصعب عنهم وعنه: أن الماء لا تفسده النجاسة الحالَّة فيه قليلاً كان أو كثيراً إلا أن تظهر فيه النجاسة الحالة فيه وتغيِّر منه طعماً أو ريحاً أو لوناً. وذكر أحمد بن المعدل أن هذا قول مالك بن أنس في الماء. وإلى هذا ذهب إسماعيل بن إسحاق ومحمد بن بكير وأبو الفرج الأبهري وسائر المنتحلين لمذهب مالك من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعي والليث بن سعد والحسن بن صالح وداود بن علي. وهو مذهب أهل البصرة، وهو الصحيح في النظر وجيد الأثر. وقال أبو حنيفة: إذا وقعت نجاسة في الماء أفسدته كثيراً كان أو قليلاً إذا تحققت عموم النجاسة فيه. ووجه تحققها عنده أن تقع مثلاً نقطة بول في بركة، فإن كانت البركة يتحرك طرفاها بتحرك أحدهما فالكل نجس، وإن كانت حركة أحد الطرفين لا تحرك الآخر لم ينجس. وفي المجموعة نحو مذهب أبي حنيفة. وقال الشافعي بحديث القلتين، وهو حديث مطعون فيه؛ اختلف في إسناده ومتنه[1]؛ أخرجه أبو داود والترمذي وخاصة الدارقطني، فإنه صدَّر به كتابه وجمع طرقه. قال ابن العربي: وقد رام الدارقطني على إمامته أن يصحح حديث القلتين فلم يقدر. وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما ما ذهب إليه الشافعي من حديث القلتين فمذهب ضعيف من جهة النظر، غير ثابت في الأثر؛ لأنه قد تكلم فيه جماعة من أهل العلم بالنقل، ولأن القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغهما في أثر ثابت ولا إجماع، فلو كان ذلك حداً لازماً لوجب على العلماء البحث عنه ليقفوا على حدّ ما حدّه النبي ﷺ؛ لأنه من أصل دينهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيعوه، فلقد بحثوا عما هو أدون من ذلك وألطف.

قلت: وفيما ذكر ابن المنذر في القلتين من الخلاف يدل على عدم التوقيف فيهما والتحديد. وفي سنن الدارقطني عن حماد بن زيد عن عاصم بن المنذر قال: القلال الخوابي العظام. وعاصم هذا هو أحد رواة حديث القلتين. ويظهر من قول الدارقطني أنها مثل قلال هجر؛ لسياقه حديث الإسراء عن

---

(١) بل هو صحيح بلا ريب، وراجع كلام الشيخ الألباني عليه في «الإرواء» ، (٢٣) ورده على من طعن فيه، وهو أيضاً في صحيح الجامع (٤١٦).

أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لما رفعت إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة»[١]. وذكر الحديث. قال ابن العربي: وتعلق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدري في بئر بضاعة، رواه النسائي والترمذي وأبو داود وغيرهم. وهو أيضاً حديث ضعيف لا قدم لـه في الصحة فلا تعويل عليه. وقد فاوضت الطوسي الأكبر في هذه المسألة فقال: إن أخلص المذاهب في هذه المسألة مذهب مالك، فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه؛ إذ لا حديث في الباب يعول عليه، وإنما المعول على ظاهر القرآن وهو قولـه تعالى: ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾ وهو ما دام بصفاته، فإذا تغير عن شيء منها خرج عن الاسم لخروجه عن الصفة، ولذلك لما لم يجد البخاري إمام الحديث والفقه في الباب خبراً يعول عليه قال: (باب إذا تغير وصف الماء) وأدخل الحديث الصحيح: «ما من أحد يُكْلَمُ في سبيل الله والله أعلم بمن يُكْلَم في سبيلـه إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك»[٢]. فأخبر ﷺ أن الدم بحالـه وعليه رائحة المسك، ولم تخرجه الرائحة عن صفة الدموية. ولذلك قال علماؤنا: إذا تغير الماء بريح جيفة على طرفه وساحلـه لم يمنع ذلك الوضوء منه. ولو تغير بها وقد وضعت فيه لكان ذلك تنجيساً لـه للمخالطة والأولى مجاورة لا تعويل عليها.

قلت: وقد استدل به أيضاً على نقيض ذلك، وهو أن تغير الرائحة يخرجه عن أصلـه. ووجه هذا الاستدلال أن الدم لما استحالت رائحته إلى رائحة المسك خرج عن كونه مستخبثاً نجساً، وأنه صار مسكاً؛ وإن المسك بعض دم الغزال. فكذلك الماء إذا تغيرت رائحته. وإلى هذا التأويل ذهب الجمهور في الماء. وإلى الأول ذهب عبد الملك. قال أبو عمر: جعلوا الحكم للرائحة دون اللون، فكان الحكم لـها فاستدلوا عليها في زعمهم بهذا الحديث. وهذا لا يفهم منه معنى تسكن إليه النفس، ولا في الدم معنى الماء فيقاس عليه، ولا يشتغل بمثل هذا الفقهاء، وليس من شأن أهل العلم اللغز به وإشكالـه؛ وإنما شأنهم إيضاحه وبيانه، ولذلك أخذ الميثاق عليهم ليبيننه للناس ولا يكتمونه، والماء لا يخلو تغيره بنجاسة أو بغير نجاسة، فإن كان بنجاسة وتغير فقد أجمع العلماء على أنه غير طاهر ولا مطهر، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغير بغير نجاسة أنه طاهر على أصلـه. وقال الجمهور: إنه غير مطهر إلا أن يكون تغيره من تربة وحمأة. وما أجمعوا عليه فهو الحق الذي لا إشكال فيه، ولا التباس معه.

الرابعة: الماء المتغير بقراره كزرنيخ أو جير يجري عليه، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فاتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به، لعدم الاحتراز منه والانفكاك عنه؛ وقد روى ابن وهب عن مالك أن غيره أولى منه.

الخامسة: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: ويكره سؤر النصراني وسائر الكفار والمدمن الخمر، وما أكل الجيف؛ كالكلاب وغيرها. ومن توضأ بسؤرهم فلا شيء عليه حتى يستيقن النجاسة. قال البخاري: وتوضأ عمر رضي الله عنه من بيت نصرانية[٣]. ذكر سفيان بن عيينة قال: حدثونا عن زيد بن أسلم

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٧)، وفي غير موضع، ومسلم (١٨٧٦).

(٣) ذكره البخاري معلقاً في «الوضوء»، (باب: ٤٣) وقال الحافظ: وصله سعيد بن منصور وعبد الرزاق بإسناد صحيح.

عن أبيه قال: لما كنا بالشام أتيت عمر بن الخطاب بماء فتوضأ منه فقال: من أين جئت بهذا الماء؟ ما رأيت ماء عذباً ولا ماء سماء أطيب منه. قال قلت: جئت به من بيت هذه العجوز النصرانية؛ فلما توضأ أتاها فقال: (أيتها العجوز أسلمي تسلمي، بعث الله محمداً ﷺ بالحق. قال: فكشفت عن رأسها؛ فإذا مثل الثغامة، فقالت: عجوز كبيرة، وإنما أموت الآن! فقال عمر ﷺ: اللهم اشهد)[١]. خرَّجه الدارقطني، حدثنا الحسين بن إسماعيل قال حدثنا أحمد بن إبراهيم البوشنجي قال حدثنا سفيان.. فذكره. ورواه أيضاً عن الحسين بن إسماعيل قال حدثنا خلاد بن أسلم حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب ﷺ توضأ من بيت نصرانية أتاها فقال: أيتها العجوز أسلمي..؛ وذكر الحديث بمثل ما تقدم.

السادسة: فأما الكلب إذا ولغ في الماء فقال مالك: يغسل الإناء سبعاً ولا يتوضأ منه وهو طاهر. وقال الثوري: يتوضأ بذلك الماء ويتيمم معه. وهو قول عبد الملك بن عبد العزيز ومحمد بن مسلمة. وقال أبو حنيفة: الكلب نجس، ويغسل الإناء منه لأنه نجس. وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق. وقد كان مالك يفرق بين ما يجوز اتخاذه من الكلاب وبين ما لا يجوز اتخاذه منها في غسل الإناء من ولوغه. وتحصيل مذهبه أنه طاهر عنده لا ينجس ولوغه شيئاً ولغ فيه طعاماً ولا غيره؛ إلا أنه استحب هراقة ما ولغ فيه من الماء ليسارة مؤنته. وكلب البادية والحاضرة سواء. ويغسل الإناء منه على كل حال سبعاً تعبداً. هذا ما استقر عليه مذهبه عند المناظرين من أصحابه. ذكر ابن وهب قال: حدثنا عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الحياض التي تكون فيما بين مكة والمدينة، فقيل له: إن الكلاب والسباع ترد عليها. فقال: "لها ما أخذت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور" أخرجه الدارقطني[٢]. وهذا نص في طهارة الكلاب وطهارة ما تلغ فيه. وفي البخاري عن ابن عمر أن الكلاب كانت تقبل وتدبر في مسجد رسول الله ﷺ ولا يرشون شيئاً من ذلك. وقال عمر بحضرة الصحابة لصاحب الحوض الذي سأله عمرو بن العاص: هل ترد حوضك السباع. فقال عمر: يا صاحب الحوض، لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا[٣]. أخرجه مالك والدارقطني. ولم يفرق بين السباع، والكلب من جملتها، ولا حجة للمخالف في الأمر بإراقة ما ولغ فيه وأن ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقته لأن النفس تعافه لا لنجاسته؛ لأن التنزه من الأقذار مندوب إليه، أو تغليظاً عليهم لأنهم نهوا عن اقتنائها كما قال ابن عمر والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلظ عليهم في الماء لقلته عندهم في البادية، حتى يشتد عليهم فيمتنعوا من اقتنائها. وأما الأمر بغسل الإناء فعبادة لا لنجاسته كما ذكرناه بدليلين: أحدهما: أن الغسل قد دخله العدد. الثاني: أنه جعل للتراب فيه مدخل لقول ﷺ: "وعفروه الثامنة بالتراب"[٤]. ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب في مدخل كالبول. وقد جعل ﷺ الهر وما ولغ فيه طاهراً، والهر سبع لا خلاف في ذلك؛

(١) ضعيف.

(٢) ضعيف.

(٣) ضعيف لانقطاعه.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٨٠). وغيره.

لأنه يفترس ويأكل الميتة؛ فكذلك الكلب وما كان مثلـه من السباع؛ لأنه إذا جاء نص ذلك في أحدهما كان نصاً في الآخر. وهذا من أقوى أنواع القياس. هذا لو لم يكن هناك دليل؛ وقد ذكرنا النص على طهارته فسقط قول المخالف. والحمد لله.

السابعة : ما مات في الماء مما لا دم لـه فلا يضر الماء إن لم يغير ريحه؛ فإن أنتن لم يتوضأ به. وكذلك ما كان له دم سائل من دواب الماء كالحوت والضفدع لم يفسد ذلك الماء موته فيه؛ إلا أن تتغير رائحته، فإن تغيرت رائحته وأنتن لم يجز التطهر به ولا الوضوء منه، وليس بنجس عند مالك. وأما ما لـه نفس سائلة فمات في الماء ونزح مكانه ولم يغير لونه ولا طعمه ولا ريحه فهو طاهر مطهر سواء كان الماء قليلاً أو كثيراً عند المدنيين. واستحب بعضهم أن ينزح من ذلك الماء دلاء لتطيب النفس به، ولا يحدون في ذلك حداً لا يتعدى. ويكرهون استعمال ذلك الماء قبل نزح الدلاء، فإن استعملـه أحد في غسل أو وضوء جاز إذا كانت حالـه ما وصفنا. وقد كان بعض أصحاب مالك يرى لمن توضأ بهذا الماء وإن لم يتغير أن يتيمم، فيجمع بين الطهارتين احتياطاً، فإن لم يفعل وصلى بذلك الماء أجزأه. وروى الدارقطني عن محمد بن سيرين أن زنجياً وقع في زمزم ـ يعني فمات ـ فأمر به ابن عباس رضي الله عنه فأخرج فأمر بها أن تنزح. قال: فغلبتهم عين جاءتهم من الركن فأمر بها فدسمت بالقباطي والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها انفجرت عليهم. وأخرجه عن أبي الطفيل أن غلاماً وقع في بئر زمزم فنزحت. وهذا يحتمل أن يكون الماء تغيَّر، والله أعلم. وروى شعبة عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يقول: كل نفس سائلة لا يتوضأ منها، ولكن رخص في الخنفساء والعقرب والجراد والجدجد إذا وقعن في الركاء فلا بأس به. قال شعبة: وأظنه قد ذكر الوزغة. أخرجه الدارقطني، حدثنا الحسين بن إسماعيل قال حدثنا محمد بن الوليد قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة. . . ؛ فذكره.

الثامنة : ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الـهر من الماء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبي قتادة، أخرجه مالك وغيره. وقد روي عن أبي هريرة فيه خلاف. وروي عن عطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الـهر وغسل الإناء منه. واختلف في ذلك عن الحسن. ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه. قال الترمذي لما ذكر حديث مالك: (وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة، هذا حديث حسن صحيح، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم؛ مثل الشافعي وأحمد وإسحاق، لم يروا بسؤر الـهرة بأسا). وهذا أحسن شيء في الباب، وقد جود مالك هذا الحديث عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، ولم يأت به أحد أتم من مالك. قال الحافظ أبو عمر: الحجة عند التنازع والاختلاف سنة رسول الله ﷺ، وقد صح من حديث أبي قتادة أنه أصغى لـها الإناء حتى شربت. الحديث. وعليه اعتماد الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله؛ فإنه كان يكره سؤره. وقال: إن توضأ به أحد أجزأه، ولا أعلم حجة لمن كره الوضوء بسؤر الـهرة أحسن من أنه لم يبلغه حديث أبي قتادة، وبلغه حديث أبي هريرة في الكلب فقاس الـهر عليه، وقد فرقت السنة بينهما في باب التعبد في غسل الإناء، ومن حجته السنة خاصمته،

وما خالفها مطرح. وبالله التوفيق. ومن حجتهم أيضاً ما رواه قرة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "طهور الإناء إذا ولغ فيه الـهر أن يغسل مرة أو مرتين" شك قرة. وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد، وقرة ثقة ثبت.

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني، ومتنه: "طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والـهر مرة أو مرتين" (1). قرة شك. قال أبو بكر: كذا رواه أبو عاصم مرفوعاً، ورواه غيره عن قرة (ولوغ الكلب) مرفوعاً و(ولوغ الـهر) موقوفاً. وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يغسل الإناء من الـهر كما يغسل من الكلب" (2) قال الدارقطني: لا يثبت هذا مرفوعاً والمحفوظ من قول أبي هريرة واختلف عنه. وذكر معمر وابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الـهر مثل الكلب. وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور قال: اغسلـه سبع مرات. قاله الدارقطني.

التاسعة: الماء المستعمل طاهر إذا كانت أعضاء المتوضئ به طاهرة؛ إلا أن مالكاً وجماعة من الفقهاء الجلة كانوا يكرهون الوضوء به. وقال مالك: لا خير فيه، ولا أحب لأحد أن يتوضأ به، فإن فعل وصلَّى لم أر عليه إعادة الصلاة ويتوضأ لما يستقبل. وقال أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما: لا يجوز استعمالـه في رفع الحدث، ومن توضأ به أعاد؛ لأنه ليس بماء مطلق؛ ويتيمم واجده لأنه ليس بواجد ماء. وقال بقولـهم في ذلك أصبغ بن الفرج، وهو قول الأوزاعي. واحتجوا بحديث الصنابحي خرَّجه مالك وحديث عمرو بن عنبسة أخرجه مسلم، وغير ذلك من الآثار. وقالوا: الماء إذا توضئ به خرجت الخطايا معه؛ فوجب التنزه عنه لأنه ماء الذنوب. قال أبو عمر: وهذا عندي لا وجه لـه؛ لأن الذنوب لا تنجس الماء لأنها لا أشخاص لـها ولا أجسام تمازج الماء فتفسده، وإنما معنى قولـه: "خرجت الخطايا مع الماء" إعلام منه بأن الوضوء للصلاة عمل يكفر الله به السيئات عن عباده المؤمنين رحمة منه بهم وتفضلاً عليهم. وقال أبو ثور وداود مثل قول مالك، وأن الوضوء بالماء المستعمل جائز؛ لأنه ماء طاهر لا ينضاف إليه شيء وهو ماء مطلق. واحتجوا بإجماع الأمة على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضئ نجاسة. وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المروزي محمد بن نصر. وروي عن علي بن أبي طالب وابن عمر وأبي أمامة وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري والنخعي ومكحول والزهري أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه فوجد في لحيته بللاً: إنه يجزئه أن يمسح بذلك البلل رأسه؛ فهؤلاء كلـهم أجازوا الوضوء بالماء المستعمل. روى عبد السلام بن صالح حدثنا إسحاق بن سويد عن العلاء بن زياد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مَرْضيّ؛ (أن رسول الله ﷺ خرج عليهم ذات يوم وقد اغتسل وقد بقيت لمعة من جسده لم يصبها الماء، فقلنا: يا رسول الله، هذه لمعة لم يصبها الماء؛ فكان لـه شعر وارد، فقال بشعره هكذا على المكان فبلّـه) (3). أخرجه الدارقطني، وقال: عبد السلام بن صالح هذا بصري وليس بقوي وغيره من الثقات يرويه عن إسحاق عن العلاء مرسلاً، وهو الصواب.

---

(1) الصحيح وقفه على أبي هريرة، ووهم من رفعه، وإنما المرفوع في ولوغ الكلب.

(2) ضعيف مرفوعاً.

(3) ضعيف.

قلت: الراوي الثقة عن إسحاق بن سويد العدوي عن العلاء بن زياد العدوي أن رسول الله ﷺ اغتسل. . . ؛ الحديث فيما ذكره هشيم. قال ابن العربي: "مسألة الماء المستعمل إنما تنبني على أصل آخر، وهو أن الآلة إذا أدي بها فرض هل يؤدى بها فرض آخر أم لا؛ فمنع ذلك المخالف قياساً على الرقبة إذا أدى بها فرض عتق لم يصلح أن يتكرر في أداء فرض آخر؛ وهذا باطل من القول، فإن العتق إذا أتى على الرق أتلفه فلا يبقى محل لأداء الفرض بعتق آخر. ونظيره من الماء ما تلف على الأعضاء فإنه لا يصح أن يؤدى به فرض آخر لتلف عينه حساً كما تلف الرق في الرقبة بالعتق حكماً، وهذا نفيس فتأملوه".

العاشرة: لم يفرق مالك وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماء، راكداً كان الماء أو غير راكد؛ لقول رسول الله ﷺ: (الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب عليه فغيَّر طعمه أو لونه أو ريحه)[١]. وفرقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسة على الماء تنجس؛ واختاره ابن العربي. وقال: من أصول الشريعة في أحكام الماء أن ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماء على النجاسة؛ لقول النبي ﷺ: (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده)[٢]. فمنع من ورود اليد على الماء وأمر بإيراد الماء عليها، وهذا أصل بديع في الباب، ولولا وروده على النجاسة ـ قليلا كان أو كثيراً ـ لما طهرت. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في بول الأعرابي في المسجد: "صبوا عليه ذنوباً من ماء"[٣]. قال شيخنا أبو العباس: واستدلوا أيضاً بحديث القلتين، فقالوا: إذا كان الماء دون القلتين فحلّته نجاسة تنجس وإن لم تغيره، وإن ورد ذلك القَدْر فأقل على النجاسة فأذهب عينها بقي الماء على طهارته وأزال النجاسة. وهذه مناقضة، إذ المخالطة قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماء على النجاسة وورودها عليه فرق صوري ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب باب التعبدات بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامها. ثم هذا كله منهم يرده قوله عليه الصلاة والسلام: (الماء طهور لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه)[٤].

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني عن رشدين بن سعد أبي الحجاج عن معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة الباهلي وعن ثوبان عن النبي ﷺ، وليس فيه ذكر اللون. وقال: لم يرفعه غير رشدين بن سعد عن معاوية بن صالح وليس بالقوي، وأحسن منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير عن محمد بن كعب عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خديج عن أبي سعيد الخدري قال قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بضاعة؟ وهي بئر تلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن؛ فقال رسول الله ﷺ: (إن الماء طهور لا ينجسه شيء)[٥] أخرجه أبو داود والترمذي

---

(١) "ضعيف"، بنحوه في ضعيف الجامع (٥٨٩٩)، وليس فيه ذكر اللون.

(٢) أخرجه البخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨).

(٣) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

(٤) ضعيف، وقد تقدم.

(٥) "صحيح" انظر صحيح الجامع (١٩٢٩).

والدارقطني كلهم بهذا الإسناد. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وقد جوَّد أبو أسامة هذا الحديث ولم يرو أحد حديث أبي سعيد في بئر بضاعة أحسن مما روى أبو أسامة. فهذا الحديث نص في ورود النجاسة على الماء، وقد حكم ﷺ بطهارته وطهوره. قال أبو داود: سمعت قتيبة بن سعيد قال: سألت قيم بئر بضاعة عن عمقها؛ قلت: أكثر ما يكون الماء فيها؟ قال: إلى العانة. قلت: فإذا نقص؟ قال: دون العورة. قال أبو داود: وقدرت بئر بضاعة بردائي مددته عليها ثم ذرعته فإذا عرضها ستة أذرع، وسألت الذي فتح لي باب البستان فأدخلني إليه: هل غُيِّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال: لا. ورأيت فيها ماء متغير اللون. فكان هذا دليلاً لنا على ما ذكرناه، غير أن ابن العربي قال: إنها في وسط السبخة، فماؤها متغيراً من قرارها؛ والله أعلم.

الحادية عشرة: الماء الطاهر المطهر الذي يجوز به الوضوء وغسل النجاسات هو الماء القراح الصافي من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار، وما عرفه الناس ماء مطلقاً غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله عز وجل صافياً ولا يضره لون أرضه على ما بيناه. وخالف في هذه الجملة أبوحنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ في السفر، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر. فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به. إلا أن أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسة به جاز. وكذلك عنده النار والشمس؛ حتى أن جلد الميتة إذا جف في الشمس طهر من غير دباغ. وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع، بحيث تجوز الصلاة عليه، ولكن لا يجوز التيمم بذلك التراب. قال ابن العربي: لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وامتن بإنزاله من السماء ليطهرنا به دل على اختصاصه بذلك؛ وكذلك قال عليه الصلاة والسلام لأسماء بنت الصديق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب: "حتِّيه ثم اقرضيه ثم اغسليه بالماء"[(١)]. فلذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما في ذلك من إبطال الامتنان، وليست النجاسة معنى محسوساً حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض، وإنما النجاسة حكم شرعي عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره؛ إذ ليس في معناه، ولأنه لو لحق به لأسقطه، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل في إسقاطه سقط في نفسه. وقد كان تاج السنة ذو العز بن المرتضى الدبوسي يسميه فرخ زنى.

قلت: وأما ما استدل به على استعمال النبيذ فأحاديث واهية، ضعاف لا يقوم شيء منها على ساق؛ ذكرها الدارقطني وضعفها ونص عليها. وكذلك ضعف ما روي عن ابن عباس موقوفاً "النبيذ وضوء لمن لم يجد الماء"[(٢)]. في طريقه ابن محرز متروك الحديث. وكذلك ما روي عن علي أنه قال: لا بأس بالوضوء بالنبيذ. الحجاج وأبو ليلى ضعيفان. وضعف حديث ابن مسعود وقال: تفرد به ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث. وذكر عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحد منكم ليلة أتاه داعي الجن؟ فقال: لا.

---

(١) أصله في البخاري (٢٢٧)، ومسلم (٢٩١).
(٢) ضعيف.

قلت: هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة رواته. وأخرج الترمذي حديث ابن مسعود قال: سألني النبي ﷺ: (ما في إداوتك) فقلت: نبيذ. فقال: (ثمرة طيبة وماء طهور) قال: فتوضأ منه[١]. قال أبو عيسى: وإنما روي هذا الحديث، عن أبي زيد عن عبد الله عن النبي ﷺ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا نعرف لـه رواية غير هذا الحديث، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ، منهم سفيان وغيره، وقال بعض أهل العلم: لا يتوضأ بالنبيذ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق، وقال إسحاق: إن ابتلي رجل بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيمم أحب إلي. قال أبو عيسى: وقول من يقول لا يتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا ﴾(المائدة: ٦). وهذه المسألة مطولة في كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسك بلفظ الماء حسبما تقدم في "المائدة" بيانه والله أعلم.

الثانية عشرة: لما قال الله تعالى: ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾ وقال: ﴿ ليطهركم به ﴾ (الأنفال: ١١) توقف جماعة في ماء البحر؛ لأنه ليس بمنزّل من السماء؛ حتى رووا عن عبد الله بن عمر وابن عمرو معاً أنه لا يتوضأ به؛ لأنه نار ولأنه طبق جهنم. ولكن النبي ﷺ بيَّن حكمه حين قال لن سأله: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته"[٢] أخرجه مالك. وقال فيه أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وهو قول أكثر الفقهاء من أصحاب النبي ﷺ، منهم أبو بكر وعمر وابن عباس، لم يروا بأساً بماء البحر، وقد كره بعض أصحاب النبي ﷺ الوضوء بماء البحر؛ منهم ابن عمر وعبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بن عمرو: هو نار. قال أبو عمر؛ وقد سئل أبو عيسى الترمذي عن حديث مالك هذا عن صفوان بن سليم فقال: هو عندي حديث صحيح. قال أبو عيسى فقلت للبخاري: هشيم يقول فيه أبي ابن برزة. فقال: وَهم فيه، إنما هو المغيرة بن أبي بردة. قال أبو عمر: لا أدري ما هذا من البخاري رحمه الله، ولو كان صَحيحاً لأخرجه في مصنفه الصحيح عنده، ولم يفعل لأنه لا يعول في الصحيح إلا على الإسناد. وهذا الحديث لا يحتج أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندي صحيح لأن العلماء تلقوه بالقبول لـه والعمل به، ولا يخالف في جملته أحد من الفقهاء، وإنما الخلاف بينهم في بعض معانيه. وقد أجمع جمهور من العلماء وجماعة أئمة الفتوى بالأمصار من الفقهاء: أن البحر طهور ماؤه، وأن الوضوء به جائز؛ إلا ما روي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص أنهما كرها الوضوء بماء البحر، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك ولا عرج عليه، ولا التفت إليه لحديث هذا الباب. وهذا يدلك على اشتهار الحديث عندهم، وعملهم به وقبولـهم لـه، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة لمعنى ترده الأصول. وبالله التوفيق.

قال أبو عمر: وصفوان بن سليم مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، من عباد أهل المدينة وأتقاهم لله، ناسكاً، كثير الصدقة بما وجد من قليل وكثير، كثير العمل، خائفاً لله، يكنى أبا عبد الله، سكن المدينة لم ينتقل عنها، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين ومائة. ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال:

---

(١) ضعيف.

(٢) صحيح، وقد سبق.

سمعت أبي يسأل عن صفوان بن سليم فقال: ثقة من خيار عباد الله وفضلاء المسلمين. وأما سعيد بن سلمة. فلم يرو عنه فيما علمت إلا صفوان - والله أعلم - ومن كانت هذه حاله فهو مجهول لا تقوم به حجة عند جميعهم. وأما المغيرة بن أبي بردة فقيل عنه إنه غير معروف في حملة العلم كسعيد بن سلمة. وقيل: ليس بمجهول. قال أبو عمر: المغيرة بن أبي بردة وجدت ذكره في مغازي موسى بن نصير بالمغرب، وكان موسى يستعمله على الخيل، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحات في البر والبحر. وروى الدارقطني من غير طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من لم يطهره ماء البحر فلا طهره الله)[1]. قال: إسناده حسن.

الثالثة عشرة: قال ابن العربي: توهم قوم أن الماء إذا فضلت للجنب منه فضلة لا يتوضأ به، وهو مذهب باطل، فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت: أجنبت أنا ورسول الله ﷺ واغتسلت من جفنة وفضلت فضلة، فجاء رسول الله ﷺ ليغتسل منه فقلت: إني قد اغتسلت منه. فقال: (إن الماء ليس عليه نجاسة - أو - إن الماء لا يجنب)[2]. قال أبو عمر: وردت آثار في هذا الباب مرفوعة في النهي عن أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة. وزاد بعضهم في بعضها: ولكن ليغترفا جميعاً. فقالت طائفة: لا يجوز أن يغترف الرجل مع المرأة في إناء واحد؛ لأن كل واحد منهما متوضئ بفضل صاحبه. وقال آخرون: إنما كره من ذلك أن تنفرد المرأة بالإناء ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها. وكل واحد منهم روى بما ذهب إليه أثراً. والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعة فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة وتتوضأ المرأة من فضله، انفردت المرأة بالإناء أو لم تنفرد. وفي مثل هذا آثار كثيرة صحاح. والذي نذهب إليه أن الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهر فيه من النجاسات أو غلب عليه منها؛ فلا وجه للاشتغال بما لا يصح من الآثار والأقوال. والله المستعان.

روى الترمذي عن ابن عباس قال: حدثتني ميمونة قالت: كنت اغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد من الجنابة[3]. قال هذا حديث حسن صحيح. وروى البخاري عن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ من إناء واحد يقال له الفرق[4]. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يغتسل بفضل ميمونة[5]. وروى الترمذي عن ابن عباس قال: اغتسل بعض أزواج النبي ﷺ، في جفنة فأراد رسول الله ﷺ أن يتوضأ منه فقالت: يا رسول الله، إني كنت جنباً. قال: "إن الماء لا يجنب"[6]. قال: هذا حديث حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوري ومالك والشافعي. وروى الدارقطني عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أتوضأ أنا والنبي ﷺ من إناء واحد وقد أصابت الهرة منه قبل ذلك[7]. قال: هذا حديث حسن صحيح. وروي أيضاً عن رجل من بني غفار

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٥٨٤٣).
(٢) "صحيح"، انظر صحيح الجامع (١٩٢٧).
(٣) صحيح.
(٤) أخرجه البخاري (٢٥٠)، وفي غير موضع، ومسلم (٣١٩).
(٥) أخرجه مسلم (٣٢٣).
(٦) صحيح، وقد تقدم.
(٧) أخرجه الدارقطني (١/ ٦٩)، وفي سنده حارثة بن محمود، قال النسائي: متروك.

قال: (نهى رسول الله ﷺ عن فضل طهور المرأة). وفي الباب عن عبد الله بن سرجس، وكره بعض الفقهاء فضل طهور المرأة، وهو قول أحمد وإسحاق.

الرابعة عشرة: روى الدارقطني عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن عمر بن الخطاب كان يسخن لـه الماء في قمقمة ويغتسل به. قال: وهذا إسناد صحيح. وروي عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وقد سخنت ماء في الشمس. فقال: "لا تفعلي يا حميراء فإنه يورث البرص"[(١)]. رواه خالد بن إسماعيل المخزومي، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وهو متروك. ورواه عمرو بن محمد الأعشم عن فليح عن الزهري عن عروة عن عائشة. وهو منكر الحديث، ولم يروه غيره عن فليح، ولا يصح عن الزهري؛ قالـه الدارقطني.

الخامسة عشرة: كل إناء طاهر فجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة؛ لنهي رسول الله ﷺ عن اتخاذهما[(٢)]. وذلك ـ والله أعلم ـ للتشبه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما. ومن توضأ فيهما أجزأه وضوؤه وكان عاصياً باستعمالـهما. وقد قيل: لا يجزئ الوضوء في أحدهما. والأول أكثر؛ قاله أبو عمر. وكل جلد ذكي فجائز استعمالـه للوضوء وغير ذلك. وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ؛ على اختلاف من قولـه. وقد تقدم في "النحل".

قوله تعالى: ﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿لنحيي به ﴾أي بالمطر. ﴿بلدة ميتا ﴾بالجدوبة والمحل وعدم النبات. قال كعب: المطر روح الأرض يحييها الله به. وقال: "ميتا" ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد؛ قالـه الزجاج. وقيل: أراد بالبلد المكان. ﴿ونسقيه ﴾ قراءة العامة بضم النون. وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما "نسقيه" (بفتح) النون. ﴿مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيرا ﴾ أي بشراً كثيراً وأناسي واحده إنسي نحو جمع القرقور قراقير وقراقر في قول الأخفش والمبرد وأحد قولي الفراء؛ ولـه قول آخر وهو أن يكون واحده إنساناً ثم تبدل من النون ياء؛ فتقول: أناسي، والأصل أناسين، مثل سرحان وسراحين، وبستان وبساتين؛ فجعلوا الياء عوضاً من النون، وعلى هذا يجوز سراحي وبساتي، لا فرق بينهما. قال الفراء: ويجوز "أناسي" بتخفيف الياء التي فيما بين لام الفعل وعينه؛ مثل قراقير وقراقر. وقال "كثيراً" ولم يقل كثيرين؛ لأن فعيلاً قد يراد به الكثرة؛ نحو ﴿وحسن أولئك رفيقا ﴾(النساء: ٦٩).

قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ولقد صرفناه بينهم ﴾يعني القرآن، وقد جرى ذكره في أول السورة قولـه تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان ﴾(الفرقان: ١). وقولـه: ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ﴾ (الفرقان: ٢٩) وقولـه: ﴿اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾(الفرقان: ٣٠). ﴿ليذكروا فأبى أكثر الناس

(١) "موضوع" أخرجه الدارقطني (١/ ٣٨)، وانظر كلام المصنف عليه عقبه.
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٣٣)، ومسلم (٢٠٦٧).

إلا كفورا﴾ أي جحودا لـه وتكذيباً به. وقيل: "ولقد صرفناه بينهم" هو المطر. روي عن ابن عباس وابن مسعود: وأنه ليس عام بأكثر مطراً من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء، فما زيد لبعض نقص من غيرهم. فهذا معنى التصريف. وقيل: "صرفناه بينهم" وابلاً وطشاً وطلاً ورهاماً ـ الجوهري: الرهام الأمطار اللينة ـ ورذاذا. وقيل: تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه. "ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا" قال عكرمة: هو قولـهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا. قال النحاس: ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر ها هنا قولـهم مطرنا بنوء كذا وكذا؛ وأن نظيره فعل النجم كذا، وأن كل من نسب إليه فعلاً فهو كافر. وروى الربيع بن صبيح قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ذات ليلة، فلما أصبح قال النبي ﷺ: (أصبح الناس فيها رجلين شاكر وكافر فأما الشاكر فيحمد الله تعالى على سقياه وغياثه وأما الكافر فيقول مطرنا بنوء كذا وكذا)[١]. وهذا متفق على صحته بمعناه وسيأتي في الواقعة إن شاء الله. وروي من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي صرف الله ذلك إلى غيرهم فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار)[٢]. وقيل: التصريف راجع إلى الريح، وقد مضى في "البقرة" بيانه. وقرأ حمزة والكسائي: "ليذكروا" مخففة الذال من الذكر. الباقون مثقلاً من التذكر؟ أي ليذكروا نعم الله ويعلموا أن من أنعم بها لا يجوز الإشراك به؛ فالتذكر قريب من الذكر غير أن التذكر يطلق فيما بعد عن القلب فيحتاج إلى تكلف في التذكر.

قولـه تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا ﴾ أي رسولاً ينذرهم كما قسمنا المطر ليخف عليك أعباء النبوة، ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيراً للكل لترتفع درجتك فاشكر نعمة الله عليك. ﴿ فلا تطع الكافرين﴾ أي فيما يدعونك إليه من اتباع آلـهتهم. ﴿ وجاهدهم به﴾ قال ابن عباس بالقرآن. ابن زيد: بالإسلام. وقيل: بالسيف؛ وهذا فيه بعد؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال. ﴿ جهادا كبيرا﴾ لا يخالطه فتور.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وهو الذي مرج البحرين ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم. و(مرج) خَلَّى وخلط وأرسل. قال مجاهد: أرسلـهما وأفاض أحدهما في الآخر. قال ابن عرفة: "مرج البحرين" أي

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٧١).
(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢١) موقوفاً على ابن عباس وابن مسعود.

خلطهما فهما يلتقيان؛ يقال: مرجته إذا خلطته. ومرج الدين والأمر اختلط واضطرب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿في أمر مريج﴾ (ق: ٥). ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو بن العاص: "إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا" وشبك بين أصابعه فقلت له: كيف أصنع عند ذلك، جعلني الله فداك! قال: "الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ بما تعرف ودع ما تنكر وعليك بخاصة أمر نفسك ودع عنك أمر العامة"[1] خرَّجه النسائي وأبو داود وغيرهما. وقال الأزهري: "مرج البحرين" خلى بينهما؛ يقال مرجت الدابة إذا خليتها ترعى. وقال ثعلب: المرج: الإجراء؛ فقوله: ﴿مرج البحرين﴾ أي أجراهما. وقال الأخفش: يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل. ﴿هذا عذب فرات﴾ أي حلو شديد العذوبة. ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي فيه ملوحة ومرارة. وروي عن طلحة أنه قرئ: "وهذا ملح" بفتح الميم وكسر اللام. ﴿وجعل بينهما برزخا﴾ أي حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه؛ كما قال في سورة الرحمن ﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان﴾ (الرحمن: ١٩ ـ ٢٠). ﴿وحجرا محجورا﴾ أي ستراً مستورا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر. فالبرزخ الحاجز، والحجر المانع. وقال الحسن: يعني بحر فارس وبحر الروم. وقال ابن عباس وابن جبير: يعني بحر السماء وبحر الأرض. قال ابن عباس: يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه. "وحجراً محجوراً" حراماً محرماً أن يعذب هذا الملح بالعذب، أو يصلح هذا العذب بالملح.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا﴾ أي خلق من النطفة إنساناً. ﴿فجعله﴾ أي جعل الإنسان ﴿نسباً وصهرا﴾. وقيل: "من الماء" إشارة إلى أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من الماء. وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في، إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فجعله نسباً وصهراً﴾ النسب والصهر معنيان يعمان كل قربى تكون بين آدميين. قال ابن العربي: النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع؛ فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً ولم يكن نسباً محققاً، ولذلك لم يدخل تحت قوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم﴾ (النساء: ٢٣) بنته من الزنى؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلمائنا وأصح القولين في الدين؛ وإذا لم يكن نسب شرعاً فلا صهر شرعاً فلا يحرم الزنى بنت أم ولا أم بنت، وما يحرم من الحلال لا يحرم من الحرام؛ لأن الله امتن بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما، وعلق الأحكام في الحل والحرمة عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما.

قلت: اختلف الفقهاء في نكاح الرجل ابنته من زنى أو أخته أو بنت ابنه من زنى؛ فحرم ذلك قوم منهم ابن القاسم، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، وأجاز ذلك آخرون منهم عبد الملك بن الماجشون،

---

[1] "صحيح" انظر صحيح الجامع (٤٥٩٤).

وهو قول الشافعي، وقد مضى هذا في «النساء» مجوداً. قال الفراء: النسب الذي لا يحل نكاحه، والصهر الذي يحل نكاحه. وقاله الزجاج، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه. واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه، فسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها. وقيل: الصهر قرابة النكاح؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء. والأصهار يقع عاماً لذلك كله؛ قاله الأصمعي. وقال ابن الأعرابي: الأختان أبو المرأة وأخوهما وعمها ـ كما قال الأصمعي ـ والصهر زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه. وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني: أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته، وكل ذات محرم منه، وأصهاره كل ذي رحم محرم من زوجته. قال النحاس: الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار ما قال الأصمعي، وأن يكون من قبلهما جميعاً. يقال: صهرت الشيء أي خلطته؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه. والأولى في الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين: إحداهما الحديث المرفوع، روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك»[1]. فهذا على أن زوج البنت ختَن. والجهة الأخرى أن اشتقاق الختن من ختنه إذا قطعه؛ وكأن الزوج قد انقطع عن أهله، وقطع زوجته عن أهلها. وقال الضحاك: الصهر قرابة الرضاع. قال ابن عطية: وذلك عندي وهم أوجبه أن ابن عباس قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر خمس. وفي رواية أخرى من الصهر سبع؛ يريد قوله عز وجل: ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ (النساء: ٢٣) فهذا هو النسب. ثم يريد بالصهر قوله تعالى: ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾ إلى قوله: ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين﴾. ثم ذكر المحصنات. ومحمل هذا أن ابن عباس أراد حرم من الصهر ما ذكر معه، فقد أشار بما ذكر إلى عظمه وهو الصهر، لا أن الرضاع صهر، وإنما الرضاع عديل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه. ومن روى: وحرم من الصهر خمس أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات؛ وهن ذوات الأزواج.

قلت: فابن عطية جعل الرضاع مع ما تقدم نسباً، وهو قول الزجاج. قال أبو إسحاق: النسب الذي ليس بصهر من قوله جل ثناؤه: ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم﴾ (النساء: ٢٣) إلى قوله ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين﴾ (النساء: ٢٣) والصهر من له التزويج. قال ابن عطية: وحكى الزهراوي قولاً أن النسب من جهة البنين والصهر من جهة البنات.

قلت: وذكر هذا القول النحاس، وقال: لأن المصاهرة من جهتين تكون. وقال ابن سيرين: نزلت هذه الآية في النبي ﷺ وعلي رضي الله عنه؛ لأنه جمعه معه نسب وصهر. قال ابن عطية: فاجتماعهما وكادة حرمة إلى يوم القيامة. ﴿ وكان ربك قديرا﴾ على خلق ما يريده.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين بلفظ: «أنت مني وأنا منك».

قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ﴾لما عدد النعم وبيّن كمال قدرته عجب من المشركين في إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر ؛ أي إن الله هو الذي خلق ما ذكره، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتاً جمادات لا تنفع ولا تضر. ﴿وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾ روي عن ابن عباس "الكافر" هنا أبو جهل لعنه الله ؛ وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه. وقال عكرمة: "الكافر" إبليس، ظهر على عداوة ربه. وقال مطرف: "الكافر" هنا الشيطان. وقال الحسن: "ظهيراً" أي معيناً للشيطان على المعاصي. وقيل: المعنى ؛ وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً لا قدر له ولا وزن عنده ؛ من قول العرب: ظهرت به أي جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه. ومنه قوله تعالى: ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريا ﴾(هود: ٩٢) أي هيناً. ومنه قول الفرزدق:

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيا علي جوابها

هذا معنى قول أبي عبيدة. وظهير بمعنى مظهور. أي كفر الكافرين هين على الله تعالى، والله مستهين به لأن كفره لا يضره. وقيل: وكان الكافر على ربه الذي يعبده وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء ؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضر ونفع.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا ﴾يريد بالجنة مبشراً ونذيراً من النار ؛ وما أرسلناك وكيلاً ولا مسيطراً. ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحي. و"من" للتأكيد. ﴿إلا من شاء﴾لكن من شاء ؛ فهو استثناء منقطع، والمعنى: لكن من شاء ﴿أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾بإنفاقه من ماله في سبيل الله فلينفق. ويجوز أن يكون متصلاً ويقدر حذف المضاف ؛ التقدير: إلا أجر "من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا" باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾تقدم معنى التوكل في "آل عمران" وهذه السورة وأنه اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور، وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها. ﴿وسبح بحمده﴾أي نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار به من الشركاء. والتسبيح التنزيه، وقد تقدم. وقيل: "وسبح" أي: صلِّ له ؛ وتسمى الصلاة تسبيحاً. ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ أي عليماً فيجازيهم بها.

قولـه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن ﴾ تقدم في الأعراف. و"الذي" في موضع خفض نعتاً للحي. وقال: "بينهما" ولم يقل بينهن؛ لأنه أراد الصنفين والنوعين والشيئين؛ كقول القطامي:

ألم يحزنك أن حبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا

أراد وحبال تغلب فثنى، والحبال جمع؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين. ﴿ الرحمن فاسأل به خبيرا﴾ قال الزجاج: المعنى فاسأل عنه. وقد حكى هذا جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى عن؛ كما قال تعالى: ﴿ سأل سائل بعذاب واقع﴾ (المعارج: ١) وقال الشاعر:

هلا سألت الخيل يا بنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

وقال علقمة بن عبدة:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بأدواء النساء طبيب

أي عن النساء وعما لم تعلمي. وأنكره علي بن سليمان وقال: أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن؛ لأن في هذا إفساداً لمعاني قول العرب: لو لقيت فلاناً للقيك به الأسد؛ أي للقيك بلقائك إياه الأسد. المعنى فاسأل بسؤالك إياه خبيراً. وكذلك قال ابن جبير: الخبير هو الله تعالى. فـ "خبيراً" نصب على المفعول به بالسؤال.

قلت: قول الزجاج يخرج على وجه حسن، وهو أن يكون الخبير غير الله، أي فاسأل عنه خبيراً، أي عالماً به، أي بصفاته وأسمائه. وقيل: المعنى فاسأل لـه خبيراً، فهو نصب على الحال من الـهاء المضمرة. قال المهدوي: ولا يحسن حالاً إذ لا يخلو أن تكون الحال من السائل أو المسؤول، ولا يصح كونها حالاً من الفاعل؛ لأن الخبير لا يحتاج أن يسأل غيره. ولا يكون من المفعول؛ لأن المسؤول عنه وهو الرحمن خبير أبداً، والحال في أغلب الأمر يتغير وينتقل؛ إلا أن يحمل على أنها حال مؤكدة؛ مثل: ﴿ وهو الحق مصدقا ﴾ (البقرة: ٩١) فيجوز. وأما "الرحمن" ففي رفعه ثلاثة أوجه: يكون بدلاً من المضمر الذي في "استوى". ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى هو الرحمن. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره "فاسأل به خبيرا". ويجوز الخفض بمعنى وتوكل على الحي الذي لا يموت الرحمن؛ يكون نعتاً. ويجوز النصب على المدح.

قولـه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا قيل لـهم اسجدوا للرحمن ﴾ أي لله تعالى. ﴿ قالوا وما الرحمن﴾ على جهة الإنكار والتعجب، أي ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب. وزعم القاضي

أبوبكر بن العربي أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف، واستدل على ذلك، بقولـه: "وما الرحمن" ولم يقولوا ومن الرحمن. قال ابن الحصار: وكأنه رحمه الله لـم يقرأ الآية الأخرى: ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ (الرعد: ٣٠). ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين؛ أي لما تأمرنا أنت يا محمد. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: "يأمرنا" بالياء. يعنون الرحمن؛ كذا تأولـه أبو عبيد، قال: ولو أقروا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفاراً. فقال النحاس: وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد، ولكن الأولى أن يكون التأويل لـهم "أنسجد لما يأمرنا" النبي ﷺ؛ فتصح القراءة على هذا، وإن كانت الأولى أبين وأقرب تناولاً. ﴿وزادهم نفورا﴾ أي زادهم قول القائل لـهم اسجدوا للرحمن نفوراً عن الدين. وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلـهي زادني لك خضوعاً ما زاد أعداك نفوراً.

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ أي منازل. وقد تقدم ذكرها. ﴿وجعل فيها سراجا﴾ قال ابن عباس: يعني الشمس؛ نظيره؛ ﴿ وجعل الشمس سراجا ﴾ (نوح: ١٦). وقراءة العامة: "سراجاً" بالتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي: "سُرُجاً" يريدون النجوم العظام الوقادة. والقراءة الأولى عند أبي عبيد أولى؛ لأنه تأول أن السُّرُج النجوم، وأن البروج النجوم؛ فيجيء المعنى نجوماً ونجوماً. النحاس: ولكن التأويل لـهم أن أبان بن تغلب قال: السرج النجوم الدراري. الثعلبي: كالزهرة والمشتري وزحل والسماكين ونحوها. ﴿وقمراً منيراً﴾ ينير الأرض إذا طلع. وروى عصمة عن الأعمش "وقُمْراً" بضم القاف وإسكان الميم. وهذه قراءة شاذة، ولو لـم يكن فيها إلا أن أحمد بن حنبل وهو إمام المسلمين في وقته قال: لا تكتبوا ما يحكيه عصمة الذي يروي القراءات، وقد أولع أبو حاتم السجستاني بذكر ما يرويه عصمة هذا.

قولـه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ خلفة ﴾ قال أبو عبيدة: الخلفة كل شيء بعد شيء. وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه. ويقال للمبطون: أصابته خلفة؛ أي قيام وقعود يخلف هذا ذاك. ومنه خلفة النبات، وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف. ومن هذا المعنى قول زهير بن أبي سلمى:

بها العين والآرام يمشين خلـفة وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

الرئم ولد الظبي وجمعه آرام؛ يقول: إذا ذهب فوج جاء فوج. ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دأباً.

ولـهـــا بالماطـــــرون إذا أكـل الـنمل الـذي جمعـا
خلفـــة حـــتى إذا ارتبعـــت سـكنت مـن جلّـق بـيعا
في بيوت وســـــط دســـكرة حــولـها الزيتون قدْ ينعا

قال مجاهد: "خلفة" من الخلاف؛ هذا أبيض وهذا أسود؛ والأول أقوى. وقيل: يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان. وقيل: هو من باب حذف المضاف؛ أي جعل الليل والنهار ذوي خلفة، أي اختلاف. ﴿لمن أراد أن يذكر﴾ أي يتذكر، فيعلم أن الله لم يجعلـه كذلك عبثاً فيعتبر في مصنوعات الله، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم. وقال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن: معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل. وفي الصحيح: "ما من امرئ تكون لـه صلاة بالليل فغلبه عليها نوم فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر إلا كتب الله لـه أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة"[(١)]. وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: (من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب لـه كأنما قرأه من الليل)[(٢)].

الثانية: قال ابن العربي: سمعت ذا الشهيد الأكبر يقول: إن الله تعالى خلق العبد حياً عالماً، وبذلك كمالـه، وسلط عليه آفة النوم وضرورة الحدث ونقصان الخلقة؛ إذ الكمال للأول الخالق، فما أمكن الرجل من دفع النوم بقلة الأكل والسهر في طاعة الله فليفعل. ومن الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليلـها فيذهب النصف من عمره لغواً، وينام سدس النهار راحة فيذهب ثلثاه ويبقى لـه من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسفاهة أن يتلف الرجل ثلثي عمره في لذة فانية، ولا يتلف عمره بسهر في لذة باقية عند الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم.

الثالثة: الأشياء لا تتفاضل بأنفسها؛ فإن الجواهر والأعراض من حيث الوجود متماثلة، وإنما يقع التفاضل بالصفات. وقد اختلف أي الوقتين أفضل، الليل أو النهار. وفي الصوم غنية في الدلالة، والله أعلم؛ قالـه ابن العربي.

قلت: والليل عظيم قدره؛ أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ (الإسراء: ٧٩)، وقال: ﴿قم الليل﴾ (المزمل: ٢) على ما يأتي بيانه. ومدح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ (السجدة: ١٦) وقال عليه الصلاة والسلام: "والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل وفيه ساعة يستجاب فيها الدعاء وفيه ينزل الرب تبارك وتعالى"[(٣)] حسبما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الرابعة: قرأ حمزة وحده: "يذْكُر" بسكون الذال وضم الكاف. وهي قراءة ابن وثاب وطلحة والنخعي. وفي مصحف أبيّ "يتذكر" بزيادة تاء. وقرأ الباقون: "يذكر" بتشديد الكاف. ويذكر ويذكر بمعنى واحد. وقيل: معنى "يذكر" بالتخفيف أي ما يذكر ما نسيه في أحد الوقتين في الوقت

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٦٩١).
(٢) أخرجه مسلم (٧٤٧).
(٣) "صحيح".

الثاني، أو ليذكر تنزيه الله وتسبيحه فيها. ﴿ أو أراد شكورا﴾ يقال: شكر يشكر شكراً وشكوراً، مثل كفر يكفر كفراً وكفوراً. وهذا الشكور على أنهما جعلهما قواماً لمعاشهم. وكأنهم لما قالوا: "وما الرحمن" قالوا: هو الذي يقدر على هذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عباده المؤمنين أيضاً وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفاً لهم، كما قال: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ (الإسراء: ١). فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق اسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى: ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ (الأعراف: ١٧٩) يعني في عدم الاعتبار؛ كما تقدم في "الأعراف". وكأنه قال: وعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض، فحذف هم؛ كقولك: زيد الأمير، أي زيد هو الأمير. فـ "الذين" خبر مبتدأ محذوف؛ قاله الأخفش. وقيل: الخبر قوله في آخر السورة: ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ (الفرقان: ٧٥) وما بين المبتدأ والخبر أوصاف لهم وما تعلق بها؛ قاله الزجاج. قال: ويجوز أن يكون الخبر "الذين يمشون على الأرض". و "يمشون" عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك العظم، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض؛ وهو معاشرة الناس وخلطتهم.

قوله تعالى: ﴿ هوناً﴾ الهون مصدر الهيِّن وهو من السكينة والوقار. وفي التفسير: يمشون على الأرض حلماء متواضعين، يمشون في اقتصاد. والقصد والتؤدة وحسن السمت من أخلاق النبوة. وقال ﷺ: "أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس في الإيضاع"[(١)] وروي في صفته ﷺ أنه كان إذا زال زال تقلعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشي هوناً، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب. التقلع: رفع الرجل بقوة. والتكفؤ: الميل إلى سنن المشي وقصده. والهون: الرفق والوقار. والذريع: الواسع الخطا؛ أي أن مشيه كان يرفع فيه رجله بسرعة ويمد خطوه؛ خلاف مشية المختال، ويقصد سمته؛ وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة. كما قال: كأنما ينحط من صبب، قاله القاضي عياض. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يسرع جبلة لا تكلفاً. قال الزهري: سرعة المشي تذهب بهاء الوجه. قال ابن عطية: يريد الإسراع الحثيث لأنه يخل بالوقار؛ والخير في التوسط. وقال زيد بن أسلم: كنت أسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿ الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ فما وجدت من ذلك شفاء، فرأيت في المنام من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض. قال القشيري؛ وقيل لا يمشون لإفساد ومعصية، بل في طاعة الله والأمور المباحة من غير هوك. وقد قال الله تعالى: ﴿ ولا تمش في الأرض

(١) أخرجه البخاري (١٦٧١) وغيره.

مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (لقمان: ١٨). وقال ابن عباس: بالطاعة والمعروف والتواضع. الحسن: حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا. وقيل: لا يتكبرون على الناس.

قلت: وهذه كلها معان متقاربة، ويجمعها العلم بالله والخوف منه، والمعرفة بأحكامه والخشية من عذابه وعقابه؛ جعلنا الله منهم بفضله ومنّه. وذهبت فرقة إلى أن "هوناً" مرتبط بقوله: "يمشون على الأرض"، أن المشي هو هون. قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه، فيرجع القول إلى نحو ما بيناه. وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل؛ لأنه رب ماش هوناً رويداً وهو ذئب أطلس. وقد كان رسول الله ﷺ يتكفأ في مشيه كأنما ينحط[1] في صبب. وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الأمة. وقوله عليه الصلاة والسلام: "من مشى منكم في طمع فليمش رويداً" إنما أراد في عقد نفسه، ولم يرد المشي وحده. ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط؛ حتى قال فيهم الشاعر ذماً لهم:

كلهم يمشي رويد كلهم يطلب صيد

قلت: وفي عكسه أنشد ابن العربي لنفسه.

تواضعت في العلياء والأصل كابر وحزت قصاب السبق بالهون في الأمر
سكون فلا خبث السريرة أصله وجل سكون الناس من عظم الكبر

قوله تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ قال النحاس: ليس "سلاماً" من التسليم إنما هو من التسلّم؛ تقول العرب: سلاماً، أي تسلماً منك، أي براءة منك. منصوب على أحد أمرين: يجوز أن يكون منصوباً بـ "قالوا"، ويجوز أن يكون مصدراً؛ وهذا قول سيبويه. قال ابن عطية: والذي أقوله: إن "قالوا" هو العامل في "سلاما" لأن المعنى قالوا هذا اللفظ. وقال مجاهد: معنى "سلاما" سداداً. أي يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين. فـ "قالوا" على هذا التأويل عامل في قوله: "سلاما" على طريقة النحويين؛ وذلك أنه بمعنى قولاً. وقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاما؛ بهذا اللفظ. أي سلمنا سلاماً أو تسليماً، ونحو هذا؛ فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين.

مسألة: هذه الآية كانت قبل آية السيف، نسخ منها ما يخص الكفرة وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة. وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه، وما تكلم فيه على نسخ سواه؛ رجح به أن المراد السلامة لا التسليم؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على الكفرة. والآية مكية فنسختها آية السيف. قال النحاس: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية. قال سيبويه: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين لكنه على معنى قوله: تسلُّما منكم، ولا خير ولا شر بيننا وبينكم. المبرد: كان ينبغي أن يقال: لم يؤمر المسلمون يومئذ بحربهم ثم أمروا بحربهم. محمد بن يزيد. أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة. ابن العربي: لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين ولا نهوا عن ذلك، بل أمروا بالصفح والهجر الجميل، وقد كان عليه الصلاة

(١) في نسخة: يمشي.

والسلام يقف على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم ولا يداهنهم. وقد أتفق الناس على أن السفيه من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول لـه سلام عليك.

قلت: هذا القول أشبه بدلائل السنة. وقد بينا في سورة "مريم" اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار، فلا حاجة إلى دعوى النسخ؛ والله أعلم. وقد ذكر النضر بن شميل قال حدثني الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فلما سلمنا رد علينا السلام وقال لنا: استووا. وبقينا متحيرين ولم ندر ما قال. فقال لنا أعرابي إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله عز وجل: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾(فصلت: ١١) فصعدنا إليه فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير، وماء نمير؟ فقلنا: الساعة فارقناه. فقال: سلاماً. فلم ندر ما قال. قال: فقال الأعرابي: إنه سألكم متاركة لا خير فيها ولا شر. فقال الخليل: هو من قول الله عز وجل: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾. قال ابن عطية: ورأيت في بعض التواريخ أن إبراهيم بن المهدي ـ وكان من المائلين على علي بن أبي طالب ﷺ ـ قال يوماً بحضرة المأمون وعنده جماعة: كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم فكنت أقول لـه من أنت؟ فكان يقول: علي بن أبي طالب. فكنت أجيء معه إلى قنطرة فيذهب فيتقدمني في عبورها. فكنت أقول: إنما تدعي هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك. فما رأيت لـه في الجواب بلاغة كما يذكر عنه. قال المأمون: وبماذا جاوبك؟ قال: فكان يقول لي سلاماً. قال الراوي: فكأن إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية أو ذهبت عنه في ذلك الوقت. فنبه المأمون على الآية من حضره وقال: هو والله يا عم علي بن أبي طالب، وقد جاوبك بأبلغ جواب، فخزي إبراهيم واستحيا. وكانت رؤيا لا محالة صحيحة.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما﴾ قال الزجاج: بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم. قال زهير:

فبتنا قياماً عند رأس جوادنا ... يزاولنا عن نفسه ونزاولـه

وأنشدوا في صفة الأولياء:

امنع جفونك أن تذوق مناما ... واذر الدموع على الخدود سجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسب ... يا من على سخط الجليل أقاما
لله قوم أخلصوا في حبه ... فرضي بهم واختصهم خداما
قوم إذا جن الظلام عليهم ... باتوا هنالك سجدا وقياما
خمص البطون من التعفف ضمّرا ... لا يعرفون سوى الحلال طعاما

وقال ابن عباس: من صلّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً. وقال الكلبي: من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعاً بعد العشاء فقد بات ساجداً وقائماً.

قولـه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ﴾ أي هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله. ابن عباس: يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم. ﴿ إن عذابها كان غراما﴾ أي لازماً دائما غير مفارق. ومنه سمي الغريم لملازمته. ويقال: فلان مغرم بكذا أي لازم لـه مولع به. وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابي وابن عرفة وغيرهما. وقال الأعشى:

إن يعاقب يكن غراما وإن يعـ ـــــــط جزيلاً فإنه لا يبالي

وقال الحسن: قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم. وقال الزجاج: الغرام أشد العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشر. وقال أبو عبيدة: الـهلاك. والمعنى واحد. وقال محمد بن كعب: طالبهم الله تعالى بثمن النعيم في الدنيا فلم يأتوا به، فأغرمهم ثمنها بإدخالـهم النار.

قولـه تعالى: ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقامًا ﴾ أي بئس المستقر وبئس المقام. أي إنهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقرب إلى النجح.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ﴾ اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معناه أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام. وقال ابن عباس: من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف، ومن أنفق درهماً في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر. وقالـه مجاهد وابن زيد وغيرهما. وقال عون بن عبد الله: الإسراف أن تنفق مال غيرك. قال ابن عطية: وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية، والوجه أن يقال. إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قليلـه وكثيره وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيالا ونحو هذا، وألا يضيق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي العدل، والقوام في كل واحد بحسب عيالـه وحالـه، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوساطها؛ ولـهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أن يتصدق بجميع مالـه؛ لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك. ونعم ما قال إبراهيم النخعي: هو الذي لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف. وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسون الثياب لجمال، ولا يأكلون طعاماً للذة. وقال يزيد أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعيم واللذة، ولا يلبسـون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكنهم من الحر والبرد. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوجه ابنته فاطمة: ما نفقتك؟ فقال لـه عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء

سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه فأكله. وفي سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت)[1] وقال أبو عبيدة: لم يزيدوا على المعروف ولم يبخلوا. كقوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ (الإسراء: ٢٩) وقال الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقال آخر:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ... ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذي ... دعته إليه من حلاوة عاجل

وقال عمر لابنه عاصم: يا بني، كل في نصف بطنك؛ ولا تطرح ثوباً حتى تستخلقه، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلى ظهورهم. ولحاتم طي:

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

قوله تعالى: ﴿ولم يقتروا﴾ قرأ حمزة والكسائي والأعمش وعاصم ويحيى بن وثاب على اختلاف عنهما "يقتروا" بفتح الياء وضم التاء، وهي قراءة حسنة؛ من قتر يقتر. وهذا القياس في اللازم، مثل قعد يقعد. وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابن كثير بفتح الياء وكسر التاء، وهي لغة معروفة حسنة. وقرأ أهل المدينة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بضم الياء وكسر التاء. قال الثعلبي: كلها لغات صحيحة. النحاس: وتعجب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه؛ لأن أهل المدينة عنده لا يقع في قراءتهم الشاذ، وإنما يقال: أقتر يقتر إذا افتقر، كما قال عز وجل: ﴿وعلى المقتر قدره﴾ (البقرة: ٢٣٦) وتأول أبو حاتم لهم أن المسرف يفتقر سريعاً. وهذا تأويل بعيد، ولكن التأويل لهم أن أبا عمر الجرمي حكى عن الأصمعي أنه يقال للإنسان إذا ضيق: قتر يقتر ويقتر، وأقتر يقتر. فعلى هذا تصح القراءة، وإن كان فتح الياء أصح وأقرب متناولاً، وأشهر وأعرف. وقرأ أبو عمرو والناس "قواماً" بفتح القاف؛ يعني عدلاً. وقرأ حسان بن عبد الرحمن: "قواما" بكسر القاف؛ أي مبلغاً وسداداً وملاك حال. والقوام بكسر القاف، ما يدوم عليه الأمر ويستقر. وقيل: هما لغتان بمعنى. و"قَوَاما" خبر كان، واسمها مقدر فيها، أي كان الإنفاق بين الإسراف والقتر قواماً؛ قاله الفراء. وله قول آخر يجعل "بين" اسم كان وينصبها؛ لأن هذه الألفاظ كثير استعمالها فتركت على حالها في موضع الرفع. قال النحاس: ما أدري ما وجه هذا؛ لأن "بينا" إذا كانت في موضع رفع رفعت؛ كما يقال: بين عينيه أحمر.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) "موضوع" انظر ضعيف الجامع (١٩٩٥).

قولـه تعالى: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان، وقتلـهم النفس بوأد البنات؛ وغير ذلك من الظلم والاغتيال، والغارات، ومن الزنى الذي كان عندهم مباحاً. وقال من صرف هذه الآية عن ظاهرها من أهل المعاني: لا يليق بمن أضافهم الرحمن إليه إضافة الاختصاص، وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنهم أعلى وأشرف، فقال: معناها لا يدعون الـهوى إلـهاً، ولا يذلون أنفسهم بالمعاصي فيكون قتلاً لـها. ومعنى ﴿إلا بالحق﴾ أي إلا بسكين الصبر وسيف المجاهدة فلا ينظرون إلى نساء ليست لـهم بمحرم بشهوة فيكون سفاحاً؛ بل بالضرورة فيكون كالنكاح. قال شيخنا أبو العباس: وهذا كلام رائق غير أنه عند السبر مائق. وهي نبعة باطنية ونزعة باطلية. وإنما صح تشريف عباد الله باختصاص الإضافة بعد أن تحلوا بتلك الصفات الحميدة وتخلوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة، فبدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحلي تشريفاً لـهم، ثم أعقبها بصفات التخلي تبعيداً لـها؛ والله أعلم.

قلت: ومما يدل على بطلان ما ادعاه هذا القائل من أن تلك الأمور ليست على ظاهرها ما روى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود قال قلت: يا رسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: "أن تدعو لله نداً وهو خلقك" قال: ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك" قال: ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك" فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾[1]. والأثام في كلام العرب العقاب، وبه قرأ ابن زيد وقتادة هذه الآية. ومنه قول الشاعر:

جزى الله ابن عروة حيث أمسى عقوقاً والعقوق لـه أثام

أي جزاء وعقوبة. وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد: إن "أثاماً" وادٍ في جهنم جعلـه الله عقاباً للكفرة. قال الشاعر:

لقيت المهالك في حربنا وبعد المهالك تلقى أثاما

وقال السدي: جبل فيها. قال:

وكان مقامنا ندعو عليهم بأبطح ذي المجاز لـه أثام

وفي صحيح مسلم أيضاً عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا؛ فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، وهو يخبرنا بأن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾[2]. ونزل: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ (الزمر: ٥٣) الآية. وقد قيل: إن هذه الآية، "يا عبادي الذين أسرفوا" نزلت في وحشي قاتل حمزة؛ قالـه سعيد بن جبير وابن عباس. وسيأتي في "الزمر" بيانه.

قولـه تعالى: ﴿إلا بالحق﴾ أي بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان؛ على ما تقدم بيانه في "الأنعام". ﴿ولا يزنون﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا ملك يمين. ودلت

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.
(٢) أخرجاه في الصحيحين.

هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى؛ ولـهذا ثبت في حد الزنا القتل لمن كان محصناً أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن.

قولـه تعالى: ﴿ يضاعف لـه العذاب﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي "يضاعفْ. ويخلدْ" جزماً. وقرأ ابن كثير: "يضعّف" بشد العين وطرح الألف وبالجزم في "يضعف. ويخلد" وقرأ طلحة ابن سليمان: "نضعف" بضم النون وكسر العين المشددة. "العذاب" نصب "ويخلدْ" جزم، وهي قراءة أبي جعفر وشيبة. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: "يضاعف. ويخلد" بالرفع فيهما على العطف والاستئناف. وقرأ طلحة بن سليمان: "وتخلد" بالتاء على معنى مخاطبة الكافر. وروي عن أبي عمرو "ويخلد" بضم الياء من تحت وفتح اللام. قال أبو علي: وهي غلط من جهة الرواية. و"يضاعف" بالجزم بدل من "يلق" الذي هو جزاء الشرط. قال سيبويه: مضاعفة العذاب لُقِيُّ الأثام. قال الشاعر:

متى تأتنـا تلمم بنا في ديارنـا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وقال آخر:

إن علـي الله أن تبـايعـا تؤخذ كَرْهاً أو تجيء طائعا

وأما الرفع ففيه قولان: أحدهما أن تقطعه مما قبلـه. والآخر أن يكون محمولاً على المعنى؛ كأن قائلا قال: مـا لـقِيُّ الأثام؟ فقيل لـه: يضاعف لـه العذاب. ﴿مهانا﴾ معناه ذليلاً خاسئاً مبعداً مطروداً.

قولـه تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني. واختلفوا في القاتل من المسلمين على ما تقدم بيانه في "النساء" ومضى في "المائدة" القول في جواز التراخي في الاستثناء في اليمين، وهو مذهب ابن عباس مستدلاً بهذه الآية.

قولـه تعالى: ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ قال النحاس: من أحسن ما قيل فيه أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاص مطيع. وقال مجاهد والضحاك: أن يبدلـهم الله من الشرك الإيمان وروي نحوه عن الحسن. قال الحسن: قوم يقولون التبديل في الآخرة، وليس كذلك، إنما التبديل في الدنيا؛ يبدلـهم الله إيماناً من الشرك، وإخلاصاً من الشك، وإحصاناً من الفجور. وقال الزجاج: ليس بجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن بجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. وروى أبو ذر عن النبي ﷺ: (أن السيئات تبدل بحسنات). وروي معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال أبو هريرة: ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته، فيبدل الله السيئات حسنات. وفي الخبر: "ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات" فقيل: ومن هم؟ قال: "الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات". رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ؛ ذكره الثعلبي والقشيري[1]. وقيل: التبديل عبارة عن الغفران؛ أي يغفر الله لـهم تلك السيئات لا أن يبدلـها حسنات.

---

(١) ضعيف.

قلت: فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة؛ وقد قال ﷺ لمعاذ: (اتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[١]. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال لـه فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا" فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[٢]. وقال أبو طويل: يا رسول الله، أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلـها ولم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا اقتطعها فهل لـه من توبة؟ قال: "هل أسلمت"؟ قال: أنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشهد أنك عبد الله ورسولـه. قال "نعم. تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلـهن الله كلـهن خيرات". قال: وغدراتي وفجراتي يا نبي الله؟ قال: "نعم". قال: الله أكبر! فما زال يكررها حتى توارى. ذكره الثعلبي. قال مبشر بن عبيد، وكان عالماً بالنحو والعربية: الحاجّة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا. والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

قولـه تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾ لا يقال: من قام فإنه يقوم؛ فكيف قال من تاب فإنه يتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحاً وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا؛ أي فإني قدمتهم وفضلتهم على من قاتل النبي ﷺ واستحل المحارم. وقال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولـهذا قال: ﴿إلا من تاب وآمن ﴾(مريم: ٦٠) ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً فلـه حكم التائبين أيضاً. وقيل: أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعلـه، فليست تلك التوبة نافعة؛ بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابا، أي تاب حق التوبة وهي النصوح ولذا أكد بالمصدر. فـ "متابا" مصدر معناه التأكيد، كقولـه: ﴿وكلم الله موسى تكليما ﴾(النساء: ١٦٤) أي فإنه يتوب إلى الله حقاً فيقبل الله توبته حقاً.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿والذين لا يشهدون الزور ﴾ أي لا يحضرون الكذب والباطل ولا يشاهدونه. والزور كل باطل زُوِّرَ وزُخرف، وأعظمه الشرك وتعظيم الأنداد. وبه فسر الضحاك وابن زيد وابن عباس. وفي رواية عن ابن عباس أنه أعياد المشركين. عكرمة: لعب كان في الجاهلية يسمى بالزور. مجاهد: الغناء؛ وقالـه محمد ابن الحنفية أيضاً. ابن جريج: الكذب؛ وروي عن مجاهد. وقال

---

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٩٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠).

علي بن أبي طلحة ومحمد بن علي: المعنى لا يشهدون بالزور، من الشهادة لا من المشاهدة. قال ابن العربي: أما القول بأنه الكذب فصحيح، لأن كل ذلك إلى الكذب يرجع، وأما من قال إنه لعب كان في الجاهلية فإنه يحرم ذلك إذا كان فيه قمار أو جهالة، أو أمر يعود إلى الكفر، وأما القول بأنه الغناء فليس ينتهي إلى هذا الحد.

قلت: من الغناء ما ينتهي سماعه إلى التحريم، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال، أو يثير كامناً من حب اللهو؛ مثل قول بعضهم:

ذهبيّ اللون تحسب من وجنتيه النار تقتدح
خوفوني من فضيحته ليته وافى وأفتضح

لا سيما إذا اقترن بذلك شبابات وطارات مثل ما يفعل اليوم في هذه الأزمان، على ما بيناه في غير هذا الموضع. وأما من قال إنه شهادة الزور هي:

الثانية: فكان عمر بن الخطاب ﷺ يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخّم وجهه، ويحلق رأسه، ويطوف به في السوق. وقال أكثر أهل العلم: ولا تقبل له شهادة أبداً وإن تاب وحسنت حاله فأمره إلى الله. وقد قيل: إنه إذا كان غير مبرز فحسنت حاله قبلت شهادته حسبما تقدم بيانه في سورة "الحج" فتأمله هناك.

قوله تعالى: ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ اللغو، وهو كل سقط من قول أو فعل؛ فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وذكر النساء وغير ذلك من المنكر. وقال مجاهد: إذا أوذوا صفحوا. وروي عنه: إذا ذكر النكاح كفُّوا عنه. وقال الحسن: اللغو المعاصي كلها. وهذا جامع. و"كراماً" معناه معرضين منكرين لا يرضونه، ولا يمالئون عليه، ولا يجالسون أهله. أي مروا مر الكرام الذين لا يدخلون في الباطل. يقال تكرم فلان عما يشينه، أي تنزه وأكرم نفسه عنه. وروي أن عبد الله بن مسعود سمع غناء فأسرع وذهب، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: "لقد أصبح ابن أم عبد كريماً"[(١)]. وقيل: من المرور باللغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ أي إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع. ﴿ لم يخروا عليها صما وعميانا﴾ وليس ثَمّ خرور؛ كما يقال: قعد يبكي وإن كان غير قاعد؛ قاله الطبري واختاره؛ قال ابن عطية: وهو أن يخروا صماً وعمياناً هي صفة الكفار، وهي عبارة عن إعراضهم؛ وقرن ذلك بقولك: قعد فلان

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٢٩) من رواية ابن أبي حاتم وهو ضعيف.

يشتمني وقام فلان يبكي وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة. قال ابن عطية: فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر، فإذا أعرض وضل كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب؛ وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجداً لكن أصله على غير ترتيب. وقيل: أي إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجداً وبكياً، ولم يخروا عليها صماً وعمياناً. وقال الفراء: أي لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا.

الثانية : قال بعضهم: إن من سمع رجلاً يقرأ سجدة يسجد معه؛ لأنه قد سمع آيات الله تتلى عليه. قال ابن العربي: وهذا لا يلزم إلا القارئ وحده، وأما غيره فلا يلزمه ذلك إلا في مسألة واحدة؛ وهو أن الرجل إذا تلا القرآن وقرأ السجدة فإن كان الذي جلس معه جلس ليسمعه فليسجد معه، وإن لم يلتزم السماع فلا سجود عليه. وقد مضى هذا في "الأعراف".

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ قال الضحاك: أي مطيعين لك. وفيه جواز الدعاء بالولد. والذرية تكون واحداً وجمعاً. فكونها للواحد قوله: ﴿رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾(آل عمران:٣٨) ﴿فهب لي من لدنك وليا ﴾(مريم: ٥) وكونها للجمع ﴿ذرية ضعافا ﴾(النساء: ٩) وقد مضى في "البقرة" اشتقاقها مستوفى. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر والحسن: "وذرياتنا" وقرأ أبو عمر وحمزة والكسائي وطلحة وعيسى: "وذريتنا" بالإفراد. "قرة أعين" نصب على المفعول، أي قرة أعين لنا. وهذا نحو قوله عليه الصلاة والسلام لأنس: "اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه"[(١)]. وذلك أن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قرت عينه بأهله وعياله، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرية محافظون على الطاعة، معاونون له على وظائف الدين والدنيا، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده، فتسكن عينه عن الملاحظة، ولا تمتد عينه إلى ما ترى؛ فذلك حين قرة العين، وسكون النفس. ووحد "قرة" لأنه مصدر؛ تقول: قرت عينك قرة. وقرة العين يحتمل أن تكون من القرار، ويحتمل أن تكون من القُرّ وهو الأشهر. والقُرّ: البرد؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد. وأيضاً فإن دمع السرور بارد، ودمع الحزن سخن، فمن هذا يقال: أقر الله عينك، وأسخن الله عين العدو. وقال الشاعر:

فكم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها اليوم ساكب

---

(١)أخرجه البخاري في "الصوم" ، (١٩٨٢)، وفي غير موضع من صحيحه.

قولـه تعالى: ﴿ واجعلنا للمتقين إماما﴾ أي قدوة يقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقياً قدوة؛ وهذا هو قصد الداعي. وفي الموطأ: (إنكم أيها الرهط أئمة يقتدى بكم) فكان ابن عمر يقول في دعائه: اللهم اجعلنا من أئمة المتقين. وقال: "إماما" ولم يقل أئمة على الجمع؛ لأن الإمام مصدر. يقال: أم القوم فلان إماماً؛ مثل الصيام والقيام. وقال بعضهم: أراد أئمة، كما يقول القائل أميرنا هؤلاء، يعني أمراءنا. وقال الشاعر:

يا عاذلاتي لا تزدن ملامتي إن العواذل لســـن لي بأمير

أي أمراء. وكان القشيري أبو القاسم شيخ الصوفية يقول: الإمامة بالدعاء لا بالدعوى، يعني بتوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدعيه كل أحد لنفسه. وقال إبراهيم النخعي: لم يطلبوا الرياسة بل بأن يكونوا قدوة في الدين. وقال ابن عباس: اجعلنا أئمة هدى، كما قال تعالى: ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ (السجدة: ٢٤) وقال مكحول: اجعلنا أئمة في التقوى يقتدي بنا المتقون. وقيل: هذا من المقلوب؛ مجازه: واجعل المتقين لنا إماماً؛ وقال مجاهد. والقول الأول أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليل على أن طلب الرياسة في الدين ندب. وإمام واحد يدل على جمع؛ لأنه مصدر كالقيام. قال الأخفش: الإمام جمع آم من أمَّ يؤم جمع على فعال، نحو صاحب وصحاب، وقائم وقيام.

قولـه تعالى: ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ "أولئك" خبر "وعباد الرحمن" في قول الزجاج على ما تقدم، وهو أحسن ما قيل فيه. وما تخلل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلي والتخلي؛ وهي إحدى عشرة: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله. و"الغرفة" الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلـها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا. حكاه ابن شجرة. وقال الضحاك: الغرفة الجنة. "بما صبروا" أي بصبرهم على أمر ربهم: وطاعة نبيهم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقال محمد بن علي بن الحسين: "بما صبروا" على الفقر والفاقة في الدنيا. وقال الضحاك: "بما صبروا" عن الشهوات. ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاما﴾ قرأ أبو بكر والمفضل والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: "ويلقون" مخففة، واختاره الفراء؛ قال لأن العرب تقول: فلان يتلقى بالسلام وبالتحية وبالخير بالتاء، وقلما يقولون فلان يلقى السلامة. وقرأ الباقون: "ويلقون" واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقولـه تعالى: ﴿ ولقاهم نضرة وسرورا﴾ (الإنسان: ١١). قال أبو جعفر النحاس: وما ذهب إليه الفراء واختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت "يلقون" كانت في العربية بتحية وسلام، وقال كما يقال: فلان يتلقى بالسلام وبالخير؛ فمن عجيب ما في هذا الباب أنه قال يتلقى والآية "يلقون" والفرق بينهما بيِّن: لأنه يقال فلان يتلقى بالخير ولا يجوز حذف الباء، فكيف يشبه هذا ذاك! وأعجب من هذا أن في القرآن "ولقاهم نضرة وسرورا" ولا يجوز أن يقرأ بغيره. وهذا يبين أن الأولى على خلاف ما قال. والتحية من الله والسلام من الملائكة. وقيل: التحية البقاء الدائم والملك العظيم؛ والأظهر أنهما بمعنى واحد، وأنهما من قبل الله تعالى؛

دليله قوله تعالى: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ (الأحزاب: ٤٤) وسيأتي. ﴿خالدين﴾ نصب على الحال ﴿فيها حسنت مستقراً ومقاما﴾.

قوله تعالى: ﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ هذه آية مشكلة تعلقت بها الملحدة. يقال: ما عبأت بفلان أي ما باليت به؛ أي ما كان له عندي وزن ولا قدر. وأصل يعبأ من العبء وهو الثقل. وقول الشاعر:

كأن بصدره وبجانبيه عبيراً بات يعبؤه عروس

أي يجعل بعضه على بعض. فالعبء الحمل الثقيل، والجمع أعباء. والعبء المصدر. وما استفهامية؛ ظهر في أثناء كلام الزجاج، وصرح به الفراء. وليس يبعد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفي خرج مخرج الاستفهام؛ كما قال تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ (الرحمن: ٦٠) قال ابن الشجري: وحقيقة القول عندي أن موضع "ما" نصب؛ والتقدير: أي عبء يعبأ بكم؛ أي أي مبالاة يبالي ربي بكم لولا دعاؤكم؛ أي لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذي هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله؛ وهو اختيار الفراء. وفاعله محذوف وجواب لولا محذوف كما حذف في قوله: ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾ (الرعد: ٣١) تقديره: لم يعبأ بكم. ودليل هذا القول قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦) فالخطاب لجميع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم: أي ما يبال الله بكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت؛ وذلك الذي يعبأ بالبشر من أجله. ويؤيد هذا قراءة ابن الزبير وغيره. "فقد كذب الكافرون" فالخطاب بما يعبأ لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتم ولم تعبدوه فسوف يكون التكذيب هو سبب العذاب لزاماً. وقال النقاش وغيره: المعنى؛ لولا استغاثتكم إليه في الشدائد ونحو ذلك. بيانه: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين﴾ (العنكبوت: ٦٥) ونحو هذا. وقيل: "ما يعبأ بكم" أي بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم "لولا دعاؤكم" معه الآلهة والشركاء. بيانه: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ (النساء: ١٤٧). قاله الضحاك. وقال الوليد بن أبي الوليد: بلغني فيها أي ما خلقتكم ولي حاجة إليكم إلا تسألوني فأغفر لكم وأعطيكم. وروى وهب بن منبه أنه كان في التوراة: "يا ابن آدم وعزتي ما خلقتك لأربح عليك إنما خلقتك لتربح علي فاتخذني بدلاً من كل شيء فأنا خير لك من كل شيء". قال ابن جني: قرأ ابن الزبير وابن عباس "فقد كذب الكافرون". قال الزهراوي والنحاس: وهي قراءة ابن مسعود وهي على التفسير؛ للتاء والميم في "كذبتم". وذهب القتبي والفارسي إلى أن الدعاء مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف. الأصل لولا دعاؤكم آلهة من دونه؛ وجواب "لولا" محذوف تقديره في هذا الوجه: لم يعذبكم. ونظير قوله: لولا دعاؤكم آلهة قوله: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ (الأعراف: ١٩٤). ﴿فقد كذبتم﴾ أي كذبتم بما دعيتم إليه؛ هذا على القول الأول؛ وكذبتم بتوحيد الله على الثاني. ﴿فسوف يكون لزاما﴾ أي يكون تكذيبكم ملازماً لكم. والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب كما قال: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ (الكهف: ٤٩) أي جزاء ما عملوا وقوله: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

(الأنعام: ٣٠) أي جزاء ما كنتم تكفرون. وحسن إضمار التكذيب لتقدم ذكر فعله؛ لأنك إذا ذكرت الفعل دل بلفظه على مصدره، كما قال: ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾ (آل عمران: ١١٠) أي لكان الإيمان. وقوله: ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم﴾ (الزمر: ٧) أي يرضى الشكر. ومثله كثير. وجمهور المفسرين على أن المراد باللزام هنا ما نزل بهم يوم بدر، وهو قول عبد الله ابن مسعود وأُبي بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم. وفي صحيح مسلم عن عبد الله: وقد مضت البطشة والدخان واللزام. وسيأتي مبيناً في سورة "الدخان" إن شاء الله تعالى. وقالت فرقة: هو توعد بعذاب الآخرة. وعن ابن مسعود أيضاً: اللزام التكذيب نفسه؛ أي لا يعطون التوبة منه؛ ذكره الزهراوي؛ فدخل في هذا يوم بدر وغيره من العذاب الذي يلزمونه. وقال أبو عبيدة: لزاما فيصلاً أي فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين المؤمنين. والجمهور من القراء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فإما يَنْجُوَا من خسف أرض فقد لقيا حتوفهما لزاما

ولزاماً وملازمة واحد. وقال الطبري: "لزاماً" يعني عذاباً دائماً لازماً، وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم ببعض؛ كقول أبي ذؤيب:

ففاجأه بعادية لزام كما يتفجر الحوض اللقيف

يعني باللزام الذي يتبع بعضه بعضاً، وباللقيف المتساقط الحجارة المتهدم. النحاس: وحكى أبو حاتم عن أبي زيد قال: سمعت قعنباً أبا السمال يقرأ: "لَزَاما" بفتح اللام. قال أبو جعفر: يكون مصدر لزم والكسر أولى، يكون مثل قتال ومقاتلة، كما أجمعوا على الكسر في قوله عز وجل: ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى﴾ (طه: ١٢٩). قال غيره: اللزام بالكسر مصدر لازم لزاماً مثل خاصم خصاماً، واللزام بالفتح مصدر لزم مثل سلم سلاماً أي سلامة؛ فاللزام بالفتح اللزوم، واللزام الملازمة، والمصدر في القراءتين وقع موقع اسم الفاعل. فاللزام وقع موقع ملازم، واللزام وقع موقع لازم. كما قال تعالى: ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا﴾ (الملك: ٣٠) أي غائرا. قال النحاس: وللفراء قول في اسم يكون؛ قال: يكون مجهولاً وهذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبره إلا جملة، كما قال تعالى: ﴿ إنه من يتق ويصبر﴾ (يوسف: ٩٠) وكما حكى النحويون كان زيد منطلق يكون في كان مجهول ويكون المبتدأ وخبره خبر المجهول، التقدير: كان الحديث؛ فأما أن يقال كان منطلقاً، ويكون في كان مجهول فلا يجوز عند أحد علمناه. وبالله التوفيق وهو المستعان والحمد لله رب العالمين.

سورة الشعراء

مقدمة السورة:

هي مكية في قول الجمهور. وقال مقاتل: منها مدني؛ الآية التي يذكر فيها الشعراء، وقوله: ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ (الشعراء: ١٩٧). وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ (الشعراء: ٢٢٤) إلى آخرها. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي رواية: ست وعشرون. وعن ابن عباس قال النبي ﷺ: "أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه وطسم من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة"[(١)]. وعن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال: "إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المبين مكان الإنجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي"[(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿طسم﴾ قرأ الأعمش ويحيى وأبو بكر والمفضل وحمزة والكسائي وخلف: بإمالة الطاء مشبعاً في هذه السورة وفي أختيها. وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة والزهري: بين اللفظين؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ الباقون بالفتح مشبعاً. قال الثعلبي: وهي كلها لغات فصيحة. وقد مضى في "طه" قول النحاس في هذا. قال النحاس: وقرأ المدنيون وأبو عمرو وعاصم والكسائي: "طسم" بإدغام النون في الميم، والفراء يقول بإخفاء النون. وقرأ الأعمش: وحمزة: "طسين ميم" بإظهار النون. قال النحاس: للنون الساكنة والتنوين أربعة أقسام عند سيبويه: يبينان عند حروف الحلق، ويدغمان عند الراء واللام والميم والواو والياء، ويقلبان ميما عند الباء ويكونان من الخياشيم؛ أي لا يبينان؛ فعلى هذه الأربعة الأقسام التي نصها سيبويه لا تجوز هذه القراءة؛ لأنه ليس ها هنا حرف من حروف الحلق فتبين النون عنده، ولكن في ذلك وُجَيْهٌ: وهو أن حروف المعجم حكمها أن يوقف عليها، فإذا وقف عليها تبينت النون. قال الثعلبي: الإدغام اختيار أبي عبيد وأبي حاتم قياساً على كل

(١) "ضعيف" أخرجه الحاكم والبيهقي كما في ضعيف الجامع (٩٥٠).
(٢) "ضعيف" أخرجه محمد بن نصر المروزي في "قيام الليل"، كما في ضعيف الجامع (١٥٥٦).

القرآن، وإنما أظهرها أولئك للتبيين والتمكين، وأدغمها هؤلاء لمجاورتها حروف الفم. قال النحاس: وحكى أبو إسحاق في كتابه "فيما يجرى وفيما لا يجرى" أنه يجوز أن يقال: "طسين ميم" بفتح النون وضم الميم، كما يقال هذا معدي كرب. وقال أبو حاتم: قرأ خالد: "طسين ميم". ابن عباس: "طسم" قسم وهو اسم من أسماء الله تعالى، والمقسم عليه: "إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية". وقال قتادة: اسم من أسماء القرآن أقسم الله به. مجاهد: هو اسم السورة؛ ويحسن افتتاح السورة. الربيع: حساب مدة قوم. وقيل: قارعة تحل بقوم. "طسم" و"طس" واحد. قال (المتنبى):

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وقال القرظي: أقسم الله بطول وسنائه وملكه. وقال عبد الله بن محمد بن عقيل: الطاء طور سيناء والسين إسكندرية والميم مكة. وقال جعفر بن محمد بن علي: الطاء شجرة طوبى، والسين سدرة المنتهى، والميم محمد ﷺ. وقيل: الطاء من الطاهر والسين من القدوس - وقيل: من السميع وقيل: من السلام - والميم من المجيد. وقيل: من الرحيم. وقيل: من الملك. وقد مضى هذا المعنى في أول سورة "البقرة". والطواسيم والطواسين سور في القرآن جمعت على غير قياس. وأنشد أبو عبيدة:

وبالطواسيم التي قد ثلثت   وبالحواميم التي قد سبعت

قال الجوهري: والصواب أن تجمع بذوات وتضاف إلى واحد، فيقال: ذوات طسم وذوات حم.

قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ رفع على إضمار مبتدأ أي هذه "تلك آيات الكتاب المبين" التي كنتم وعدتم بها؛ لأنهم قد وعدوا في التوراة والإنجيل بإنزال القرآن. وقيل: "تلك" بمعنى هذه. ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي قاتل نفسك ومهلكها. وقد مضى في "الكهف" بيانه. ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ أي لتركهم الإيمان. قال الفراء: "أن" في موضع نصب؛ لأنها جزاء. قال النحاس: وإنما يقال: بإن مكسورة لأنها جزاء؛ كذا المتعارف. والقول في هذا ما قاله أبو إسحاق في كتابه في القرآن؛ قال: "أن" في موضع نصب مفعول من أجله؛ والمعنى لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان. ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية﴾ أي معجزة ظاهرة وقدرة باهرة فتصير معارفهم ضرورية، ولكن سبق القضاء بأن تكون المعارف نظرية. وقال أبو حمزة الثمالي في هذه الآية: بلغني أن لهذه الآية صوتاً يسمع من السماء في النصف من شهر رمضان؛ تخرج به العواتق من البيوت وتضج له الأرض. وهذا فيه بعد؛ لأن المراد قريش لا غيرهم. ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ أي فتظل أعناقهم "لها خاضعين" قال مجاهد: أعناقهم كبراؤهم؛ وقال النحاس: ومعروف في اللغة؛ يقال: جاءني عنق من الناس أي رؤساء منهم. أبو زيد والأخفش: "أعناقهم" جماعاتهم؛ يقال: جاءني عنق من الناس أي جماعة. وقيل: إنما أراد أصحاب الأعناق، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. قتادة: المعنى لو شاء لأنزل آية يذلون بها فلا يلوي أحد منهم عنقه إلى معصية. ابن عباس: نزلت فينا وفي بني أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد معاوية؛ ذكره الثعلبي والغزنوي فالله أعلم. وخاضعين وخاضعة هنا سواء؛ قاله عيسى بن عمر واختاره المبرد. والمعنى: إنهم إذا

ذلت رقابهم ذلّوا؛ فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها. ويسوغ في كلام العرب أن تترك الخبر عن الأول وتخبر عن الثاني؛ قال الراجز:

طول الليالي أسرعت في نقضي طـوين طولي وطوين عرضي

فأخبر عن الليالي وترك الطول. وقال جرير:

أرى مـر السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الـهلال

وإنما جاز ذلك لأنه لو أسقط مر وطول من الكلام لم يفسد معناه؛ فكذلك رد الفعل إلى الكناية في قولـه: "فظلت أعناقهم" لأنه لو أسقط الأعناق لما فسد الكلام، ولأدى ما بقي من الكلام عنه حتى يقول: فظلوا لـها خاضعين. وعلى هذا اعتمد الفراء وأبو عبيدة. والكسائي يذهب إلى أن المعنى خاضعيها هم، وهذا خطأ عند البصريين والفراء. ومثل هذا الحذف لا يقع في شيء من الكلام؛ قالـه النحاس.

قولـه تعالى: ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ تقدم. ﴿ فقد كذبوا﴾ أي أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبلـه فهو تكذيب لـه. ﴿ فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ وعيد لـهم؛ أي فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا والذي استهزأوا به.

قولـه تعالى: ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ نبه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذي يستحق أن يعبد؛ إذ هو القادر على كل شيء. والزوج هو اللون؛ قاله الفراء. و"كريم" حسن شريف، وأصل الكرم في اللغة الشرف والفضل، فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر، ورجل كريم شريف، فاضل صفوح. ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى. وقد تقدم في سورة "البقرة" والله سبحانه هو المخرج والمنبت لـه. وروي عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم، ومن صار إلى النار فهو لئيم.﴿ إن في ذلك لآية﴾ أي فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر، لا يعجزه شيء. ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي مصدقين لما سبق من علمي فيهم. و"كان" هنا صلة في قول سيبويه؛ تقديره: وما أكثرهم مؤمنين. ﴿وإن ربك لـهو العزيز الرحيم﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

قولـه تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذ نادى ربك موسى﴾ "إذ" في موضع نصب؛ المعنى: واتل عليهم ﴿ إذ نادى ربك موسى﴾ ويدل على هذا أن بعده. ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ (الشعراء: ٦٩) ذكره النحاس.

وقيل: المعنى؛ واذكر إذ نادى كما صرح به في قولـه: ﴿واذكر أخا عاد ﴾(الأحقاف: ٢١) وقولـه: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم ﴾(ص: ٤٥) وقولـه: ﴿واذكر في الكتاب مريم ﴾(مريم: ١٦). وقيل: المعنى؛ ﴿وإذ نادى ربك موسى ﴾كان كذا وكذا. والنداء الدعاء بيا فلان، أي قال ربك يا موسى: ﴿أن ائت القوم الظالمين ﴾ثم أخبر من هم فقال، ﴿قوم فرعون ألا يتقون ﴾ "ف "قوم" بدل؛ ومعنى "ألا يتقون" ألا يخافون عقاب الله؟ وقيل: هذا من الإيماء إلى الشيء لأنه أمره أن يأتي القوم الظالمين، ودل قولـه: "يتقون" على أنهم لا يتقون، وعلى أنه أمرهم بالتقوى. وقيل: المعنى؛ قل لـهم "ألا تتقون" وجاء بالياء لأنهم غيب وقت الخطاب، ولو جاء بالتاء لجاز. ومثلـه ﴿قل للذين كفروا ستغلبون ﴾(آل عمران: ١٢) بالتاء والياء. وقد قرأ عبيد بن عمير وأبو حازم "ألا تتقون" بتاءين أي قل لـهم "ألا تتقون". ﴿قال رب ﴾أي قال موسى: ﴿إني أخاف أن يكذبون ﴾أي في الرسالة والنبوة. ﴿ويضيق صدري ﴾لتكذيبهم إياي. وقراءة العامة "ويضيق" "ولا ينطلق" بالرفع على الاستئناف. وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر وأبو حيوة: "ويضيق ـ ولا ينطلق" بالنصب فيهما رداً على قولـه: "أن يكذبون" قال الكسائي: القراءة بالرفع؛ يعني في "يضيق صدري ولا ينطلق لساني" من وجهين: أحدهما الابتداء، والآخر بمعنى وإني يضيق صدري ولا ينطلق لساني يعني نسقاً على "إني أخاف" قال الفراء: ويقرأ بالنصب. حكي ذلك عن الأعرج وطلحة وعيسى بن عمر وكلاهما لـه وجه. قال النحاس: الوجه الرفع؛ لأن النصب عطف على "يكذبون" وهذا بعيد يدل على ذلك قولـه عز وجل: ﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾(طه: ٢٧ ـ ٢٨) فهذا يدل على أن هذه كذا. ﴿ولا ينطلق لساني ﴾في المحاجة على ما أحب؛ وكان في لسانه عقدة على ما تقدم في "طه".

﴿فأرسل إلى هارون ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحي، واجعلـه رسولاً معي ليؤازرني ويظاهرني ويعاونني. ولـم يذكر هنا ليعينني؛ لأن المعنى كان معلوماً، وقد صرح به في سورة "طه": ﴿واجعل لي وزيرا ﴾(طه: ٢٩) وفي القصص: ﴿أرسلـه معي ردءا يصدقني ﴾(القصص: ٣٤) وكأن موسى أذن لـه في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه. ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيراً، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم.

قولـه تعالى: ﴿ولـهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾الذنب هنا قتل القبطي واسمه فاثور على ما يأتي في "القصص" بيانه، وقد مضى في "طه" ذكره. وخاف موسى أن يقتلوه به، ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو؛ إذ قد يسلط من شاء على من شاء ﴿قال كلا ﴾أي كلا لن يقتلوك. فهو ردع وزجر عن هذا الظن، وأمر بالثقة بالله تعالى؛ أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم؛ فإنهم لا يقدرون على قتلك، ولا يقوون عليه.

﴿فاذهبا ﴾أي أنت وأخوك فقد جعلته رسولاً معك. ﴿بآياتنا ﴾أي ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: أي مع آياتنا. ﴿إنا معكم ﴾ يريد نفسه سبحانه وتعالى. ﴿مستمعون ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجاوبون. وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يعينهما ويحفظهما. والاستماع إنما يكون بالإصغاء، ولا يوصف الباري سبحانه بذلك. وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير. وقال في "طه": ﴿أسمع

وأرى﴾ (طه: ٤٦) وقال: "معكم" فأجراهما مجرى الجمع؛ لأن الاثنين جماعة. ويجوز أن يكون لـهما ولمن أرسلا إليه. ويجوز أن يكون لجميع بني إسرائيل.

قولـه تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا؛ إنا ذوو رسالة رب العالمين. قال الـهذلي:

ألكني إليها وخير الرسو ل أعلمهـــم بنواحي الخبر

ألكني إليها معناه أرسلني. وقال آخر:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بســر ولا أرســـلتهم برســـول

وقال آخر:

ألا أبلغ بني عمرو رسولا بأنـــي عن فتاحتكم غنيٌّ

وقال العباس بن مرداس:

ألا مـــن مبلغ عنى خفافا رسولاً بيت أهلك منتهاها

يعني رسالة فلذلك أنثها. قال أبو عبيد: ويجوز أن يكون الرسول في معنى الاثنين والجمع؛ فتقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي. ومنه قولـه تعالى: ﴿ فإنهم عدو لي﴾ (الشعراء: ٧٧). وقيل: معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين. ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي أطلقهم وخل سبيلـهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم؛ وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً. فانطلقا إلى فرعون فلم يؤذن لـهما سنة في الدخول عليه، فدخل البواب على فرعون فقال: ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين. فقال فرعون: ايذن لـه لعلنا نضحك منه؛ فدخلا عليه وأديا الرسالة. وروى وهب وغيره: أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعاً من أسد ونمور وفهود يتفرج عليها، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهارون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصبص إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: ﴿ إنَّا رسول رب العالمين﴾ فعرف موسى لأنه نشأ في بيته؛ فـ﴿ قال ألم نربك فينا وليدا﴾ على جهة المن عليه والاحتقار. أي ربيناك صغيراً ولم نقتلك في جملة من قتلنا ﴿ ولبثت فينا من عمرك سنين﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه. ثم قرره بقتل القبطي بقولـه: ﴿ وفعلت

فعلتك التي فعلت﴾ والفعلة بفتح الفاء المرة من الفعل. وقرأ الشعبي: "فِعلتك" بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أي فعلتك التي تعرف فكيف تدعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك. وقال الشاعر:

كأن مشيتها من بيت جارتها   مر السحابة لا ريث ولا عجل

ويقال: كان ذلك أيام الرِّدة والرَّدة. ﴿وأنت من الكافرين﴾ قال الضحاك: أي في قتلك القبطي إذ هو نفس لا يحل قتله. وقيل: أي بنعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك؛ قاله ابن زيد. الحسن: "من الكافرين" في أني إلهك. السدي: "من الكافرين" بالله لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه. وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه نبيا أحد عشر عاماً غير أشهر. فـ ﴿قال فعلتها إذاً﴾ أي فعلت تلك الفعلة يريد قتل القبطي ﴿وأنا﴾ إذ ذاك ﴿من الضالين﴾ أي من الجاهلين؛ فنفى عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل. وكذا قال مجاهد؛ "من الضالين" من الجاهلين. ابن زيد: من الجاهلين بأن الوكزة تبلغ القتل. وفي مصحف عبد الله "من الجاهلين" ويقال لمن جهل شيئاً ضل عنه. وقيل: "وأنا من الضالين" من الناسين؛ قاله أبو عبيدة. وقيل: "وأنا من الضالين" عن النبوة ولم يأتني عن الله فيه شيء، فليس علي فيما فعلته في تلك الحالة توبيخ. وبين بهذا أن التربية فيهم لا تنافي النبوة والحلم على الناس، وأن القتل خطأ أو في وقت لم يكن فيه شرع لا ينافي النبوة.

قوله تعالى: ﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ أي خرجت من بينكم إلى مدين كما في سورة "القصص": ﴿ فخرج منها خائفا يترقب ﴾ (القصص: ٢١) وذلك حين القتل. ﴿فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾ يعني النبوة؛ عن السدي وغيره. الزجاج: تعليم التوراة التي فيها حكم الله. وقيل: علماً وفهماً. ﴿وجعلني من المرسلين﴾.

قوله تعالى: ﴿ وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ﴾ اختلف الناس في معنى هذا الكلام؛ فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة؛ كأنه يقول: نعم؟ وتربيتك نعمة علي من حيث عبدت غيري وتركتني، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي. وقيل: هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أي أتمن علي بأن ربيتني وليداً وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم؟! أي ليست بنعمة؟ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي؛ فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص؟! قال معناه قتادة وغيره. وقيل: فيه تقدير استفهام؛ أي أَوَ تلك نعمة؟ قاله الأخفش والفراء أيضاً وأنكره النحاس وغيره. قال النحاس: وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى، وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام أم؛ كما قال الشاعر:

تروح من الحي أم تبتكر

ولا أعلم بين النحويين اختلافاً في هذا إلا شيئاً قاله الفراء. قال: يجوز ألف الاستفهام في أفعال الشك، وحكي تُرى زيداً منطلقاً؟ بمعنى أترى. وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنما أخذه من ألفاظ العامة. قال الثعلبي: قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أَوَ تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام؛ كقوله: ﴿ هذا ربي ﴾ (الأنعام: ٧٦) ﴿ فهم الخالدون ﴾ (الأنبياء: ٣٤). قال الشاعر:

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

وأنشد الغزنوي شاهداً على ترك الألف قولهم:

لم أنس يوم الرحيل وقفتها وجفنها من دموعها شَرِقُ
وقولها والركاب واقفة تركتني هكذا وتنطلق

قلت: ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس. وقال الضحاك: إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون، باستفهام وبغير استفهام؛ والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي؛ فأي نعمة لك علي! فأنت تمن علي بما لا يجب أن تمن به. وقيل: معناه كيف تمن بالتربية وقد أهنت قومي؟ ومن أهين قومه ذل. و "أن عبدت" في موضع رفع على البدل من "نعمة" ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: لأن عبدت بني إسرائيل؛ أي اتخذتهم عبيداً. يقال: عبدته وأعبدته بمعنى؛ قاله الفراء وأنشد:

علام يُعْبِدُني قومي وقد كثرت فيهم أباعر ما شاؤوا وعبدان

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ

لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قولـه: رسول رب العالمين؛ فاستفهمه استفهاما عن مجهول من الأشياء. قال مكي وغيره: كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم بـ "ما". قال مكي: وقد ورد لـه استفهام بـ "من" في موضع آخر ويشبه أنها مواطن؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى؛ لأن الأجناس محدثة، فعلم موسى جهلـه فأضرب عن سؤالـه وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها. فقال فرعون: ﴿ألا تستمعون﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبلـه كذلك. فزاد موسى في البيان بقولـه: ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لـهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لـهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعدُ أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لـهم من مكون. فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ أي ليس يجيبني عما أسأل؛ فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿رب المشرق والمغرب﴾ أي ليس ملكه كملكك؛ لأنك إنما تملك بلداً واحداً لا يجوز أمرك في غيره، ويموت من لا تحب أن يموت، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب؛ ﴿وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ وقيل علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم. ثم لما انقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإلـه أرسلك؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثَمَّ إلـهاً غيره. وفي توعده بالسجن ضعف. وكان فيما يروى أنه يفزع منه فزعاً شديداً حتى كان اللعين لا يمسك بولـه. وروي أن سجنه كان أشد من القتل. وكان إذا سجن أحداً لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مخوفاً. ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعد فرعون ﴿قال﴾ لـه على جهة اللطف به والطمع في إيمانه: ﴿أولو جئتك بشيء مبين﴾ فيتضح لك به صدقي، فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة ﴿فقال﴾ لـه ﴿فأت به إن كنت من الصادقين﴾. ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه؛ لأن ما تقدم يكفي منه. ﴿فألقى عصاه﴾ من يده فكان ما أخبر الله من قصته. وقد تقدم بيان ذلك وشرحه في "الأعراف" إلى آخر القصة. وقال السحرة لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ﴿لا ضير﴾ أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عذاب الدنيا؛ أي إنما عذابك ساعة فنصبر لـها وقد لقينا الله مؤمنين. وهذا يدل على شدة استبصارهم وقوة إيمانهم. قال مالك: دعا موسى عليه السلام

فرعون أربعين سنة إلى الإسلام، وأن السحرة آمنوا به في يوم واحد. يقال: لا ضير ولا ضَور ولا ضر ولا ضرر ولا ضارورة بمعنى واحد؛ قاله الهروي. وأنشد أبو عبيده:

فإنك لا يضورك بعد حول أظبي كان أمك أم حمار

وقال الجوهري: ضاره يضوره ويضيره ضيراً وضوراً أي ضَرَّه. قال الكسائي: سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني. والتضور الصياح والتلوي عند الضرب أو الجوع. والضورة بالضم الرجل الحقير الصغير الشأن. ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ يريد ننقلب إلى رب كريم رحيم ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾ . "أن" في موضع نصب، أي لأن كنا. وأجاز الفراء كسرها على أن تكون مجازاة. ومعنى "أول المؤمنين" أي عند ظهور الآية ممن كان في جانب فرعون. الفراء: أول مؤمني زماننا. وأنكره الزجاج وقال: قد روي أنه آمن معه ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وهم الشرذمة القليلون الذين قال فيهم فرعون: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ روي ذلك عن ابن مسعود وغيره.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى. ومعنى "إنكم متبعون" أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم. وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛ فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سحراً، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت. فلما أصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان. وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين

ألفا. والله أعلم بصحته. وإنما اللازم من الآية الذي يقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك. قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل. والشرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشراذم. قال الجوهري: الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء. وثوب شراذم أي قطع. وأنشد الثعلبي قول الراجز:

جـاء الشتاء وثيابي أخلاق شراذم يضحك منها النواق

النّوّاق من الرجال الذي يروض الأمور ويصلحها؛ قاله في الصحاح. واللام في قوله "لشرذمة" لام توكيد وكثيراً ما تدخل في خبر إن، إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيدا لسوف يقوم. والدليل على أنه جائز قوله تعالى: "فلسوف تعلمون" وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف؛ قاله النحاس. ﴿ وإنهم لنا لغائظون﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها على ما تقدم. وماتت أبكارهم تلك الليلة. وقد مضى هذا في "الأعراف" و"طه" مستوفى. يقال: غاظني كذا وأغاظني. والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ. أي غاظونا بخروجهم من غير إذن. ﴿ وإنا لجميع حذرون﴾ أي مجتمع مستعد أخذنا حذرنا وأسلحتنا. وقرئ: "حاذرون" ومعناه معنى "حَذرون" أي فرقون خائفون. قال الجوهَري: وقرئ "وإنا لجميع حاذرون" و"حذرون" و"حَذُرون" بضم الذال حكاه الأخفش؛ ومعنى: "حاذرون" متأهبون، ومعنى: "حذرون" خائفون. قال النحاس: "حذرون" قراءة المدنيين وأبي عمرو، وقراءة أهل الكوفة: "حاذرون" وهي معروفة عن عبد الله بن مسعود وابن عباس؛ و"حادرون" بالدال غير المعجمة قراءة أبي عباد وحكاها المهدوي عن ابن أبي عمار، والماوردي والثعلبي عن سميط بن عجلان. قال النحاس: أبوعبيدة يذهب إلى أن معنى "حذرون" "وحاذرون" واحد. وهو قول سيبويه وأجاز: هو حذر زيداً؛ كما يقال: حاذر زيداً، وأنشد:

حذر أموراً لا تضير وآمن ما ليس منجيه من الأقدار

وزعم أبو عمر الجرمي أنه يجوز هو حذر زيداً على حذف من. فأما أكثر النحويين فيفرقون بين حذر وحاذر؛ منهم الكسائي والفراء ومحمد بن يزيد؛ فيذهبون إلى أن معنى حذر في خلقته الحذر، أي متيقظ متنبه، فإذا كان هكذا لم يتعد، ومعنى حاذر مستعد وبهذا جاء التفسير عن المتقدمين. قال عبد الله بن مسعود في قول الله عز وجل: "وإنا لجميع حاذرون" قال: مؤدون في السلاح والكراع مقوون، فهذا ذاك بعينه. وقوله: مؤدون معهم أداة. وقد قيل: إن المعنى: معنا سلاح وليس معهم سلاح يحرضهم على القتال؛ فأما "حادرون" بالدال المهملة فمشتق من قولهم عين حدرة أي ممتلئة؛ أي نحن ممتلئون غيظاً عليهم؛ ومنه قول الشاعر:

وعين لـها حدرة بدرة شقت مآقيهما من أخر

وحكى أهل اللغة أنه يقال: رجل حادر إذا كان ممتلئ اللحم؛ فيجوز أن يكون المعنى الامتلاء من السلاح. المهدوي: الحادر القوي الشديد.

قوله تعالى: ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون﴾ يعني من أرض مصر. وعن عبد الله بن عمرو قال: كانت الجنات بحافتي النيل في الشقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد، وبين الجنات زروع. والنيل سبعة خلجان: خليج الإسكندرية، وخليج سخا، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف،

وخليج الفيوم، وخليج المنهى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع ما بين الخلجان كلـها. وكانت أرض مصر كلـها تروى من ستة عشر ذراعاً بما دبروا وقدروا من قناطرها وجسورها وخلجانها؛ ولذلك سمي النيل إذا غلق ستة عشر ذراعاً نيل السلطان، ويخلع على ابن أبي الرداد؛ وهذه الحال مستمرة إلى الآن. وإنما قيل نيل السلطان لأنه حينئذ يجب الخراج على الناس. وكانت أرض مصر جميعها تروى من إصبع واحدة من سبعة عشر ذراعاً، وكانت إذا غلق النيل سبعة عشر ذراعاً ونودي عليه إصبع واحد من ثمانية عشر ذراعاً، ازداد في خراجها ألف ألف دينار. فإذا خرج عن ذلك ونودي عليه إصبعاً واحداً من تسعة عشر ذراعاً نقص خراجها ألف ألف دينار. وسبب هذا ما كان ينصرف في المصالح والخلجان والجسور والاهتمام بعمارتها. فأما الآن فإن أكثرها لا يروى حتى ينادى إصبع من تسعة عشر ذراعا بمقياس مصر. وأما أعمال الصعيد الأعلى، فإن بها ما لا يتكامل ريه إلا بعد دخول الماء في الذراع الثاني والعشرين بالصعيد الأعلى.

قلت: أما أرض مصر فلا تروى جميعها الآن إلا من عشرين ذراعاً وأصابع؛ لعلو الأرض وعدم الاهتمام بعمارة جسورها، وهو من عجائب الدنيا؛ وذلك أنه يزيد إذا انصبت المياه في جميع الأرض حتى يسيح على جميع أرض مصر، وتبقى البلاد كالأعلام لا يوصل إليها إلا بالمراكب والقياسات. وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله لـه كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلل الله لـه الأنهار؛ فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله لـه عيوناً، فإذا انتهى إلى ما أراد الله عز وجل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره. وقال قيس بن الحجاج: لما افتتحت مصر أتى أهلـها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤنة من أشهر القبط فقالوا لـه: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، فقال لـهم: وما ذاك؟ فقالوا: إذا كان لاثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها؛ أرضينا أبويها، وحملنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل؛ فقال لـهم عمرو: هذا لا يكون في الإسلام؛ وإن الإسلام ليهدم ما قبلـه. فأقاموا أبيب ومسرى لا يجري قليل ولا كثير، وهموا بالجلاء. فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فأعلمه بالقصة، فكتب إليه عمر بن الخطاب: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وأن الإسلام يهدم ما قبلـه ولا يكون هذا. وبعث إليه ببطاقة في داخل كتابه. وكتب إلى عمرو: إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل إذا أتاك كتابي. فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى نيل مصر ـ أما بعد ـ فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. قال: فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛ لأنه لا تقوم مصلحتهم فيها إلا بالنيل. فلما ألقى البطاقة في النيل، أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله في ليلة واحدة ستة عشر ذراعاً، وقطع الله تلك السيرة عن أهل مصر من تلك السنة. قال كعب الأحبار: أربعة أنهار من الجنة وضعها الله في الدنيا سيحان وجيحان والنيل والفرات، فسيحان نهر الماء في الجنة، وجيحان نهر اللبن في الجنة، والنيل نهر العسل في الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة. وقال ابن لـهيعة: الدجلة نهر اللبن في الجنة.

قلت: الذي في الصحيح من هذا حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة"[١] لفظ مسلم. وفي حديث الإسراء من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رجل من قومه قال: "وحدث نبي الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات" لفظ مسلم[٢]. وقال البخاري من طريق شريك عن أنس "فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطَّردان فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذا النيل والفرات عنصرهما ثم مضى في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا هو الكوثر الذي خبأ لك ربك."[٣] وذكر الحديث. والجمهور على أن المراد بالعيون عيون الماء. وقال سعيد بن جبير: المراد عيون الذهب. وفي الدخان ﴿ كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ﴾ (الدخان: ٢٥ ـ ٢٦). قيل: إنهم كانوا يزرعون ما بين الجبلين من أول مصر إلى آخرها. وليس في الدخان "وكنوز". "وكنوز" جمع كنز؛ وقد مضى هذا في سورة "براءة". والمراد بها ها هنا الخزائن. وقيل: الدفائن. وقال الضحاك: الأنهار؛ وفيه نظر؛ لأن العيون تشملها. ﴿ومقام كريم﴾ قال ابن عمر وابن عباس ومجاهد: المقام الكريم المنابر؛ وكانت ألف منبر لألف جبار يعظمون عليها فرعون وملكه. وقيل: مجالس الرؤساء والأمراء؛ حكاه ابن عيسى وهو قريب من الأول. وقال سعيد بن جبير: المساكن الحسان. وقال ابن لهيعة: سمعت أن المقام الكريم الفيوم. وقيل: كان يوسف عليه السلام قد كتب على مجلس من مجالسه: (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) فسماها الله كريمة بهذا. وقيل: مرابط الخيل لتفرد الزعماء بارتباطها عدة وزينة؛ فصار مقامها أكرم منزل بهذا؛ ذكره الماوردي. والأظهر أنها المساكن الحسان كانت تكرم عليهم. والمقام في اللغة يكون الموضع ويكون مصدراً. قال النحاس: المقام في اللغة الموضع؛ من قولك قام يقوم، وكذا المقامات واحدها مقامة؛ كما قال:

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

والمقام أيضاً المصدر من قام يقوم. والمقام (بالضم) الموضع من أقام. والمصدر أيضاً من أقام يقيم.

قوله تعالى: ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل. قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه. وقيل: أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى.

قلت: وكلا الأمرين حصل لهم. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي فتبع فرعون وقومه بني إسرائيل. قال السدي: حين أشرقت الشمس بالشعاع. وقال قتادة: حين أشرقت الأرض بالضياء. قال الزجاج: يقال شرقت الشمس إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت. واختلف في تأخر فرعون وقومه عن موسى وبني إسرائيل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٩).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٤).
(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٧).

على قولين: أحدهما: لاشتغالـهم بدفن أبكارهم في تلك الليلة؛ لأن الوباء في تلك الليلة وقع فيهم؛ فقولـه: "مشرقين" حال لقوم فرعون. الثاني: إن سحابة أظلتهم وظلمة فقالوا: نحن بعد في الليل فما تقشعت عنهم حتى أصبحوا. وقال أبو عبيدة: معنى "فأتبعوهم مشرقين" ناحية المشرق. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون: "فاتبعوهم مشرقين" بالتشديد وألف الوصل؛ أي نحو المشرق؛ مأخوذ من قولـهم: شرق وغرب إذا سار نحو المشرق والمغرب. ومعنى الكلام قدرنا أن يرثها بنو إسرائيل فاتبع قوم فرعون بني إسرائيل مشرقين فهلكوا، وورث بنو إسرائيل بلادهم.

قولـه تعالى: ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه؛ وهو تفاعل من الرؤية. ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ أي قرب منا العدو ولا طاقة لنا به. وقراءة الجماعة: "لمدركون" بالتخفيف من أدرك. ومنه: ﴿ حتى إذا أدركه الغرق ﴾ (يونس: ٩٠). وقرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهري: "لمدَّركون" بتشديد الدال من أدَّرك. قال الفراء: حفر واحتفر بمعنى واحد، وكذلك "لمدْركون" و"لمدَّركون" بمعنى واحد. النحاس: وليس كذلك يقول النحويون الحذاق؛ إنما يقولون: مُدْركون ملحقون، ومدّركون مجتهد في لحاقهم، كما يقال: كسبت بمعنى أصبت وظفرت، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه.

قولـه تعالى: ﴿ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جَمْعَ موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى، على جهة التوبيخ والجفاء: "إنا لمدركون" فرد عليهم قولـهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه لـه بالـهداية والظفر "كلا" أي لم يدركوكم "إن معي ربي" أي بالنصر على العدو. "سيهدين" أي سيدلني على طريق النجاة؛ فلما عظم البلاء على بني إسرائيل؛ ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لـهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعلـه؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. وقد مضى في "البقرة" قصة هذا البحر. ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، أي الجبل العظيم. والطود: الجبل؛ ومنه قول امرئ القيس:

فبينـا المـرء في الأحياء طود رماه الناس عن كثب فمالا

وقال الأسود بن يعفر:

حَلُّـوا بأنقــرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد

جمع طود أي جبل. فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يَبَساً؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدم في "يونس" انصب عليهم وغرق فرعون، فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه. وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالا لـه: بم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينفلق؛ فقالا لـه افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقاً لـه؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه، ثم ارتدَّ كما كان. وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة".

قولـه تعالى: ﴿ وأزلفنا ثَمَّ الآخرين ﴾ أي قربناهم إلى البحر؛ يعني فرعون وقومه. قالـه ابن عباس وغيره؛ قال الشاعر:

وكل يوم مضى أو ليلة سـلفت فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

أبو عبيدة: "أزلفنا" جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جَمْع. وقرأ أبو عبد الله بن الحارث وأُبيّ بن كعب وابن عباس: "وأزلقنا" بالقاف على معنى أهلكناهم؛ من قولـه: أزلقت الناقة وأزلقت الفرس فهي مزلق إذا أزلقت ولدها. ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين*ثم أغرقنا الآخرين﴾ يعني فرعون وقومه. ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي علامة على قدرة الله تعالى ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وابنته آسية امرأة فرعون، ومريم بنت ذا موسى العجوز التي دلت على قبر يوسف الصديق عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل من مصر أظلم عليهم القمر فقال لقومه: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال موسى: فأيكم يدري قبره؟ قال: ما يعلمه إلا عجوز لبني إسرائيل؛ فأرسل إليها؛ فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة؛ فثقل عليه، فقيل لـه: أعطها حكمها؛ فدلتهم عليه، فاحتفروه واستخرجوا عظامه، فلما أقلوها، فإذا الطريق مثل ضوء النهار. في رواية: فأوحى الله إليه أن أعطها ففعل، فأتت بهم إلى بحيرة، فقالت لـهم: أنضبوا هذا الماء فأنضبوه واستخرجوا عظام يوسف عليه السلام؛ فتبينت لـهم الطريق مثل ضوء النهار. وقد مضى في "يوسف". وروى أبو بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ نزل بأعرابي فأكرمه، فقال رسول الله ﷺ: "حاجتك" قال: ناقة أرحلها وأعنزاً أحلبها؛ فقال رسول الله ﷺ: "فلم عجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل" فقال أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل؟ فذكر لـهم حال هذه العجوز التي احتكمت على موسى أن تكون معه في الجنة[1].

قولـه تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ نبه المشركين على فرط جهلـهم إذ رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم. والنبأ الخبر؛ أي أقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبه على قومه ما يعبدون. وإنما قال ذلك ملزماً لـهم الحجة. والجمهور من القراء على تخفيف الـهمزة الثانية وهو

(١) صحيح، راجع الصحيحة (٣١٣).

أحسن الوجوه؛ لأنهم قد أجمعوا على تخفيف الثانية من كلمة واحدة نحو آدم. وإن شئت حققتهما فقلت: "نبأ إبراهيم". وإن شئت خففتهما فقلت: "نبا ابراهيم". وإن شئت خففت الأولى. وثَمَّ وجه خامس إلا أنه بعيد في العربية وهو أن يدغم الهمزة في الهمزة كما يقال رأّاس للذي يبيع الرؤوس. وإنما بعد لأنك تجمع بين همزتين كأنهما في كلمة واحدة، وحسن في فَعَّال لأنه لا يأتي إلا مدغماً. ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أي أي شيء تعبدون ﴿قالوا نعبد أصناماً﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب. ﴿فنظل لها عاكفين﴾ أي فنقيم على عبادتها. وليس المراد وقتاً معيناً بل هو إخبار عما هم فيه. وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وكانوا في الليل يعبدون الكواكب. فيقال: ظل يفعل كذا إذا فعله نهاراً وبات يفعل كذا إذا فعله ليلاً. ﴿قال هل يسمعونكم﴾ قال الأخفش: فيه حذف؛ والمعنى: هل يسمعون منكم؟ أو هل يسمعون دعاءكم؛ قال الشاعر:

القائد الخيل منكوباً دوابرها قد أُحكمت حكمات القدِّ والأبقا

قال: والأبق الكتان فحذف. والمعنى؛ وأحكمت حكمات الأبق. وفي الصحاح: والأبق بالتحريك القنَّب. وروي عن قتادة أنه قرأ: "هل يُسمعونكم" بضم الياء؛ أي هل يسمعونكم أصواتهم. ﴿إذ تدعون*أو ينفعونكم أو يضرون﴾ أي هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيراً أو ضراً إن عصيتم؟! وهذا استفهام لتقرير الحجة؛ فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فما معنى عبادتكم لها. ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ فنزعوا إلى التقليد من غير حجة ولا دليل. وقد مضى القول فيه. ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون﴾ من هذه الأصنام ﴿أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾ الأولون ﴿فإنهم عدو لي﴾ واحد يؤدي عن جماعة، وكذلك يقال للمرأة هي عدو الله وعدوة الله؟ حكاهما الفراء. قال علي بن سليمان: من قال عدوة الله وأثبت الهاء قال هي بمعنى معادية، ومن قال عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب. ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدو لي إن عبدتهم يوم القيامة؛ كما قال: ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ (مريم: ٨٢). وقال الفراء: هو من المقلوب؛ مجازه: فإني عدو لهم لأن من عاديته عاداك. ﴿إلا رب العالمين﴾ قال الكلبي: أي إلا من عبد رب العالمين؛ إلا عابد رب العالمين؛ فحذف المضاف. قال أبو إسحاق الزجاج: قال النحويون هو استثناء ليس من الأول؛ وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله. وتأوله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتهم عدوّ لي يوم القيامة؛ على ما ذكرنا. وقال الجرجاني: تقديره: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين فإنهم عدو لي. وإلا بمعنى دون وسوى؛ كقوله: ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ (الدخان: ٥٦) أي دون الموتة الأولى.

قولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ أي يرشدني إلى الدين. ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ أي يرزقني. ودخول "هو" تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقي؛ كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا؛ أي لم يفعلـه غيره. ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ قال: "مرضت" رعاية للأدب وإلا فالمرض والشـفاء من الله عز وجل جميعا. ونظيره قول فتى موسى: ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان ﴾ (الكهف: ٦٣). ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب؛ فبين أن الله هو الذي يميت ويحيي. وكلـه بغير ياء: "يهدين" "يشفين" لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلـها. وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحلـه من العربية هذه كلـها بالياء؛ لأن الياء اسم وإنما دخلت النون لعلة.

فإن قيل: هذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلـها إبراهيم دليلا على هدايته ولـم يهتد بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجاً على وجوب الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها؛ وهذا إلزام صحيح.

قلت: وتجوَّز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فعدل عن ظاهر ما ذكرناه إلى ما تدفعه بداثه العقول من أنه ليس المراد من إبراهيم. فقال: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ أي يطعمني لذة الإيمان ويسقين حلاوة القبول. ولـهم في قولـه: ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وجهان: أحدهما: إذا مرضت بمخالفته شفاني برحمته. الثاني: إذا مرضت بمقاساة الخلق، شفاني بمشاهدة الحق. وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة. وتأولوا قولـه: ﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾ على ثلاثة أوجه: فالذي يميتني بالمعاصي يحييني بالطاعات. الثاني: يميتني بالخوف ويحييني بالرجاء. الثالث: يميتني بالطمع ويحييني بالقناعة. وقول رابع: يميتني بالعدل ويحييني بالفضل. وقول خامس: يميتني بالفراق ويحييني بالتلاق. وقول سادس: يميتني بالجهل ويحييني بالعقل؛ إلى غير ذلك مما ليس بشيء منه مراد من الآية؛ فإن هذه التأويلات الغامضة، والأمور الباطنة، إنما تكون لمن حذق وعرف الحق، وأما من كان في عمى عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز لـه الأمور الباطنة، وتترك الأمور الظاهرة؟ هذا محال. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي ﴾ "أطمع" أي أرجو. وقيل: هو بمعنى اليقين في حقه، وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواه. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: "خطاياي" وقال: ليست خطيئة واحدة. قال النحاس: خطيئة بمعنى خطايا معروف في كلام العرب، وقد أجمعوا على التوحيد في قولـه عز وجل: ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ (الملك: ١١) ومعناه بذنوبهم. وكذا ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ (البقرة: ٤٣) معناه الصلوات. وكذا "خطيئتي" إن كانت خطايا. والله أعلم. قال مجاهد: يعني بخطيئته قولـه: ﴿ بل فعلـه كبيرهم هذا ﴾ (الأنبياء: ٦٣) وقولـه: ﴿ إني سقيم ﴾ (الصافات:

٨٩) وقولـه: إن سارة أخته. زاد الحسن وقولـه للكوكب: ﴿هذا ربي ﴾(الأنعام: ٧٦) وقد مضى بيان هذا مستوفى. وقال الزجاج: الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطية؛ نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها. ﴿يوم الدين ﴾يوم الجزاء حيث يجازي العباد بأعمالـهم. وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور لـه. وفي صحيح مسلم عن عائشة؛ قلت يا رسول الله: ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: "لا ينفعه إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين"[1].

قولـه تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

قولـه تعالىٰ: ﴿ رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ "حكماً" معرفة بك وبحدودك وأحكامك؛ قاله ابن عباس. وقال مقاتل: فهماً وعلماً؛ وهو راجع إلى الأول. وقال الكلبي: نبوة ورسالة إلى الخلق. "وألحقني بالصالحين" أي بالنبيين من قبلي في الدرجة. وقال ابن عباس: بأهل الجنة؛ وهو تأكيد قولـه: "هب لي حكماً".

قولـه تعالى: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾قال ابن عباس: هو اجتماع الأمم عليه. وقال مجاهد: هو الثناء الحسن. قال ابن عطية: هو الثناء وخلد المكانة بإجماع المفسرين؛ وكذلك أجاب الله دعوته، وكل أمة تتمسك به وتعظمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ. وقال مكي: وقيل معناه سؤالـه أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق؛ فأجيبت الدعوة في محمد ﷺ. قال ابن عطية: وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكم على اللفظ. وقال القشيري: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة؛ فإن زيادة الثواب مطلوبة في حق كل أحد.

قلت: وقد فعل الله ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات. والصلاة دعاء بالرحمة. والمراد باللسان القول، وأصلـه جارحة الكلام. قال القتبي: وموضع اللسان موضع القول على الاستعارة، وقد تكني العرب بها عن الكلمة. قال الأعشى:

إنـي أتتـني لسـان لا أُسَــرُّ بها من عَلْوُ لا عَجَبٌ منها ولا سَخَرُ

قال الجوهري: يروى من علو بضم الواو وفتحها وكسرها. أي أتاني خبر من أعلى، والتأنيث للكلمة. وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر. روى أشهب عن مالك قال: قال الله عز وجل: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً ويرى في عمل

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٤٠).

الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ (طه: ٣٩) وقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لـهم الرحمن ودا﴾ (مريم: ٩٦) أي حبآً في قلوب عباده وثناء حسناً، فنبه تعالى بقولـه: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل. الليث بن سليمان: إذ هي الحياة الثانية. قيل:

قد مات قوم وهم في الناس أحياء

قال ابن العربي: قال المحققون من شيوخ الزهد في هذا دليل على الترغيب في العمل الصالح الذي يكسب الثناء الحسن، قال النبي ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عملـه إلا من ثلاث" [1] الحديث وفي رواية إنه كذلك في الغرس والزرع وكذلك فيمن مات مرابطاً يكتب لـه عملـه إلى يوم القيامة. وقد بيناه في آخر "آل عمران" والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ دعاء بالجنة وبمن يرثها، وهو يرد قول بعضهم: لا أسأل جنة ولا ناراً. ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ كان أبوه وعده في الظاهر أن يؤمن به فاستغفر لـه لـهذا، فلما بان أنه لا يفي بما قال تبرأ منه. وقد تقدم هذا المعنى. ﴿إنه كان من الضالين﴾ أي المشركين. "وكان" زائدة.

قولـه تعالى: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد، أو لا تعذبني يوم القيامة. وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة" [2] والغبرة هي القترة. وعنه عن النبي ﷺ قال: "يلقى إبراهيم أباه فيقول يا رب إنك وعدتني إلا تخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين" [3] انفرد بهما البخاري رحمه الله.

قولـه تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ "يوم" بدل من "يوم" الأول. أي يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً. والمراد بقولـه: "ولا بنون" الأعوان؛ لأن الابن إذا لم ينفع فغيره متى ينفع؟ وقيل: ذكر البنين لأنه جرى ذكر والد إبراهيم، أي لم ينفعه إبراهيم. ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ هو استثناء من الكافرين؛ أي لا ينفعه مالـه ولا بنوه. وقيل: هو استثناء من غير الجنس، أي لكن "من أتى الله بقلب سليم" ينفعه لسلامة قلبه. وخص القلب بالذكر؛ لأنه الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح. وقد تقدم في أول "البقرة". واختلف في القلب السليم فقيل: من الشك والشرك، فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد؛ قال قتادة وابن زيد وأكثر المفسرين. وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾ (البقرة: ١٠) وقال أبو عثمان السياري: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة. وقال الحسن: سليم من آفة المال والبنين. وقال الجنيد: السليم في اللغة: اللديغ؛ فمعناه أنه قلب كاللديغ من خوف الله. وقال الضحاك: السليم: الخالص.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٦٩).

قلت: وهذا القول يجمع شتات الأقوال بعمومه وهو حسن، أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة؛ والله أعلم. وقد روي عن عروة أنه قال: يا بني لا تكونوا لعانين فإن إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، قال الله تعالى: ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ (الصافات: ٨٤). وقال محمد ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة قائمة، وأن الله يبعث من في القبور. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير"[١] يريد ـ والله أعلم ـ أنها مثلها في أنها خالية من ذنب، سليمة من كل عيب، لا خبرة لهم بأمور الدنيا؛ كما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "أكثر أهل الجنة البُلْه"[٢] وهو حديث صحيح. أي البله عن معاصي الله. قال الأزهري: الأبله هنا هو الذي طبع على الخير وهو غافل عن الشر لا يعرفه. وقال القتبي: البُلْه هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس.

قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨) وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٤)﴾

قوله تعالى: ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قربت وأدنيت ليدخلوها. وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها. ﴿وبرزت﴾ أي أظهرت ﴿الجحيم﴾ يعني جهنم. ﴿للغاوين﴾ أي الكافرين الذين ضلوا عن الهدى. أي تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن، كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة. ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون، من دون الله﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هل ينصرونكم﴾ من عذاب الله ﴿أو ينتصرون﴾ لأنفسهم. وهذا كله توبيخ. ﴿فكبكبوا فيها﴾ أي قلبوا على رؤوسهم. وقيل: دهوروا وألقي بعضهم على بعض. وقيل: جمعوا. مأخوذ من الكبكبة وهي الجماعة؛ قاله الهروي. وقال النحاس: هو مشتق من كوكب الشيء أي معظمه. والجماعة من الخيل كوكب وكبكبة. وقال ابن عباس: جمعوا فطرحوا في النار. وقال مجاهد: دهوروا. وقال مقاتل: قذفوا. والمعنى واحد. تقول: دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفته

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٠).
(٢) ضعيف، أخرجه البزار عن أنس كما في ضعيف الجامع (١٠٩٦).

في مهواة. يقال: هو يدهور اللقم إذا كبرها. ويقال: في الدعاء كب الله عدو المسلمين ولا يقال أكبه. وكبكبه، أي كبه وقلبه. ومنه قولـه تعالى: ﴿فكبكبوا فيها﴾ والأصل كُبِّبوا فأبدل من الباء الوسطى كاف استثقالا لاجتماع الباءات. قال السدي: الضمير في "كبكبوا" لمشركي العرب ﴿هم والغاوون﴾ الآلـهة. ﴿وجنود إبليس﴾ من كان من ذريته. وقيل: كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فاتبعه. وقال قتادة والكلبي ومقاتل: "الغاوون" هم الشياطين. وقيل: إنما تلقي الأصنام في النار وهي حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم. ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذ. ﴿تالله﴾ حلفوا بالله ﴿إن كنا لفي ضلال مبين﴾ أي في خسارة وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلـهة فعبدناها كما يعبد؛ وهذا معنى قولـه: ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ أي في العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم.

قولـه تعالى: ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام. وقيل: أسلافنا الذين قلدناهم. قال أبو العالية وعكرمة: "المجرمون" إبليس وابن آدم القاتل هما أول من سن الكفر والقتل وأنواع المعاصي. ﴿فما لنا من شافعين﴾ أي شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين. ﴿ولا صديق حميم﴾ أي صديق مشفق؛ وكان علي ﷺ يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة؛ ألا تسمع إلى قول أهل النار: "فما لنا من شافعين ولا صديق حميم". الزمخشري: وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحد الصديق لقلته؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته؛ رحمة لـه وحسبة وإن لم تسبق لـه بأكثرهم معرفة؛ وأما الصديق فهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأنوق؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى لـه. ويجوز أن يريد بالصديق الجمع. والحميم القريب والخاص؛ ومنه حامّة الرجل أي أقرباؤه. وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار؛ ومنه الحمَّام والحمَّى؛ فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه؛ يقال: وهم حزانته أي يحزنهم ما يحزنه. ويقال: حمَّ الشيء وأحمَّ إذا قرب، ومنه الحمَّى؛ لأنها تقرِّب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه، فجعلـه مأخوذاً من الحمية. وقال قتادة: يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودة الصديق ورقة الحميم. ويجوز: "ولا صديق حميم" بالرفع على موضع "من شافعين"؛ لأن "من شافعين" في موضع رفع. وجمع صديق أصدقاء وصدقاء وصداق. ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره. وحكى الكوفيون: أنه يقال في جمعه صُدْقان. النحاس: وهذا بعيد؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغيف ورغفان. وحكموا أيضاً صديق وأصادق. وأفاعل إنما هو جمع أفعل إذا لم يكن نعتاً نحو أشجع وأشاجع. ويقال: صديق للواحد والجماعة وللمرأة؛ قال الشاعر:

نصبن الـهوى ثم ارتمين قلوبنا   بأعـين أعـداء وهـن صـــديق

ويقال: فلان صُدَيِّقي أي أخص أصدقائي، وإنما يصغر على جهة المدح؛ كقول حباب بن المنذر: (أنا جُذَيْلُـها المحكَّك، وعُذَيْقُها المرجَّب) ذكره الجوهري. النحاس: وجمع حميم أحماء وأحمة وكرهوا

أفعلاء للتضعيف. ﴿فلو أن لنا كرة﴾ "أنَّ" في موضع رفع، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء. تمنوا حين لا ينفعهم التمني. وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون. قال جابر بن عبد الله قال النبي ﷺ: "إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع لـه حتى يشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون: ﴿ما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾". وقال الحسن: ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبد من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون. وقال كعب: إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا، فيمر أحدهما بصاحبه وهو يجر إلى النار، فيقول لـه أخوه: والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجو بها، خذها أنت يا أخي فتنجو بها مما أرى، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف. قال: فيأمر الله بهما جميعاً فيدخلان الجنة. ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين*وإن ربك لـهو العزيز الرحيم﴾ تقدم والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)﴾

قولـه تعالى: ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين﴾ قال "كذبت" والقوم مذكر؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح، وقال: "المرسلين" لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل. وقيل: كذبوا نوحاً في النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده. وقيل: ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام. وقد مضى هذا في "الفرقان". ﴿إذ قال لـهم أخوهم نوح﴾ أي ابن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين. وقيل: هي أخوة المجانسة. قال الله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ (إبراهيم: ٤) وقد مضى هذا في "الأعراف". وقيل: هو من قول العرب يا أخا بني تميم. يريدون يا واحداً منهم. الزمخشري: ومنه بيت الحماسة:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

﴿ألا تتقون﴾ أي ألا تتقون الله في عبادة الأصنام. ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى. وقيل: "أمين" فيما بينكم؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل؛ كمحمد ﷺ في قريش. ﴿فاتقوا الله﴾ أي فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه. ﴿وأطيعون﴾ فيما آمركم به من الإيمان. ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي لا طمع لي في مالكم. ﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾ أي ما جزائي ﴿إلا على رب العالمين﴾. ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ كرر تأكيدا.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ قالوا أنؤمن لك ﴾ أي نصدق قولك. ﴿واتبعك الأرذلون﴾ الواو للحال وفيه إضمار قد، أي وقد اتبعك. "الأرذلون" جمع الأرذل، المكسر الأراذل والأنثى الرذلى والجمع الرُّذَل. قال النحاس: ولا يجوز حذف الألف واللام في شيء من هذا عند أحد من النحويين علمناه. وقرأ ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم، "وأتباعك الأرذلون". النحاس: وهي قراءة حسنة؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقد. وأتباع جمع تبع وتبيع يكون للواحد والجمع. قال الشاعر:

لـه تبـع قـد يعلم الناس أنـه على من يداني صيف وربيع

ارتفاع "أتباعك" يجوز أن يكون بالابتداء و"الأرذلون" الخبر؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قولـه: "أنؤمن لك" والتقدير: أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعد منهم؛ وحسن ذلك الفصل بقولـه: "لك" وقد مضى القول في الأراذل في سورة "هود" مستوفى. ونزيده هنا بياناً فقيل:

الثانية: إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكنَّاته وبنو بنيه. واختلف هل كان معهم غيرهم أم لا. وعلى أن الوجهين كان فالكل صالحون؛ وقد قال نوح: ﴿ونجني ومن معي من المؤمنين﴾ والذين معه هم الذين اتبعوه، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذم بل الأرذلون هم المكذبون لـهم. قال السهيلي: وقد أغري كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية: هم الحاكة والحجامون. ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبي الله واتباعهم لـه مشرفاً كما تشرف بلال وسلمان بسبقهما للإسلام؛ فهما من وجوه أصحاب النبي ﷺ ومن أكابرهم، فلا ذرية نوح كانوا حاكة ولا حجامين، ولا قول الكفرة في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذماً ولا نقصاً؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقالتهم أصلاً؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين.

قولـه تعالى: ﴿ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ "كان" زائدة؛ والمعنى: وما علمي بما يعملون؛ أي لم أكلف العلم بأعمالـهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع؛ وكأنهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال. فقال: إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليَّ ظاهرهم. وقيل: المعنى إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويرشدهم ويغويكم ويوفقهم ويخذلكم. ﴿إن حسابهم﴾ أي في أعمالـهم وإيمانهم ﴿إلا على ربي لو

تشعرون﴾ وجواب "لو" محذوف؛ أي لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم. وقراءة العامة: "تشعرون" بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر وقرأ ابن أبي عبلة ومحمد بن السميقع: "لو يشعرون" بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم؛ نحو قوله: ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ (يونس: ٢٢). وروي أن رجلاً سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهي مسلمة هل يقطع لها بالنار ؟ فقال: "إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون" . ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ أي لخساسة أحوالهم وأشغالهم. وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش. ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ يعني: إن الله ما أرسلني أخص ذوي الغني دون الفقراء، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيراً.

قوله تعالى: ﴿ قالوا لئن لم تنته يانوح ﴾ أي عن سب آلهتنا وعيب ديننا ﴿لتكونن من المرجومين﴾ أي بالحجارة؛ قاله قتادة. وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين. قال الثمالي: كل مرجومين في القرآن فهو القتل إلا في مريم: ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك ﴾ (مريم: ٤٦) أي لأسبنك. وقيل: "من المرجومين" من المشتومين؛ قاله السدي. ومنه قول أبي دؤاد. ﴿قال رب إن قومي كذبون*فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين﴾ قال ذلك لما يئس من إيمانهم. والفتح الحكم وقد تقدم. ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها. والمشحون المملوء، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم. ولم يؤنث الفلك ها هنا؛ لأن الفلك ها هنا واحد لا جمع ﴿ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ أي بعد إنجائنا نوحاً ومن آمن. ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين*وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠)﴾

قولـه تعالى: ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة. وتكذيبهم المرسلين كما تقدم. ﴿إذ قال لـهم أخوهم هود ألا تتقون*إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون*وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ الريع ما ارتفع من الأرض في قول ابن عباس وغيره، جمع ريعة. وكم ريع أرضك أي كم ارتفاعها. وقال قتادة: الريع الطريق. وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدي. وقاله ابن عباس أيضاً. ومنه قول السيب بن علس:

في الآل يخفضها ويرفعها ريـع يلـوح كأنه سـحل

شبه الطريق بثوب أبيض. النحاس: ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريع وللطريق ريع. قال الشاعر:

طراق الخوافي مشرق فوق ريعة نـدى ليلـه فـي ريشـه يترقرق

وقال عمارة: الريع الجبل الواحد ريعة والجمع رياع. وقال مجاهد: هو الفج بين الجبلين. وعنه: الثنية الصغيرة. وعنه: المنظرة. وقال عكرمة ومقاتل: كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا، فبنوا على الطريق أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها: يدل عليه قولـه تعالى: "آية" أي علامة. وعن مجاهد: الريع بنيان الحمام دليلـه "تعبثون" أي تلعبون؛ أي تبنون بكل مكان مرتفع آية. علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها. وقيل: تعبثون بمن يمر في الطريق. أي تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم. وقال الكلبي: إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم؛ ذكره الماوردي. وقال ابن الأعرابي: الريع الصومعة، والريع البرج من الحمام يكون في الصحراء. والريع التل العالي. وفي الريع لغتان: كسر الراء وفتحها وجمعها أرياع، ذكره الثعلبي.

قولـه تعالى: ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ أي منازل؛ قالـه الكلبي. وقيل: حصوناً مشيدة؛ قال ابن عباس ومجاهد. ومنه قول الشاعر:

تركنا ديارهم منهم قفارا وهدمنا المصانع والبروجا

وقيل: قصوراً مشيدة؛ وقالـه مجاهد أيضاً. وعنه: بروج الحمام؛ وقالـه السدي.

قلت: وفيه بعد عن مجاهد؛ لأنه تقدم عنه في الريع أنه بنيان الحمام فيكون تكراراً في الكلام. وقال قتادة: مآجل للماء تحت الأرض. وكذا قال الزجاج: إنها مصانع الماء، واحدتها مصنعة ومصنع. ومنه قول لبيد:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبـقى الجبال بعدنا والمصانع

الجوهري: المصنعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر، وكذلك المصنعة بضم النون. والمصانع الحصون. وقال أبو عبيدة: يقال لكل بناء مصنعة. حكاه المهدوي. وقال عبد الرزاق: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية. ﴿لعلكم تخلدون﴾ أي كي تخلدوا. وقيل: لعل استفهام بمعنى التوبيخ أي فهل "تخلُدون" كقولك: لعلك تشتمني أي هل تشتمني. روي معناه عن ابن زيد. وقال الفراء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت. وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها. وفي بعض القراءات "كأنكم تخلَّدون" ذكره النحاس. وحكى قتادة: أنها كانت في بعض القراءات "كأنكم خالدون".

قولـه تعالى: ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾البطش السطوة والأخذ بالعنف وقد بَطَش به يبطُش ويبطش بطشاً. وباطشه مباطشة. وقال ابن عباس ومجاهد: البطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسَوط. ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلماً. وقال مجاهد أيضاً: هو ضرب بالسياط ؛ ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي. وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق. حكاه يحيى بن سلام. وقال الكلبي والحسن: هو القتل على الغصب من غير تثبت. وكلـه يرجع إلى قول ابن عباس. وقيل: إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء. قال ابن العربي: ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى: ﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لـهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾(القصص: ١٩) وذلك أن موسى عليه السلام لم يسلّ عليه سيفاً ولا طعنه برمح، وإنما وكزه وكانت منيته في وكزته. والبطش يكون باليد وأقلـه الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكل مذموم إلا بحق. والآية نزلت خبراً عمن تقدم من الأمم، ووعظاً من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم.

قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق. وقد أخبر ﷺ أن ذلك يكون. كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا"[1]. وخرَّج أبو دواد من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم"[2]. "جبارين" قتالين. والجبَّار القتَّال في غير حق. وكذلك قولـه تعالى: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾ (القصص: ١٩) قالـه الـهروي. وقيل: الجبار المتسلط العاتي؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار ﴾(ق: ٤٥) أي بمسلط. وقال الشاعر:

سلبنا من الجبار بالسيف ملكه   عشياً وأطراف الرماح شوارع

قولـه تعالى: ﴿فاتقوا الله وأطيعون ﴾تقدم. ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ﴾أي من الخيرات؛ ثم فسرها بقولـه: ﴿أمدكم بأنعام وبنين *وجنات وعيون ﴾أي سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر. ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾إن كفرتم به وأصررتم على ذلك. ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لـم تكن من الواعظين ﴾كل ذلك عندنا سواء لا نسمع منك ولا نلوي على ما تقولـه. وروى العباس عن أبي عمرو وبشر عن الكسائي: "أوعظّتَّ" مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جداً وكان مثلـه

---

(١)أخرجه مسلم (٢١٢٨).

(٢)صحيح، انظر صحيح الجامع (٤٢٣).

ومخرجه. ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ أي دينهم؛ عن ابن عباس وغيره. وقال الفراء: عادة الأولين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: "خَلْقُ الأولين". الباقون "خُلُقُ". قال الـهروي: وقول عز وجل: ﴿إن هذا إلا خَلْقُ الأولين﴾ أي اختلافهم وكذبهم، ومن قرأ: "خُلُقُ الأولين" فمعناه عادتهم، والعرب تقول: حدثنا فلان بأحاديث الخلق أي بالخرافات والأحاديث المفتعلة. وقال ابن الأعرابي: الخلق الدين والخلق الطبع والخلق المروءة. قال النحاس: "خلق الأولين" عند الفراء يعني عادة الأولين. وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: "خلق الأولين" مذهبهم وما جرى عليه أمرهم؛ قال أبو جعفر: والقولان متقاربان، ومنه الحديث عن النبي ﷺ "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً"[1] أي أحسنهم مذهباً وعادة وما يجري عليه الأمر في طاعة الله عز وجل، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً، ولا أن يكون أكمل إيماناً من السيئ الخلق الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: حكي لنا عن محمد بن يزيد أن معنى "خَلْقُ الأولين" تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى؛ لأن فيها مدح آبائهم، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم، وقولـهم: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ (الزخرف: ٢٣). وعن أبي قلابة: أنه قرأ: خُلْقُ" بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف "خُلُقُ". ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع. وقد قيل: إن معنى "خلق الأولين" دين الأولين. ومنه قولـه تعالى: ﴿فليغيرن خلق الله﴾ (النساء: ١١٩) أي دين الله. و"خلق الأولين" عادة الأولين: حياة ثم موت ولا بعث. وقيل: ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدي بهم. ﴿وما نحن بمعذبين﴾ على ما نفعل. وقيل: المعنى خلق أجسام الأولين؛ أي ما خلقنا إلا كخلق الأولين الذين خلقوا قبلنا وماتوا، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب. ﴿فكذبوه فأهلكناهم﴾ أي بريح صرصر عاتية على ما يأتي في "الحاقة". ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ قال بعضهم: أسلم معه ثلاثمائة ألف ومئون وهلك باقيهم. ﴿وإن ربك لـهو العزيز الرحيم﴾.

قولـه تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا

(١) صحيح، انظر صحيح الجامع (١٢٣٠).

شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود؛ وكانوا يسكنون الحجر كما تقدم في «الحجر» وهي ذوات نخل وزروع ومياه. ﴿أتتركون في ما ههنا آمنين﴾ يعني في الدنيا آمنين من الموت والعذاب. قال ابن عباس: كانوا معمرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم. ودل على هذا قوله: ﴿واستعمركم فيها﴾ (هود: ٦١) فقرعهم صالح ووبخهم وقال: أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿في جنات وعيون*وزروع ونخل طلعها هضيم﴾. الزمخشري: فإن قلت لم قال: «ونخل» بعد قوله: و«جنات» والجنات تتناول النخل أول شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير:

كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقي جنة سحقا

يعني النخل؛ والنخلة السحوق البعيدة الطول. قلت: فيه وجهان؛ أحدهما: أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عنها. والثاني: أن يريد بالجنات غيرها من الشجر؛ لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل. والطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف؛ في جوفه شماريخ القنو، والقنو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. و«هضيم» قال ابن عباس: لطيف ما دام في كُفُرّاه. والهضيم اللطيف الدقيق؛ ومنه قول امرئ القيس:

علي هضيم الكشح ريا المخلخل

الجوهري: ويقال للطلع هضيم ما لم يخرج من كُفُرّاه؛ لدخول بعضه في بعض. والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين. ونحوه حكى الهروي؛ قال: هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر؛ ومنه رجل هضيم الجنبين أي منضمهما؛ هذا قول أهل اللغة. وحكى الماوردي وغيره في ذلك اثني عشر قولاً: أحدها: أنه الرطب اللين؛ قاله عكرمة. الثاني: هو المذنِّب من الرطب؛ قاله سعيد بن جبير. قال النحاس: وروى أبو إسحاق عن يزيد ـ هو ابن أبي زياد كوفي ويزيد بن أبي مريم شامي ـ «ونخل طلعها هضيم» قال: منه ما قد أرطب ومنه مذنِّب. الثالث: أنه الذي ليس فيه نوى؛ قاله الحسن. الرابع: أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتت؛ قال مجاهد. وقال أبو العالية: يتهشم في الفم. الخامس: هو الذي قد ضمر بركوب بعضه بعضاً؛ قاله الضحاك ومقاتل. السادس: أنه المتلاصق بعضه ببعض؛ قاله أبوصخر. السابع: أنه الطلع حين يتفرق ويخضر؛ قاله الضحاك أيضاً. الثامن: أنه اليانع النضيج؛ قاله ابن عباس. التاسع: أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر؛ حكاه ابن شجرة؛ قال:

كأن حمولــة تجــلى عليــه هضيم ما يحس لـه شقوق

العاشر: أنه الرخو؛ قاله الحسن. الحادي عشر: أنه الرخص اللطيف أول ما يخرج وهو الطلع النضيد؛ قالـه الـهروي. الثاني عشر: أنه البرني؛ قالـه ابن الأعرابي؛ فعيل بمعنى فاعل أي هنيء مريء من انهضام الطعام. والطلع اسم مشتق من الطلوع وهو الظهور؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات.

قولـه تعالى: ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ النحت النَّجْر والبَرْي؛ نحته ينحته (بالكسر) نحتاً إذا براه والنحاتة البراية. والمنحت ما ينحت به. وفي "والصافات" قال: ﴿ أتعبدون مَا تنحتون ﴾ (الصافات: ٩٥). وكانوا ينحتونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: "فرهين" بغير ألف. الباقون: "فارهين" بألف وهما بمعنى واحد في قول أبي عبيدة وغيره؛ مثل: ﴿ عظاماً نخرة ﴾ (النازعات: ١١) و"ناخرة". وحكاه قطرب. وحكى فره يفره فهو فاره وفَرِهَ يَفْرَه فهو فرهٌ وفاره إذا كان نشيطاً. وهو نصب على الحال. وفرق بينهما قوم فقالوا: "فارهين" حَاذقين بنحتهاَ؛ قالـه أبو عبيدة؛ وروي عن ابن عباس وأبي صالح وغيرهما. وقال عبد الله بن شداد: "فارهين" متجبرين. وروي عن ابن عباس أيضاً أن معنى: "فرهين" بغير ألف أشرين بطرين؛ وقالـه مجاهد. وروي عنه شرهين. الضحاك: كيِّسين. قتادة: معجَبين؛ قالـه الكلبي؛ وعنه: ناعمين. وعنه أيضا آمنين؛ وهو قول الحسن. وقيل: متخيرين؛ قالـه الكلبي والسدي. ومنه قول الشاعر:

إلـى فَـره يماجــد كل أمــر قصدت لـه لأختبر الطباعا

وقيل: متعجبين؛ قاله خصَيف. وقال ابن زيد: أقوياء. وقيل: فرهين فرحين؛ قالـه الأخفش. والعرب تعاقب بين الـهاء والحاء؛ تقول: مدهته ومدحته؛ فالفره الأشر الفرح ثم الفرَح بمعنى المرَح مذموم؛ قال الله تعالى: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ (الإسرَاء: ٣٧) وقَال: ﴿ إن الله لا يحب الفَرِحين ﴾ (القصص: ٧٦). ﴿فاتقوا الله وأطيعون*ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾ قيل: المراد الذين عقروا الناقة. وقيل: التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قال السدي وغيره: أوحى الله تعالى إلى صالح: إن قومك سيعقرون ناقتك؛ فقال لـهم ذلك، فقالوا: ما كنا لنفعل. فقال لـهم صالح: إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه؛ فقالوا: لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه. فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد لـه قبل ذلك. وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتاً سريعاً؛ وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا. وغضب التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتلـهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهلـه. قالوا: نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون في غار، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهلـه وإنا لصادقون؛ فيصدقوننا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر. وكان صالح لا ينام معهم في القرية وكان يأوي إلى مسجده، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم

الغار فقتلهم، فرأى ذلك ناس ممن كان قد اطلع على ذلك، فصاحوا في القرية: يا عباد الله! أما رضي صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة. وقال ابن إسحاق: إنما اجتمع التسعة على سب صالح بعد عقرهم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتي بيانه في سورة "النمل" إن شاء الله تعالى. ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ هو من السحر في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي. أي أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا. وقيل: من المعللين بالطعام والشراب؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي. وهو على هذا القول من السحر وهو الرئة أي بَشَرٌ لك سحر أي رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال امرؤ القيس:

ونُسْحَرُ بالطعام وبالشراب

﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾ في قولك. ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ قال ابن عباس: قالوا إن كنت صادقاً فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء فتضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبناً. فدعا الله وفعل الله ذلك فـ﴿قال هذه ناقة لها شرب﴾ أي حظ من الماء؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً. قال الفراء: الشِّرب الحظ من الماء. قال النحاس: فأما المصدر فيقال فيه شَرِبَ شَرْباً وشِرباً وشُرباً وأكثرها المضمومة؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشِّرب الحظ من الماء، ويكون الشَّرْب جمع شارب كما قال:

فقلت للشَّرب في دُرْنا وقد ثَملوا

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرب بالفتح في الصدر، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبي ﷺ قال: «إنها أيام أكل وشَرب»[1]. ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ لا يجوز إظهار التضعيف ها هنا؛ لأنهما حرفان متحركان من جنس واحد. ﴿فيأخذكم﴾ جواب النهي، ولا يجوز حذف الفاء منه، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئاً روي عن الكسائي أنه يجيزه. ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ أي على عقرها لما أيقنوا بالعذاب. وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب. وقيل: لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها. وهو بعيد. ﴿إن في ذلك لآية﴾ إلى آخره تقدم. ويقال: إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانمائة رجل وامرأة. وقيل: كانوا أربعة آلاف. وقال كعب: كان قوم صالح اثني عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثني عشر ألفاً من سوى النساء والذرية، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات.

---

(1) أخرجه مسلم وغيره بلفظ: "أيام التشريق أيام أكل وشرب..".

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ۝ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾ مضى معناه. وقصته في "الأعراف" و"هود" مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم "في الأعراف". ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح. قال إبراهيم بن مهاجر: قال لي مجاهد كيف يقرأ عبد الله: "وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم" قلت: "وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم" قال: الفرج؛ كما قال: ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ (البقرة: ٢٢٢). ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي متجاوزون لحدود الله. ﴿قالوا لئن لم تنته يالوط﴾ عن قولك هذا. ﴿لتكونن من المخرجين﴾ أي من بلدنا وقريتنا. ﴿ قال إني لعملكم﴾ يعني اللواط ﴿من القالين﴾ أي المبغضين والقلى البغض؛ قليته أقليه قليّ وقَلاء. قال:

فلست بمقليِّ الخِلال ولا قالي

وقال آخر:

عليك السلام لا مللت قريبة ... ومـا لك عندي إن نأيت قلاء

﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي من عذاب عملـهم. دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم.

قوله تعالى: ﴿ فنجيناه وأهلـه أجمعين ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدم في "هود". ﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرت في عذاب الله عز وجل أي بقيت. وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقين في الـهرم أي بقيت حتى هرمت. قال النحاس: يقال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال:

لا تكسع الشَّول بأغبارها ... إنـك لا تدري من الناتج

وكما قال:

فما ونى محمد مذ أن غفر   له الإله ما مضى وما غبر

أي ما بقي. والأغبار بقيات الألبان. ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم بالسخف والحصب؛ قال مقاتل: خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية. ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ يعني الحجارة ﴿فساء مطر المنذرين﴾ وقيل: إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها الله بالحجارة. ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة. ومن قرأ: "أصحاب الأيكة" فهي الغيضة. ومن قرأ: "ليكة" فهو اسم القرية. ويقال: هما مثل بكة ومكة؛ قاله الجوهري. وقال النحاس: وقرأ أبو جعفر ونافع: "كذب أصحاب ليكة المرسلين" وكذا قرأ: في "ص". وأجمع القراء على الخفض في التي في سورة "الحجر" والتي في سورة "ق" فيجب أن يرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحداً. وأما ما حكاه أبو عبيد من أن "ليكة" هي اسم القرية التي كانوا فيها وأن "الأيكة" اسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه. وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة؛ قال: والأيكة غيضة من شجر ملتف. وروى سعيد عن قتادة قال: كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامة شجرهم الدوم وهو شجر المقل. وروى ابن جبير عن الضحاك قال: خرج أصحاب الأيكة - يعني حين أصابهم الحر - فانضموا إلى الغيضة والشجر، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها، فلما تكاملوا تحتها أحرقوا. ولو لم يكن هذا إلا ما روي عن ابن عباس قال: و"الأيكة" الشجر. ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافاً أن الأيكة الشجر الملتف، فأما احتجاج بعض من احتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد

"ليكة" فلا حجة لـه؛ والقول فيه: إن أصلـه الأيكة ثم خففت الـهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت واستغنت عن ألف الوصل؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض؛ كما تقول بالأحمر تحقق الـهمزة ثم تخفضها بلحمر؛ فإن شئت كتبته في الخط على ما كتبته أولاً، وإن شئت كتبته بالحذف؛ ولم يجز إلا الخفض؛ قال سيبويه: واعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف انصرف؛ ولا نعلم أحداً خالف سيبويه في هذا. وقال الخليل: "الأيكة" غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. ﴿إذ قال لـهم شعيب﴾ ولم يقل أخوهم شعيب؛ لأنه لم يكن أخاً لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر مدين قال: ﴿ أخاهم شعيبا ﴾ (الأعراف: ٨٥)؛ لأنه كان منهم. وقد مضى في "الأعراف" القول في نسبه. قال ابن زيد: أرسل الله شعيباً رسولاً إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكـة؛ وقـال قتـادة. وقد ذكرناه. ﴿ألا تتقون﴾ تخافون الله ﴿ إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ﴾ الآية. وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة. ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ الناقصين للكيل والوزن. ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي أعطوا الحق. وقد مضى في "سبحان" وغيرها. ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ تقدم في "هود" وغيرها.

قولـه تعالى: ﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴾ قال مجاهد: الجبلة هي الخليقة. وجُبِل فلان على كذا أي خُلق؛ فالخُلُق جبِلَّة وجُبُلَّة وجبْلة وجُبْلة وجَبْلة ذكره النحاس في "معاني القرآن". "والجبلّة" عطف على الكاف والميم. قال الـهروي: الجبلَّة والجُبْلّة والجبلّ والجُبُلّ والجَبْلُ لغات؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ جبلاً كثيراً ﴾ (يس: ٦٢). قال النحاس في كتاب "إعراب القرآن" لـه: ويقال جُبُلَّة والجمع فيهما جَبَّال، وتحذف الضمة والكسرة من الباء، وكذلك التشديد من اللام؛ فيقال: جُبْلة وجُبَل، ويقال: جِبْلة وجِبال؛ وتحذف الـهاء من هذا كلـه. وقرأ الحسن باختلاف عنه: "والجُبُلَّة الأولين" بضم الجيم والباء؛ وروي عن شيبة والأعرج. الباقون بالكسر. قال:

والموت أعظم حادث فيما يمر على الجبلَّـه

﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدم. ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ أي ما نظنك إلا من الكاذبين في أنك رسول الله تعالى. ﴿فأسقط علينا كسْفا من السماء﴾ أي جانباً من السماء وقطعة منه، فننظر إليه؛ كما قال: ﴿ وإن يروا كسْفا من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ (الطور: ٤٤). وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب. وهو مبالغة في التكذيب. قال أبو عبيدة: الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدرة. وقرأ السلمي وحفص: "كسَفاً" جمع كسْفة أيضاً وهي القطعة والجانب تقديره كسْرة وكسَر. قال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء، يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كسَف وكسْف. ويقال: الكسف والكسفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ: "كسْفاً" جعلـه واحداً ومن قرأ: "كسَفاً" جعلـه جمعاً. وقد مضى هذا في سورة "سبحان" وقال

الهروي: ومن قرأ: "كسْفاً" على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف، كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً، وهو من كسفت الشيء كسفاً إذا غطيته. ﴿ إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون﴾ تهديد؛ أي إنما علي التبليغ وليس العذاب الذي سألتم وهو يجازيكم. ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ قال ابن عباس: أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا. وقيل: أقامها الله فوق رؤوسهم، وألهبها حراً حتى ماتوا من الرَّمْد. وكان من أعظم يوم في الدنيا عذاباً. وقيل: بعث الله عليهم سموماً فخرجوا إلى الأيكة يستظَلون بها فأضرمها الله عليهم ناراً فاحترقوا. وعن ابن عباس أيضاً وغيره: إن الله تعالى فتح عليهم باباً من أبواب جهنم، وأرسل عليهم هدة وحراً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر، فخرجوا هرباً إلى البرية، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها برداً وروحاً وريحاً طيبة، فنادى بعضهم بعضاً، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله تعالى عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى، فصاروا رماداً؛ فذلك قوله: ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين. كأن لم يغنوا فيها﴾ (هود: ٦٨) وقوله: ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ . وقيل: إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام، وسلط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظل ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب، ليتبردوا فيها فيجدوها أشد حراً من الظاهر. فهربوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة وهي الظلة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. وقال يزيد الجريري: سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيد؛ فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد، فاجتمعوا كلهم تحته، فوقع عليهم الجبل وهو الظلة. وقال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين: أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين. ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ قيل: آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ عاد إلى ما تقدم بيانه في أول السورة من إعراض المشركين عن القرآن.﴿ نزل به الروح الأمين* على قلبك﴾ "نزل" مخففاً قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو. الباقون: "نَزَّل" مشدداً "به الروح الأمين" نصباً وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله: "وإنه لتنزيل" وهو مصدر نزل، والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدر، لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك؛ كما قال تعالى: ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ (البقرة: ٩٧) أي يتلوه عليك فيعيه قلبك. وقيل: ليثبت قلبك. ﴿ لتكون من المنذرين* بلسان عربي مبين﴾ أي لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول. ﴿ وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي وإن ذكر نزوله لفي كتب الأولين يعني الأنبياء. وقيل: أي إن ذكر محمدﷺ في كتب الأولين؛ كما

قال تعالى: ﴿ يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ (الأعراف: ١٥٧) والزُّبرُ الكتب الواحد زبور كرسول ورسل؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ قال مجاهد: يعني عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما ممن أسلم. وقال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد عليه السلام، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته. فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول. وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب؛ لأنهم مظنون بهم علم. وقرأ ابن عامر: "أو لم تكن لهم آية". الباقون "أو لم يكن لهم آية" بالنصب على الخبر واسم يكن "أن يعلمه" والتقدير أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة. وعلى القراءة الأولى اسم كان "آية" والخبر "أن يعلمه علماء بني إسرائيل". وقرأ عاصم الجحدري: "أن تعلمه علماء بني إسرائيل". ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ أي على رجل ليس بعربي اللسان ﴿ فقرأه عليهم﴾ بغير لغة العرب لما أمنوا ولقالوا لا نفقه. نظيره: ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً﴾ (فصلت: ٤٤) الآية. وقيل: معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة وكبراً. يقال: رجل أعجم وأعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً، ورجل عجمي وإن كان فصيحاً ينسب إلى أصله؛ إلا أن الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي بمعنى أعجمي. وقرأ الحسن "على بعض الأعجميِّين" مشددة بياءين جعله نسبة. ومن قرأ: "الأعجمين" فقيل: إنه جمع أعجم. وفيه بعد؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون، ولا بالألف والتاء؛ لا يقال أحمرون ولا حمراوات. وقيل: إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدوي ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلاً عليها. قاله أبو الفتح عثمان بن جنِّي. وهو مذهب سيبويه.

قوله تعالى: ﴿ كذلك سلكناه﴾ يعني القرآن أي الكفر به ﴿ في قلوب المجرمين* لا يؤمنون به﴾ وقيل: سلكنا التكذيب في قلوبهم؛ فذلك الذي منعهم من الإيمان، قاله يحيى بن سلام. وقال عكرمة: القسوة. والمعنى متقارب وقد مضى في "الحجر" وأجاز الفراء الجزم في "لا يؤمنون"؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة. وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت؛ فتقول: ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم، لأن معناه إن لم أربطه ينفلت، والرفع بمعنى كيلا ينفلت. وأنشد لبعض بني عقيل:

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا   مساكنه لا يقرف الشر قارف

بالرفع لما حذف كي. ومن الجزم قول الآخر:

لطالما حلأتماها لا تَــردْ   فخلياها والسجال تبترد

قال النحاس: وهذا كلـه في "يؤمنون" خطأ عند البصريين، ولا يجوز الجزم بلا جازم، ولا يكون شيء يعمل عملاً فإذا حذف عمل عملاً أقوى من عمله وهو موجود، فهذا احتجاج بيِّن ﴿حتى يروا العذاب الأليم* فيأتيهم بغتة﴾ أي العذاب وقرأ الحسن: "فتأتيهم" بالتاء، والمعني: فتأتيهم الساعة بغتة فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها. وقال رجل للحسن وقد قرأ: "فتأتيهم": يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة. فانتهره وقال: إنما هي الساعة تأتيهم بغتة أي فجأة. ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانها. ﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ أي مؤخرون وممهلون. يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها. قال القشيري: وقوله: "فيأتيهم" ليس عطفاً على قوله: "حتى يروا" بل هو جواب قوله: "لا يؤمنون" فلما كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك قوله: "فيقولوا".

قولـه تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٠٩)﴾

قولـه تعالى: ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ قال مقاتل: قال المشركون للنبي ﷺ يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا تأتي به! فنزلت: "أفبعذابنا يستعجلون". ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين﴾ يعني في الدنيا والمراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره. ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب والهلاك ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ "ما" الأولى استفهام معناه التقرير، وهو في موضع نصب "بأغني" و"ما" الثانية في موضع رفع، ويجوز أن تكون الثانية نفياً لا موضع لـها. وقيل: "ما" الأولى حرف نفي، و"ما" الثانية في موضع رفع بـ "أغنى" والـهاء العائدة محذوفة. والتقدير: ما أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه. وعن الزهري: إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ: "أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون" ثم يبكي ويقول:

نهــارك يــا مغــرور ســهو وغفلــة   ولــيلك نــوم والـردى لـك لازم
فـلا أنــت في الأيقــاظ يقظــان حــازم   ولا أنـت في الـنوام نـاج فسـالم
تســـر بمـــا يفـــنى وتفـــرح بالمـــنى   كمـا سر باللذات في النوم حالم
وتســعى إلـى ما ســوف تكـــره غبه   كـذلك فـي الدنيا تعيش البهائم

قوله تعالى: ﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ "من" صلة؛ المعنى: وما أهلكنا قرية. ﴿إلا لـها منذرون﴾ أي رسل. ﴿ذكرى﴾ قال الكسائي: "ذكرى" في موضع نصب على الحال. النحاس: وهذا لا

يحصل، والقول فيه قول الفراء وأبي إسحاق أنها في موضع نصب على المصدر؛ قال الفراء: أي يذكّرون ذكرى؛ وهذا قول صحيح؛ لأن معنى "إلا لـها منذرون" إلا لـها مذكرون. و"ذكرى" لا يتبين فيه الإعراب؛ لأن فيها ألفاً مقصورة. ويجوز "ذكرى" بالتنوين، ويجوز أن يكون "ذكرى" في موضع رفع على إضمار مبتدأ. قال أبو إسحاق: أي إنذارنا ذكرى. وقال الفراء: أي ذلك ذكرى، وتلك ذكرى. وقال ابن الأنباري قال بعض المفسرين: ليس في "العشراء" وقف تام إلا قولـه "إلا لـها منذرون" وهذا عندنا وقف حسن؛ ثم يبتدئ "ذكرى" على معنى هي ذكرى أي يذكرهم ذكرى، والوقف على "ذكرى" أجود. ﴿وما كنا ظالمين﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم:

قولـه تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ يعني القرآن بل ينزل به الروح الأمين. ﴿وما ينبغي لـهم وما يستطيعون*إنهم عن السمع لمعزولون﴾ أي برمي الشهب كما مضى في سورة "الحجر" بيانه. وقرأ الحسن ومحمد بن السميقع: "وما تنزلت به الشياطون" قال المهدوي: وهو غير جائز في العربية ومخالف للخط. وقال النحاس: وهذا غلط عند جميع النحويين؛ وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: هذا غلط عند العلماء، إنما يكون بدخول شبهة؛ لما رأى الحسن في آخره ياء ونونا وهو في موضع رفع اشتبه عليه بالجمع المسلّم فغلط، وفي الحديث: "احذروا زلة العالم"[1] وقد قرأ هو مع الناس: ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ (البقرة: ١٤) ولو كان هذا بالواو في موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة. وقال الثعلبي: قال الفراء: غلط الشيخ ـ يعني الحسن ـ فقيل ذلك للنضر بن شميل فقال: إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما، جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه. مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ بذلك إلا وقد سمعا في ذلك شيئاً؛ وقال المؤرج: إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. وقال يونس بن حبيب: سمعت أعرابياً يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون؛ فقلت: ما أشبه هذا بقراءة الحسن.

قولـه تعالى: ﴿ فلا تدع مع الله إلـها آخر فتكون من المعذبين ﴾ قيل: المعنى قل لمن كفر هذا. وقيل: هو مخاطبة لـه ﷺ وإن كان لا يفعل هذا؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره. ودل على هذا قولـه: "وأنذر عشيرتك الأقربين" أي لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم.

قولـه تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) ضعيف جداً، بلفظ: "اتقوا زلة العالم.." كما في ضعيف الجامع (١٢٥).

ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ .

قوله تعالى : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ . فيها مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ خص عشيرته الأقربين بالإنذار ؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك . وعشيرته الأقربون قريش . وقيل : بنو عبد مناف . ووقع في صحيح مسلم : "وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين"[١] . وظاهر هذا أنه كان قرآنا يتلى وأنه نسخ ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر . ويلزم على ثبوته إشكال ؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألا ينذر إلا من آمن من عشيرته ؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي ﷺ لا المشركون ؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك ، والنبي ﷺ دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم ﷺ ؛ فلم يثبت ذلك نقلاً ولا معنى . وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية "وأنذر عشيرتك الأقربين" دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ فقال : "يا بني كعب ابن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها"[٢] .

الثانية : في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله : "إن لكم رحما سأبلها ببلالها" وقوله عز وجل : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ (الممتحنة : ٨) الآية ، على ما يأتي بيانه هناك إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ تقدم في سورة "الحجر" و"سبحان" يقال : خفض جناحه إذا لان . ﴿فإن عصوك﴾ أي خالفوا أمرك . ﴿فقل إني بريء مما تعملون﴾ أي بريء من معصيتكم إياي ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ، لأنه ﷺ لا يأمر إلا بما يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه . ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ أي فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذي لا يغالب ، الرحيم الذي لا يخذل أولياءه . وقرأ العامة : "وتوكل" بالواو وكذلك هو في مصاحفهم . وقرأ نافع وابن عامر : "فتوكل" بالفاء وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام . ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ أي حين تقوم إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين : ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : يعني حين تقوم حيثما كنت . ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ قال مجاهد وقتادة : في المصلين . وقال ابن عباس : أي في أصلاب الآباء ، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً . وقال عكرمة : يراك قائماً وراكعاً وساجداً ؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧١) ، ومسلم (٢٠٤) .

وقالـه ابن عباس أيضاً. وقيل: المعني؛ إنك ترى بقلبك في صلاتك مَنْ خلفك كما ترى بعينيك مَنْ قدامك. وروي عن مجاهد، ذكره الماوردي والثعلبي. وكانﷺ يرى مَنْ خلفه كما يرى من بين يديه، وذلك ثابت في الصحيح وفي تأويل الآية بعيد ﴿إنه هو السميع العليم﴾ تقدم.

قولـه تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾ تنزل على كل أفاك أثيم﴾ إنما قال: "تنزل" لأنها أكثر ما تكون في الـهواء، وأنها تمر في الريح. ﴿ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ تقدم في "الحجر". "فيلقون السمع" صفة الشياطين "وأكثرهم" يرجع إلى الكهنة. وقيل: إلى الشياطين.

قولـه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ والشعراء﴾ جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء؛ قال ابن عباس: هم الكفار "يتبعهم" ضلاّل الجن والإنس. وقيل "الغاوون" الزائلون عن الحق، ودل بهذا أن الشعراء أيضاً غاوون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك. وقد قدمنا في سورة "النور" أن من الشعر ما يجوز إنشاده، ويكره، ويحرم. روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول اللهﷺ يوماً فقال: "هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء" قلت: نعم. قال "هيه" فأنشدته بيتاً. فقال "هيه" ثم أنشدته بيتاً. فقال "هيه" حتى أنشدته مائة بيت[1]. هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته. وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم: عن عمرو بن الشريد عن الشريد أبيه؛ وهو وَهَم؛ لأن الشريد هو الذي أردفه رسول اللهﷺ. واسم أبي الشريد سويد. وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما استكثر النبيﷺ من شعر أمية؛ لأنه كان حكيماً؛ ألا ترى قولـهﷺ: "وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم"[2] فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه، كقول القائل:

الحمـــد لله العلـــي المنـــان صار الثريد في رؤوس العيدان

أو ذكر رسول اللهﷺ أو مدحه كقول العباس:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٥).
(٢) السابق.

من قبلها طبت في الظلال وفي مستـ ... تودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنـ ... ـت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألـ ... ـجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق

فقال له النبي ﷺ: "لا يفضض الله فاك"(١). أو الذب عنه كقول حسان:

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم. أو الصلاة عليه؛ كما روى زيد بن أسلم؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت، وإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

على محمد صلاة الأبرار ... صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواماً بُكاً بالأسحار ... يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل يجمعني وحبيبي الدار

يعني النبي ﷺ؛ فجلس عمر يبكي. وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم ﷺ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال:

إني رضيت علياً للهدى علماً ... كما رضيت عتيقاً صاحب الغار
وقد رضيت أبا حفص وشيعته ... وما رضيت بقتل الشيخ في الدار
كل الصحابة عندي قدوة علم ... فهل عليٍّ بهذا القول من عار
إن كنت تعلم إني لا أحبهم ... إلا من أجلك فاعتقني من النار

وقال آخر فأحسن:

حب النبي رسول الله مفترض ... وحب أصحابه نور ببرهان
من كان يعلم أن الله خالقه ... لا يرمين أبا بكر ببهتان
ولا أبا حفص الفاروق صاحبه ... ولا الخليفة عثمان بن عفان
أما عليٍّ فمشهور فضائله ... والبيت لا يستوي إلا بأركان

قال ابن العربي: أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد؛ فبذلك يضرب الملك الموكل بالرؤيا المثل، وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع، والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح. وأنشد أبو بكر ﷺ:

---

(١) ضعيف.

فقدنـــا الوحـــي إذ وليـــت عـــنا وودعـــنا مـــن الله الكـــلام
ســوى مــا قــد تركــت لــنا رهيــنا توارثـــه القراطـــيس الكـــرام
فقــد أورثتنـــا مـــيراث صـــدق عـــليك بـه التحيـــة والســلام

فإذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا. قال أبو عمر: ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله؛ وروى أبو هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: "أصدق كلمة ـ أو أشعر كلمة ـ قالتها العرب قول لبيد":

ألا كل شيء ما خلا الله باطل [(١)]

أخرجه مسلم وزاد "وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم" [(٢)] وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر. فقال: ويلك يا لكع! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي، فحسنه حسن وقبيحه قبيح! قال: وقد كانوا يتذاكرون الشعر. قال: وسمعت ابن عمر ينشد:

يحب الخمر من مال الندامى ويكـره أن يفارقه الفلوس

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعراً مجيداً مقدماً فيه. وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب، وكانت له زوجة حسنة تسمى عثمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها، وله فيها أشعار كثيرة؛ منها قوله:

تغلغـــل حـــب عـــثمة في فـــؤادي فـــباديه مـــع الخـــافي يســـير
تغلغـــل حيـــث لم يـــبلغ شـــراب ولا حـــزن ولم يـــبلغ ســـرور
أكاد إذا ذكـــرت العهـــد منها أطـــير لـــو أنَّ إنســـاناً يطير

وقال ابن شهاب: قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك! فقال: إن المصدور إذا نفث برأ.

الثانية: وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وإن يبهتوا البريء ويفسقوا التقي، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول؛ كما روي عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبتن بجانبي مصـــرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال: قد وجب عليك الحد. فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾. وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب ؓ فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٧).
(٢) أخرج مسلم (٢٢٥٦).

من مبلغ الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقي في زجاج وحنتم
إذا شئت غنتني دهاقين قرية ... ورقاصة تجذو على كل منسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر أسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه. وقال: إي والله إني ليسوءني ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت؛ وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون *ألم تر أنهم في كل واد يهيمون *وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد؛ ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت. وذكر الزبير بن بكار قال: حدثني مصعب بن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له همٌّ إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة: إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما وأحملهما إلي. فلما أتاه الكتاب حملهما إليه، فأقبل على عمر، فقال: هيه!

فلم أر كالتجمير منظر ناظر ... ولا كليالي الحج أفلتن ذا هوى
وكم مالئ عينيه من شيء غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك؛ فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون! ثم أمر بنفيه. فقال: يا أمير المؤمنين! أو خير من ذلك؟ فقال: ما هو؟ قال: أعاهد الله أني لا أعود إلى مثل هذا الشعر، ولا أذكر النساء في شعر أبداً، وأجدد توبة، فقال: أو تفعل؟ قال: نعم، فعاهد الله على توبته وخلاه؛ ثم دعا بالأحوص، فقال هيه!

الله بيني وبين قيمها ... يفر مني بها وأتَّبع

بل الله بين قيمها وبينك! ثم أمر بنفيه؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى، وقال: والله لا أرده ما كان لي سلطان، فإنه فاسق مجاهر. فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه، فلا يحل سماعه ولا إنشاده في مسجد ولا غيره، كمنثور الكلام القبيح ونحوه. وروى إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "حسن الشعر كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" رواه إسماعيل عن عبد الله الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: "الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام"[(١)].

الثالثة: روي مسلم عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا"[(٢)] وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: "خذوا الشيطان ـ أو أمسكوا الشطان ـ لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلئ شعرا"[(٣)] قال علماؤنا: وإنما فعل النبي ﷺ هذا مع هذا

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٣٧٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٥٤)، ومسلم (٢٢٥٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٥٩).

الشاعر لما علم من حالـه، فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حالـه أنه قد اتخذ الشعر طريقاً للتكسب، فيفرط في المدح إذا أعطي، وفي الـهجو والذم إذا منع، فيؤذي الناس في أموالـهم وأعراضهم. ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام. وكل ما يقولـه من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه؛ فإن لم يكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تعين عليه أن يداريه بما استطاع، ويدافعه بما أمكن، ولا يحل لـه أن يعطي شيئاً ابتداء، لأن ذلك عون على المعصية؛ فإن لم يجد من ذلك بدًّا أعطاه بنية وقاية العرض؛ فما وَقَى به المرء عرضه كتب لـه به صدقة. قلت: قولـه: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه"[1] القيح المدّة يخالطها دم. يقال منه: قاح الجرح يقيح وتقيح وقيّح. و"يريه" قال الأصمعي: هو من الوريَ على مثال الرمي وهو أن يدوى جوفه، يقال منه: رجل موريّ مشدد غير مهموز. وفي الصحاح: وَرَى القيح جوفه يريه ورياً إذا أكلـه. وأنشد اليزيدي:

قالت لـه وَرْياً إذا تنحنحا

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويلـه: إنه الذي قد غلب عليه الشعر، وامتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل، ويسلك به مسالك لا تحمد لـه، كالمكثر من اللغط والـهذر والغيبة وقبيح القول. ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية، لحكم العادة الأدبية. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما بوب على هذا الحديث "باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر". وقد قيل في تأويلـه: إن المراد بذلك الشعر الذي هجي به النبي ﷺ أو غيره. وهذا ليس بشيء؛ لأن القليل من هجو النبي ﷺ وكثيره سواء في أنه كفر ومذموم، وكذلك هجو غير النبي ﷺ من المسلمين محرم قليلـه وكثيره، وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى.

الرابعة: قال الشافعي: الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيح كقبيح الكلام، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمناته، وقد كان عند العرب عظيم الموقع. قال الأول منهم:

وجُرح اللسان كجُرح اليد

وقال النبي ﷺ في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين: "إنه لأسرع فيهم من رشق النبل" أخرجه مسلم. وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يا ابن رواحة! في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: "خل عنه يا عمر فلـهو أسرع فيهم من نضح النبل".

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ والشعراء يتّبعهم الغاوون ﴾ لم يختلف القراء في رفع "والشعراء" فيما علمت. ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره "يتّبعهم" وبه قرأ عيسى بن عمر؛ قال أبو عبيد: كان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٨).

الغالب عليه حب النصب؛ قرأ ﴿والسارق والسارقة ﴾(المائدة: ٣٨) و ﴿حمالة الحطب ﴾(المسد: ٤) و ﴿سورة أنزلناها ﴾(النور: ١). وقرأ نافع وشيبة والحسن والسلمي: "يتبعهم" مخففا. الباقون "يتّبعهم". وقال الضحاك: تهاجى رجلان أحدهما أنصاري والآخر مهاجري على عهد رسول الله ﷺ مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء فنزلت؛ وقاله ابن عباس. وعنه هم الرواة للشعر. وروى عنه علي بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضلال الجن والإنس؛ وقد ذكرناه. وروى غضيف عن النبي ﷺ: "من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه" وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما افتتح مكة رن إبليس رنة وجمع إليه ذريته؛ فقال ايئسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفشوا فيهما ـ يعني مكة والمدينة ـ الشِّعْرَ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون، ولا يتبعون سنن الحق؛ لأن من اتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت، ولم يكن هائماً يذهب على وجهه لا يبالي ما قال. نزلت في عبد الله بن الزبعرى ومسافع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت. ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه. وقيل: إنها نزلت في أبي عزة الجمحي حيث قال:

ألا أبلغا عني النبي محمدا ... بأنك حق والمليك حميد

ولكن إذا ذكرت بدراً وأهله ... تأوه مني أعظم وجلود

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ﴾ في كلامهم ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق، وبما حده الله عز وجل، فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل. وقال أبو الحسن المبرد. لما نزلت: "والشعراء" جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي ﷺ؛ فقالوا: يا نبي الله! أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو تعالى يعلم أنا شعراء؟ فقال: "اقرأوا ما بعدها ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ـ الآية ـ أنتم ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ أنتم" أي بالرد على المشركين. قال النبي ﷺ: "انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً ولا تذكروا الآباء والأمهات"[1] فقال حسان لأبي سفيان:

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

وإن أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

أتشتمه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

---

(١) ذكره ابن كثير "تفسير"، (٣/ ٣٥٤) من رواية ابن أبي حاتم، وقال: "لكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها.

وقال كعب يا رسول الله! إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : (إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل)[١] . وقال كعب :

جاءت سخينة كي تغالب ربها وليغلبن مغالب الغلاّب

فقال النبي ﷺ : (لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا). وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال في قولـه تعالى: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ منسوخ بقوله: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال المهدوي: وفي الصحيح عن ابن عباس أنه استثناء. "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" في هذا تهديد لمن انتصر بظلم. قال شريح: سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة. وقرأ ابن عباس: "أي منفلت ينفلتون" بالفاء والتاء ومعناهما واحد ذكره الثعلبي. ومعنى: "أي منقلب ينقلبون" أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع. والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلباً، وليس كل منقلب مرجعا؛ والله أعلم؛ ذكره الماوردي. و"أيّ" منصوب "بينقلبون" وهو بمعنى المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بـ "سيعلم" لأن أياً وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلـها فيما ذكر النحويون؛ قال النحاس: وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبلـه معنى آخر فلو عمل فيه ما قبلـه لدخل بعض المعاني في بعض.

---

(٢) صحيح، انظر صحيح الجامع (١٩٣٤).

سورة النمل

مقدمة السورة:

سورة النمل مكية كلها في قول الجميع، وهي ثلاث وتسعون آية. وقيل: أربع وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾ مضى الكلام في الحروف المقطعة في "البقرة" وغيرها. و"تلك" بمعنى هذه؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين. وذكر القرآن بلفظ المعرفة، وقال: "وكتاب مبين" بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة؛ كما تقول: فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل. والكتاب هو القرآن، فجمع له بين الصفتين: بأنه قرآن وأنه كتاب؛ لأنه ما يظهر بالكتابة، ويظهر بالقراءة. وقد مضى اشتقاقهما في "البقرة". وقال في سورة الحجر: ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ (الحجر: ١) فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة؛ وذلك لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة، وأن يجعل صفة. ووصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ "هدى" في موضع نصب على الحال من الكتاب؛ أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة. ويجوز فيه الرفع على الابتداء؛ أي هو هدى. وإن شئت على حذف حرف الصفة؛ أي فيه هدى. ويجوز أن يكون الخبر "للمؤمنين" ثم وصفهم فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ وقد مضى بيانه.

قوله تعالى: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي لا يصدقون بالبعث. ﴿زينا لهم أعمالهم﴾ قيل: أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة. وقيل: زينا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها. وقال الزجاج: جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه. ﴿فهم يعمهون﴾ أي يترددون في أعمالهم الخبيثة، وفي ضلالتهم. عن ابن عباس. أبو العالية: يتمادون. قتادة: يلعبون. الحسن: يتحيرون؛ قال الراجز:

ومَهْمَه أطرافه في مَهْمَه أعمى الهدى بالحائرين العُمَّه

قوله تعالى: ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ وهو جهنم. ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ "في الآخرة" تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر.

قوله تعالى: ﴿وإنك لتلقى القرآن ﴾أي يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه. ﴿من لدن حكيم عليم﴾ "لدن" بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة، لأنها لا تتمكن، وفيها لغات ذكرت في "الكهف". وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إذ قال موسى لأهله ﴾ "إذ" منصوب بمضمر وهو أذكر؛ كأنه قال على أثر قوله. ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾: خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله. ﴿إني آنست نارا ﴾أي أبصرتها من بعد. قال الحارث بن حلزة:

آنست نبأة وأفزعها القناص عصـــراً وقد دنا الإمساء

﴿سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: "بشهاب قبس" بتنوين "شهاب". والباقون بغير تنوين على الإضافة؛ أي بشعلة نار؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. وزعم الفراء في ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم: ولدار الآخرة، ومسجد الجامع، وصلاة الأولى؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماؤه. قال النحاس: إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين، لأن معنى الإضافة في اللغة ضم شيء إلى شيء فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع، فمحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها. و"شهاب قبس" إضافة النوع والجنس، كما تقول: هذا ثوب خز، وخاتم حديد وشبهه. والشهاب كل ذي نور؛ نحو الكوكب والعود الموقد. والقبس اسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه؛ فالمعنى بشهاب من قبس. يقال. أقبست قبساً؛ والاسم قبس. كما تقول: قبضت قبضاً. والاسم القبض. ومن قرأ: "بشهاب قَبَس" جعله بدلاً منه. المهدوي: أو صفة له؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسماً غير صفة، ويجوز أن يكوّن صفة؛ فأما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قبساً والقبس المقبوس؛

وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتاً. والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن. وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه. ولو قرئ بنصب قبس على البيان أو الحال كان أحسن. ويجوز في غير القرآن بشهاب قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال. "لعلكم تصطلون" أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسناً، ومعناه يستدفئون من البرد. يقال: اصطلى يصطلي إذا استدفأ. قال الشاعر:

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتيا فليصطل

الزجاج: كل أبيض ذي نور فهو شهاب. أبو عبيدة: الشهاب النار. قال أبو النجم:

كأنما كان شـهاباً واقـداً أضاء ضوءاً ثم صار خامدا

أحمد بن يحيى: أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه؛ وقول النحاس فيه حسن، والشهاب الشعاع المضيء ومنه الكوكب الذي يمد ضوؤه في السماء. وقال الشاعر:

فـي كفـه صَـعْدَةٌ مثقفة فيها سنان كشعلة القبس

قولـه تعالى: ﴿ فلما جاءها ﴾ أي فلما جاء موسى الذي ظن أنها نار وهي نور؛ قال وهب بن منبه. فلما رأى موسى النار وقف قريباً منها، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لـها العلَّيق، لا تزداد النار إلا عظماً وتضرماً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسناً؛ فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها؛ فمالت إليه؛ فخافها فتأخر عنها؛ ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة لا يدري من أمرها، إلى أن "نودي أن بورك من في النار ومن حولـها". وقد مضى هذا المعنى في "طه". ﴿نودي﴾ أي ناداه الله؛ كما قال: ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾ (مريم: ٥٢). ﴿أن بورك﴾ قال الزجاج: "أن" في موضع نصب؛ أي بأنه. قال: ويجوز أن تكون في موضع رفع جعلـها اسم ما لـم يسم فاعلـه. وحكى أبو حاتم أن في قراءة أُبيّ وابن عباس ومجاهد "أن بوركت النار ومن حولـها". قال النحاس: ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح، ولو صح لكان على التفسير، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولـها الملائكة وموسى. وحكى الكسائي عن العرب: باركك الله، وبارك فيك. الثعلبي: العرب تقول باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات. قال الشاعر:

فبوركـــت مولوداً وبوركت ناشئاً وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

الطبري: قال "بورك من في النار" ولـم يقل بورك في من في النار على لغة من يقول باركك الله. ويقال باركه الله، وبارك لـه، وبارك عليه، وبارك فيه بمعنًى؛ أي بورك على من في النار وهو موسى، أو على من في قرب النار؛ لا أنه كان في وسطها. وقال السدي: كان في النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة؛ أي بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولـها. وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة لـه، كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه؛ قال: ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ ﴿هود: ٧٣ ﴾. وقول ثالث قالـه ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير: قدس من في النار وهو الله سبحانه وتعالى، عنى به نفسه تقدس وتعالى. قال ابن عباس ومحمد بن كعب: النار

نور الله عز وجل؛ نادى الله موسى وهو في النور؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنه ناراً؛ وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز في جهة﴿ وهو الذي في السماء إلـه وفي الأرض إلـه﴾ (الزخرف: ٨٤) لا أنه يتحيز فيهما، ولكن يظهر في كل فعل فيعلم به وجود الفاعل. وقيل على هذا: أي بورك من في النار سلطانه وقدرته. وقيل: أي بورك ما في النار من أمر الله تعالى الذي جعلـه علامة.

قلت: ومما يدل على صحة قول ابن عباس ما خرجه مسلم في صحيحه، وابن ماجة في سننه واللفظ لـه عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا ينام ولا ينبغي لـه أن ينام يخفض القسط ويرفعه حجابه النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره)[١] ثم قرأ أبوعبيدة: ﴿ أن بورك من في النار ومن حولـها وسبحان الله رب العالمين﴾ أخرجه البيهقي أيضاً. ولفظ مسلم عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات؛ فقال: (إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي لـه أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور ـ وفي رواية أبي بكر النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أنتهى إليه بصره من خلقه)[٢] قال أبو عبيد: يقال السُّبحات إنها جلال وجهه، ومنها قيل: سبحان الله إنما هو تعظيم لـه وتنزيه. وقولـه: "لو كشفها" يعني لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبتهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لـها. قال ابن جريج: النار حجاب من الحجب وهي سبعة حجب؛ حجاب العزة، وحجاب الملك، وحجاب السلطان، وحجاب النار، وحجاب النور، وحجاب الغمام، وحجاب الماء. وبالحقيقة فالمخلوق المحجوب والله لا يحجبه شيء؛ فكانت النار نوراً وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. وقال سعيد بن جبير: كانت النار بعينها فأسمعه تعالى كلامه من ناحيتها، وأظهر لـه ربوبيته من جهتها. وهو كما روي أنه مكتوب في التوراة: "جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير واستعلى من جبال فاران". فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها، واستعلاؤه من فاران بعثه محمداً ﷺ، وفاران مكة. وسيأتي في "القصص" بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

قولـه تعالى: ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ تنزيهاً وتقديساً لله رب العالمين. وقد تقدم في غير موضع، والمعنى: أي يقول من حولـها: "وسبحان الله" فحذف. وقيل: إن موسى عليه السلام قالـه حين فرغ من سماع النداء؛ استعانة بالله تعالى وتنزيهاً لـه؛ قال السدي. وقيل: هو من قول الله تعالى. ومعناه: وبورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين؛ حكاه ابن شجرة.

قولـه تعالى: ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ الـهاء عماد وليست بكناية في قول الكوفيين. والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن. "أنا الله العزيز الحكيم" الغالب الذي ليس كمثلـه شيء "الحكيم" في أمره وفعلـه. وقيل: قال موسى يا رب من الذي نادى؟ فقال لـه: "إنه" أي إني أنا المنادي لك "أنا الله".

---

(١) صحيح، أخرجه ابن ماجه في "المقدمة"، (١٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في "الإيمان"، (١٧٩).

قوله تعالى: ﴿ وألق عصاك ﴾ قال وهب بن منبه: ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها وقيل: إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلم له هو الله، وأن موسى رسوله؛ وكل نبي لابد له من آية في نفسه يعلم بها نبوته. وفي الآية حذف: أي وألق عصاك فألقاها من يده فصارت حية تهتز كأنها جان، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم. وقال الكلبي: لا صغيرة ولا كبيرة. وقيل: إنها قلبت له أولاً حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة. وقيل: انقلبت مرة حية صغيرة، ومرة حية تسعى وهي الأنثى، ومرة ثعباناً وهو الذكر الكبير من الحيات. وقيل: المعنى انقلبت ثعباناً تهتز كأنها جان لها عظم الثعبان وخفة الجان واهتزازه وهي حية تسعى. وجمع الجان جنان؛ ومنه الحديث "نهي عن قتل الجنان التي في البيوت"[1]. ﴿ولى مدبرا﴾ خائفاً على عادة البشر ﴿ولم يعقب﴾ أي لم يرجع؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: لم يلتفت. ﴿يا موسى لا تخف﴾ أي من الحية وضررها. ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ وتم الكلام ثم استثنى استثناء منقطعا فقال: ﴿إلا من ظلم﴾ وقيل: إنه استثناء من محذوف؛ والمعنى: إني لا يخاف لدي المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء﴾ فإنه لا يخاف؛ قاله الفراء. قال النحاس: استثناء من محذوف محال؛ لأنه استثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز إني لأضرب القوم إلا زيداً بمعنى إني لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيداً؛ وهذا ضد البيان، والمجيء بما لا يعرف معناه. وزعم الفراء أيضا أن بعض النحويين يجعل إلا بمعنى الواو أي ولا من ظلم؛ قال:

وكل أخ مفارقه أخـوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

قال النحاس: وكون "إلا" بمعنى الواو لا وجه له ولا يجوز في شيء من الكلام، ومعنى "إلا" خلاف الواو؛ لأنك إذا قلت: جاءني إخوتك إلا زيداً أخرجت زيداً مما دخل فيه الإخوة فلا نسبة بينهما ولا تقارب. وفي الآية قول آخر: وهو أن يكون الاستثناء متصلاً؛ والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد، سوى ما روي عن يحيى بن زكريا عليه السلام، وما ذكره الله تعالى في نبينا ﷺ في قوله: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (الفتح: ٢) ذكره المهدوي واختاره النحاس؛ وقال: علم الله من عصى منهم يسر الخيفة فاستثناه فقال: ﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء﴾ فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له. الضحاك: يعني آدم وداود عليهما السلام الزمخشري: كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطي. فإن قال قائل: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيل العلماء بالله عز وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به، فهم يخافون من المطالبة به. وقال الحسن وابن جريج: قال الله لموسى إني أخفتك لقتلك النفس. قال الحسن: وكانت الأنبياء تذنب فتعاقب. قال الثعلبي والقشيري والماوردي وغيرهم: فالاستثناء على هذا صحيح؛ أي إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة. وكان موسى خاف من قتل القبطي وتاب منه. وقد قيل: إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر. وقد مضى هذا في "البقرة".

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٨)، ومسلم (٢٢٣٢) واللفظ له.

قلت: والأول أصح لتنصلهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة، وإذا أحدث المقرب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة. وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه، ثم غفر له، ثم قال بعد المغفرة: ﴿ رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ (القصص: ١٧) ثم ابتلي من الغد بالفرعوني الآخر وأراد أن يبطش به، فصار حدثا آخر بهذه الإرادة. وإنما ابتلي من الغد لقوله: ﴿ فلن أكون ظهيرا للمجرمين﴾ وتلك كلمة اقتدار من قوله لن أفعل، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل، فسلط عليه الإسرائيلي حتى أفشى سره؛ لأن الإسرائيلي لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده، فأفشى عليه فـ﴿ قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ (القصص: ١٩) فهرب الفرعوني وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلي على موسى، وكان القتيل بالأمس مكتوماً أمره لا يدري من قتله، فلما علم فرعون بذلك، وجه في طلب موسى ليقتله، واشتد الطلب وأخذوا مجامع الطرق؛ جاء رجل يسعى فـ﴿ قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ (القصص: ٢٠) الآية. فخرج كما أخبر الله. فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث؛ فهو وإن قربه وبه وأكرمه واصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولت به ولم يعقب.

قوله تعالى: ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ تقدم في "طه". ﴿ في تسع آيات﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى: هذه الآية داخلة في تسع آيات. المهدوي: المعنى: "ألق عصاك" "وأدخل يدك في جيبك" فهما آيتان من تسع آيات. وقال القشيري معناه: كما تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم. أي خرجت عاشر عشرة. فـ"في" بمعنى "من" لقربها منها كما تقول خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي منها. وقال الأصمعي في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شـــــهراً في ثلاثة أحوال

في بمعنى من. وقيل: في بمعنى مع؛ فالآيات عشرة منها اليد، والتسع: الفلق والعصا والجراد والقمل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطمس. وقد تقدم بيان جميعه. ﴿ إلى فرعون وقومه﴾ قال الفراء: في الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه، أي إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه. ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعة الله؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي واضحة بينة. قال الأخفش: ويجوز مبصرة وهو مصدر كما يقال: الولد مجبنة[1] . ﴿ قالوا هذا سحر مبين﴾ جروا على عادتهم في التكذيب فلهذا قال: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ أي تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحراً، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى. وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين. و"ظلماً" و"علواً" منصوبان على نعت مصدر محذوف، أي وجحدوا بها جحوداً ظلماً وعلواً. والباء زائدة أي

---

(١) هو لفظ حديث صحيح أخرجه أبو يعلى عن أبي سعيد ولفظه بتمامه: "الولد مجبنة مبخلة محزنة" كما في صحيح الجامع (٧١٦٠).

وجحدوها؛ قاله أبو عبيدة. ﴿فانظر﴾ يا محمد﴿ كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي آخر أمر الكافرين الطاغين، انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه. الخطاب لـه والمراد غيره.

قولـه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ أي فهماً؛ قالـه قتادة. وقيل: علماً بالدين والحكم وغيرهما كما قال: ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ (الأنبياء: ٨٠). وقيل: صنعة الكيمياء. وهو شاذ. وإنما الذي آتاهما الله النبوة والخلافة في الأرض والزبور. ﴿ وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محلـه وتقدم حملته وأهلـه، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم وأجزل القسَم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله المؤمنين. ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة: ١١). وقد تقدم هذا في غير موضع.

قولـه تعالى: ﴿ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ قال الكلبي: كان لداودﷺ تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كان وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء؛ وقال ابن العربي؛ قال: فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة، وزاده من فضلـه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. قال ابن عطية: داود من بني إسرائيل وكان ملكاً وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمي ميراثاً تجوزاً؛ وهذا نحو قولـه: "العلماء ورثة الأنبياء"[١] ويحتمل قولـهﷺ: "إنا معشر الأنبياء لا نورث"[٢] أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث مالـه كـ "زكريا" على أشهر الأقوال فيه؛ وهذا كما تقول: إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة، والمراد أن ذلك فعل الأكثر. ومنه ما حكى سيبويه: إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف.

قلت: قد تقدم هذا المعنى في "مريم" وأن الصحيح القول الأول لقولـهﷺ: "إنا معشر الأنبياء لا نورث" فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل. قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبداً من سليمان. قال غيره: ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخر لـه الإنس والجن والطير والوحش، وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين، وورث أباه في الملك والنبوة، وقام بعده بشريعته، وكل نبي جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى، إلى أن بعث المسيحﷺ فنسخها. وبينه وبين الـهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة.

---

(١) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد وأصحاب السنن كما في صحيح الجامع (٦٢٩٧) وأولـه: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً. . ." .

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

واليهود تقول ألف وثلاثمائة واثنتان وستون سنة. وقيل: إن بين موته وبين مولد النبي ﷺ نحوا من ألف وسبعمائة. واليهود تنقص منها ثلاثمائة سنة، وعاش نيفاً وخمسين سنة.

قوله تعالى: ﴿وقال يا أيها الناس﴾ أي قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله ﴿علمنا منطق الطير﴾ أي تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها. قال مقاتل في الآية: كان سليمان جالساً ذات يوم إذ مر به طائر يطوف، فقال لجلسائه: أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لي: السلام عليك أيها الملك المسلَّط والنبي لبني إسرائيل! أعطاك الله الكرامة، وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى أفراخي ثم أمرّ بك الثانية؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع؛ فقال إنه يقول: السلام عليك أيها الملك المسلَّط، إن شئت أن تأذن لي كيما أكتسب على أفراخي حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بي ما شئت. فأخبرهم سليمان بما قال؛ وأذن له فانطلق. وقال فرقد السبخي: مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا لا يا نبي الله. قال إنه يقول: أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء. ومر بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبي فخاً فقال له سليمان: احذر يا هدهد! فقال: يا نبي الله! هذا صبي لا عقل له فأنا أسخر به. ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حبالة الصبي وهو في يده، فقال: هدهد ما هذا؟ قال: ما رأيتها حتى وقعت فيها يانبي الله. قال: ويحك! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ! قال: يا نبي الله إذا نزل القضاء عمي البصر. وقال كعب. صاح ورشان عند سليمان بن داود فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب. وصاحت فاختة، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: ليت هذا الخلق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خُلقوا. وصاح عنده طاووس، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: كما تدين تدان. وصاح عنده هدهد فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: فإنه يقول: من لا يَرحم لا يُرحم. وصاح صُرَد عنده، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين؛ فمن ثُمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتله[1]. وقيل: إن الصرد هو الذي دل آدم على مكان البيت. وهو أول من صام؛ ولذلك يقال للصُّرَد الصوام؛ روي عن أبي هريرة. وصاحت عنده طيطوى فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: كل حي ميت وكل جديد بال. وصاحت خُطَّافة عنده، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: قدموا خيراً تجدوه؛ فمن ثَمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها. وقيل: إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة، فآنسه الله تعالى بالخطاف وألزمها البيوت، فهي لا تفارق بني آدم أنساً لهم. قال: ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته﴾ (الحشر: ٢١) إلى آخرها وتمد صوتها بقوله ﴿العزيز الحكيم﴾ (الحشر: ٢٤). وهدرت حمامة عند سليمان فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا. قال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى عدد ما

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس أن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: "النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد" وسنده صحيح، وراجع الإرواء (٢٤٩٠).

في سماواته وأرضه. وصاح قمري عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال إنه يقول: سبحان ربي العظيم المهيمن. وقال كعب: وحدثهم سليمان، فقال: الغراب يقول: اللهم العن العَشَّار؛ والحدَأة تقول: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾(القصص: ٨٨). والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه. والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس. والبازي يقول: سبحان ربي وبحمده. والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان.

وقال مكحول: صاح دُرَّاج عند سليمان، فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾(طه: ٥). وقال الحسن قال النبي ﷺ "الديك إذا صاح قال اذكروا الله يا غافلين"[١]. وقال الحسن بن علي بن أبي طالب قال النبي ﷺ "النسر إذا صاح قال يا ابن آدم عش ما شئت فآخرك الموت وإذا صاح العقاب قال في البعد من الناس الراحة وإذا صاح القنبر قال إلـهي العن مبغضي آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾(الفاتحة: ٢) إلى آخرها فيقول: ﴿ولا الضالين﴾(الفاتحة: ٧) ويمد بها صوته كما يمد القارئ"[٢]. قال قتادة والشعبي: إنما هذا الأمر في الطير خاصة، لقوله: "علمنا منطق الطير" والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة. قال الشعبي: وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين. وقالت فرقة: بل كان في جميع الحيوان، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير. وقال أبو جعفر النحاس: والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام، والله جل وعز أعلم بما أراد. قال ابن العربي: من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له: أنا شجر كذا، أنفع من كذا وأضر من كذا؛ فما ظنك بالحيوان.

قوله تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان﴾ "حشر" جُمع والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾(الكهف: ٤٧) واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام فيقال: كان معسكره مائة فرسخ في مائة: خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية. ابن عطية: واختلف في معسكره ومقدار جنده اختلافاً شديداً غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً ملأ الأرض، وانقادت له المعمورة كلها. ﴿فهم يوزعون﴾ معناه يرد أولهم إلى آخرهم ويكفّون. قال قتادة: كان لكل صنف وزعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها. يقال: وزعته أوزعه وزعاً أي كففته. والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم. روى محمد بن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى - تعني يوم الفتح - قال أبو قحافة وقد كف بصره يومئذ لابنته: اظهري بي على أبي قبيس.

---

(١) ضعيف وهو من مراسيل الحسن.

(٢) ضعيف كسابقه.

قالت: فأشرفت به عليه فقال: ما ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً. قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلا من السواد مقبلاً ومدبراً. قال: ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر. وذكر تمام الخبر. ومن هذا قوله ﷺ "ما رئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر" قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: "أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة" خرّجه الموطأ [١]. ومن هذا المعنى قول النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصبا　　وقلت ألما أصح والشيب وازع

وقال آخر:

ولما تلاقينا جرت من جفوننا　　دموع وزعنا غربها بالأصابع

وقال آخر:

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى　　من الناس إلا وافر العقل كامله

وقيل: هو من التوزيع بمعنى التفريق. والقوم أوزاع أي طوائف. وفي القصة: إن الشياطين نسجت له بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم، وكان يوضع له كرسي من ذهب وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة.

الثانية: في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم. وقال ابن عون: سمعت الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال: والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وزعة. وقال الحسن أيضاً: لابد للناس من وازع؛ أي من سلطان يكفهم. وذكر ابن القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن؛ أي من الناس. قال ابن القاسم: قلت لمالك ما يزع؟ قال: يكف. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمته. قال: فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق، لا زيادة عليها، ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسوا بها، وقصروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها، فلم يرتدع الخلق بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامت الأمور، وصلح الجمهور.

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل﴾ قال قتادة: ذكر لنا أنه واد بأرض الشام. وقال كعب: هو بالطائف.

---

(١) أخرجه مالك في "الموطأ"، (٩٦٢).

قولـه تعالى: ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ قال الشعبي: كان للنملة جناحان فصارت من الطير، فلذلك علم منطقها ولولا ذلك لما علمه. وقد مضى هذا ويأتي. وقرأ سليمان التيمي بمكة: "نملة" و"النمل" بفتح النون وضم الميم. وعنه أيضاً ضمهما جميعاً. وسميت النملة نملة لتنملـها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها. قال كعب: مر سليمان عليه السلام بوادي السدير من أودية الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملة تمشي وهي عرجاء تتكاوس مثل الذئب في العظم؛ فنادت: "يا أيها النمل" الآية. الزمخشري: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وكانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس؛ وقيل: كان اسمها طاخية. وقال السهيلي: ذكروا اسم النملة المكلمة لسليمان عليه السلام، وقالوا اسمها حرميا، ولا أدري كيف يتصور للنملة اسم علم والنمل لا يسمي بعضهم بعضاً، ولا الآدميون يمكنهم تسمية واحدة منهم باسم علم، لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضاً واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإن العلمية فيما كان كذلك موجودة عند العرب.

فإن قلت: إن العلمية موجودة في الأجناس كثعالة وأسامة وجعار وقثام في الضبع ونحو هذا كثير؛ فليس اسم النملة من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم علم لنملة واحدة معينة من بين سائر النمل، وثعالة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس فهو ثعالة، وكذلك أسامة وابن آوى وابن عرس وما أشبه ذلك. فإن صح ما قالوه فلـه وجه، وهو أن تكون هذه النملة الناطقة قد سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزبور أو في بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم. وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه. ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ فقولـها: "وهم لا يشعرون" التفاتة مؤمن. أي من عدل سليمان وفضلـه وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقولـه: "ضاحكاً" إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يسر نبي بأمر دنيا؛ وإنما سر بما كان من أمر الآخرة والدين. وقولـها: "وهم لا يشعرون" إشارة إلى الدين والعدل والرأفة. ونظير قول النملة في جند سليمان: "وهـم لا يشعـرون" قـول الله تعـالى في جنـد محمد ﷺ: ﴿فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾ (الفتـح: ٢٥). التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثني على جند سليمان هي النملة بإذن الله تعالى، والمثني علـى جند محمـد ﷺ هـو الله عـز وجل بنفسه؛ لما لجنود محمد ﷺ من الفضـل علـى جند غيره من الأنبياء؛ كما لمحمد ﷺ فضـل على جميـع النبيين صلى الله عليهم وسلم أجمعين. وقرأ شهر بن حوشب: "مسكنكم" بسكون السين على الإفراد. وفي مصحف أُبيّ "مساكنكن لا يحطمنكم". وقرأ سليمان التيمي: "مساكنكم لا يحطمَنْكُنَّ" ذكره النحاس؛ أي لا يكسـرنكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم. قال المهدوي: وأفهم الله تعالى النملة هذا لتكون معجزة لسليمان. وقال وهب: أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان؛

بسبب أن الشياطين أرادت كيده. وقد قيل: إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد قاله الكلبي. وقال نوف الشامي وشقيق بن سلمة: كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئاب في العظم. وقال بريدة الأسلمي: كهيئة النعاج. قال محمد بن علي الترمذي: فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنة، وذلك منطقهم، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء: ٤٤).

قلت: وقوله: ﴿ لا يحطمنكم﴾ يدل على صحة قول الكلبي؛ إذ لو كانت كهيئة الذئاب والنعاج لما حطمت بالوطء؛ والله أعلم. وقال: "ادخلوا مساكنكم" فجاء على خطاب الآدميين لأن النمل ههنا أجري مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون. قال أبو إسحاق الثعلبي: ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها لم حذّرت النمل؟ أخفت ظلمي ؟ أما علمت أني نبي عدل؟ فلم قلت: "يحطمنكم سليمان وجنوده" فقالت النملة: أما سمعت قولي: "وهم لا يشعرون" مع أني لم أرد حطم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت، أو يفتتن بالدنيا، ويشغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر. فقال لها سليمان: عظيني. فقالت النملة: أما علمت لم سُمِّي أبوك داود؟ قال: لا. قالت: لأنه داوى جراحة فؤاده؛ هل علمت لم سميت سليمان؟ قال: لا. قالت: لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك، وإن لك أن تلحق بأبيك. ثم قالت: أتدري لم سخر الله لك الريح؟ قال: لا. قالت: أخبرك أن الدنيا كلها ريح. ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ متعجباً ثم مضت مسرعة إلى قومها، فقالت: هل عندكم من شيء نهديه إلى نبي الله؟ قالوا: وما قدر ما نهدي له! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة. قالت: حسنة؛ ايتوني بها. فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها، فأمر الله الريح فحملتها، وأقبلت تشق الإنس والجن والعلماء والأنبياء على البساط، حتى وقعت بين يديه، ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفه، وأنشأت تقول:

ألم ترنا نهدي إلى الله ما له ... وإن كان عنه ذا غني فهو قابله
ولو كان يُهدَى للجليل بقدره ... لقصر عنه البحر يوماً وساحله
ولكننا نهدي إلى من نحبه ... فيرضى به عنا ويشكر فاعله
وما ذاك إلا من كريم فعاله ... وإلا فما في ملكنا ما يشاكله

فقال لها: بارك الله فيكم؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله. وقال ابن عباس: نهى النبيﷺ عن قتل أربع من الدواب: الهدهد والصرد والنملة والنحلة[1]؛ خرَّجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروي من حديث أبي هريرة. وقد مضى في "الأعراف". فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور؛ ولذلك نهى عن قتلها، وعن قتل الهدهد؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس. وقال عكرمة: إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان باراً

(١) "صحيح" وقد تقدم قريباً.

بوالديه. والصرد يقال لـه الصوّام. وروي عن أبي هريرة قال: أول من صام الصُّرَد ولما خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السكينة معه والصرد، فكان الصرد دليلـه على الموضع والسكينة مقداره، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت ونادت وقالت: ابن يا إبراهيم على مقدار ظلي. وقد تقدم في "الأعراف" سبب النهي عن قتل الضفدع وفي "النحل" النهي عن قتل النحل. والحمد لله.

الثانية: قرأ الحسن: "لا يَحَطمَنَّكُم" وعنه أيضاً "لا يَحطِّمَنَّكم" وعنه أيضاً وعن أبي رجاء: "لا يُحَطِّمَنَّكم" والحَطْم: الكسر. حطمته حطماً أي كسرته وتحطَّم؛ والتحطيم التكسير، "وهم لا يشعرون" يجوز أن يكون حالاً من سليمان، وجنوده، والعامل في الحال "يحطمنكم". أو حالاً من النملة والعامل "قالت": أي قالت ذلك في حال غفلة الجنود؛ كقولك: قمت والناس غافلون. أو حالاً من النمل أيضاً والعامل "قالت" على أن المعنى: والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها. وفيه بُعد وسيأتي.

الثالثة: روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: "أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح"[1] وفي طريق آخر: "فهلا نملة واحدة"[2]. قال علماؤنا: يقال إن هذا النبي هو موسى عليه السلام، وإنه قال: يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع. فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده، فسلط عليه الحر حتى التجأ إلى شجرة مستروحاً إلى ظلـها، وعندها قرية النمل، فغلبه النوم، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرته، فدلكهن بقدمه فأهلكهن، وأحرق تلك الشجرة التي عندها مساكنهم، فأراه الله العبرة في ذلك آية: لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة، وشراً ونقمة على العاصي. وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل؛ فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالـهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيح لك قتلـه. وروي عن إبراهيم: ما آذاك من النمل فاقتلـه. وقولـه: "ألا نملة واحدة" دليل على أن الذي يؤذي يُؤذَى ويقتل، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء. وأطلق لـه نملة ولم يخص تلك النملة التي لدغت من غيرها؛ لأنه ليس المراد القصاص؛ لأنه لو أراده لقال ألا نملتك التي لدغتك، ولكن قال: ألا نملة مكان نملة؛ فعم البريء والجاني بذلك، ليعلم أنه أراد أن ينبهه لمسألته ربه في عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصي. وقد قيل: إن هذا النبي كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة في شرعه؛ فلذلك إنما عاتبه الله تعالى في إحراق الكثير من النمل لا في أصل الإحراق. ألا ترى قولـه: "فهلا نملة واحدة"

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٩)، ومسلم (٢٢٤١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٩) ومسلم في الموضع السابق.

أي هلا حرقت نملة واحدة. وهذا بخلاف شرعنا، فإن النبي ﷺ قد نهى عن التعذيب بالنار. وقال: "لا يعذب بالنار إلا الله"(١). وكذلك أيضاً كان قتل النمل مباحاً في شريعة ذلك النبي؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل. وأما شرعنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبي هريرة النهي عن ذلك. وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل. وقد قيل: إن هذا النبي إنما عاتبه الله حيث انتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد، وكان الأولى الصبر والصفح؛ لكن وقع للنبي أن هذا النوع مؤذ لبني آدم، وحرمة بني آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق، فلو انفرد له هذا النظر ولم ينضم إليه التشفي الطبعي لم يعاتب. والله أعلم. لكن لما انضاف إليه التشفي الذي دل عليه سياق الحديث عوتب عليه.

الرابعة: قوله: "أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح" مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق، كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقاً وفهمه سليمان عليه السلام ـ وهذا معجزة له ـ وتبسم من قولها. وهذا يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقاً وقولاً، لكن لا يسمعه كل أحد، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبي أو ولي. ولا ننكر هذا من حيث أنا لا نسمع ذلك؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك في نفسه. ثم إن الإنسان يجد في نفسه قولاً وكلاماً ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه. وقد خرق الله العادة لنبينا محمد ﷺ فأسمعه كلام النفس من قوم تحدثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا في كتب معجزات النبي ﷺ؛ وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك في غير ما قضية. وإياه عنى النبي ﷺ بقوله: "إن في أمتي محدثين وإن عمر منهم"(٢). وقد مضى هذا المعنى في تسبيح الجماد في "الإسراء" وإنه تسبيح لسان ومقال لا تسبيح دلالة حال. والحمد لله.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ وقرأ ابن السميقع: "ضحكاً" بغير ألف، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدل عليه تبسم، كأنه قال ضحك ضحكاً، هذا مذهب سيبويه. وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس "تبسم" لأنه في معنى ضحك؛ ومن قرأ: "ضاحكاً" فهو منصوب على الحال من الضمير في "تبسم". والمعنى تبسم مقدار الضحك؛ لأن الضحك يستغرق التبسم، والتبسم دون الضحك وهو أوله. يقال: بَسَم (بالفتح) يبسم بسماً فهو باسم وابتسم وتبسم، والمبسم الثغر مثل المجلس من جلس يجلس ورجل مِبْسام وبسّام كثِير التبسم، فالتبسم ابتداء الضحك. والضحك عبارة عن الابتداء والانتهاء، إلا أن الضَحك يقتضي مزيداً على التبسم، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل قهقه. والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم. وفي الصحيح عن جابر بن سمرة وقيل له: أكنت تجالس النبي ﷺ؛ قال: نعم كثيراً؛ كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح ـ أو الغداة ـ حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون

(١) أخرجاه في الصحيحين، وكذا أبو داود واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري بنحوه (٣٦٨٩).

ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويَتَبَسّم[1] . وفيه عن سعد قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال لـه النبيﷺ : "ارم فداك أبي وأمي" قال فنزعت لـه بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه[2] . فكان ﷺ في أكثر أحوالـه يتبسم. وكان أيضاً يضحك في أحوال أُخر ضحكاً أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذي تبدو فيه اللهوات. وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه. وقد كره العلماء منه الكثرة؛ كما قال لقمان لابنه: يا بني إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب. وقد روي مرفوعاً من حديث أبي ذر وغيره[3] وضحك النبيﷺ حتى بدت نواجذه حين رمى سعد الرجل فأصابه، إنما كان سروراً بإصابته لا بانكشاف عورته؛ فإنه المنزه عن ذلكﷺ .

السادسة : لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلـها لـها أفهام وعقول. وقد قال الشافعي: الحمام أعقل الطير. قال ابن عطية: والنمل حيوان فطن قوي شمام جداً يدخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقتين، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره عدة. قال ابن العربي: وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لـها؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنود الإسفرايني: ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات؛ ووحدانية الإلـه، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا، أما أنا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية.

قولـه تعالى: ﴿ وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ فـ "أن" مصدرية. و"أوزعني" أي ألـهمني ذلك. وأصلـه من وزع فكأنه قال: كفّني عما يسخط. وقال محمد بن إسحاق: يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي امرأة أوريا التي امتحن الله بها داود، أو أنه بعد موت زوجها تزوجها داود فولدت لـه سليمانﷺ . وسيأتي لـهذا مزيد بيان في سورة "ص" إن شاء الله تعالى.

قولـه تعالى: ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي مع عبادك، عن ابن زيد. وقيل: المعنى في جملة عبادك الصالحين.

قولـه تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا

(١) أخرجه مسلم في "الفضائل" ، (٢٣٢٢).
(٢) أخرجه البخاري في "الجهاد" ، (٢٩٠٥)، وفي غير موضع، ومسلم (٢٤١٢). واللفظ لـه.
(٣) "صحيح" أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ: "لا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب" كما في صحيح الجامع (٧٤٣٥).

يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فيه ثماني عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وتفقد الطير﴾ ذكر شيئاً آخر مما جرى له في مسيره الذي كان فيه من النمل ما تقدم. والتفقد تطلب ما غاب عنك من شيء. والطير اسم جامع والواحد طائر، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها. وكانت تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها. واختلف الناس في معنى تفقده للطير؛ فقالت فرقة: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والتهمم بكل جزء منها؛ وهذا ظاهر الآية. وقالت فرقة: بل تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير؛ ليتبين من أين دخلت الشمس. وقال عبد الله بن سلام: إنما طلب الهدهد لأنه احتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض؛ لأنه كان نزل في مفازة عدم فيها الماء، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة؛ تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة؛ قاله ابن عباس فيما روي عن ابن سلام. قال أبو مجلز قال ابن عباس لعبد الله بن سلام: أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل. قال: أتسألني وأنت تقرأ القرآن؟ قال: نعم ثلاث مرات. قال: لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير؟ قال: احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه ـ أو قال مسافته ـ وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقده. وقال في كتاب النقاش: كان الهدهد مهندساً. وروي أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له: قف يا وقاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع فيه؟! فقال له ابن عباس: إذا جاء القدر عمي البصر. وقال مجاهد: قيل لابن عباس كيف تفقد الهدهد من الطير؟ فقال: نزل منزلاً ولم يدر ما بُعد الماء، وكان الهدهد مهتدياً إليه، فأراد أن يسأله. قال مجاهد: فقلت كيف يهتدي والصبي يضع له الحبالة فيصيده؟ قال: إذا جاء القدر عمي البصر. قال ابن العربي: ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن.

قلت: هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان كما تقدم. وأنشدوا:

إذا أراد الله أمراً بامرئ ... وكان ذا عقل ورأي ونظر
وحيلة يعملها في دفع ما ... يأتي به مكروه أسباب القدر
غطى عليه سمعه وعقله ... وسله من ذهنه سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه ... رد عليه عقله ليعتبر

قال الكلبي: لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد. والله أعلم.

الثانية : في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ؛ والمحافظة عليهم . فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام المُلْك . ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر . فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أن عمرَ بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . الحديث [1] ؛ قال علماؤنا : كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط . وكان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه ، فقد دل القرآن والسنة وبينا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته ، ومباشرة ذلك بنفسه ، والسفر إلى ذلك وإن طال . ورحم الله ابن المبارك حيث يقول :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار ســـوء ورهبانها

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ما لي لا أرى الهدهد ﴾أي ما للهدهد لا أراه ؛ فهو من القلب الذي لا يعرف معناه . وهو كقولك : ما لي أراك كئيباً . أي ما لك . والهدهد طير معروف وهدهدته صوته . قال ابن عطية : إنما مقصد الكلام الهدهد غاب لكنه أخذ اللازم عن مغيبه وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهة التوقف على اللازم وهذا ضرب من الإيجاز . والاستفهام الذي في قوله : "مَا لي" ناب مناب الألف التي تحتاجها أم . وقيل : إنما قال : "ما لي لا أرى الهدهد" ؛ لأنه اعتبر حال نفسه ، إذ علم أنه أوتي الملك العظيم ، وسخر له الخلق ، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل ، فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصر في حق الشكر ، فلأجله سلبها فجعل يتفقد نفسه ؛ فقال : "ما لي" . قال ابن العربي : وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا ما لهم ، تفقدوا أعمالهم ؛ هذا في الآداب ، فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض! . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب : "ما لي" بفتح الياء وكذلك في "يس" ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾(يس : ٢٢) . وأسكنها حمزة ويعقوب . وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو : بفتح التي في "يس" وإسكان هذه . قال أبو عمرو : لأن هذه التي في "النمل" استفهام ، والأخرى انتفاء . واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان "فقال ما لي" . وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما كان مبتدأ ، وبين ما كان معطوفاً على ما قبله ، وهذا ليس بشيء ؛ وإنما هي ياء النفس من العرب من يفتحها ومنهم من يسكنها ، فقرأوا باللغتين ؛ واللغة الفصيحة في ياء النفس أن تكون مفتوحة ؛ لأنها اسم وهي على حرف واحد ، وكان الاختيار ألا تسكن فيجحف الاسم . ﴿أم كان من الغائبين ﴾بمعنى بل .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ﴾دليل على أن الحد على قدر الذنب لا على قدر الجسد ، أما أنه يرفق بالمحدود في الزمان والصفة . روي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه . قال ابن جريج : ريشه أجمع . وقال يزيد بن رومان : جناحاه . فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظاً على العاصين ، وعقاباً على إخلاله بنوبته ورتبته ؛ وكأن الله أباح له

---

(١) أخرجاه في الصحيحين .

ذلك، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع. والله أعلم. وفي "نوادر الأصول" قال: حدثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي، قال حدثنا عون بن عمارة، عن الحسين الجعفي، عن الزبير ابن الخرِّيت، عن عكرمة، قال: إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان باراً بوالديه. وسيأتي. وقيل: تعذيبه أن يجعل مع أضداده. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. وقيل: إيداعه القفص. وقيل: بأن يجعله للشمس بعد نتفه. وقيل: بتبعيده عن خدمتي، والملوك يؤدبون بالهجران الجسد بتفريق إلفه. وهو مؤكد بالنون الثقيلة، وهي لازمة هي أو الخفيفة. قال أبو حاتم: ولو قرئت "لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه" جاز. ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ أي بحجة بينة. وليست اللام في "ليأتيني" لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد؛ ولكن لما جاء في أثر قوله: "لأعذبنه" وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه. وقرأ ابن كثير وحده: "ليأتينني" بنونين.

الخامسة : قوله تعالى: ﴿ فمكث غير بعيد﴾ أي الهدهد. والجمهور من القراء على ضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها. ومعناه في القراءتين أقام. قال سيبويه: مكث يمكث مكوثاً كما قالوا قعد يقعد قعوداً. قال: ومكث مثل ظرف. قال غيره: والفتح أحسن لقوله تعالى: ﴿ ماكثين﴾ (الكهف: ٣) إذ هو من مكث؛ يقال: مكث يمكث فهو ماكث؛ ومكُث يمكُث مثل عَظُم يعظُم فهو مكيث؛ مثل عظيم. ومكث يمكث فهو ماكث؛ مثل حمض يحمض فهو حامض. والضمير في "مكث" يحتمل أن يكون لسليمان؛ والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل. ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر. فجاء: ﴿ فقال أحطت بما لم تحط به﴾ وهي:

السادسة : ﴿ فقال أحطت بما لم تحط به﴾ أي علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا رد على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب. وحكى الفراء "أحط" يدغم التاء في الطاء. وحكى "أحت" بقلب الطاء تاء وتدغم.

السابعة : قوله تعالى: ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾ أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه، ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح. وقرأ الجمهور: "سبأ" بالصرف. وابن كثير وأبو عمرو: "سبَأَ" بفتح الهمزة وترك الصرف؛ فالأول على أنه اسم رجل نسب إليه قوم، وعليه قول الشاعر:

الواردون وتيم في ذرى سبأ   قد عض أعناقهم جلد الجواميس

وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل، وقال "سبأ" اسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام.

(قلت[1] : وقع في عيون المعاني للغزنوي ثلاثة أميال. قتادة والسدي: بعث إليه اثنا عشر نبياً). وأنشد للنابغة الجعدي:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ   يبنون من دون سيله العرما

---

(١) غير موجود في نسخة.

قال: فمن لم يصرف قال إنه اسم مدينة، ومن صرف وهو الأكثر فلأنه اسم البلد فيكون مذكراً سمي به مذكر. وقيل: اسم امرأة سميت بها المدينة. والصحيح أنه اسم رجل، كذلك في كتاب الترمذي من حديث فروة بن مُسَيْك المرادي عن النبي ﷺ:[١] وسيأتي إن شاء الله تعالى. قال ابن عطية: وخفي هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواء. وزعم الفراء أن الرؤاسي سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال: ما أدري ما هو. قال النحاس: وتأول الفراء على أبي عمرو أنه منعه من الصرف لأنه مجهول، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف. وقال النحاس: وأبو عمرو أجل من أن يقول مثل هذا، وليس في حكاية الرؤاسي عنه دليل أنه إنما منعه من الصرف لأنه لم يعرفه، وإنما قال لا أعرفه، ولو سئل نحويّ عن اسم فقال لا أعرفه لم يكن في هذا دليل على أنه يمنعه من الصرف، بل الحق على غير هذا؛ والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه؛ لأن أصل الأسماء الصرف؛ وإنما يمنع الشيء من الصرف لعلة داخلة عليه؛ فالأصل ثابت بيقين فلا يزول بما لا يعرف. وذكر كلاماً كثيراً عن النحاة وقال في آخره: والقول في "سبأ" ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل، فإن صرفته فلأنه قد صار اسماً للحي، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف وحجته في ذلك قاطعة؛ لأن هذا الاسم لما كان يقع لـه التذكير والتأنيث كان التذكير أولى؛ لأنه الأصل والأخف.

الثامنة: وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه. هذا عمر بن الخطاب مع جلالته ﷺ وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان. وكان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمم الجنب. وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت. وكان غسل رأس المحرم معلوماً عند ابن عباس وخفي عن المسور بن مخرمة. ومثلـه كثير فلا يطول به.

التاسعة: قولـه تعالى: ﴿ إنـي وجدت امرأة تملكهم ﴾ لما قال الـهدهد: ﴿ جئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ قال سليمان: وما ذلك الخبر؟ قال: "إني وجدت امرأة تملكهم" يعني بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبأ. ويقال: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطّه وبين بلدها قريبة، وهي من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف. ويروى أن أحد أبويها كان من الجن. قال ابن العربي: وهذا أمر تنكره الملحدة، ويقولون: الجن لا يأكلون ولا يلدون؛ كذبوا لعنهم الله أجمعين؛ ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلاً فإن صح نقلاً فبها ونعمت.

قلت: خرّج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال: قدم وفد من الجن على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد انْهَ أمتك أن يستنجوا بعظم أو روثة أو جمجمة فإن الله جاعل لنا فيها رزقاً[٢]. وفي صحيح مسلم: فقال: "لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم" فقال رسول الله ﷺ: (فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن)[٣] وفي البخاري

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣٢٢٢)، وفيه: "فقال رجل: يارسول الله، وما سبأ أرض أو امرأة؟ قال: "ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب. . . " .

(٢) "صحيح" أخرجه أبو داود (٣٩)، وأصلـه في البخاري (٣٨٦٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٥٠).

من حديث أبي هريرة قال فقلت: ما بال العظم والروثة؟ فقال: "هما من طعام الجن وإنه أتاني وفد جنّ نصيبين ونعم الجنَ فسألوني الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طَعاما" [١] وهذَا كلـه نَص في أنهم يطعمون. وأما نكاحهم فقد تقدمت الإشارة إليه في "الإسراء" عند قولـه: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ (الإسراء: ٦٤). وروى وهيب بن جرير بن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال: كانت أم بلقيس من الجن يقال لـها بلعمة بنت شيصان. وسيأتي لـهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

العاشرة: روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: (لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة) [٢] قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه؛ ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعلـه نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق؛ ولا بأن يكتب لـها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير. وقد روي عن عمر أنه قدم امرأة على حسبة السوق. ولم يصح فلا تلتفتوا إليه، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث. وقد تناظر في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طرار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لـها، وسماع البينة عليها، والفصل بين الخصوم فيها، وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل. فاعترض عليه القاضي أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور، وتدبير الأمور وحماية البيضة، وقبض الخراج ورده على مستحقه، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل. قال ابن العربي: وليس كلام الشيخين في هذه المسألة بشيء؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، لأن كانت بَرْزَة لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم، وتكون مناظرة لـهم؛ ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده.

الحادية عشرة: قولـه تعالى: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ مبالغة؛ أي مما تحتاجه المملكة. وقيل: المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً فحذف المفعول؛ لأن الكلام دل عليه. ﴿ولـها عرش عظيم﴾ أي سرير؛ ووصفه بالعظم في الـهيئة ورتبة السلطان. قيل: كان من ذهب تجلس عليه. وقيل: العرش هنا الملك؛ والأول أصح؛ لقولـه تعالى: ﴿أيكم يأتيني بعرشها﴾ (النمل: ٣٨).

الزمخشري: فإن قلت: كيف سوّى الـهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم؟

قلت: بين الوصفين بون عظيم؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم لـه بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم لـه بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض. قال ابن عباس: كان طول عرشها ثمانين ذراعاً، وعرضه أربعين ذراعاً، وارتفاعه في السماء ثلاثين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٥).

ذراعاً، مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر. قتادة: وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحرير، عليه سبعة مغاليق. مقاتل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعا، وارتفاعه من الأرض ثمانون ذراعا، وهو مكلل بالجواهر. ابن إسحاق: وكان يخدمها النساء، وكان معها لخدمتها ستمائة امرأة. قال ابن عطية: واللازم من الآية أنها امرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار.

الثانية عشرة: قولـه تعالى: ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ قيل: كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى. وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار. وروي عن نافع أن الوقف على "عرش". قال المهدوي: فعظيم على هذا متعلق بما بعده، وكان ينبغي على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها؛ أي وجودي إياها كافرة. وقال ابن الأنباري: "ولـها عرش عظيم" وقف حسن، ولا يجوز أن يقف على "عرش" ويبتدئ "عظيم وجدتها" إلا على من فتح؛ لأن عظيماً نعت لعرش فلو كان متعلقاً بـ "وجدتها" لقلت عظيمة وجدتها؛ وهذا محال من كل وجه. وقد حدثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شهريار، قال: حدثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العجلي، عن بعض أهل العلم أنه قال: الوقف على "عرش" والابتداء "عظيم" على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر. قال: وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب، ويحتج بأن عرشها أحقر وأدق شأناً من أن يصفه الله بالعظيم. قال ابن الأنباري: والاختيار عندي ما ذكرته أولاً؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليل. وغير منكر أن يصف الهدهد عرشها بالعظيم إذا رآه متناهي الطول والعرض؛ وجريه على إعراب "عرش" دليل على أنه نعته. ﴿وزين لـهم الشيطان أعمالـهم﴾ أي ما هم فيه من الكفر. ﴿فصدهم عن السبيل﴾ أي عن طريق التوحيد. وبين بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق. ﴿فهم لا يهتدون﴾ إلى الله وتوحيده.

الثالثة عشرة: قولـه تعالى: ﴿ألا يسجدوا لله﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة: "ألا يسجدوا لله" بتشديد "ألا" قال ابن الأنباري: "فهم لا يهتدون" غير تام لمن شدد "ألا" لأن المعنى: وزين لـهم الشيطان ألا يسجدوا. قال النحاس: هي "أن" دخلت عليها "لا" و"أن" في موضع نصب؛ قال الأخفش: بـ"زين" أي وزين لـهم لئلا يسجدوا لله. وقال الكسائي: بـ"فصدّهم" أي فصدّهم ألا يسجدوا. وهو في الوجهين مفعول لـه.

وقال اليزيدي وعلي بن سليمان: "أن" بدل من "أعمالـهم" في موضع نصب. وقال أبو عمرو: و"أن" في موضع خفض على البدل من السبيل وقيل: العامل فيها "لا يهتدون" أي فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله؛ أي لا يعلمون أن ذلك واجب عليهم. وعلى هذا القول "لا" زائدة؛ كقولـه: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ (الأعراف: ١٢) أي ما منعك أن تسجد. وعلى هذه القراءة فليس بموضع سجدة؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود، إما بالتزيين، أو بالصد، أو بمنع الاهتداء. وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما: "ألا يسجدوا لله" بمعنى يا هؤلاء اسجدوا؛ لأن "يا" ينادى بها الأسماء دون الأفعال. وأنشد سيبويه:

يا لعنة الله والأقوام كلهم والصالحين على سمعان من جار

قال سيبويه: "يا" لغير اللعنة، لأنه لو كان للعنة لنصبها، لأنه كان يصير منادى مضافاً، ولكن تقديره يا هؤلاء لعنة الله والأقوام على سمعان. وحكى بعضهم سماعاً عن العرب: ألا يا ارحموا ألا يا اصدقوا. يريدون ألا يا قوم ارحموا اصدقوا، فعلى هذه القراءة "اسجدوا" في موضع جزم بالأمر والوقف على "ألا يا" ثم تبتدئ فتقول: "اسجدوا". قال الكسائي: ما كنت أسمع الأشياخ يقرأونها إلا بالتخفيف على نية الأمر. وفي قراءة عبد الله: "ألا هل تسجدون لله" بالتاء والنون. وفي قراءة أُبيّ "ألا تسجدون لله" فهاتان القراءتان حجة لمن خفف. الزجاج: وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون التشديد. واختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة التشديد. وقال: التخفيف وجه حسن إلا أن فيه انقطاع الخبر من أمر سبأ، ثم رجع بعد إلى ذكرهم، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه. ونحوه قال النحاس. قال: قراءة التخفيف بعيدة؛ لأن الكلام يكون معترضاً، وقراءة التشديد يكون الكلام بها متسقاً، وأيضاً فإن السواد على غير هذه القراءة، لأنه قد حذف منه ألفان، وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو يا عيسى بن مريم. ابن الأنباري: وسقطت ألف "اسجدوا" كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر، ولما سقطت ألف "يا" واتصلت بها ألف "اسجدوا" سقطت، فعد سقوطها دلالة على الاختصار وإيثاراً لما يخف وتقل ألفاظه. وقال الجوهري في آخر كتابه: قال بعضهم: إن "يا" في هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال: ألا اسجدوا لله، فلما أدخل عليه "يا" للتنبيه سقطت الألف التي في "اسجدوا" لأنها ألف وصل، وذهبت الألف التي في "يا" لاجتماع الساكنين؛ لأنها والسين ساكنتان. قال ذو الرمة:

ألا يا اسلمي يا دار مَيّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

وقال الجرجاني: هو كلام معترض من الهدهد أو سليمان أو من الله. أي ألا ليسجدوا؛ كقوله تعالى: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ (الجاثية: ١٤) قيل: إنه أمر أي ليغفروا. وتنتظم على هذا كتابة المصحف؛ أي ليس ها هنا نداء. قال ابن عطية: قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله "العظيم" وهو قول ابن زيد وابن إسحاق؛ ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في معنى شرع. ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم. ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل، وقراءة التشديد في "ألا" تعطي أن الكلام للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه، والتخفيف يقتضي الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه.

وقال الزمخشري: فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلت هي واجبة فيهما جميعاً؛ لأن مواضع السجدة إما أمر بها، أو مدح لمن أتى بها، أو ذم لمن تركها، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك.

قلت: وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما في "الانشقاق" وسجد النبي ﷺ فيها، كما ثبت في البخاري وغيره[1] فكذلك "النمل". والله أعلم. الزمخشري: وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٤)، ومسلم (٥٧٨).

قولـه تعالى: ﴿ الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ﴾ خبء السماء قطرها، وخبء الأرض كنوزها ونباتها. وقال قتادة: الخبء السر. النحاس: وهذا أولى. أي ما غاب في السماوات والأرض، ويدل عليه "ما يخفون وما يعلنون". وقرأ عكرمة ومالك بن دينار: "الخب" بفتح الباء من غير همز. قال المهدوي: وهو التخفيف القياسي؛ وذكر من يترك الـهمز في الوقف. وقال النحاس: وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ: "الذي يخرج الخبا" بألف غير مهموزة، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية، واعتل بأنه إن خفف الـهمزة ألقى حركتها على الباء فقال: الخَبَ في السماوات والأرض" وأنه إن حول الـهمزة قال: الخبي بإسكان الباء وبعدها ياء. قال النحاس: وسمعت علي ابن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول: كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه. وحكى سيبويه عن العرب أنها تبدل من الـهمزة ألفا إذا كان قبلـها ساكن وكانت مفتوحة، وتبدل منها واواً إذا كان قبلـها ساكن وكانت مضمومة، وتبدل منها ياء إذا كان قبلـها ساكن وكانت مكسورة؛ فتقول: هذا الوثو وعجبت من الوثي ورأيت الوثا؛ وهذا من وثئت يده؛ وكذلك هذا الخبو وعجبت من الخبي، ورأيت الخبا؛ وإنما فعل هذا لأن الـهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف. وحكى سيبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون: هذا الخبؤ؛ يضمون الساكن إذا كانت الـهمزة مضمومة، ويثبتون الـهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الـهمزة مكسورة، ويفتحون الساكن إذا كانت الـهمزة مفتوحة. وحكى سيبويه أيضاً أنهم يكسرون وإن كانت الـهمزة مضمومة، إلا أن هذا عن بني تميم؛ فيقولون: الرديء؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلـها كسرة؛ لأنه ليس في الكلام فعل. وهذه كلـها لغات داخلة على اللغة التي قرأ بها الجماعة؛ وفي قراءة عبد الله "الذي يخرج الخبأ من السماوات" و"من" و"في" يتعاقبان؛ تقول العرب: لأستخرجن العلم فيكم يريد منكم؛ قالـه الفراء. ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ قراءة العامة فيهما بياء الغائب، وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الـهدهد، وأن الله تعالى خصه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود لـه، وإنكار سجودهم للشمس، وإضافته للشيطان، وتزيينه لـهم، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لـها. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص والكسائي: "تخفون" و"تعلنون" بالتاء على الخطاب؛ وهذه القراءة تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ ﴿الله لا إلـه إلا هو رب العرش العظيم﴾ قرأ ابن محيصن "العظيم": رفعاً نعتاً لله. الباقون بالخفض نعتاً للعرش. وخص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه في ضمنه وقبضته.

الرابعة عشرة: قولـه تعالى: ﴿سننظر ﴾من النظر الذي هو التأمل والتصفح. ﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ في مقالتك. و"كنت" بمعنى أنت. وقال: "سننظر أصدقت" ولم يقل سننظر في أمرك؛ لأن الـهدهد لما صرح بفخر العلم في قولـه: "أحطت بما لم تحط به" صرح لـه سليمان بقولـه: سننظر أصدقت أم كذبت، فكان ذلك كفاء لما قالـه.

الخامسة عشرة: "أصدقت أم كنت من الكاذبين" دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالـهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان لم يعاقب الـهدهد حين

اعتذر إليه. وإنما صار صدق الـهدهد عذراً لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان ﷺ حبب إليه الجهاد. وفي الصحيح: "ليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل"[١]. وقد قبل عمر عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه. ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة. كما فعل سليمان؛ فإنه لما قال الـهدهد: "إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولـها عرش عظيم" لم يستفزه الطمع، ولا استجره حب الزيادة في الملك إلى أن يعرض لـه حتى قال: "وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله" فغاظه حينئذ ما سمع، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك، فقال: "سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين" ونحو منه ما رواه الصحيح عن المسور بن مخرمة، حين استشار عمر الناس في إملاص المرأة وهي التي يضرب بطنها فتلقي جنينها؛ فقال المغيرة ابن شعبة: شهدت النبي ﷺ قضى فيه بغرة عبد أو أمة. قال فقال عمر: ايتني بمن يشهد معك؛ قال: فشهد لـه محمد بن مسلمة وفي رواية فقال: لا تبرح حتى تأتي بالمخرج[٢] من ذلك؛ فخرجت فوجدت محمد بن سلمة فجئت به فشهد[٣]. ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان[٤] وغيره.

السادسة عشرة: قولـه تعالى: ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ﴾ قال الزجاج: فيها خمسة أوجه "فألقه" إليهم" بإثبات الياء في اللفظ. وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالة عليها "فألقه إليهم". وبضم الـهاءَ وإثبات الواو على الأصل "فألقُه إليهم". وبحذف الواو وإثبات الضمة "فألقهُ إليهم". واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الـهاء "فألقه إليهم". قال النحاس: وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة بعيدة تكون: يقدر الوقف؛ وسمعت علي بن سليمان يقول: لا تلتفت إلى هذه العلة، ولو جاز أن يصل وهو ينوي الوقف لجاز أن يحذف الإعراب من الأسماء. وقال: "إليهم" على لفظ الجمع ولم يقل إليها؛ لأنه قال: "وجدتها وقومها يسجدون للشمس" فكأنه قال: فألقه إلى الذين هذا دينهم؛ اهتماماً منه بأمر الدين، واشتغالاً به عن غيره، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك. وروي في قصص هذه الآية أن الـهدهد وصل فألفى دون هذه الملكة حجب جدران؛ فعمد إلى كوة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي ـ فيما يروى ـ نائمة؛ فلما انتبهت وجدته فراعها، وظنت أنه قد دخل عليها أحد، ثم قامت فوجدت حالـها كما عهدت، فنظرت إلى الكوة تهمماً بأمر الشمس، فرأت الـهدهد فعلمت. وقال وهب وابن زيد: كانت لـها كوة مستقبلة مطلع الشمس، فإذا طلعت سجدت، فسدها الـهدهد بجناحه، فارتفعت الشمس ولم تعلم، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت، لأن ملك سليمان ﷺ كان في خاتمه؛ فقرأته

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠) واللفظ لـه.
(٢) أخرجه البخاري (٧٣١٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٣١٨).
(٤) أخرجه البخاري وقد سبق.

فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتي بعد. وقال مقاتل: حمل الهدهد الكتاب بمنقاره، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر، فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها.

السابعة عشرة: في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام. وقد كتب النبيﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار؛ كما تقدم في "آل عمران":

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿ ثم تول عنهم﴾ أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك. بمعنى: وكن قريبا حتى ترى مراجعتهم؛ قال وهب بن منبه. وقال ابن زيد: أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه؛ أي ألقه وارجع. ﴿ فانظر ماذا يرجعون﴾ في معنى التقديم على قوله: "ثم تول" واتساق رتبة الكلام أظهر؛ أي ألقه ثم تول، وفي خلال ذلك فانظر أي انتظر. وقيل: فاعلم؛ كقوله: ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ (النبأ: ٤٠) أي اعلم ماذا يرجعون أي يجيبون وماذا يردون من القول. وقيل: "فانظر ماذا يرجعون" يتراجعون بينهم من الكلام.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قالت يا أيها الملأ﴾ في الكلام حذف؛ والمعنى: فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهي تقول: "يا أيها الملأ" ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالا لسليمانعليه السلام؛ وهذا قول ابن زيد. وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه؛ وروي ذلك عن رسول اللهﷺ وقيل: لأنه بدأ فيه بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" وقد قالﷺ: "كل كلام لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم"[1]. وقيل: لأنه بدأ فيه بنفسه، ولا يفعل ذلك إلا الجلة. وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه: من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين؛ إني أقر لك بالسمع والطاعة ما استطعت، وإن بني قد أقروا لك بذلك. وقيل: توهمت أنه كتاب جاء من السماء إذ كان الموصِّل طيراً. وقيل: "كريم" حسن؛ كقوله: ﴿ ومقام كريم﴾ (الشعراء: ٥٨) أي مجلس حسن. وقيل: وصفته بذلك؛ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً، ولا ما يغير النفس، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عز وجل؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيهﷺ: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ (النحل: ١٢٥) وقوله لموسى وهارون: ﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ (طه: ٤٤). وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها. وقد روي أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان. وفي قراءة عبد الله "وإنه من سليمان" بزيادة واو.

(١) "ضعيف" وانظر ضعيف الجامع (٤٢٤٥)، وراجع الإرواء (٢).

الثانية : الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف؛ ألا ترى قوله تعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ (الواقعة: ٧٧) وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور؛ فإن كان لملك قالوا: العزيز وأسقطوا الكريم غفلة، وهو أفضلها خصلة. فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى: ﴿ وإنه لكتاب عزيز*لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ (فصلت: ٤١ ـ ٤٢) فهذه عزته وليست لأحد إلا له، فاجتنبوها في كتبكم، واجعلوا بدلها العالي؛ توفية لحق الولاية، وحياطة للديانة؛ قال القاضي أبو بكر بن العربي.

الثالثة : كان رسم المتقدمين إذا كتبوا أن يبدأوا بأنفسهم من فلان إلى فلان، وبذلك جاءت الآثار. وروى الربيع عن أنس قال: ما كان أحد أعظم حرمة من النبي ﷺ: وكان أصحابه إذا كتبوا بدأوا بأنفسهم. وقال ابن سيرين قال النبي ﷺ: "إن أهل فارس إذا كتبوا بدأوا بعظمائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه"[1] قال أبو الليث في كتاب "البستان" له: ولو بدأ بالمكتوب إليه لجاز؛ لأن الأمة قد اجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا في ذلك، أو نسخ ما كان من قبل؛ فالأحسن في زماننا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه، ثم بنفسه؛ لأن البداية بنفسه تعد منه استخفافاً بالمكتوب إليه وتكبراً عليه؛ إلا أن يكتب إلى عبد من عبيده، أو غلام من غلمانه.

الرابعة : وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يرد الجواب؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر. وروي عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجباً كما يرى رد السلام. والله أعلم.

الخامسة : اتفقوا على كتب "بسم الله الرحمن الرحيم" في أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها؛ لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: أيما كتاب لم يكن مختوماً فهو أغلف. وفي الحديث: "كرم الكتاب ختمه"[2]. وقال بعض الأدباء؛ هو ابن المقفع: من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به؛ لأن الختم ختم. وقال أنس: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى العجم فقيل له: إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه ختم؛ فاصطنع خاتماً ونقش على فصه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأني أنظر إلى وبيصه وبياضه في كفه[3].

السادسة : قوله تعالى: ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ "وإنه" بالكسر فيهما أي وإن الكلام، أو إن مبتدأ الكلام "بسم الله الرحمن الرحيم". وأجاز الفراء "أنه من سليمان وأنه" بفتحهما جميعاً على أن يكونا في موضع رفع بدل من الكتاب؛ بمعنى ألقي إلي أنه من سليمان. وأجاز أن يكونا في موضع نصب على حذف الخافض؛ أي لأنه من سليمان ولأنه؛ كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله. وقرأ الأشهب العقيلي ومحمد بن السميقع: "ألا تغلوا" بالغين المعجمة، وروي عن وهب بن منبه؛ من غلا يغلو إذا تجاوز وتكبر. وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة. ﴿وأتوني مسلمين﴾ أي منقادين طائعين مؤمنين.

---

(١) ضعيف لا نقطاعه.

(٢) ذكره العجلوني في "كشف الخفاء"، (١٩٢٣)، وقال: "رواه القضاعي عن ابن عباس مرفوعًا، وكذا الطبراني في الأوسط بسند فيه متروك".

(٣) أخرجه البخاري في "اللباس" (٥٨٧٢). وقد سبق.

قولـه تعالى: ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ﴾ الملأ أشراف القوم وقد مضى في سورة "البقرة" القول فيه. قال ابن عباس: كان معها ألف قَيْل. وقيل: اثنا عشر ألف قَيْل مع كل قَيْل مائة ألف. والقيل الملك دون الملك الأعظم. فأخذت في حسن الأدب مع قومها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلكَ مطرد عندها في كل أمر يعرض، ﴿ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون﴾ فكيف في هذه النازلة الكبرى. فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها؛ وهذه محاورة حسنة من الجميع. قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لـها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً هم أهل مشورتها، كل رجل منهم على عشرة آلاف.

الثانية: في هذه الآيـة دليل على صحة المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ (آل عمران: ١٥٩) في "آل عمران" إما استعانة بالآراء، وإما مداراة للأولياء. وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقولـه: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (الشورى: ٣٨). والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: "قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون" لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضاءهم على الطاعة لـها، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالـهم ودماءهم دونها لم يكن لـها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها، ودخيلة في تقدير أمرهم، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم؛ ألا ترى إلى قولـهم في جوابهم: نحن أولو قوة وأولو بأس شديد قال ابن عباس: كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتدّ ضم فخذيه فحبسه بقوّته.

الثالثة: قولـه تعالى: والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين سلموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لـها من القوة والبأس والشدة؛ فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها. وفي هذا الكلام خوف على قومها، وحيطة واستعظام لأمر سليمان . وكذلك يفعلون قيل: هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادته. وقال ابن عباس: هو من قول الله عز وجل معرفاً لمحمد وأمته بذلك ومخبراً به. وقال وهب: لما قرأت عليهم الكتاب لم تعرف اسم الله، فقالت: ما هذا؟! فقال بعض القوم: ما نظن هذا إلا عفريتاً عظيماً من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريده؛ فسكّتوه. وقال الآخر: أراهم ثلاثة من العفاريت؛ فسكّتوه؛ فقال شاب قد علم: يا سيدة الملوك! إن سليمان ملك قد أعطاه ملك السماء مُلكاً عظيماً فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية

إلـهه، والله اسم مليك السماء، والرحمن الرحيم نعوته؛ فعندها قالت: "أفتوني في أمري" فقالوا: "نحن أولو قوة" في القتال "وأولو بأس شديد" قوة في الحرب واللقاء "والأمر إليك" ردوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة "فانظري ماذا تأمرين" فـ "قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلـها أذلة" أهانوا شرفاءها لتستقيم لـهم الأمور، فصدق الله قولـها. "وكذلك يفعلون" قال ابن الأنباري: "وجعلوا أعزة أهلـها أذلة" هذا وقف تام؛ فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولـها: "وكذلك يفعلون" وشبيه به في سورة "الأعراف" ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم ﴾ (الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠) تم الكلام، فقال فرعون: ﴿ فماذا تأمرون ﴾ (الأعراف: ١١٠). وقال ابن شجرة. هو قول بلقيس، فالوقف "وكذلك يفعلون" أي وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها؛ أي إني أجرب هذا الرجل بهدية، وأعطيه فيها نفائس من الأموال، وأغرب عليه بأمور المملكة؛ فإن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازمنا في أمر الدِّين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلـها، فقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس: أرسلت إليه بلبنة من ذهب، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به. وقال مجاهد: أرسلت إليه بمائتي غلام ومائتي جارية. وروي عن ابن عباس: باثنتي عشرة وصيفة مذكّرين قد ألبستهم زي الغلمان، واثني عشر غلاماً مؤنثين قد ألبستهم زي النساء، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر، وباثنتي عشرة نجيبة تحمل لَبِن الذهب، وبخرزتين إحداهما غير مثقوبة، والأخرى مثقوبة ثقباً معوجاً، وبقدح لا شيء فيه، وبعَصا كان يتوارثها ملوك حمير، وأنفذت الـهدية مع جماعة من قومها. وقيل: كان الرسول واحداً ولكن كان في صحبته أتباع وخدم. وقيل: أرسلت رجلاً من أشراف قومها يقال لـه المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجالاً ذوي رأي وعقل، والـهدية مائة وصيف ومائة وصيفة، وقد خولف بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء، وقالت للجواري: كلِّمنه بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال؛ فيقال: إن الـهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كلـه. وقيل: إن الله أخبر سليمان بذلك، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسعة فراسخ بلبنات الذهب والفضة، ثم قال: أي الدواب رأيتم أحسن في البر والبحر؟ قالوا: يا نبي الله رأينا في بحر كذا دواب منقطة مختلفة ألوانها، لـها أجنحة وأعراف ونواصي؛ فأمر بها فجاءت فشدت على يمين الميدان وعلى يساره، وعلى لبنات الذهب والفضة، وألقوا لـها علوفاتها؛ ثم قال للجن: علي بأولادكم؛ فأقامهم ـ أحسن ما يكون من الشباب ـ عن يمين الميدان ويساره. ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه في مجلسه، ووضع لـه أربعة آلاف كرسي من ذهب عن يمينه ومثلـها عن يساره، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفاً فراسخ، وأمر السباع والوحوش والـهوام والطير فاصطفوا فراسخ

عن يمينه وشماله، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم أحسن منها تروث على لبنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا. وفي بعض الروايات: إن سليمان لما أمرهم بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين رأوا منظراً هائلاً فظيعاً ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين: جوزوا لا بأس عليكم؛ فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والبهائم والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان، فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طلق، وكانت قالت لرسولها: إن نظر إليك نظر مغضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي مرسل فتفهم قوله ورد الجواب، فأخبر الهدهد سليمان بذلك على ما تقدم.

وكانت عمدت إلى حقة من ذهب فجعلت فيها درة يتيمة غير مثقوبة، وخرزة معوجة الثقب، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه: إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقة، وعرفني رأس العصا من أسفلها، واثقب الدرة ثقباً مستوياً، وأدخل خيط الخرزة، واملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء؛ فلما وصل الرسول ووقف بين يدي سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحقة؟ فأتى بها فحركها؛ فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان. فقال له الرسول: صدقت؛ فاثقب الدرة، وأدخل الخيط في الخرزة؛ فسأل سليمان الجن والإنس عن ثقبها فعجزوا؛ فقال للشياطين: ما الرأي فيها؟ فقالوا: ترسل إلى الأرضة، فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر؛ فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت: تصيِّر رزقي في الشجر؛ فقال لها: لك ذلك. ثم قال سليمان: من لهذه الخرزة يسلكها الخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبي الله؛ فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر؛ فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ قالت تجعل رزقي في الفواكه؛ قال: ذلك لك. ثم ميز بين الغلمان والجواري. قال السدي: أمرهم بالوضوء، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حَدْراً، وجعل الجواري يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى، فميز بينهم بهذا. وقيل: كانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثم تحمله على الأخرى، ثم تضرب به على الوجه؛ والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه، والجارية تصب على بطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد، والجارية تصب الماء صباً، والغلام يحدر على يديه؛ فميز بينهم بهذا. وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال: أرسلت بلقيس بمائتي وصيفة ووصيف، وقالت: إن كان نبياً فسيعلم الذكور من الإناث، فأمرهم فتوضؤوا؛ فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفه قال هو من الإناث، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها، ثم رد سليمان الهدية؛ فروي أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد؛ قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانية : كان النبي ﷺ يقبل الـهدية ويثبت عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وإنما جعلت بلقيس قبول الـهدية أو ردها علامة على ما في نفسها؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً؛ لأنه قال لـها في كتابه: ﴿ ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴾ (النمل: ٣١) وهذا لا تقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الـهدية بسبيل، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهي الرشوة التي لا تحل. وأما الـهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال، وهذا ما لم يكن من مشرك.

الثالثة : فإن كانت من مشرك ففي الحديث "نهيت عن زبد المشركين"[١] يعني رفدهم وعطاياهم. وروي عنه عليه السلام أنه قبلـها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيلي وغيره، فقالَ جماعة من العلماء بالنسخ فيهما، وقال آخرون: ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخولـه في الإسلام، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملاً على الكف عنه؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا؛ فإنه جمع بين الأحاديث. وقيل غير هذا.

الرابعة : الـهدية مندوب إليها، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة؛ روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراساني قال: قال رسول الله ﷺ: "تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء"[٢]. وروى معاوية بن الحكم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تهادوا فإنه يضعِّف الود ويذهب بغوائل الصدر"[٣]. وقال الدارقطني: تفرد به ابن بُجَير عن أبيه عن مالك، ولم يكن بالرضي، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهري. وعن ابن شهاب قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: "تهادوا بينكم فإن الـهدية تذهب السخيمة"[٤] قال ابن وهب: سألت يونس عن السخيمة ما هي فقال: الغل. وهذا الحديث وصلـه الوقاصي عثمان عن الزهري وهو ضعيف. وعلى الجملة: فقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقبل الـهدية[٥]، وفيه الأسوة الحسنة. ومن فضل الـهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس، وتكسب المهدي والمهدى إليه رنة في اللقاء والجلوس. ولقد أحسن من قال:

هدايا الـناس بعضـهم لـبعضٍ ... تولـد في قلوبهـم الوصـالا
وتـزرع فـي الضمـير هـوى ووداً ... وتكسبهم إذا حضروا جمالا

وقال آخر:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٥٧)، والترمذي (١٥٧٧)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".
(٢) "ضعيف" أخرجه مالك في "الموطأ"، (١٦٨٥)، وأخرجه بنحوه ابن عساكر عن أبي هريرة بسند ضعيف أيضًا كما في ضعيف الجامع (٢٤٩٠).
(٣) "ضعيف" وكذا أخرجه الطبراني بنحوه عن أم حكيم بنت وداع كما في المصدر السابق (٢٤٩٣).
(٤) "ضعيف" أخرجه البيهقي عن أنس، وراجع الإرواء (١٦٠١).
(٥) ثبت ذلك في البخاري (٢٥٦٨)، وفي غير موضع.

إن الهدايا لها حظ إذا وردت أحظى من الابن عند الوالد الحدب

الخامسة : روي عن النبي ﷺ أنه قال: "جلساؤكم شركاؤكم في الهدية"[1] واختلف في معناه؛ فقيل: هو محمول على ظاهره. وقيل: يشاركهم على وجه الكرم والمروءة، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه. وقال أبو يوسف: ذلك في الفواكه ونحوها. وقال بعضهم: هم شركاؤه في السرور لا في الهدية. والخبر محمول في أمثال أصحاب الصفة والخوانق والرباطات؛ أما إذا كان فقيها من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابه، فإن أشركهم فذلك كرم وجود منه.

السادسة : قوله تعالى: ﴿ فناظرة ﴾ أي منتظرة ﴿بم يرجع المرسلون﴾ قال قتادة: يرحمها الله أن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها؛ قد علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس. وسقطت الألف في "بم" للفرق بين "ما" الخبرية. وقد يجوز إثباتها؛ قال:

على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرغ في رماد

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال ﴾ أي جاء الرسول سليمان بالهدية قال: "أتمدونني بمال" . قرأ حمزة ويعقوب والأعمش: بنون واحدة مشددة وياء ثابتة بعدها. الباقون بنونين وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنها في كل المصاحف بنونين. وقد روى إسحاق عن نافع أنه كان يقرأ: "أتمدون" بنون واحدة مخففة بعدها ياء في اللفظ. قال ابن الأنباري: فهذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عند الوقف، ليصح لها موافقة هجاء المصحف. والأصل في النون التشديد، فخفف التشديد من ذا الموضع كما خفف من: أشهد أنك عالم؛ وأصله: أنك عالم. وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ: ﴿ تشاقون فيهم ﴾ (النحل: ٢٧)، ﴿ أتحاجوني في الله ﴾ (الأنعام: ٨٠). وقد قالت العرب: الرجال يضربون ويقصدون، وأصله يضربونّي ويقصدونّي: لأنه إدغام يضربونني ويقصدونني قال الشاعر:

---

(١) ذكره البخاري في "الهبة" معلقاً موقوفاً على ابن عباس، قال الحافظ (٥/ ٢٢٧): وفي إسناده مندل بن علي وهو ضعيف.

ترهبين والجيد منك لليلى والحشا والبغام والعينان

والأصل ترهبيني فخفف. ومعنى "أتمدونني" أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي.

قوله تعالى: ﴿ فما آتان الله خير مما آتاكم ﴾ أي فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوة خير مما أعطاكم، فلا أفرح بالمال. و"آتان" وقعت في كل المصاحف بغير ياء. وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص: "آتانيَ الله" بياء مفتوحة؛ فإذا وقفوا حذفوا. وأما يعقوب فإنه يثبتها في الوقف ويحذف في الوصل لالتقاء الساكنين. الباقون بغير ياء في الحالين. ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ ارجع إليهم ﴾ أي قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد؛ ارجع إليهم بهديتهم. ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾ لام قسم والنون لها لازمة. قال النحاس: وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول: هي لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير؛ لام توكيد؛ ولام أمر، ولام خفض؛ وهذا قول الحذاق من النحويين؛ لأنهم يردون الشيء إلى أصله: وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب في العربية. ومعنى "لا قبل لهم بها" أي لا طاقة لهم عليها. ﴿ولنخرجنهم منها﴾ أي من أرضهم وقيل: "منها" أي من قرية سبأ. وقد سبق ذكر القرية في قوله: ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ (النمل: ٣٤). ﴿أذلة وهم صاغرون﴾ "أذلة" قد سلبوا ملكهم وعزهم. "وهم صاغرون" أي مهانون أذلاء من الصغر وهو الذل إن لم يسلموا؛ فرجع إليها رسولها فأخبرها؛ فقالت: قد عرفت أنه ليس بملك ولا طاقة لنا بقتال نبي من أنبياء الله. ثم أمرت بعرشها فجعل في سبعة أبيات بعضها في جوف بعض؛ في آخر قصر من سبعة قصور؛ وغلقت الأبواب، وجعلت الحرس عليه، وتوجهت إليه في اثني عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن، تحت كل قيل مائة ألف. قال ابن عباس: وكان سليمان مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه؛ فنظر ذات يوم رهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: بلقيس يا نبي الله. فقال سليمان لجنوده ـ وقال وهب وغيره: للجن ـ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ وقال عبد الله بن شداد: كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لما قال: "أيكم يأتيني بعرشها" وكانت خلفت عرشها بسبأ، ووكلت به حفظة. وقيل: إنها لما بعثت بالهدية بعثت رسلها في جندها لتغافص سليمان بالقتل قبل أن يتأهب سليمان لها إن كان طالب ملك، فلما علم ذلك قال: "أيكم يأتيني بعرشها". قال ابن عباس: كان أمره بالإتيان بالعرش قبل أن يكتب الكتاب إليها، ولم يكتب إليها حتى جاءه العرش. وقال ابن عطية: وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان بعد مجيء هديتها ورده إياها، وبعثه الهدهد بالكتاب؛ وعلى هذا جمهور المتأولين. واختلفوا في فائدة استدعاء عرشها؛ فقال قتادة: ذكر له بعظم وجودة؛ فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم؛ والإسلام على هذا الدين؛ وهو قول ابن جريج. وقال ابن زيد: استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله، ويجعله دليلا على نبوته؛ لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب؛ و"مسلمين" على هذا التأويل بمعنى مستسلمين؛ وهو قول ابن عباس. وقال ابن زيد أيضاً: أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال: "نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي".

وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان ﷺ فيولد لـه منها ولد، فلا يزالون في السخرة والخدمة لنسل سليمان فقالت لسليمان في عقلها خلل؛ فأراد أن يمتحنها بعرشها. وقيل: أراد أن يختبر صدق الهدهد في قوله: "ولها عرش عظيم" قاله الطبري. وعن قتادة: أحب أن يراه لما وصفه الهدهد. والقول الأول عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: "قبل أن يأتوني مسلمين". ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها. روي أنه كان من فضة وذهب مرصعاً بالياقوت الأحمر والجوهر، وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق.

قوله تعالى: ﴿ قال عفريت من الجن ﴾ كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفي: "عفْرِيَةٌ" ورويت عن أبي بكر الصديق ﷺ. وفي الحديث: "إن الله يبغض العفرية النفرية". النفريةَ إتباع لعفرية. قال قتادة: هي الداهية. قال النحاس: يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عفر وعفرية وعفريت وعفارية. وقيل: "عفريت" أي رئيس. وقرأت فرقة: "قال عفْرٌ" بكسر العين؛ حكاه ابن عطية؛ قال النحاس: من قال عفرية جمعه على عفار، ومن قال: عفرِيت كان لـه في الجمع ثلاثة أوجه؛ إن شاء قال عفاريت، وإن شاء قال عَفار؛ لأن التاء زائدة؛ كما يقال: طواغ في جمع طاغوت، وإن شاء عوض من التاء ياء فقال عفاري. والعفريت من الشياطين القوي المارد. والتاء زائدة. وقد قالوا: تعفرت الرجل إذا تخلق بخلق الإذاية. وقال وهب بن منبه: اسم هذا العفريت كودن؛ ذكره النحاس. وقيل: ذكوان؛ ذكره السهيلي. وقال شعيب الجبائي: اسمه دعوان. وروي عن ابن عباس أنه صخر الجني. ومن هذا الاسم قول ذي الرمة:

كأنه كوكب في إثر عفرية مصوب في سواد الليل منقضب

وأنشد الكسائي:

إذ قال شيطانهم العفريت ليس لكم ملك ولا تثبيت

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن عفريتاً من الجن جعل يفتك عليّ البارحة ليقطع علي الصلاة وإن الله أمكنني منه فذعتُّه...) وذكر الحديث. وفي البخاري "تفلّت عليّ البارحة" مكان "جعل يفتك"[(١)]. وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه قال: أسري برسول الله ﷺ، فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار، كلما التفت رسول الله ﷺ رآه؛ فقال جبريل: أفلا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهن طفئت شعلته وخرّ لفيه؛ فقال رسول الله ﷺ: "بلى" فقال: "أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها وشر ما ذرأ في الأرض، وشر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن"[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ يعني في مجلسه الذي يحكم فيه. ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ أي قوي على حمله. "أمين" على ما فيه. ابن عباس: أمين على فرج المرأة؛ ذكره

---

(١) أخرجه البخاري في "الصلاة"، (٤٦١)، وفي غير موضع، ومسلم (٥٤١).
(٢) أخرجه مالك في "الموطأ" (١٧٧٣) مرسلاً.

المهدوي. فقال سليمان أريد أسرع من ذلك؛ فـ ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل، وكان صدّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب. وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: «إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا يا حي يا قيوم» قيل: وهو بلسانهم، أهيا شراهيا؛ وقال الزهري: دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم؛ يا إلـهنا وإلـه كل شيء إلـها واحداً لا إلـه إلا أنت ايتني بعرشها؛ فمثل بين يديه. وقال مجاهد: دعا فقال: يا إلـهنا وإلـه كل شيء يا ذا الجلال والإكرام. قال السهيلي: الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان، وكان عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى. وقيل: هو سليمان نفسه؛ ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل. قال ابن عطية وقالت فرقة هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لما قال: «أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك» كأن سليمان استبطأ ذلك فقال لـه على جهة تحقيره: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» واستدل قائلو هذه المقالة بقول سليمان: «هذا من فضل ربي».

قلت: ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن لـه، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى. قال بحر: هو ملك بيده كتاب المقادير، أرسلـه الله عند قول العفريت. قال السهيلي: وذكر محمد بن الحسن المقرئ أنه ضبة بن أد؛ وهذا لا يصح البتة لأن ضبة هو ابن أد بن طابخة، واسمه عمرو بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد، ومعد كان في مدة بختنصر، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل؛ فإذا لم يكن معد في عهد سليمان، فكيف ضبة بن أد وهو بعده بخمسة آباء؟! وهذا بين لمن تأملـه. ابن لـهيعة: هو الخضر عليه السلام. وقال ابن زيد: الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر البحر، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض؛ وهل يعبد الله أم لا؟ فوجد سليمان، فدعا باسم من أسماء الله تعالى فجيء بالعرش. وقول سابع: إنه رجل من بني إسرائيل اسمه يمليخا كان يعلم اسم الله الأعظم؛ ذكره القشيري. وقال ابن أبي بزة: الرجل الذي كان عنده علم من الكتاب اسمه أسطوم وكان عابداً في بني إسرائيل؛ ذكره الغزنوي. وقال محمد بن المنكدر: إنما هو سليمان عليه السلام؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم وليس ذلك كذلك؛ إنما كان رجل من بني إسرائيل عالم آتاه الله علماً وفقهاً قال: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» قال: هات. قال: أنت نبي الله ابن نبي الله فإن دعوت الله جاءك به، فدعا الله سليمان فجاءه الله بالعرش. وقول ثامن: إنه جبريل عليه السلام؛ قالـه النخعي، وروي عن ابن عباس. وعلم الكتاب على هذا علمه بكتب الله المنزلة، أو بما في اللوح المحفوظ. وقيل: علم كتاب سليمان إلى بلقيس. قال ابن عطية: والذي عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا؛ روي أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبي الله آمدد بصرك فمد بصره نحو اليمن فإذا بالعرش، فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده. قال مجاهد: هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئاً حسيراً. وقيل: أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف، وهو كما تقول: افعل كذا في لحظة عين؛ وهذا أشبه؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة، وإن كان من

آصف أو من غيره من أولياء الله فهي كرامة، وكرامة الولي معجزة النبي. قال القشيري: وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان، قال للعفريت: "أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك". وعند هؤلاء ما فعل العفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات، فإن الجن يقدرون على مثل هذا. ولا يقطع جوهر في حال واحدة مكانين، بل يتصور ذلك بأن يعدم الله الجوهر في أقصى الشرق ثم يعيده في الحالة الثانية، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب. أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها. قال القشيري: ورواه وهب عن مالك. وقد قيل: بل جيء به في الهواء؛ قاله مجاهد. وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة. وقال مالك: كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام. وفي التفاسير انخرق بعرش بلقيس مكانه الذي هو فيه ثم نبع بين يدي سليمان؛ قال عبد الله بن شداد: وظهر العرش من نفق تحت الأرض؛ فالله أعلم أي ذلك كان.

قوله تعالى: ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾ أي ثابتاً عنده. ﴿قال هذا من فضل ربي﴾ أي هذا النصر والتمكين من فضل ربي. ﴿ليبلوني﴾ قال الأخفش: المعنى لينظر ﴿أأشكر أم أكفر﴾ وقال غيره: معنى "ليبلوني" ليتعبدني؛ وهو مجاز. والأصل في الابتلاء الاختبار أي ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه، حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها. والشكر قيد النعمة الموجودة، وبه تنال النعمة المفقودة. ﴿ومن كفر﴾ أي عن الشكر ﴿فإن ربي غني كريم﴾ في التفضل.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قال نكروا لها عرشها ﴾ أي غيِّروه. قيل: جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه. وقيل: غيّر بزيادة أو نقصان. قال الفراء وغيره: إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً فأراد أن يمتحنها. وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار؛ فقال: "نكروا لها عرشها" لنعرف عقلها. وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال كيف لي أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها؟ فقال: أنا أجعل في هذا القصر ماء، وأجعل فوق الماء زجاجا، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها؛ فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه.

قوله تعالى: ﴿ فلما جاءت ﴾ يريد بلقيس، ﴿قيل﴾ لها ﴿أهكذا عرشك قالت كأنه هو﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق، فلم تقر بذلك ولم تنكر، فعلم سليمان كمال عقلها. قال عكرمة: كانت حكيمة فقالت: "كأنه هو". وقال مقاتل: عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها؛ ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت نعم هو؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضاً. وقيل: أراد سليمان أن يظهر لها أن الجن مسخرون له، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوة وتؤمن به. وقد قيل هذا في مقابلة

تعميتها الأمر في باب الغلمان والجواري. ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ قيل: هو من قول بلقيس؛ أي أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ﴿وكنا مسلمين﴾ منقادين لأمره. وقيل: هو من قول سليمان أي أوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة. وقيل: "وأوتينا العلم" بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها. وقيل: هو من كلام قوم سليمان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ﴾ الوقف على "من دون الله" حسن؛ والمعنى: منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر فـ "ما" في موضع رفع. النحاس: المعنى؛ أي صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه عن أن تسلم. ويجوز أن يكون "ما" في موضع نصب، ويكون التقدير: وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله؛ أي حال بينها وبينه. ويجوز أن يكون المعنى: وصدها الله؛ أي منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت "عن" وتعدى الفعل. نظيره: ﴿ واختار موسى قومه ﴾ (الأعراف: ١٥٥) أي من قومه. وأنشد سيبويه:

ونبئت عبد الله بالجو أصبحت كراماً مواليها لئيماً صميمها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله. ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ قرأ سعيد بن جبير: "أنها" بفتح الهمزة، وهي في موضع نصب بمعنى، لأنها. ويجوز أن يكون بدلاً من "ما" فيكون في موضع رفع إن كانت "ما" فاعلة الصد. والكسر على الاستئناف.

قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ التقدير عند سيبويه: ادخلي إلى الصرح فحذف إلى وعدَّى الفعل. وأبو العباس يغلطه في هذا؛ قال: لأن دخل يدل على مدخول. وكان الصرح صحناً من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان، عمله ليريها ملكاً أعظم من ملكها؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: كان من قوارير خلفه ماء ﴿حسبته لجة﴾ أي ماء. وقيل: الصرح القصر؛ عن أبي عبيدة. كما قال:

تحسب أعلامهن الصروحا

وقيل: الصرح الصحن؛ كما يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها بمعنًى. وحكى أبو عبيدة في الغريب المصنف أن الصرح كل بناء عال مرتفع من الأرض، وأن الممرد الطويل. النحاس: أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملاً واحداً صرح؛ من قولهم: لبن صريح إذا لم يَشُبْه ماء؛ ومن قولهم: صرَّح بالأمر، ومنه: عربي صريح. وقيل: عمله ليختبر قول الجن فيها: إن أمها من الجن، ورجلها رجل حمار؛ قاله وهب بن منبه. فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق: وتعجبَت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن لها بد من امتثال الأمر. ﴿وكشفت عن ساقيها﴾ فإذا هي أحسن الناس ساقاً؛ سليمة مما قالت الجن، غير أنها كانت كثيرة الشعر، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها: ﴿إنه صرح ممرد من قوارير﴾ والممرد المحكوك المملس، ومنه الأمرد. وتمرد الرجل إذ أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه؛ قاله الفراء. ومنه الشجرة المرداء التي لا

ورق عليها. ورملة مرداء إذا كانت لا تنبت. والممرد أيضاً المطول، ومنه قيل للحصن مارد. أبو صالح: طويل على هيئة النخلة. ابن شجرة: واسع في طوله وعرضه. قال:

غدوت صباحا باكراً فوجدتهم قبيل الضحا في السابري الممرد

أي الدروع الواسعة. وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم؛ على ما يأتي. ولما رأى سليمان عليه السلام قدميها قال لناصحه من الشياطين: كيف لي أن أقلع هذا الشعر من غير مضرة بالجسد؟ فدله على عمل النورة، فكانت النورة والحمامات من يومئذ[1]. فيروى أن سليمان تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام؛ قاله الضحاك. وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقاش: تزوجها وردها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة؛ فولدت له غلاماً سماه داود مات في زمانه. وفي بعض الأخبار أن النبي ﷺ قال: (كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة) فقالت عائشة: هي أحسن ساقين مني؟ فقال ﷺ: "أنت أحسن ساقين منها في الجنة"[2] ذكره القشيري. وذكر الثعلبي عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: (أول من اتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار فمسه حرها قال أوّاه من عذاب الله)[3]. ثم أحبها حباً شديداً وأقرها على ملكها باليمن، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً: سلحون وبينون وعمدان، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة، ويقيم عندها ثلاثة أيام. وحكى الشعبي أن ناساً من حمير حفروا مقبرة الملوك، فوجدوا فيها قبراً معقوداً فيه امرأة عليها حلل منسوجة بالذهب، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب:

يا أيها الأقوام عوجوا معا وأربعوا في مقبري العيسا
لتعلموا أني تلك التي قد كنت أدعى الدهر بلقيسا
شيدت قصر الملك في حمير قَوْمي وقدْماً كان مأنوسا
وكنت في ملكي وتدبيره أرغم في الله المعاطيسا
بعلي سليمان النبي الذي قد كان للتوراة درِّيسا
وسخر الريح له مركبا تهب أحيانا رواميَا
مع ابن داود النبي الذي قدسه الرحمن تقديسا

وقال محمد بن إسحاق ووهب بن منبه: لم يتزوجها سليمان، وإنما قال لها: اختاري زوجاً؛ فقالت: مثلي لا ينكح وقد كان لي من الملك ما كان. فقال: لا بد في الإسلام من ذلك. فاختارت ذا تبع ملك همدان، فزوجه إياها وردها إلى اليمن، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزل أميراً حتى مات سليمان. وقال قوم: لم يرد فيه خبر صحيح لا في أنه تزوجها ولا في أنه زوجها.

---

(١) ذكر هذا الخبر ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦٥، ٣٦٦) وقال: "منكر غريب جداً ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب، سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح، وأبلغ ولله الحمد والمنة".

(٢) موضوع.

(٣) ضعيف.

وهي بلقيس بنت السرح بن الـهداهد بن شراحيل بن أدد بن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وكان جدها الـهداهد ملكاً عظيم الشأن قد ولد لـه أربعون ولداً كلـهم ملوك، وكان ملك أرض اليمن كلـها، وكان أبوها السرح يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوج منهم، فزوجوه امرأة من الجن يقال لـها ريحانة بنت السكن، فولدت لـه بلقمة وهي بلقيس، ولم يكن لـه ولد غيرها. وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ: (كان أحد أبوي بلقيس جنياً)[١] فمات أبوها، واختلف عليها قومها فرقتين، وملكوا أمرهم رجلاً فساءت سيرته، حتى فجر بنساء رعيته، فأدركت بلقيس الغيرة، فعرضت عليه نفسها فتزوجها، فسقته الخمر حتى حزت رأسه، ونصبته على باب دارها فملكوها. وقال أبو بكرة: ذكرت بلقيس عند النبي ﷺ فقال: (لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)[٢].

ويقال: إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيراً لملك عات يغتصب نساء الرعية، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوج، فصحب مرة في الطريق رجلاً لا يعرفه، فقال هل لك من زوجة؟ فقال: لا أتزوج أبداً، فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن، فقال لئن تزوجت ابنتي لا يغتصبها أبداً. قال: بل يغتصبها. قال: إنا قوم من الجن لا يقدر علينا؛ فتزوج ابنته فولدت لـه بلقيس؛ ثم ماتت الأم وابتنت بلقيس قصراً في الصحراء، فتحدث أبوها بحديثها غلطاً، فنمى للملك خبرها فقال لـه: يا فلان تكون عندك هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها، وأنت تعلم حبي للنساء ثم أمر بحبسه، فأرسلت بلقيس إليه إني بين يديك؛ فتجهز للمسير إلى قصرها، فلما همَّ بالدخول بمن معه أخرجت إليه الجواري من بنات الجن مثل صورة الشمس، وقلن لـه ألا تستحي؟ تقول لك سيدتنا أتدخل بهؤلاء الرجال معك على أهلك! فأذن لـهم بالانصراف ودخل وحده، وأغلقت عليه الباب وقتلته بالنعال، وقطعت رأسه ورمت به إلى عسكره، فأمَّروها عليهم، فلم تزل كذلك إلى أن بلغ الـهدهد خبرها سليمان عليه السلام.

وذلك أن سليمان لما نزل في بعض منازلـه قال الـهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها، فأبصر الدنيا يميناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد، وكان اسم ذلك الـهدهد عفير، فقال عفير اليمن ليعفور سليمان: من أين أقبلت؟ وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود. قال: ومن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكل ما بين السماء والأرض. فمن أين أنت؟ قال: من هذه البلاد؛ مَلَكها امرأة يقال لـها بلقيس، تحت يدها اثنا عشر ألف قَيْل، تحت يد كل قَيْل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذراري؛ فانطلق معه ونظر إلى بلقيس ومُلكها، ورجع إلى سليمان وقت العصر، وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة فلم يجده، وكانوا على غير ماء.

---

(١) موضوع، وقد تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٢٥)، ولم يكن ذكر بلقيس سيئاً، لكن قالـه لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى.

قال ابن عباس في رواية: وقعت عليه نفحة من الشمس. فقال لوزير الطير: هذا موضع من؟ قال: يا نبي الله هذا موضع الـهدهد قال: وأين ذهب؟ قال: لا أدري أصلح الله الملك. فغضب سليمان وقال: ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ﴾ (النمل: ٢١) الآية. ثم دعا بالعقاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأساً فقال: ما تريد يا نبي الله؟ فقال: علي بالـهدهد الساعة. فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى لزق بالـهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم، فإذا هو بالـهدهد مقبلاً من نحو اليمن، فانقض نحوه وأنشب فيه مخلبه. فقال لـه الـهدهد: أسألك بالله الذي أقدرك وقواك علي إلا ما رحمتني. فقال لـه: الويل لك؛ وثكلتك أمك! إن نبي الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك. ثم أتى به فاستقبلته النسور وسائر عساكر الطير. وقالوا الويل لك؛ لقد توعدك نبي الله. فقال: وما قدري وما أنا! أما استثنى؟ قالوا: بلى إنه قال: ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ (النمل: ٢١) ثم دخل على سليمان فرفع رأسه، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعاً لسليمان عليه السلام. فقال لـه سليمان: أين كنت عن خدمتك ومكانك؟ لأعذبنك عذاباً شديداً أو لأذبحنك. فقال لـه الـهدهد: يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله بمنزلة وقوفي بين يديك. فاقشعر جلد سليمان وارتعد وعفا عنه. وقال عكرمة: إنما صرف الله سليمان عن ذبح الـهدهد أنه كان باراً بوالديه؛ ينقل الطعام إليهما فيزقهما. ثم قال لـه سليمان: ما الذي أبطأ بك؟ فقال الـهدهد ما أخبر الله عن بلقيس وعرشها وقومها حسبما تقدم بيانه. قال الماوردي: والقول بأن أم بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين، واختلاف الطبعين، وتفارق الحسّين؛ لأن الآدمي جسماني والجن روحاني، وخلق الله الآدمي من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، ويمنع الامتزاج مع هذا التباين، ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف.

قلت: قد مضى القول في هذا، والعقل لا يحيلـه مع ما جاء من الخبر في ذلك، وإذا نظر في أصل الخلق فأصلـه الماء على ما تقدم بيانه، ولا بعد في ذلك؛ والله أعلم. وفي التنزيل ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ (الإسراء: ٦٤) وقد تقدم. وقال تعالى: ﴿ لم يطمثهن إنس قبلـهم ولا جان ﴾ (الرحمن: ٥٦). على ما يأتي في "الرحمن".

قولـه تعالى: ﴿ قالت رب إني ظلمت نفسي ﴾ أي بالشرك الذي كانت عليه؛ قالـه ابن شجرة. وقال سفيان: أي بالظن الذي توهمته في سليمان؛ لأنها لما أمرت بدخول الصرح حسبته لجة، وأن سليمان يريد تغريقها فيه. فلما بان لـها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن. وكسرت "إن" لأنها مبتدأة بعد القول. ومن العرب من يفتحها فيعمل فيها القول. ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ إذا سكنت "مع" فهي حرف جاء لمعنى بلا اختلاف بين النحويين. وإذا فتحتها ففيها قولان: أحدهما: أنه بمعنى الظرف اسم. والآخر: أنه حرف خافض مبني على الفتح؛ قاله النحاس.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله ﴾ تقدم معناه. ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ قال مجاهد: أي مؤمن وكافر؛ قال: والخصومة ما قصه الله تعالى في قوله: ﴿ أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ﴾ (الأعراف: ٧٥) إلى قوله: ﴿كافرون﴾ (الأعراف: ٧٦). وقيل: تخاصمهم أن كل فرقة قالت: نحن على الحق دونكم.

قوله تعالى: ﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة؛ المعنى: لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدمون الكفر الذي يوجب العقاب؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ايتنا بالعذاب. وقيل: أي لم تفعلون ما تستحقون به العقاب؛ لا أنهم التمسوا تعجيل العذاب. ﴿لولا تستغفرون الله﴾ أي هلا تتوبون إلى الله من الشرك. ﴿لعلكم ترحمون﴾ لكي ترحموا؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ أي تشاءمنا. والشؤم النحس. ولا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطِّيرة. ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء، أو يدفع مقدوراً فقد جهل. وقال الشاعر:

طـيرة الدهـر لا تـرد قضـاء ... فـاعذر الدهـر لا تشبه بلوم
أي يـوم يخصـه بسـعود ... والمـنايا يـنزلن في كـل يـوم
ليـس يـوم إلا وفيـه سـعود ... ونحـوس تجري لقوم فقوم

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة، وكانت إذا أرادت سفراً نفرت طائراً، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت، وإن طار شمالاً رجعت وتشاءمت، فنهى النبي ﷺ عن ذلك وقال: "أقروا الطير على وكناتها"[1] على ما تقدم بيانه في "المائدة". ﴿قال طائركم عند الله﴾ أي مصائبكم. ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ أي تمتحنون. وقيل: تعذبون بذنوبكم.

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

---

(١) "صحيح" أخرجه أبو داود والحاكم عن أم كرز، كما في صحيح الجامع (١١٧٧)، وراجع الإرواء (١١٦٦).

قولـه تعالى: ﴿ وكان في المدينة ﴾ أي في مدينة صالح وهي الحجر ﴿تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي تسعة رجال من أبناء أشرافهم. قال الضحاك. كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد، فجلسوا عند صخرة عظيمة فقلبها الله عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: بلغني أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم، وذلك من الفساد في الأرض؛ وقاله سعيد بن المسيب. وقيل: فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم. وقيل: غير هذا. واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه القوم وأقناهم وأغناهم، وكانوا أهل كفر ومعاص جمة؛ وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون. والرهط اسم للجماعة؛ فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط. والجمع أرهط وأراهط. قال:

يا بـؤس للحـــرب التي وضعت أراهط فاستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدَار عاقر الناقة؛ ذكره ابن عطية.

قلت: واختلف في أسمائهم؛ فقال الغزنوي: وأسماؤهم قدار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما وذهيم وذعما وذعيم وقتال وصداق. ابن إسحاق: رأسهم قدار بن سالف ومصدع بن مهرع، فاتبعهم سبعة؛ هم بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسماؤهم. وذكر الزمخشري أسماءهم عن وهب بن منبه: الـهذيل بن عبد رب، غنم بن غنم، رياب بن مهرج، مصدع ابن مهرج، عمير بن كردبة، عاصم بن مخرمة، سبيط بن صدقة، سمعان بن صفي، قدار بن سالف؛ وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا عتاة قوم صالح، وكانوا من أبناء أشرافهم. السهيلي: ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسماهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية؛ غير أني أذكره على وجه الاجتهاد والتخمين، ولكن نذكره على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب، وهم: مصدع بن دهر. ويقال دهم، وقدار بن سالف، وهريم وصواب ورياب وداب ودعما وهرما ودعين بن عمير.

قلت: وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن ابن عباس فقال: هم دعما ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطح وقدار، وكانوا بأرض الحجر وهي أرض الشام.

قولـه تعالى: ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهلـه ﴾ يجوز أن يكون "تقاسموا" فعلاً مستقبلاً وهو أمر؛ أي قال بعضهم لبعض احلفوا. ويجوز أن يكون ماضياً في معنى الحال كأنه قال: قالوا متقاسمين بالله؛ ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله: "يفسدون في الأرض ولا يصلحون. تقاسموا بالله" وليس فيها "قالوا". ﴿لنبيتنه وأهلـه ثم لنقولن لوليه﴾ قراءة العامة بالنون فيهما واختاره أبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي: بالتاء فيهما، وضم التاء واللام على الخطاب أي أنهم تخاطبوا بذلك؛ واختاره أبوعبيد. وقرأ مجاهد وحميد بالياء فيهما، وضم الياء واللام على الخبر. والبيات مباغتة العدو ليلاً. ومعنى "لوليه" أي لرهط صالح الذي له ولاية الدم. ﴿ما شهدنا مهلك أهله﴾ أي ما حضرنا، ولا ندري من قتله وقتل أهله. ﴿وإنَّا لصادقون﴾ في إنكاره لقتله. والمهلَك بمعنى الإهلاك؛ ويجوز أن يكون الموضع. وقرأ عاصم والسلمي: (بفتح الميم واللام) أي الهلاك؛ يقال: ضرب يضرب مضرباً

أي ضرباً. وقرأ المفضل وأبو بكر: (بفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع الجلوس؛ ويجوز أن يكون مصدراً؛ كقولـه تعالى: ﴿ إليه مرجعكم ﴾ (يونس: ٤) أي رجوعكم.

قولـه تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ مكرهم ما روي أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب، اتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً ويقتلوه وأهلـه المختصين به؛ قالوا: فإذا كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا عجلناه قبلنا، وشفينا نفوسنا؛ قال مجاهد وغيره. قال ابن عباس: أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة، فامتلأت بهم دار صالح، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم، فقتلـهم الملائكة رضخاً بالحجارة فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها. وقال قتادة: خرجوا مسرعين إلى صالح، فسلط عليهم ملك بيده صخرة فقتلـهم. وقال السدي: نزلوا على جرف من الأرض، فانهار بهم فأهلكهم الله تحته. وقيل: اختفوا في غار قريب من دار صالح، فانحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعاً، فهذا ما كان من مكرهم. ومكر الله مجازاتهم على ذلك. ﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ أي بالصيحة التي أهلكتهم. وقد قيل: إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل. والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد؛ ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة. وكان الأعمش والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم وحمزة والكسائي يقرأون: "أَنَّا" بالفتح؛ وقال ابن الأنباري: فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على "عاقبة مكرهم" لأن "أنا دمرناهم" خبر كان. ويجوز أن تجعلـها في موضع رفع على الإتباع للعاقبة. ويجوز أن تجعلـها في موضع نصب من قول الفراء، وخفض من قول الكسائي على معنى: بأنا دمرناهم ولأنا دمرناهم. ويجوز أن تجعلـها في موضع نصب على الإتباع لموضع "كيف" فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على "مكرهم". وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: "إنا دمرناهم" بكسر الألف على الاستئناف؛ فعلى هذا المذهب يحسن الوقف على "مكرهم". قال النحاس: ويجوز أن تنصب "عاقبة" على خبر "كان" ويكون "إنا" في موضع رفع على أنها اسم "كان". ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ تبييناً للعاقبة؛ والتقدير: هي إنا دمرناهم؛ قال أبو حاتم: وفي حرف أُبَي "أن دمرناهم" تصديقاً لفتحها.

قولـه تعالى: ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ قراءة العامة بالنصب على الحال عند الفراء والنحاس؛ أي خالية عن أهلـها خراباً ليس بها ساكن. وقال الكسائي وأبو عبيدة: "خاوية" نصب على القطع؛ مجازه: فتلك بيوتهم الخاوية، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال؛ كقولـه: ﴿ ولـه

الدين واصباً ﴾ (النحل: ٥٢). وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجحدري: بالرفع على أنها خبر عن "تلك" و"بيوتهم" بدل من "تلك". ويجوز أن تكون "بيوتهم" عطف بيان و"خاوية" خبر عن "تلك". ويجوز أن يكون رفع "خاوية" على أنها خبر ابتداء محذوف؛ أي هي خاوية، أو بدل من "بيوتهم" لأن النكرة تبدل من المعرفة. "إن في ذلك لآية لقوم يعلمون. وأنجينا الذين آمنوا" بصالح "وكانوا يتقون" الله ويخافون عذابه. قيل: آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل. والباقون خرج بأبدانهم - في قول مقاتل وغيره - خراج مثل الحمص؛ وكان في اليوم الأول أحمر، ثم صار من الغد أصفر، ثم صار في الثالث أسود. وكان عقر الناقة يوم الأربعاء، وهلاكهم يوم الأحد. قال مقاتل: فقعت تلك الخراجات، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فخمدوا، وكان ذلك ضحوة. وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت؛ فلما دخلها مات صالح؛ فسميت حضرموت. قال الضحاك: ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضورا؛ على ما تقدم بيانه في قصة أصحاب الرس.

قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولوطا ﴾ أي وأرسلنا لوطاً، أو اذكر لوطاً ﴿إذ قال لقومه﴾ وهم أهل سدوم. وقال لقومه: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة. ﴿وأنتم تبصرون﴾ أنها فاحشة، وذلك أعظم لذنوبكم. وقيل: يأتي بعضكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه. وكانوا لا يستترون عتواً منهم وتمرداً. ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها. ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة. واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من "أئنكم" فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ أي عن أدبار الرجال. يقولون ذلك استهزاء منهم؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء. ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ وقرأ عاصم: "قدرنا" مخففاً والمعنى واحد. يقال قد قدرت الشيء قَدْراً وقَدَراً وقدَّرته. ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ أي من أُنذر فلم يقبل الإنذار. وقد مضى بيانه.

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ قال الفراء: قال أهل المعاني: قيل للوط "قل الحمد لله" على هلاكهم. وخالف جماعة من العلماء الفراء في هذا وقالوا: هو مخاطبة لنبينا محمد ﷺ؛ أي قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية. قال النحاس: وهذا أولى، لأن القرآن منزل على النبي ﷺ، وكل ما فيه فهو مخاطب به ﷺ إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره. وقيل: المعنى؛ أي "قل" يا محمد "الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى" يعني أمته ﷺ. قال الكلبي: اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحاب محمد ﷺ. وقيل: أمر رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين، وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وفي مفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن.

قوله تعالى: ﴿ الذين اصطفى ﴾ اختار؛ أي لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام؛ دليله قوله تعالى: ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ (الصافات: ١٨١). ﴿ ءالله خير أما يشركون ﴾ وأجاز أبو حاتم "أألله خير" بهمزتين. النحاس: ولا نعلم أحدا تابعه على ذلك؛ لأن هذه المدة إنما جيء بها فرقاً بين الاستفهام والخبر، وهذه ألف التوقيف، و"خير" ههنا ليس بمعنى أفضل منك، وإنما هو مثل قول الشاعر:

أتهجوه ولست له بكفء فَشَرُّكُمَا لخيركُمَا الفداء

فالمعنى فالذي فيه الشر منكما للذي فيه الخير الفداء. ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت: فلان شر من فلان ففي كل واحد منهما شر. وقيل: المعنى؛ الخير في هذا أم في هذا الذي تشركونه في العبادة! وحكى سيبويه: السعادة أحب إليك أم الشقاء؛ وهو يعلم أن السعادة أحب إليه. وقيل: هو على بابه من التفضيل، والمعنى: آلله خير أم ما تشركون؛ أي أثوابه خير أم عقاب ما تشركون. وقيل:

قال لـهم ذلك؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً فخاطبهم الله عز وجل على اعتقادهم. وقيل: اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: "يشركون" بياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ فكان النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية يقول: "بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم".

قولـه تعالى: ﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ قال أبو حاتم: تقديره؛ آلـهتكم خير أم من خلق السماوات والأرض؛ وقد تقدم. ومعناه: قدر على خلقهن. وقيل: المعنى؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السماوات والأرض؟ فهو مردود على ما قبلـه من المعنى؛ وفيه معنى التوبيخ لـهم، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلـهتهم. ﴿فأنبتنا به حدائق ذات بهجة﴾ الحديقة البستان الذي عليه حائط. والبهجة المنظر الحسن. قال الفراء: الحديقة البستان المحظر عليه حائط، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة. وقال قتادة وعكرمة: الحدائق النخل ذات بهجة، والبهجة الزينة والحسن؛ يبهج به من رآه. ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ "ما" للنفي. ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا؛ أي ما كان للبشر، ولا يتهيأ لـهم، ولا يقع تحت قدرتهم، أن ينبتوا شجرها؛ إذ هم عجزة عن مثلـها، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود.

قلت: وقد يستدل من هذا على منع تصوير شيء سواء كان لـه روح أم لم يكن؛ وهو قول مجاهد. ويعضده قولـه ﷺ: "قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة" رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة؛ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله عز وجل" فذكره[1]؛ فعمّ بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاهاه في التشبيه في خلقه فيما انفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح. وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به. وقد قال ابن عباس للذي سأل أن يصنع الصور: إن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس لـه خرَّجه مسلم أيضاً. والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا. وسيأتي لـهذا مزيد بيان في "سبأ" إن شاء الله تعالى. ثم قال على جهة التوبيخ: ﴿أإلـه مع الله﴾ أي هل معبود مع الله يعينه على ذلك. ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ بالله غيره. وقيل: "يعدلون" عن الحق والقصد؛ أي يكفرون. وقيل: "إلـه" مرفوع بـ "مع" تقديره: أمع الله ويلكم إلـه. والوقف على "مع الله" حسن.

قولـه تعالى: ﴿ أمن جعل الأرض قراراً ﴾ أي مستقراً. ﴿وجعل خلالـها أنهاراً﴾ أي وسطها مثل: ﴿ وفجرنا خلالـهما نهرا ﴾ (الكهف: ٣٣). ﴿وجعل لها رواسي﴾ يعني جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة. ﴿وجعل بين البحرين حاجزا﴾ مانعاً من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب. وقال ابن عباس: سلطاناً من قدرته فلا هذا يغيّر ذاك ولا ذاك يغيّر هذا. والحجز المنع. ﴿أإلـه مع الله﴾ أي إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب لـه من الوحدانية.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ قال ابن عباس: هو ذو الضرورة المجهود. وقال السدي: الذي لا حول له ولا قوة. وقال ذو النون: هو الذي قطع العلائق عما دون الله. وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابوري: هو المفلس. وقال سهل بن عبد الله: هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها. وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر؛ قال: إذاً فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه. قال الشاعر:

وإني لأدعو الله والأمر ضيق ... عليّ فما ينفك أن يتفرّجا
ورب أخ سدت عليه وجوهه ... أصاب لها لما دعا الله مخرجا

الثانية: وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: "اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت"[(١)].

الثالثة: ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر؛ كما قال تعالى: ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ (يونس: ٢٢) وقوله: ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ (العنكبوت: ٦٥) فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ (العنكبوت: ٦٥) فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه. وفي الحديث: "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده"[(٢)] ذكره صاحب الشهاب؛ وهو حديث صحيح. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن: "واتق دعوة

---

(١) صحيح، أخرجه أبو داود (٥٠٩٠) وغيره.
(٢) "حسن" ، انظر صحيح الجامع (٣٠٣٣)، وراجع الصحيحة (٥٩٦).

المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب"[١] وفي كتاب الشهاب: "اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين"[٢] وهو صحيح أيضاً. وخرج الآجري من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: (فإني لا أردها ولو كانت من فم كافر) فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافراً، وكذلك إن كان فاجراً في دينه؛ ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته. وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر لـه، أو اقتصاص منه، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل: ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ (الأنعام: ١٢٩) وأكد سرعة إجابتها بقوله: "تحمل على الغمام" ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكل ملائكته بتلقي دعوة المظلوم وبحملـها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلـهم، فيظهر منه معاونة المظلوم، وشفاعة منهم لـه في إجابة دعوته، رحمة لـه. وفي هذا تحذير من الظلم جملة، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره؛ حيث قال على لسان نبيه في صحيح مسلم وغيره: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. . .)[٣] الحديث. فالمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن منفرد عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته. فتصدق ضرورته إلى المولى، فيخلص إليه في اللجاء، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنَّته عليه وشفقته، إلا عند تكامل عجزه عنه، وصدق ضرورته؛ وإياسه عن برِّ ولده، مع وجود أذيته، فيسرع الحق إلى إجابته.

قولـه تعالى: ﴿ ويكشف السوء ﴾ أي الضر. وقال الكلبي: الجور. ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي سكانها يهلك قوماً وينشئ آخرين. وفي كتاب النقاش: أي ويجعل أولادكم خلفاً منكم. وقال الكلبي: خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم. ﴿أإلـه مع الله﴾ على جهة التوبيخ؛ كأنه قال أمع الله ويلكم إلـه؛ فـ "إلـه" مرفوع بـ "مع". ويجوز أن يكون مرفوعاً بإضمار أإلـه مع الله يفعل ذلك فتعبدوه. والوقف على "مع الله" حسن. ﴿قليلا ما تَذَكّرون﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب: "يذَّكَّرون" بالياء على الخبر، كقول: ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (الأنبياء: ٢٤) و﴿تعالى الله عما يشركون﴾ فأخبر فيما قبلـها وبعدها؛ واختاره أبو حاتم. الباقون بالتاء خطاباً لقولـه: ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾.

قولـه تعالى: ﴿ أمن يهديكم ﴾ أي يرشدكم الطريق ﴿في ظلمات البر والبحر﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار. وقيل: وجعل مفاوز البر التي لا أعلام لـها، ولجج البحار

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، وفي مواضع أخر، ومسلم (١٩).
(٢) ضعيف.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

كأنها ظلمات؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به. ﴿ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾ أي قدام المطر باتفاق أهل التأويل. ﴿أإله مع الله﴾ يفعل ذلك ويعينه عليه. ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ من دونه.

قوله تعالى: ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ كانوا يقرون أنه الخالق الرازق فألزمهم الإعادة؛ أي إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه. ﴿أإله مع الله﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم أن لي شريكاً، أوحجتكم في أنه صنع أحد شيئاً من هذه الأشياء غير الله ﴿إن كنتم صادقين﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبه على الخلق، ولم يطلع عليه أحد لئلا يأمن أحد من عبيده مكره. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا النبي ﷺ عن قيام الساعة. و"مَنْ" في موضع رفع؛ والمعنى: قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله؛ فإنه بدل من "مَن" قاله الزجاج. الفراء: وإنما رفع ما بعد "إلا" لأن ما قبلها جحد، كقوله: ما ذهب أحد إلا أبوك؛ والمعنى واحد. قال الزجاج: ومن نصب نصب على الاستثناء؛ يعني في الكلام. قال النحاس: وسمعته يحتج بهذه الآية على من صدق منجماً؛ وقال: أخاف أن يكفر بهذه الآية.

قلت: وقد مضى هذا في "الأنعام" مستوفى. وقالت عائشة: من زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية؛ والله تعالى يقول: ﴿ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ﴾ (النمل: ٦٥) خرَّجه مسلم. وروي أنه دخل على الحجاج منجِّم فاعتقله الحجاج، ثم أخذ حصيات فعدهن، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسب المنجم ثم قال: كذا؛ فأصاب. ثم اعتقله فأخذ حصيات لم يعدهن فقال: كم في يدي؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ؛ ثم قال: أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها؛ قال: لا. قال: فإني لا أصيب. قال: فما الفرق؟ قال: إن ذلك أحصيته فخرج عن حد الغيب، وهذا لم تحصه فهو غيب و﴿لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾ وقد مضى هذا في "آل عمران" والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي. وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد: "بل أدرك" من الإدراك. وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش: "بل ادَّرك" غير مهموز مشدداً. وقرأ ابن محيصن: "بل أَادَّرك" على الاستفهام. وقرأ ابن عباس: "بلى" بإثبات الياء "أدَّارك" بهمزة قطع والدال مشددة وألف بعدها؛ قال النحاس: وإسناده إسناد صحيح، هو من حديث شعبة يرفعه إلى ابن عباس. وزعم هارون القارئ أن قراءة أُبي "بل تدارك علمهم" وحكى الثعلبي أنها في حرف أُبَي أم تدارك. والعرب تضع بل موضع (أم) و(أم) موضع بل إذا كان في أول الكلام استفهام؛ كقول الشاعر:

فوالله لا أدري أسلمى تقولت   أم القـول أم كل إلـي حـبيب

أي بل كل. قال النحاس: القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد، لأن أصل "ادّارك" تدارك؛ أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل؛ وفي معناه قولان: أحدهما أن المعنى: بل تكامل علمهم في الآخرة؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به معاينة فتكامل علمهم به. والقول الآخر أن المعنى: بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون. القراءة الثانية فيها أيضاً قولان: أحدهما أن معناه كمل في الآخرة؛ وهو مثل الأول؛ قال مجاهد: معناه يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين. والقول الآخر أنه على معنى الإنكار؛ وهو مذهب أبي إسحاق؛ واستدل على صحة هذا القول بأن بعده "بل هم منها عمون" أي لم يدرك علمهم علم الآخرة. وقيل: بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لـهم فيها علم. والقراءة الثالثة: "بل ادَّرك" فهي بمعنى "بل ادارك" وقد يجيء افتعل وتفاعل بمعنى؛ ولذلك صحح ازدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا. القراءة الرابعة: ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار؛ كما تقول: أأنا قاتلتك؟! فيكون المعنى لم يدرك؛ وعليه ترجع قراءة ابن عباس؛ قال ابن عباس: "بلى أدارك علمهم في الآخرة" أي لم يدرك. قال الفراء: وهو قول حسن كأنه وجهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث، كقولك لرجل تكذبه: بلى لعمري قد أدركت السلف فأنت تروي ما لا أروي وأنت تكذبه. وقراءة سابعة: "بلَ ادَّرك" بفتح اللام؛ عدل إلى الفتحة لخفتها. وقد حكي نحو ذلك عن قطرب في "قُمَ الليل" فإنه عدل إلى الفتح. وكذلك و"بعَ الثوبَ" ونحوه. وذكر الزمخشري في الكتاب: وقرئ "بل أأدَّرك" بهمزتين "بل آادَّرك" بألف بينهما "بَلَى أأدرك" "أم تدارك" "أم أدرك" فهذه اثنتا عشرة قراءة، ثم أخذ يعلل وجوه القراءات وقال: فإن قلت فما وجه قراءة "بل أأدَّرك" على الاستفهام؟ قلت: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ: أم أدرك" و"أم تدارك" لأنها أم التي بمعنى بل والـهمزة، وأما من قرأ: "بلى أأدرك" على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون، ثم أنكر علمهم بكونها، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لـهم شعور وقت كونها؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن. "في الآخرة" في شأن الآخرة ومعناها. ﴿بل هم في شك منها﴾ أي في الدنيا. ﴿بل هم منها عمون﴾ أي بقلوبهم واحدهم عمو. وقيل: عَمٍ، وأصلـه عميون حذفت الياء لالتقاء الساكنين ولـم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها.

قولـه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعني مشركي مكة. ﴿إذا كنا ترابا وآباؤنا آينا لمخرجون﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة: (العنكبوت). وقرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الـهمزة. وقرأ عاصم وحمزة أيضاً باستفهامين إلا أنهما حققا الـهمزتين، وكل ما ذكرناه في السورتين جميعاً واحد.

وقرأ الكسائي وابن عامر ورويس ويعقوب: "أئذا" بهمزتين "إننا" بنونين على الخبر في هذه السورة؛ وفي سورة: (العنكبوت) باستفهامين؛ قال أبو جعفر النحاس: القراءة "إذا كنا تراباً وآباؤنا آينا لمخرجون" موافقة للخط حسنة، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه: "إذا" ليس باستفهام و"آينّا" استفهام وفيه "إنّ" فكيف يجوز أن يعمل ما في حيز الاستفهام فيما قبلـه؟ ! وكيف يجوز أن يعمل ما بعد "إن" فيما قبلـها؟! وكيف يجوز غداً إن زيداً خارج؟ ! فإذا كان فيه استفهام كان أبعد، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلاً لما ذكره. وقال أبو جعفر: وسمعت محمد بن الوليد يقول: سألنا أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشكلة، وهي قول الله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ (سبأ: ٧) فقال: إن عمل في "إذا" "ينبئكم" كان محالاً؛ لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت، وإن عمل فيه ما بعد "إنّ" كان المعنى صحيحاً وكان خطأً في العربية أن يعمل ما قبل "إنّ" فيما بعدها؛ وهذا سؤال بيّن رأيت أن يذكر في السورة التي هو فيها؛ فأما أبو عبيد فمال إلى قراءة نافع ورد على من جمع بين استفهامين، واستدل بقولـه تعالى: ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ (آل عمران: ١٤٤) وبقولـه تعالى: ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ (الأنبياء: ٣٤) وهذا الرد على أبي عمرو وعاصم وحمزة وطلحة والأعرج لا يلزم منه شيء، ولا يشبه ما جاء به من الآية شيئاً؛ والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد؛ ومعنى: ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ (الأنبياء: ٣٤) أفإن مت خلدوا. ونظير هذا: أزيد منطلق، ولا يقال: أزيد أمنطلق؛ لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية؛ لأن الثاني جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الاستفهام، والأول كلام يصلح فيه الاستفهام؛ فأما من حذف الاستفهام من الثاني وأثبته في الأول فقرأ: "أئذا كنا ترابا وآباؤنا إننا" فحذفه من الثاني؛ لأن في الكلام دليلا عليه بمعنى الإنكار.

﴿لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ تقدم. وكانت الأنبياء يقربون أمر البعث مبالغة في التحذير؛ وكل ما هو آت فقريب.

قولـه تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾ أي "قل" لـهؤلاء الكفار "سيروا" في بلاد الشام والحجاز واليمن. ﴿فانظروا﴾ أي بقلوبكم وبصائركم ﴿كيف كان عاقبة المجرمين﴾ المكذبين لرسلـهم. ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿ولا تكن في ضيق﴾ في حرج، ﴿مما يمكرون﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة وقد تقدم ذكرهم. وقرئ: "في ضيق" بالكسر وقد مضى في آخر "النحل". ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ أي وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿إن كنتم صادقين﴾.

قولـه تعالى: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل عسى أن يكون ردف لكم ﴾ أي اقترب لكم ودنا منكم ﴿بعض الذي تستعجلون﴾ أي من العذاب؛ قال ابن عباس. وهو من ردفه إذا تبعه وجاء في أثره؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى اقترب لكم ودنا لكم. أو تكون متعلقة بالمصدر. وقيل: معناه معكم. وقال ابن شجرة: تبعكم؛ ومنه ردف المرأة؛ لأنه تبع لـها من خلفها؛ ومنه قول أبي ذؤيب:

عـاد السـواد بياضـاً في مفارقه لا مرحبا ببياض الشيب إذ ردفا

قال الجوهري: وأردفه أمر لغة في ردفه، مثل تبعه وأتبعه بمعنى؛ قال خزيمة بن مالك بن نهد:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

يعني فاطمة بنت يذكر بن عنزة أحد القارظين. وقال الفراء: "ردف لكم" دنا لكم ولـهذا قال: "لكم". وقيل: ردفه وردف لـه بمعنى فتزاد اللام للتوكيد؛ عن الفراء أيضاً. كما تقول: نقدته ونقدت لـه، وكلته ووزنته، وكلت لـه ووزنت لـه؛ ونحو ذلك. "بعض الذي تستعجلون" من العذاب فكان ذلك يوم بدر. وقيل: عذاب القبر. ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ في تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ فضلـه ونعمه.

قولـه تعالى: ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم ﴾ أي تخفي صدورهم ﴿وما يعلنون﴾ يظهرون من الأمور. وقرأ ابن محيصن وحميد: "ما تَكُنُّ" من كننت الشيء إذا سترته هنا. وفي "القصص" تقديره: ما تكن صدورهم عليه؛ وكأن الضمير الذي في الصدور كالجسم السائر. ومن قرأ: "تُكِنُّ" فهو المعروف؛ يقال: أكننت الشيء إذا أخفيته في نفسك.

قولـه تعالى: ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ قال الحسن: الغائبة هنا القيامة. وقيل: ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض؛ حكاه النقاش. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم، وهذا عام. وإنما دخلت الـهاء في "غائبة" إشارة إلى الجمع؛ أي. ما من خصلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أثبتها في أم الكتاب عنده، فكيف يخفى عليه ما يسر هؤلاء وما يعلنونه. وقيل: أي كل شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرجه للأجل المؤجل لـه؛ فالذي يستعجلونه من العذاب لـه أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه. والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا

تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضاً فنزلت. والمعنى: إن هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به، وذلك ما حرفوه من التوراة والإنجيل، وما سقط من كتبهم من الأحكام. ﴿وإنه﴾ يعني القرآن ﴿لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ خص المؤمنين لأنهم المنتفعون به. ﴿إن ربك يقضي بينهم بحكمه﴾ أي يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة، فيجازي المحق والمبطل. وقيل: يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرفوه. ﴿وهو العزيز﴾ المنيع الغالب الذي لا يرد أمره ﴿العليم﴾ الذي لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿ فتوكل على الله ﴾ أي فوض إليه أمرك واعتمد عليه؛ فإنه ناصرك. ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي الظاهر. وقيل: المظهر لمن تدبر وجه الصواب. ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ يعني الكفار لتركهم التدبر؛ فهم كالموتى لا حس لهم ولا عقل. وقيل: هذا فيمن علم أنه لا يؤمن. ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾ يعني الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولوا كأنهم لا يسمعون؛ نظيره: ﴿ صم بكم عمي ﴾ (البقرة: ١٨) كما تقدم. وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق وعباس عن أبي عمرو: "ولا يَسْمَعُ" بفتح الياء والميم "الصم" رفعاً على الفاعل. الباقون "تُسْمِعُ" مضارع أسمعت "الصمَّ" نصباً.

مسألة: وقد احتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي ﷺ أسمع موتى بدر بهذه الآية؛ فنظرت في الأمر بقياس عقلي ووقفت مع هذه الآية. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: "ما أنتم بأسمع منهم"[(١)] قال ابن عطية: فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد ﷺ في أن رد الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين.

قلت: روى البخاري ﷺ؛ حدثني عبد الله بن محمد سمع روح بن عبادة قال حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى وتبعه أصحابه، قالوا: ما نُرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفير الركيّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؛ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؛ قال فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجسام لا أرواح لها؛ فقال النبي ﷺ: "والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً[(٢)]. خرّجه مسلم أيضاً. قال البخاري: حدثنا عثمان قال حدثنا عبدة عن هشام عن أبيه عن ابن عمر قال: وقف النبي ﷺ على

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٣٧٠)، وفي غير موضع.
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٣).

قليب بدر فقال: "هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً" ثم قال: "إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لـهم هو الحق" ثم قرأت ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾[1] حتى قرأت الآية. وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور، وبما روي في ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه، إلى غير ذلك؛ فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه. وهذا واضح وقد بيناه في كتاب "التذكرة".

قولـه تعالى: ﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ﴾ أي كفرهم؛ أي ليس في وسعك خلق الإيمان في قلوبهم. وقرأ حمزة: "وما أنت تهدي العمي عن ضلالتهم" كقولـه: "أفأنت تهدي العمي". الباقون: (بهادي العمي)وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم وفي "الروم" مثلـه. وكلـهم وقف على (بهادي) بالياء في هذه السورة وبغير ياء في "الروم" اتباعاً للمصحف، إلا يعقوب فإنه وقف فيهما جميعا بالياء. وأجاز الفراء وأبو حاتم: (وما أنت بهاد العمي) وهي الأصل. وفي حرف عبد الله "وما أن تهدي العمي". ﴿إن تسمع﴾ أي ما تسمع. ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ قال ابن عباس: أي إلا من خلقته للسعادة فهم مخلصون في التوحيد.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لـهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ اختلف في معنى وقع القول وفي الدابة؛ فقيل: معنى "وقع القول عليهم" وجب الغضب عليهم؛ قالـه قتادة. وقال مجاهد: أي حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون. وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدري ﷺ: إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم. وقال عبد الله بن مسعود: وقع القول يكون بموت العلماء، وذهاب العلم، ورفع القرآن. قال عبد الله: أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع، قالوا هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يُسْرى عليه ليلاً فيصبحون منه قفراً، وينسون لا إلـه إلا الله، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم، وذلك حين يقع القول عليهم.

قلت: أسنده أبو بكر البزار قال حدثنا عبدالله بن يوسف الثقفي قال حدثنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبدالله بن مسعود ﷺ عن أبيه أنه قال: أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه؛ وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٨٠، ٣٩٨١).

يرفع؛ قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: فيصبحون فيقولون كنا نتكلم بكلام ونقول قولاً فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية، وذلك حين يقع القـول عليهم. وقيل: القول هو قولـه تعالى: ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم ﴾ (السجدة: ١٣) فوقوع القول وجوب العقاب على هؤلاء، فإذا صاروا إلى حد لا تقبل توبتهم ولا يولد لـهم ولد مؤمن فحينئذ تقوم القيامة؛ ذكره القشيري. وقول سادس: قالت حفصه بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى: ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لـهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ فقال: أوحى الله إلى نوح ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ (هود: ٣٦) وكأنما كان على وجهي غطاء فكشف. قال النحاس: وهذا من حسن الجواب؛ لأن الناس ممتحنون ومؤخرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن ويتوب؛ فلـهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية، فإذا زال هذا وجب القول عليهم، فصاروا كقوم نوح حين قال الله تعالى: ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ (هود: ٣٦).

قلت: وجميع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد. والدليل عليه آخر الآية "إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون" وقرئ: "أن": بفتح الـهمزة وسيأتي. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض"[1] وقد مضى. واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً؛ قد ذكرناه في كتاب (التذكرة) ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى. فأول الأقوال أنه فصيل ناقة صالح وهو أصحها ـ والله أعلم ـ لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال: "لـها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعني مكة ـ ثم تكمن زماناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية" يعني مكة قال رسول الله ﷺ: "ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فأرفضّ الناس منها شتى ومعا وتثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فتقبل عليه فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطلحون في الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر اقض حقي"[2]. وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قولـه: (وهي ترغو) والرغاء إنما هو للإبل؛ وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فانفتح لـه حجر فدخل في جوفه ثم انطبق عليه، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل. وروي

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٨).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٧٥) وقال: "ورواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة بن أسيد موقوفًا، ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعًا، وأن ذلك في زمن عيسى بن مريم وهو يطوف بالبيت"، ولكن إسناده لا يصح.

أنها دابة مزغبة شعراء، ذات قوائم طولـها ستون ذراعاً، ويقال إنها الجساسة؛ وهو قول عبد الله بن عمر وروي عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين؛ وهي في السحاب وقوائمها في الأرض. وروي أنها جمعت من خلق كل حيوان. وذكر الماوردي والثعلبي رأسها رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا ـ الزمخشري: بذراع آدم عليه السلام ـ ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان، فتنكت في وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه، وتنكت في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسود وجهه؛ قالـه ابن الزبير رضي الله عنه. وفي كتاب النقاش عن ابن عباس رضي الله عنه: إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العُقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة. وحكى الماوردي عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن الدابة فقال: أما والله ما لـها ذنب وإن لـها للحية. قال الماوردي: وفي هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به.

قلت: ولـهذا ـ والله أعلم ـ قال بعض المتأخرين من المفسرين: إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنساناً متكلماً يناظر أهل البدع والكفر ويجادلـهم لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة: ويحيا من حي عن بينة. قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتاب المفهم لـه: وإنما كان عند هذا القائل الأقرب لقولـه تعالى: "تكلمهم" وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة، ولا يكون من العشر الآيات المذكورة في الحديث؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير، فلا آية خاصة بها فلا ينبغي أن تذكر مع العشر، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي على أهل الأرض أن يسموه باسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يسمى بدابة؛ وهذا خروج عن عادة الفصحاء، وعن تعظيم العلماء، وليس ذلك دأب العقلاء؛ فالأولى ما قالـه أهل التفسير، والله أعلم بحقائق الأمور.

قلت: قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه، واختلف من أي موضع تخرج، فقال عبد الله بن عمر: تخرج من جبل الصفا بمكة؛ يتصدع فتخرج منه. قال عبد الله ابن عمـرو نـحوه وقال: لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لفعلت. وروي في خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى وإنها تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن هو مؤمن سمة كأنها كوكب دري وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر)[1] وذكر في الخبر أنها ذات وبر وريش؛ ذكره المهدوي. وعن ابن عباس أنها تخرج من شعب فتمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض لم تخرجا، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام. وعن حذيفة: تخرج ثلاث خرجات؛ خرجة في بعض البوادي ثم تكمن، وخرجة في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلـها الزمخشري: تخرج من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد؛ فقوم يهربون، وقوم

---

(١) ضعيف، وقد سبقت الإشارة إليه.

يقفون نظّارة. وروي عن قتادة أنها تخرج في تهامة. وروي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنور نوح عليه السلام. وقيل: من أرض الطائف؛ قال أبو قبيل: ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال: من هنا تخرج الدابة التي تكلم الناس وقيل: من بعض أودية تهامة؛ قاله ابن عباس. وقيل: من صخرة من شعب أجياد؛ قال عبد الله بن عمرو. وقيل: من بحر سدوم؛ قاله وهب بن منبه. ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة الماوردي في كتابه. وذكر البغوي أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا علي بن الجعد عن فضيل بن مرزوق الرقاشي الأغر ـ وسئل عنه يحيى ابن معين فقال ثقة ـ عن عطية العوفي عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع في الكعبة كجري الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها.

قلت: فهذه أقوال الصحابة والتابعي في خروج الدابة وصفتها، وهي ترد قول من قال من المفسرين: إن الدابة إنما هي إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر. وقد روى أبو أمامة أن النبي ﷺ قال: "تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم"[1] ذكره الماوردي. "تكلمهم" بضم التاء وشد اللام المكسورة ـ من الكلام ـ قراءة العامة؛ يدل عليه قراءة أُبيّ "تنبئهم". وقال السدي: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام. وقيل: تكلمهم بما يسوءهم. وقيل: تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه عن قرب وبعد "إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون". وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين. وقرأ أبو زرعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء: "تَكْلِمُهم" بفتح التاء من الكلم وهو الجرح قال عكرمة: أي تسمهم. وقال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس عن هذه الآية "تُكَلِّمُهم" أو "تَكْلِمُهُم"؟ فقال: هي والله تكلِّمهم وتكْلمهم؛ تُكَلِّم المؤمن وتكْلِم الكافر والفاجر أي تجرحه. وقال أبو حاتم: "تكلِّمهم" كما تقول تجرِّحهم؛ يذهب إلى أنه تكثير من "تكلمهم". ﴿أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات. وقرأ الكوفيون وابن أبي إسحاق ويحيي: "أن" بالفتح. وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة: "إنَّ" بكسر الهمزة. قال النحاس: في المفتوحة قولان وكذا المكسورة؛ قال الأخفش: المعنى بأن وكذا قرأ ابن مسعود "بأن" وقال أبوعبيدة: موضعها نصب بوقوع الفعل عليها؛ أي تخبرهم أن الناس. وقرأ الكسائي والفراء: "إن الناس" بالكسر على الاستئناف. وقال الأخفش: هي بمعنى تقول إن الناس؛ يعني الكفار "بآياتنا لا يوقنون" يعني بالقرآن وبمحمد ﷺ، وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيماناً ولم يبق إلا مؤمنون وكافرون في علم الله قبل خروجها؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ أي زمرة وجماعة. ﴿ممن يكذب بآياتنا﴾ يعني بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق. ﴿فهم يوزعون﴾ أي يدفعون ويساقون إلى موضع الحساب. قال الشماخ:

---

[1] "صحيح" انظر صحيح الجامع (٢٩٢٧)، وراجع الصحيحة (٣٢٢).

وكم وزعنا من خميس جحفل   وكم حبونا من رئيس مسحل

وقال قتادة: "يوزعون" أي يرد أولهم على آخرهم. ﴿حتى إذا جاءوا قال﴾ أي قال لهم الله ﴿أكذبتم بآياتي﴾ التي أنزلتها على رسلي، وبالآيات التي أقمتها دلالة على توحيدي. ﴿ولم تحيطوا بها علماً﴾ أي ببطلانها حتى تعرضوا عنها، بل كذبتهم جاهلين غير مستدلين. ﴿أمّاذا كنتم تعملون﴾ تقريع وتوبيخ أي ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا ما فيها. ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾ أي وجب العذاب عليهم بظلمهم أي بشركهم. ﴿فهم لا ينطقون﴾ أي ليس لهم عذر ولا حجة. وقيل: يختم على أفواههم فلا ينطقون؛ قاله أكثر المفسرين.

قوله تعالى: ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ أي يستقرون فينامون. ﴿والنهار مبصراً﴾ أي يبصر فيه لسعي الرزق. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ بالله. ذكر الدلالة على إلهيته وقدرته أي ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ أي واذكر يوم أو ذكّرهم يوم ينفخ في الصور. ومذهب الفراء أن المعنى: وذلكم يوم ينفخ في الصور؛ وأجاز فيه الحذف. والصحيح في الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل. قال مجاهد: كهيئة البوق. وقيل: هو البوق بلغة أهل اليمن. وقد مضى في "الأنعام" بيانه وما للعلماء في ذلك. ﴿ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: (إن الله لما فرغ من خلق السماوات خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة) قلت: يا رسول الله ما الصور؟ قال: (قرن والله عظيم والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين)[1] وذكر الحديث. ذكره علي بن معبد والطبري والثعلبي وغيرهم، وصححه ابن العربي. وقد ذكرته في كتاب (التذكرة) وتكلمنا عليه هنالك، وأن الصحيح في النفخ في الصور أنهما نفختان لا ثلاث، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما؛ أي فزعوا فزعاً ماتوا منه؛ أو إلى نفخة البعث وهو اختيار القشيري وغيره؛ فإنه قال في كلامه على هذه الآية: والمراد النفخة الثانية أي يحيون فزعين يقولون: ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ (يس: ٥٢)؛ ويعاينون من الأمور ما يهولهم ويفزعهم؛ وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء. قاله قتادة. وقال الماوردي:

(١) ضعيف.

"ويوم ينفخ في الصور". هو يوم النشور من القبور، قال وفي هذا الفزع قولان: أحدهما: أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم: فزعت إليك في كذا إذا أسرعت إلى ندائك في معونتك. والقول الثاني: إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا. وهذا أشبه القولين.

قلت: والسُنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عمرو يدل على أنهما نفختان لا ثلاث؛ خرَّجهما مسلم وقد ذكرناهما في كتاب (التذكرة) وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان؛ قال الله تعالى: ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ (الزمر: ٦٨) فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع فدل على أنهما واحدة. وقد روى ابن المبارك عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل حي والأخرى يحيي الله بها كل ميت"[1] فإن قيل: فإن قوله تعالى: ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ (النازعات: ٧) إلى أن قال: ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ (النازعات: ١٣) وهذا يقتضي بظاهره أنها ثلاث. قيل له: ليس كذلك، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانية التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم؛ كذلك قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن زيد وغيرهم. قال مجاهد: هما صيحتان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذن الله. وقال عطاء: "الراجفة" القيامة و"الرادفة" البعث. وقال ابن زيد: "الراجفة" الموت و"الرادفة" الساعة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إلا من شاء الله ﴾ اختلف في هذا المستثنى مَنْ هم. ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش. وقال القشيري: الأنبياء داخلون في جملتهم؛ لأن لهم الشهادة مع النبوة وقيل: الملائكة. قال الحسن: استثني طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين. قال مقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقيل: الحور العين. وقيل: هم المؤمنون، لأن الله تعالى قال عقب هذا: "من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون" وقال بعض علمائنا: والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل.

قلت: خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر العربي فليعول عليه، لأنه نص في التعيين وغيره اجتهاد. والله أعلم. وقيل غير هذا على ما يأتي في "الزمر".

وقوله: ﴿ ففزع من في السماوات ﴾ ماض و"ينفخ" مستقبل فيقال: كيف عطف ماض على مستقبل؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المعنى؛ لأن المعنى: إذا نفخ في الصور ففزع. ﴿إلا من شاء الله﴾ نصب على الاستثناء. ﴿وكل أتوه داخرين﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وابن عامر وابن كثير: "آتُوه" جعلوه فعلاً مستقبلاً. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم: "وكل أتوه" مقصوراً على الفعل الماضي، وكذلك قرأه ابن مسعود وعن قتادة "وكل أتاه داخرين" قال النحاس: وفي كتابي عن أبي إسحاق في القراءات من قرأ: "وكل أَتُوْهُ" وحّده على لفظ "كل" ومن

---

(١) ضعيف.

قرأ: "آتُوهُ" جمع على معناها، وهذا القول غلط قبيح؛ لأنه إذا قال: "وكل أتوه" فلم يوحد وإنما جمع، ولو وحد لقال: "أتاه" ولكن من قال: "أتوه" جمع على المعنى وجاء به ماضيا لأنه رده إلى "ففزع" ومن قرأ "وكل آتوه" حمله على المعنى أيضاً وقال: "آتُوه" لأنها جملة منقطعة من الأول قال ابن نصر: حكي عن أبي إسحاق رحمه الله ما لم يقله، ونص أبي إسحاق: "وكل أتُوْهُ داخرين" ويقرأ: "آتُوه" فمن وحد فللفظ "كل" ومن جمع فلمعناها. يريد ما أتي في القرآن أو غيره من توحيد خبر "كل" فعلى اللفظ أو جمع فعلى المعنى؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى. قال المهدوي: ومن قرأ "وكُلٌّ أتُوْهُ داخرين" فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى "كل" دون لفظها، ومن قرأ "وكل آتُوهُ داخرين" فهو اسم الفاعل من أتى يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرادا ﴾ (مريم: ٩٥) ومن قرأ "وكل أتاه" حمله على لفظ "كل" دون معناها وحمل "داخرين" على المعنى، ومعناه صاغرين، عن ابن عباس وقتادة. وقد مضى في "النحل".

قوله تعالى: ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ قال ابن عباس: أي قائمة وهي تسير سيراً حثيثاً. قال القتبي: وذلك أن الجبال تُجمع وتُسير، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير؛ وكذلك كل شي عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر، لكثرته وبعد ما بين أطرافه، وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير قال النابغة وفي وصف جيش:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

قال القشيري: وهذا يوم القيامة؛ أي هي لكثرتها كأنها جامدة أي واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسها تسير سير السحاب، والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهي تسير أي تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ (النبأ: ٢٠) ويقال: إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلي تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة؛ ثم تصير كالعهن المنفوش؛ وذلك إذا صارت السماء كالمهل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿ يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ﴾ (المعارج: ٩). والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن. والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها. والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة. والحالة السادسة أن تكون سراباً فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً منها كالسراب. قال مقاتل: تقع على الأرض فتسوَّى بها. ثم قيل هذا مثل، قال الماوردي: وفيهما ضرب له ثلاثة أقوال: أحدها أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال، وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب؛ قاله سهل بن عبد الله. الثاني: أنه مَثَلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعمله صاعد إلى السماء. الثالث: أنه مَثَلٌ ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش.

قوله تعالى: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي هذا من فعل الله، وما هو فعل منه فهو متقن. و"ترى" من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين. والأصل ترأى فألقيت حركة الهمزة على الراء فتحركت الراء وحذفت الهمزة، وهذا سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن، إلا أن التخفيف لازم لترى. وأهل الكوفة يقرأون: "تحسَبها" بفتح السين وهو القياس؛ لأنه من حسب يحسب إلا أنه قد روي عن النبي ﷺ خلافها أنه قرأ بالكسر في المستقبل، فتكون على فعل يفعل مثل نَعم ينعم وبئس يبئس وحكى يئس ييْئس من السالم، لا يعرف في كلام العرب غير هذه الأحرف "وَهي تَمر مرَ السحَاب" تقديرهَ مراً مَثل مر السحاب، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه؛ فالجبال تزال من أماكنها من على وجه الأرض وتجمع وتسير كما تسير السحاب، ثم تكسر فتعود إلى الأرض كما قال: ﴿وبست الجبال بسا﴾ (الواقعة: ٥) "صنع الله" عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر؛ لأنه لما قال عز وجل: "وهي تمر مر السحاب" دل على أنه قد صنع ذلك صنعاً. ويجوز النصب على الإغراء؛ أي انظروا صنع الله. فيوقف على هذا على "السَّحَاب" ولا يوقف عليه على التقدير الأول. ويجوز رفعه على تقدير ذلك صنع الله. "الذي أتقن كل شيء" أي أحكمه ومنه قول النبي ﷺ: "رحم الله من عمل عملاً فأتقنه"[(١)]. وقال قتادة: معناه أحسن كل شيء والإتقان الإحكام؛ يقال: رجل تقن أي حاذق بالأشياء. وقال الزهري: أصله من ابن تقن، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم فضرب به المثل؛ يقال: أرمى من ابن تقن ثم يقال لكل حاذق بالأشياء تقن. ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ والباقون تفعلون بالتاء على الخطاب قراءة الجمهور وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء.

قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: الحسنة لا إله إلا الله. وقال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ولا يستثني أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم: غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له فبينما هو في أرض الروم في أرض جلفاء وبردى رفع صوته فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له فخرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له: والذي نفسي بيده إنها الكلمة التي قال الله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ وروى أبو ذر قال: قلت يا رسول الله أوصني، قال: "اتق الله وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها" قال: قلت: يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال: "من أفضل الحسنات" وفي رواية قال: "نعم هي أحسن الحسنات"[(٢)] ذكره البيهقي، وقال قتادة: "من جاء بالحسنة" بالإخلاص والتوحيد. وقيل: أداء الفرائض كلها.

قلت: إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها - على ما تقدم بيانه في سورة "إبراهيم" - فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض.

---

(١) "حسن" بلفظ: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" كما في صحيح الجامع (١٨٨٠).

(٢) "حسن" بلفظ: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن" كما في صحيح الجامع (٩٧).

قولـه تعالى: ﴿ فلـه خير منها ﴾ قال ابن عباس: أي وصل إليه الخير منها؛ وقالـه مجاهد وقيل: فلـه الجزاء الجميل وهو الجنة وليس "خير" للتفضيل قال عكرمة وابن جريج: أما أن يكون لـه خير منها يعني من الإيمان فلا؛ فإنه ليس شيء خيراً ممن قال لا إلـه إلا الله ولكن لـه منها خير. وقيل: "فلـه خير منها" للتفضيل أي ثواب الله خير من عمل العبد وقولـه وذكره، وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد، قالـه ابن عباس وقيل: ويرجع هذا إلى الإضعاف فإن الله تعالى يعطيه بالواحدة عشراً؛ وبالإيمان في مدة يسيرة الثواب الأبدي؛ قالـه محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي "فزع يومئذ" بالإضافة. قال أبو عبيد: وهذا أعجب إلي لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم، وإذا قال: "من فزع يومئذ" صار كأنه فزع دون فزع. قال القشيري: وقرئ: "من فزع" بالتنوين ثم قيل يعني به فزعاً واحداً كما قال: ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ (الأنبياء: ١٠٣) وقيل: عنى الكثرة لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة.

قلت: فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى. قال المهدوي: ومن قرأ: "من فزع يومئذ" بالتنوين انتصب "يومئذ" بالمصدر الذي هو "فزع" ويجوز أن يكون صفة لفزع ويكون متعلقاً بمحذوف؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل الذي هو "آمنون". والإضافة على الإتساع في الظروف، ومن حذف التنوين وفتح الميم بناه لأنه ظرف زمان، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكناً، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بني. وأنشد سيبويه:

على حين ألـهى الناس جل أمورهم فَنَدلاً رزيـق[1] المال ندل الثعالـب

قولـه تعالى: ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ أي بالشرك، قالـه ابن عباس والنخعي وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن، وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنة لا إلـه إلا الله، وأن السيئة الشرك في هذه الآية. ﴿فكبت وجوههم في النار﴾ قال ابن عباس: ألقيت. وقال الضحاك: طرحت، ويقال كببت الإناء أي قلبته على وجهه، واللازم من أكب، وقلما يأتي هذا في كلام العرب ﴿هل تجزون﴾ أي يقال لـهم هل تجزون. ثم يجوز أن يكون من قول الله، ويجوز أن يكون من قول الملائكة ﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ أي إلا جزاء أعمالكم.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

---

(١) في نسخة: زريق.

قولـه تعالى: ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ﴾ يعني مكة التي عظم الله حرمتها؛ أي جعلـها حرماً آمنا؛ لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر؛ على ما تقدم بيانه في غير موضع وقرأ ابن عباس: "التي حرمها" نعتاً للبلدة وقراءة الجماعة "الذي" وهو في موضع نصب نعت لـ"رب" ولو كان بالألف واللام لقلت المحرِّمَها؛ فإن كانت نعتاً للبلدة قلت المحرِّمها هو؛ لا بد من إظهار المضمر مع الألف واللام؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له؛ فإن قلت الذي حرمها لم تحتج أن تقول هو. ﴿ولـه كل شيء﴾ خلقاً وملكاً ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي من المنقادين لأمره، الموحدين لـه.

قولـه تعالى: ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ أي وأمرت أن أتلو القرآن، أي أقرأه ﴿فمن اهتدى﴾ فلـه ثواب هدايته ﴿ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾ فليس عليَّ إلا البلاغ نسختها آية القتال. قال النحاس: "وأن أتلو" نصب بأن قال الفراء: وفي إحدى القراءتين "وأن اتلُ" وزعم أنه في موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو، قال النحاس: ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف.

قولـه تعالى: ﴿ وقل الحمد لله ﴾ أي على نعمه وعلى ما هدانا ﴿سيريكم آياته﴾ أي في أنفسكم وفي غيركم كما قال: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ (فصلت: ٥٣). ﴿فتعرفونها﴾ أي دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السماوات وفي الأرض؛ نظيره قولـه تعالى: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين*وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات: ٢٠-٢١). ﴿وما ربُّك بغافل عمَّا تعملون﴾. قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن عاصم بالتاء على الخطاب؛ لقولـه: ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ فيكون الكلام على نسق واحد. الباقون بالياء على أن يرد إلى ما قبلـه "فمن اهتدى" فأخبر عن تلك الآية.

سورة القصص

مقدمة السورة:

مكية إلا من آية ٥٢ إلى ٥٥ فمدنية وآية ٨٥ فبالجحفة أثناء الهجرة وآياتها ٨٨ نزلت بعد النمل مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة وقال ابن سلام: بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة وهي قوله عز وجل: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ (القصص: ٨٥) وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ (القصص: ٥٢) إلى قوله: ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ (القصص: ٥٥) وهي ثمان وثمانون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿طسم﴾ تقدم الكلام فيه. ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ "تلك" في موضع رفع بمعنى هذه تلك و"آيات" بدل منها. ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ "نتلو" و"آيات" بدل منها أيضاً؛ وتنصبها كما تقول: زيداً ضربت و"المبين" أي المبين بركته وخيره، والمبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وقصص الأنبياء، ونبوة محمد ﷺ؛ يقال: بان الشيء وأبان اتضح. ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون، واحتج على مشركي قريش، وبين أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، وكذلك قرابة قريش لمحمد، وبيّن أن فرعون علا في الأرض وتجبَّر، فكان ذلك من كفره، فليجتنب العلو في الأرض، وكذلك التعزز بكثرة المال، وهما من سيرة فرعون وقارون "نتلو عليك" أي يقرأ عليك جبريل بأمرنا "من نبأ موسى وفرعون" أي من خبرهما و"من" للتبعيض و"من نبأ" مفعول "نتلو" أي نتلو عليك بعض خبرهما؛ كقوله تعالى: ﴿تنبت بالدهن﴾ (المؤمنون: ٢٠) ومعنى: "بالحق" أي بالصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب "لقوم يؤمنون" أي يصدقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق.

قوله تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ أي استكبر وتجبر؛ قاله ابن عباس والسدي وقال قتادة: علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية وقيل: بملكه وسلطانه فصار عالياً على من تحت يده "في الأرض" أي أرض مصر ﴿وجعل أهلها شيعا﴾ أي فرقاً وأصنافاً في الخدمة. قال

الأعشى:

وبلدة يرهب الجواب دجلتها حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

﴿يستضعف طائفة منهم﴾ أي من بني إسرائيل ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ تقدم القول في هذا في "البقرة" عند قوله: ﴿ يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ﴾ (البقرة: ٤٩) الآية؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه، أو قال المنجمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك قال الزجاج: العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل وقيل: جعلهم شيعاً فاستسخر كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد ﴿إنه كان من المفسدين﴾ أي في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبر.

قوله تعالى: ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ أي نتفضل عليهم وننعم وهذه حكاية مضت ﴿ونجعلهم أئمة﴾ قال ابن عباس: قادة في الخير. مجاهد: دعاة إلى الخير. قتادة: ولاة وملوكاً؛ دليله قوله تعالى: ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾ (المائدة: ٢٠).

قلت: وهذا أعم فإن الملك إمام يؤتم به ويُقتَدى به.

﴿ونجعلهم الوارثين" لملك فرعون؛ يرثون ملكه، ويسكنون مساكن القبط وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿ ونمكن لهم في الأرض ﴾ أي نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولى عليها؛ يعني أرض الشام ومصر ﴿ونري فرعون وهامان وجنودهما﴾ أي ونريد أن نري فرعون. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف: "ويَرَى" بالياء على أنه فعل ثلاثي من رأى "فرعونُ وهامانُ وجنودُهما" رفعا لأنه الفاعل. الباقون "نُري" بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعي من أري يُري، وهي علي نسق الكلام؛ لأن قبله "ونريد" وبعده "ونمكن" "فرعونَ وهامانَ وجنودهما" نصبا بوقوع الفعل وأجاز الفراء "ويُريَ فرعونَ" بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء ويرى الله فرعون ﴿منهم ما كانوا يحذرون﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل "منهم" فأراهم الله "ما كانوا يحذرون" قال قتاد: كان حازياً لفرعون ـ والحازي المنجم ـ قال إنه سيولد في هذه السنة مولود يذهب بملكك؛ فأمر فرعون بقتل الولدان في تلك السنة وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ قد تقدم معنى الوحي ومحامله. واختلف في هذا الوحي إلى أم موسى؛ فقالت فرقة: كان قولاً في منامها. وقال قتادة: كان إلـهاماً. وقالت فرقة: كان بمَلَك يمثّل لـها، قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلـهام وأجمع الكل على أنها لـم تكن نبية، وإنما إرسال الملَك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور؛ خرَّجه البخاري ومسلم، وقد ذكرناه في سورة "براءة" وغير ذلك مما روي من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبياً واسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلي. وقال الثعلبي: واسم أم موسى لوحا بنت هاند بن لاوى بن يعقوب "أنْ أرضعيه" وقرأ عمر بن عبد العزير: "أن ارضعيه" بكسر النون وألف وصل؛ حذف همزة أرضع تخفيفاً ثم كسر النون لالتقاء الساكنين. قالَ مجاهد: وكان الوحي بالرضاع قبل الولادة. وقال غيره بعدها. قال السدي: لما ولدت أم موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به بما في الآية؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة. وقال ابن جريج: أمرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان، فإذا خافت أن يصيح ـ لأن لبنها لا يكفيه ـ صنعت به هذا. والأول أظهر إلا أن الآخر يعضده قولـه: ﴿فإذا خفت عليه﴾ و "إذا" لما يستقبل من الزمان؛ فيروى أنها اتخذت لـه تابوتاً من بَرْدى وقيَّرته بالقار من داخلـه، ووضعت فيه موسى وألقته في نيل مصر وقد مضى خبره في "طه" قال ابن عباس: إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي، فسلط الله عليهم القبط، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى. قال وهب: بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد ويقال: تسعون ألفاً ويروى أنها حين اقتربت وضربها الطلق، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بني إسرائيل مصافية لـها، فقالت: لينفعني حبك اليوم، فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالـها نور بين عينيه، وارتعش كل مفصل منها، ودخل حبه قلبها، ثم قالت: ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون، ولكني وجدت لابنك حباً ما وجدت مثلـه قط، فاحفظيه؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور ناراً لم تعلم ما تصنع لما طاش عقلـها، فطلبوا فلم يلفوا شيئاً، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، وقد جعل الله عليه النار برداً وسلاماً.

قولـه تعالى: ﴿ ولا تخافي ﴾ فيه وجهان: أحدهما: لا تخافي عليه الغرق؛ قالـه ابن زيد. الثاني: لا تخافي عليه الضيعة؛ قالـه يحيى بن سلام ﴿ولا تحزني﴾ فيه أيضاً وجهان: أحدهما: لا تحزني لفراقه؛ قالـه ابن زيد. الثاني: لا تحزني أن يقتل؛ قالـه يحيى بن سلام فقيل: إنها جعلته في تابوت طولـه خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته في اليم بعد أن أرضعته أربعة أشهر وقال آخرون: ثلاثة أشهر وقال آخرون: ثمانية أشهر؛ في حكاية الكلبي. وحكي أنه لما فرغ النجار من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره، فبعث معه من يأخذه، فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق، فأيقن أنه المولود الذي يخاف منه فرعون، فآمن من ذلك الوقت؛ وهو مؤمن آل فرعون؛ ذكره الماوردي. وقال ابن عباس: فلما توارى عنها ندمها الشيطان وقالت في نفسها: لو ذبح عندي فكفنته

وواريته لكان أحب إلي من إلقائه في البحر فقال الله تعالى: ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ أي إلى أهل مصر. حكى الأصمعي قال: سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول:

أستغفر الله لذنبي كله قبَّلت إنسانا بغير حلّه
مثل الغزال ناعماً في دلّه فأنتصف الليل ولم أصلّه

فقلت: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أوَ يعدُّ هذا فصاحة مع قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ الآية فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

قوله تعالى: ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدي إلى كونه لهم عدواً وحزناً؛ فاللام في "ليكون" لام العاقبة ولام الصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدواً وحزناً، فذكر الحال بالمآل؛ كما قال الشاعر:

وللمنايا تربِّي كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر:

فللموت تغذو الوالدات سخالها كما لخراب الدهر تُبنى المساكن

أي فعاقبة البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة، والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة: التقطه التقاطاً ولقيت فلاناً التقاطاً قال الراجز:

ومنهل وردته التقاطا

ومن اللقطة. وقد مضى بيان ذلك من الأحكام في سورة "يوسف" بما فيه كفاية. وقرأ الأعمش ويحيى والمفضل وحمزة والكسائي وخلف: "وحزنا" بضم الحاء وسكون الزاي والباقون بفتحهما واختاره أبو عبيد وأبو حاتم قال التفخيم فيه وهما لغتان مثل العَدَم والعُدْم، والسَّقَمْ والسُّقْمْ، والرَّشَدْ والرُّشْدْ ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾ "هامان" كان وزيره من القبط "خاطئين" أي عاصين مشركين آثمين.

قوله تعالى: ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه ﴾ يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر، فأمرت بسوقه إليها وفتحه فرأت فيه صبياً صغيراً فرحمته وأحبته؛ فقالت لفرعون: "قرة عين لي ولك" أي هو قرة عين لي ولك فـ "قرة" خبر ابتداء مضمر؛ قاله الكسائي وقال النحاس: وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحاق؛ قال: يكون رفعاً بالابتداء والخبر "لا تقتلوه" وإنما بَعُد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرة عين. وجوازه أن يكون المعنى: إذا كان قرة عين لي ولك فلا تقتلوه. وقيل: تم الكلام عند قوله: "ولك" النحاس: والدليل على هذا أن في قراءة عبد الله بن مسعود: "وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرة عين لي ولك" ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرة عين لي ولك. وقالت: "لا تقتلوه" ولم تقل لا تقتله فهي تخاطب فرعون كما يخاطب الجبَّارون؛ وكما يخبرون عن أنفسهم وقيل: قالت: "لا تقتلوه" فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بني إسرائيل. ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ "عسى أن ينفعنا" فنصيب منه خيراً "أو نتخذه ولداً" وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته

وعلمائه ـ على ما تقدم ـ قالوا لـه: إن غلاماً من بني إسرائيل يفسد ملكك؛ فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال، فرأى أنه يقطع نسلـهم فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً، فولد هارون في عام الاستحياء، وولد موسى في عام الذبح.

قولـه تعالى: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى؛ أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه وقيل: هو من كلام المرأة؛ أي وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون "قرة عين لي ولك" فقالت فرقة: كان ذلك عند التقاطه التابوت لما أشعرت فرعون به ولما أعلمته سبق إلى فهمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال: عليَّ بالذباحين؛ فقالت امرأته ما ذكر، فقال فرعون: أما لي فلا. قال النبي ﷺ: (لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرة عين لـه)[1] وقال السدي: بل ربته حتى درج فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وأخذه في يده، فمد موسى يده ونتف لحية فرعون فهمَّ حينئذ بذبحه، وحينئذ خاطبته بهذا، وجربته لـه في الياقوتة والجمرة، فاحترق لسانه وعلق العقدة على ما تقدم في "طه" قال الفراء: سمعت محمد بن مروان الذي يقال لـه السدي يذكر عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت "قرة عين لي ولك لا" ثم قالت: "تقتلوه" قال الفراء: وهو لحن؛ قال ابن الأنباري: وإنما حكم عليه باللحن لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم، فالنون فيه علامة الرفع قال الفراء: ويقويك على رده قراءة عبد الله بن مسعود "وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرة عين لي ولك" بتقديم "لا تقتلوه".

قولـه تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران الجوني وأبو عبيدة: "فارغا" أي خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى. وقال الحسن أيضاً وابن إسحاق وابن زيد: "فارغاً" من الوحي إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه في البحر "ولا تخافي ولا تحزني" والعهد الذي عهده إليها أن يرده ويجعلـه من

---

(١) لا يصح.

المرسلين؛ فقال لـها الشيطان: يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغرقتيه أنت! ثم بلغها أن ولدها وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها. وقال أبو عبيدة: "فارغاً" من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق؛ وقاله الأخفش أيضاً وقال العلاء بن زياد: "فارغا" نافراً. الكسائي: ناسياً ذاهلاً وقيل: والـهاً؛ رواه سعيد بن جبير. ابن القاسم عن مالك: هو ذهاب العقل؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلـها من فرط الجزع والدهش، ونحوه قولـه تعالى: ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ (إبراهيم: ٤٣) أي جوف لا عقول لـها كما تقدم في سورة "إبراهيم" وذلك أن القلوب مراكز العقول؛ ألا ترى إلى قولـه تعالى: ﴿ فتكون لـهم قلوب يعقلون بها ﴾ (الحج: ٤٦) ويدل عليه قراءة من قرأ: "فزعاً" النحاس: أصح هذه الأقوال الأول، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل؛ فإذا كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي. وقول أبي عبيدة فارغاً من الغم غلط قبيح؛ لأن بعده ﴿ إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ (القصص: ١٠) وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كادت تقول وا إبناه! وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري ﷺ ومحمد بن السميقع وأبو العالية وابن محيصن: "فزعاً" بالفاء والعين المهملة من الفزع، أي خائفة عليه أن يقتل. ابن عباس: "قَرِعاً" بالقاف والراء والعين المهملتين، وهي راجعة إلى قراءة الجماعة "فارغاً" ولذلك قيل للرأس الذي لا شعر عليه: أقرع؛ لفراغه من الشعر. وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبي ﷺ قرأ: "فرْغاً": بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف، وهو كقولك: هدراً وباطلاً؛ يقال: دماؤهم بينهم فرْغ أي هدر؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لـها من شدة ما ورد عليها وفي قولـه تعالى: "وأصبح" وجهان: أحدهما: أنها ألقته ليلاً فأصبح فؤادها في النهار فارغاً. الثاني: ألقته نهاراً ومعنى: "وأصبح" أي صار؛ كما قال الشاعر:

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد وأصبـــحت المدينة للوليد

قولـه تعالى: ﴿ إن كادت ﴾ أي إنها كادت؛ فلما حذفت الكناية سكنت النون فهي "إن" المخففة ولذلك دخلت اللام في ﴿لتبدي به﴾ أي لتظهر أمره؛ من بدا يبدو إذا ظهر. قال ابن عباس: أي تصيح عند إلقائه: وا إبناه. السدي: كادت تقول لما حملت لإرضاعه وحضانته هو ابني. وقيل: إنه لما شب سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون؛ فشق عليها وضاق صدرها، وكادت تقول هو ابني وقيل: الـهاء في "به" عائدة إلى الوحي تقديره: إن كانت لتبدي بالوحي الذي أوحيناه إليها أن نرده عليها والأول أظهر قال ابن مسعود: كادت تقول أنا أمه. وقال الفراء: إن كادت لتبدي باسمه لضيق صدرها. ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ قال قتادة: بالإيمان. السدي: بالعصمة. وقيل: بالصبر. والربط على القلب: إلـهام الصبر. ﴿لتكون من المؤمنين﴾ أي من المصدقين بوعد الله حين قال لـها: ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ (القصص: ٧). وقال: "لتبدي به" ولم يقل: لتبديه؛ لأن حروف الصفات قد تزاد في الكلام؛ تقول: أخذت الحبل وبالحبل وقيل: أي لتبدي القول به.

قولـه تعالى: ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره. واسمها مريم بنت عمران؛ وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام؛ ذكره السهيلي والثعلبي

وذكر الماوردي عن الضحاك: أن اسمها كلثمة وقال السهيلي: كلثوم؛ جاء ذلك في حديث رواه الزبير ابن بكار أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: "أشعرت أن الله زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون" فقالت: آلله أخبرك بهذا ؟ فقال: "نعم" فقالت: بالرفاء والبنين[1]. ﴿فبصرت به عن جنب﴾ أي بعد؛ قال مجاهد ومنه الأجنبي. قال الشاعر:

فلا تحرمني نائلاً عن جنابة ... فإني امرؤ وسط القباب غريب

وأصله عن مكان جنب. وقال ابن عباس: "عن جنب" أي عن جانب وقرأ النعمان بن سالم: "عن جانب" أي عن ناحية وقيل: عن شوق؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة لجذام؛ يقولون: جنبت إليك أي أشتقت وقيل: "عن جنب" أي عن مجانبة لها منه فلم يعرفوا أنها أمه بسبيل وقال قتادة: جعلت تنظر إليه بناحية كأنها لا تريده، وكان يقرأ: "عن جنب" بفتح الجيم وإسكان النون. ﴿وهم لا يشعرون﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه.

قوله تعالى: ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أي منعناه من الارتضاع من قبل؛ أي من قبل مجيء أمه وأخته و" المراضع" جمع مرضع ومن قال مراضيع فهو جمع مرضاع، ومفعال يكون للتكثير، ولا تدخل الهاء فيه فرقاً بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجار على الفعل، ولكن من قال مرضاعة جاء بالهاء للمبالغة؛ كما يقال مطرابة. قال ابن عباس: لا يؤتَى بمرضع فيقبلها وهذا تحريم منع لا تحريم شرع؛ قال امرؤ القيس:

جالت لتصرعني فقلت لها اقصري ... إني امرؤ صرعي عليك حرام

أي ممتنع. ﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ الآية. فقالوا لها عند قولها: ﴿وهم له ناصحون﴾ وما يدريك ؟ لعلك تعرفين أهله ؟ فقالت: لا، ولكنهم يحرصون على مسرة الملك، ويرغبون في ظئره. وقال السدي وابن جريج: قيل لها لما قالت: "وهم له ناصحون" قد عرفت أهل هذا الصبي فدلينا عليهم، فقالت: أردت وهم للملك ناصحون فدلتهم على أم موسى، فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها، والصبي علي يد فرعون يعلله شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع، فدفعه إليها؛ فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها. وقال ابن زيد: استرابوها حين قالت ذلك فقالت: وهم للملك ناصحون وقيل: إنها لما قالت: "هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم" وكانوا يبالغون في طلب مرضعة يقبل ثديها فقالوا: من هي ؟ فقالت: أمي، فقيل: لها لبن؟ قالت: نعم ! لبن هارون ـ وكان ولد في سنة لا يقتل فيها الصبيان ـ فقالوا صدقت والله. "وهم له ناصحون" أي فيهم شفقة ونصح، فروي أنه قيل لأم موسى حين ارتضع منها: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا ارتضع مني. قال أبو عمران الجوني: وكان فرعون يعطي أم موسي كل يوم ديناراً قال الزمخشري: فإن قلت: كيف حل لها أن تأخذ الأجر علي إرضاع ولدها ؟ قلت: ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع، ولكنه مال حربي تأخذه على وجه الاستباحة.

---

(١) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ فرددناه إلى أمه ﴾ أي رددناه وقد عطف الله قلب العدو عليه، ووفينا لـها بالوعد ﴿كي تقر عينها﴾ أي بولدها ﴿ولا تحزن﴾ أي بفراق ولدها ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ أي لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني أكثر آل فرعون لا يعلمون؛ أي كانوا في غفلة عن التقدير وسر القضاء وقيل: أي أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق.

قولـه تعالى: ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾ قد مضى الكلام في الأشد في "الأنعام" وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه، لقولـه تعالى: ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ (النساء: ٦) فإن ذلك أول الأشد، وأقصاه أربع وثلاثون سنة، وهو قول سفيان الثوري، "واستوى" قال ابن عباس: بلغ أربعين سنة والحكم: الحكمة قبل النبوة وقيل: الفقة في الدين. وقد مضى بيانها في "البقرة" وغيرها. والعلم الفهم في قول السدي، وقيل: النبوة وقال مجاهد: الفقه. محمد بن إسحاق: أي العلم بما في دينه ودين آبائه، وكان لـه تسعة من بني إسرائيل يسمعون منه، ويقتدون به، ويجتمعون إليه، وكان هذا قبل النبوة. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي كما جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدقت بوعد الله، فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهي آمنة، ثم وهبنا لـه العقل والحكمة والنبوة، وكذلك نجزي كل محسن.

قولـه تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلـها ﴾ قيل: لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق في دينه، عاب ما عليه قوم فرعون؛ وفشا ذلك منه، فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً مستخفياً. وقال السدي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يدعى موسى بن فرعون؛ فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لـها منف ـ قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر ـ ثم علم موسى بركوب

فرعون، فركب بعده ولحق بتلك القرية في وقت القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله ابن عباس. وقال أيضاً: هو بين العشاء والعتمة وقال ابن إسحاق: بل المدينة مصر نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلة من أهلـها. قال سعيد بن جبير وقتادة: وقت الظهيرة والناس نيام. وقال ابن زيد: كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة، وغاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبُعْد عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد وقال الضحاك: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلـها، فدخلـها حين علم ذلك منهم، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتلـه، فاستغفر ربه فغفر لـه ويقال في الكلام: دخلت المدينة حين غفل أهلـها، ولا يقال: على حين غفل أهلـها؛ فدخلت "على" في هذه الآية لأن الغفلة هي المقصودة؛ فصار هذا كما تقول: جئت على غفلة، وإن شئت قلت: جئت على حين غفلة، وكذا الآية. ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته﴾ والمعنى: إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته؛ أي من بني إسرائيل. ﴿ وهذا من عدوه﴾ أي من قوم فرعون. ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ أي طلب نصره وغوثه، وكذا قال في الآية بعدها: ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ أي يستغيث به على قبطي آخر، وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلـها على الأمم، وفرض في جميع الشرائع. قال قتادة: أراد القبطي أن يسخِّر الإسرائيلي ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه، فاستغاث بموسى. قال سعيد بن جبير: وكان خبازاً لفرعون. ﴿ فوكزه موسى﴾ قال قتادة: بعصاه وقال مجاهد: بكفه؛ أي دفعه. والوكز واللكز واللهز واللهد بمعنى واحد، وهو الضرب بجمع الكف مجموعاً كعقد ثلاثة وسبعين. وقرأ ابن مسعود: "فلكزه" وقيل: اللكز في اللحى والوكز على القلب وحكى الثعلبي أن في مصحف عبد الله بن مسعود "فنكزه" بالنون والمعنى واحد. وقال الجوهري عن أبي عبيدة: اللكز الضرب بالجُمْع على الصدر، وقال أبو زيد: في جميع الجسد، واللهز: الضرب بجُمْع اليد في الصدر مثل اللكز؛ عن أبي عبيدة أيضاً. وقال أبو زيد: هو بالجُمْع في اللهازم والرقبة؛ والرجل ملْـهَز بكسر الميم. وقال الأصمعي: نكزه؛ أي ضربه ودفعه. الكسائي: نهزه مثل نكزه ووكزه، أيَ ضربه ودفعه ولـهده لـهداً أي دفعه لذلـه فهو ملـهود؛ وكذلك لَـهَّده؛ قال طرفة يذم رجلاً:

بطيء عن الداعي سريع إلى الخنا   ذلـول بإجمـاع الرجـال ملـهَّد

أي مدفَّع وإنما شدد للكثرة وقالت عائشة رضي الله عنها: فلـهدني ـ تعني النبي ﷺ ـ لـهدة أوجعني؛ خرَّجه مسلم[1] ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتلـه، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه، وهو معنى: ﴿ فقضى عليه﴾ وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه فقد قضيت عليه قال:

قد عضَّه فقضى عليه الأشجع

قولـه تعالى: ﴿ قال هذا من عمل الشيطان﴾ أي من إغوائه قال الحسن: لم يكن يحل قتل الكافر يومئذ في تلك الحال؛ لأنها كانت حال كف عن القتال. ﴿ إنه عدو مضل مبين﴾ خبر بعد خبر. ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر لـه﴾ ندم موسى عليه السلام على ذلك الوكز الذي كان فيه ذهاب

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩٧٤).

النفس، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر؛ ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على نفسه، مع علمه بأنه قد غفر له، حتى إنه في القيامة يقول: إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها وإنما عدده على نفسه ذنباً وقال: "ظلمت نفسي فاغفر لي" من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم قال النقاش: لم يقتله عن عمد مريداً للقتل، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه قال وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة وقال كعب: كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة، وكان قتله مع ذلك خطأ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل. وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الفتنة تجيء من ها هنا" ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل: ﴿وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا﴾[1] (طه: ٤٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قال رب بما أنعمت علي﴾ أي من المعرفة والحكم والتوحيد ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ أي عوناً للكافرين. قال القشيري: ولم يقل بما أنعمت علي من المغفرة؛ لأن هذا قبل الوحي، وما كان عالماً بأن الله غفر له ذلك القتل. وقال الماوردي: "بما أنعمت علي" فيه وجهان: أحدهما: من المغفرة؛ وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي. قال المهدوي: "بما أنعمت علي" من المغفرة فلم تعاقبني. الوجه الثاني: من الهداية.

قلت: قوله: ﴿فغفر له﴾ يدل على المغفرة؛ والله أعلم.

قال الزمخشري قوله تعالى: ﴿بما أنعمت علي﴾ يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف تقديره؛ أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأتوبن ﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ وأن يكون استعطافاً كانه قال: رب أعصمني بحق ما أنعمت علي من المُغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون؛ وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له قتله وقيل: أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمناً ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع. وقيل في بعض الروايات: إن ذلك الإسرائيلي كان كافراً وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيلياً ولم يرد الموافقة في الدين، فعلى هذا ندم لأنه أعان كافر على كافر، فقال: لا أكون بعدها ظهيراً للكافرين وقيل: ليس هذا خبراً بل هو دعاء؛ أي فلا أكون بعد هذا ظهيراً أي فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين وقال الفراء: المعنى؛ اللهم فلن أكون بعد ظهيراً للمجرمين، وزعم أن قول هذا هو قول ابن عباس قال النحاس: وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام كما يقال: لا

(١) أخرجه مسلم في "الفتن"، (٢٩٠٥).

أعصيك لأنك أنعمت علي؛ وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء، لأن ابن عباس قال: لم يستثن فابتلي من ثاني يوم؛ والاستثناء لا يكون في الدعاء لا يقال: اللهم اغفر لي إن شئت؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن ابن عباس هذا ثم حكى عنه قولـه.

قلت: قد مضى هذا المعنى ملخصاً مبيناً في سورة "النمل" وأنه خبر لا دعاء وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلي به مرة أخرى؛ يعني لم يقل فلن أكون إن شاء الله وهذا نحو قولـه: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ (هود: ١١٣).

الثانية: قال سلمة بن نبيط: بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال: أعطهم؛ فقال: اعفني؛ فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه فقيل لـه ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئاً ؟ وقال: لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم. وقال عبيد الله بن الوليد الوصَّافي قلت لعطاء بن أبي رباح: إن لي أخاً يأخذ بقلمه، وإنما يحسب ما يدخل ويخرج، ولـه عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وادَّان ؟ فقال: مَن الرأس ؟ قلت: خالد بن عبد الله القسري، قال: أما تقرأ ما قال العبد الصالح: "رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين" قال ابن عباس: فلم يستثن فابتلي به ثانية فأعانه الله، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه. قال عطاء: فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب لـه ولا يصحبه، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين. وفي الحديث: "ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لـهم دواة أو برى لـهم قلماً فيجمّعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم"[1] ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: "من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيام يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام"[2] وفي الحديث: "من مشى مع ظالم فقد أجرم"[3] فالمشي مع الظالم لا يكون جرماً إلا إذا مشى معه ليعينه، ولأنه ارتكب نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ (المائدة: ٢).

قولـه تعالى: ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً ﴾ قد تقدم في "طه" وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون؛ رداً على من قال غير ذلك، وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه فقيل: أصبح خائفاً من قتل النفس أن يؤخذ بها. وقيل: خائفاً من قومه أن يسلموه. وقيل: خائفاً من الله تعالى. ﴿يترقب﴾ قال سعيد بن جبير: يتلفت من الخوف وقيل: ينتظر الطلب، وينتظر ما يتحدث به الناس وقال قتادة: "يترقب" أي يترقب الطلب وقيل: خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطي غير الإسرائيلي. و"أصبح" يحتمل أن يكون بمعنى صار أي لما قتل صار خائفاً ويحتمل أن يكون دخل في الصباح، أي في صباح اليوم الذي يلي يومه "وخائفاً" منصوب على أنه خبر "أصبح"، وإن شئت على الحال، ويكون الظرف في موضع الخبر ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ أي فإذا صاحبه

---

(١) ضعيف.

(٢) ضعيف.

(٣) ضعيف.

الإسرائيلي الذي خلصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر أراد أن يسخره. والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ، وذلك لأن المستغيث يصرخ ويصوت في طلب الغوث قال:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع كان الصراخ لـه قرع الظنابيب

قيل: كان هذا الإسرائيلي المستنصر السامري استسخره طباخ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ؛ ذكره القشيري و"الذي" رفع بالابتداء "ويستصرخه" في موضع الخبر ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال. وأمس لليوم الذي قبل يومك، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين فإذا دخلـه الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام. وحكى سيبويه وغيره أن من العرب من يجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة، وربما اضطر الشاعر ففعل هذا في الخفض والنصب وقال الشاعر:

لقد رأيت عجباً مُذْ أمْسَا

فخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع، فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة الثانية. ﴿قال لـه موسى إنك لغوي مبين﴾ والغوي الخائب، أي لأنك تشاد من لا تطيقه وقيل: مضل بيِّن الضلالة؛ قتلت بسببك أمس رجلاً، وتدعوني اليوم لآخر. والغوي فعيل من أغوى يُغوي، وهو بمعنى مغو؛ وهو كالوجيع والأليم بمعنى الموجع والمؤلم وقيل: الغوي بمعنى الغاوي أي إنك لغوي في قتال من لا تطيق دفع شره عنك، وقال الحسن: إنما قال للقبطي: "إنك لغوي مبين" في استسخار هذا الإسرائيلي وهم أن يبطش به، ويقال: بطش يبطش ويبطش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى. ﴿قال ياموسى أتريد أن تقتلني﴾ قال ابن جبير: أراد موسى أن يبطش بالقبطي فتوهم الإسرائيلي أنه يريده، لأنه أغلظ لـه في القول فقال: "أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس" فسمع القبطي الكلام فأفشاه وقيل: أراد أن يبطش الإسرائيلي بالقبطي فنهاه موسى فخاف منه؛ فقال: "أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس". ﴿إن تريد﴾ أي ما تريد. ﴿إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾ أي قتَّالاً وقال عكرمة والشعبي: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي من الذين يصلحون بين الناس.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وجاء رجل ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون؛ ذكره الثعلبي وقيل: طالوت؛ ذكره السهيلي وقال المهدوي عن قتادة: شمعون مؤمن آل فرعون وقيل: شمعان؛ قال الدارقطني: لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا

مؤمن آل فرعون. وروي أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر؛ فـ ﴿قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك﴾ أي يتشاورون في قتلك بالقبطي الذي قتلته بالأمس وقيل: يأمر بعضهم بعضاً. قال الأزهري: ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً؛ نظيره قوله: ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ (الطلاق: ٦) وقال النمر بن تولب:

أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفي كل حادثة يؤتمر

﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾ أي ينتظر الطلب. ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ قيل: الجبار الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب، ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فاراً بنفسه منفرداً خائفاً، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، للنسب الذي بينه وبينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخلوه من زاد وغيره، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله: "عسى ربي أن يهديني سواء السبيل" وهذه حالة المضطر.

قلت: روي أنه كان يتقوّت ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفّ قدميه. قال أبو مالك: وكان فرعون وجّه في طلبه وقال لهم: اطلبوه في ثنيات الطريق، فإن موسى لا يعرف الطريق فجاءه مَلَك راكباً فرساً ومعه عَنَزة، فقال لموسى: اتبعني فاتبعه فهداه إلى الطريق، فيقال: إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه. ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين. وهو أكثر وأصح. قال مقاتل والسدي: إن الله بعث إليه جبريل؛ فالله أعلم. وبين مدين ومصر ثمانية أيام؛ قاله ابن جبير والناس. وكان مُلْك مدين لغير فرعون.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ

قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أي بلغها ووروده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه. ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه؛ ومنه قول زهير:

فـلما وردن المـاء زرقـاً جمامـه وضعن عصيّ الحاضر المتخيم

وقد تقدمت هذه المعاني في قولـه: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ (مريم: ٧١) ومدين لا تنصرف إذ هي بلدة معروفة. قال الشاعر:

رهـبان مـدين لـو رأوك تنزلـوا والعصم من شعف الجبال الفادر

وقيل: قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم؛ وقد مضى القول فيه في "الأعراف" والأمة: الجمع الكثير و﴿ يسقون﴾ معناه ماشيتهم. و﴿ من دونهم﴾ معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصول إلى الأمة، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان، ومنه قوله ﷺ: "فليذادنَّ رجال عن حوضي" وفي بعض المصاحف: "امرأتين حابستين تذودان" يقال: ذاد يذود إذا حبس وذدت الشيء حبسته؛ قال الشاعر:

أبـيت علـى باب القوافـي كأنما أذود بها سرباً من الوحش نُزَّعا

أي أحبس وأمنع وقيل: "تذودان" تطردان؛ قال:

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تـدري بأي عصا تذود

أي تطرد وتكف وتمنع. ابن سلام: تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس؛ فحذف المفعول: إما إيهاماً على المخاطب، وإما استغناء بعلمه قال ابن عباس: تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء قتادة: تذودان الناس عن غنمهما؛ قال النحاس: والأول أولى؛ لأن بعده ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾ ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما ﴿ قال ما خطبكما ﴾ أي شأنكما؛ قال رؤبة:

يا عجباً ما خطبه وخطبي

ابن عطية: وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر؛ فأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخ كبير؛ فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأن عادتهما التأني حتى يصدر الناس عن الماء ويخلى؛ وحينئذ تردان. وقرأ ابن عامر وأبو عمرو: "يصدر" من صدر، وهو ضد ورد أي يرجع الرِّعاء والباقون "يُصدر" بضم الياء من أصدر؛ أي حتى يصدروا مواشيهم من وردهم والرِّعاء جمع راع؛ مثل تاجر وتجار، وصاحب وصحاب قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زحم الناس يمنعهما، فلما أراد موسى أن يسقي لـهما زحم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغلب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوة وقالت فرقة:

إنهما كانتا تتبعان فضالتهم في الصهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقيه عطشت غنمهما، فرقّ لـهما موسى، فعمد إلى بئر كانت مغطاة والناس يسقون من غيرها، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة، قال ابن زيد. ابن جريج: عشرة. ابن عباس: ثلاثون. الزجاج: أربعون؛ فرفعه وسقى للمرأتين؛ فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة وقيل: إن بئرهم كانت واحدة، وإنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة، إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات. روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال، فجاء موسى فاقتلعها واستقى ذنوباً واحداً لم تحتج إلى غيره فسقى لـهما.

الثانية : إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية ؟ قيل لـه: ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه؛ وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك، والعادة متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة.

الثالثة : قولـه تعالى: ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ تولى إلى ظل سمرة؛ قالـه ابن مسعود وتعرض لسؤال ما يطعمه بقولـه: ﴿إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ وكان لم يذق طعاماً سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكلـه؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: ﴿ إن ترك خيراً ﴾ (البقرة: ١٨٠) وقول: ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ (العاديات: ٨) ويكون بمعنى القوة كما قال: ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ (الدخان: ٣٧) ويكون بمعنى العبادة كقوله: ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ (الأنبياء: ٧٣) قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع، وأخضرّ لونه من أكل البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه وفي هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله وقال أبو بكر بن طاهر في قولـه: "إني لما أنزلت إلي من خير فقير" أي إني لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنيني بك عمن سواك.

قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

الرابعة : قولـه تعالى: ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ في هذا الكلام اختصار يدل عليه هذا الظاهر؛ قدره ابن إسحاق: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لـهما، فأمر الكبرى من بنتيه ـ وقيل الصغرى ـ أن تدعوه لـه، "فجاءت" على ما في هذه الآية قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سلفعاً من النساء، خرّاجة ولاّجة وقيل: جاءته ساترة وجهها بكم درعها؛ قاله عمر بن الخطاب. وروي أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ابنتا يثرون، ويثرون هو شعيب عليه السلام وقيل: ابن أخي شعيب، وأن شعيباً كان قد مات وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام وهو ظاهر القرآن، قال الله تعالي: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ (الأعراف: ٨٥) كذا في سورة "الأعراف" وفي سورة الشعراء: ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لـهم شعيب ﴾ (الشعراء: ١٧٦) قال قتادة: بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة

وأصحاب مدين وقد مضى في "الأعراف" الخلاف في اسم أبيه فروي أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال، فهبت ريح فضمت قميصها فوصفت عجيزتها، فتحرَّج موسى من النظر إليها فقال: ارجعي خلفي وأرشديني إلى الطريق بصوتك وقيل: أن موسى قال ابتداء: كوني ورائي فإني رجل عبرانيّ لا أنظر في أدبار النساء، ودليني على الطريق يميناً أو يساراً؛ فذلك سبب وصفها لـه بالأمانة؛ قاله ابن عباس، فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فآنسه بقوله: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون وقرب إليه طعاماً فقال موسى: لا آكل؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً؛ فقال شعيب: ليس هذا عوض السقي، ولكن عادتي وعادة آبائي قرى الضيف، وإطعام الطعام؛ فحينئذ أكل موسى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس؛ خلاف الأصم حيث كان عن سماعها أصم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ قال إني أريد أن أنكحك ﴾ الآية. فيه عرض الولي ابنته على الرجل؛ وهذه سنة قائمة؛ عرض صالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح قال ابن عمر: لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان: إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر؛ الحديث انفرد بإخراجه البخاري[(١)].

السابعة: وفي هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الولي لا حظ للمرأة فيه، لأن صالح مدين تولاه، وبه قال فقهاء الأمصار وخالف في ذلك أبو حنيفة وقد مضى.

الثامنة: هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار، وبه قال مالك واحتج بهذه الآية، وهو ظاهر قوي في الباب، واحتجاجه بها يدل على أنه كان يعول على الإسرائيليات؛ كما تقدم. وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعي وكثير من العلماء. وقال أبو حنيفة: إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها أحد إلا برضاها؛ لأنها بلغت حد التكليف، فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوجها بغير رضاها لأنه لا إذن لـها ولا رضا، بغير خلاف

التاسعة: استدل أصحاب الشافعي بقوله: ﴿ إني أريد أن أنكحك ﴾ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح، وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على اختلاف عنه. وقال علماؤنا في المشهور: ينعقد النكاح بكل لفظ وقال أبو حنيفة: ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد؛ أما الشافعية فلاحجة لـهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم. وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حي فقالوا: ينعقد النكاح بلفظ الـهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية، قالوا: فكذلك النكاح قالوا: والذي خص به

(١) أخرجه البخاري (٥١٢٢).

النبي ﷺ تعري البُضْع من العوض لا النكاح بلفظ الـهبة، وتابعهم ابن القاسم فقال: إن وهب ابنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئاً، وهو عندي جائز كالبيع قال أبو عمر: الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الـهبة، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شيء من الأموال. وأيضاً فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه، وهو ضد الطلاق فكيف يقاس عليه، وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله: أبحت لك وأحللت لك فكذلك الـهبة. وقال ﷺ: «استحللتم فروجهن بكلمة الله»[١] يعني القرآن، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الـهبة، وإنما فيه التزويج والنكاح، وفي إجازة النكاح بلفظ الـهبة إبطال بعض خصوصية النبي ﷺ.

العاشرة: قولـه تعالى: ﴿إحدى ابنتي هاتين﴾ دل على أنه عرض لا عقد، لأنه لو كان عقداً لعين المعقود عليها لـه؛ لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال: بعتك أحد عبدي هذين بثمن كذا؛ فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح.

الحادية عشرة: قال مكي: في هذه الآية خصائص في النكاح، منها أنه لم يعين الزوجة ولا حد أول الأمد، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم ينقد شيئاً.

قلت: فهذه أربع مسائل تضمنتها هذه المسألة:

الأولى: التعيين، قال علماؤنا: أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المراوضة، وإنما عرض الأمر مجملاً، وعيّن بعد ذلك. وقد قيل: إنه زوجه صفوريا وهي الصغرى، يروى عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾»[٢]. قيل: إن الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها؛ لأنه رأها في رسالته، وماشاها في إقبالـه إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر لـه الاختيار وهو يضمر غيره وقيل غير هذا؛ والله أعلم. وفي بعض الأخبار أنه تزوج بالكبرى؛ حكاه القشيري.

الثانية: وأما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه؛ فإما رسماه، وإلا فهو من أول وقت العقد.

الثالثة: وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرره شرعنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن؛ رواه الأئمة[٣]؛ وفي بعض طرقه: فقال لـه رسول الله ﷺ: «ما تحفظ من القرآن» فقال: سورة البقرة والتي تليها؛ قال: «فعلمها عشرين آية وهي امرأتك»[٤] واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فكرهه مالك، ومنعه ابن القاسم، وأجازه ابن

---

(١) جزء من خطبته ﷺ في حجة الوداع أخرجه مسلم (١٩٨).

(٢) لم أجده بهذا السياق، وأخرجه البخاري بمعناه (٦٦٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٩)، ومسلم (١٤٢٥) وغيرهما.

(٤) ضعيف أخرجه أبوداود (٢١١٢).

حبيب؛ وهو قول الشافعي وأصحابه؛ قالوا: يجوز أن تكون منفعة الحر صداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن وقال أبو حنيفة: لا يصح، وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة، أو يسكنها داره سنة؛ لأن العبد والدار مال، وليس خدمتها بنفسه مالاً. وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز؛ لقولـه تعالى: ﴿ فآتوهن أجورهن ﴾ (النساء: ٢٤) وقال أبو بكر الرازي: لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان. وقال ابن القاسم: ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده. وقال أصبغ: إن نقد معه شيئاً ففيه اختلاف، وإن لم ينقد فهو أشد، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصة شعيب؛ قاله مالك وابن المواز وأشهب. وعول على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة؛ قال ابن خويز منداد: تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح، ويكره أن تجعل الإجارة مهراً، وينبغي أن يكون المهر مالاً كما قال عز وجل: ﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين ﴾ (النساء: ٢٤) هذا قول أصحابنا جميعاً.

الرابعة: وأما قولـه: ودخل ولم ينقد فقد اختلف الناس في هذا؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر، فإن كان حين عقد فماذا نقد ؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار؛ قاله ابن القاسم. فإن دخل قبل أن ينقد مضى، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا: تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع في الخدمة؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الانتظار في النكاح جائز. إن كان مدى العمر بغير شرط. وأما إن كان بشرط فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحاً مثل التأهب للبناء أو انتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة؛ نص عليه علماؤنا.

الثانية عشرة : في هذه الآية اجتماع إجارة ونكاح، وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأول: قال في ثمانية أبي زيد: يكره ابتداء فإن وقع مضى. الثاني: قال مالك وابن القاسم في المشهور: لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة. الثالث: أجازه أشهب وأصبغ. قال ابن العربي: وهذا هو الصحيح وعليه تدل الآية؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شيء بالبيوع، فأي فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح.

فرع: وإن أصدقها تعليم شعر مباح صح؛ قال المزني: وذلك مثل قول الشاعر:

يقـول العَبد فـائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفادا

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها خمراً أو خنزيراً.

الثالثة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ على أن تأجرني ثماني حجج ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقاً وقال مالك: إنه جائز ويحمل على العرف، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة وهو ظاهر قصة موسى، فإنه ذكر إجارة مطلقة. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول، وقد ترجم البخاري: (باب من استأجر أجيراً فبين لـه الأجل ولم يبين لـه العمل) لقولـه تعالى: ﴿ على أن تأجرني ثماني حجج ﴾. قال المهلب: ليس كما ترجم؛ لأن العمل عندهم كان معلوماً من سقي وحرث ورعي وما شاكل أعمال البادية في مهنة أهلـها، فهذا متعارف وإن لم يبين لـه أشخاص الأعمال ولا مقاديرها؛

مثل أن يقول لـه: إنك تحرث كذا من السنة، وترعى كذا من السنة، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدة مجهولة، والعمل مجهول غير معهود لا يجوز حتى يعلم. قال ابن العربي: وقد ذكر أهل التفسير أنه عين لـه رعية الغنم، ولم يرو من طريق صحيحة، ولكن قالوا: إن صالح مدين لم يكن لـه عمل إلا رعية الغنم، فكان ما علم من حالـه قائماً مقام التعيين للخدمة فيه.

الرابعة عشرة: أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة، بأجرة معلومة، لرعاية غنم معدودة؛ فإن كانت معدودة معينة، ففيها تفصيل لعلمائنا؛ قال ابن القاسم: لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت، وهي رواية ضعيفة جداً؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه، وقد رآها ولم يشترط خلفاً؛ وإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت عند علمائنا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تجوز لجهالتها؛ وعول علماؤنا على العرف حسبما ذكرناه آنفاً؛ وأنه يعطى بقدر ما تحتمل قوته. وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوته، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوة موسى برفع الحجر.

الخامسة عشرة: قال مالك: وليس على الراعي ضمان وهو مصدق فيما هلك أو سرق، لأنه أمين كالوكيل. وقد ترجم البخاري: (باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفساد) وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه أنه كانت لـهم غنم ترعى بسلع، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فكسرت حجراً فذبحتها به، فقال لـهم: لا تأكلوا حتى أسأل النبي ـ أو أرسل إلى النبي ﷺ من يسألـه ـ وأنه سأل النبي ﷺ أو أرسل إليه ـ فأمره بأكلـها[1]؛ قال عبد الله: فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت. قال المهلب: فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما اؤتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب؛ وهذا قول مالك وجماعة وقال ابن القاسم: إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة وقال غيره: يضمن حتى يبين ما قال.

السادسة عشرة: واختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت؛ فقال ابن القاسم: لا ضمان عليه؛ لأن الإنزاء من إصلاح المال ونمائه وقال أشهب: عليه الضمان؛ وقول ابن القاسم أشبه بدليل حديث كعب، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه باجتهاده، إن كان من أهل الصلاح، وممن يعلم إشفاقه على المال؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعل؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتاً لما عرف من فسقه.

السابعة عشرة: لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام؛ ولكن روى يحيى بن سلام أن صالح مدين جعل لموسى كل سخلة توضع خلاف لون أمها، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلـهن. وقال غير يحيى: بل جعل لـه كل بلقاء تولد لـه، فولدن لـه كلـهن بُلْقاً وذكر القشيري أن شعيباً لما استأجر موسى قال لـه: أدخل بيت كذا وخذ عصا من العصي التي في البيت، فأخرج موسى عصا، وكان أخرجها آدم من الجنة، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعيب، فأمره

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٤).

شعيب أن يلقيها في البيت ويأخذ عصا أخرى، فدخل وأخرج تلك العصا؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك، فعلم شعيب أن لـه شأناً؛ فلما أصبح قال لـه: سق الأغنام إلى مفرق الطريق، فخذ عن يمينك وليس بها عشب كثير، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشباً كثيراً وتنيناً كبيراً لا يقبل المواشي، فساق المواشي إلى مفرق الطريق، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها، فنام موسى وخرج التنين، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً وحاربت التنين حتى قتلته، وعادت إلى موسى عليه السلام، فلما انتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم، والتنين مقتولاً؛ فعاد إلى شعيب عشاء، وكان شعيب ضريراً فمسّ الأغنام، فإذا أثر الخصب باد عليها، فسأله عن القصة فأخبره بها، ففرح شعيب وقال: كل ما تلد هذه المواشي هذه السنَة قالب لون ـ أي ذات لونين ـ فهو لك؛ فجاءت جميع السخال تلك السنة ذات لونين، فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة. وروى عيينة بن حصن أن رسول الله ﷺ قال: "أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفة فرجه"[1] فقال لـه شعيب لك منها ـ يعني من نتاج غنمه ـ ما جاءت به قالب لون ليس فيها عزوز ولا فشوش ولا كموش ولا ضبوب ولا ثعول. قال الـهروي: العزوز البكيئة؛ مأخوذ من العزاز وهي الأرض الصلبة، وقد تعززت الشاة. والفشوش التي ينفش لبنها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل، ومثله الفتوح والثرور ومن أمثالـهم: (لأفشنّك فَشّ الوطب) أي لأخرجن غضبك وكبرك من رأسك ويقال: فش السقاء إذا أخرج منه الريح. ومنه الحديث: "إن الشيطان يفش بين أليتي أحدكم حتى يخيل إليه أنه أحدث"[2] أي ينفخ نفخاً ضعيفاً والكموش: الصغيرة الضرع، وهي الكميشة أيضاً؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه؛ ومنه يقال: رجل كميش الإزار والكشود مثل الكموش والضبوب الضيقة ثقب الإحليل. والضب الحلب بشدة العصر. والثعول الشاة التي لـها زيادة حلمة وهي الثعل. والثعل زيادة السن، وتلك الزيادة هي الراؤول ورجل أثعل. والثعل ضيق مخرج اللبن. قال الـهروي: وتفسير قالب لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها.

الثامنة عشرة: الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة، وإن من البلاد الخصبة ما يعلم ولاد الغنم فيها قطعاً وعدّتها وسلامة سخالـها كديار مصر وغيرها، بيد أن ذلك لا يجوز في شرعنا؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الغرر، ونهى عن المضامين والملاقيح. والمضامين ما في بطون الإناث، والملاقيح ما في أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر:

ملقوحة في بطن ناب حامل

وقد مضى في سورة "الحجر" بيانه على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع وقال ابن سيرين وعطاء: ينسج الثوب بنصيب منه؛ وبه قال أحمد.

التاسعة عشرة: الكفاءة في النكاح معتبرة؛ واختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب، أو في بعض ذلك. والصحيح جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات؛ لقولـه تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله

---

(١) صحيح.
(٢) ضعيف، بمعناه في ضعيف الجامع (١٤٧٩).

أتقاكم ﴾ (الحجرات: ١٣) وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عرياناً فأنكحه ابنته لما تحقق من دينه ورأى من حالـه، وأعرض عما سوى ذلك. وقد تقدمت هذه المسألة مستوعبة والحمد لله.

الموفية عشرين: قال بعضهم: هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذكراً لصداق المرأة، وأنما كان اشتراطاً لنفسه على ما يفعلـه الأعراب؛ فإنها تشترط صداق بناتها، وتقول: لي كذا في خاصة نفسي، وترك المهر مفوضاً؛ ونكاح التفويض جائز. قال ابن العربي: هذا الذي تفعلـه الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر، وهو حرام لا يليق بالأنبياء؛ فأما إذا اشترط الولي شيئاً لنفسه، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما: أنه جائز. والآخر: لا يجوز والذي يصح عندي التقسيم؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكراً أو ثيباً؛ فإن كانت ثيباً جاز؛ لأن نكاحها بيدها، وإنما يكون للولي مباشرة العقد، ولا يمتنع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع، وإن كانت بكراً كان العقد بيده، وكأنه عوض في النكاح لغير الزوج وذلك باطل؛ فإن وقع فُسِخ قبل البناء، وثبت بعده على مشهور الرواية والحمد لله.

الحادية والعشرون: لما ذكر الشرط وأعقبه بالطوع في العشر خرج كل واحد منهما على حكمه، ولم يلحق الآخر بالأول، ولا اشترك الفرض والطوع؛ ولذلك يكتب في العقود الشروط المتفق عليها، ثم يقال وتطوع بكذا، فيجري الشرط على سبيلـه، والطوع على حكمه، وانفصل الواجب من التطوع وقيل: ومن لفظ شعيب حسن في لفظ العقود في النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتي بيانه في "الأحزاب" وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطاً، ووكل العاشرة إلى المروءة.

الثانية والعشرون: قولـه تعالى: ﴿ قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ﴾ لما فرغ كلام شعيب قرره موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج و"أيما" استفهام منصوب بـ"قضيت و"الأجلين" مخفوض بإضافة "أي" إليهما و"ما" صلة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه "فلا عدوان" وأن "عدوان" منصوب بـ "لا" وقال ابن كيسان: "ما" في موضع خفض بإضافة "أي" إليها وهي نكرة و"الأجلين" بدل منها وكذلك في قولـه: ﴿ فبما رحمة من الله ﴾ (آل عمران: ١٥٩) أي رحمة بدل من ما؛ قال مكي: وكان يتلطف في ألا يجعل شيئاً زائداً في القرآن ويخرج لـه وجهاً يخرجه من الزيادة وقرأ الحسن: "أيما" بسكون الياء وقرأ ابن مسعود: "أي الأجلين ما قضيت" وقرأ الجمهور: "عدوان" بضم العين وأبو حيوة بكسرها؛ والمعنى: لا تبعة علي ولا طلب في الزيادة عليه والعدوان التجاوز في غير الواجب، والحجج: السنون قال الشاعر:

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر

الواحدة حجة بكسر الحاء ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ قيل: هو من قول موسى وقيل: هو من قول والد المرأة فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحداً من الخلق.

الثالثة والعشرون: وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح؛ على قولين: أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقال مالك: إنه ينعقد دون شهود؛ لأنه عقد

معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُفُّ. وقد مضت هذه المسألة في "البقرة" مستوفاة. وفي البخاري عن أبي هريرة: أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال إيتني بالشهداء أشهدهم، فقال كفى بالله شهيداً؛ فقال إيتني بكفيل؛ فقال كفى بالله كفيلاً قال صدقت فدفعها إليه[1]؛ وذكر الحديث.

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ قال سعيد بن جبير: سألني رجل من النصارى أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حَبْر العرب فأسأله ـ يعني ابن عباس ـ فقدمت عليه فسألته؛ فقال: قضى أكملهما وأوفاهما. فأعلمت النصراني فقال: صدق والله هذا العالم. وروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين. وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشراً وعشراً بعدها؛ رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس. قال ابن عطية: وهذا ضعيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وسار بأهله﴾ قيل: فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، لما له عليها من فضل القوامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمراً فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿آنس من جانب الطور ناراً﴾ الآية. تقدمت. والجذوة بكسر الجيم قراءة العامة، وضمها حمزة ويحيى، وفتحها عاصم والسلمي وزرّ بن حبيش قال الجوهري: الجذوة والجذوة والجذوة الجمرة الملتهبة والجمع جذاً وجُذاً وجَذاً قال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿أو جذوة من النار﴾ أي قطعة من الجمر؛ قال: وهي بلغَة جميع العرب. وقال أبو عبيدة: والجذوة مثل الجذمة وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نار أو لم يكن. قال ابن مقبل:

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذا غير خوار ولا دعر

وقال:

وألقى على قيس من النار جذوة شديداً عليها حميها ولهيبها

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩١).

قولـه تعالى: ﴿ فلما أتاها ﴾ يعني الشجرة قدم ضميرها عليها ﴿نودي من شاطئ الواد﴾ "من" الأولى والثانية لابتداء الغاية، أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة و"من الشجرة" بدل من قولـه: "من شاطئ الواد" بدل الاشتمال، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ، وشاطئ الوادي وشطه جانبه، والجمع شُطّان وشواطئ، ذكره القشيري، وقال الجوهري: ويقال شاطئ الأودية ولا يجمع. وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطئ ومشى هو على شاطئ آخر ﴿ لأيمن﴾ أي عن يمين موسى وقيل: عن يمين الجبل ﴿في البقعة المباركة من الشجرة﴾ وقرأ الأشهب العقيلي: "في البقعة" بفتح الباء وقولـهم بقاع يدل على بقعة، كما يقال جفنة وجفان ومن قال بقعة قال بُقَع مثل غُرْفة وغُرَف. ﴿من الشجرة﴾ أي من ناحية الشجرة قيل: كانت شجرة العليق وقيل: سمرة وقيل: عوسج ومنها كانت عصاه، ذكره الزمخشري وقيل: عناب، والعوسج إذا عظم يقال لـه الغرقد. وفي الحديث: "إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدجال فلا يختفي أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتلـه إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق"[1] خرجه مسلم. قال المهدوي: وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء. ولا يجوز أن يوصف الحق تعالى بالانتقال والزوال وشبه ذلك من صفات المخلوقين قال أبو المعالي: وأهل المعاني وأهل الحق يقولون من كلمه الله تعالى وخصه بالرتبة العليا والغاية القصوى، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات، كما أن من خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه منزهاً عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث، ولا مثل لـه سبحانه في ذاته وصفاته، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه. قال الأستاذ أبو إسحاق: اتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق في موسى عليه السلام معنى من المعاني أدرك به كلامه كان اختصاصه في سماعه، وأنه قادر على مثلـه في جميع خلقه واختلفوا في نبينا ﷺ هل سمع ليلة الإسراء كلام الله، وهل سمع جبريل كلامه على قولين؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود، واتفقوا على أن سماع الخلق لـه عند قراءة القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التي عرفوا بها معناه دون سماعه لـه في عينه. وقال عبد الله بن سعد بن كلاب: إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها الله تعالى في بعض الأجسام. قال أبو المعالي: وهذا مردود؛ بل يجب اختصاص موسى عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقاً للعادة، ولو لم يُقَل ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاص بتكليم الله إياه والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز، وخلق لـه علماً ضرورياً، حتى علم أن ما سمعه كلام الله، وأن الذي كلمه وناداه هو الله رب العالمين، وقد ورد في الأقاصيص أن موسى عليه السلام قال: سمعت كلام ربي بجميع جوارحي، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتي. وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مستوفى. ﴿أن يا موسى﴾ "أن" في موضع نصب بحذف حرف الجر أي بـ"أن يا موسى" ﴿إني أنا الله رب العالمين﴾ نفي لربوبية غيره سبحانه. وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسلـه؛ لأنه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٢٩٢٢).

قولـه تعالى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ عطف على "أن يا موسى" تقدمت. و﴿مدبرا﴾ نصب على الحال ﴿ولم يعقب﴾ أي لم يرجع؛ قالـه مجاهد. وقال قتادة: لم يلتفت. "ولم يعقب" نصب على الحال أيضاً. ﴿يا موسى أقبل ولا تخف﴾ أي من الحية وضررها. قال وهب: قيل لـه ارجع إلى حيث كنت فرجع فلف دراعته على يده، فقال لـه الملك: أرأيت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لفك يدك؟ قال: لا ولكني ضعيف خلقت من ضعف وكشف يده فأدخلـها في فم الحية فعادت عصا ﴿إنك من الآمنين﴾ أي مما تحاذر.

قولـه تعالى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ الآية. تقدمت. ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾ "من" متعلقة بـ "ولّى" أي ولّى مدبراً من الرهب. وقرأ حفص والسلمي وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: "من الرهب" بفتح الراء وإسكان الـهاء. وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجزم الـهاء. الباقون بفتح الراء والـهاء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لقولـه تعالى: ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ (الأنبياء: ٩٠) وكلـها لغات وهو بمعنى الخوف. والمعنى إذا هَالَكَ أمر يدك وشعاعها فأدخلـها في جيبك واردها إليه تعد كما كانت. وقيل: أمره الله أن يضم يده إلي صدره فيذهب عنه خوف الحية. عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك عن ابن عباس؛ قال فقال ابن عباس: ليس من أحد يدخلـه رعب بعد موسى عليه السلام، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب. ويحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أن كاتباً كان يكتب بين يديه فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض فقال لـه عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي، وقيل: المعنى اضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما في صدرك من الخوف. وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون وإما من الثعبان. وضم الجناح هو السكون؛ كقولـه تعالى: ﴿ واخفض لـهما جناح الذل من الرحمة ﴾ (الإسراء: ٢٤) يريد الرفق وكذلك قولـه: ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ (الشعراء: ٢١٥) أي أرفق بهم وقال

الفراء: أراد بالجناح عصاه وقال بعض أهل المعاني: الرهب الكم بلغة حمير وبني حنيفة قال مقاتل: سألتني أعرابية شيئاً وأنا آكل فملأت الكف وأومأت إليها فقالت: ها هنا في رهبي تريد في كمي. وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول لآخر: أعطني رهبك فسألته عن الرهب فقال: الكُمُ؛ فعلى هذا يكون معناه اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم؛ لأنه تناول العصا ويده في كمه وقولـه: "اسلك يدك في جيبك" يدل على أنها اليد اليمنى، لأن الجيب على اليسار. ذكره القشيري.

قلت: وما فسروه من ضم اليد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر وقد مضى في سورة (النور) بيانه. الزمخشري: ومن بدع التفاسير أن الرهب الكم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطني مما في رهبك، وليت شعري كيف صحته في اللغة ! وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل، على أن موسى صلوات عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة من صوف لا كمين لـها. قال القشيري: وقولـه: "واضمم إليك جناحك" يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان وقيل: "واضمم إليك جناحك" أي شمر واستعد لتحمل أعباء الرسالة.

قلت: فعلى هذا قيل: "إنك من الآمنين" أي من المرسلين؛ لقولـه تعالى ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ (النمل: ١٠) قال ابن بحر: فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول وقيل: إنما صار رسولاً بقول: ﴿فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه﴾.

قولـه تعالى: ﴿فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ والبرهانان اليد والعصا. وقرأ ابن كثير: بتشديد النون وخففها الباقون وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير، "فذانِّيك" بالتشديد والياء وعن أبي عمرو أيضاً قال لغة هذيل: "فذانيك" بالتخفيف والياء ولغة قريش "فذانك" كما قرأ أبو عمرو وابن كثير. وفي تعليلـه خمسة أقوال: قيل شدد النون عوضاً من الألف الساقطة في ذانك الذي هو تثنية ذا المرفوع، وهو رفع بالابتداء، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التثنية عليها، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين؛ لأن أصلـه فذاانك فحذف الألف الأولى عوضاً من النون الشديدة وقيل: التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك. مكي: وقيل إن من شدد إنما بناه على لغة من قال في الواحد ذلك؛ فلما بنى أثبت اللام بعد نون التثنية، ثم أدغم اللام في النون على حكم إدغام الثاني في الأول، والأصل أن يدغم الأول أبداً في الثاني، إلا أن يمنع من ذلك علة فيدغم الثاني في الأول، والعلة التي منعت في هذا أن يدغم الأول في الثاني أنه لو فعل ذلك لصار في موضع النون التي تدل على التثنية لام مشددة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثاني في الأول لذلك؛ فصار نوناً مشددة وقد قيل: إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأول في الثاني على أصول الإدغام فصار نوناً مشددة وقيل: شددت فرقاً بينها وبين الظاهر التي تسقط الإضافة نونه، لأن ذان لا يضاف. وقيل: للفرق بين الاسم المتمكن وبينها. وكذلك العلة في تشديد النون في "اللذان" و"هذان" قال أبو عمرو: إنما اختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلة حروفه فقرأ بالتثقيل. ومن قرأ: "فذانيك" بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده "فذانك" بالتشديد فأبدل من النون

الثانية ياء كراهية التضعيف، كما قالوا: لا أملاه في لا أملّه فأبدلوا اللام الثانية ألفاً. ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء.

قوله تعالى: ﴿ فأرسله معي ردءا ﴾ يعني معيناً مشتق من أردأته أي أعنته. والردء العون. قال الشاعر:

ألم تر أن أصرم كان ردئي وخير الناس في قل ومال

النحاس: وقد أردأه ورداه أي أعانه؛ وترك همزه تخفيفاً وبه قرأ نافع، وهو بمعنى المهموز قال المهدوي: ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أردى على المائة أي زاد عليها، وكأن المعنى أرسله معي زيادة في تصديقي. قاله مسلم بن جندب وأنشد قول الشاعر:

وأسمر خطياً كأن كعوبه نوى القسب قد أردى ذراعاً على العشر

كذا أنشد الماوردي هذا البيت: قد أردى. وأنشده الغزنوي والجوهري في الصحاح قد أرمى؛ قال: والقسب الصلب، والقسب تمر يابس يتفتت في الفم صلب النواة قال يصف رمحاً: وأسمر... البيت قال الجوهري: ردؤ الشيء يردؤ رداءة فهو رديء أي فاسد، وأردأته أفسدته، وأردأته أيضاً يعني أعنته؛ تقول: أردأته بنفسي أي كنت له ردءاً وهو العون. قال الله تعالى: ﴿ فأرسله معي ردءًا يصدقني ﴾. قال النحاس: وقد حكى ردأته: ردءا وجمع ردء أرداء وقرأ عاصم وحمزة: "يُصدقني" بالرفع وجزم الباقون؛ وهو اختيار أبي حاتم على جواب الدعاء. واختار الرفع أبو عبيد على الحال من الهاء في "أرسله" أي أرسله ردءاً مصدقاً حالة التصديق؛ كقوله: ﴿ أنزل علينا مائدة من السماء تكون ﴾ (المائدة: ١١٤) أي كائنة؛ حال صرف إلى الاستقبال ويجوز أن يكون صفة لقوله: "ردءاً" ﴿إني أخاف أن يكذبون﴾ إذا لم يكن لي وزير ولا معين؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني، فـ﴿قال﴾ الله جلَّ وعزَّ له: ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ أي نقويك به؛ وهذا تمثيل؛ لأن قوة اليد بالعضد قال طرفة:

بني لبينى لستم بيد إلا يداً ليست لها عضد

ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك وفي ضده: فتَّ الله في عضدك ﴿ونجعل لكما سلطانا﴾ أي حجه وبرهاناً ﴿فلا يصلون إليكما﴾ بالأذى ﴿بآياتنا﴾ أي تمتنعان منهم "بآياتنا" فيجوز أن يوقف على "إليكما" ويكون في الكلام تقديم وتأخير وقيل: التقدير ﴿أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾ بآياتنا. قاله الأخفش والطبري. قال المهدوي: وفي هذا تقديم الصلة على الموصول، إلا أن يقدر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون وعنى بالآيات سائر معجزاته.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل

لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ﴾ أي ظاهرات واضحات ﴿قالوا ما هذا إلا سحر مفترى﴾ مكذوب مختلق ﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي في الأمم الماضية؛ قال ابن عباس. والباء في "بهذا" زائدة؛ أي ما سمعنا هذا كائنا في أبائنا الأولين، وقيل: إن هذه الآيات وما احتج به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية وقيل: هي معجزاته.

قوله تعالى: ﴿ وقال موسى ﴾ قراءة العامة بالواو وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن: "قال" بلا واو؛ وكذلك هو في مصحف أهل مكة ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى﴾ أي بالرشاد. ﴿من عنده ومن تكون له﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصماً: "يكون" بالياء والباقون بالتاء وقد تقدم هذا ﴿عاقبة الدار﴾ أي دار الجزاء ﴿إنه﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن ﴿لا يفلح الظالمون﴾.

قوله تعالى: ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ قال ابن عباس: كان بينها وبين قوله: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (النازعات: ٢٤) أربعون سنة، وكذب عدو الله بل علم أن له ثَمَّ رباً هو خالقه وخالق قومه. ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ (الزخرف: ٨٧). ﴿فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى﴾ أي اطبخ لي الآجر؛ عن ابن عباس ﷺ. وقال قتادة: هو أول من صنع الآجر وبنى به. ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال ـ قيل خمسين ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء ـ وأمر بطبخ الآجر والجصّ، ونشر الخشب وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء وشيدوه بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه فحكى السدي: أن فرعون صعد السطح ورمى بنشابة نحو السماء، فرجعت متلطخة بدماء، فقال قد قتلت إله موسى. فروي أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة في البحر، وقطعة في الغرب، وهلك كل من عمل فيه شيئاً والله أعلم بصحة ذلك. ﴿وإني لأظنه من الكاذبين﴾ الظن هنا شك، فكفر على الشك؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يخيل على ذي فطرة.

قوله تعالى: ﴿ واستكبر ﴾ أي تعظم ﴿هو وجنوده﴾ أي تعظموا عن الإيمان بموسى ﴿بغير الحق﴾ أي بالعدوان، أي لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ أي توهموا أنه لا معاد ولا بعث. وقرأ نافع وابن محيصن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي: "لا يرجعون"

بفتح الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل. الباقون: "يُرْجَعُون" على الفعل المجهول وهو اختيار أبي عبيد، والأول اختيار أبي حاتم. ﴿فأخذناه وجنوده﴾ وكانوا ألفي ألف وستمائة ألف ﴿فنبذناهم في اليم﴾ أي طرحناهم في البحر المالح. قال قتادة: بحر من وراء مصر يقال لـه إساف أغرقهم الله فيه. وقال وهب والسدي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية القلزم يقال لـه بطن مريرة، وهو إلى اليوم غضبان وقال مقاتل، يعني نهر النيل وهذا ضعيف والمشهور الأول. ﴿فانظر﴾ يا محمد ﴿كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي آخر أمرهم.

قولـه تعالى: ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ أي جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر وقيل: جعل الله الملأ من قومه رؤساء السفلة منهم، فهم يدعون إلى جهنم وقيل: أئمة يأتم بهم ذوو العبر ويتعظ بهم أهل البصائر ﴿يدعون إلى النار﴾ أي إلى عمل أهل النار ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾. ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم. وقيل: أي ألزمناهم اللعن أي البعد عن الخير ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أي من المهلكين الممقوتين قالـه ابن كيسان وأبو عبيدة. وقال ابن عباس: المشوّهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون وقيل: من المبعدين يقال: قبحه الله أي نحاه من كل خير، وقبَحَه وقبّحه إذا جعلـه قبيحاً وقال أبو عمرو: قبحت وجهه بالتخفيف معناه قبّحت قال الشاعر:

ألا قَبَحَ الله البراجم كلـها وقبّـح يربوعاً وقبَّح دارما

وانتصب يوماً على الحمل على موضع "في هذه الدنيا" واستغنى عن حرف العطف في قولـه: "من المقبوحين" كما استغنى عنه في قولـه: ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ﴾ (الكهف: ٢٢) ويجوز أن يكون العامل في "يوم" مضمراً يدل عليه قولـه: "هم من المقبوحين" فيكون كقولـه: ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ (الفرقان: ٢٢) ويجوز أن يكون العامل في "يوم" قولـه "هم من المقبوحين" وإن كان الظرف متقدماً. ويجوز أن يكون مفعولاً على السعة، كأنه قال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة.

قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة؛ قالـه قتادة. قال يحيى بن سلام: هو أول كتاب ـ يعني التوراة ـ نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام وقيل: الكتاب هنا ست من المثاني السبع التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس، ورواه مرفوعاً. ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ قال أبو سعيد الخدري قال النبي ﷺ: "ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التي مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾"[1] أي من بعد قوم نوح

---

(١) ضعيف.

وعاد وثمود وقيل: أي من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون. ﴿بصائر للناس﴾ أي آتيناه الكتاب بصائر أي ليتبصروا ﴿وهدى﴾ أي من الضلالة لمن عمل بها ﴿ورحمة﴾ لمن آمن بها. ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا، ويثقوا بثوابهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وما كنت ﴾ أي ما كنت يا محمد ﴿ بجانب الغربي﴾ أي بجانب الجبل الغربي قال الشاعر:

أعطاك من أعطى الهدى النبيّا نوراً يزين المنبر الغربيّا

﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا، وألزمناه عهدنا وقيل: أي إذ قضينا إلى موسى أمرك وذكرناك بخير ذكر وقال ابن عباس: "إذ قضينا" أي أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ أي من الحاضرين.

قوله تعالى: ﴿ ولكنا أنشأنا قروناً ﴾ أي من بعد موسى ﴿فتطاول عليهم العمر﴾ حتى نسوا ذكر الله أي عهده وأمره. نظيره: ﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ (الحديد: ١٦) وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا ﷺ ذكر في ذلك الوقت، وأن الله سيبعثه، ولكن طالت المدة، وغلبت القسوة، فنسي القوم ذلك وقيل: آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا، فأرسلنا محمداً مجدداً للدين وداعياً الخلق إليه. وقوله تعالى: ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين ﴾ أي مقيماً كمقام موسى وشعيب بينهم قال العجاج:

فبات حيث يدخل الثَّوِيُّ

أي الضيف المقيم. وقوله: ﴿ تتلو عليهم آياتنا ﴾ أي تذكرهم بالوعد والوعيد. ﴿ولكنا كنا مرسلين﴾ أي أرسلناك في أهل مكة، وأتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار: ولولا ذلك لما علمتها.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين وروى عمرو بن دينار يرفعه قال: "نودي يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني"[١] فذلك قوله: "وما كنت بجانب الطور إذ نادينا" وقال أبو هريرة ـ وفي رواية عن ابن

(١) ضعيف.

عباس ـ إن الله قال: "يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ورحمتكم قبل أن تسترحموني"[1] قال وهب: وذلك أن موسى لما ذكر الله لـه فضل محمد وأمته قال: يا رب أرنيهم فقال الله: (إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم) قال: بلى يا رب فقال الله تعالى: (يا أمة محمد) فأجابوا من أصلاب أبائهم فقال: (قد أجبتكم قبل أن تدعوني) ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا. ﴿ولكن﴾ فعلنا ذلك ﴿رحمة﴾ منا بكم قال الأخفش: "رحمه" نصب على المصدر أي ولكن رحمناك رحمة وقال الزجاج: هو مفعول من أجله أي فعل ذلك بك لأجل الرحمة. النحاس: أي لم تشهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة. وقال الكسائي: على خبر كان؛ التقدير: ولكن كان رحمة. قال: ويجوز الرفع بمعنى هي رحمة الزجاج: الرفع بمعنى ولكن فعل ذلك رحمة ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ يعني العرب أي لم تشاهد تلك الأخبار، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿لعلـهم يتذكرون﴾.

قولـه تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ولولا أن تصيبهم﴾ يريد قريشاً. وقيل: اليهود ﴿مصيبة﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿بما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعاصي. وخص الأيدي بالذكر؛ لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها وجواب "لولا" محذوف أي لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدمة ﴿فيقولوا ربنا لولا﴾ أي هلا ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ لما بعثنا الرسل وقيل: لعاجلناهم بالعقوبة وبعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدم في "الإسراء" وآخر "طه". ﴿فنتبع آياتك﴾ نصب على جواب التخصيص ﴿ونكون﴾ عطف عليه ﴿من المؤمنين﴾ من المصدقين. وقد احتج بهذه الآية من قال: إن العقل يوجب الإيمان والشكر؛ لأنه قال: "بما قدمت أيديهم" وذلك موجب للعقاب إذا تقرر الوجوب قبل بعثه الرسل، وإنما يكون ذلك بالعقل. قال القشيري: والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما احتيج إلى تجديد الرسل. أي هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد، ولكن تطاول العهد، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل، ويظن أن ذلك عذر ولا عذر لـهم بعد أن بلغهم خبر الرسل، ولكن أكملنا إزاحة العذر، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم. وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبداً إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثة الرسل.

---

[1] ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿قالوا﴾ يعني كفار مكة ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ من العصا واليد البيضاء، وأنزل عليه القرآن جملة واحد كالتوراة، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد؛ ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا﴾ أي موسى ومحمد تعاونا على السحر. وقال الكلبي: بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا: إنا نجده في التوراة بنعته وصفته، فلما رجع الجواب إليهم "قالوا ساحران تظاهرا" وقال قوم: إن اليهود علّموا المشركين، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى، فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة، فهذا الاحتجاج وارد على اليهود، أي أو لم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و﴿إنَّا بكلٍّ كافرون﴾ أي وإنَّا كافرون بكل واحد منهما. وقرأ الكوفيون: "سحران" بغير ألف، أي الإنجيل والقرآن وقيل: التوراة والفرقان؛ قالـه الفراء وقيل: التوراة والإنجيل، قالـه أبو رزين. الباقون "ساحران" بألف وفيه ثلاثة أقاويل: أحدها: موسى ومحمد عليهما السلام، وهذا قول مشركي العرب وبه قال ابن عباس والحسن. الثاني: موسى وهارون وهذا قول اليهود لـهما في ابتداء الرسالة. وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد. فيكون الكلام احتجاجاً عليهم وهذا يدل على أن المحذوف في قولـه: "لولا أن تصيبهم مصيبة" لما جددنا بعثة الرسل، لأن اليهود اعترفوا بالنبوات ولكنهم حرفوا وغيروا واستحقوا العقاب، فقال: قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثه محمد ﷺ. الثالث: عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وهذا قول اليهود اليوم. وبه قال قتادة. وقيل: أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح، وذكر الإنجيل والقرآن، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين.

قولـه تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ﴾ أي قل يا محمد إذا كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين "فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه" ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنهما سحران أو فأتوا بكتاب هو أهدى من كتابي موسى ومحمد عليهما السلام. وهذا يقوّي قراءة الكوفيين "سحران". "أتبعه" قال الفراء: بالرفع؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة. قال: وبذا جزمت ـ وهو الوجه ـ فعلى الشرط.

قولـه تعالى: ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ يا محمد بأن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لـهم الشيطان، وإنه لا حجة لـهم ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ أي لا أحد أضل منه ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

قولـه تعالى: ﴿ ولقد وصلنا لـهم القول﴾ أي أتبعنا بعضه بعضاً، وبعثنا رسولاً بعد رسول. وقرأ الحسن "وَصَلنا" مخففاً. وقال أبو عبيدة والأخفش: معنى "وصّلنا" أتممنا كصلتك الشيء وقال ابن عيينه والسدي: بيّنا وقالـه ابن عباس وقال مجاهد: فصلنا. وكذلك كان يقرأها. وقال ابن زيد: وصّلنا لـهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا. وقال أهل المعاني: وآلينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضه بعضاً: وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا وأصلـها من وصل الحبال بعضها ببعض. قال الشاعر:

فقـل لبني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف ما يزال يوصَّلُ

وقال امرؤ القيس:

درير كخذروف الوليد أمره تقلب كـفيه بخيط موصَّل

والضمير في "لـهم" لقريش؛ عن مجاهد. وقيل: هو لليهود. وقيل: هو لـهم جميعاً. والآية رد على من قال: هلا أوتي محمد القرآن جملة واحدة ﴿لعلـهم يتذكرون﴾ قال ابن عباس: يتذكرون محمداً فيؤمنوا به. وقيل: يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلـهم؛ قالـه علي بن عيسى. وقيل: لعلـهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام. حكاه النقاش.

قولـه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبلـه هم به يؤمنون﴾ أخبر أن قوماً ممن أوتوا الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن، كعبد الله بن سلام وسلمان. ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى، وهم أربعون رجلاً، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى: منهم بحيرا الراهب وأبرهه والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع. كذا سماهم الماوردي، وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ قالـه قتادة وعنه أيضاً: نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية. وعن رفاعة القرظي: نزلت في عشرة أنا أحدهم. وقال عروة بن الزبير: نزلت في النجاشي وأصحابه، ووجه باثني عشر رجلاً فجلسوا مع النبي ﷺ، وكان أبو جهل وأصحابه قريباً منهم، فآمنوا بالنبي ﷺ فلما قاموا من عنده تبعهم أبوجهل ومن معه، فقال لهم: خيبكم الله من ركب، وقبحكم من وفد، لم تلبثوا أن صدقتموه، وما رأينا ركباً أحمق منكم ولا أجهل، فقالوا: ﴿سلام عليكم﴾ لم نأل أنفسنا رشداً ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ (القصص: ٥٥) وقد تقدم هذا في "المائدة" عند قوله ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ (المائدة: ٨٣) مستوفى. وقال أبو العالية: هؤلاء قوم آمنوا بمحمد ﷺ قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم. ﴿من قبلـه﴾ أي من قبل القرآن وقيل: من قبل محمد ﷺ ﴿هم به﴾ أي بالقرآن أو بمحمد ﷺ ﴿ يؤمنون﴾ ﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا﴾ أي إذا قرئ عليهم القرآن قالوا

صدّقنا بما فيه ﴿إنا كنا من قبلـه مسلمين﴾ أي من قبل نزولـه، أو من قبل بعثه محمد ﷺ ﴿مسلمين﴾ أي موحدين، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن.

قولـه تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ ـ فآمن به واتبعه وصدقه فلـه أجران وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فلـه أجران ورجل كانت لـه أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها ثم أعتقها وتزوجها فلـه أجران"[(١)] قال الشعبي للخراساني: خذا هذا الحديث بغير شيء فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة وخرجه البخاري أيضاً قال علماؤنا: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين؛ فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيه، ثم إنه خوطب من جهة نبينا فأجابه واتبعه فلـه أجر الملتين، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء التربية، ثم إنه لما أعتقها وتزوجها أحياها إحياء الحرية التي ألحقها فيه بمنصبه، فقد قام بما أمر فيها، فأجر كل واحد منهم أجرين ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه، الحسنة بعشر أمثالـها فتتضاعف الأجور، ولذلك قيل: إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحر، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "للعبد المملوك المصلح أجران" والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك[(٢)] قال سعيد بن المسيب: وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى ماتت أمه لصحبتها. وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "نعما للمملوك أن يتوفّى يحسن عبادة الله وصحابة سيده نعما لـه"[(٣)]

الثانية: ﴿بما صبروا﴾ عام في صبرهم على ملتهم، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون. درأت إذا دفعت، والدرء الدفع. وفي الحديث: "ادرأوا الحدود بالشبهات"[(٤)] قيل: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى وقيل: يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب؛ وعلى الأول فهو وصف لمكارم الأخلاق؛ أي من قال لهم سوءاً

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٤٨)، ومسلم (١٦٦٥) واللفظ لـه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٤٩)، ومسلم (١٦٦٧).

(٤) "ضعيف" مرفوعًا، والصحيح وقفه على ابن مسعود، وانظر ضعيف الجامع (٢٥٨)، وراجع الإرواء (٢٣١٦).

لاينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه فهذه آية مهادنة، وهي من صدر الإسلام، وهي مما نسختها آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة ومنه قوله ﷺ لمعاذ: "وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"[1] ومن الخُلُق الحسن دفع المكروه والأذى، والصبر على الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أثني عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع، وفي ذلك حض على الصدقات وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة؛ ثم مدحهم أيضاً على إعراضهم عن اللغو كما قال تعالى: ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ (الفرقان: ٧٢) أي إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا عنه؛ أي لم يشتغلوا به ﴿وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي متاركة؛ مثل قوله: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ (الفرقان: ٦٣) أي لنا ديننا ولكم دينكم ﴿سلام عليكم﴾ أي أمناً لكم منا فإنا لا نحاربكم، ولا نسابكم، وليس من التحية في شيء قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ قال الزجاج: أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب.

قلت: والصواب أن يقال أجمع جلّ المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ، وهو نص حديث البخاري ومسلم، وقد تقدم الكلام في ذلك في "التوبة". قال أبو روق قوله: ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء﴾ إشارة إلى العباس. وقاله قتادة. ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ قال مجاهد: لمن قدر له أن يهتدي. وقيل: معنى "من أحببت" أي من أحببت أن يهتدي وقال جبير بن مطعم: لم يسمع أحد الوحي يلقي على النبي ﷺ إلا أبا بكر الصديق فإنه سمع جبريل وهو يقول: يا محمد اقرأ: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ هذا قول مشركي مكة. قال ابن عباس: قائل ذلك من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي قال للنبي ﷺ: إنا

---

(١) "حسن" وقد سبق تخريجه.

لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك، ونؤمن بك، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا ـ يعني مكة ـ لاجتماعهم على خلافنا، ولا طاقة لنا بهم. وكان هذا من تعللاتهم فأجاب الله تعالى عما اعتل به فقال: ﴿أو لم نمكن لهم حرما آمنا﴾ أي ذا أمن. وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمنهم بحرمة البيت، ومنع عنهم عدوهم، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم. والتخطف الانتزاع بسرعة؛ وقد تقدم. قال يحيى بن سلام يقول: كنتم آمنين في حرمي، تأكلون رزقي، وتعبدون غيري، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي. ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء﴾ أي يجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد؛ عن ابن عباس وغيره يقال: جبى الماء في الحوض أي جمعه. والجابية الحوض العظيم وقرأ نافع: "تجبى" بالتاء؛ لأجل الثمرات. والباقون بالياء، لقوله: "كل شيء" واختاره أبو عبيد قال: لأنه حال بين الاسم المؤنث وبين فعله حائل وأيضاً فإن الثمرات جمع، وليس بتأنيث حقيقي. ﴿رزقا من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا يعقلون؛ أي هم غافلون عن الاستدلال وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم. و"رزقاً" نصب على المفعول من أجله. ويجوز نصبه على المصدر بالمعنى؛ لأن معنى "تجبى" ترزق. وقرئ "يجنى" بالنون من الجنا، وتعديته بإلى كقولك يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة.

قوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ بيَّن لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف في ترك الإيمان أكثر، فكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار، والبطر والطغيان بالنعمة؛ قاله الزجاج "معيشتها" أي في معيشتها فلما حذف "في" تعدى الفعل؛ قاله المازني. الزجاج كقوله: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا﴾ (الأعراف: ١٥٥) الفراء: هو منصوب على التفسير. قال كما تقول: أبطرت مالك وبطرته ونظيره عنده: ﴿إلا من سفه نفسه﴾ (البقرة: ١٣٠) وكذا عنده. ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً﴾ (النساء: ٤) ونصب المعارف على التفسير محال عند البصريين؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحداً نكرة يدل على الجنس. وقيل: انتصب بـ"بطرت" ومعنى: "بطرت" جهلت؛ فالمعنى: جهلت شكر معيشتها. ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا﴾ أي لم تسكن بعد إهلاك أهلها إلا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب، والاستثناء يرجع إلى المساكن أي بعضها يسكن؛ قاله الزجاج واعترض عليه؛ فقيل: لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل؛ لأنك تقول: القوم لم تضرب إلا قليل، ترفع إذا كان المضروب قليلاً، وإذا نصبت كان القليل صفة للضرب؛ أي لم تضرب إلا ضرباً قليلاً، فالمعنى إذاً: فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مر بالطريق يوماً أو بعض يوم أي لم تسكن من بعدهم إلا سكوناً قليلاً. وكذا قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافر أو مار الطريق يوماً أو ساعة ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ أي لما خلفوا بعد هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ

ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وما كان ربك مهلك القرى ﴾ أي القرى الكافر أهلها. ﴿حتى يبعث في أمها﴾ قرئ بضم الهمزة وكسرها لإتباع الجر يعني مكة. و﴿رسولا﴾ يعني محمداً ﷺ. وقيل: "في أمها" يعني في أعظمها "رسولا" ينذرهم. وقال الحسن: في أوائلها.

قلت: ومكة أعظم القرى لحرمتها وأولها، لقوله تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس ﴾ (آل عمران: ٩٦) وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهي أم ما حولها. وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة "يوسف".

قوله تعالى: ﴿ يتلو عليهم آياتنا ﴾ "يتلو" في موضع الصفة أي تالياً أي يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ "وما كنا مهلكي القرى" سقطت النون للإضافة مثل ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ (النساء: ٩٧) أي لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم وفي هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين، كما قال عز من قائل: ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (هود: ١١٧) فنص في قوله ﴿ بظلم ﴾ (هود: ١١٧) على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه، وإن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم، دل على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال تعالى: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ (البقرة: ١٤٣).

قوله تعالى: ﴿ وما أوتيتم من شيء ﴾ يا أهل مكة ﴿ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي تتمتعون بها مدة حياتكم، أو مدةً في حياتكم، فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم. ﴿ وما عند الله خير وأبقى﴾ أي أفضل وأدوم، يريد الدار الآخرة وهي الجنة. ﴿ أفلا تعقلون﴾ أن الباقي أفضل من الفاني قرأ أبوعمرو: "يعقلون" بالياء. الباقون بالتاء على الخطاب وهو الاختيار لقوله تعالى: ﴿ وما أوتيتم﴾.

قوله تعالى: ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب. ﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ فأعطي منها بعض ما أراد. ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ أي في النار ونظيره قوله: ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ (الصافات: ٥٧). قال ابن عباس: نزلت في حمزة ابن عبد المطلب، وفي أبي جهل بن هشام وقال مجاهد: نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل. وقال محمد بن كعب: نزلت في حمزة وعلي، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد وقيل: في عمار والوليد بن المغيرة؛ قاله السدي. قال القشيري: والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم. الثعلبي: وبالجملة

فإنها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى ولـه في الآخرة النار، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله ولـه في الآخرة الجنة.

قولـه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي ينادي الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء؛ قالـه الكلبي. وقال قتادة: هم الشياطين. ﴿ربنا هؤلاء الذين أغوينا﴾ أي دعوناهم إلى الغي فقيل لـهم: أغويتموهم؟ قالوا: ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ يعنون أضللناهم كما كنا ضالين. ﴿تبرأنا إليك﴾ أي تبرأ بعضنا من بعض، والشياطين يتبرأون ممن أطاعهم، والرؤساء يتبرأون ممن قبل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ (الزخرف: ٦٧).

قولـه تعالى: ﴿ وقيل ﴾ أي للكفار ﴿ادعوا شركاءكم﴾ أي استغيثوا بآلـهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم ﴿فدعوهم﴾ أي استغاثوا بهم ﴿فلم يستجيبوا لـهم﴾ أي فلم يجيبوهم ولـم ينتفعوا بهم ﴿ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون﴾ قال الزجاج: جواب "لو" محذوف؛ والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الـهدى، ولما صاروا إلى العذاب وقيل: أي لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم وقيل المعنى: ودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة. ﴿ماذا أجبتم المرسلين﴾ أي يقول الله لـهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي. ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ﴾ أي خفيت عليهم الحجج؛ قالـه مجاهد؛ لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لـهم عذر ولا حجة يوم القيامة و"الأنباء" الأخبار؛ سَمَّى حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها ﴿فهم لا يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم؛ قالـه الضحاك. وقال ابن عباس: "لا يتساءلون" أي لا ينطقون بحجة. وقيل: "لا يتساءلون" في تلك الساعة، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولـهم: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (الأنعام: ٢٣). وقال مجاهد: لا يتساءلون بالأنساب وقيل: لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً؛ حكاه ابن عيسى.

قوله تعالى: ﴿ فأما من تاب ﴾ أي من الشرك ﴿وآمن﴾ أي صدق ﴿وعمل صالحا﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿فعسى أن يكون من المفلحين﴾ أي من الفائزين بالسعادة. وعسى من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)﴾

قوله تعالى: ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة؛ أي الاختيار إلى الله تعالى في الشفعاء لا إلى المشركين وقيل: هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال: ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (الزخرف: ٣١) يعني نفسه زعم، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف وقيل: هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به. قال ابن عباس: والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته وقال يحيى بن سلام: والمعنى؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته. وحكى النقاش: إن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعني محمداً ﷺ، ويختار الأنصار لدينه.

قلت: وفي كتاب البزار مرفوعاً صحيحاً عن جابر "إن الله تعالى اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة - يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً - فجعلهم أصحابي وفي أصحابي كلهم خير، واختار أمتي على سائر الأمم واختار لي من أمتي أربعة قرون"[1] وذكر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه في قوله عز وجل: ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ قال: من النعم الضأن، ومن الطير الحمام والوقف التام "يختار". وقال علي بن سليمان: هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون "ما" في موضع نصب بـ"يختار" لأنها لو كانت في موضع نصب لم يعد عليها شيء قال وفي هذا رد على القدرية قال النحاس: التمام "ويختار" أي ويختار الرسل.

قوله تعالى: ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ أي ليس يرسل من اختاروه هم. قال أبو إسحاق: "ويختار" هذا الوقف التام المختار ويجوز أن تكون "ما" في موضع نصب بـ"يختار" ويكون المعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. قال القشيري: الصحيح الأول لإطباقهم على الوقف على قوله "ويختار" قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل السنة و"ما" من قوله: "ما كان لهم الخيرة" نفي عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل. الزمخشري: "ما كان لهم الخيرة" بيان لقوله: "ويختار" لأن معناه يختار ما يشاء، ولهذا لم يدخل العاطف، والمعنى، وإن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوده الحكمة فيها أي ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. وأجاز الزجاج وغيره أن تكون "ما" منصوبة بـ"يختار" وأنكر الطبري أن تكون "ما" نافية، لئلا يكون

---

(١) ضعيف.

المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل، ولأنه لم يتقدم كلام بنفي قال المهدوي: ولا يلزم ذلك؛ لأن "ما" تنفي الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها، ولأن الآي كانت تنزل على النبي ﷺ على ما يسأل عنه، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص. وتقدير الآية عند الطبري: ويختار لولايته الخيرة من خلقه، لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه، كما اختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم فـ"ما" على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي "والخيرة" رفع بالابتداء "ولهم" الخبر والجملة خبر "كان" وشبهه بقولك: كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف، إذا ليس في الكلام عائد يعود على اسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد. وقد روي معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس قال الثعلبي: "ما" نفي أي ليس لهم الاختيار على الله وهذا أصوب كقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (الأحزاب: ٣٦) قال محمود الوراق:

توكل على الرحمن في كل حاجة ... أردت فإن الله يقضي ويقدر
إذا ما يرد ذو العرش أمراً بعبدهٌ ... يصبه وما للعبد ما يتخيَر
وقد يهلك الإنسان ومن وجه حذره ... وينجو بحمد الله من حيث يحذر

وقال آخر:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر ... والدهر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا ... وفي اختيار سواه اللوم والشوم

قال بعض العلماء: لا ينبغي لأحد أن يقدر على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ (الكافرون: ١) وفي الركعة الثانية ﴿قل هو الله أحد﴾ (الإخلاص: ١) واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾ الآية، وفي الركعة الثانية: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ (الأحزاب: ٣٦) وكلٌ حسن ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام، وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمنا السورة في القرآن؛ يقول: "إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه. اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم

رضِّني به". قال: "ويسمي حاجته"(١). وروت عائشة عن أبي بكر ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: "اللهم خر لي واختر لي"(٢) وروى أنس أن النبي ﷺ قال: "يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ثم انظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه"(٣) قال العلماء: وينبغي لـه أن يفرغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمر من الأمور، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه، فإن الخير فيه إن شاء الله وإن عزم على سفر فيتوخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين اقتداء برسول الله ﷺ. ثم نزه نفسه سبحانه فقال: ﴿سبحان الله﴾ أي تنزيها. ﴿وتعالى﴾ أي تقدس وتمجد ﴿عما يشركون﴾. ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ يظهرون. وقرأ ابن محيصن وحميد: "تكُنّ" بفتح التاء وضم الكاف وقد تقدم هذا في "النمل". تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء. ﴿وهو الله لا إلـه إلا هو لـه الحمد في الأولى والآخرة ولـه الحكم وإليه ترجعون﴾ تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، لأن جميع المحامد إنما تجب لـه وأن لا حكم إلا لـه وإليه المصير.

قولـه تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً ﴾ أي دائماً؛ ومنه قول طرفة:

لعمرك ما أمري علي بغمة نهاري ولا ليلي علي بسرمد

بيَّن سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه. ﴿من إلـه غير الله يأتيكم بضياء﴾ أي بنور تطلبون فيه المعيشة وقيل: بنهار تبصرون فيه معايشكم وتصلح فيه الثمار والنبات. ﴿أفلا تسمعون﴾ سماع فهم وقبول. ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من إلـه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾ أي تستقرون فيه من النصب. ﴿أفلا تبصرون﴾ ما أنتم فيه من الخطأ في عبادة غيره؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلم تشركون به. ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه﴾ أي فيهما وقيل: الضمير للزمان وهو الليل والنهار ﴿ولتبتغوا من فضلـه﴾ أي لتطلبوا من رزقه فيه أي في النهار فحذف. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٢)، وأصحاب السنن.

(٢) ضعيف، أخرجه الترمذي (٣٥١٦) وضعفه.

(٣) ذكره النووي في "الأذكار"، (ص١١١) وقال: "إسناد غريب فيه من لا أعرفهم".

قولـه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين، ينادون مرة فيقال لـهم: "أين شركائي الذين كنتم تزعمون" فيدعون الأصنام فلا يستجيبون، فتظهر حيرتهم، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون وهو توبيخ وزيادة خزي والمناداة هنا ليست من الله ؟ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقولـه تعالى ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ﴾ (البقرة: ١٧٤) لكنه تعالى يأمر من يوبخهم ويبكتهم، ويقيم الحجه عليهم في مقام الحساب وقيل: يحتمل أن يكون من الله، وقولـه: "ولا يكلمهم الله" حين يقال لـهم: ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ (المؤمنون: ١٠٨) وقال: "شركائي" لأنهم جعلوا لـهم نصيباً من أموالـهم.

قولـه تعالى: ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ﴾ أي نبياً؛ عن مجاهد. وقيل: هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالـهم في الدنيا والأول أظهر؛ لقولـه تعالى: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ (النساء: ٤١) وشهيد كل أمة رسولـها الذي يشهد عليها والشهيد الحاضر أي أحضرنا رسولـهم المبعوث إليهم. ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي حجتكم. ﴿ فعلموا أن الحق لله﴾ أي علموا صدق ما جاءت به الأنبياء. ﴿ وضل عنهم﴾ أي ذهب عنهم وبطل. ﴿ ما كانوا يفترون﴾ أي يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلـهة تعبد.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ لما قال تعالى: ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ (القصص: ٦٠) بيّن أن قارون أوتيها واغترّ بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون، ولستم أيها المشركون بأكثر عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأموالـه ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه. قال النخعي وقتادة وغيرهما: كان ابن عم موسى لحًا؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب؛ وموسى بن عمران بن قاهث وقال ابن إسحاق: كان عم موسى لأب وأم وقيل: كان ابن خالته ولم ينصرف للعجمة والتعريف وما كان على وزن فاعول أعجمياً لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف في المعرفة وانصرف في النكرة، فإن

حسنت فيه الألف واللام انصرف إن كان اسماً لمذكر نحو طاووس وراقود. قال الزجاج: ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف.

قوله تعالى: ﴿ فبغى عليهم ﴾ بغيه أنه زاد في طول ثوبه شبراً؛ قاله شهر بن حوشب. وفي الحديث "لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً"[1] وقيل: بغيه كفره بالله عز وجل؛ قاله الضحاك. وقيل: بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده؛ قاله قتادة وقيل: بغيه نسبته ما آتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته؛ قاله ابن بحر وقيل: بغيه قوله إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان في هارون فما لي! فروى أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهارون؛ يقرب القربان ويكون رأساً فيهم، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه، وجد قارون في نفسه وحسدهما فقال لموسى: الأمر لكما وليس لي شيء إلى متى أصبر. قال موسى: هذا صنع الله قال: والله لا أصدقنك حتى تأتي بآية؛ فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاه، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر ـ وكانت من شجر اللوز ـ فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر. ﴿فبغى عليهم﴾ من البغي وهو الظلم. وقال يحيى بن سلام وابن المسيب: كان قارون غنياً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم. وقول سابع: روي عن ابن عباس قال: لما أمر الله تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى امرأة بغيّ وأعطاها مالاً، وحملها على أن ادعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها؛ فعظم على موسى ذلك وأحلفها بالله الذي فلق البحر لبني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت. فتداركها الله فقالت: أشهد أنك بريء، وأن قارون أعطاني مالاً، وحملني على أن قلت ما قلت، وأنت الصادق وقارون الكاذب. فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه فجاءه وهو يقول للأرض: يا أرض خذيه؛ يا أرض خذيه وهي تأخذه شيئاً فشيئاً وهو يستغيث يا موسى! إلى أن ساخ في الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه. وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى: استغاث بك عبادي فلم ترحمهم، أما أنهم لو دعوني لوجدوني قريباً مجيباً. ابن جريج: بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة، وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج: حدثني إبراهيم بن راشد قال: حدثني داود بن مهران عن الوليد بن مسلم، عن مروان بن جناح، عن يونس بن ميسرة بن حلبس قال: لقي قارون يونس في ظلمات البحر، فنادى قارون يونس، فقال: يا يونس تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه. فقال يونس: ما منعك من التوبة فقال: إن توبتي جعلت إلى ابن عمي فأبى أن يقبل مني. وفي الخبر: إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل في الصور. والله أعلم. قال السدي: وكان اسم البغيّ سبرتا، وبذل لها قارون ألفي درهم. قتادة: وكان قطع البحر مع موسى وكان يسمى المنوّر من حسن صورته في التوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٨) وغيره.

قولـه تعالى: ﴿ وآتيناه من الكنوز﴾ قال عطاء: أصاب كثيراً من كنوز يوسف عليه السلام وقال الوليد ابن مروان: إنه كان يعمل الكيمياء ﴿ما إن مفاتحه﴾ "إن" واسمها وخبرها في صلة "ما" و"ما" مفعولة "آتيناه" قال النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون في الصلات؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذي وأخواته "إن" وما عملت فيه، وفي القرآن "ما إن مفاتحه" وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به. ومن قال مفتاح قال مفاتيح. ومن قال هي الخزائن فواحدها مفتح بالفتح ﴿لتنوء بالعصبة﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة أي تميلـهم بثقلـها، فلما انفتحت التاء دخلت الباء كما قالوا هو يذهب بالبؤس ومذهب البؤس. فصار "لتنوء بالعصبة" فجعل العصبة تنوء أي تنهض متثاقلة؛ كقولك قم بنا أي اجعلنا نقوم. يقال: ناء ينوء نوءاً إذا نهض بثقل. قال الشاعر:

تنـوء بأخراهـا فَلأَ يَاً قيامُهـــا   وتمشي الـهُوينى عن قريب فَتَبْهَرُ

وقال آخر:

أخذت فلم أملك ونؤت فلم أقم   كأنـي مـن طـول الـزمـــان مقيَّدُ

وأناءني إذا أثقلني؛ عن أبي زيد. وقال أبو عبيدة: قولـه: "لتنوء بالعصبة" مقلوب، والمعنى لتنوء بها العصبة أي تنهض بها. أبو زيد: نؤت بالحمل إذا نهضت. قال الشاعر:

إنا وجدنا خلفاً بئس الخَلَفْ   عبداً إذا ما ناء بالحمل وقَفْ

والأول معنى قول ابن عباس وأبي صالح والسدي. وهو قول الفراء واختاره النحاس. كما يقال: ذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأنأته؛ فأما قولـهم: لـه عندي ما ساءه وناءه فهو إتباع كان يجب أن يقال وأناءه. ومثلـه هنأني الطعام ومرأني، وأخذه ما قدُم وما حدُث وقيل: هو مأخوذ من النأي وهو البُعد. ومنه قول الشاعر:

ينـأون عنـا ومـا تنـأى مودتهم   فالقلب فيهم رهين حيثما كانوا

وقرأ بديل بن ميسرة: "لينوء" بالياء؛ أي لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى. وقال أبوعبيدة: قلت لرؤبة بن العجاج في قولـه:

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه في الجلد توليع البـــهق

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما فقال: أردت كل ذلك. واختلف في العصبة وهي الجماعة التي يتعصب بعضهم لبعض على أحد عشر قولاً: الأول: ثلاثة رجال؛ قالـه ابن عباس. وعنه أيضاً من الثلاثة إلى العشرة. وقال مجاهد: العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر وعنه أيضاً: ما بين العشرة إلى الخمسة عشر وعنه أيضاً: من عشرة إلى خمسة. ذكر الأول الثعلبي، والثاني القشيري والماوردي، والثالث المهدوي. وقال أبو صالح والحكم بن عتيبة وقتادة والضحاك: أربعون رجلاً. السدي ما بين العشرة إلى الأربعين. وقاله قتادة أيضاً. وقال عكرمة: منهم من يقول: أربعون، ومنهم من يقول: سبعون. وهو قول أبي صالح إن العصبة سبعون رجلاً؛ ذكره الماوردي والأول ذكره عنه الثعلبي وقيل: ستون رجلاً. وقال سعيد بن جبير: ستة أو سبعة. وقال

عبد الرحمن بن زيد: ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر. وقال الكلبي: عشرة لقول إخوة يوسف: ﴿ونحن عصبة﴾ (يوسف: ٨) وقاله مقاتل. وقال خيثمة: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلاً غراء محجلة، وأنها لتنوء بها من ثقلها، وما يزيد مفتح منها على إصبع، لكل مفتح منها كنز مال، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم. قال مجاهد: كانت المفاتيح من جلود الإبل. وقيل: من جلود البقر لتخف عليه، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلاً فيما ذكره القشيري وقيل: على أربعين بغلاً وهو قول الضحاك وعنه أيضاً: إن مفاتحه أوعيته. وكذا قال أبو صالح: إن المراد بالمفاتح الخزائن؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إذ قال له قومه﴾ أي المؤمنون من بني إسرائيل، قاله السدي. وقال يحيى بن سلام: القوم هنا موسى. وقاله الفراء. وهو جمع أريد به واحد كقوله: ﴿الذين قال لهم الناس﴾ (آل عمران: ١٧٣) وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدم. ﴿لا تفرح﴾ أي لا تأشر ولا تبطر. قال الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرَّني ولا ضارعٌ في صرفه المتقلب

وقال الزجاج: المعنى لا تفرح بالمال فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه. وقال مبشر بن عبد الله: لا تفرح لا تفسد. قال الشاعر:

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

أي أفسدتك. وقال أبو عمرو: أفرحه الدين أثقله. وأنشده: إذا أنت. . . . . البيت. وأفرحه سره فهو مشترك. قال الزجاج: والفرحين والفارحين سواء وفرق بينهما الفراء فقال: معنى الفرحين الذين هم في حال فرح، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل. وزعم أن مثله طمع وطامع وميت ومائت. ويدل على خلاف ما قال قول الله عز وجل: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ (الزمر: ٣٠) ولم يقل مائت. وقال مجاهد أيضاً: معنى "لا تفرح" لا تبغ. ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي البطرين؛ قاله مجاهد والسدي. ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي الباغين. وقال ابن بحر: لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين.

قوله تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ اختلف فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها. فالكلام على هذا التأويل شدة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك. فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة؛ قاله ابن عطية.

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. وعن الحسن: قدّم الفضل، وأمسك ما يبلغ. وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف وقيل: أراد بنصيبه الكفن. فهذا وعظ متصل؛ كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كلـه رداءان تُلْوَى فيهما وحَنُوط

وقال آخر :

وهـي القـناعة لا تبغي بها بدلا فـيها النعـيم وفـيها راحـة الـبدن
انظـر لمـن ملك الدنيا بأجمعـها هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربي : وأبدع ما فيه عندي قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا . ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي أطع الله وأعبده كما أنعم عليك . ومنه الحديث : ما الإحسان ؟ قال : "أن تعبد الله كأنك تراه" وقيل : هو أمر بصلة المساكين . قال ابن العربي : فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نعم الله في طاعة الله . وقال مالك : الأكل والشرب من غير سرف . قال ابن العربي : أرى مالكاً أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف ؛ فإن النبي ﷺ كان يحب الحلواء ، ويشرب العسل ، ويستعمل الشواء ، ويشرب الماء البارد وقد مضى هذا المعنى في غير موضع . ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ .

قولـه تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

قولـه تعالى : ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ يعني علم التوراة وكان فيما روي من أقرأ الناس لـها ، ومن أعلمهم بها وكان أحد العلماء السبعين الذي اختارهم موسى للميقات . وقال ابن زيد : أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني فقولـه : "عندي" معناه إن عندي أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل فيّ وقيل : أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب ؛ قالـه علي بن عيسى . ولـم يعلم أن الله لو لـم يسهل لـه اكتسابها لما اجتمعت عنده . وقال ابن عباس : على علم عندي بصنعة الذهب ، وأشار إلى علم الكيمياء . وحكى النقاش : أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء ، ويوشع الثلث ، وهارون الثلث ، فخدعهما قارون ـ وكان على إيمانه ـ حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء ، فكثرت أموالـه وقيل : إن موسى علم الكيمياء ثلاثة ؛ يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا ، وقارون ، واختار الزجاج القول الأول ، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء قال : لأن الكيمياء باطل لا حقيقة لـه . وقيل : إن موسى علّم أخته علم الكيمياء ، وكانت زوجة قارون وعلمت أخت موسى قارون ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله ﴾ أي بالعذاب ﴿من القرون﴾ أي الأمم الخالية الكافرة . ﴿من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً﴾ أي للمال ، ولو كان المال يدل على فضل لما أهلكهم . وقيل : القوة الآلات ، والجمع الأعوان والأنصار ، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعال لقارون ؛ أي ﴿أولَم يعلم﴾ قارون ﴿أن الله قد أهلك من قبله من القرون﴾ . ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي لا يسألون سؤال استعتاب كما قال : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ (الروم : ٥٧) ﴿ فما هم من المعتبين ﴾

(فصلت: ٢٤) وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ (الحجر: ٩٢) قاله الحسن. وقال مجاهد: لا تسأل الملائكة غداً عن المجرمين، فإنهم يعرفون بسيماهم، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون. وقال قتادة: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها، بل يدخلون النار بلا حساب وقيل: لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا وقيل: أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسألتهم عن ذنوبهم.

قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فخرج على قومه ﴾ أي على بني إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا؛ من الثياب والدواب والتجمل في يوم عيد. قال الغزنوي: في يوم السبت.

قوله تعالى: ﴿ في زينته ﴾ أي مع زينته. قال الشاعر:

إذا ما قلوب القوم طارت مخافة من الموت أرسوا بالنفوس المواجد

أي مع النفوس كان خرج في سبعين ألفاً من تَبَعه، عليهم المعصفرات، وكان أول من صبغ له الثياب المعصفرة. قال السدي: مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من ذهب على قطف الأرجوان قال ابن عباس: خرج على البغال الشهب. مجاهد: على براذين بيض عليها سروج الأرجوان، وعليهم المعصفرات، وكان ذلك أول يوم رُئي فيه المعصفر. قال قتادة: خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر، منها ألف بغل أبيض عليها قُطُف حمر. قال ابن جريج: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان، ومعه ثلاثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر وقال ابن زيد: خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات. الكلبي: خرج في ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون. وقال جابر بن عبد الله ﷺ: كانت زينته القرمز.

قلت: القرمز صبغ أحمر مثل الأرجوان، والأرجوان في اللغة صبغ أحمر؛ ذكره القشيري.

قوله تعالى: ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ أي نصيب وافر من الدنيا ثم قيل: هذا من قول مؤمني ذلك الوقت، تمنوا مثل ماله رغبة في الدنيا وقيل: هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها، وهم الكفار. ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل قالوا للذين تمنوا مكانه ﴿ ويلكم ثواب الله خير ﴾ يعني الجنة. ﴿ لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ أي لا يؤتى الأعمال الصالحة أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله. وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله: "ثواب الله".

قوله تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٢)﴾

قوله تعالى: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ قال مقاتل: لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل: إنما أهلكه ليرث ماله؛ لأنه كان ابن عمه؛ أخي أبيه، فخسف الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام، فأوحى الله إلى موسى إني لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبداً يقال: خسف المكان يخسف خسوفاً ذهب في الأرض وخسف الله به الأرض خسفاً أي غاب به فيها ومنه قوله تعالى: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ وخسف هو في الأرض وخُسف به. وخسوف القمر كسوفه. قال ثعلب: كسفت الشمس وخسف القمر؛ هذا أجود الكلام. والخسف: النقصان؛ يقال: رضي فلان بالخسف أي بالنقيصة. ﴿فما كان له مِن فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي جماعة وعصابة ﴿وما كان من المنتصرين﴾ لنفسه أي الممتنعين فيما نزل به من الخسف. فيروى أن قارون يسفل كل يوم بقدر قامة، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور؛ وقد تقدم؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾ أي صاروا يتندمون على ذلك التمني و﴿يقولون ويكأن الله﴾ وي حرف تندم. قال النحاس: أحسن ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي إن القوم تنبهوا أو نُبِّهوا؛ فقالوا: وَيْ، والمتندم من العرب يقول في خلال تندمه وَيْ قال الجوهري: وَيْ كلمة تعجب، ويقال: وَيْكَ وَوَيْ لعبد الله. وقد تدخل وَيْ على كأن المخففة والمشددة تقول: ويكأن الله. قال الخليل: هي مفصولة؛ تقول: "وَيْ" ثم تبتدئ فتقول: "كأن" قال الثعلبي: وقال الفراء هي كلمة تقرير؛ كقولك: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك ويلك ؟ فقال: وَيْ كأنه وراء البيت؛ أي أما ترينه. وقال ابن عباس والحسن: ويك كلمة ابتداء وتحقيق تقديره: إن الله يبسط الرزق وقيل: هو تنبيه بمنزلة ألا في قولك ألا تفعل وأما في قولك أما بعد. قال الشاعر:

سـألتاني الطـلاق إذ رأتـاني قَلَّ مالي قد جئتماني بنكر
وي كأن من يكن لـه نشب يحبـ ـب ومن يفتقر يعش ضُرِّ

وقال قطرب: إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وَيْ قال عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قَوْلُ الفوارس وَيْكَ عنترُ أقدمِ

وأنكره النحاس وغيره، وقالوا: إن المعنى لا يصح عليه؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحداً فيقولوا له ويلك، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر، وأيضا فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز. وقال بعضهم: التقدير ويلك أعلم أنه؛ فأضمر اعلم. ابن الأعرابي: "ويكأن الله" أي اعلم وقيل: معناه ألم تر أن الله وقال القتبي: معناه رحمة لك بلغة حمير، وقال الكسائي: وَيْ فيه معنى التعجب، ويروى عنه أيضاً الوقف على وَيْ وقال كلمة تفجع. ومن قال: وَيْكَ فوقف على الكاف فمعناه أعجب لأن الله يبسط الرزق

وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون. وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب لا اسماً؛ لأن وَيْ ليست مما يضاف وإنما كتبت متصلة؛ لأنها لما كثر استعمالها جعلت مع ما بعدها كشيء واحد.

قوله تعالى: ﴿ لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر ﴿لخسف بنا﴾ وقرأ الأعمش: "لولا مَنُّ الله علينا" وقرأ حفص: "لخسف بنا" مسمى الفاعل. الباقون: على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبي عبيد وفي حرف عبد الله "لانخسف بنا" كما تقول انطُلق بنا. وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مصرف واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين: أحدهما قوله: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ والثاني قوله: ﴿ لولا أن مَنَّ الله علينا ﴾ فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ عند الله.

قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ يعني الجنة وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها، وبلغك وصفها ﴿نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض﴾ أي رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين ﴿ولا فساداً﴾ عملاً بالمعاصي. قاله ابن جريج ومقاتل. وقال عكرمة ومسلم البطين: الفساد أخذ المال بغير حق، وقال الكلبي: الدعاء إلي غير عبادة الله. وقال يحيى بن سلاَّم: هو قتل الأنبياء والمؤمنين. ﴿والعاقبة للمتقين﴾ قال الضحاك: الجنة. وقال أبو معاوية: الذي لا يريد علواً هو من لم يجزع من ذلِّها، ولم ينافس في عزّها، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعاً، وأعزهم غداً ألزمهم لذلّ اليوم. وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مر علي بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كسَراً لهم، فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يَريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ ثم نزل وأكل معهم ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني، فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم. خرَّجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي، قال: حدثنا سفيان بن عيينة فذكره. وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له، لأنها تضره ولا تنفعه.

قوله تعالى: ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ تقدم في "النمل" وقال عكرمة: ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله. وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير. ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ أي بالشرك ﴿فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ أي يعاقب بما يليق بعلمه.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا

رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه محمد ﷺ بردّه إلى مكة قاهراً لأعدائه وقيل: هو بشارة لـه بالجنة. والأول أكثر. وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم. قال القتبي: معاد الرجل بلده لأنه ينصرف ثم يعود. وقال مقاتل: خرج النبي ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير طريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها فقال لـه جبريل إن الله يقول: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ أي إلى مكة ظاهراً عليها. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالجحفة ليست مكية ولا مدنية. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس "إلى مَعَاد" قال: إلى الموت. وعن مجاهد أيضاً وعكرمة والزهري والحسن: إن المعنى لرادّك إلي يوم القيامة، وهو اختيار الزجاج يقال: بيني وبينك المعاد؛ أي يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء "وفرض" معناه أنزل وعن مجاهد أيضاً وأبي مالك وأبي صالح: "إلى مَعَاد" إلى الجنة وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضاً؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء وقيل: لأن أباه آدم خرج منها. ﴿قل ربي أعلم﴾ أي قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفي ضلال مبين ﴿ربي أعلم من جاء بالـهدى ومن وهو في ضلال مبين﴾ أنا أم أنتم.

قولـه تعالى: ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أي ما علمت أننا نرسلك إلي الخلق وننزل عليك القرآن. ﴿إلا رحمة من ربك﴾ قال الكسائي: هو استثناء منقطع بمعنى لكن. ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي عوناً لـهم ومساعداً. وقد تقدم في هذه السورة.

قولـه تعالى: ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ﴾ يعني أقوالـهم وكذبهم وأذاهم، ولا تلتفت نحوهم وامض لأمرك وشأنك. وقرأ يعقوب: "يَصُدُنَّكَ" مجزوم النون. وقرئ: "يُصدُنَّكَ" من أصده بمعنى صَدَّه وهي لغة في كلب. قال الشاعر:

أناس أصدّوا الناس بالسيف عنهم صدود السواقي عن أنوف الحوائم

﴿وادع إلى ربك﴾ أي إلى التوحيد. وهذا يتضمن المهادنة والموادعة. وهذا كلـه منسوخ بآية السيف. وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله ﷺ إلى تعظيم أوثانهم، وعند ذلك ألقى الشيطان في أمنيته أم الغرانيق على ما تقدم، والله أعلم. قوله تعالى: ﴿ولا تدع مع الله إلـها آخر﴾ أي لا تعبد معه غيره فإنه لا إلـه إلا هو. نفي لكل معبود وإثبات لعبادته. ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ قال مجاهد: معناه إلا هو. وقال الصادق: دينه. وقال أبو العالية وسفيان: أي إلا ما أريد به وجهه؛ أي ما يقصد إليه بالقربة. قال:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

وقال محمد بن يزيد: حدثني الثوري قال: سألت أبا عبيدة عن قولـه تعالى: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فقال: إلا جاهه، كما تقول لفلان وجه في الناس أي جاه. ﴿لـه الحكم﴾ في الأولى والآخرة

﴿وإليه ترجعون﴾ . قال الزجاج : "وجهه" منصوب على الاستثناء ، ولو كان في غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع ، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال :

وكل أخ مفارقه أخـــوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه . ﴿وإليه ترجعون﴾ بمعنى ترجعون إليه .

سورة العنكبوت

مقدمة السورة:

مكية كلـها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. ومدنية كلـها في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لـهما وهو قول يحيى بن سلاّم أنها مكية إلا عشر آيات من أولـها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نزلت بين مكة والمدينة وهي تسع وستون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قولـه تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ تقدم القول فى أوائل السور. وقال ابن عباس (في قولـه: "الم"): المعنى: أنا الله أعلم. وقيل: هو اسم للسورة. وقيل: اسم للقرآن. "أحسب" استفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن "أن يتركوا" في موضع نصب بـ "حسب" وهي وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه و" أن" الثانية من "أن يقولوا" في موضع نصب على إحدى جهتين بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا والجهة الأخرى أن يكون على التكرير؛ والتقدير "الم أحسب الناس أن يتركوا" أحسبوا "أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون" قال ابن عباس وغيره: يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام؛ كسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين؛ قال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلّية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة. قال ابن عطية: وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التي تشبه نازلة المسلمين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر.

قلت: ما أحسن ما قاله ولقد صدق فيما قال ﷺ. وقال مقاتل: نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر؛ رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتلـه، فقال النبي ﷺ يومئذ: "سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة" فجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت: ﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا ﴾[1] وقال الشعبي: نزل مفتتح هذه السورة في أناس كانوا بمكة من المسلمين فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تهاجروا فخرجوا فأتبعهم المشركون فآذوهم فنزلت فيهم هذه الآية: "ألم أحسب الناس أن يتركوا"

---

(١) موضوع.

فكتبوا إليهم: نزلت فيكم آية كذا فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحد قاتلناه؛ فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم: ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا﴾ (النحل: ١١٠) ﴿وهم لا يفتنون﴾ يمتحنون؛ أي أظن الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم.

قوله تعالى: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ أي ابتلينا الماضين كالخليل ألقي في النار، وكقوم نشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه وروى البخاري عن خباب بن الأرتّ: قالوا شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون"[1] وخرّج ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك قال: "إنا كذلك يضعَّف لنا البلاء ويضعَّف لنا الأجر" قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال "الأنبياء" وقلت: ثم مَنْ؟ قال: "ثم الصالحون أن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحوبها وأن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء"[2]. وروى سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلْباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة"[3] وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير فركب يوماً فأخذه السبع فأكله فقال عيسى: يا رب وزيري في دينك وعوني على بني إسرائيل وخليفتي فيهم سلطت عليه كلباً فأكله قال: "نعم كانت له عندي منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة"[4] وقال وهب: قرأت في كتاب رجل من الحواريين: إذا سلك بك سبيل البلاء فقرَّ عيناً فإنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك فقد خولف بك عن سبيلهم.

قوله تعالى: ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا﴾ أي فليرينّ الله الذين صدقوا في إيمانهم. وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" وغيرها. قال الزجاج: ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه، وإنما يعلم صدق الصادق واقعاً كائنا وقوعه وقد علم أنه سيقع. وقال النحاس: فيه قولان أحدهما: أن يكون "صدقوا" مشتقاً من الصدق و"الكاذبين" مشتقاً من الكذب الذي هو ضد الصِّدق ويكون المعنى؛ فليبينن الله الذى صدقوا فقالوا نحن مؤمنون واعتقدوا مثل ذلك والذين كذبوا حين اعتقدوا غير ذلك. والقول الآخر أن

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢)، وفي مواضع أخر.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤).
(٣) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٩٩٣).
(٤) ضعيف، لضعف عبد الرحمن بن زيد.

يكون صدقوا مشتقاً من الصدق وهي الصُّلب، والكاذبين مشتقاً من كذَّب إذا انهزم فيكون المعنى؛ فليعلمن الله الذين ثبتوا في الحرب والذين انهزموا؛ كما قال الشاعر:

ليثٌ بعثّرَ يصطاد الرجالَ إذا ما الليث كذَّب عن أقرانه صَدَقا

فجعل "ليعلمن" في موضع فليبينن مجازاً وقراءة الجماعة: "فليعلمن" بفتح الياء واللام. وقرأ علي بن أبي طالب بضم الياء وكسر اللام وهي تبين معنى ما قال النحاس ويحتمل ثلاثة معان: الأول: أن يعلم في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا؛ بمعنى يوقفهم على ما كان منهم الثاني: أن يكون المفعول الأول محذوفاً تقديره؛ فليعلمن الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين أي يفضحهم ويشهرهم؛ هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر وذلك في الدنيا والآخرة. الثالث: أن يكون ذلك من العلامة؛ أي يضع لكل طائفة علامة يشتهر بها. فالآية على هذا تنظر إلى قول النبي ﷺ: (من أسر سريرة ألبسه الله رداءها).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات﴾ أي الشرك. ﴿أن يسبقونا﴾ أي يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون. قال ابن عباس: يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص ابن وائل. ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء و"ما" في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون. ويجوز أن تكون "ما" في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم. وهذا قول الزجاج. وقدرها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك. أحدهما: أن يكون موضع "ما يحكمون" بمنزلة شيء واحد كما تقول: أعجبني ما صنعت؛ أي صنيعك؛ فـ "ما" والفعل مصدر في موضع رفع، التقدير؛ ساء حكمهم. والتقدير الآخر: أن تكون "ما" لا موضع لها من الإعراب وقد قامت مقام الاسم لساء وكذلك نعم وبئس. قال أبو الحسن بن كيسان: وأنا أختار أن أجعل لـ "ما" موضعاً في كل ما أقدر عليه؛ نحو قوله عز وجل: ﴿فبما رحمة من الله﴾ (آل عمران: ١٥٩) وكذا ﴿فبما نقضهم﴾ (المائدة: ١٣) وكذا ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ (القصص: ٢٨) "ما" في موضع خفض في هذا كله وما بعده تابع لها وكذا؛ ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة﴾ (البقرة: ٢٦) "ما" في موضع نصب و"بعوضة" تابع لها.

قوله تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ "يرجو" بمعنى يخاف من قول الهذلي في وصف عَسَّال:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً فإنه لا بد أن يأتيه؛ ذكره النحاس. قال الزجاج: معنى "يرجو لقاء الله" ثواب الله و"مَنْ" في موضع رفع بالابتداء و"كان" في موضع الخبر وهي في موضع جزم بالشرط و"يرجو" في موضع خبر كان والمجازاة ﴿فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾.

قولـه تعالى: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾ أي ومن جاهد في الدين وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات فإنما يسعى لنفسه؛ أي ثواب ذلك كلـه لـه؛ ولا يرجع إلى الله نفع من ذلك. ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾ أي عن أعمالـهم وقيل: المعنى؛ من جاهد عدوه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاده.

قولـه تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي صدقوا ﴿لنكفرن عنهم سيئاتهم﴾ أي لنغطينها عنهم بالمغفرة لـهم ﴿ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي بأحسن أعمالـهم وهو الطاعات ثم قيل: يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها في الشرك ويثابوا على ما عملوا من حسنة في الإسلام. ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم في الكفر والإسلام، ويثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام.

قولـه تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ نزلت في سعد بن أبي وقاص فيما روى الترمذي قال: أنزلت فيّ أربع آيات فذكر قصةً؛ فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر؛ قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت هذه الآية: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا﴾[1] الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وروي عن سعد أنه قال: كنت باراً بأمي فأسلمت فقالت: لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي ويقال يا قاتل أمه وبقيت يوماً ويوماً فقلت: يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت: ﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ الآية. وقال ابن عباس: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك وعنه أيضاً: نزلت في جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق "وحسنا" نصب عند البصريين على التكرير أي ووصيناه حسناً. وقيل: هو على القطع تقديره ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيراً أي بالخير، وقال أهل الكوفة: تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً فيقدر لـه فعل. وقال الشاعر:

(١) "صحيح" أخرجه الترمذي (٣١٨٩).

عجبت من دهماء إذ تشكونا ومن أبي دهماء إذ يوصينا
خيرا بها كأنما خافونا

أي يوصينا أن نفعل بها خيراً؛ كقوله: ﴿ فطفق مسحا ﴾ (ص: ٣٣) أي يمسح مسحاً وقيل: تقديره ووصيناه أمراً ذا حسن فأقيمت الصفة مقام الموصوف وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقيل: معناه ألزمناه حسناً وقراءة العامة: "حسناً" بضم الحاء وإسكان السين. وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك: بفتح الحاء والسين وقرأ الجحدري: "إحسانا" على المصدر؛ وكذلك في مصحف أبيّ التقدير: ووصينا الإنسان أن يحسن إحساناً ولا ينتصب بوصينا؛ لأنه قد استوفى مفعوليه. ﴿إلي مرجعكم﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر. ﴿فأنبئكم بما كنتم تعملون والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم. وقوله: "لندخلهم في الصالحين" مبالغة على معنى؛ فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته. وإذا تحصل للمؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ الآية نزلت في المنافقين كانوا يقولنّ آمنا بالله ﴿فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس﴾ أي أذاهم ﴿كعذاب الله﴾ في الآخرة فارتد عن إيمانه وقيل: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله ولا يصبر على الأذية في الله. ﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾ أي للمؤمنين ﴿ليقولن﴾ هؤلاء المرتدون ﴿إنا كنا معكم﴾ وهم كاذبون فقال الله لهم: ﴿أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ يعني الله أعلم بما في صدورهم منهم بأنفسهم. وقال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا. وقال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك. وقال عكرمة: كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر فقتل بعضهم فأنزل الله: ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ (النساء: ٩٧) فكتب بها المسلمون من المدينة إلى المسلمين بمكة فخرجوا فلحقهم المشركون فافتتن بعضهم، فنزلت هذه الآية فيهم وقيل: نزلت في عياش بن أبي ربيعة أسلم وهاجر، ثم أوذي وضرب فارتد، وإنما عذبه أبو جهل والحارث وكانا أخويه لأمه. قال ابن عباس: ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه. ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ قال قتادة: نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ﴾ أي ديننا ﴿ولنحمل خطاياكم﴾ جزم على الأمر. قال الفراء والزجاج: هو أمر في تأويل الشرط والجزاء؛ أي إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم كما قال:

فقلت ادعي وأدْعُ فإن أندى لصـوت أن ينـاديَ داعيان

أي إن دعوت دعوتُ. قال المهدوي: وجاء وقوع ﴿إنهم لكاذبون﴾ بعده على الحمل على المعنى؛ لأن المعنى إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر وقع عليه التكذيب كما يوقع عليه الخبر قال مجاهد: قال المشركون من قريش نحن وأنتم لا نبعث، فإن كان عليكم وزر فعلينا؛ أي نحن نحمل عنكم ما يلزمكم، والحمل ههنا بمعنى الحمالة لا الحمل على الظهر. وروي أن قائل ذلك الوليد بن المغيرة. ﴿وليحملن أثقالـهم وأثقالاً مع أثقالـهم﴾ يعني ما يحمل عليهم من سيئات من ظلموه بعد فراغ حسناتهم. روي معناه عن النبي ﷺ وقد تقدم في "آل عمران". قال أبو أمامة الباهلي: "يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب فيقول الله عز وجل اقتصوا من عبدي فتقول الملائكة ما بقيت لـه حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فاجعلوا عليه"[(١)] ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وليحملن أثقالـهم وأثقالاً مع أثقالـهم﴾ وقال قتادة: من دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء. ونظيره قولـه تعالى: ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ (النحل: ٢٥) ونظير هذا قوله ﷺ: "مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة فعليه وزوها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"[(٢)] روي من حديث أبي هريرة وغيره. وقال الحسن قال النبي ﷺ: "من دعا إلى هدَىَ فاتُبع عليه وعمل به فلـه مثل أجور من اتبعه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً وأيما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتبع عليها وعمل بها بعده فعليه مثل أوزار من عمل بها ممن اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا" ثم قرأ الحسن: ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾[(٣)].

قلت: هذا مرسل وهو معنى حديث أبي هريرة خرَّجه مسلم[(٤)] ونص حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أيما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن لـه مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئاً وأيما داع دعا إلى هدَىَ فاتُّبع فإن لـه مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئا"[(٥)] خرَّجه ابن ماجه في السنن. وفي الباب عن أبي جحيفة وجرير وقد قيل: أن المراد أعوان الظلمة وقيل: أصحاب البدع إذا اتُّبعوا عليها. وقيل: محدثو السنن الحادثة إذا عمل بها من بعدهم. والمعنى متقارب والحديث يجمع ذلك كلـه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١) بنحوه من حديث أبي هريرة مرفوعًا، وأوله: "أتدرون من المفلس . . . " .

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٣) ضعيف لإرساله.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٥) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٢٧١٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ ذكر قصة نوح تسلية لنبيه ﷺ؛ أي ابتلي النبيون قبلك بالكفار فصبروا وخص نوحاً بالذكر؛ لأنه أول رسول أرسل إلي الأرض وقد امتلأت كفراً على ما تقدم بيانه في "هود" وأنه لم يلق نبي من قومه ما لقي نوح على ما تقدم في "هود" عن الحسن. وروي عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: "أول نبي أرسل نوح"[(١)] قال قتادة: وبعث من الجزيرة واختلف في مبلغ عمره فقيل: مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه قال قتادة: لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ودعاهم لثلاثمائة سنة ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة وقال ابن عباس: بعث نوح لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وعنه أيضاً: أنه بعث وهو ابن مئتين وخمسين سنة ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين وعاش بعد الطوفان مائتي سنة. وقال وهب: عمر نوح ألفاً وأربعمائة سنة. وقال كعب الأحبار: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان سبعين عاماً فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاماً. وقال عون بن شداد: بعث نوح وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة فكان مبلغ عمره ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة ونحوه عن الحسن. قال الحسن: لما أتى ملك الموت نوحاً ليقبض روحه قال: يا نوح كم عشت في الدنيا ؟ قال: ثلاثمائة قبل أن أبعث وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي وثلاثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان. قال ملك الموت: فكيف وجدت الدنيا ؟ قال نوح: مثل دار لها بابان دخلت من هذا وخرجت من هذا. وروي من حديث أنس قال قال رسول الله ﷺ: "لما بعث الله نوحاً إلي قومه بعثه وهو ابن خمسين ومائتي سنة فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة فلما أتاه ملك الموت قال يا نوح يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر ويا مجاب الدعوة كيف رأيت الدنيا قال: مثل رجل بني له بيت لـه بابان فدخل من واحد وخرج من الآخر"[(٢)] وقد قيل: دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر. وقال ابن الوردي: بنى نوح بيتاً من قصب فقيل له: لو بنيت غير هذا فقال: هذا كثير لمن يموت. وقال أبو المهاجر: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً في بيت من شعر، فقيل له: يا نبي الله ابن بيتاً فقال: أموت اليوم أو أموت غداً وقال وهب بن منبه: مرت بنوح خمسمائة سنة لم يقرب النساء وجلاً من الموت، وقال مقاتل وجويبر: إن آدم عليه السلام حين كبر ورق عظمه قال يا رب إلي متى أكدّ وأسعى؟ قال: يا آدم حتى يولد لك ولد مختون فولد له نوح بعد عشرة أبطن وهو يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاماً وقال بعضهم: إلا أربعين

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٢٥٨٥).
(٢) ضعيف.

عاماً والله أعلم. فكان نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس وهو أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان ابن أنوش بن شيث بن آدم. وكان اسم نوح السكن. وإنما سمي السكن لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه فهو أبوهم. وولد لـه سام وحام ويافث فولد سام العرب وفارس والروم، وفي كل هؤلاء خير. وولد حام القبط والسودان والبربر. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج[1]. وليس في شيء من هؤلاء خير. وقال ابن عباس: في ولد سام بياض وأدمة، وفي ولد حام سواد وبياض قليل، وفي ولد يافث ـ وهم الترك والصقالبة ـ الصفرة والحمرة. وكان لـه ولد رابع وهو كنعان الذي غرق والعرب تسميه يام. وسمي نوح نوحاً لأنه ناح على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى فإذا كفروا بكى وناح عليهم. وذكر القشيري أبو القاسم عبد الكريم في كتاب التخبير لـه: يروى: أن نوحاً عليه السلام كان اسمه يشكر ولكن لكثرة بكائه على خطيئته أوحى الله إليه يا نوح كم تنوح فسمي نوحاً؛ فقيل: يا رسول الله فأي شيء كانت خطيئته؟ فقال: "إنه مر بكلب فقال في نفسه ما أقبحه فأوحى الله إليه اخلق أنت أحسن من هذا"[2]. وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لطول ما ناح على نفسه.

فإن قيل: فلم قال: "ألف سنة إلا خمسين عاماً" ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً؟ ففيه جوابان: أحدهما: أن المقصود به تكثير العدد فكان ذكره الألف أكثر في اللفظ وأكثر في العدد. الثاني: ما روي أنه أعطي من العمر ألف سنة فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده فلما حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف فذكر الله تعالى ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته. ﴿فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: المطر. الضحاك: الغرق وقيل: الموت روته عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ ومنه قول الشاعر:

أفناهم طوفان موت جارف

قال النحاس: يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان ﴿وهم ظالمون﴾ جملة في موضع الحال. و"ألف سنة" منصوب على الظرف "إلا خمسين عاما" منصوب على الاستثناء من الموجب وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول؛ لأنه مستغنى عنه كالمفعول. فأما المبرد أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض كأنك قلت استثنيت زيداً.

تنبيه: روى حسان بن غالب بن نجيح أبو القاسم المصري، حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "كان جبريل يذاكرني فضل عمر فقلت يا جبريل ما بلغ فضل عمر قال لي يا محمد لو لبث معك ما لبث نوح في قومه ما بلغت لك فضل عمر"[3] ذكره الخطيب أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي وقال: تفرد بروايته حسان بن غالب عن مالك وليس بثابت من حديثه.

قولـه تعالى: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ معطوف على الهاء والهاء والألف في ﴿جعلناها﴾ للسفينة أو للعقوبة أو للنجاة؛ ثلاثة أقوال.

---

(١) روي بنحوه مرفوعاً بسند ضعيف، كما في ضعيف الجامع (٦١٣٢).

(٢) لا يصح.

(٣) موضوع.

قولـه تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإبراهيم ﴾ قال الكسائي: "وإبراهيم" منصوب بـ "أنجينا" يعني أنه معطوف على الـهاء. وأجاز الكسائي أن يكون معطوفاً على نوح، والمعنى وأرسلنا إبراهيم، وقول ثالث: أن يكون منصوباً بمعنى واذكر إبراهيم. ﴿إذ قال لقومه اعبدوا الله ﴾ أي أفردوه بالعبادة ﴿واتقوه﴾ أي اتقوا عقابة وعذابه ﴿ذلكم خير لكم﴾ أي من عبادة الأوثان ﴿إن كنتم تعلمون﴾.

قولـه تعالى: ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا ﴾ أي أصناماً. قال أبو عبيدة: الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة. الجوهري: الوثن الصنم والجمع وثن وأوثان مثل أسد وآساد ﴿وتخلقون إفكا﴾ قال الحسن: معنى "تخلقون" تنحتون، فالمعنى إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها. وقال مجاهد: الإفك الكذب، والمعنى تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب. وقرأ أبوعبد الرحمن: "وتخلَّقون" وقرئ: "تُخلِّقون" بمعنى التكثير من خلق و"تخلَّقون" من تخلَّق بمعنى تكذّب وتخرص وقرئ: "أفكاً" وفيه وجهان: أن يكون مصدراً نحو كذب ولعب والإفك مخففاً منه كالكذب واللعب وأن يكونَ صفة على فَعل أي خلقاً أفكاً أي ذا إفكَ وباطلَ و"أوثاناً" نصب بـ "تعبدون" و"ما" كافة ويجوز في غير القرآن رفع أوثان على أن تجعل "ما" سمًا لأن و"تعبدون" صلته وحذفت الـهاء لطول الاسم وجعل أوثان خبر إن. فأما "وتخلقون إفكاً" فهو منصوب بالفعل لا غير. وكذا ﴿لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق﴾ أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله فإياه فاسألوه وحده دون غيره. ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ فقيل: هو من قولـه إبراهيم أي التكذيب عادة الكفار وليس على الرسل إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر والتوبيخ لـهم، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. قال أبو عبيد: لذكر الأمم كأنه قال أوَ لَمْ ير الأمم كيف. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائي: "تَرَوْا" بالتاء خطاباً؛ لقوله: "وإن تكذّبوا". وقد قيل: "وإن تكذبوا" خطاب لقريش ليس من قول إبراهيم. ﴿ثم يعيده﴾ يعني الخلق والبعث. وقيل: المعنى أوَ لَمْ يروا كيف يبدئ الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً. وكذلك يبدأ خلق والإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً وخلق من الولد ولداً. وكذلك سائر الحيوان. أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء والإيجاد فهو القادر على الإعادة ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ لأنه إذا أراد أمرًا قال له كن فيكون.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾ أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: "النشاءة" بفتح الشين وهما لغتان مثل الرأفة والرآفة وشبهه. الجوهري: أنشأه الله خلقه والاسم النشأة والنشاءة بالمد عن أبي عمرو بن العلاء ﴿إن الله على كل شيء قدير*يعذب من يشاء﴾ أي بعدله ﴿ويرحم من يشاء﴾ أي بفضله ﴿وإليه تقلبون﴾ ترجعون وتردون. ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ قال الفراء: معناه ولا من في السماء بمعجزين الله وهو غامض في العربية؛ للضمير الذي لم يظهر في الثاني وهو كقول حسان:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

أراد ومن يمدحه وينصره سواء؛ فأضمر مَنْ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد ونظيره قوله سبحانه: ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ (الصافات: ١٦٤) أي مَنْ له والمعنى إن الله لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء إن عصوه. وقال قطرب: ولا في السماء لو كنتم فيها كما تقول: لا يفوتني فلان بالبصرة ولا ههنا بمعنى لا يفوتني بالبصرة لو صار إليها وقيل: لا يستطيعون هرباً في الأرض ولا في السماء. وقال المبرد: والمعنى ولا مَنْ في السماء على أن مَنْ ليست موصولة ولكن تكون نكرة و"في السماء" صفة لها فأقيمت الصفة مقام الموصوف ورد ذلك علي بن سليمان وقال: لا يجوز وقال: إن مَنْ إذا كانت نكرة فلا بد من وصفها فصفتها كالصلة ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة؛ قال: والمعنى إن الناس خوطبوا بما يعقلون؛ والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله؛ كما قال: ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ (النساء: ٧٨). ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ ويجوز "نصير" بالرفع على الموضع وتكون "من" زائدة. ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي بالقرآن أو بما نصب من الأدلة والأعلام. ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي من الجنة ونسب اليأس إليهم والمعنى أويسوا. وهذه الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهل مكة. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم فقال: ﴿فما

كان جواب قومه﴾ حين دعاهم إلى الله تعالى: ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ ثم اتفقوا على تحريقه ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي من إذايتها ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي إنجائه من النار العظيمة حتى لم تحرقه بعد ما ألقي فيها "لآيات" . وقراءة العامة: "جواب" بنصب الباء على أنه خبر كان و"أن قالوا" في محل الرفع اسم كان وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار: "جواب" بالرفع على أنه اسم "كان" و"أن" في موضع الخبر نصباً.

قولـه تعالى: ﴿وقال﴾ إبراهيم ﴿"إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ وقرأ حفص وحمزة: "مودةَ بينكم" وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: "مودةُ بينكم" والأعشى عن أبي بكر عن عاصم وابن وثاب والأعمش: "مودةٌ بينكم" الباقون "مودةً بينكمَ" فأما قراءة ابن كثير ففيها ثلاثة أوجه؛ ذكر الزجاج منها وجهين: أحدهما: أن المودة ارتفعت على خبر إنَّ وتكون "ما" بمعنى الذي. والتقدير إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودة بينكم. والوجه الآخر: أن يكون على إضمار مبتدأ أي هي مودة أو تلك مودة بينكم. والمعنى آلـهتكم أو جماعتكم مودة بينكم. قال ابن الأنباري: "أوثاناً" وقف حسن لمن رفع المودة بإضمار ذلك مودة بينكم ومن رفع المودة على أنها خبر إن لم يقف والوجه الثالث: الذي لم يذكره أن يكون "مودةُ" رفعاً بالابتداء و"في الحياة الدنيا" خبره؛ فأما إضافة "مودة" إلى "بينكم" فإنه جعل "بينكم" اسماً غير ظرف والنحويون يقولون جعلـه مفعولاً على السعة. وحكى سيبويه: يا سارق الليلة أهل الدار ولا يجوز أن يضاف إليه وهو ظرف؛ لعلة ليس هذا موضع ذكرها ومن رفع "مودة" ونونها فعلى معنى ما ذكر و"بينكم" بالنصب ظرفاً ومنَ نصب "مودة" ولم ينونها جعلـها مفعولة بوقوع الاتخاذ عليها وجعل "إنما" حرفاً واحداً ولـم يجعلـها بمعنى الذي. ويجوز نصب المودة على أنه مفعول من أجلـه كما تقول: جئتك ابتغاء الخير وقصدت فلاناً مودة لـه "بينكم" بالخفض ومن نون "مودة" ونصبها فعلى ما ذكر "بينكم" بالنصب من غير إضافة قال ابن الأنباري: ومن قرأ: "مودةً بينكم" و"مودة بينكم" لم يقف على الأوثان ووقف على الحياة الدنيا. ومعنى الآية جعلتم الأوثان تتحابون عليها وعلى عبادتها في الحياة الدنيا ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ تتبرأ الأوثان من عبّادها والرؤساء من السفلة كما قال الله عز وجل: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ (الزخرف: ٦٧). ﴿ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ هو خطاب لعبدة الأوثان الرؤساء منهم والأتباع. وقيل: تدخل فيه الأوثان كقولـه تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ (الأنبياء: ٩٨).

قولـه تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فآمن له لوط﴾ لوط أول من صدق إبراهيم حين رأى النار عليه برداً وسلاماً قال ابن إسحاق: آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته وآمنت به سارة وكانت بنت عمه ﴿وقال إني مهاجر إلى

ربي﴾ قال النخعي وقتادة: الذي قال: "إني مهاجر إلى ربي" هو إبراهيم عليه السلام قال قتاده: هاجر من كوثا وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ وامرأته سارة قال الكلبي: هاجر من أرض حران إلى فلسطين وهو أول من هاجر من أرض الكفر قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة وقيل: الذي قال: "إني مهاجر إلى ربي" لوط عليه السلام ذكر البيهقي عن قتاده قال: أول من هاجر إلى الله عز وجل بأهلـه عثمان بن عفان رضي الله عنه قال قتادة: سمعت النضر بن أنس يقول سمعت أبا حمزة يعني أنس بن مالك يقول: خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهم فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد رأيت ختنك ومعه امرأته قال: "على أي حال رأيتهما" قالت: رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدّبابة وهو يسوقها فقال رسول الله ﷺ: "صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر بأهلـه بعد لوط"[1] قال البيهقي: هذا في الـهجرة الأولى وأما الـهجرة الثانية إلى الحبشة فهي فيما زعم الواقدي سنة خمس من مبعث رسول الله ﷺ ﴿إلى ربي﴾ أي إلى رضا ربي وإلى حيث أمرني ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ووهبنا لـه إسحاق﴾ أي منّ الله عليه بالأولاد فوهب لـه إسحاق ولداً ويعقوب ولد ولد وإنما وهب لـه إسحاق من بعد إسماعيل ويعقوب من إسحاق ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فلم يبعث الله نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ووحد الكتاب لأنه أراد المصدر كالنبوة والمراد التوراة والإنجيل والفرقان فهو عبارة عن الجمع. فالتوراة أنزلت على موسى من ولد إبراهيم والإنجيل على عيسى من ولده؛ والفرقان على محمد من ولده ﷺ وعليهم أجمعين. ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾ يعني اجتماع أهل الملل عليه؛ قالـه عكرمة. وروى سفيان عن حميد بن قيس قال: أمر سعيد بن جبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قولـه جل ثناؤه: "وآتيناه أجره في الدنيا" فقال عكرمة: أهل الملل كلـها تدعيه وتقول هو منا؛ فقال سعيد بن جبير: صدق وقال قتادة: هو مثل قولـه: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ (النحل: ١٢٢) أي عاقبة وعملاً صالحاً وثناء حسناً وذلك أن أهل كل دين يتولونه وقيل: "آتيناه أجره في الدنيا" أن أكثر الأنبياء من ولده ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ ليس "في الآخرة" داخلاً في الصلة وإنما هو تبيين وقد مضى في "البقرة" بيانه وكل هذا حث على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق.

قولـه تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ

---

(١) ضعيف.

رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه ﴾ قال الكسائي: المعنى وأنجينا لوطاً أو أرسلنا لوطاً قال: وهذا الوجه أحب إلي. ويجوز أن يكون المعنى واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبخاً أو محذراً ﴿أئنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ تقدم القراءة فيها. ﴿وتقطعون السبيل﴾ قيل: كانوا قطّاع الطريق؛ قاله ابن زيد وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة؛ حكاه ابن شجرة وقيل: إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال قاله وهب بن منبه أي استغنوا بالرجال عن النساء.

قلت: ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة ويستغنون عن النساء بذلك.

قوله تعالى: ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ النادي المجلس واختلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه؛ فقالت فرقة: كانوا يخذفون النساء بالحصى ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم. وروته أم هانئ عن النبي ﷺ قالت أم هانئ: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال: "كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه فذلك المنكر الذي كانوا يأتونه"[1] أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده وذكره النحاس والثعلبي والمهدوي والماوردي. وذكر الثعلبي قال معاوية قال النبي ﷺ: "إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الحصى للخذف فإذا مرَّ بهم عابر قذفوه فأيهم أصابه كان أولى به"[2] يعني يذهب به للفاحشة فذلك قوله: "وتأتون في ناديكم المنكر" وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبي بزة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم. وقال منصور عن مجاهد كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً وعن مجاهد: كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبذ الحياء في جميع أمورهم قال ابن عطية: وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد ﷺ؛ فالتناهي واجب. قال مكحول: في هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك وتطريف الأصابع بالحناء وحل الإزار وتنقيض الأصابع والعمامة التي تلف حول الرأس والتشابك ورمي الجلاهق والصفير والخذف واللوطية وعن ابن عباس قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ويشم

---

(١) ضعيف.
(٢) ضعيف.

بعضهم بعضاً ويتضارطون في مجالسهم ويخذفون ويلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات ويتناقرون بالديكة ويتناطحون بالكباش ويطرفون أصابعهم بالحناء وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ويضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسحاق فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج فقالوا: ﴿ائتنا بعذاب الله﴾ أي إن ذلك لا يكون ولا يقدر عليه وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه. وليس يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا. ثم استنصر لوط عليه السلام ربه فبعث عليهم ملائكة لعذابهم فجاءوا إبراهيم أولاً مبشرين بنصرة لوط على قومه حسبما تقدم بيانه في "هود" وغيرها. وقرأ الأعمش ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لننجينه وأهله﴾ بالتخفيف وشدد الباقون. وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: ﴿إنا منجوك وأهلك﴾ بالتخفيف وشدد الباقون وهما لغتان: أنجى ونجّى بمعنى وقد تقدم. وقرأ ابن عامر: ﴿إنا منزلون﴾ بالتشديد وهي قراءة ابن عباس الباقون بالتخفيف وقوله: ﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ قال قتادة: هي الحجارة التي أبقيت وقاله أبو العالية. وقيل: إنه يرجم بها قوم من هذه الأمة. وقال ابن عباس: هي آثار منازلهم الخربة. وقال مجاهد: هو الماء الأسود على وجه الأرض وكل ذلك باق فلا تعارض.

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدم. ﴿وارجوا اليوم الآخر﴾ وقال يونس النحوي: أي اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال. ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي لا تكفروا فإنه أصل كل فساد والعثو والعثي أشد الفساد. عَثِي يَعْثَى وعثا يعثو بمعنى واحد وقد تقدم. وقيل: "وارجوا اليوم الآخر" أي صدقوا به فإن القوم كانوا ينكرونه.

قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وعاداً وثمود ﴾ قال الكسائي: قال بعضهم هو راجع إلى أول السورة؛ أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً وثموداً. قال: وأحب إلي أن يكون معطوفاً على ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وأخذت عاداً وثموداً وزعم الزجاج: أن التقدير وأهلكنا عاداً وثموداً وقيل: المعنى واذكر عاداً إذ أرسلنا إليهم هوداً فكذبوه فأهلكناهم وثموداً أيضاً أرسلنا إليهم صالحاً فكذبوه فأهلكناهم بالصيحة كما أهلكنا عاداً بالريح العقيم. ﴿وقد تبين لكم﴾ أي تبين لكم يا معشر الكفار ﴿من مساكنهم﴾ بالحِجْر والأحقاف آيات في إهلاكهم فحذف فاعل التبين. ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي أعمالَهم الخسيسة فحسبوها رفيعة. ﴿فصدهم عن السبيل﴾ أي عن طريق الحق. ﴿وكانوا مستبصرين﴾ فيه قولان: أحدهما وكانوا مستبصرين في الضلالة قاله مجاهد. والثاني: كانوا مستبصرين قد عرفوا الحق

من الباطل بظهور البراهين وهذا القول أشبه؛ لأنه إنما يقال فلان مستبصر إذا عرف الشيء على الحقيقة قال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم. وقيل: أتوا ما أتوا وقد تبين لهم أن عاقبتهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وقارون وفرعون وهامان﴾ قال الكسائي: إن شئت كان محمولاً على عاد وكان فيه ما فيه وإن شئت كان على "فصدهم عن السبيل" وصد قارون وفرعون وهامان وقيل: أي وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿ فاستكبروا في الأرض﴾ عن الحق وعن عباد الله. ﴿ وما كانوا سابقين﴾ أي فائتين. وقيل: سابقين في الكفر بل قد سبقهم للكفر قرون كثيرة فأهلكناهم. ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه﴾ قال الكسائي: "فكلاً" منصوب بـ "أخذنا" أي أخذنا كلاً بذنبه. ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا﴾ يعني قوم لوط. والحاصب ريح يأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار وتستعمل في كل عذاب ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة﴾ يعني ثموداً وأهل مدين. ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ يعني قارون ﴿ ومنهم من أغرقنا﴾ قوم نوح وقوم فرعون. ﴿ وما كان الله ليظلمهم﴾ لأنه أنذرهم وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر.

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت﴾ قال الأخفش: "كمثل العنكبوت" وقف تام ثم قصّ قصتها فقال: ﴿ اتخذت بيتا﴾ قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن "اتخذت بيتاً" صلة للعنكبوت كأنه قال "كمثل التي اتخذت بيتاً" فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول وهو بمنزلة قوله: ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ (الجمعة: ٥) فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل. قال الفراء: هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به. ﴿ وإن أوهن البيوت﴾ أي أضعف البيوت. ﴿ لبيت العنكبوت﴾ قال الضحاك: ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت العنكبوت. ﴿ لو كانوا يعلمون﴾ "لو" متعلقة ببيت العنكبوت أي لو علموا أن عبادة

الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً وأن هذا مثلهم لما عبدوها؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف. وقال النحاة: إن تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع وهي مؤنثة وحكى الفراء تذكيرها وأنشد:

على هطّالهم منهم بيوت كأن العنكبوت قد ابتناها

ويروى:

على أهطالهم منهم بيوت

قال الجوهري: والهطال: اسم جبل. والعنكبوت الدويبة المعروفة التي تنسج نسجاً رقيقاً مهلهلاً بين الهواء. ويجمع عناكيب وعَنَاكِب وعكاب وعُكُبُ وأعكُب. وقد حكي أنه يقال عَنْكَب وعكَنْبَاة؛ قال الشاعر:

كأنما يسقط من لغامها بيت عكنباة علي زمامها

وتصغَّر فيقال عُنَيكب وقد حكي عن يزيد بن ميسرة أن العنكبوت شيطان مسخها الله تعالى. وقال عطاء الخراساني: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان جالوت يطلبه ومرة على النبي ﷺ؛ ولذلك نهى عن قتلها. ويروى عن علي ؓ أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر ومنع الخمير يورث الفقر.

قوله تعالى: ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ﴾ "ما" بمعنى الذي "ومنْ" للتبعيض ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى، والمعنى: إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه. وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب: "يدعون" بالياء وهو اختيار أبي عبيد لذكر الأمم قبلها. الباقون بالتاء على الخطاب.

قوله تعالى: ﴿ وتلك الأمثال ﴾ أي هذا المثل وغيره مما ذكر في "البقرة" و"الحج" وغيرهما ﴿نضربها﴾ نبينها ﴿للناس وما يعقلها﴾ أي يفهمها ﴿إلا العالمون﴾ أي العالمون بالله كما روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: "العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه".

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ خلق الله السماوات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل والقسط وقيل: بكلامه وقدرته وذلك هو الحق. ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي علامة ودلالة ﴿للمؤمنين﴾ المصدقين.

قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ اتل ﴾ أمر من التلاوة والدؤوب عليها وقد مضى في "طه" الوعيد فيمن أعرض عنها وفي مقدمة الكتاب الأمر بالحض عليها والكتاب يراد به القرآن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وأقم الصلاة ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وأمته وإقامة الصلاة أداؤها في أوقاتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شروطها وقد تقدم بيان ذلك في "البقرة" فلا معنى للإعادة.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ يريد إن الصلوات الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب؛ كما قال ﷺ: "أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء" قالوا: لا يبقى من درنه شيء؛ قال: "فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا" [(١)] خرّجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال فيه حديث حسن صحيح وقال ابن عمر: الصلاة هنا القرآن والمعنى: الذي يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي.

قلت: ومنه الحديث الصحيح: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين" [(٢)] يريد قراءة الفاتحة وقال حماد بن أبي سليمان وابن جريج والكلبي: العبد ما دام في صلاته لا يأتي فحشاء ولا منكراً؛ أي إن الصلاة تنهى ما دمت فيها. قال ابن عطية: وهذه عجمة وأين هذا مما رواه أنس بن مالك قال: كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي ﷺ ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبه، فذكر للنبي ﷺ فقال: "إن الصلاة ستنهاه" فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله فقال رسول الله ﷺ: "ألم أقل لكم" [(٣)] وفي الآية تأويل ثالث وهو الذي ارتضاه المحققون وقال به المشيخة الصوفية وذكره المفسرون؛ فقيل المراد بـ "أقم الصلاة" إدامتها والقيام بحدودها ثم أخبر حكماً منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة. والصلاة تشغل كل بدن المصلي فإذا دخل المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربه وادكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه صلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة. فهذا معنى هذه الأخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون.

قلت: لا سيما وإن أشعر نفسه أن هذا ربما يكون آخر عمله، وهذا أبلغ في المقصود وأتم في المراد فإن الموت ليس له سن محدود ولا زمن مخصوص ولا مرض معلوم، وهذا مما لا خلاف فيه. وروي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفر لونه فكلّم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله تعالى وحق لي هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك، فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل كصلاتنا ـ وليتها تجزي ـ فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصلاة يتمادى على بعده، وعلى هذا يخرج الحديث المروي عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والأعمش قولهم: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بُعداً" [(٤)] وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي ﷺ وذلك غير صحيح السند قال ابن عطية: سمعت أبي ﷺ يقول: فإذا قررناه. ونظر معناه فغير جائز أن يقول إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله حتى كأنها معصية وإنما يتخرج ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) أخرجه مسلم وغيره، وقد سبق.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤١٥) بلفظ قريب من طرق.

(٤) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥٨٣٤)، وراجع الضعيفة (٢).

على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله بل تتركه على حاله ومعاصيه من الفحشاء والمنكر والبعد فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البعد الذي كان سبيلـه فكأنها بعَّدته حين لم تكف بُعده عن الله. وقيل لابن مسعود: إن فلاناً كثير الصلاة فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها.

قلت: وعلى الجملة فالمعنى المقصود بالحديث: "لم تزده من الله إلا بعداً ولم يزدد بها من الله إلا مقتاً" إشارة إلى أن مرتكب الفحشاء والمنكر لا قدر لصلاته؛ لغلبة المعاصي على صاحبها وقيل: هو خبر بمعنى الأمر أي لينته المصلي عن الفحشاء والمنكر والصلاة بنفسها لا تنهى ولكنها سبب الانتهاء وهو كقولـه تعالى: ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ (الجاثية: ٢٩) وقولـه: ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ (الروم: ٣٥).

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم لـه في عبادتكم وصلواتكم. قال معناه ابن مسعود وابن عباس وأبو الدرداء وأبو قرة وسلمان والحسن؛ وهو اختيار الطبري وروي مرفوعاً من حديث موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال في قول الله عز وجل: ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال: "ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه"[١] وقيل: ذكركم الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء وقيل: المعنى؛ إن ذكر الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر. وقال الضحاك: ولذكر الله عند ما يحرم فيترك أجلّ الذكر وقيل: المعنى ولذكر الله للنهي عن الفحشاء والمنكر أكبر أي كبير وأكبر يكون بمعنى كبير وقال ابن زيد وقتادة: ولذكر الله أكبر من كل شيء أي أفضل من العبادات كلـها بغير ذكر وقيل: ذكر الله يمنع من المعصية فإن من كان ذاكراً لـه لا يخالفه قال ابن عطية: وعندي أن المعنى ولذكر الله أكبر على الإطلاق أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك وكذلك يفعل في غير الصلاة لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر الله مراقب لـه، وثواب ذلك أن يذكره الله تعالى؛ كما في الحديث "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم"[٢] والحركات التي في الصلاة لا تأثير لـها في نهي. والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذكر الله تعالى للعبد هو إفاضة الـهدى ونور العلم عليه وذلك ثمرة لذكر العبد ربه قال الله عز وجل: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ (البقرة: ١٥٢) وباقي الآية ضرب من الوعيد والحث على المراقبة.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ فيه مسألتان:

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٣/ ٤١٤، ٤١٥) وصحح وقفه.

(٢) أخرجه البخاري وقد تقدم.

الأولى : اختلف العلماء في قولـه تعالى: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب ﴾ فقال مجاهد: هي مُحكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن على معنى الدعاء لـهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة. وقولـه على هذا: "إلا الذين ظلموا منهم" معناه ظلموكم وإلا فكلـهم ظلمة على الإطلاق وقيل: المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله بن سلام ومن آمن معه. ﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ أي بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلـهم وغير ذلك وقولـه على هذا التأويل: ﴿إلا الذين ظلموا﴾ يريد به من بقي على كفره منهم كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم. والآية على هذا أيضاً محكمة. وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال قولـه تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ (التوبة: ٢٩) قال قتادة "إلا الذين ظلموا" أي جعلوا لله ولداً وقالوا: ﴿ يد الله مغلولة ﴾ (المائدة: ٦٤) و﴿ إن الله فقير ﴾ (آل عمران: ١٨١) فهؤلاء المشركون الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا الجزية فانتصروا منهم قال النحاس وغيره: من قال هي منسوخة احتج بأن الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية ولا غير ذلك. وقول مجاهد حسن لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول. واختار هذا القول ابن العربي. قال مجاهد وسعيد بن جبير: وقولـه: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالـهم بالسيف حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام؛ فقال رسول الله ﷺ : "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم" ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾[1] وروى عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق وإما أن تصدقوا بباطل"[2] وفي البخاري: عن حميد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب[3].

قولـه تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ وما كنت تتلو من قبلـه من كتاب ﴾ الضمير في "قبلـه" عائد إلى الكتاب وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ؛ أي وما كنت يا محمد تقرأ قبلـه ولا تختلف إلى أهل الكتاب؛ بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك فلو كنت ممن يقرأ كتاباً ويخط حروفاً ﴿لارتاب المبطلون﴾ أي من أهل الكتاب، وكان لـهم في ارتيابهم متعلق وقالوا الذي نجده في كتبنا أنه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٦٢).

(٢) ذكره الحافظ في "الفتح"، (١٣/ ٣٣٤) وعزاه لعبد الرزاق بسند حسن.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٦١).

أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ؛ فنزلت هذه الآية؛ قال النحاس: دليلاً على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم وزالت الريبة والشك.

الثانية: ذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: ما مات النبي ﷺ حتى كتب. وأسند أيضاً حديث أبي كبشة السلولي؛ مضمنه: أنه ﷺ قرأ صحيفة لعيينة بن حصن وأخبر بمعناها. قال ابن عطية: وهذا كله ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه.

قلت: وقع في صحيح مسلم من حديث البراء في صلح الحديبية أن النبي ﷺ قال لعليّ: "اكتب الشرط بيننا بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله" فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعناك ـ وفي رواية بايعناك ـ ولكن اكتب محمد بن عبد الله فأمر علياً أن يمحوها فقال علي: والله لا أمحاه. فقال رسول الله ﷺ: "أرني مكانها" فأراه فمحاها وكتب ابن عبدالله.[1] قال علماؤنا رضي الله عنهم: وظاهر هذا أنه ﷺ محا تلك الكلمة التي هي رسول الله ـ ﷺ ـ بيده وكتب مكانها ابن عبد الله. وقد رواه البخاري بأظهر من هذا فقال: فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب وزاد في طريق أخرى: ولا يحسن أن يكتب[2] فقال جماعة بجواز هذا الظاهر عليه وأنه كتب بيده منهم السمناني وأبوذر والباجي ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أمياً ولا معارَض بقوله: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ ولا بقوله: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب"[3] بل رأوه زيادة في معجزاته. واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلك أنه كتب من غير تعلم لكتابة ولا تعاط لأسبابها، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها ابن عبد الله لمن قرأها فكان ذلك خارقاً للعادة؛ كما أنه ﷺ عَلم علْم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب فكان ذلك أبلغ في معجزاته وأعظم في فضائله ولا يزول عنه اسم الأمي بذلك؛ ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: ولا يحسن أن يكتب فبقي عليه اسم الأمي مع كونه قال كتب. قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وقد أنكر هذا كثير من متفقهة الأندلس وغيرهم وشددوا النكير فيه ونسبوا قائله إلى الكفر وذلك دليل على عدم العلوم النظرية وعدم التوقف في تكفير المسلمين ولم يتفطنوا؛ لأن تكفير المسلم كقتله على ما جاء عنه ﷺ في الصحيح لا سيما رمي من شهد له أهل العصر بالعلم والفضل والإمامة؛ على أن المسألة ليست قطعية بل مستندها ظواهر أخبار أحاد صحيحة غير أن العقل لا يحيلها وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها.

قلت: وقال بعض المتأخرين من قال هي آية خارقة فيقال له: كانت تكون آية لا تنكر لولا أنها مناقضة لآية أخرى وهي كونه أمّياً لا يكتب؛ وبكونه أميًّا في أمة أمية قامت الحجة وأُفحم الجاحدون وانحسمت الشبهة فكيف يطلق الله تعالى يده فيكتب وتكون آية. وإنما الآية ألا يكتبَ والمعجزات

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٣).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٨).
(٣) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠).

يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً وإنما معنى كتب وأخذ القلم؛ أي أمر من يكتب به من كُتَّابه وكان من كتبة الوحي بين يديه ﷺ ستة وعشرون كاتباً.

الثالثة: ذكر القاضي عياض عن معاوية أنه كان يكتب بين يدي النبي ﷺ فقال له: "ألق الدواة وحرّف القلم وأقم الباء وفرق السين ولا تُعور الميم وحسن الله ومد الرحمن وجوّد الرحيم" قال القاضي: وهذا وإن لم تصح الرواية أنه ﷺ كتب فلا يبعد أن يرزق علم هذا ويمنع القراءة والكتابة.

قلت: هذا هو الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً وإنما أمر من يكتب وكذلك ما قرأ ولا تهجى. فإن قيل: فقد تهجى النبي ﷺ حين ذكر الدجال فقال: "مكتوب بين عينيه ك ف ر"[١] وقلتم إن المعجزة قائمة في كونه أمياً؛ قال الله تعالى: ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ﴾ الآية وقال: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" فكيف هذا؟ فالجواب ما نص عليه ﷺ في حديث حذيفة والحديث كالقرآن يفسر بعضه بعضاً ففي حديث حذيفة "يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب"[٢] فقد نص في ذلك على غير الكتاب ممن يكون أمياً وهذا من أوضح ما يكون جلياً.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ يعني القرآن. قال الحسن: وزعم الفراء في قراءة عبد الله "بل هي آيات بينات" المعنى بل آيات القران آيات بينات. قال الحسن: ومثله ﴿ هذا بصائر ﴾ (الأعراف: ٢٠٣) ولو كانت هذه لجاز نظيره: ﴿ هذا رحمة من ربي ﴾ (الكهف: ٩٨) قال الحسن: أعطيت هذه الأمة الحفظ وكان من قبلها لا يقرأون كتابهم إلا نظراً فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون. فقال كعب في صفة هذه الأمة: إنهم حكماء علماء وهم في الفقه أنبياء. ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ أي ليس هذا القرآن كما يقوله المبطلون من أنه سحر أو شعر ولكنه علامات ودلائل يعرف بها دين الله وأحكامه. وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به يحفظونه ويقرأونه ووصفهم بالعلم؛ لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين. وقال قتادة وابن عباس: "بل هو" يعني محمداً ﷺ: "آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم" من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أمياً لا يقرأ؛ ولا يكتب، ولكنهم ظلموا أنفسهم وكتموا. وهذا اختيار الطبري. ودليل هذا القول قراءة ابن مسعود وابن السميقع: "بل هذا آيات بينات" وكان ﷺ آيات لا آية واحدة؛ لأنه دل على أشياء كثيرة من أمر الدين؛ فلهذا قال: "بل هو آيات بينات" وقيل: بل هو ذو آيات بينات فحذف المضاف. ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي الكفار؛ لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به.

(١) أخرجه البخاري (٧١٣١)، ومسلم (٢٩٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٣٤).

قولـه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ﴾ هذا قول المشركين لرسول الله ﷺ ومعناه هلا أنزل عليه آية كآيات الأنبياء قيل: كما جاء صالح بالناقة وموسى بالعصا وعيسى بإحياء الموتى؛ أي ﴿قل﴾ لـهم يا محمد: ﴿إنما الآيات عند الله﴾ فهو يأتي بها كما يريد إذا شاء أرسلـها وليست عندي ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: "آية" بالتوحيد وجمع الباقون وهو اختيار أبي عبيد؛ لقولـه تعالى: "قل إنما الآيات عند الله".

قولـه تعالى: ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ هذا جواب لقولـهم "لولا أنزل عليه آيات من ربه" أي أوَ لَمْ يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثلـه أو بسورة منه فعجزوا ولو أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر ونحن لا نعرف السحر؛ والكلام مقدور لـهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة وقيل: إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال: أتي النبي ﷺ بكتف فيه كتاب فقال: "كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبي غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم"(١) فأنزل الله تعالى: ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ أخرجه أبو محمد الدارمي في مسنده وذكره أهل التفسير في كتبهم. وفي مثل هذا قال ﷺ لعمر ﷺ: "لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا اتباعي"(٢) وفي مثلـه قال ﷺ "ليس منا من لم يتغن بالقرآن"(٣) أي يستغني به عن غيره وهذا تأويل البخاري رحمه الله في الآية وإذا كان لقاء ربه بكل حرف عشر حسنات فأكثر على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب فالرغبة عنه إلى غيره ضلال وخسران وغبن ونقصان. ﴿إن في ذلك﴾ أي في القرآن ﴿لرحمة﴾ في الدنيا والآخرة وقيل: رحمة في الدنيا باستنقاذهم من الضلالة ﴿وذكرى﴾ لرحمة في الدنيا بإرشادهم به إلى الحق ﴿لقوم يؤمنون﴾.

قولـه تعالى: ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ أي قل للمكذبين لك كفى بالله شهيداً يشهد لي بالصدق فيما أدعيه من أني رسولـه وأن هذا القرآن كتابه. ﴿يعلم ما في السماوات والأرض﴾ أي لا يخفى عليه شيء. وهذا احتجاج عليهم في صحه شهادته عليهم؛ لأنهم قد أقروا بعلمه فلزمهم أن يقروا بشهادته. ﴿والذين آمنوا بالباطل﴾ قال يحيى بن سلام: بإبليس وقيل: بعبادة الأوثان والأصنام؛ قاله ابن شجرة. ﴿وكفروا بالله﴾ أي لتكذيبهم برسله وجحدهم لكتابه وقيل: بما أشركوا به من الأوثان وأضافوا إليه من الأولاد والأضداد. ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة.

---

(١) ضعيف.
(٢) صحيح.
(٣) أخرجه البخاري وغيره.

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

قوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ﴾لما أنذرهم بالعذاب قالوا لفرط الإنكار: عجل لنا هذا العذاب وقيل: إن قائل ذلك النضر بن الحارث وأبو جهل حين قالا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾(الأنفال: ٣٢) وقولهم: ﴿ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾(ص: ١٦). وقوله: ﴿ولولا أجل مسمى ﴾في نزول العذاب قال ابن عباس: يعني هو ما وعدتك ألا أعذب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة بيانه: ﴿بل الساعة موعدهم ﴾(القمر: ٤٦) وقال الضحاك: هو مدة أعمارهم في الدنيا وقيل: المراد بالأجل المسمى النفخة الأولى قاله يحيى بن سلاّم. وقيل: الوقت الذي قدره الله لهلاكهم وعذابهم؛ قاله ابن شجرة وقيل: هو القتل يوم بدر وعلى الجملة فلكل عذاب أجل لا يتقدم ولا يتأخر دليله قوله: ﴿لكل نبأ مستقر ﴾(الأنعام: ٦٧). ﴿لجاءهم العذاب ﴾يعني الذي استعجلوه. ﴿وليأتينهم بغتة ﴾أي فجأة. ﴿وهم لا يشعرون ﴾أي لا يعلمون بنزوله عليهم. ﴿يستعجلونك بالعذاب ﴾ أي يستعجلونك وقد أعدّ لهم جهنم وأنها ستحيط بهم لا محالة فما معنى الاستعجال. وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي أمية وأصحابه من المشركين حين قالوا ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾(الإسراء: ٩٢).

قوله تعالى: ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ﴾قيل: هو متصل بما هو قبله؛ أي يوم يصيبهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فإذا غشيهم العذاب أحاطت بهم جهنم وإنما قال: ﴿ومن تحت أرجلهم ﴾للمقاربة وإلا فالغشيان من فوق أعم؛ كما قال الشاعر:

علفتها تبنا وماء باردا

وقال آخر:

لقد كان قوّاد الجياد إلى العدا عليهن غاب من قنًى ودروع

﴿ويقول ذوقوا ﴾قرأ أهل المدينة والكوفة: "نقول" بالنون الباقون بالياء واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿قل كفى بالله ﴾(الإسراء: ٩٦) ويحتمل أن يكون الملك الموكل بهم يقول: "ذوقوا" والقراءتان ترجع إلى معنى أي يقول الملك بأمرنا ذوقوا.

قوله تعالى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ

ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ يا عباديَ الذين آمنوا إن أرضي واسعة﴾ هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الـهجرة ـ في قول مقاتل والكلبي ـ فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها. وقال ابن جبير وعطاء: إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية وتلزم الـهجرة عنها إلى بلد حق وقالـه مالك. وقال مجاهد: "إن أرضي واسعة" فهاجروا وجاهدوا. وقال مطرف بن الشِّخِّير: المعنى إن رحمتي واسعة وعنه أيضاً: إن رزقي لكم واسع فابتغوه في الأرض. قال سفيان الثوري: إذا كنت بأرض غالية فانتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزاً بدرهم. وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرضى الجنة الواسعة. ﴿ فاعبدون﴾ حتى أورثكموها. "فإياي فاعبدون" "إياي" منصوب بفعل مضمر أي فاعبدوا إياي فاعبدون، فاستغنى بأحد الفعلين عن الثاني والفاء في قولـه: "فإياي" بمعنى الشرط أي إن ضاق بكم موضع فإياي فاعبدوني في غيره؛ لأن أرضي واسعة.

قولـه تعالى: ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ تقدم في "آل عمران". وإنما ذكره ها هنا تحضيراً لأمر الدنيا ومخاوفها كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقَّر الله شأن الدنيا. أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا فالبدار إلى طاعة الله والـهجرة إليه وإلى ما يمتثل. ثم وعد المؤمنين العاملين بسكنى الجنة تحريضاً منه تعالى؛ وذكر الجزاء الذي ينالونه. ثم نعتهم بقولـه: ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ وقرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدري وابن أبي إسحاق وابن محيصن والأعمش وحمزة والكسائي وخلف: "يا عبادي" بإسكان الياء وفتحها الباقون "إن أرضي" فتحها ابن عامر وسكنها الباقون. وروي أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ فَرَّ بدينه من أرض إلى أرض ولو قيد شبر استوجب الجنة وكان رفيق محمد وإبراهيم"[1] عليهما السلام. ﴿ثم إلينا ترجعون﴾. وقرأ السلمي وأبو بكر عن عاصم: "يرجعون" بالياء؛ لقولـه: "كل نفس ذائقة الموت" وقرأ الباقون بالتاء؛ لقولـه: "يا عبادي الذين آمنوا" وأنشد بعضهم:

المـوت في كـل حـين ينشـد الكفـنا	ونحـن في غفلـة عمـا يـراد بـنا
لا تركـــنن إلى الدنـــيا وزهـــرتها	وإن توشـحت من أثوابها الحسنا
أيــن الأحـبة والجـيران مـا فعلـوا	أيـن الذين همو كانوا لـها سكنا
سقاهـم المــوت كأســا غير صافية	صـيرهم تحت أطباق الثرى رُهُنا

قولـه تعالى: ﴿ لنبوئنهم من الجنة غرفاً﴾ وقر أ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي: "لنثوينهم" بالثاء مكان الباء من الثوى وهو الإقامة؛ أي لنعطينهم غرفاً يثوون فيها وقرأ

---

(١) ضعيف.

رويس عن يعقوب والجحدري والسلمي: "ليبوئنهم" بالياء مكان النون الباقون "لنبوئنهم" أي لننزلنهم "غرفاً" جمع غرفة وهي العلية المشرفة. وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: "إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الغرف من فوقهم كما تتراؤون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم" قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: "بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين"[(١)]. وخرَّج الترمذي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها" فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: "هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام"[(٢)] وقد زدنا هذا المعنى بيانا في كتاب (التذكرة) والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ﴾ أسند الواحدي عن يزيد بن هارون قال: حدثنا حجاج بن المنهال عن الزهري ـ وهو عبد الرحمن بن عطاء ـ عن عطاء عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من الثمر ويأكل فقال: "يا ابن عمر مَا لَكَ لا تأكل" فقلت لا أشتهيه يا رسول الله فقال: "لكني أشتهيه وهذه صبيحة رابعة لم أذق طعاماً ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين" قال: والله ما برحنا حتى نزلت: ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾[(٣)].

قلت: وهذا ضعيف يضعفه أنه ﷺ كان يدخر لأهله قوت سنتهم. اتفق البخاري عليه ومسلم وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين. وقد روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين آذاهم المشركون "اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة" قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا. فنزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم﴾ أي ليس معها رزقها مدخراً وكذلك أنتم يرزقكم الله في دار الهجرة وهذا أشبه من القول الأول. وتقدم الكلام في "كأين" وأن هذه "أي" دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم. والتقدير عند الخليل وسيبويه كالعدد أي كشيء كثير من العدد من دابة قال مجاهد: يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئاً. الحسن: تأكل لوقتها ولا تدخر لغد وقيل: "لا تحمل رزقها" أي لا تقدر على رزقها "الله يرزقها" أينما توجهت "وإياكم" وقيل: الحمل بمعنى الحمالة وحكى النقاش: أن المراد النبي ﷺ يأكل ولا يدخر.

قلت: وليس بشيء لإطلاق لفظ الدابة وليس مستعملاً في العرف إطلاقها على الآدمي فكيف على النبي ﷺ وقد مضى هذا في "النمل" عند قوله: ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ (النمل: ٨٢) قال ابن عباس: الدواب هو كل ما دب من الحيوان فكله لا يحمل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣١).

(٢) "حسن" انظر صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٠) وقال: "هذا حديث غريب وأبو العطوف الجزري ضعيف".

رزقه ولا يدخر إلا ابن آدم والنمل والفأر. وعن بعضهم رأيت البلبل يحتكر في محضنه. ويقال للعقعق مخابئ إلا أنه ينساها ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ يسوي بين الحريص والمتوكل في رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين الحيول والعاجز حتى لا يغتر الجلد أنه مرزوق بجلده ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه وفي الصحيح عن النبي ﷺ: "لو أنكم توكّلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطاناً". ﴿وهو السميع﴾ لدعائكم وقولكم لا نجد ما ننفق بالمدينة ﴿العليم﴾ بما في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ﴾ الآية. لما عيَّر المشركون المسلمين بالفقر وقالوا لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء وكان هذا تمويهاً، وكان في الكفار فقراء أيضاً أزال الله هذه الشبهة. وكذا قول من قال إن هاجرنا لم نجد ما ننفق. أي فإذا اعترفتم بأن الله خالق هذه الأشياء فكيف تشكون في الرزق، فمن بيده تكوين الكائنات لا يعجز عن رزق العبد؛ ولهذا وصله بقوله تعالى: ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾. ﴿فأنى يؤفكون﴾ أي كيف يكفرون بتوحيدي وينقلبون عن عبادتي. ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أي لا يختلف أمر الرزق بالإيمان والكفر فالتوسيع والتقتير منه فلا تعيير بالفقر فكل شي بقضاء وقدر. ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ من أحوالكم وأموركم. قيل: عليم بما يصلحكم من إقتار أو توسيع.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء ﴾ أي من السحاب مطراً ﴿فأحيا به الأرض من بعد موتها﴾ أي جدبها وقحط أهلها ﴿ليقولن الله﴾ أي فإذا أقررتم بذلك فلم تشركون به وتنكرون الإعادة. وإذ قدر على ذلك فهو القادر على إغناء المؤمنين؛ فكرر تأكيداً ﴿قل الحمد لله﴾ أي على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته. وقيل: "الحمد لله" على إقرارهم بذلك وقيل: على إنزال الماء وإحياء الأرض. ﴿بل أكثرهم لا يعقلون﴾ أي لا يتدبرون هذه الحجج ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ أي شيء يلهى به ويلعب أي ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات قال بعضهم: الدنيا إن بقيت لك لم تبق لها. وأنشد:

تـــروح لـــنا الدنـــيا بغـــير الـــذي غدت وتحدث من بعد الأمور أمور
وتجـــري اللـــيالي باجـــتماع وفـــرقة وتطلـــع فـــيها أنجـــم وتغـــور
فمـــن ظـــن أن الدهـــر بـــاق ســـروره فـــذاك محـــال لا يـــدوم ســـرور
عفـا الله عمـن صـير الـــهم واحـــداً وأيقـــن أن الدائـــرات تـــدور

قلت: وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات وأما ما كان منها لله فهو من الآخرة وهو الذي يبقى كما قال: ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ (الرحمن: ٢٧) أي ما ابتغى به ثوابه ورضاه.

قوله تعالى: ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ أي دار الحياة الباقية التي لا تزول ولا موت فيها وزعم أبو عبيدة: أن الحيوان والحياة والحي بكسر الحاء واحد كما قال:

وقد ترى إذ الحياة حيٌّ

وغيره يقول: إن الحيّ جمع على فعول مثل عصيّ والحيوانَ يقع على كل شيء حي. وحيوان عين في الجنة وقيل: أصل حَيوان حييان فأبدلت إحداهما واواً؛ لاجتماع المثلين ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أنها كذلك.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فإذا ركبوا في الفلك ﴾ يعني السفن وخافوا الغرق ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي صادقين في نياتهم وتركوا عبادة الأصنام ودعاءها ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ أي يدعون معه غيره وما لم ينزل به سلطاناً وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم لولا الله والرئيس أو الملاح لغرقنا فيجعلون ما فعل الله لهم من النجاة قسمة بين الله وبين خلقه.

قوله تعالى: ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ قيل: هما لام كي أي لكي يكفروا ولكي يتمتعوا وقيل: "إذا هم يشركون" ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله ويتمتعوا بالدنيا وقيل: هما لام أمر معناه التهديد والوعيد أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر وتمتعوا. ودليل هذا قراءة أُبيّ "وتمتعوا". ابن الأنباري: ويقوي هذا قراءة الأعمش ونافع وحمزة: "ولْيتمتعوا" بجزم اللام النحاس: "وليتمتعوا" لام كي، ويجوز أن تكون لام أمر؛ لأن أصل لام الأمر الكسر إلا أنه أمر فيه معنى التهديد، ومن قرأ: "وليتمتعوا" بإسكان اللام لم يجعلها لام كي؛ لأن لام كي لا يجوز إسكانها وهي قراءة ابن كثير والمسيّبي وقالون عن نافع، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم، الباقون بكسر اللام وقرأ أبو العالية: "ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون" تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: هي مكة وهم قريش أمنهم الله تعالى فيها ﴿ويتخطف الناس من حولـهم﴾ قال الضحاك: يقتل بعضهم بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً. والخطف الأخذ بسرعة وقد مضى في "القصص" وغيرها فأذكرهم الله عز وجل هذه النعمة ليذعنوا لـه بالطاعة. أي جعلت لـهم حرماً آمناً أمنوا فيه من السبي والغارة والقتل، وخلصتهم في البر كما خلصتهم في البحر، فصاروا يشركون في البر ولا يشركون في البحر، فهذا تعجب من تناقض أحوالـهم. ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ قال قتادة: أفبالشرك وقال يحيى بن سلام: أفبإبليس. ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾ قال ابن عباس: أفبعافية الله. وقال ابن شجرة: أفبعطاء الله وإحسانه. وقال ابن سلام: أفبما جاء به النبي ﷺ من الـهدى. وحكى النقاش: أفبإطعامهم من جوع وأمنهم من خوف يكفرون. وهذا تعجب وإنكار خرج مخرج الاستفهام.

قولـه تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ أي لا أحد أظلم ممن جعل مع الله شريكاً وولداً وإذا فعل فاحشة قال: ﴿وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ (الأعراف: ٢٨). ﴿أو كذب بالحق لما جاءه﴾ قال يحيى بن سلام: بالقرآن. وقال السدي: بالتوحيد. وقال ابن شجرة: بمحمد ﷺ وكل قول يتناول القولين. ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ أي مستقر وهو استفهام تقرير.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا ﴾ أي جاهدوا الكفار فينا أي في طلب مرضاتنا. وقال السدي وغيره: إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال. قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته. قال الحسن بن أبي الحسن: الآية في العبّاد وقال ابن عباس وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون وقد قال ﷺ: "من عمل بما علم علمه الله ما لم يعلم" [(١)] ونزع بعض العلماء إلى قولـه: ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ (البقرة: ٢٨٢) وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا؛ قال الله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين؛ وقمع الظالمين؛ وعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول: ﴿لنهدينهم ﴾ وقال الضحاك: معنى الآية؛ والذين جاهدوا في الـهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان ثم قال: مَثَلُ السُّنَّة في الدنيا كَمَثَل الجنة في العقبى من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السُّنَّة في الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال. ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول الحكمة من طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن

(١) موضوع، أخرجه أبو نعيم (١٠/ ١٥)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٢٥٤٢).

الفضل: فيه تقديم وتأخير أي الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا ﴿لنهديهم سبلنا﴾ أي طريق الجنة؛ قاله السدي. النقاش: يوفقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخلصن نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم. ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ لام تأكيد ودخلت في "مع" على أحد وجهين: أن يكون اسماً ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء أو حرفاً فتدخل عليها؛ لأن فيها معنى الاستقرار؛ كما تقول إن زيداً لفي الدار و"مع" إذا سكنت فهي حرف لا غير وإذا فتحت جاز أن تكون اسماً وأن تكون حرفاً والأكثر أن تكون حرفاً جاء لمعنى. وتقدم معنى الإحسان والمحسنين في "البقرة" وغيرها وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة والحفظ والهداية ومع الجميع بالإحاطة والقدرة فبين المعيتين بَوْنٌ.

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿ الم*غلبت الروم* في أدنى الأرض ﴾ روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت: ﴿الم*غلبت الروم*في أدنى الأرض﴾ إلى قوله ﴿يفرح المؤمنون*بنصر الله﴾. قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس. قال: هذا حديث غريب من هذا الوجه[1]. هكذا قرأ نصر بن علي الجهضمي "غَلَبت الروم". ورواه أيضاً من حديث ابن عباس بأتم منه. قال ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿ الم*غلبت الروم*في أدنى الأرض ﴾ قال: غَلَبَت وغُلِبت، قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكانَ المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب؛ فذكروه لأبي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: "أما إنهم سيغلبون" فذكره أبو بكر لهم فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا؛ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: "ألا جعلته إلى دون" ـ أراه قال العشر ـ قال قال أبو سعيد: والبضع ما دون العشرة. قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله "الم. غلبت الروم ـ إلى قوله ـ ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله". قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر. قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب[2]. ورواه أيضاً عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت "الم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين" وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق ﷺ يصيح في نواحي مكة: "الم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين". قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان. وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع؟ ثلاث سنين أو تسع سنين؟ فسمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه؛ قال فسموا بينهم ست سنين؛ قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة

---

(١) أخرجه الترمذي في "التفسير" (٣١٩٢)، وفي سنده عطية العوفي، وهوصدوق يخطىء كثيراً.

(٢) "حسن" أخرجه الترمذي في التفسير (٣١٩٣).

ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: قال: لأن الله تعالى قال "في بضع سنين" قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب[١]. وروى القشيري وابن عطية وغيرهما: أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكر بها إلى المشركين فقال: أسركم أن غَلَبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين. فقال لـه أُبيّ بن خلف وأمية أخوه ـ وقيل أبو سفيان بن حرب ـ : يا أبا فصيل ـ يعرضون بكنيته يا أبا بكر ـ فلنتناحب ـ أي نتراهن في ذلك فراهنهم أبو بكر. قال قتادة: وذلك قبل أن يحرم القمار، وجعلوا الرهان خمس قلائص والأجل ثلاث سنين. وقيل: جعلوا الرهان ثلاث قلائص. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: "فهلا احتطت، فإن البضع ما بين الثلاث والتسع والعشر ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل" ففعل أبو بكر، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام؛ فغلبت الروم في أثناء الأجل[٢]. وقال الشعبي: فظهروا في تسع سنين. القشيري: المشهور في الروايات أن ظهور الروم كان في السابعة من غلبة فارس للروم، ولعل رواية الشعبي تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النقلة. وفي بعض الروايات: أنه جعل القلائص سبعاً إلى تسع سنين. ويقال: إنه آخر فتوح كسرى أبرويز فتح فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار؛ فأخبر رسول الله ﷺ فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين. وحكى النقاش وغيره: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما أراد الـهجرة مع النبي ﷺ تعلق به أُبيّ بن خلف وقال لـه: أعطني كفيلاً بالخطر إن غلبت؛ فكفل به ابنه عبد الرحمن، فلما أراد أُبيّ الخروج إلى أُحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلاً، ثم مات أُبيّ بمكة من جرح جرحه النبي ﷺ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية على رأس تسع سنين من مناحبتهم. وقال الشعبي: لم تمض تلك المدة حتى غلبت الروم فارس؛ وربطوا خيلـهم بالمدائن، وبنوا رومية؛ فقمر أبو بكر أُبيًّا وأخذ مال الخَطَر من ورثته، فقال لـه النبي ﷺ: "تصدقّ به" فتصدق به.

وقال المفسرون: إن سبب غلبة الروم فارس امرأة كانت في فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال، فقال لـها كسرى: أريد أن أستعمل أحد بنيك على جيش أجهزه إلى الروم؛ فقالت: هذا هرمز أروغ من ثعلب وأحذر من صقر، وهذا فَرُّخان أحدّ من سنان وأنفذ من نبل، وهذا شهر بزان أحلم من كذا، فاختر؛ قال فاختار الحليم وولاه، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على الروم. قال عكرمة وغيره: إن شهر بزان لما غلب الروم خرب ديارها حتى بلغ الخليج، فقال أخوه فرخان: لقد رأيتني جالساً على سرير كسرى؛ فكتب كسرى إلى شهر بزان أرسل إليّ برأس فرخان فلم يفعل؛ فكتب كسرى إلى فارس: إني قد استعملت عليكم فرخان وعزلت شهر بزان، وكتب إلى فرخان إذا ولي أن يقتل شهر بزان؛ فأراد فرَّخان قتل شهر بزان فأخرج لـه شهر بزان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فرخان، فقال شهر بزان لفرخان: إن كسرى كتب إلي أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعته أبداً في أمرك، أفتقتلني أنت بكتاب واحد؟ فرد الملك إلى أخيه، وكتب شهر بزان إلى قيصر ملك الروم فتعاونا على

---

(١) "حسن" أخرجه الترمذي (٣١٩٤).
(٢) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣١٩١).

كسرى، فغلبت الروم فارس ومات كسرى[1]. وجاء الخبر إلى النبي ﷺ يوم الحديبية ففرح من معه من المسلمين؛ فذلك قوله تعالى: "الم. غلبت الروم. في أدنى الأرض" يعني أرض الشام. عكرمة: بأذرعات، وهي ما بين بلاد العرب والشام. وقيل: إن قيصر كان بعث رجلاً يدعى يحنّس وبعث كسرى شهر بزان فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم. مجاهد: بالجزيرة، وهو موضع بين العراق والشام. مقاتل: بالأردن وفلسطين. و"أدنى" معناه أقرب. قال ابن عطية: فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم. فلما طرأ ذلك وغُلبت الروم سر الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم في الحرب.

وقد مضى الكلام في فواتح السور. وقرأ أبو سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قرة "غَلَبت الروم" بفتح الغين واللام. وتأويل ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعز ذلك على كفار قريش وسر بذلك المسلمون، فبشر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضاً في بضع سنين؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم. قال أبو جعفر النحاس: قراءة أكثر الناس "غلبت الروم" بضم الغين وكسر اللام. وروي عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرآ "غَلَبت الروم" وقرآ "سيُغلبون". وحكى أبو حاتم أن عصمة روى عن هارون: أن هذه قراءة أهل الشام؛ وأحمد بن حنبل يقول: إن عصمة هذا ضعيف، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه، والحديث يدل على أن القراءة "غُلبت" بضم الغين، وكان في هذا الإخبار دليل على نبوة محمد ﷺ، لأن الروم غلبتها فارس، فأخبر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، وأن المؤمنين يفرحون بذلك، لأن الروم أهل كتاب، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عز وجل به مما لم يكن علموه، وأمر أبا بكر أن يراهنهم على ذلك وأن يبالغ في الرهان، ثم حرم الرهان بعد ونسخ بتحريم القمار. قال ابن عطية: والقراءة بضم الغين أصح، وأجمع الناس على "سيغلبون" أنه بفتح الياء، يراد به الروم. ويروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضاً بضم الياء في "سيغلبون"، وفي هذه القراءة قلب للمعنى الذي تظاهرت الروايات به. قال أبو جعفر النحاس: ومن قرأ "سيُغلبون" فالمعنى عنده: وفارس من بعد غلبهم، أي من بعد أن غَلَبوا، سيُغلبون. وروي أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري حديث الترمذي، وروي أن ذلك كان يوم الحديبية، وأن الخبر وصل يوم بيعة الرضوان؛ قاله عكرمة وقتادة. قال ابن عطية: وفي كلا اليومين كان نصر من الله للمؤمنين. وقد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمّهم أن تغلب إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين، وفارس من أهل الأوثان؛ كما

---

(١) ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٣/ ٤٢٣، ٤٢٤)، وقدمه بقوله: ومن أغرب السياقات مارواه الإمام سنيد بن داود في تفسيره، حيث قال... فذكره.

تقدم بيانه في الحديث. قال النحاس: وقول آخر وهو أولى؛ أن فرحهم إنما كان لإنجاز وعد الله تعالى؛ إذ كان فيه دليل على النبوة لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين فكان فيه. قال ابن عطية: ويشبه أن يعلل ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أيسر مؤونة، ومتى غلب الأكبر كثر الخوف منه؛ فتأمل هذا المعنى، مع ما كان رسول الله ﷺ ترجّاه من ظهور دينه وشرْع الله الذي بعثه به وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بملك يستأصله ويريحهم منه. وقيل: سرورهم إنما كان بنصر رسول الله ﷺ على المشركين؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبي عليه السلام يوم بدر؛ حكاه القشيري.

قلت: ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك، فسروا بظهورهم على عدوهم وبظهور الروم أيضاً وبإنجاز وعد الله. وقرأ أبو حيوة الشامي ومحمد بن السميقع "من بعد غَلْبهم" بسكون اللام، وهما لغتان؛ مثل الظعْن والظعَن. وزعم الفراء أن الأصل "من بعد غلبتهم" فحذفت التاء كما حذفت في قوله عز وجل "وإقام الصلاة" وأصله وإقامة الصلاة. قال النحاس: "وهذا غلط لا يخيل على كثير من أهل النحو؛ لأن "إقام الصلاة" مصدر قد حذف منه لاعتلال فعله، فجعلت التاء عوضاً من المحذوف، و"غلب" ليس بمعتل ولا حذف منه شيء. وقد حكى الأصمعي: طَرَد طَرَداً، وجَلَبَ جَلَباً، وحَلَبَ حَلَباً، وغَلَبَ غَلَباً؛ فأي حذف في هذا، وهل يجوز أن يقال في أكل أكلاً وما أشبهه ـ: حذف منه؟. ﴿في بضع سنين﴾ حذفت الهاء من "بضع" فرقاً بين المذكر والمؤنث، وقد مضى الكلام فيه في "يوسف". وفتحت النون من "سنين" لأنه جمع مسلم. ومن العرب من يقول "في بضع سنينٍ" كما يقول في "غسلين". وجاز أن يجمع سنة جمع من يعقل بالواو والنون والياء والنون، لأنه قد حذف منها شيء فجعل هذا الجمع عوضاً من النقص الذي في واحده؛ لأن أصل "سنة" سنهة أو سنوة، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه؛ هذا قول البصريين. ويلزم الفراء أن يضمها لأنه يقول: الضمة دليل على الواو وقد حذف من سنة واو في أحد القولين، ولا يضمها أحد علمناه.

قوله تعالى: ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أخبر تعالى بانفراده بالقدرة وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته فقال "لله الأمر" أي إنفاذ الأحكام.

"من قبل ومن بعد" أي من قبل هذه الغلبة ومن بعدها. وقيل: من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء. و"من قبل ومن بعد" ظرفان بنيا على الضم؛ لأنهما تعرفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف فخالفا تعريف الأسماء وأشبها الحروف في التضمين فبنيا، وخصا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد في أنه إذا نكر وأضيف زال بناؤه، وكذلك هما فَضُمًّا. ويقال: "من قبلٍ ومن بعدٌ". وحكى الكسائي عن بعض بني أسد "لله الأمر من قبلٍ ومن بعدُ" الأول مخفوض منّون، والثاني مضموم بلا تنوين. وحكى الفراء "من قبلِ ومن بعدِ" مخفوضين بغير تنوين. وأنكره النحاس ورده. وقال الفراء في كتابه: في القرآن أشياء كثيرةَ، الغلطَ فيها بيّن، منها أنه زعم أنه يجوز "من قبلِ ومن بعدِ" وإنما يجوز "من قبلٍ ومن بعدٍ" على أنهما نكرتان. قال الزجاج: المعنى من متقدم ومن متأخر.

﴿ويومئذ يفرح المؤمنون*بنصر الله﴾ تقدم ذكره. ﴿ينصر من يشاء﴾ يعني من أوليائه؛ لأن نصره مختص بغلبة أوليائه لأعدائه، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصره، وإنما هو ابتلاء وقد يسمى ظفراً. ﴿وهو العزيز﴾ في نقمته ﴿الرحيم﴾ لأهل طاعته.

قوله تعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ لأن كلامه صدق. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وهم الكفار وهم أكثر. وقيل: المراد مشركو مكة. وانتصب "وعد الله" على المصدر؛ أي وعد ذلك وعداً. ثم بين تعالى مقدار ما يعلمون فقال: ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ يعني أمر معايشهم ودنياهم: متى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يغرسون وكيف يبنون؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة. وقال الضحاك: هو بنيان قصورها، وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها؛ والمعنى واحد. وقيل: هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع من سماء الدنيا؛ قاله سعيد ابن جبير. وقيل: الظاهر والباطن؛ كما قال في موضع آخر ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ (الرعد: ٣٣).

قلت: وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا، حتى لقد قال الحسن: بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي. وقال أبو العباس المبرد: قسم كسرى أيامه فقال: يصلح يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج. قال ابن خالويه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. ﴿وهم عن الآخرة﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿هم غافلون﴾ قال بعضهم:

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ... في صورة الرجل السميع المبصر

فطنٍ بكل مصيبة في ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعر

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ في أنفسهم ﴾ ظرف للتفكير وليس بمفعول، تعدى إليه ﴿يتفكروا﴾ بحرف جر؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم، إنما أمروا أن يستعملوا التفكر في خلق السموات والأرض وأنفسهم، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرها إلا بالحق. قال الزجاج: في الكلام حذف، أي فيعلموا؛ لأن في الكلام دليلا عليه. ﴿إلا بالحق﴾ قال الفراء: معناه إلا للحق؛ يعني الثواب والعقاب. وقيل: إلا لإقامة الحق. وقيل: "بالحق" بالعدل. وقيل: بالحكمة؛ والمعنى متقارب. وقيل: "بالحق" أي أنه هو الحق وللحق خلقها، وهو الدلالة على توحيده وقدرته. ﴿وأجل مسمى﴾ أي للسموات والأرض أجل ينتهيان إليه وهو يوم القيامة. وفي هذا تنبيه على الفناء، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء. وقيل: "وأجل مسمى" أي خلق ما خلق في وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه. ﴿وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ اللام

للتوكيد، والتقدير: لكافرون بلقاء ربهم، على التقديم والتأخير؛ أي لكافرون بالبعث بعد الموت. وتقول: إن زيداً في الدار لجالس. ولو قلت: إن زيداً لفي الدار لجالس جاز.

فإن قلت: إن زيداً جالس لفي الدار لم يجز؛ لأن اللام إنما يؤتى بها توكيداً لاسم إن وخبرها، وإذا جئت بهما لم يجز أن تأتي بها. وكذا إن قلت: إن زيداً لجالس لفي الدار لم يجز.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا ﴾ ببصائرهم وقلوبهم. ﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض﴾ أي قلبوها للزراعة؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حرث؛ قال الله تعالى: ﴿ تثير الأرض ﴾ (البقرة: ٧١). ﴿وعمروها أكثر مما عمروها﴾ أي وعمروها أولئك أكثر مما عمروها هؤلاء فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مدتهم. ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالمعجزات. وقيل: بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا. ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة. ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بالشرك والعصيان.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى ﴾ السوأى فعلى من السوء تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن، وقيل: يعني بها ها هنا النار؛ قاله ابن عباس. ومعنى "أساؤوا" أشركوا؛ دل عليه "أن كذبوا بآيات الله". "السوأى": اسم جهنم؛ كما أن الحسنى اسم الجنة. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو "ثم كان عاقبة الذين" بالرفع اسم كان، وذكّرت لأن تأنيثها غير حقيقي. و"السوأى" خبر كان. والباقون بالنصب على خبر كان. "السوأى" بالرفع اسم كان. ويجوز أن يكون اسمها التكذيب؛ فيكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا ويكون السوأى مصدراً لأساءوا، أو صفة لمحذوف؛ أي الخلة السوأى. وروي عن الأعمش أنه قرأ "ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءُ" برفع السوء. قال النحاس: السوء أشد الشر؛ والسوأى الفعلى منه. ﴿أن كذبوا بآيات الله﴾ أي لأن كذبوا؛ قاله الكسائي. وقيل: بأن كذبوا. وقيل بمحمد والقرآن؛ قاله الكلبي. مقاتل: بالعذاب أن ينزل بهم. الضحاك: بمعجزات محمد ﷺ ﴿وكانوا بها يستهزئون﴾.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قرأ أبو عمرو وأبو بكر "يرجعون" بالياء. الباقون بالتاء. ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي "يبلَس" بفتح اللام؛ والمعروف في اللغة: أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته، ولم يؤمل أن يكون له حجة. وقريب منه: تحير؛ كما قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسماً مكرسا قال نعم أعرفه وأبلسا

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا، وأنه أبلس لأنه انقطعت حجته. النحاس: ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف، وهو في القرآن غير منصرف. الزجاج: المبلس الساكت المنقطع في حجته، اليائس من أن يهتدي إليها. ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾ أي ما عبدوه من دون الله ﴿ شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين﴾ قالوا ليسوا بآلهة فتبرأوا منها وتبرأت منهم؛ حسبما تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ يعني المؤمنين من الكافرين؛ ثم بين كيف تفريقهم فقال: ﴿ فأما الذين آمنوا﴾ قال النحاس: سمعت الزجاج يقول: معنى "أما" دع ما كنا فيه وخذ في غيره. وكذا قال سيبويه: إن معناها مهما كنا في شيء فخذ في غير ما كنا فيه. ﴿ فهم في روضة يحبرون﴾ قال الضحاك: الروضة الجنة، والرياض الجنان. وقال أبو عبيد: الروضة ما كان في تسفّل، فإذا كانت مرتفعة فهي ترعة. وقال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في موضع مرتفع غليظ؛ كما قال الأعشى:

ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهي ترعة. وقد قيل في الترعة غير هذا. وقال القشيري: والروضة عند العرب ما ينبت حول الغدير من البقول؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه. الجوهري: والجمع روض ورياض، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها. والروض: نحو من نصف القربة ماء. وفي الحوض روضة من ماء إذا غطى أسفله. وأنشد أبو عمرو:

وروضة سقيت منها نضوتي

﴿يحبرون﴾ قال الضحاك وابن عباس: يكرمون. وقيل ينعَمون؛ وقاله مجاهد وقتادة. وقيل يسرون. السدي: يفرحون. والحبرة عند العرب: السرور والفرح؛ ذكره الماوردي. وقال الجوهري: الحبر: الحبور وهو السرور؛ ويقال: حبره يحبره (بالضم) حبراً وحبرة؛ قال تعالى: "فهم في روضة يحبرون" أي ينعمون ويكرمون ويسرون. ورجل يحبور يفعول من الحبور. النحاس: وحكى الكسائي حبرته أي أكرمته ونعمته. وسمعت علي بن سليمان يقول: هو مشتق من قولهم: على أسنانه حبرة أي أثر؛ فـ "يحبرون" يتبين عليهم أثر النعيم. والحبر مشتق من هذا. قال الشاعر:

لا تملأ الدلو وعرق فيها أما ترى حبار من يسقيها

وقيل: أصله من التحبير وهو التحسين؛ فـ "يحبرون" يحسنون. يقال: فلان حسن الحبر والسبر إذا كان جميلاً حسن الهيئة. ويقال أيضاً: فلان حسن الحبر والسبر (بالفتح)؛ وهذا كأنه مصدر قولك: حبرته حبراً إذا حسنته. والأول اسم؛ ومنه الحديث: "يخرج رجل من النار ذهب حبره وسبره" وقال يحيى بن أبي كثير "في روضة يحبرون" قال: السماع في الجنة؛ وقاله الأوزاعي، قال: إذا أخذ أهل الجنة في السماع لم تبق شجرة في الجنة إلا رددت الغناء بالتسبيح والتقديس. وقال الأوزاعي: ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل، فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم. زاد غير الأوزاعي: ولم تبق شجرة في الجنة إلا رددت، ولم يبق ستر ولا باب إلا ارتج وانفتح، ولم تبق حلقة إلا طنت بألوان طنينها، ولم تبق أجمة من أجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت في مقاصبها فزمرت تلك المقاصب بفنون الزمر، ولم تبق جارية من جوار الحور العين إلا غنت بأغانيها، والطير بألحانها، ويوحي الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم واسمعوا عبادي الذين نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصوات روحانيين فتختلط هذه الأصوات فتصير رجة واحدة، ثم يقول الله جل ذكره: يا داود قم عند ساق عرشي فمجدني؛ فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويجليها وتتضاعف اللذة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ فهم في روضة يحبرون ﴾. ذكره الترمذي الحكيم رحمه الله. وذكر الثعلبي من حديث أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ كان يذكر الناس؛ فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم؛ وفي أخريات القوم أعرابي فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ فقال: "نعم يا أعرابي، إن في الجنة لنهراً حافتاه الأبكار من كل بيضاء خمصانية يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة" فسأل رجل أبا الدرداء: بماذا يتغنين؟ فقال: بالتسبيح[1]. والخمصانية: المرهفة الأعلى، الخمصانة البطن، الضخمة الأسفل.

قلت: وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام؛ فلا تعارض بين تلك الأقوال. وأين هذا من قول الحق: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ (السجدة: ١٧) على ما يأتي. وقوله ﷺ: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"[2]. وقد روي: "إن في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا"[3]. ذكره الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ تقدم الكلام فيه. ﴿ولقاء الآخرة﴾ أي بالبعث. ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ أي مقيمون. وقيل: مجموعون. وقيل: معذبون. وقيل: نازلون؛

---

(١) موضوع، والثعلبي معروف بروايته.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٥).
(٣) لا يصح.

ومنه قولـه تعالى: ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ (البقرة: ١٨٠) أي نزل به؛ قالـه ابن شجرة، والمعنى متقارب.

قولـه تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ فسبحان الله ﴾ الآية. فيها ثلاثة أقوال: الأول: أنه خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات. قال ابن عباس: الصلوات الخمس في القرآن؛ قيل لـه: أين؟ فقال: قال الله تعالى ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وحين تصبحون﴾ صلاة الفجر "وعشياً" العصر "وحين تظهرون" الظهر؛ وقالـه الضحاك وسعيد بن جبير. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة: أن الآية تنبيه على أربع صلوات: المغرب والصبح والعصر والظهر؛ قالوا: والعشاء الآخرة هي في آية أخرى في ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ (هود: ١١٤) وفي ذكر أوقات العورة. وقال النحاس: أهل التفسير على أن هذه الآية "فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون" في الصلوات. وسمعت على بن سليمان يقول: حقيقته عندي: فسبحوا الله في الصلوات، لأن التسبيح يكون في الصلاة؛ وهو القول الثاني. والقول الثالث: فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون؛ ذكره الماوردي. وذكر القول الأول، ولفظه فيه: فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون. وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان: أحدهما: لما تضمنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود. الثاني: مأخوذ من السبحة والسبحة الصلاة؛ ومنه قول النبي ﷺ: "تكون لهم سبحة يوم القيامة" أي صلاة.

الثانية : قولـه تعالى: ﴿ ولـه الحمد في السماوات والأرض ﴾ اعتراض بين الكلام بدؤوب الحمد على نعمه وآلائه. وقيل: معنى "ولـه الحمد" أي الصلاة لـه لاختصاصها بقراءة الحمد. والأول أظهر؛ فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ودوام نعمته؛ فيكون نوعاً آخر خلاف الصلاة، والله أعلم. وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدم النهار. وفي سورة "الإسراء" بدأ بصلاة الظهر إذ هي أول صلاة صلاها جبريل بالنبي ﷺ. الماوردي: وخص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للإنسان في النهار متقلباً في أحوال توجب حمد الله تعالى عليها، وفي الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل.

الثالثة : قرأ عكرمة "حيناً تمسون وحيناً تصبحون" والمعنى: حيناً تمسون فيه وحيناً تصبحون فيه؛ فحذف "فيه" تخفيفاً، والقول فيه كالقول في: ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ (البقرة: ٤٨). ﴿وعشياً وحين تظهرون﴾ قال الجوهري: العشي والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة؛ تقول: أتيته عشية أمس وعشي أمس. وتصغير العشي: عشيان، على غير قياس مُكَبَّره؛ كأنهم صغروا عشياناً، والجمع عشيانات. وقيل أيضاً في تصغيره: عشيشيان، والجمع عشيشيات. وتصغير العشية عشيشية، والجمع عشيشيات. والعشاء (بالكسر والمد) مثل العشي. والعشاءان المغرب والعتمة. وزعم قوم أن العشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، وأنشدوا:

غـدونا غدوة سحراً بليل عشاء بعدما انتصف النهار

الماوردي: والفرق بين المساء والعشاء: أن المساء بدوّ الظلام بعد المغيب، والعشاء آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس.

قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

بين كمال قدرته؛ أي كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها، كذلك يحييكم بالبعث. وفي هذا دليل على صحة القياس؛ وقد مضى في "آل عمران" بيان ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ (آل عمران: ٢٧)

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ أي من علامات ربوبيته ووحدانيته أن خلقكم من تراب؛ أي خلق أباكم منه والفرع كالأصل، وقد مضى بيان هذا في "الأنعام". و"أن" في موضع رفع بالابتداء وكذا "أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً".

قوله تعالى: ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تتصرفون فيما هو قوام معايشكم، فلم يكن ليخلقكم عبثاً؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح. ومعنى: ﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾ "أزواجاً" أي نساء تسكنون إليها. "من أنفسكم" أي من نطف الرجال ومن جنسكم. وقيل: المراد حواء، خلقها من ضلع آدم؛ قاله قتادة. ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ قال ابن عباس ومجاهد: المودة الجماع، والرحمة الولد؛ وقاله الحسن. وقيل: المودة والرحمة عطف قلوبهم بعضهم على بعض. وقال السدي: المودة: المحبة، والرحمة: الشفقة؛ وروي معناه عن ابن عباس قال: المودة حب الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء. ويقال: إن الرجل أصله من الأرض، وفيه قوة الأرض، وفيه الفرج الذي منه بدئ خلقه فيحتاج إلى سكن، وخلقت المرأة سكناً للرجل؛ قال الله تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ الآية. وقال: ﴿ ومن

آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها﴾ فأول ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة، وذلك أن الفرج إذا تحمل فيه هيج ماء الصلب إليه، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج، وللرجال خلق البضع منهن، قال الله تعالى: ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ (الشعراء: ١٦٦) فأعلم الله عز وجل النساء أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال، فعليها بذله في كل وقت يدعوها الزوج؛ فإن منعته فهي ظالمة وفي حرج عظيم؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها"[١]. وفي لفظ آخر: "إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح"[٢]. ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض﴾ تقدم في "البقرة". وكانوا يعترفون بأن الله هو الخالق. ﴿واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ اللسان في الفم؛ وفيه اختلاف اللغات: من العربية والعجمية والتركية والرومية. واختلاف الألوان في الصور: من البياض والسواد والحمرة؛ فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه وبين الآخر. وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين؛ فلا بد من فاعل، فعلم أن الفاعل هو الله تعالى؛ فهذا من أدل دليل على المدبر البارئ. ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ أي للبر والفاجر. وقرأ حفص: "للعالِمين" بكسر اللام جمع عالم.

قوله تعالى: ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾ قيل: في هذه الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار؛ فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل وعطفه عليه، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر خاصة؛ فجعل النوم بالليل دليلاً على الموت، والتصرف بالنهار دليلاً على البعث. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ يريد سماع تفهم وتدبر. وقيل: يسمعون الحق فيتبعونه. وقيل: يسمعون الوعظ فيخافونه. وقيل: يسمعون القرآن فيصدقونه؛ والمعنى متقارب. وقيل: كان منهم من إذا تلي القرآن وهو حاضر سد أذنيه حتى لا يسمع؛ فبين الله عز وجل هذه الدلائل عليه. ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ قيل: المعنى أن يريكم، فحذف "أن" لدلالة الكلام عليه؛ قال طرفة:

ألا أيهذا اللائمي أحضرُ الوغى ... وأن أشهدَ اللذات هل أنت مخلدي

وقيل: هو على التقديم والتأخير؛ أي ويريكم البرق من آياته. وقيل: أي ومن آياته آية يريكم بها البرق؛ كما قال الشاعر:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما ... أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

وقيل: أي من آياته أنه يريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته؛ قاله الزجاج، فيكون عطف جملة على جملة. ﴿خوفاً﴾ أي للمسافر. ﴿وطمعاً﴾ للمقيم؛ قاله قتادة. الضحاك: "خوفاً" من الصواعق، "وطمعاً" في الغيث. يحيى بن سلام: "خوفاً" من البرد أن يهلك الزرع، "وطمعاً" في المطر أن يحيي

---

(١) أخرجه مسلم في "النكاح"، (١٤٣٦).
(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق بنحوه.

الزرع. ابن بحر: "خوفاً" أن يكون البرق برقاً خُلَّباً لا يمطر، "وطمعاً" أن يكون ممطراً؛ وأنشد قول الشاعر:

لا يكـن برقـك برقـاً خلّبا   إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخر:

فقـد أرد الميـاه بغـير زاد   سوى عدّي لـها برق الغمام

والبرق الخلّب: الذي لا غيث فيه كأنه خادع؛ ومنه قيل لمن يعد ولا ينجز: إنما أنت كبرق خلب. والخلب أيضاً: السحاب الذي لا مطر فيه. ويقال: برق خلب، بالإضافة.

قوله تعالى: ﴿ وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ تقدم. ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ "أن" في محل رفع كما تقدم؛ أي قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد. وقيل: بتدبيره وحكمته؛ أي يمسكها بغير عمد لمنافع الخلق. وقيل: "بأمره" بإذنه؛ والمعنى واحد. ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث؛ كما يجيب الداعي المطاع مدعوه؛ كما قال القائل:

دعـوت كليبـاً باسـمه فكأنما   دعوت برأس الطود أو هو أسرع

يريد برأس الطود: الصدى أو الحجر إذا تدهده. وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بـ "ثم" لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا؛ فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر؛ كما قال تعالى: ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (الزمر: ٦٨). "وإذا" الأولى في قوله تعالى: "إذا دعاكم" للشرط، والثانية في قوله تعالى: ﴿ إذا أنتم ﴾ للمفاجأة، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط. وأجمع القراء على فتح التاء هنا في "تخرجون". واختلفوا في التي في "الأعراف" فقرأ أهل المدينة: ﴿ ومنها تخرجون ﴾ (الأعراف: ٢٥) بضم التاء، وقرأ أهل العراق: بالفتح، وإليه يميل أبو عبيد. والمعنيان متقاربان، إلا أن أهل المدينة فرقوا بينهما لنسق الكلام، فنسق الكلام في التي في "الأعراف" بالضم أشبه؛ إذ كان الموت ليس من فعلهم، وكذا الإخراج. والفتح في سورة الروم أشبه بنسق الكلام؛ أي إذا دعاكم خرجتم أي أطعتم؛ فالفعل بهم أشبه. وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة؛ على ما تقدم ويأتي. وقرئ "تخرجون" بضم التاء وفتحها، ذكره الزمخشري ولم يزد على هذا شيئاً، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق، والله أعلم.

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ خلقاً وملكاً وعبداً. ﴿كل له قانتون﴾ روي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: ﴿كل قنوت في القرآن فهو طاعة﴾[1]. قال النحاس: مطيعون طاعة انقياد. وقيل: "قانتون" مقرّون بالعبودية، إما قالة وإما دلالة؛ قاله عكرمة وأبو مالك والسدي. وقال ابن عباس: "قانتون" مصلّون. الربيع بن أنس: "كل له قانتون"

---

(١) "ضعيف" أخرجه أحمد وابن حبان وغيرهما بلفظ: "كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو طاعة" كما في ضعيف الجامع (٤٢٢٥).

أي قائم يوم القيامة؛ كما قال: ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ (المطففين: ٦) أي للحساب. الحسن: كل لـه قائم بالشهادة أنه عبد لـه. سعيد بن جبير "قانتون" مخلصون.

قولـه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أما بدء خلقه فبعلوقه في الرحم قبل ولادته، وأما إعادته فإحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث؛ فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلاً على ما يخفى من إعادته؛ استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقولـه ﴿وهو أهون عليه﴾ وقرأ ابن مسعود وابن عمر: ﴿يُبدئ الخلق﴾ من أبدأ يبدئ؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿ إنه هو يبدئ ويعيد ﴾ (البروج: ١٣). ودليل قراءة العامة قولـه سبحانه: ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ (الأعراف: ٢٩). و"أهون" بمعنى هين؛ أي الإعادة هين عليه؛ قالـه الربيع بن خثيم والحسن. فأهون بمعنى هين؛ لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء. قال أبو عبيدة: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقولـه مردود بقولـه تعالى: ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ (النساء: ٣٠) وبقولـه: ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

والعرب تحمل أفعل على فاعل، ومنه قول الفرزدق:

إن الذي سَمَك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعز وأطول

أي دعائمه عزيزة طويلة. وقال آخر:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول

أراد: إني لوجل. وأنشد أبو عبيدة أيضاً:

إني لأمنحك الصدود وإنني ... قسما إليك مع الصدود لأميل

أراد لمائل. وأنشد أحمد بن يحيى:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أراد بواحد. وقال آخر:

لعمرك إن الزبرقان لباذل ... لمعروفه عند السنين وأفضل

أي وفاضل. ومنه قولهم: الله أكبر؛ إنما معناه الله الكبير. وروى معمر عن قتادة قال: في قراءة عبد الله بن مسعود "وهو عليه هين". وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن المعنى أن الإعادة أهون عليه ـ أي على الله ـ من البداية؛ أي أيسر، وإن كان جميعه على الله تعالى هيناً؛ وقاله ابن عباس. ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء. وقيل: الضمير في "عليه" للمخلوقين؛ أي وهو أهون عليه، أي على الخلق، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لـهم:

كونوا فيكونون؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنة ثم أطفالاً ثم غلماناً ثم شباناً ثم رجالاً أو نساء. وقالـه ابن عباس وقطرب. وقيل أهون أسهل؛ قال:

وهان على أسماء أن شطت النوى يحـن إليهـا والـه ويتـوق

أي سهل عليها، وقال الربيع بن خثيم في قولـه تعالى: "وهو أهون عليه" قال: ما شيء على الله بعزيز. عكرمة: تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية. ﴿ولـه المثل الأعلى﴾ أي ما أراده جل وعز كان. وقال الخليل: المثل الصفة؛ أي ولـه الوصف الأعلى ﴿في السموات والأرض﴾ كما قال: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ (الرعد: ٣٥) أي صفتها. وقد مضى الكلام في ذلك. وعن مجاهد: "المثل الأعلى" قول لا إلـه إلا الله؛ ومعناه: أي الذي لـه الوصف الأعلى، أي الأرفع الذي هو الوصف بالوحدانية. وكذا قال قتادة: إن المثل الأعلى شهادة أن لا إلـه إلا الله؛ ويعضده قولـه تعالى: ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ على ما نبينه آنفا إن شاء الله تعالى. وقال الزجاج: "ولـه المثل الأعلى في السموات والأرض" أي قولـه: "وهو أهون عليه" قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل؛ يريد التفسير الأول. وقال ابن عباس: أي ليس كمثلـه شيء ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ من أنفسكم ﴾ ثم قال: ﴿من شركاء﴾؛ ثم قال: ﴿مما ملكت أيمانكم﴾ فـ "من" الأولى للابتداء؛ كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم. والثانية للتبعيض، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام. والآية نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك؛ قاله سعيد بن جبير. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله للمشركين؛ والمعنى: هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في مالـه ونفسه مثلـه، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء.

الثانية: قال بعض العلماء: هذه الآية أصل في الشركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لما قال جل وعز: ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم ﴾ الآية، فيجب أن يقولوا: ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا، فيقال لـهم: فكيف يتصور أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي؛ فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعمى قلب، فإذا بطلت الشركة بين العبيد وسادتهم فيما يملكه السادة والخلق كلـهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعالـه؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن

يكون لـه شريك، إذ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل؛ والقديم الأزلي منزه عن ذلك جل وعز.

وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك.

قولـه تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك. ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي لا هادي لمن أضلـه الله تعالى. وفي هذا رد على القدرية. ﴿وما لـهم من ناصرين﴾.

قولـه تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ قال الزجاج: "فطرة" منصوب بمعنى اتبع فطرة الله. قال: لأن معنى "فأقم وجهك للدين" اتبع الدين الحنيف واتبع فطرة الله. وقال الطبري: "فطرة الله" مصدر من معنى: "فأقم وجهك" لأن معنى ذلك: فطر الله الناس ذلك فطرة. وقيل: معنى ذلك اتبعوا دين الله الذي خلق الناس لـه؛ وعلى هذا القول يكون الوقف على "حنيفاً" تاما. وعلى القولين الأولين يكون متصلاً، فلا يوقف على "حنيفاً". وسميت الفطرة ديناً لأن الناس يخلقون لـه، قال جل وعز: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦). ويقال: "عليها" بمعنى لـها؛ كقولـه تعالى: ﴿وإن أسأتم فلـها﴾ (الإسراء: ٧). والخطاب بـ "أقم وجهك" للنبي ﷺ، أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم؛ كما قال: ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ (الروم: ٤٣) وهو دين الإسلام. وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوة على الجد في أعمال الدين؛ وخص الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه. ودخل في هذا الخطاب أمته باتفاق من أهل التأويل. و"حنيفاً" معناه معتدلاً مائلاً عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة.

الثانية: في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ في رواية على هذه الملة ـ أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء" ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم؛ "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله"، في رواية: "حتى تكونوا أنتم تجدعونها" قالوا: يا رسول الله؛ أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين"[1]. لفظ مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم في "القدر" (٢٦٥٨).

الثالثة : واختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددة؛ منها الإسلام؛ قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما؛ قالوا: وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل؛ واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة، وعضدوا ذلك بحديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال للناس يوماً: «ألا أحدثكم بما حدثني الله في كتابه، أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين، وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالاً وحراماً . .»[(١)] الحديث. وبقوله ﷺ: «خمس من الفطرة. . .»[(٢)] فذكر منها قص الشارب، وهو من سنن الإسلام، وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث: أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يدركوا في الجنة؛ أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار. وقال آخرون: الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها؛ أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. قالوا: والفطرة في كلام العرب البداءة. والفاطر: المبتدئ؛ واحتجوا بما روي عن ابن عباس أنه قال: لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها؛ أي ابتدأتها. قال المروزي: كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه. قال أبو عمر في كتاب التمهيد له: ما رسمه مالك في موطئه وذكر في باب القدر فيه من الآثار ـ يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا، والله أعلم. ومما احتجوا به ما روي عن كعب القرظي في قول الله تعالى: ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ (الأعراف: ٣٠) قال: من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيَّره إلى الضلالة وإن عمل بأعمال الهدى، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه، قال: وكان من الكافرين.

قلت: قد مضى قول كعب هذا في «الأعراف» وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه، قال: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[(٣)] خرَّجه ابن ماجة في السنن. وخرَّج أبو عيسى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان»؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلا أن تخبرنا؛ فقال للذي في يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا ـ ثم قال للذي في شماله ـ هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا. . .» وذكر الحديث[(٤)]، وقال فيه: حديث حسن. وقالت فرقة: ليس

(١) أخرجه مسلم في «صفة الجنة» (٢٨٦٥).
(٢) أخرجاه في الصحيحين.
(٣) «صحيح» أخرجه ابن ماجه (٨٢).
(٤) «صحيح» أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، كما في صحيح الجامع (٨٨).

المراد بقولـه تعالى: ﴿ فطر الناس عليها ﴾ ولا قولـه ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة" العموم، وإنما المراد بالناس المؤمنون؛ إذ لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد، وقد ثبت أنه خلق أقواماً للنار؛ كما قال تعالى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ (الأعراف: ١٧٩) وأخرج الذرية من صلب آدم سوداء وبيضاء. وقال في الغلام الذي قتله الخضر: طبع يوم طبع كافراً. وروى أبو سعيد الخدري قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار؛ وفيه: وكان فيما حفظنا أن قال: "ألا إن بني آدم خلقوا طبقات شتّى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً، ومنهم حسن القضاء حسن الطلب". ذكره حماد بن زيد بن سلمة في مسند الطيالسي قال: حدثنا علي ابن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد[1]. قالوا: والعموم بمعنى الخصوص كثير في لسان العرب؛ ألا ترى إلى قولـه عز وجل: ﴿ تدمر كل شيء ﴾ (الأحقاف: ٢٥) ولم تدمر السموات والأرض. وقولـه: ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ (الأنعام: ٤٤) ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة.

وقال إسحاق بن راهويه الحنظلي: تم الكلام عند قولـه: "فأقم وجهك للدين حنيفاً" ثم قال: "فطرة الله" أي فطر الله الخلق فطرة إما بجنة أو نار، وإليه أشار النبي ﷺ في قولـه: "كل مولود يولد على الفطرة" ولـهذا قال: ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال شيخنا أبو العباس: من قال هي سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة في القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ وأما في الحديث فلا؛ لأنه قد أخبر في بقية الحديث بأنها تبدل وتغيّر. وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه؛ فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة؛ يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته. واحتجوا على أن الفطرة الخلقة، والفاطر الخالق؛ لقول الله عز وجل: ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ (فاطر: ١) يعني خالقهن، وبقولـه: ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ (يس: ٢٢) يعني خلقني، وبقولـه: ﴿ الذي فطرهن ﴾ (الأنبياء: ٥٦) يعني خلقهن. قالوا: فالفطرة الخلقة، والفاطر الخالق؛ وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار قالوا: وإنما المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنية ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا. واحتجوا بقولـه في الحديث: "كما تُنتَجُ البهيمة بهيمةُ جمعاء - يعني سالمة - هل تحسون فيها من جدعاء" يعني مقطوعة الأذن. فمثل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها؛ فيقال: هذه بحائر وهذه سوائب. يقول: فكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لـهم كفر ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة، فلما بلغوا استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم، وعصم الله أقلـهم. قالوا: ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمورهم ما انتقلوا عنه أبدا، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون. قالوا: ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفراً أو إيماناً، لأن الله أخرجهم في حال لا

---

(١) "ضعيف" لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

يفقهون معها شيئاً، قال الله تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾ (النحل: ٧٨) فمن لا يعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان، أو معرفة أو إنكار. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها. ومن الحجة أيضاً في هذا قوله تعالى: ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ (الطور: ١٦) و﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ (المدثر: ٣٨) ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء. وقال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾)(الإسراء: ١٥) ولما أجمعوا على دفع القود والقصاص والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك. والله أعلم. ويستحيل أن تكون الفطرة المذكورة الإسلام، كما قال ابن شهاب؛ لأن الإسلام والإيمان: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وهذا معدوم من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل. وأما قول الأوزاعي: سألت الزهري عن رجل عليه رقبة أيجزي عنه الصبي أن يعتقه وهو رضيع؟ قال نعم؛ لأنه ولد على الفطرة يعني الإسلام؛ فإنما أجزى عتقه عند من أجازه؛ لأن حكمه حكم أبويه. وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزي في الرقاب الواجبة إلا من صام وصلى، وليس في قوله تعالى: ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ (الأعراف: ٢٩) ولا في "أن يختم الله للعبد بما قضاه له وقدره عليه": دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمناً أو كافراً؛ لما شهدت له العقول أنه في ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيماناً ولا كفراً، والحديث الذي جاء فيه: "أن الناس خلقوا على طبقات"[1] ليس من الأحاديث التي لا مطعن فيها؛ لأنه انفرد به علي بن زيد بن جدعان، وقد كان شعبة يتكلم فيه. على أنه يحتمل قوله: "يولد مؤمناً" أي يولد ليكون مؤمناً، ويولد ليكون كافراً على سابق علم الله فيه، وليس في قوله في الحديث "خلقت هؤلاء للجنة وخلقت هؤلاء للنار"[2] أكثر من مراعاة ما يختم به لهم؛ لا أنهم في حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو ناراً، أو يعقل كفراً أو إيماناً.

قلت: وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له، ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة، وشيخنا أبو العباس. قال ابن عطية: والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به؛ فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرضهم العوارض؛ ومنه قول النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه"[3] فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة. وقال شيخنا في عبارته: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق. وقد دل على صحة هذا المعنى قوله: "كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء"[4] يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليماً من الآفات، فلو

---

(١) ضعيف، وقد سبق.
(٢) تقدم.
(٣) أخرجاه في الصحيحين.
(٤) أخرجاه في الصحيحين.

ترك على أصل تلك الخلقة لبقي كاملاً بريئاً من العيوب، لكن يتصرف فيه فيجدع أذنه ويوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل؛ وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح.

قلت: وهذا القول مع القول الأول موافق لـه في المعنى، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة: من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والبر والبحر، واختلاف الليل والنهار؛ فلما عملت أهواؤهم فيهم أتتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يميناً وشمالاً، وأنهم إن ماتوا صغاراً فهم في الجنة، أعني جميع الأطفال، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذر أقروا لـه بالربوبية وهو قولـه تعالى: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ (الأعراف: ١٧٢). ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقروا لـه بالربوبية، وأنه الله لا إلـه غيره، ثم يكتب العبد في بطن أمه شقياً أو سعيداً على الكتاب الأول؛ فمن كان في الكتاب الأول شقياً عُمِّر حتى يجري عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك، ومن كان في الكتاب الأول سعيداً عُمّر حتى يجري عليه القلم فيصير سعيداً، ومن مات صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجري عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة، ومن كان من أولاد المشركين فمات قبل أن يجري عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم ولم ينقض الميثاق، ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل، وهو يجمع بين الأحاديث، ويكون معنى قولـه ﷺ لما سئل عن أولاد المشركين فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين"[(١)] يعني لو بلغوا. ودل على هذا التأويل أيضاً حديث البخاري عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ، الحديث الطويل حديث الرؤيا، وفيه قوله ﷺ: "وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان حولـه فكل مولود يولد على الفطرة". قال فقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: "وأولاد المشركين"[(٢)]. وهذا نص يرفع الخلاف، وهو أصح شيء روي في هذا الباب، وغيره من الأحاديث فيها علل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء؛ قالـه أبو عمر بن عبد البر. وقد روي من حديث أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: "لم تكن لـهم حسنات فيجزوا بها فيكونوا من ملوك الجنة، ولم تكن لـهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار، فهم خدم لأهل الجنة"[(٣)] ذكره يحيى بن سلام في التفسير لـه. وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب التذكرة، وذكرنا في كتاب المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ما ذكره أبو عمر من ذلك، والحمد لله. وذكر إسحاق بن راهويه قال: حدثنا يحيى بن آدم قال: أخبرنا جرير بن حازم عن أبي رجاء العطاردي قال: سمعت ابن عباس يقول: لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً أو متقارباً ـ أو كلمة تشبه هاتين ـ حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقدر. قال يحيى بن آدم فذكرته لابن المبارك فقال: أيسكت الإنسان على الجهل؟ قلت:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، وفي غير موضع، ومسلم (٢٦٥٩).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

(٣) ذكره المصنف في كتابه "التذكرة"، (٢/ ٥١٥، ٥١٦) وقال "وإسناد هذا الحديث ليس بالقوي".

فتأمر بالكلام؟ قال فسكت. وقال أبو بكر الوراق: "فطرة الله التي فطر الناس عليها" هي الفقر والفاقة؛ وهذا حسن؛ فإنه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج، نعم، وفي الآخرة.

قولـه تعالى: ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي هذه الفطرة لا تبديل لـها من جهة الخالق. ولا يجيء الأمر على خلاف هذا بوجه؛ أي لا يشقى من خلقه سعيداً، ولا يسعد من خلقه شقياً. وقال مجاهد: المعنى لا تبديل لدين الله؛ وقاله قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد والنخعي، قالوا: هذا معناه في المعتقدات. وقال عكرمة: وروي عن ابن عباس وعمر بن الخطاب أن المعنى: لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فحولـها؛ فيكون معناه النهي عن خصاء الفحول من الحيوان. وقد مضى هذا في "النساء". ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي ذلك القضاء المستقيم؛ قالـه ابن عباس. وقال مقاتل: ذلك الحساب البين. وقيل: "ذلك الدين القيم" أي دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يتفكرون فيعلمون أن لـهم خالقاً معبوداً، وإلـهاً قديما سبق قضاؤه ونفذ حكمه.

قولـه تعالـى: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ منيبين إليه ﴾ اختلف في معناه، فقيل: راجعين إليه بالتوبة والإخلاص. وقال يحيى ابن سلام والفراء: مقبلين إليه. وقال عبد الرحمن بن زيد: مطيعين لـه. وقيل تائبين إليه من الذنوب؛ ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

فإن تابوا فإن بني سـليم وقومهم هوازن قد أنابوا

والمعنى واحد؛ فإن "ناب وتاب وثاب وآب" معناه الرجوع. قال الماوردي: وفي أصل الإنابة قولان: أحدهما: أن أصلـه القطع؛ ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع؛ فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله عز وجل بالطاعة. الثاني: أصلـه الرجوع؛ مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى؛ ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة. الجوهري: وأناب إلى الله أقبل وتاب. والنوبة واحدة النُّوَب، تقول: جاءت نوبتك ونيابتك، وهم يتناوبون النوبة فيما بينهم في الماء وغيره. وانتصب على الحال. قال محمد بن يزيد: لأن معنى: "أقم وجهك" فأقيموا وجوهكم منيبين. وقال الفراء: المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين. وقيل: انتصب على القطع؛ أي فأقم وجهك أنت وأمتك المنيبين إليه؛ لأن الأمر لـه، أمر لأمته؛ فحسن أن يقول منيبين إليه، وقد قال الله تعالى: ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ (الطلاق: ١). ﴿واتقوه﴾ أي خافوه وامتثلوا ما أمركم به. ﴿وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين﴾ بين أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص؛ فلذلك قال: "ولا تكونوا من المشركين" وقد مضى هذا مبيناً "في النساء والكهف" وغيرهما. ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ تأولـه أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة: أنه لأهل القبلة من أهل الأهواء والبدع. وقد مضى "في الأنعام" بيانه. وقال الربيع بن أنس: الذين فرقوا دينهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ وقالـه قتادة ومعمر. وقرأ حمزة

والكسائي: "فارقوا دينهم"، وقد قرأ ذلك علي بن أبي طالب؛ أي فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه، وهو التوحيد. ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فرقاً؛ قاله الكلبي. وقيل أدياناً؛ قاله مقاتل. ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي مسرورون معجبون، لأنهم لم يتبينوا الحق وعليهم أن يتبينوه. وقيل: كان هذا قبل أن تنزل الفرائض. وقول ثالث: أن العاصي لله عز وجل قد يكون فرحاً بمعصيته، فكذلك الشيطان وقطاع الطريق وغيرهم، والله أعلم. وزعم الفراء أنه يجوز أن يكون التمام "ولا تكونوا من المشركين" ويكون المعنى: من الذين فارقوا دينهم "وكانوا شيعاً" على الاستئناف، وأنه يجوز أن يكون متصلاً بما قبله. النحاس: وإذا كان متصلاً بما قبله فهو عند البصريين على البدل بإعادة الحرف؛ كما قال جل وعز: ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ (الأعراف: ٧٥) ولو كان بلا حرف لجاز.

قولـه تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا مس الناس ضر ﴾ أي قحط وشدة ﴿دعوا ربهم﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿منيبين إليه﴾ قال ابن عباس: مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون. ومعنى هذا الكلام التعجب، عجب نبيّه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم؛ أي إذا مس هؤلاء الكفار ضر من مرض وشدة دعوا ربهم؛ أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها. ﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمة﴾ أي عافية ونعمة. ﴿إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ أي يشركون به في العبادة.

قولـه تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ قيل: هي لام كي. وقيل: هي لام أمر فيه معنى التهديد؛ كما قال جل وعز: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (الكهف: ٢٩). ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ تهديد ووعيد. وفي مصحف عبد الله "وليتمتعوا"؛ أي مكناهم من ذلك لكي يتمتعوا، فهو إخبار عن غائب؛ مثل: "ليكفروا". وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب؛ أي تمتعوا أيها الفاعلون لـهذا.

قولـه تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ استفهام فيه معنى التوقيف. قال الضحاك: "سلطاناً" أي كتاباً؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس. وأضاف الكلام إلى الكتاب توسعاً. وزعم الفراء أن العرب تؤنث السلطان؛ تقول: قضت به عليك السلطان. فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز لأنه بمعنى الحجة؛ أي حجة تنطق بشرككم؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضاً. وقال علي بن سليمان عن أبي العباس محمد بن يزيد قال: سلطان جمع سليط؛ مثل رغيف ورغفان، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيثه على معنى الجماعة. وقد مضى في "آل عمران".

والسلطان: ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿ أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ (النمل: ٢١).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ﴾ يعني الخصب والسعة والعافية؛ قاله يحيى بن سلام. النقاش: النعمة والمطر. وقيل: الأمن والدعة؛ والمعنى متقارب. ﴿فرحوا بها﴾ أي بالرحمة. ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي بلاء وعقوبة؛ قاله مجاهد. السدي: قحط المطر. ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أي بما عملوا من المعاصي. ﴿إذا هم يقنطون﴾ أي ييأسون من الرحمة والفرج؛ قاله الجمهور. وقال الحسن: إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى في السر. قَنَطَ يَقْنُطُ، وهي قراءة العامة. وقَنَطَ يَقْنِطُ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي ويعقوب. وقرأ الأعمش: قَنِطَ يَقْنَط (الحجر: ٥٦) بالكسر فيهما؛ مثل حَسِبَ يَحْسَب. والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدة، ويبطر عند النعمة؛ كما قيل:

كَحمار الســوء إن أعلفته رمَح الناس وإن جاع نهق

وكثير ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه بهذه المثابة؛ وقد مضى في غير موضع. فأما المؤمن فيشكر ربه عند النعمة، ويرجوه عند الشدة.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أمر مَنْ وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغني. والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمته؛ لأنه قال: "ذلك خير للذين يريدون وجه الله". وأمر بإيتاء ذي القربى لقرب رحمه؛ وخير الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلة الرحم. وقد فضل رسول الله ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة: "أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك"[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٩٩).

الثانية : واختلف في هذه الآية؛ فقيل: إنها منسوخة بآية المواريث. وقيل: لا نسخ، بل للقريب حق لازم في البر على كل حال؛ وهو الصحيح. قال مجاهد وقتادة: صلة الرحم فرض من الله عز وجل، حتى قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة. وقيل: المراد بالقربى أقرباء النبي ﷺ والأول أصح؛ فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى ﴾ (الأنفال: ٤١). وقيل: إن الأمر بالإيتاء لذي القربى على جهة الندب. قال الحسن: "حقه" المواساة في اليسر، وقول ميسور في العسر. ﴿والمسكين﴾ قال ابن عباس: أي أطعم السائل الطوّاف؛ ﴿وابن السبيل﴾ الضيف؛ فجعل الضيافة فرضاً، وقد مضى جميع هذا مبسوطاً مبيناً في مواضعه والحمد لله.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه الله والتقرب إليه. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة. وقد تقدم في "البقرة" القول فيه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فيها أربع مسائل:

الأولى : لما ذكر ما يراد به وجهه ويثيب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضاً وجهه. وقرأ الجمهور: "آتيتم" بالمد بمعنى أعطيتم. وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بغير مد؛ بمعنى ما فعلتم من ربا ليربو؛ كما تقول: أتيت صواباً وأتيت خطأ. وأجمعوا على المد في قوله: "وما آتيتم من زكاة". والربا الزيادة وقد مضى في "البقرة" معناه، وهو هناك محرم وها هنا حلال. وثبت بهذا أنه قسمان: منه حلال ومنه حرام. قال عكرمة في قوله تعالى: "وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس" قال: الربا ربوان، ربا حلال وربا حرام؛ فأما الربا الحلال فهو الذي يُهْدَى، يلتمس ما هو أفضل منه. وعن الضحاك في هذه الآية: هو الربا الحلال الذي يهدى ليثاب ما هو أفضل منه، لا له ولا عليه، ليس له فيه أجر وليس عليه فيه إثم. وكذلك قال ابن عباس: "وما آتيتم من ربا" يريد هدية الرجل الشيء يرجو أن يثاب أفضل منه؛ فذلك الذي لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه، وفي هذا المعنى نزلت الآية. قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد: هذه آية نزلت في هبة الثواب. قال ابن عطية: وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره؛ فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى. وقاله القاضي أبو بكر بن العربي. وفي كتاب النسائي عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ ومعهم هدية فقال: "أهدية أم صدقة فإن كانت هدية فإنما يبتغى بها وجه رسول الله ﷺ وقضاء الحاجة، وإن كانت صدقة فإنما يبتغى بها وجه الله

عز وجل" قالوا: لا بل هدية؛ فقبلها منهم وقعد معهم يسائلهم ويسألونه[١]. وقال ابن عباس أيضاً وإبراهيم النخعي: نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والتفضل عليهم، وليزيدوا في أموالهم على وجه النفع لهم. وقال الشعبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحداً وخف له لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: كان هذا حراماً على النبي ﷺ على الخصوص؛ قال الله تعالى: ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ (المدثر: ٦) فنهى أن يعطي شيئاً فيأخذ أكثر منه عوضاً. وقيل: إنه الربا المحرم؛ فمعنى: "لا يربو عند الله" على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للمأخوذ منه. قال السدي: نزلت هذه الآية في ربا ثقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمن يهب يطلب الزيادة من أموال الناس في المكافأة. قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب ثوابها وقال: إنما أردت الثواب؛ فقال مالك: ينظر فيه؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك؛ مثل هبة الفقير للغني، وهبة الخادم لصاحبه، وهبة الرجل لأميره ومن فوقه؛ وهو أحد قولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط؛ وهو قول الشافعي الآخر. قال: والهبة للثواب باطلة لا تنفعه؛ لأنها بيع بثمن مجهول. واحتج الكوفي بأن موضوع الهبة التبرع، فلو أوجبنا فيها العوض لبطل معنى التبرع وصارت في معنى المعاوضات، والعرب قد فرقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، فجعلت لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض، والهبة بخلاف ذلك. ودليلنا ما رواه مالك في موطئه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أيما رجل وهب هبة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى منها. ونحوه عن علي رضي الله عنه قال: المواهب ثلاثة: موهبة يراد بها وجه الله، وموهبة يراد بها وجوه الناس، وموهبة يراد بها الثواب؛ فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يثب منها. وترجم البخاري رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساق حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها[٢]، وأثاب على لقحة ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائداً على القيمة. خرَّجه الترمذي.

الثالثة: ما ذكره علي رضي الله عنه وفصّله من الهبة صحيح؛ وذلك أن الواهب لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال: أحدها: أن يريد بها وجه الله تعالى ويبتغي عليها الثواب منه. والثاني: أن يريد بها وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها. والثالث: أن يريد بها الثواب من الموهوب له؛ وقد مضى الكلام فيه. وقال ﷺ: (الأعمالُ بالنيّات وإنما لكلِّ امرئ ما نَوَى)[٣]. فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وابتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضله ورحمته؛ قال الله عز وجل: ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾.

---

(١) "ضعيف" أخرجه النسائي (٦/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(١) أخرجه البخاري في "الهبة"، (٢٥٨٥).

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنياً حتى لا يكون كَلاً فالنية في ذلك متبوعة؛ فإن كان ليتظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله، وإن كان لما لـه عليه من حق القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله.

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها فلا منفعة لـه في هبته؛ لا ثواب في الدنيا ولا أجر في الآخرة؛ قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق مالـه رئاء الناس﴾ (البقرة: ٢٦٤) الآية.

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب لـه فلـه ما أراد بهبته، ولـه أن يرجع فيها ما لم يثب بقيمتها، على مذهب ابن القاسم، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها، على ظاهر قول عمر وعليّ، وهو قول مطرف في الواضحة: أن الـهبة ما كانت قائمة العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها وإن أثابه الموهوب فيها أكثر منها. وقد قيل: إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء. وقيل: تلزمه القيمة كنكاح التفويض، وأما إذا كان بعد فوت الـهبة فليس لـه إلا القيمة اتفاقاً؛ قالـه ابن العربي.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ليربو﴾ قرأ جمهور القراء السبعة: "ليربو" بالياء وإسناد الفعل إلى الربا. وقرأ نافع وحده: بضم التاء والواو ساكنة على المخاطبة؛ بمعنى تكونوا ذوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتاده والشعبي. قال أبو حاتم: هي قراءتنا. وقرأ أبو مالك: "لتربوها" بضمير مؤنث. ﴿فلا يربو عند الله﴾ أي لا يزكو ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصاً لـه؛ وقد تقدم في "النساء". ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ قال ابن عباس: أي من صدقة. ﴿تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أي ذلك الذي يقبلـه ويضاعفه لـه عشرة أضعافه أو أكثر؛ كما قال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه لـه أضعافاً كثيرة﴾ (البقرة: ٢٤٥). وقال: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالـهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة﴾ (البقرة: ٢٦٥). وقال: "فأولئك هم المضعفون" ولم يقل فأنتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة؛ مثل قولـه: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ (يونس: ٢٢). وفي معنى المضعفين قولان: أحدهما: أنه تضاعف لـهم الحسنات كما ذكرنا. والآخر: أنهم قد أضعف لـهم الخير والنعيم؛ أي هم أصحاب أضعاف، كما يقال: فلان مقو إذا كانت إبلـه قوية، أو لـه أصحاب أقوياء. ومسمن إذا كانت إبلـه سماناً. ومعطش إذا كانت إبلـه عطاشاً. ومضعف إذا كانت إبلـه ضعيفة؛ ومنه قول النبي ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من الخبيث المخبث الشيطان الرجيم)[1]. فالمخبث: الذي أصابه خبث، يقال: فلان رديء أي هو رديء؛ في نفسه. ومردئ: أصحابه أردئاء.

---

(١) "ضعيف" أخرجه بنحوه ابن ماجه (٢٩٩)، وفيه عبيد الله بن زحر، وعلي بن يزيد، والقاسم، قال ابن حبان: إذا اجتمعوا في إسناد خبر فذاك مما عملته أيديهم.

قولـه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الله الذي خلقكم ﴾ ابتداء وخبر. وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي. ثم قال على جهة الاستفهام: ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ لا يفعل. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ ثم نزَّه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلـهة والشركاء، ويجعلون لـهم من أموالـهم.

قولـه تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر؛ فقال قتادة والسدي: الفساد الشرك، وهو أعظم الفساد. وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: فساد البر قتل ابن آدم أخاه؛ قابيل قتل هابيل. وفي البحر بالملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً. وقيل: الفساد القحط وقلة النبات وذهاب البركة. ونحوه قال ابن عباس قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا. قال النحاس: وهو أحسن ما قيل في الآية. وعنه أيضاً: أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم. وقال عطية: فإذا قل المطر قل الغوص عنده، وأخفق الصيادون، وعميت دواب البحر. وقال ابن عباس: إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ. وقيل: الفساد كساد الأسعار وقلة المعاش. وقيل: الفساد المعاصي وقطع السبيل والظلم؛ أي صار هذا العمل مانعاً من الزرع والعمارات والتجارات؛ والمعنى كلـه متقارب. والبر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس؛ لا ما قالـه بعض العباد: أن البر اللسان، والبحر القلب؛ لظهور ما على اللسان وخفاء ما في القلب. وقيل: البر: الفيافي، والبحر: القرى؛ قالـه عكرمة. والعرب تسمي الأمصار البحار. وقال قتادة: البر أهل العمود، والبحر أهل القرى والريف. وقال ابن عباس: إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر؛ وقالـه مجاهد، قال: أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهي بحر. وقال معناه النحاس، قال: في معناه قولان: أحدهما: ظهر الجدب في البر؛ أي في البوادي وقراها، وفي البحر أي في مدن البحر؛ مثل: ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢). أي ظهر قلة الغيث وغلاء السعر. ﴿بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض﴾ أي عقاب بعض ﴿الذي عملوا﴾ ثم حذف. والقول الآخر: أنه ظهرت المعاصي من قطع السبيل والظلم، فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأول مجاز إلا أنه على الجواب الثاني، فيكون في الكلام حذف واختصار دل عليه ما بعده، ويكون المعنى: ظهرت المعاصي في البر والبحر فحبس الله عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليذيقهم عقاب بعض الذي عملوا. ﴿لعلـهم

يرجعون﴾ لعلهم يتوبون. وقال: "بعض الذي عملوا" لأن معظم الجزاء في الآخرة. والقراءة "ليذيقهم" بالياء. وقرأ ابن عباس بالنون، وهي قراءة السلمي وابن محيصن وقنبل ويعقوب على التعظيم؛ أي نذيقهم عقوبة بعض ما عملوا.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾ أي قل لهم يا محمد سيروا في الأرض ليعتبروا بمن قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ أي كافرين فأهلكوا.

قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ قال الزجاج: أي أقم قصدك، واجعل جهتك اتباع الدين القيم؛ يعني الإسلام. وقيل: المعنى أوضح الحق وبالغ في الإعذار، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم. ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي لا يرده الله عنهم، فإذا لم يرده لم يتهيأ لأحد دفعه. ويجوز عند غير سيبويه "لا مرد له" وذلك عند سيبويه بعيد، إلا أن يكون في الكلام عطف. والمراد يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ قال ابن عباس: معناه يتفرقون. وقال الشاعر:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

أي لن يتفرقا؛ نظيره قوله تعالى: ﴿ يومئذ يتفرقون ﴾ (الروم: ١٤) ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾. (الشورى: ٧) والأصل يتصدعون؛ ويقال: تصدع القوم إذا تفرقوا؛ ومنه اشتق الصداع، لأنه يفرق شعب الرأس.

قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ أي جزاء كفره. ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ أي يوطئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح؛ ومنه: مهد الصبي. والمهاد الفراش، وقد مهدت الفراش مهداً: بسطته ووطأته. وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها. وتمهيد العذر: بسطه وقبوله. والتمهد: التمكن. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد "فلأنفسهم يمهدون" قال: في القبر.

قوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ليجزي الذين آمنوا ﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله. وقيل يصدعون ليجزيهم الله؛ أي ليتميز الكافر من المسلم. ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ أي ومن أعلام كمال قدرته إرسال الرياح مبشرات أي بالمطر لأنها تتقدمه. وقد مضى في "الحجر" بيانه. ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ يعني الغيث والخصب. ﴿ولتجري الفلك﴾ أي في البحر عند هبوبها. وإنما زاد ﴿بأمره﴾ لأن الرياح قد تهب ولا تكون مواتية، فلا بد من إرساء السفن والاحتيال بحبسها، وربما عصفت فأغرقتها بأمره. ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ يعني الرزق بالتجارة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ هذه النعم بالتوحيد والطاعة. وقد مضى هذا كله مبيناً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات﴾ أي المعجزات والحجج النيرات ﴿فانتقمنا﴾ أي فكفروا فانتقمنا ممن كفر. ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ "حقاً" نصب على خبر كان، "ونصر" اسمها. وكان أبو بكر يقف على "حقاً" أي وكان عقابنا حقاً، ثم قال: "علينا نصر المؤمنين" ابتداء وخبر؛ أي أخبر بأنه لا يخلف الميعاد، ولا خلف في خبرنا. وروي من حديث أبي الدرداء قال سمعت النبي ﷺ يقول: "ما من مسلم يذب عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله تعالى أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ـ ثم تلا: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾"[1]. ذكره النحاس والثعلبي والزمخشري وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الله الذي يرسل الرياح﴾ قرأ ابن محيصن وابن كثير وحمزة والكسائي: "الريح" بالتوحيد. والباقون بالجمع. قال أبو عمرو: وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع، وما كان بمعنى العذاب فهو موحد. وقد مضى في "البقرة" معنى هذه الآية وفي غيرها. "كسَفاً" جمع كسفة وهي القطعة. وفي قراءة الحسن وأبي جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن عامر "كسْفاً" بإسكان السين، وهي أيضاً جمع كسفة؛ كما يقال: سدرة وسدر؛ وعلى هذه القراءة يكون المضمر الذي بعده عائداً عليه؛ أي فترى الودق أي المطر يخرج من خلال الكسف؛ لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء لا غير فالتذكير فيه حسن. ومن قرأ: "كسَفاً" فالمضمر عنده عائد على السحاب. وفي قراءة الضحاك وأبي العالية

(١) أخرجه أحمد والترمذي عن أبي الدرداء مرفوعًا بلفظ: "مَنْ رَدّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة"، وهو صحيح كما في صحيح الجامع (٦٢٦٢).

وابن عباس: "فترى الودق يخرج من خلله" ويجوز أن يكون خَلَلَ جمع خلال. ﴿فإذا أصاب به﴾ أي بالمطر. ﴿من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم. ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ أي يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس المطر عنهم. و"من قبله" تكرير عند الأخفش معناه التأكيد؛ وأكثر النحويين على هذا القول؛ قاله النحاس. وقال قطرب: إن "قبل" الأولى للإنزال والثانية للمطر؛ أي وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع، ودل على الزرع المطر إذ بسببه يكون. ودل عليه أيضاً "فرأوه مصفراً" على ما يأتي. وقيل: المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته؛ واختار هذا القول النحاس، أي من قبل رؤية السحاب "لمبلسين" أي ليائسين. وقد تقدم ذكر السحاب.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ يعني المطر؛ أي انظروا نظر استبصار واستدلال؛ أي استدلوا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزه والكسائي: "آثار" بالجمع. الباقون "بالتوحيد؛ لأنه مضاف إلى مفرد. والأثر فاعل "يحيي" ويجوز أن يكون الفاعل اسم الله عز وجل. ومن قرأ: "آثار" بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة؛ كما قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (إبراهيم: ٣٤). وقرأ الجحدري وأبو حيوة وغيرهما: "كيف تحيي الأرض" بتاء؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة؛ أي كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار. "ويحيي" أي يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء. و﴿كيف يحيي الأرض﴾ في موضع نصب على الحال على الحمل على المعنى لأن اللفظ لفظ الاستفهام والحال خبر؛ والتقدير: فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها. "إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير" استدلال بالشاهد على الغائب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً﴾ يعني الريح، والريح يجوز تذكيره. قال محمد بن يزيد: لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقي، نحو أعجبني الدار وشبهه. وقيل: فرأوا السحاب. وقال ابن عباس: الزرع، وهو الأثر؛ والمعنى: فرأوا الأثر مصفراً؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدل على يبسه، وكذا السحاب يدل على أنه لا يمطر، والريح على أنها لا تلقح "لظلوا من بعده يكفرون" أي ليظلن؛ وحسن وقوع الماضي في موضع المستقبل لما في الكلام من معنى المجازاة، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل؛ قاله الخليل وغيره.

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ﴾ أي وضحت الحجج يا محمد؛ لكنهم لإلفهم تقليد الأسلاف في الكفر ماتت عقولهم وعميت بصائرهم، فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم. وهذا رد على القدرية. ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا﴾ أي لا تسمع مواعظ الله إلا المؤمنين الذين يصغون إلى أدلة التوحيد وخلقت لهم الهداية. وقد مضى هذا في "النمل" ووقع قوله ﴿بهاد العمي﴾ هنا بغير ياء.

قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ ذكر استدلالاً آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر. ومعنى: "من ضعف" من نطفة ضعيفة. وقيل: "من ضعف" أي في حال ضعف؛ وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر. ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ يعني الشبيبة. ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة﴾ يعني الهرم. وقرأ عاصم وحمزة: بفتح الضاد فيهن، الباقون بالضم، لغتان، والضم لغة النبي ﷺ. وقرأ الجحدري: "من ضعف ثم جعل من بعد ضعف" بالفتح فيهما؛ "ضُعْفاً" بالضم خاصة. أراد أن يجمع بين اللغتين. قال الفراء: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم. الجوهري: الضَّعف والضُّعف: خلاف القوة. وقيل: الضعف بالفتح في الرأي، وبالضم في الجسد؛ ومنه الحديث في الرجل الذي كان يخدع في البيوع: "أنه يبتاع وفي عقدته ضعف"[1]. ﴿وشيبة﴾ مصدر كالشيب، والمصدر يصلح للجملة، وكذلك القول في الضعف والقوة. ﴿يخلق ما يشاء﴾ يعني من قوة وضعف. ﴿وهو العليم﴾ بتدبيره. ﴿القدير﴾ على إرادته. وأجاز النحويون الكوفيون "من ضَعَف" بفتح العين، وكذا كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانياً أو ثالثاً.

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ﴾ أي يحلف المشركون. ﴿ما لبثوا غير ساعة﴾ ليس في هذا رد لعذاب القبر؛ إذ كان قد صح عن النبي ﷺ من غير طريق أنه تعوذ منه، وأمر أن يتعوذ منه؛ فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: سمع النبي ﷺ أم حبيبة وهي تقول: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية؛ فقال لها النبي ﷺ: "لقد سألت الله لآجال مضروبة وأرزاق مقسومة ولكن سليه أن يعيذك من عذاب جهنم وعذاب القبر"[2] في أحاديث مشهورة

(١) أخرجه الترمذي وأبوداود، وأصله في الصحيحين.
(٢) أخرجه بنحوه مسلم في "القدر"، (٢٦٦٣).

خرَّجها مسلم والبخاري وغيرهما. وقد ذكرنا منها جملة في كتاب (التذكرة). وفي معنى: "ما لبثوا غير ساعة" قولان: أحدهما: أنه لا بد من خمدة قبل يوم القيامة؛ فعلى هذا قالوا: ما لبثنا غير ساعة. والقول الآخر: أنهم يعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها، كما قال الله تعالى: ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ (النازعات: ٤٦) كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، وإن كانوا قد أقسموا على غيب وعلى غير ما يدرون. قال تعالى: ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ أي كانوا يكذبون في الدنيا؛ يقال: أفك الرجل إذا صرف عن الصدق والخير. وأرض مأفوكة: ممنوعة من المطر. وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه، والقرآن يدل على غير ذلك، قال الله عز وجل: ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ أي كما صرفوا عن الحق في قسمهم أنهم ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا؛ وقال جل وعز: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾)المجادلة: ١٨) وقال: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين* انظر كيف كذبوا ﴾ (الأنعام: ٢٣ و ٢٤).

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ اختلف في الذين أوتوا العلم؛ فقيل الملائكة. وقيل الأنبياء. وقيل علماء الأمم. وقيل مؤمنو هذه الأمة. وقيل جميع المؤمنين؛ أي يقول المؤمنون للكفار رداً عليهم لقد لبثتم في قبوركم إلى يوم البعث. والفاء في قوله: ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ جواب لشرط محذوف دل عليه الكلام؛ مجازه: إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث. وحكى يعقوب عن بعض القراء وهي قراءة الحسن: "إلى يوم البعث" بالتحريك؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الحلق. وقيل: معنى "في كتاب الله" في حكم الله. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم إلى يوم البعث؛ قاله مقاتل وقتادة والسدي. القشيري: وعلى هذا "أوتوا العلم" بمعنى كتاب الله. وقيل: الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم ﴿فهذا يوم البعث﴾ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه.

قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أي لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ. وقيل: لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا. ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع؛ يقال: استعتبته فأعتبني، أي استرضيته فأرضاني، وذلك إذا كنت جانياً عليه. وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه. وسيأتي في "فصلت" بيانه. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: "فيومئذ لا ينفع" بالياء، والباقون بالتاء.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي من كل مثل يدلهم على ما يحتاجون إليه، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل. ﴿ولئن جئتهم بآية﴾ أي معجزة؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿ليقولن الذين كفروا إن أنتم﴾ يقول الكفار إن أنتم يا معشر المؤمنين. ﴿إلا مبطلون﴾ أي تتبعون الباطل والسحر ﴿كذلك﴾ أي كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ أدلة التوحيد ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي اصبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿ولا يستخفنك﴾ أي لا يستفزنك عن دينك ﴿الذين لا يوقنون﴾ قيل: هو النضر بن الحارث. والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته؛ يقال: استخف فلان فلاناً أي استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ. وهو في موضع جزم بالنهي، أكد بالنون الثقيلة فبني على الفتح كما يبنى الشيئان إذا ضم أحدهما إلى الآخر. "الذين لا يوقنون" في موضع رفع، ومن العرب من يقول: اللذون في موضع الرفع. وقد مضى في "الفاتحة".

سورة لقمان

مقدمة السورة:

وهي مكية، غير آيتين قال قتادة: أولهما ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام﴾ (لقمان: ٢٧) إلى آخر الآيتين. وقال ابن عباس: ثلاث آيات، أولهن ﴿ولو أنما في الأرض﴾ (لقمان: ٢٧). وهي أربع وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الم، تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ مضى الكلام في فواتح السور. و"تلك" في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أي هذه تلك. ويقال: "تيك آيات الكتاب الحكيم" بدلاً من تلك. والكتاب: القرآن. والحكيم: المحكم؛ أي لا خلل فيه ولا تناقض. وقيل ذو الحكمة وقيل الحاكم ﴿هدى ورحمة﴾ بالنصب على الحال؛ مثل: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ (الأعراف: ٧٣) وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي. وقرأ حمزة: "هدى ورحمةٌ" بالرفع، وهو من وجهين: أحدهما: على إضمار مبتدأ؛ لأنه أول آية. والآخر: أن يكون خبر "تلك". والمحسن: الذي يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. وقيل: هم المحسنون في الدين وهو الإسلام؛ قال الله تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ (النساء: ١٢٥) الآية. ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ في موضع الصفة، ويجوز الرفع على القطع بمعنى: هم الذين، والنصب بإضمار أعني. وقد مضى الكلام في هذه الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ "مَنْ" في موضع رفع بالابتداء. و"لهو الحديث": الغناء؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما. النحاس: وهو ممنوع بالكتاب والسنة؛ والتقدير: من يشتري ذا لهو أو ذات لهو؛ مثل: ﴿واسأل القرية﴾ (يوسف: ٨٢). أو يكون التقدير: لما كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشتراها للهو.

قلت: هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وأنتم سامدون﴾ (النجم: ٦١). قال ابن عباس: هو الغناء بالحميرية؛ اسمدي لنا؛ أي غنّي لنا. والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ (الإسراء: ٦٤) قال مجاهد: الغناء والمزامير. وقد مضى في "الإسراء" الكلام فيه. وروى الترمذي عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: "لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة

فيهن وثمنهن حرام، في مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿ومن الناس من يشتري لـهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ "[1] إلى آخر الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة، والقاسم ثقة وعليّ بن يزيد يضعّف في الحديث؛ قاله محمد بن إسماعيل. قال ابن عطية: وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد، وذكره أبو الفرج الجوزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنخعيّ.

قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذي لا إلـه إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء. روى سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري قال: سئل عبد الله بن مسعود عن قولـه تعالى: ﴿ ومن الناس من يشتري لـهو الحديث ﴾ فقال: الغناء والله الذي لا إلـه إلا هو؛ يرددها ثلاث مرات. وعن ابن عمر أنه الغناء؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب؛ وقالـه مجاهد، وزاد: إن لـهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثلـه من الباطل. وقال الحسن: لـهو الحديث المعازف والغناء. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل والباطل في النار. وقال ابن القاسم سألت مالكاً عنه فقال: قـال الله تعالى: ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ (يونس: ٣٢) أفحق هو؟! وترجم البخاري (باب كل لـهو باطل إذا شغل عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه تعالى أقامرك)، وقولـه تعالى: ﴿ ومن الناس من يشتري لـهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ﴾ فقولـه: (إذا شغل عن طاعة الله) مأخوذ من قولـه تعالى: ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾. وعن الحسن أيضاً: هو الكفر والشرك. وتأولـه قوم على الأحاديث التي يتلـهّى بها أهل الباطل واللعب. وقيل: نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم، واسفنديار؛ فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش إن محمداً قال كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد؛ حكاه الفراء والكلبي وغيرهما. وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه؛ ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وهذا القول والأول ظاهر في الشراء. وقالت طائفة: الشراء في هذه الآية مستعار، وإنما نزلت الآية في أحاديث قريش وتلـهيهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل. قال ابن عطية: فكان ترك ما يجب فعلـه وامتثال هذه المنكرات شراء لـها؛ على حد قولـه تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالـهدى ﴾ (البقرة: ١٦)؛ اشتروا الكفر بالإيمان، أي استبدلوه منه واختاروه عليه. وقال مطرف: شراء لـهو الحديث استحبابه. قتادة: ولعلـه لا ينفق فيه مالاً، ولكن سماعه شراؤه.

قلت: القول الأول أولى ما قيل به في هذا الباب؛ للحديث المرفوع فيه، وقول الصحابة والتابعين فيه. وقد زاد الثعلبي والواحدي في حديث أبي أمامة: "وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربان بأرجلـهما حتى

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣١٩٥)، وانظر ضعيف الجامع (٦١٨٩).

يكون هو الذي يسكت»[١]. وروى الترمذي وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما: صوت مزمار ورنة شيطان عند نغمة ومرح ورنة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب»[٢]. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علّي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بكسر المزامير»[٣] خرّجه أبو طالب الغيلاني. وخرّج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «بعثت بهدم المزامير والطبل»[٤]. وروى الترمذي من حديث علّي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء ـ فذكر منها: إذا اتخذت القينات والمعازف»[٥]. وفي حديث أبي هريرة: «وظهرت القيان والمعازف»[٦]. وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (من جلس إلى قينة يسمع منها صب في أذنه الآنك يوم القيامة)[٧]. وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر قال: بلغنا أن الله تعالى يقول يوم القيامة: «أين عبادي الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان أحلّوهم رياض المسك وأخبروهم أني قد أحللت عليهم رضواني»[٨]. وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثله، وزاد بعد قوله «المسك: ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٩]. وقد روي مرفوعاً هذا المعنى من حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين). فقيل: ومن الروحانيون يا رسول الله؟ قال: «قراء أهل الجنة»[١٠] خرّجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول، وقد ذكرنا في كتاب التذكرة مع نظائره: «فمن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة[١١]، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[١٢]. إلى غير ذلك. وكل ذلك صحيح المعنى على ما بيناه هناك. ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: (من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه).

ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء.

الثانية: وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به، الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل، والمجون الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن؛ فهذا النوع إذا كان في شعر يشبب فيه بذكر النساء

---

(١) موضوع.
(٢) أخرجه الترمذي في «الجنائز»، (١٠٠٥) وحسنه.
(٣) ضعيف.
(٤) ضعيف.
(٥) «ضعيف» انظر ضعيف الجامع (٦٠٨).
(٦) ضعيف.
(٧) أخرجه البخاري (٧٠٤٢).
(٨) ضعيف.
(٩) ضعيف.
(١٠) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٥٤٠٩).
(١١) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).
(١٢) أخرجه البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (٢٠٦٦).

ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرمات لا يختلف في تحريمه؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق. فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح؛ كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة، كما كان في حفر الخندق وحدو أنجشة وسلمة بن الأكوع. فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام. قال ابن العربي: فأما طبل الحرب فلا حرج فيه؛ لأنه يقيم النفوس ويرهب العدو. وفي اليراعة تردد. والدف مباح. الجوهريّ: وربما سمّوا قصبة الراعي التي يزمر بها هيرعة ويراعة. قال القشيريّ: ضرب بين يدي النبي ﷺ يوم دخل المدينة، فهمَّ أبو بكر بالزجر فقال رسول الله ﷺ: «دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح»[1] فكن يضربن ويقلن: نحن بناتٌ النجار، حبذا محمد من جار. وقد قيل: إن الطبل في النكاح كالدف، وكذلك الآلات المشهرة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رفث

الثالثة : الاشتغال بالغناء على الدوام سفه ترد به الشهادة، فإن لم يدم لم ترد. وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألت مالك بن أنس عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال: إنما يفعله عندنا الفساق. وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبريّ قال: أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال: إذا اشترى جارية ووجدها مغنية كان له ردها بالعيب؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة؛ إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأساً. وقال ابن خويز منداد: فأما مالك فيقال عنه: إنه كان عالماً بالصناعة وكان مذهبه تحريمها. وروي عنه أنه قال: تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لي أمي: أي بنيّ! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولست كذلك، فاطلب العلوم الدينية؛ فصحبت ربيعة فجعل الله في ذلك خيراً. قال أبو الطيب الطبري: وأما مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناء مع إباحته شرب النبيذ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب. وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة: إبراهيم والشعبي وحماد والثوري وغيرهم، لا اختلاف بينهم في ذلك. وكذلك لا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهية ذلك والمنع منه؛ إلا ما روي عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأساً. قال: وأما مذهب الشافعيّ فقال: الغناء مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه تردّ شهادته. وذكر أبو الفرج الجوزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاث روايات قال: وقد ذكر أصحابنا عن أبي بكر الخلال وصاحبه عبد العزيز إباحة الغناء، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزهديات؛ قال: وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد؛ ويدل عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية فاحتاج الصبي إلى بيعها فقال: تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية. فقيل له: إنها تساوي ثلاثين ألفاً؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوي عشرين ألفاً؟ فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة. قال أبو الفرج: وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغني بقصائد الزهد، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشق.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين بغير هذا اللفظ.

وهذا دليل على أن الغناء محظور؛ إذ لو لم يكن محظوراً ما جاز تفويت المال على اليتيم. وصار هذا كقول أبي طلحة للنبي ﷺ: عندي خمر لأيتام؟ فقال: "أرِقْها"[1]. فلو جاز استصلاحها لما أمر بتضييع مال اليتامى. قال الطبري: فقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه. وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري؛ وقد قال رسول الله ﷺ: (عليكم بالسواد الأعظم. ومن فارق الجماعة مات ميتة جاهلية). قال أبو الفرج: وقال القفال من أصحابنا: لا تقبل شهادة المغني والرقاص.

قلت: وإذ قد ثبت أن هذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز. وقد ادعى أبو عمر بن عبد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك. وقد مضى في الأنعام عند قوله: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ (الأنعام: ٥٩) وحسبك.

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: وأما سماع القينات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريته؛ إذ ليس شيء منها عليه حراماً لا من ظاهرها ولا من باطنها، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها. أما أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرفث، فإذا خرج ذلك إلى ما لا يحل ولا يجوز منع من أوله واجتث من أصله. وقال أبو الطيب الطبري: أما سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم فإن أصحاب الشافعي قالوا لا يجوز، سواء كانت حرة أو مملوكة. قال: وقال الشافعي: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته؛ ثم غلظ القول فيه فقال: فهي دياثة. وإنما جعل صاحبها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ قراءة العامة بضم الياء؛ أي ليضل غيره عن طريق الهدى، وإذا أضل غيره فقد ضل. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وأبو عمرو ورويس وابن أبي إسحاق (بفتح الياء) على اللازم؛ أي ليضل هو نفسه. ﴿ويتخذها هزواً﴾ قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفاً على "من يشتري" ويجوز أن يكون مستأنفاً. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: "ويتخذها" بالنصب عطفا على "ليضل". ومن الوجهين جميعاً لا يحسن الوقف على قوله: "بغير علم" والوقف على قوله: "هزوا"، والهاء في "يتخذها" كناية عن الآيات. ويجوز أن يكون كناية عن السبيل؛ لأن السبيل يؤنث ويذكر. ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ أي شديد يهينهم قال الشاعر:

ولقد جزعت إلى النصارى بعدما لقي الصليب من العذاب مهينا

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٩٨٣).

قولـه تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ﴾ يعني القرآن. ﴿ولّى﴾ أي أعرض. ﴿مستكبراً﴾ نصب على الحال. ﴿كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا﴾ ثقلاً وصمماً. وقد تقدم. ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لـهم جنات النعيم ﴾ لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين. ﴿خالدين فيها﴾ أي دائمين. ﴿وعد الله حقا﴾ أي وعدهم الله هذا وعداً حقاً لا خلف فيه. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ خلق السماوات بغير عمد ترونها ﴾ تكون "ترونها" في موضع خفض على النعت لـ "عمد" فيمكن أن يكون ثم عمد ولكن لا ترى. ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من "السماوات" ولا عمد ثم البتة. النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفاً، ولا عمد ثَمَّ؛ قالـه مكي. ويكون "بغير عمد" التمام. وقد مضى في "الرعد" الكلام في هذه الآية. ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ أي جبالاً ثوابت. ﴿أن تميد بكم﴾ في موضع نصب؛ أي كراهية أن تميد. والكوفيون يقدرونه بمعنى لئلا تميد. ﴿وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ عن ابن عباس: من كل لون حسن. وتأولـه الشعبي على الناس؛ لأنهم مخلوقون من الأرض؛ قال: من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم. وقد تأول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب، وظاهر القرآن يدل على ذلك.

قولـه تعالى: ﴿ هذا خلق الله ﴾ مبتدأ وخبر. والخلق بمعنى المخلوق؛ أي هذا الذي ذكرته مما تعاينون "خلق الله" أي مخلوق الله، أي خلقها من غير شريك. ﴿فأروني﴾ معاشر المشركين ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ يعني الأصنام. ﴿بل الظالمون﴾ أي المشركون ﴿في ضلال مبين﴾ أي خسران ظاهر. "وما" استفهام في موضع رفع بالابتداء وخبره "ذا" وذا بمعنى الذي. و"خلق" واقع على هاء محذوفة؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه؛ والجملة في موضع نصب بـ "أروني" وتضمر الـهاء مع "خلق" تعود على الذين؛ أي فأروني الأشياء التي خلقها الذين من دونه. وعلى هذا القول تقول: ماذا تعلمت، أنحو أم شعر. ويجوز أن تكون "ما" في موضع نصب بـ "أروني" و"ذا" زائد؛ وعلى هذا القول يقول: ماذا تعلمت، أنحواً أم شعراً.

قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ مفعولان. ولم ينصرف "لقمان" لأن في آخره ألفاً ونوناً زائدتين؛ فأشبه فعلان الذي أنثاه فُعْلَى فلم ينصرف في المعرفة؛ لأن ذلك ثقل ثان، وانصرف في النكرة لأن أحد الثقلين قد زال؛ قالـه النحاس. وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح، وهو آزر أبو إبراهيم؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق. وقيل: هو لقمان بن عنقاء بن سرون وكان نوبياً من أهل أيلة؛ ذكره السهيلي. قال وهب: كان ابن أخت أيوب. وقال مقاتل: ذكر أنه كان ابن خالة أيوب. الزمخشري: وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل كان من أولاد آزر، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث قطع الفتوى فقيل لـه، فقال: ألا أكتفي إذ كفيت. وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل. وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوة؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان ولياً ولم يكن نبياً. وقال بنبوته عكرمة والشعبي؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوة. والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمة الله تعالى ـ وهي الصواب في المعتقدات والفقه في الدين والعقل ـ قاضياً في بني إسرائيل، أسود مشقق الرِّجلين ذا مشافر، أي عظيم الشفتين؛ قالـه ابن عباس وغيره. وروي من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين، أحب الله تعالى فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة، وخيره في أن يجعلـه خليفة يحكم بالحق؛ فقال: رب، إن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء، وإن عزمت عليّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمني"[1]؛ ذكره ابن عطية. وزاد الثعلبي: فقالت لـه الملائكة بصوت لا يراهم: لم يا لقمان؟ قال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه المظلوم من كل مكان، إن يعن فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة. ومن يكن في الدنيا ذليلاً فذلك خير من أن يكون فيها شريفاً. ومن يختر الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه؛ فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها. ثم نودي داود بعده فقبلـها ـ يعني الخلافة ـ ولم يشترط ما اشترطه لقمان، فهوى في الخطيئة غير مرة، كل ذلك يعفو الله عنه. وكان لقمان يوازره بحكمته؛ فقال لـه داود: طوبى لك يا لقمان! أعطيت الحكمة وصرف عنك البلاء، وأعطي داود الخلافة وابتلي بالبلاء والفتنة. وقال قتادة: خيَّر الله تعالى لقمان بين النبوة والحكمة؛ فاختار الحكمة على النبوة؛ فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم فذرَّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطق بها؛ فقيل له: كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك؟ فقال: إنه لو أرسل إلي بالنبوة عزمة لرجوت فيها العون منه، ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة، فكانت الحكمة أحب إلي.

واختلف في صنعته؛ فقيل: كان خياطاً؛ قالـه سعيد بن المسيّب، وقال لرجل أسود: لا تحزن من أنك أسود، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان: بلال ومهجع مولى عمر ولقمان. وقيل: كان يحتطب كل يوم لمولاه حزمة حطب. وقال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٤٤) واستغربه وقال: "فهذا من رواية سعيد بن بشير وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه".

من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض. وقيل: كان راعياً، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال لـه: ألست عبد بني فلان؟ قال بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وأدائي الأمانة، وصدق الحديث، وترك ما لا يعنيني؛ قالـه عبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال خالد الربعي: كان نجاراً؛ فقال لـه سيده: اذبح لي شاة وأتني بأطيبها مضغتين؛ فأتاه باللسان والقلب؛ فقال لـه: ما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال لـه: ألق أخبثها مضغتين؛ فألقى اللسان والقلب؛ فقال لـه: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبثها فألقيت اللسان والقلب؟! فقال لـه: إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

قلت: هذا معناه مرفوع في غير ما حديث؛ من ذلك قولـه ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلـه وإذا فسدت فسد الجسد كلـه ألا وهي القلب)[١]. وجاء في اللسان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة؛ منها قولـه ﷺ: (من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة: ما بين لحييه ورجليه...)[٢] الحديث. وحكم لقمان كثيرة مأثورة هذا منها. وقيل لـه: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئاً.

قلت: وهذا أيضاً مرفوع معنى، قال ﷺ: (كل أمتي معافى إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه)[٣]. رواه أبو هريرة خرَّجه البخاري. وقال وهب بن منبه: قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب. وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدروع، وقد لين الله لـه الحديد كالطين فأراد أن يسأله، فأدركته الحكمة فسكت؛ فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت. فقال: الصمت حكمة، وقليل فاعلـه. فقال لـه داود: بحق ما سميت حكيماً.

قولـه تعالى: ﴿ أن اشكر لله ﴾ فيه تقديران: أحدهما أن تكون "أن" بمعنى أي مفسرة؛ أي قلنا لـه اشكر. والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها؛ كما حكى سيبويه: كتبت إليه أن قم؛ إلا أن هذا الوجه عنده بعيد. وقال الزجاج: المعنى ولقد آتينا لقمان الحكمة لأن يشكر الله تعالى. وقيل: أي بأن اشكر لله تعالى فشكر؛ فكان حكيماً بشكره لنا. والشكر لله: طاعته فيما أمر به. وقد مضى القول في حقيقته لغة ومعنى في "البقرة" وغيرها. ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه؛ لأن نفع الثواب عائد إليه. ﴿ومن كفر﴾ أي كفر النعم فلم يوحد الله ﴿فإن الله غني﴾ عن عبادة خلقه ﴿حميد﴾ عند الخلق؛ أي محمود. وقال يحيى بن سلام: "غني" عن خلقه "حميد" في فعلـه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٧٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴾ قال السهيلي: اسم ابنه ثاران؛ في قول الطبري والقتبي. وقال الكلبي: مشكم. وقيل أنعم؛ حكاه النقاش. وذكر القشيري أن ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما.

قلت: ودل على هذا قوله: ﴿لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ (الأنعام: ٨٢) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: "ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم"[1]. واختلف في قوله: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فقيل: إنه من كلام لقمان. وقيل: هو خبر من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به في تأكيد المعنى؛ ويؤيد هذا الحديث المأثور أنه لما نزلت: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ (الأنعام: ٨٢) أشفق أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فسكن إشفاقهم، وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبراً من الله تعالى؛ وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد. و"إذ" في موضع نصب بمعنى اذكر. وقال الزجاج في كتابه في القرآن: إن "إذ" في موضع نصب بـ "آتينا" والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال. النحاس: وأحسبه غلطاً؛ لأن في الكلام واواً تمنع من ذلك. وقال: ﴿يا بني﴾ بكسر الياء؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده؛ وقد مضى في "هود" القول في هذا. وقوله: "يا بني" ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنما هو على وجه الترقيق؛ كما يقال للرجل: يا أخيّ، وللصبي هو كُوَيْس.

قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فيه ثماني مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان. وقيل: إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه؛ أخبر الله به عنه؛ أي قال لقمان لابنه: لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والديك، فإن الله وصى بهما في طاعتهما مما لا يكون شركاً ومعصية لله تعالى. وقيل: أي وإذ قال لقمان لابنه؛ فقلنا للقمان فيما آتيناه من الحكمة ووصينا الإنسان بوالديه؛ أي قلنا له اشكر لله، وقلنا له ووصينا الإنسان. وقيل: وإذ قال لقمان لابنه، لا تشرك، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به ابنه؛ ذكر هذه الأقوال القشيري. والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص؛ كما تقدم في "العنكبوت" وعليه جماعة المفسرين.

---

(١) أخرجه مسلم في "الإيمان"، (١٢٤).

وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفاية، والإجابة للأم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أن هذا أقوى من الندب؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب. وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعته أمه من شهود العشاء شفقة فلا يطعها.

الثانية: لما خص تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل من أبرّ؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أبوك"[1] فجعل له الربع من المبرّة كما في هذه الآية؛ وقد مضى هذا كله في "الإسراء".

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ وهناً على وهن ﴾ أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة ثم يضعفها الحمل. وقرأ عيسى الثقفيّ: "وهنا على وهن" بفتح الهاء فيهما؛ ورويت عن أبي عمرو، وهما بمعنى واحد. قال قعنب ابن أم صاحب:

هل للعواذل من ناه فيزجرها إن العواذل فيها الأين والوهن

يقال: وهن يهن، ووهن يوهن ووهن، يهن؛ مثل ورم يرم. وانتصب "وهناً" على المصدر؛ ذكره القشيري. النحاس: على المفعول الثاني بإسقاط حرف الجر؛ أي حملته بضعف على ضعف. وقرأ الجمهور: "وفصاله" وقرأ الحسن ويعقوب: "وفصله" وهما لغتان، أي وفصاله في انقضاء عامين؛ والمقصود من الفصال الفطام، فعبّر بغايته ونهايته. ويقال: انفصل عن كذا أي تميّز؛ وبه سمي الفصيل.

الرابعة: الناس مجمعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحدّدت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص. وقالت فرقة: العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع. وقالت فرقة: إن فطم الصبي قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرّم؛ وقد مضى هذا في "البقرة" مستوفى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ أن اشكر لي ﴾ "أن" في موضع نصب في قول الزجاج، وأن المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه أن اشكر لي. النحاس: وأجود منه أن تكون "أن" مفسرة، والمعنى: قلنا له أن اشكر لي ولوالديك. قيل: الشكر لله على نعمة الإيمان، وللوالدين على نعمة التربية. وقال سفيان ابن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ قد بينا أن هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لما أسلم، وأن أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية حلفت ألا تأكل؛ كما تقدم في الآية قبلها.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

السابعة : قولـه تعالى: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ نعت لمصدر محذوف؛ أي مصاحباً معروفاً؛ يقال صاحبته مصاحبة ومصاحباً. و"معروفاً" أي ما يحسن.

والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق. وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبّي عليه الصلاة والسلام وقد قدمت عليه خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأصلـها؟ قال: "نعم"[1]. وراغبة قيل معناه: عن الإسلام. قال ابن عطية: والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها. ووالدة أسماء هي قتيلة بنت عبد العزّى بن عبد أسد. وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام.

الثامنة : قولـه تعالى: ﴿ واتبع سبيل من أناب إلي ﴾ وصية لجميع العالم؛ كأن المأمور الإنسان. و"أناب" معناه مال ورجع إلى الشيء؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين. وحكى النقاش أن المأمور سعد، والذي أناب أبو بكر؛ وقال: إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزبير فقالوا: آمنت! قال نعم؛ فنزلت فيه: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ (الزمر: ٩) فلما سمعها الستة آمنوا؛ فأنـزل الله تعالى فيهم: ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لـهم البشرى ﴾ إلى قولـه ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ (الزمر: ١٧ ـ ١٨). قيل: الذي أناب النبي ﷺ. وقال ابن عباس: ولما أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعويمر؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عتبة. ثم توعد عز وجل ببعث من في القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها.

قولـه تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

المعنى: وقال لقمان لابنه يا بنيّ. وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى. وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه، لأن الخردلة يقال: إن الحسّ لا يدرك لـها ثقلاً، إذ لا ترجح ميزاناً. أي لو كان للإنسان رزق مثقال حّبة خردل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه؛ أي لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض، وعن اتباع سبيل من أناب إليّ.

قلت: ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود: "لا تكثر همك ما يقدّر يكون وما ترزق يأتيك"[2]. وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً؛ سبحانه لا شريك لـه. وروي أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة التي تقع في سُفل البحر أيعلمها الله؟ فراجعه لقمان بهذه الآية. وقيل: المعنى أنه أراد الأعمال، المعاصي والطاعات؛ أي إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقال حبة يأت بها الله؛ أي لا تفوت الإنسان المقدر وقوعها منه. وبهذا المعنى يتحصل في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٩)، ومسلم (١٠٠٣).

(٢) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٦٢٦٤).

الموعظة ترجية وتخويف مضاف ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى. وفي القول الأول ليس فيه ترجية ولا تخويف.

قولـه تعالى: ﴿مثقال حبة﴾ عبارة تصلح للجواهر، أي قدر حبة، وتصلح للأعمال؛ أي ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة. ومما يؤيد قول من قال هي من الجواهر: قراءة عبد الكريم الجزري "فتكِنّ" بكسر الكاف وشد النون، من الكنّ الذي هو الشيء المغطى. وقرأ جمهور القرّاء: "إن تك" بالتاء من فوق "مثقال" بالنصب على خبر كان، واسمها مضمر تقديره: مسألتك، على ما روي، أو المعصية والطاعة على القول الثاني؛ ويدل على صحته قول ابن لقمان لأبيه: يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها الله؟ فقال لقمان لـه: "يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة" الآية. فما زال ابنه يضطرب حتى مات؛ قالـه مقاتل. والضمير في "إنها" ضمير القصة؛ كقولك: إنها هند قائمة؛ أي القصة إنها إن تك مثقال حبة. والبصريون يجيزون: إنها زيد ضربته؛ بمعنى إن القصة. والكوفيون لا يجيزون هذا إلا في المؤنث كما ذكرنا. وقرأ نافع: "مثقالُ" بالرفع، وعلى هذا "تك" يرجع إلى معنى خردلة؛ أي إن تك حبة من خردل. وقيل: أسند إلى المثقال فعلاً فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه؛ لأن مثقال الحبة من الخردل إما سيئة أو حسنة؛ كما قال: ﴿فلـه عشر أمثالـها﴾ (الأنعام: ١٦٠) فأنث وإن كان المثل مذكراً؛ لأنه أراد الحسنات. ومن هذا قول الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت   أعـاليها مـر الريـاح النواســم

و"تك" ها هنا بمعنى تقع فلا تقتضي خبراً.

قولـه تعالى: ﴿فتكن في صخرة﴾ قيل: معنى الكلام المبالغة والانتهاء في التفهيم؛ أي أن قدرته تعالى تنال ما يكون في تضاعيف صخرة وما يكون في السماء والأرض. وقال ابن عباس: الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض. وقيل: هي الصخرة على ظهر الحوت. وقال السّدي: هي صخرة ليست في السموات والأرض، بل هي وراء سبع أرضين عليها ملك قائم؛ لأنه قال: ﴿أو في السموات أو في الأرض﴾ وفيهما غنية عن قولـه: "فتكن في صخرة"؛ وهذا الذي قالـه ممكن، ويمكن أن يقال: قولـه: "فتكن في صخرة" تأكيد؛ كقولـه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق *خلق الإنسان من علق﴾ (العلق: ٢)، وقوله: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ (الإسراء: ١).

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿يا بني أقم الصلاة﴾ وصّى ابنه بعظم الطاعات وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل ذلك هو في نفسه ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع. ولقد أحسن من قال:

وابدأ بنفسك فانهها عن غَيها   فإذا انتـهت عنه فأنت حكيم

في أبيات تقدم في "البقرة" ذكرها.

الثانية : قوله تعالى: ﴿واصبر على ما أصابك﴾ يقتضي حضاً على تغيير المنكر وإن نالك ضرر؛ فهو إشعار بأن المغير يؤذي أحياناً؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوة في ذات الله؛ وأما على اللزوم فلا، وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في "آل عمران والمائدة" . وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمراض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل؛ وهذا قول حسن لأنه يعّم.

الثالثة : قوله تعالى: ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ قال ابن عباس: من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره. وقيل: إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور؛ أي مما عزمه الله وأمر به؛ قاله ابن جريج. ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة. وقول ابن جريج أصوب.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ فيه ثلاثة مسائل:

الأولى : قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وابن محيصن: "تصاعر" بالألف بعد الصاد. وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد: "تُصَعِّر" وقرأ الجحدري: "تُصْعِر" بسكون الصاد؛ والمعنى متقارب. والصعر: الميل؛ ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدهر صعري، بعد أن أقمت صعره. ومنه قول عمرو بن حنّي التغلبي:

وكنا إذا الجبار صعّر خده أقمنا له من ميله فتقوم

وأنشده الطبري: "فتقوما" . قال ابن عطية: وهو خطأ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة. وفي بيت آخر:

أقمنا له من خدّه المتصعر

قال الهروي: "ولا تصاعر" أي لا تعرض عنهم تكبراً عليهم؛ يقال: أصاب البعير صعر وصيد إذ أصابه داء يلوي منه عنقه. ثم يقال للمتكبر: فيه صعر وصيد؛ فمعنى: "لا تصعر" أي لا تلزم خدّك الصعر. وفي الحديث: "يأتي على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر" والأصعر: المعرض بوجهه كبراً؛ وأراد رذالة الناس الذين لا دين لهم. وفي الحديث: "كل صعار ملعون" أي كل ذي أبهة وكبر.

الثانية : معنى الآية: ولا تمل خدّك للناس كبرًا عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم. وهذا تأويل ابن عباس وجماعة. وقيل: هو أن تلوي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره؛ فالمعنى: أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً، وإذا حدثك أصغرهم فأصغ إليه حتى يكمل حديثه. وكذلك كان النبي ﷺ يفعل.

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث"[1] . فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه. وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

أعرضت عنه ووليته دبرك؛ وكذلك يصنع هو بك. ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسره ويسرك؛ فمعنى التدابر موجود فيمن صعر خده، وبه فسر مجاهد الآية. وقال ابن خويز منداد: قوله: "ولا تصاعر خدّك للناس" كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة؛ ونحو ذلك روي عن النبي ﷺ أنه قال: "ليس للإنسان أن يذل نفسه"[(١)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي متبختراً متكبراً، مصدر في موضع الحال، وقد مضى في "الإسراء". وهو النشاط والمشي فرحاً في غير شغل وفي غير حاجة. وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء؛ فالمرح مختال في مشيته. روى يحيى بن جابر الطائي عن ابن عائذ الأزدي عن غضيف بن الحارث قال: أتيت بيت المقدس أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير قال: فجلسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسمعته يقول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول: يا ابن آدم ما غرك بي! ألم تعلم أني بيت الوحدة! ألم تعلم أني بيت الظلمة! ألم تعلم أني بيت الحق! يا ابن آدم ما غرّك بي! لقد كنت تمشي حولي فداداً. قال ابن عائذ قلت لغُضيف: ما الفدّاد يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مشيتك يا ابن أخي أحياناً. قال أبو عبيد: والمعنى ذا مال كثير وذا خيلاء. وقال ﷺ: "من جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة"[(٢)]. والفخور: هو الذي يعدد ما أعطي ولا يشكر الله تعالى؛ قاله مجاهد. وفي اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿واقصد في مشيك﴾ لما نهاه عن الخلق الذميم رسم له الخلق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله فقال: "واقصد في مشيك" أي توسّط فيه. والقصد: ما بين الإسراع والبطء؛ أي لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثب الشطار؛ وقال رسول الله ﷺ: "سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن"[(٣)]. فأما ما روي عنه ﷺ أنه كان إذا مشى أسرع، وقول عائشة في عمر رضي الله عنه: كان إذا مشى أسرع، فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت؛ والله أعلم. وقد مدح الله سبحانه من هذه صفته حسبما تقدّم بيانه في "الفرقان".

الثانية: قوله تعالى: ﴿واغضض من صوتك﴾ أي انقص منه؛ أي لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي. والمراد بذلك كله التواضع؛ وقد قال عمر لمؤذن تكلف رفع الأذان بأكثر من طاقته: لقد خشيت أن ينشق مُرَيْطاؤك! والمؤذن هو أبو محذورة سمرة بن معيّر. والمريطاء: ما بين السرة إلى العانة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ أي أقبحها وأوحشها؛ ومنه أتانا بوجه منكر. والحمار مَثَل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه؛ ومن استفحاشهم لذكره مجرداً أنهم

---

(١) ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٥)، وفي غير موضع.

(٣) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٣٢٦٥)، وراجع الضعيفة (٥٥).

يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين؛ كما يكنى عن الأشياء المستقذرة. وقد عد في مساوئ الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافاً وإن بلغت منه الرجلة. وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعاً وتذللاً لله تبارك وتعالى.

الرابعة: في الآية دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والملاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً"[1]. وقد روي: أنه ما صاح حمار ولا نبح كلب إلا أن يرى شيطاناً. وقال سفيان الثوري: صياح كل شيء تسبيح إلا نهيق الحمير. وقال عطاء: نهيق الحمير دعاء على الظلمة.

الخامسة: وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم، أو بترك الصياح جملة؛ وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز، ومن كان أخفض كان أذل، حتى قال شاعرهم:

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النَّعَم
ويَعْدُو على الأين عدوى الظليم ويعلو الرجال بخلق عَمَم

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" أي لو أن شيئاً يهاب لصوته لكان الحمار؛ فجعلهم في المثل سواء.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ لصوت الحمير ﴾ اللام للتأكيد، ووحد الصوت وإن كان مضافاً إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة، وهو مصدر صات يصوت صوتاً فهو صائت. ويقال: صوَّت تصويتاً فهو مصوِّت. ورجل صاتٌ أي شديد الصوت بمعنى صائت؛ كقولهم: رجل مالٌ ونالٌ؛ أي كثير المال والنوال.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ ذكر نعمه على بني آدم، وأنه سخر لهم "ما في السموات" من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم. "وما في الأرض" عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى. ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ أي أكملها وأتمها. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمارة: "وأصبغ" بالصاد على بدلها من السين؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سفلها إلى علوها فتردها صاداً. والنِّعم: جمع نعمة كسدرة وسدر (بفتح الدال) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وحفص. الباقون: "نعمةً" على

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٣).

الإفراد؛ والإفراد يدل على الكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (إبراهيم: ٣٤). وهي قراءة ابن عباس من وجوه صحاح. وقيل: إن معناها الإسلام؛ قال النبي ﷺ لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية: "الظاهرة الإسلام وما حسن من خَلْقك، والباطنة ما ستر عليك من سيء عملك"[1]. قال النحاس: وشرح هذا أن سعيد بن جبير قال في قول الله عز وجل: ﴿ ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ﴾ (المائدة: ٦) قال: يدخلكم الجنة. وتمام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة، فكذا لما كان الإسلام يؤول أمره إلى الجنة سمي نعمة. وقيل: الظاهرة الصحة وكمال الخلق، والباطنة المعرفة والعقل. وقال المحاسبي: الظاهرة نعم الدنيا، والباطنة نعم العقبى. وقيل: الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال في الناس وتوفيق الطاعات، والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات. وقد سرد الماوردي في هذا أقوالاً تسعة، كلها ترجع إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله ﴾ تقدمت. نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ فجاءت صاعقة فأخذته؛ قاله مجاهد. وقد مضى هذا في "الرعد". وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث، كان يقول: إن الملائكة بنات الله؛ قاله ابن عباس. "يجادل" يخاصم ﴿بغير علم﴾ أي بغير حجة ﴿ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي نيّر بيِّن؛ إلا الشيطان فيما يلقي إليهم. ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ (الأنعام: ١٢١) وإلا تقليد الأسلاف كما في الآية بعد. ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ فيتبعونه.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾ أي يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى. ﴿وهو محسن﴾ لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع؛ نظيره: ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ (طه: ١١٢). وفي حديث جبريل قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ قال ابن عباس: لا إله إلا الله؛ وقد مضى في "البقرة". وقد قرأ علي بن أبي طالب ﷺ والسلمي وعبد الله بن مسلم بن يسار: "ومن يُسَلِّم". النحاس: و"يسلم" في هذا أعرف؛ كما قال عز وجل: ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ﴾ (آل عمران: ٢٠) ومعنى: "أسلمت وجهي لله" قصدت بعبادتي إلى الله عز وجل؛ ويكون "يسلّم" على التكثير؛ إلا أن المستعمل في سلمت أنه بمعنى دفعت؛ يقال سلمت في الحنطة، وقد يقال أسلمت. الزمخشري: قرأ علي بن أبي طالب ﷺ: "ومَنْ يُسَلِّم" بالتشديد؛ يقال: أسلم أمرك وسلّم أمرك إلى الله تعالى؛ فإن قلت: ما له عدي بإلى، وقد عدي باللام في قوله عز وجل: ﴿ بلى من أسلم وجهه لله ﴾؟ (البقرة: ١١٢) قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله؛ أي خالصاً له. ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكل عليه والتفويض إليه. ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي مصيرها.

---

(١) ضعيف.

قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ أي نجازيهم بما عملوا. ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾. ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها. ﴿ثم نضطرهم﴾ أي نلجئهم ونسوقهم. ﴿إلى عذاب غليظ﴾ وهو عذاب جهنم. ولفظ "مَنْ" يصلح للواحد والجمع، فلهذا قال: "كُفْرُهُ" ثم قال: "مرجعهم" وما بعده على المعنى.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ أي هم يعترفون بأن الله خالقهن فلم يعبدون غيره. ﴿قل الحمد لله﴾ أي على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي لا ينظرون ولا يتدبرون. ﴿لله ما في السماوات والأرض﴾ أي ملكاً وخلقاً. ﴿إن الله هو الغني﴾ أي الغني عن خلقه وعن عبادتهم، وإنما أمرهم لينفعهم. ﴿الحميد﴾ أي المحمود على صنعه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

لما احتج على المشركين بما احتج بيّن أن معاني كلامه سبحانه لا تنفد، وأنها لا نهاية لها. وقال القفال: لما ذكر أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض وأنه أسبغ النعم نبه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب. قال القشيري: فردّ معنى تلك الكلمات إلى المقدورات، وحملُ الآية على الكلام القديم أولى؛ والمخلوق لا بدّ له من نهاية، فإذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفي النهاية عما يقدر في المستقبل على إيجاده، فأما ما حصره الوجود وعده فلا بد من تناهيه، والقديم لا نهاية له على التحقيق. وقد مضى الكلام في معنى "كلمات الله" في آخر "الكهف". وقال أبو عليّ: المراد بالكلمات والله أعلم ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وهذا نحو مما قاله القفال، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معاني كلمات الله وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة؛ لا أنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور. ومعنى نزول الآية: يدل على أن المراد بالكلمات الكلام القديم. قال ابن عباس: إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد، كيف عُنينا بهذا القول ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (الإسراء: ٨٥) ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيان كل شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: "التوراة قليل من كثير" ونزلت هذه الآية، والآية مدنية. قال أبو جعفر النحاس: فقد تبين أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء؛ لأنه عز وجل علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من كل شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذّر، وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة

وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق، وما يتصرف فيه من ضروب الطعم واللون؛ فلو سمَّى كل دابة وحدها، وسمى أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحولت عليه من الأحوال، وما زاد فيها في كل زمان، وبين كل شجرة وحدها وما تفرعت إليه، وقدر ما ييبس من ذلك في كل زمان، ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها، ثم كان البحر مداداً لذلك البيان الذي بيّن الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمده من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر.

قلت: هذا معنى قول القفال، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى. وقال قوم: إن قريشاً قالت: سيتم هذا الكلام لمحمد وينحسر؛ فنزلت وقال السّدي: قالت قريش ما أكثر كلام محمد! فنزلت.

قولـه تعالى: ﴿والبحر يمده﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء، وخبره في الجملة التي بعدها، والجملة في موضع الحال؛ كأنه قال: والبحر هذه حالـه؛ كذا قدرها سيبويه. وقال بعض النحويين: هو عطف على "أنّ" لأنها في موضع رفع بالابتداء. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق: "والبحر" بالنصب على العطف على "ما" وهي اسم "أن". وقيل: أي ولو أن البحر يمده أي يزيد فيه. وقرأ ابن هرمز والحسن: "يمده"؛ من أمدّ. قالت فرقة: هما بمعنًى واحد. وقالت فرقة: مدّ الشيء بعضه بعضاً؛ كما تقول: مدّ النيل الخليج؛ أي زاد فيه. وأمدّ الشيء ما ليس منه. وقد مضى هذا في "البقرة. وآل عمران". وقرأ جعفر بن محمد: "والبحر مداده". ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ تقدم. ﴿إن الله عزيز حكيم﴾. وقال أبو عبيدة: البحر ها هنا الماء العذب الذي ينبت الأقلام، وأما الماء الملح فلا ينبت الأقلام.

قولـه تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ قال الضحاك: المعنى ما ابتداء خلقكم جميعاً إلا كخلق نفس واحدة، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة. قال النحاس: وهكذا قدّره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس واحدة؛ مثل: ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢). وقال مجاهد: لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون. ونزلت الآية في أُبيّ بن خلف وأبي الأسدين ومنبِّه ونبيه ابني الحجاج بن السباق، قالوا للنبّي ﷺ: إن الله تعالى قد خلقنا أطواراً، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً، ثم تقول إنا نبعث خلقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة! فأنزل الله تعالى: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾، لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد، وخلقه للعالم كخلقه لنفس واحدة. ﴿إن الله سميع﴾ لما يقولون ﴿بصير﴾ بما يفعلون.

قولـه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ تقدم. ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ أي ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال وإتماماً للمنافع. ﴿كل يجري إلى أجل مسمى﴾ قال الحسن: إلى يوم القيامة. قتادة: إلى وقته في طلوعه وأفولـه لا يعدوه ولا يقصر عنه. ﴿وأن الله بما

تعملون خبير﴾ أي من قدر على هذه الأشياء فلا بدّ من أن يكون عالماً بها، والعالم بها عالم بأعمالكم. وقراءة العامة "تعملون" بالتاء على الخطاب. وقرأ السلمّي ونصر بن عاصم والدوري عن أبي عمرو بالياء على الخبر. ﴿ذلك﴾ أي فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقروا ﴿بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ أي الشيطان؛ قاله مجاهد. وقيل: ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان. ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ العلي في مكانته، الكبير في سلطانه.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الفلك ﴾ أي السفن ﴿تجري﴾ في موضع الخبر. ﴿في البحر بنعمة الله﴾ أي بلطفه بكم وبرحمته لكم في خلاصكم منه. وقرأ ابن هرمز: "بنعمات الله" جمع نعمة وهو جمع السلامة، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت. ﴿ليريكم من آياته﴾ "منْ" للتبعيض، أي ليريكم جري السفن؛ قاله يحيى بن سلام. وقال ابن شجرة: "من آياته" ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه. النقاش: ما يرزقهم الله منه. وقال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدعاء. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي صبّار لقضائه شكور على نعمائه. وقال أهل المعاني: أراد لكل مؤمن بهذه الصفة؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان. والآية: العلامة، والعلامة لا تستبين في صدر كل مؤمن إنما تستبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء. قال الشعبي: الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله؛ ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ وقوله: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ (الذاريات: ٢٠) وقال ﷺ: "الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر"[(١)].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ قال مقاتل: كالجبال. وقال الكلبي: كالسحاب؛ وقاله قتادة: جمع ظلة؛ شبه الموج بها لكبرها وارتفاعها. قال النابغة في وصف بحر:

يماشيهن أخضر ذو ظلال   على حافاته فلق الدنان

وإنما شبه الموج وهو واحد بالظل وهو جمع؛ لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء ويركب بعضه بعضاً كالظلل. وقيل: هو بمعنى الجمع، وإنما لم يجمع لأنه مصدر. وأصله من الحركة والازدحام؛ ومنه: ماج البحر، والناس يموجون. قال كعب:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه   أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد ابن الحنفية: "موج كالظلال" جمع ظل. ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ موحدين له لا يدعون لخلاصهم سواه؛ وقد تقدم. ﴿فلما نجاهم﴾ يعني من البحر. ﴿إلى البر فمنهم مقتصد﴾ قال

---

(١) ضعيف جداً، انظر ضعيف الجامع (٢٣١٠).

ابن عباس: موف بما عاهد عليه الله في البحر. النقاش: يعني عدل في العهد، وفَى في البر بما عاهد عليه الله في البحر. وقال الحسن: "مقتصد" مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: "مقتصد" في القول مضمر للكفر. وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: فمنهم مقتصد ومنهم كافر. ودل على المحذوف قولـه تعالى: ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ الختار: الغدار. والختر: أسوأ الغدر. قال عمرو بن معد يكرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

وقال الأعشى:

بالأبلق الفرد من تيماء منزلـه حصن حصين وجار غير ختار

قال الجوهري: الختر الغدر؛ يقال: ختره فهو ختار. الماوردي: وهو قول الجمهور. وقال عطية: إنه الجاحد. ويقال: ختر يختِر ويختُر (بالضم والكسر) ختراً؛ ذكره القشيري، وجحد الآيات إنكار أعيانها. والجحد بالآيات إنكار دلائلـها.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ يعني الكافر والمؤمن؛ أي خافوه ووحدوه. ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾ تقدم معنى "يجزي" في البقرة وغيرها. فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ: "من مات لـه ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلا تحلّـه القسم"[1]. وقال: "من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن لـه حجاباً من النار"[2]. قيل لـه: المعنيّ بهذه الآية أنه لا يحمل والد ذنب ولده، ولا مولود ذنب والده، ولا يؤاخذ أحدهما عن الآخر. والمعنيّ بالأخبار أن ثواب الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار، ويكون الولد سابقاً لـه إلى الجنة. ﴿إن وعد الله حق﴾ أي البعث ﴿فلا تغرنكم﴾ أي تخدعنكم ﴿الحياة الدنيا﴾ بزينتها وما تدعوا إليه فتتكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العمل للآخرة ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة والحديد بفتح الغين، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره، وهو الذي يغر الخلق ويمنيهم الدنيا ويلـهيهم عن الآخرة؛ وفي سورة "النساء": "يعدهم ويمنيهم". وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السميقع بضم الغين؛ أي لا تغتروا. كأنه مصدر غرّ يغر غُروراً. قال سعيد بن جبير: هو أن يعمل بالمعصية ويتمنى المغفرة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٤١٨)، ومسلم (٢٦٢٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ (٣٤)﴾

زعم الفراء أن هذا معنى النفي؛ أي ما يعلمه أحد إلا الله تعالى. قال أبو جعفر النحاس: وإنما صار فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول ﷺ على ذلك؛ لأنه ﷺ قال في قوله الله عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ (الأنعام: ٥٩): "إنها هذه".

قلت: قد ذكرنا في سورة "الأنعام" حديث ابن عمر في هذا، خرَّجه البخاري. وفي حديث جبريل عليه السلام قال: (أخبرني عن الساعة؟) فقال رسول الله ﷺ: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) قال: (صدقت)[1]. لفظ أبي داود الطيالسي. وقال عبد الله بن مسعود: كل شيء أوتي نبيكم ﷺ غير خمس: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية إلى آخرها. وقال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها ملَكٌ مقرب ولا نبي مرسل؛ فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنه خالفه. ثم إن الأنبياء يعلمون كثيراً من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم. والمراد إبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقي بالأنواء وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك؛ حسبما تقدم ذكره في الأنعام. وقد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده. وروي أن يهودياً كان يحسب حساب النجوم، فقال لابن عباس: إن شئت نبأتك نجم ابنك، وأنه يموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموت حتى تعمى، وأنا لا يحول عليَّ الحول حتى أموت. قال: فأين موتك يا يهوديّ؟ فقال: لا أدري. فقال ابن عباس: صدق الله. ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ فرجع ابن عباس فوجد ابنه محموماً، ومات بعد عشرة أيام. ومات اليهوديّ قبل الحول، ومات ابن عباس أعمى. قال عليّ بن الحسين راوي هذا الحديث: هذا أعجب الأحاديث. وقال مقاتل: إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث بن عمرو بن حارثة، أتى النبّي ﷺ فقال: إن امرأتي حبلى فأخبرني ماذا تلد، وبلادنا جدبة فأخبرني متى ينزل الغيث، وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت، وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرني ماذا أعمل غداً، وأخبرني متى تقوم الساعة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ ذكره القشيري والماورديّ. وروى أبو المليح عن أبي عزة الهذلي قال: قال رسول ﷺ: "إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها - ثم قرأ رسول الله ﷺ - ﴿إن الله عنده علم الساعة - إلى قوله - بأي أرض تموت﴾" ذكره الماورديّ، وخرّجه ابن ماجة من حديث ابن مسعود بمعناه[2]. وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة) مستوفى. وقراءة العامة: "وينزل" مشدداً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزه والكسائي مخففاً. وقرأ أُبيّ بن كعب: "بأية أرض" الباقون "بأي أرض". قال الفراء: اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أي. وقيل: أراد بالأرض المكان فذكّر. قال الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

وقال الأخفش: يجوز مررت بجارية أي جارية، وأية جارية. وشبه سيبويه تأنيث "أي" بتأنيث كُلّ في قولهم: كلّتهنّ. ﴿إن الله عليم خبير﴾ "خبير" نعت لـ "عليم" أو خبر بعد خبر. والله تعالى أعلم.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) وكذا أخرجه أحمد والطبراني وأبونعيم عن أبي هريرة بسند صحيح كما في صحيح الجامع (٣١١).

سورة السجدة

مقدمة السورة:

وهي مكية، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة؛ وهي قوله تعالى: ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ (السجدة: ١٨) تمام ثلاث آيات؛ قاله الكلبي ومقاتل. وقال غيرهما: إلا خمس آيات، من قوله تعالى: ﴿ تتجافى جنوبهم ﴾ إلى قوله ﴿ الذي كنتم به تكذبون ﴾ (السجدة: ١٦). وهي ثلاثون آية. وقيل تسع وعشرون. وفي الصحيح عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة "الم. تنزيل" السجدة، و"هل أتى على الإنسان حين من الدهر" الحديث[1]. وخرَّج الدارمي أبو محمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ: "الم. تنزيل" السجدة. و﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾[2] (الملك: ١). قال الدارمي: وأخبرنا أبو المغيرة قال حدثنا عبدة عن خالد بن معدان قال: اقرأوا المنجية، وهي "الم. تنزيل" فإنه بلغني أن رجلاً كان يقرأها، ما يقرأ شيئاً غيرها، وكان كثير الخطايا فنشرت جناحها عليه وقالت: رب اغفر له فإنه كان يكثر من قراءتي؛ فشفّعها الرب فيه وقال (اكتبوا له بكل خطيئة حسنة وارفعوا له درجة).

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الم. تنزيل الكتاب ﴾ الإجماع على رفع "تنزيلُ الكتاب" ولو كان منصوباً على المصدر لجاز؛ كما قرأ الكوفيون: ﴿ إنك لمن المرسلين*على صراط مستقيم*تنزيل العزيز الرحيم ﴾ (يس: ٥). و"تنزيل" رفع بالابتداء والخبر ﴿لا ريب فيه﴾. أو خبر على إضمار مبتدأ؛ أي هذا تنزيل، أو المتلو تنزيل، أو هذه الحروف تنزيل. ودلت: "الم" على ذكر الحروف. ويجوز أن يكون "لا ريب فيه" في موضع الحال من "الكتاب". و﴿من رب العالمين﴾ الخبر. قال مكّي: وهو أحسنها. "لا ريب فيه من رب العالمين" لا شك فيه أنه من عند الله؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ هذه "أم" المنقطعة التي تقدّر ببل وألف الاستفهام؛ أي بل أيقولون. وهي تدل على خروج من حديث إلى حديث؛ فإنه عز وجل أثبت أنه تنزيل من رب العالمين، وأن ذلك مما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: "أم يقولون افتراه" أي افتعله واختلقه. ﴿بل هو الحق من ربك﴾ كذبهم في دعوى الافتراء ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾ قال قتادة: يعني قريشاً، كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ. و"لتنذر"

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩١).

(٢) صحيح أخرجه أصحاب السنن عدا ابن ماجه، وانظر صحيح الجامع (٤٨٧٣).

متعلق بما قبلها فلا يوقف على "من ربك". ويجوز أن يتعلق بمحذوف؛ التقدير: أنزله لتنذر قوماً، فيجوز الوقف على "من ربك". و"ما" في قوله: "ما أتاهم" نفي. "من نذير" صلة. و"نذير" في محل الرفع، وهو المعْلِمُ المخوّف. وقيل: المراد بالقوم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام؛ قاله ابن عباس ومقاتل. وقيل: كانت الحجة ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدم من الرسل وإن لم يروا رسولاً؛ وقد تقدّم هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ عرفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه. ومعنى: "خلق" أبدع وأوجد بعد العدم وبعد أن لم تكن شيئاً. "في ستة أيام" من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة. قال الحسن: من أيام الدنيا. وقال ابن عباس: إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقداره ألف سنة من سني الدنيا. وقال الضحاك: في ستة آلاف سنة؛ أي في مدة ستة أيام من أيام الآخرة. ﴿ثم استوى على العرش﴾ تقدم. وذكرنا أقوال العلماء في ذلك مستوفى في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى). وليست "ثُمَّ" للترتيب وإنما هي بمعنى الواو. ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ أي ما للكافرين من ولي يمنع من عذابهم ولا شفيع. ويجوز الرفع على الموضع. ﴿أفلا تتذكرون﴾ في قدرته ومخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض﴾ قال ابن عباس: ينزل القضاء والقدر. وقيل: ينزل الوحي مع جبريل. وروى عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل؛ صلوات الله عليهم أجمعين. فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل فموكل بالقطر والماء. وأما مَلَكُ الموت فموكل بقبض الأرواح. وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم. وقد قيل: إن العرش موضع التدبير؛ كما أن ما دون العرش موضع التفصيل؛ قال الله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات﴾ (الرعد: ٢). وما دون السموات موضع التصريف؛ قال الله تعالى: ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا﴾ (الفرقان: ٥٠).

قوله تعالى: ﴿ثم يعرج إليه﴾ قال يحيى بن سلام: هو جبريل يصعد إلى السماء بعد نزوله بالوحي. وقال النقاش: هو الملَك الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض. وقيل: إنها أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع حملتها من الملائكة؛ قاله ابن شجرة. وقيل: "ثم يعرج إليه" أي يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ "في يوم كان مقداره ألف سنة" وهو يوم القيامة. وعلى الأقوال المتقدمة فالكناية في "يعرج" كناية عن الملك، ولم يجر له

ذكر لأنه مفهوم من المعنى، وقد جاء صريحاً في "سأل سائل" قولـه: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ (المعارج: ٤). والضمير في "إليه" يعود على السماء على لغة من يذكرها، أو على مكان الملك الذي يرجع إليه، أو على اسم الله تعالى؛ والمراد إلى الموضع الذي أقره فيه، وإذا رجعت إلى الله فقد رجعت إلى السماء، أي إلى سدرة المنتهى؛ فإنه إليها يرتفع ما يصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها؛ ثبت معنى ذلك في صحيح مسلم. والـهاء في "مقداره" راجعة إلى التدبير؛ والمعنى: كان مقدار ذلك التدبير ألف سنة من سني الدنيا؛ أي يقضي أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد، ثم يلقيه إلى ملائكته، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى، ثم كذلك أبداً؛ قاله مجاهد. وقيل: الـهاء للعروج. وقيل: المعنى أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة. وقيل: المعنى يدبر أمر الشمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة. وقال ابن عباس: المعنى كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة؛ لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة. وروي ذلك عن جماعة من المفسرين، وهو اختيار الطبري؛ ذكره المهدوّي. وهو معنى القول الأول. أي أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيامكم؛ ذكره الزمخشري. وذكر الماوردي عن ابن عباس والضحاك أن المَلَك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة. وعن قتادة أن المَلَك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة؛ فيكون مقدار نزولـه خمسمائة سنة، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدّي. وعلى قول ابن عباس والضحاك: النزول ألف سنة، والصعود ألف سنة. ﴿مما تعدون﴾ أي مما تحسبون من أيام الدنيا. وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سني العالم، وليس بيوم يستوعب نهاراً بين ليلتين؛ لأن ذلك ليس عند الله. والعرب قد تعبّر عن مدة العصر باليوم؛ كما قال الشاعر:

يومـان يـومُ مُقـامات وأندية   ويومُ سير إلى الأعداء تأويب

وليس يريد يومين مخصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبّر عن كل واحد من الشطرين بيوم. وقرأ ابن أبي عبلة: "يعرج" على البناء للمفعول. وقرئ: "يعدون" بالياء. فأما قولـه تعالى: ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ فمشكل مع هذه الآية. وقد سأل عبد الله بن فيروز الديلمّي عبد الله بن عباس عن هذه الآية وعن قولـه: "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" فقال: أيام سمّاها سبحانه، وما أدري ما هي؟ فأكره أن أقول فيها ما لا أعلم. ثم سئل عنها سعيد بن المسّيب فقال: لا أدري. فأخبرته بقول ابن عباس فقال ابن المسيب للسائل: هذا ابن عباس اتقى أن يقول فيها وهو أعلم مني. ثم تكلم العلماء في ذلك فقيل: إن آية ﴿ سأل سائل ﴾ (المعارج: ١) هو إشارة إلى يوم القيامة، بخلاف هذه الآية. والمعنى: أن الله تعالى جعلـه في صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة؛ قالـه ابن عباس. والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر. قال:

ويوم كظل الرمح قصر طولـه   دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام؛ فمنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة. وقيل: أوقات القيامة مختلفة، فيعذّب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدّته خمسون ألف سنة. وقيل: مواقف القيامة خمسون موقفاً؛ كل موقف ألف سنة. فمعنى: "يعرج إليه

في يوم كان مقداره ألف سنة" أي مقدار وقت، أو موقف من يوم القيامة. وقال النحاس: اليوم في اللغة بمعنى الوقت؛ فالمعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في وقت كان مقداره ألف سنة، وفي وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة. وعن وهب بن منبّه: "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" قال: ما بين أسفل الأرض إلى العرش. وذكر الثعلبيّ عن مجاهد وقتادة والضحاك في قوله تعالى: ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ (المعارج: ٤) أراد من الأرض إلى سدرة المنتهى التي فيها جبريل. يقول تعالى: يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا. وقوله: "إليه" يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يعرجوا إليه. وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ (الصافات: ٩٩) أراد أرض الشام. وقال تعالى: ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ﴾ (النساء: ١٠٠) أي إلى المدينة. وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ: "أتاني مَلَك من ربي عز وجل برسالة ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء والأخرى على الأرض لم يرفعها بعد"[1].

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ أي عَلم ما غاب عن الخلق وما حضرهم. و "ذلك" بمعنى أنا. حسبما تقدم بيانه في أول البقرة. وفي الكلامَ معنى التهديد والوعيد؛ أي أخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإني أجازي عليها.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: "خلْقه" بإسكان اللام. وفتحها الباقون. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلباً لسهولتها. وهو فعل ماض في موضع خفض نعت لـ "شيء". والمعنى على ما روي عن ابن عباس: أحكم كل شيء خلَقه، أي جاء به على ما أراد، لم يتغير عن إرادته. وقول آخر أن كل شيء خلقه حسن؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتي بمثله؛ وهو دال على خالقه. ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه؛ لأن قوله: "أحسن كل شيء خلقه" يدل على: خَلَق كل شيء خلقاً؛ فهو مثل: ﴿ صُنْعَ الله ﴾ (النمل: ٨٨) و﴿ كتاب الله عليكم ﴾ (النساء: ٢٤). وعند غيره منصوب على البدل من "كل" أي الذي أحسن خلق كل شيء. وهو مفعول ثان عند بعض النحويين، على أن يكون معنى: "أحسن" أفهم وأعلم؛ فيتعدّى إلى مفعولين، أي أفهم كل شيء خلقه. وقيل: هو منصوب على التفسير؛ والمعنى: أحسن كل شيء خلقاً. وقيل: هو منصوب بإسقاط حرف الجر، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه. وروي معناه عن ابن عباس و "أحسن" أي أتقن وأحكم؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها. ومن هذا

---

(١) ضعيف، أخرجه الطبراني في الأوسط، كما في ضعيف الجامع (٨١).

المعنى قال ابن عباس وعكرمة: ليست است القرد بحسنة، ولكنها متقنة محكمة. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد "أحسن كل شيء خلقه" قال: أتقنه. وهو مثل قولـه تبارك وتعالى: ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ (طه: ٥٠) أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، ولا خلق البهيمة على خلق الإنسان. ويجوز: "خلقه" بالرفع؛ على تقدير ذلك خلقه. وقيل: هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى؛ والمعنى: حسَّن خلق كل شيء حَسَن. وقيل: هو عموم في اللفظ والمعنى، أي جعل كل شيء خلقه حسناً، حتى جعل الكلب في خلقه حسَناً؛ قالـه ابن عباس. وقال قتادة: في است القرد حسنة.

قولـه تعالى: ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ يعني آدم. ﴿ ثم جعل نسلـه من سلالة من ماء مهين﴾ تقدم في "المؤمنون" وغيرها. وقال الزجاج: "من ماء مهين" ضعيف. وقال غيره: "مهين" لا خطر لـه عند الناس. ﴿ثم سواه﴾ رجع إلى آدم، أي سوى خلقه. ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ ثم رجع إلى ذريته فقال: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ وقيل: ثم جعل ذلك الماء المهين خلقاً معتدلاً، وركب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفاً. وأيضاً فإنه من فعلـه وخلقه كما أضاف العبد إليه بقولـه: "عبدي". وعبَّر عنه بالنفخ لأن الروح في جنس الريح. وقد مضى هذا مبيناً في "النساء" وغيرها. ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون.

قولـه تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقالوا أئذا ضللنا في الأرض ﴾ هذا قول منكري البعث؛ أي هلكنا وبطلنا وصرنا تراباً. وأصلـه من قول العرب: ضلَّ الماء في اللبن إذا ذهب. والعرب تقول للشيء غلب عليه غيره حتى خفي أثره: قد ضلّ. قال الأخطل:

كنت القذى في موج أكدر مزبد قـذف الأتـيّ بـه فضـلَّ ضلالا

وقال قطرب: معنى ضللنا غبنا في الأرض. وأنشد قول النابغة الذبياني:

فـآب مضلـوه بعـين جلـية وغُودر بالجولان حزم ونائل

وقرأ ابن محيصن ويحيى بن يعمر: "ضللنا" بكسر اللام، وهي لغة. قال الجوهري: وقد ضللت أضل قال الله تعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ﴾ (سبأ: ٥٠). فهذه لغة نجد وهي الفصيحة. وأهل العالية يقولون: "ضللت" ـ بكسر اللام ـ أضلّ. وهو ضالّ تالّ، وهي الضلالة والتلالة. وأضلّـه أي أضاعه وأهلكه. يقال: أضل الميّت إذا دفن. قال:

فآب مضلوه...... البيت

ابن السكيت. أضللت بعيري إذا ذهب منك. وضللت المسجد والدار: إذا لم تعرف موضعهما. وكذلك كل شيء مقيم لا يهتدى لـه. وفي الحديث "لعلّي أضل الله" يريد أضل عنه، أي أخفى عليه، من قولـه تعالى: ﴿ أإذا ضللنا في الأرض ﴾ أي خفينا. وأضلـه الله فضلّ؛ تقول: إنك تهدي الضال ولا تهدي المتضال. وقرأ الأعمش والحسن: "صللنا" بالصاد؛ أي أنتنّا. وهي قراءة علي بن أبي طالب ﷺ. النحاس: ولا يعرف في اللغة صللنا ولكن يقال: صلّ اللحم وأصلّ، وخم وأخمّ إذا أنتن. الجوهري: صلّ اللحم يصل ـ بالكسر ـ صلولاً، أي أنتن، مطبوخاً كان أو نيئاً. قال الحطيئة:

ذاك فتـى يبـذل ذا قـدره   لا يفسد اللحم لديه الصلول

وأصلّ مثلـه. ﴿أإنا لفي خلق جديد﴾ أي نخلق بعد ذلك خلقاً جديدا؟ ويقرأ: "أئنا". النحاس: وفي هذا سؤال صعب من العربية؛ يقال: ما العامل في "إذا"؟ و"إنّ" لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. والسؤال في الاستفهام أشدّ؛ لأن ما بعد الاستفهام أجدر؛ ألا يعمل فيما قبلـه من "إن" كيف وقد اجتمعا. فالجواب على قراءة من قرأ: "إنا" أن العامل "ضللنا"، وعلى قراءة من قرأ: "أإنا" أن العامل مضمر، والتقدير أنبعث إذا متنا. وفيه أيضاً سؤال آخر، يقال: أين جواب "إذا" على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط؟ فالقول في ذلك أن بعدها فعلاً ماضياً؛ فلذلك جاز هذا. ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ أي ليس لـهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم، وأنهم لا يلقون الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفيهم وأنه يعيدهم. "يتوفاكم" من توفى العدد والشيء إذا استوفاه وقبضه جميعاً. يقال: توفاه الله أي استوفى روحه ثم قبضه. وتوفيت مالي من فلان أي استوفيته. "ملك الموت" واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله؛ كما تقدم في "البقرة". وتصرفه كلـه بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه. وروي في الحديث "أن البهائم كلـها يتوفى الله أرواحها دون مَلَك الموت"[1] كأنه يعدم حياتها؛ ذكره ابن عطية.

قلت: وقد روي خلافه، وأن ملك الموت يتوفّى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة. روى جعفر بن محمد عن أبيه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مَلَك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال لـه النبي ﷺ: "ارفق بصاحبي فإنه مؤمن" فقال مَلَك الموت ؑ: "يا محمد، طب نفساً وقرّ عيناً فإني بكل مؤمن رفيق. واعلم أن ما من أهل بيت مَدَر ولا شعر في برّ ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم. والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها"[2]. قال جعفر بن عليّ: بلغني أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلوات؛ ذكره الماوردي. وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت البغدادي قال: حدثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال: حدثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصفار قال حدثنا أبو بكر حامد المصري قال حدثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مهير الكلابيّ قال: حضرت مالك بن أنس ؓ فأتاه رجل فسألـه: أبا عبد الله، البراغيث أمَلَك الموت يقبض أرواحها؟ قال: فأطرق مالك طويلاً ثم قال: ألـها أنفس؟ قال: نعم. قال: مَلَك الموت يقبض أرواحها؛ ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ (الزمر: ٤٢). قال ابن عطية بعد ذكره الحديث: وكذلك

---

(١) ذكره المصنف في كتابه "التذكرة"، (١/ ٦٨) بصيغة التضعيف.

(٢) ضعيف.

الأمر في بني آدم، إلا أنه نوع شُرِّف بتصرف مَلَك وملائكة معه في قبض أرواحهم. فخلق الله تعالى مَلَك الموت وخلق على يديه قبض الأرواح، واستلالـها من الأجسام وإخراجها منها. وخلق الله تعالى جنداً يكونون معه يعملون عملـه بأمره؛ فقال تعالى: ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ (الأنفال: ٥٠) وقال تعالى: ﴿ توفته رسلنا ﴾ (الأنعام: ٦١) وقد مضى هذا المعنى في "الأنعام". والبارئ خالق الكل، الفاعل حقيقة لكل فعل؛ قال الله تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ (الزمر: ٤٢). ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ (الملك: ٢). ﴿ يحيي ويميت ﴾ (الأعراف: ١٥٨). فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يزهق الروح. وهذا هو الجمع بين الآي والأحاديث؛ لكنه لما كان ملك الموت متولي ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفي إليه كما أضيف الخلق للملك؛ كما تقدم في "الحج". وروي عن مجاهد أن الدنيا بين يدي ملك الموت كالطست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء. وقد روي هذا المعنى مرفوعاً، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة). وروي أن ملك الموت لما وكلـه الله تعالى بقبض الأرواح قال: رب جعلتني أُذكر بسوء ويشتمني بنو آدم. فقال الله تعالى لـه: (إني أجعل للموت عللاً وأسباباً من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير). وقد ذكرناه في التذكرة مستوفى ـ وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب ـ بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك.

الثانية: استدل بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قولـه: ﴿وكل بكم﴾ أي بقبض الأرواح. قال ابن العربي: وهذا أخذ من لفظه لا من معناه، ولـو اطـرد ذلك لقلنا في قولـه تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (الأعراف: ١٥٨): إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة في تبليغ رسالته، ولقلنا أيضاً في قولـه تبارك وتعالى: ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ (النور: ٥٦) إنه وكالة؛ فإن الله تعالى ضمن الرزق لكل دابة وخص الأغنياء بالأغذية وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم، وأمر بتسليمه إليهم مقداراً معلوماً في وقت معلوم، دبَّره بعلمه، وأنفذه من حكمه، وقدَّره بحكمته. والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلق عليها. ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالـهم بأن لـهم الجنة﴾ (التوبة: ١١١) ولا يقال: هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبده؛ لأن المقصدين مختلفان. أما إنه إذا لم يكن بد من المعاني فيقال: إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنيب من يأخذ الحق ممن هو عليه قسراً دون أن يكون لـه في ذلك فعل، أو يرتبط به رضاً إذا وجد ذلك.

قولـه تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ﴾ ابتداء وخبر. قال الزجاج: والمخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمته. والمعنى: ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت

العجب. ومذهب أبي العباس غير هذا، وأن يكون المعنى: يا محمد، قل للمجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك. "ناكسو رؤوسهم" أي من الندم والخزي والحزن والذل والغم. "عند ربهم" أي عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم. ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ "ربنا" أي يقولون ربنا. "أبصرنا" أي أبصرنا ما كنا نكذب. "وسمعنا" ما كنا ننكر. وقيل: "أبصرنا" صدق وعيدك. "وسمعنا" تصديق رسلك. أبصروا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع. "فارجعنا" أي إلى الدنيا. "نعمل صالحا إنا موقنون" أي مصدقون بالبعث؛ قاله النقاش. وقيل: مصدقون بالذي جاء به محمد ﷺ أنه حق؛ قاله يحيى بن سلام. قال سفيان الثوري: فأكذبهم الله تعالى، فقال: ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ (الأنعام: ٢٨). وقيل: معنى "إنا موقنون" أي قد زالت عنا الشكوك الآن؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا، ولكن لم يكونوا يتدبرون، وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع، فلما تنبهوا في الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا. وقيل: أي ربنا لك الحجة، فقد أبصرنا رسلك وعجائب خلقك في الدنيا، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا. فهذا اعتراف منهم، ثم طلبوا أن يردوا إلى الدنيا ليؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

قال محمد بن كعب القرظي: لما قالوا: ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ رد عليهم بقوله: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ يقول: لو شئت لهديت الناس جميعاً فلم يختلف منهم أحد ﴿ولكن حق القول مني﴾ الآية؛ ذكره ابن المبارك في (رقائقه) في حديث طويل. وقد ذكرناه في (التذكرة). النحاس: "ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها" في معناه قولان: أحدهما: أنه في الدنيا. والآخر: أن سياق الكلام يدل على أنه في الآخرة؛ أي لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة كما سألوا ﴿ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي حق القول مني لأعذبن من عصاني بنار جهنم. وعلم الله تبارك وتعالى أنه لو ردهم لعادوا؛ كما قال تعالى: ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ (الأنعام: ٢٨).

وهذه الهداية معناها خلق المعرفة في القلب. وتأويل المعتزلة: ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة، لكن لا يحسن منه فعله؛ لأنه ينقض الغرض المجْرَى بالتكليف إليه وهو الثواب الذي لا يستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره. وقالت الإمامية في تأويلها: إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة في الآخرة ولم يعاقب أحداً، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها؛ قالوا: بل الواجب هداية المعصومين، فأما من له ذنب فجائز هدايته إلى النار جزاء على أفعاله. وفي جواز ذلك منع؛ لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان. وقد تكلم العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفاية في أصول الدين. وأقرب ما لهم في الجواب أن يقال: فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلجاء والإجبار والإكراه، فصار يؤدي ذلك إلى مذهب الجبرية، وهو مذهب رَذْل عندنا وعندكم، فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين

إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف فمن شاء آمن وأطاع اختياراً لا جبراً؛ قال الله تعالى: ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ (التكوير: ٢٨)، وقال: ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ (المزمل: ١٩). ثم عقب هاتين الآيتين بقوله تعالى: ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ (التكوير: ٢٩). فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم، ونفي أن يشاؤوا إلا أن يشاء الله؛ ولهذا فرطت المجبرة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة الله تعالى، فقالوا: الخلق مجبورون في طاعتهم كلها، التفاتاً إلى قوله: ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ (التكوير: ٢٩). وفرطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة العباد، فقالوا: الخلق خالقون لأفعالهم، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى: ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ (التكوير: ٢٨). ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد؛ وهو مذهب بين مذهبي المجبرة والقدرية؛ وخير الأمور أوساطها. وذلك أن أهل الحق قالوا: نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه، وهو أنا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير محاولته وإرادته ولا مقرونة بقدرته، وبين حركة الاختيار إذا حرّك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش؛ ومن لا يفرق بين الحركتين: حركة الارتعاش وحركة الاختيار، وهما موجودتان في ذاته ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراك حاسته فهو معتوه في عقله ومختل في حسه، وخارج من حزب العقلاء. وهذا هو الحق المبين، وهو طريق بين طريقي الإفراط والتفريط. و:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وبهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سموا هذه المنزلة بين المنزلتين كسباً، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه: ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه من النسيان الذي لا ذكر معه؛ أي لم يعملوا لهذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين. والآخر: أن "نسيتم" بما تركتم، وكذا "إنا نسيناكم". واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى: ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ﴾ (طه: ١١٥) قال: والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال: ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ﴾ (الأعراف: ٢٠) فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكره. وأنشد:

كأنه خارج من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد

أي تركوه. ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة. قال الضحاك: "نسيتم" أي تركتم أمري. يحيى بن سلام: أي تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم. ﴿نسيناكم﴾ تركناكم من الخير؛ قاله السدي. مجاهد: تركناكم في العذاب. وفي استئناف قوله: "إنا نسيناكم" وبناء الفعل على "إن" واسمها تشديد في الانتقام منهم. والمعنى: فذوقوا هذا؛ أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم

بسبب نسيان الله. أو ذوقوا العذاب المخلد، وهو الدائم الذي لا انقطاع لـه في جهنم. ﴿بما كنتم تعملون﴾ يعني في الدنيا من المعاصي. وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم. قال عمر بن أبي ربيعة:

فذق هجرها إن كنت تزعم أنها فســاد ألا يا ربما كذب الزعم

الجوهري: وذقت ما عند فلان؛ أي خبرته. وذقت القوس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدّتها. وأذاقه الله وبال أمره. قال طفيل:

فذوقوا كما ذقنا غداة محــجر من الغيظ في أكبادنا والتَّحَوُّب

وتذوقته أي ذقته شيئاً بعد شيء. وأمر مستذاق أي مجرب معلوم. قال الشاعر:

وعهد الغانيات كعهد قين ونَتْ عنه الجعائل مستذاق

والذوّاق: الملول.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

هذه تسلية للنبي ﷺ؛ أي أنهم لإلفهم الكفر لا يؤمنون بك؛ إنما يؤمن بك وبالقرآن المتدبرون لـه والمتعظون به، وهم الذين إذا قرئ عليهم القرآن ﴿خروا سجدا﴾ قال ابن عباس: ركّعاً. قال المهدوي: وهذا على مذهب من يرى الركـوع عنـد قـراءة السجدة؛ واستدل بقولـه تبارك وتعالى: ﴿ وخر راكعا وأناب ﴾ (ص: ٢٤). وقيل: المراد به السجود، وعليه أكثر العلماء؛ أي خروا سجداً لله تعالى على وجوههم تعظيماً لآياته وخوفاً من سطوته وعذابه. ﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾ أي خلطوا التسبيح بالحمد؛ أي نزهوه وحمدوه؛ فقالوا في سجودهم: سبحان الله وبحمده، سبحان ربي الأعلى وبحمده؛ أي تنزيهاً لله تعالى عن قول المشركين. وقال سفيان: "وسبحوا بحمد ربهم" أي صلّوا حمداً لربهم. ﴿وهم لا يستكبرون﴾ عن عبادته؛ قالـه يحيى بن سلام. النقاش: "لا يستكبرون" كما استكبر أهل مكة عن السجود.

قولـه تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ أي ترتفع وتنبو عن مواضع الاضطجاع. وهو في موضع نصب على الحال؛ أي متجافية جنوبهم. والمضاجع جمع مضجع؛ وهي مواضع النوم. ويحتمل عن وقت الاضطجاع، ولكنه مجاز، والحقيقة أولى. ومنه قول عبد الله بن رواحة:

وفيـــنا رســـول الله يـــتلو كـــتابه إذا انشـق معروف من الصبح ساطع

يبيـــــت يجـــافـي جنبـه عن فراشه إذا استثقلت بالمشـــركين المضاجع

قال الزجاج والرماني: التجافي التنحي إلى جهة فوق. وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سب ونحوه. والجنوب جمع جنب. وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجلـه قولان: أحدهما: لذكر الله تعالى، إما في صلاة وإما في غير صلاة؛ قالـه ابن عباس والضحاك. الثاني: للصلاة. وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلـها أربعة أقوال:

أحدها: التنفل بالليل؛ قالـه الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس، وهو الذي فيه المدح، وهو قول مجاهد والأوزاعي ومالك بن أنس والحسن بن أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم. ويدل عليه قولـه تعالى: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لـهم من قرة أعين ﴾ (السجدة: ١٧) لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفي. والله أعلم. وسيأتي بيانه.

وفي قيام الليل أحاديث كثيرة؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال لـه: "ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل - قال ثم تلا - ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع - حتى بلغ - يعملون﴾" أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده والقاضي إسماعيل بن إسحاق وأبو عيسى الترمذي، وقال فيه: حديث حسن صحيح[١].

الثاني: صلاة العشاء التي يقال لـها العتمة؛ قاله الحسن وعطاء. وفي الترمذي عن أنس بن مالك أن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة قال: هذا حديث حسن غريب.

الثالث: التنفل ما بين المغرب والعشاء؛ قالـه قتادة وعكرمة. وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾ قال: كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء.

الرابع: قال الضحاك: تجافي الجنب هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة. وقاله أبو الدرداء وعبادة.

قلت: وهذا قول حسن، وهو يجمع الأقوال بالمعنى. وذلك أن منتظر العشاء إلى أن يصليها في صلاة وذكر لله جل وعز؛ كما قال النبي ﷺ: "لا يزال الرجل في صلاة ما انتظر الصلاة"[٢]. وقال أنس: المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة؛ لأن رسول الله ﷺ كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل. قال ابن عطية: وكانت الجاهلية ينامون من أول الغروب ومن أي وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء غريباً شاقاً. ومصلّي الصبح في جماعة لا سيما في أول الوقت؛ كما كان ﷺ يصليها. والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة في أول الوقت يقوم سحراً يتوضأ ويصلي ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر؛ فقد حصل التجافي أول الليل وآخره. يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان ابن عفان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كلـه"[٣] ولفظ الترمذي وأبي داود في هذا الحديث: "من شهد العشاء في جماعة كان لـه قيام نصف ليلة، ومن صلّى العشاء والفجر في جماعة كان لـه كقيام ليلة"[٤].

---

(١) صحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٩) وغيره.
(٣) أخرجه مسلم (٦٥٦).
(٤) "صحيح" أخرجه الترمذي (٢٢٨).

وقد مضى في سورة "النور" عن كعب فيمن صلَّى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات كن له بمنزلة ليلة القدر.

وجاءت آثار حسان في فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل. ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثني محمد بن الحجاج أو ابن أبي الحجاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله ﷺ قال: "من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بني لـه قصر في الجنة" فقال لـه عمر بن الخطاب: إذاً تكثر قصورنا وبيوتنا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "الله أكبر وأفضل ـ أو قال ـ أطيب"[1]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: صلاة الأوابين الخلوة التي بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة. وكان عبد الله بن مسعود يصلي في تلك الساعة ويقول: صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء؛ ذكره ابن المبارك. ورواه الثعلبي مرفوعاً عن ابن عمر قال قال النبي ﷺ: "من جفت جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بني لـه قصران في الجنة مسيرة عام، وفيهما من الشجر ما لو نزلـها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة"[2]. وهي صلاة الأوابين وغفلة الغافلين. وأن من الدعاء المستجاب الذي لا يردّ الدعاء بين المغرب والعشاء.

فصل

في فضل التجافي: ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ستعلمون اليوم مَن أصحاب الكرم؛ ليقم الحامدون لله على كل حال، فيقومون فيسرّحون إلى الجنة. ثم ينادي ثانية: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم؛ ليقم الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون﴾. قال: فيقومون فيسرحون إلى الجنة. قال: ثم ينادي ثالثة: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم؛ ليقم الذين كانوا ﴿ لا تلـهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ (النور: ٣٧)، فيقومون فيسرحون إلى الجنة. ذكره الثعلبي مرفوعاً عن أسماء بنت يزيد قال النبّي ﷺ: "إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلـهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم ينادي الثانية ستعلمون اليوم من أولى بالكرم ليقم الذين لا تلـهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون، ثم ينادي الثالثة ستعلمون اليوم من أولى بالكرم ليقم الحامدون لله على كل حال في السّراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائر الناس"[3]. وذكر ابن المبارك قال أخبرنا معمر عن رجل عن أبي العلاء بن الشِّخير عن أبي ذرّ قال: ثلاثة يضحك الله إليهم ويستبشر الله بهم: رجل قام من الليل وترك فراشه ودفئه، ثم توضأ فأحســن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة؛ فيقول الله لملائكته: (ما حمل عبدي على ما صنع) فيقولون: ربنا أنت أعلم به منــا؛ فيقول: (أنا أعلم به ولكن أخبروني) فيقولون: رجيته شيئاً فرجاه وخوفته فخافه. فيقول: (أشهدكم أني قد أمنته مما خاف وأوجبت لـه ما رجاه) قال: (ورجل كان في سرية فلقي العدو فانهزم أصحابــه وثبت هو حتى يُقتل أو يفتح الله عليهم؛

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٥٦٠٣).
(٢) ضعيف.
(٣) ضعيف.

فيقول الله لملائكته مثل هذه القصة. ورجل سرى في ليلة حتى إذا كان في آخر الليل نزل هو وأصحابه، فنام أصحابه وقام هو يصلي؛ فيقول الله لملائكته...) وذكر القصة.

قوله تعالى: ﴿ يدعون ربهم ﴾ في موضع نصب على الحال؛ أي داعين. ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة؛ أي تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كل حال يدعون ربهم ليلهم ونهارهم. و﴿خوفاً﴾ مفعول من أجله. ويجوز أن يكون مصدراً. ﴿وطمعاً﴾ مثله؛ أي خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب. ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ تكون "ما" بمعنى الذي وتكون مصدراً، وفي كلا الوجهين يجب أن تكون منفصلة من "من" و"ينفقون" قيل: معناه الزكاة المفروضة. وقيل: النوافل؛ وهذا القول أمدح.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قرأ حمزة: ﴿ما أخفي لهم﴾ بإسكان الياء. وفتحها الباقون. وفي قراءة عبد الله "ما نخفي" بالنون مضمومة. وروى المفضل عن الأعمش "ما يُخفى لهم" بالياء المضمومة وفتح الفاء. وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة: "من قُرَّات أعين". فمن أسكن الياء من قوله: "ما أخفي" فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم. و"ما" في موضع نصب بـ "أخفي" وهي استفهام، والجملة في موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين، والضمير العائد على "ما" محذوف. ومن فتح الياء فهو فعل ماض مبني للمفعول. و"ما" في موضع رفع بالابتداء، والخبر "أخفي" وما بعده، والضمير في "أخفي" عائد على "ما". قال الزجاج: ويقرأ "ما أَخْفَى لهم" بمعنى ما أخفى الله لهم؛ وهي قراءة محمد بن كعب، و"ما" في موضع نصب. المهدوي: ومن قرأ: "قرّات أعين" فهو جمع قرة، وحسن الجمع فيه لإضافته إلى جمع، والإفراد لأنه مصدر، وهو اسم للجنس. وقال أبو بكر الأنباري: وهذا غير مخالف للمصحف؛ لأن تاء "قرة" تكتب تاء على لغة من يجري الوصل على الوقف؛ كما كتبوا (رحمت الله) بالتاء. ولا يستنكر سقوط الألف من "قرات" في الخط وهو موجود في اللفظ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموات وهي ثابتة في اللسان والنطق. والمعنى المراد: أنه أخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تعلمه نفس ولا بشر ولا مَلَك. وفي معنى هذه الآية: قال النبي ﷺ: "قال الله عز وجل أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ ثم قرأ هذه الآية ـ ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ إلى قوله ـ بما كانوا يعملون﴾" خرجه الصحيح من حديث سهل بن سعد الساعدي[١]. وقال ابن مسعود: في التوراة مكتوب: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقال ابن عباس: الأمر في هذا أجلّ وأعظم من أن يعرف تفسيره.

قلت: وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً؛ كما جاء مبيناً في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: "سأل موسى عليه السلام ربه فقال يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة قال هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا فيقول

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٥).

رضيت رب فيقول لك ذلك ومثلـه ومثلـه ومثلـه معه ومثلـه ومثلـه ومثلـه ومثلـه فقال في الخامسة رضيت رب فيقال هذا لك وعشرة أمثالـه ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب قال رب فأعلاهم منزلة قال أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ـ قال ـ ومصداقه من كتاب الله قولـه تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لـهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ "[1]. وقد روي عن المغيرة موقوفاً قولـه. وخرَّج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بَلْـهَ ما أطلعكم عليه ـ ثم قرأ ـ ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لـهم من قرة أعين﴾ "[2]. وقال ابن سيرين: المراد به النظر إلى الله تعالى. وقال الحسن: أخفى القوم أعمالاً فأخفى الله تعالى لـهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

قولـه تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا﴾ أي ليس المؤمن كالفاسق؛ فلـهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم. قال ابن عباس وعطاء بن يسار: نزلت الآية في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط؛ وذلك أنهما تلاحيا فقال لـه الوليد: أنا أبسط منك لساناً وأحدّ سناناً وأردّ للكتيبة ـ وروي وأملأ في الكتيبة ـ جسداً. فقال لـه علي: اسكت! فإنك فاسق؛ فنزلت الآية. وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت في علّي وعقبة بن أبي مُعيط. قال ابن عطية: وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية؛ لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر. ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم الفسق على الوليد. وذلك يحتمل أن يكون في صدر إسلام الوليد لشيء كان في نفسه، أو لما روي من نقلـه عن بني المصطلق ما لم يكن، حتى نزلت فيه: ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ (الحجرات: ٦) على ما يأتي في الحجرات بيانه. ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه؛ لأنه كان على طرف مما يبغى. وهو الذي شرب الخمر في زمن عثمان ﷺ، وصلّى الصبح بالناس ثم التفت وقال: أتريدون أن أزيدكم، ونحو هذا مما يطول ذكره.

الثانية: لما قسم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر ـ لأن التكذيب في آخر الآية يقتضي ذلك ـ اقتضى ذلك نفي المساواة بين المؤمن والكافر؛ ولـهذا منع القصاص بينهما؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول. وبذلك احتج علماؤنا على أبي حنيفة في قتلـه المسلم بالذمي. وقال: أراد نفي المساواة ها هنا في الآخرة في الثواب وفي الدنيا في العدالة. ونحن حملناه على عمومه، وهو أصح، إذ لا دليل يخصه؛ قالـه ابن العربي.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ لا يستوون ﴾ قال الزجاج وغيره: "مَنْ" يصلح للواحد والجمع. النحاس: لفظ "مَنْ" يؤدي عن الجماعة؛ فلـهذا قال: "لا يستوون"؛ هذا قول كثير من النحويين. وقال بعضهم: "لا يستوون" لاثنين؛ لأن الاثنين جمع؛ لأنه واحد جمع مع آخر. وقالـه الزجاج

(١) أخرجه مسلم (١٨٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٤)، وكذا أخرجه البخاري فالعزو إليه أولى.

أيضاً. والحديث يدل على هذا القول؛ لأنه عن ابن عباس وغيره قال: نزلت "أفمن كان مؤمنا" في علي ابن أبي طالب ﷺ، "كمن كان فاسقا" في الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وقال الشاعر:

أليس الموت بينهما سواء إذا ماتوا وصاروا في القبور

قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى ﴾ أخبر عن مقر الفريقين غداً؛ فللمؤمنين جنات المأوى، أي يأوون إلى الجنات؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك الموضع يتضمن جنات. ﴿نزلاً﴾ أي ضيافة. والنزل: ما يهيأ للنازل والضيف. وقد مضى في آخر "آل عمران" وهو نصب على الحال من الجنات؛ أي لهم الجنات معدّة، ويجوز أن يكون مفعولاً له. ﴿وأما الذين فسقوا﴾ أي خرجوا عن الإيمان إلى الكفر ﴿فمأواهم النار﴾ أي مقامهم فيها. ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ أي إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردوا إلى موضعهم فيها، لأنهم يطمعون في الخروج منها. وقد مضى هذا في "الحج". ﴿وقيل لهم﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم. أو يقول الله لهم: ﴿ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ والذوق يستعمل محسوساً ومعنًى. وقد مضى في هذه السورة بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ﴾ قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأبي بن كعب وإبراهيم النخعيّ: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يبتلى به العبيد حتى يتوبوا؛ وقاله ابن عباس. وعنه أيضاً أنه الحدود. وقال ابن مسعود والحسين بن علي وعبد الله بن الحارث: هو القتل بالسيف يوم بدر. وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف؛ وقاله مجاهد. وعنه أيضاً: العذاب الأدنى عذاب القبر؛ وقاله البراء بن عازب. قالوا: والأكبر عذاب يوم القيامة. قال القشيري: وقيل عذاب القبر. وفيه نظر؛ لقوله: ﴿لعلهم يرجعون﴾. قال: ومن حمل العذاب على القتل قال: "لعلهم يرجعون" أي يرجع من بقي منهم. ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذاب جهنم؛ إلا ما روي عن جعفر بن محمد أنه خروج المهدي بالسيف. والأدنى غلاء السعر. وقد قيل: إن معنى قوله: "لعلهم يرجعون". على قول مجاهد والبراء: أي لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه كقوله: ﴿ فارجعنا نعمل صالحا ﴾ (السجدة: ١٢). وسميت إرادة الرجوع رجوعاً كما سميت إرادة القيام قياماً في قوله تعالى: ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ (المائدة: ٦). ويدل عليه قراءة من قرأ: "يرجعون" على البناء للمفعول؛ ذكره الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه. ﴿ممن ذكر بآيات ربه﴾ أي بحججه وعلاماته. ﴿ثم أعرض عنها﴾ بترك القبول. ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾ لتكذيبهم وإعراضهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى؛ قال ابن عباس. وقد لقيه ليلة الإسراء. قتادة: المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء. والمعنى واحد. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها. وقيل: فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول؛ قاله مجاهد والزجاج. وعن الحسن أنه قال في معناه: "ولقد آتينا موسى الكتاب" فأُوذي وكُذب، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى؛ فالهاء عائدة على محذوف، والمعنى من لقاء ما لاقى. النحاس: وهذا قول غريب، إلا أنه من رواية عمرو بن عبيد. وقيل في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم فلا تكن في مرية من لقائه؛ فجاء معترضاً بين "ولقد آتينا موسى الكتاب" وبين "وجعلناه هدى لبني إسرائيل". والضمير في "وجعلناه" فيه وجهان: أحدهما: جعلنا موسى؛ قاله قتادة. الثاني: جعلنا الكتاب؛ قاله الحسن. ﴿وجعلنا منهم أئمة﴾ أي قادة وقدوة يقتدى بهم في دينهم. والكوفيون يقرأون "أئمة" النحاس: وهو لحن عند جميع النحويين؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمه واحدة، وهو من دقيق النحو.

وشرحه: أن الأصل "أأممة" ثم ألقيت حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم، وخففت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان، والجمع بين همزتين في حرفين بعيد؛ فأما في حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك: آدم وآخر. ويقال: هذا أوم من هذا وأيم؛ بالواو والياء. وقد مضى هذا في "التوبة" والله تعالى أعلم. ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا. "بأمرنا" أي أمرناهم بذلك. وقيل: "بأمرنا" أي لأمرنا؛ أي يهدون الناس لديننا. ثم قيل: المراد الأنبياء عليهم السلام؛ قاله قتادة. وقيل: المراد الفقهاء والعلماء. ﴿لما صبروا﴾ قراءة العامة "لما" بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها؛ أي حين صبروا. وقرأ يحيى وحمزة والكسائي وخلف ورويس عن يعقوب: "لما صبروا" أي لصبرهم جعلناهم أئمة. واختاره أبو عبيد اعتباراً بقراءة ابن مسعود "بما صبروا" بالباء. وهذا الصبر صبر على الدين وعلى البلاء. وقيل: صبروا عن الدنيا. ﴿إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة﴾ أي يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازي كلاً بما يستحق. وقيل: يقضي بين الأنبياء وبين قومهم؛ حكاه النقاش.

قولـه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أولم يهد لـهم ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمّي وقتادة وأبو زيد عن يعقوب "نهد لـهم" بالنون؛ فهذه قراءة بينة. النحاس: وبالياء فيها إشكال؛ لأنه يقال: الفعل لا يخلو من فاعل، فأين الفاعل لـ "يهد"؟ فتكلم النحويون في هذا؛ فقال الفراء: "كم" في موضع رفع بـ "يهد" وهذا نقض لأصول النحويين في قولـهم: إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبلـه ولا في "كم" بوجه؛ أعني ما قبلـها. ومذهب أبي العباس أن "يهد" يدل على الـهدى؛ والمعنى أولم يهد لـهم الـهدى. وقيل: المعنى أوَ لَم يهد الله لـهم؛ فيكون معنى الياء والنون واحداً؛ أي أو لـم نبين لـهم إهلاكنا القرون الكافرة من قبلـهم. وقال الزجاج: "كم" هي موضع نصب بـ "أهلكنا". ﴿يمشون في مساكنهم﴾ يحتمل الضمير في "يمشون" أن يعود على الماشين في مساكن المهلكين؛ أي وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون. ويحتمل أن يعود على المهلكين فيكون حالاً؛ والمعنى: أهلكناهم ماشين في مساكنهم. ﴿إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون.

قولـه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ أي أوَلَمْ يعلموا كمال قدرتنا بسوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لنحييها. الزمخشري: الجرز الأرض التي جرز نباتها، أي قطع؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعي وأزيل. ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جرز؛ ويدل عليه قولـه تعالى: ﴿ فنخرج به زرعاً ﴾ قال ابن عباس: هي أرض باليمن. وقال مجاهد: هي أبين. وقال عكرمة: هي الأرض الظمأى. وقال الضحاك: هي الأرض الميتة العطشى. وقال الفراء: هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي: هي الأرض التي لا تنبت شيئاً. وقال محمد بن يزيد: يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام؛ إلا أنه يجوز على قول من قال: العباس والضحاك. والإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه. وهذا إنما هو نعت والنعت للمعرفة يكون بالألف واللام؛ وهو مشتق من قولـهم: رجل جروز إذا كان لا يبقي شيئاً إلا أكلـه. قال الراجز:

خبٌّ جـروز وإذا جاع بكى ... ويأكل التمر ولا يلقي النوى

وكذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كل شيء تجده. وسيف جُراز: أي قاطع ماض. وجرزت الجراد الزرع: إذا استأصلته بالأكل. وحكى الفراء وغيره أنه يقال: أرض جُرْز وجُرُز وجَرْز وجَرَز. وكذلك بخل ورغب ووهب؛ في الأربعة أربع لغات. وقد روي أن هذه الأرض لا أنهار فيها، وهي بعيدة من البحر، وإنما يأتيها في كل عام ودان فيزرعون ثلاث مرات في كل عام. وعن مجاهد أيضاً: أنها أرض النيل. ﴿فنخرج به﴾ أي بالماء. ﴿زرعاً تأكل منه أنعامهم﴾ من الكلأ والحشيش. ﴿وأنفسهم﴾ من الحب والخضر والفواكه. ﴿أفلا يبصرون﴾ هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم.

و"فنخرج" يكون معطوفاً على "نسوق" أو منقطعاً مما قبلـه. "تأكل منه أنعامهم" في موضع نصب على النعت.

قولـه تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ "متى" في موضع رفع، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الظرف. قال قتادة: الفتح القضاء. وقال الفراء والقتبي: يعني فتح مكة. وأولى من هذا ما قالـه مجاهد، قال: يعني يوم القيامة. ويروى أن المؤمنين قالوا: سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء. فقال الكفار على التهزيء. متى يوم الفتح، أي هذا الحكم. ويقال للحاكم: فاتح وفتاح؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل. وفي القرآن: ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ (الأعراف: ٨٩) وقد مضى هذا في "البقرة" وغيرها. ﴿قل يوم الفتح﴾ على الظرف. وأجاز الفراء الرفع. ﴿لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾ أي يؤخرون ويمهلون للتوبة؛ إن كان يوم الفتح يوم بدر أو فتح مكة. ففي بدر قُتلوا، ويوم الفتح هربوا فلحقهم خالد بن الوليد فقتلـهم.

قولـه تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فأعرض عنهم ﴾ معناه فأعرض عن سفههم ولا تجبهم إلا بما أمرت به. ﴿وانتظر إنهم منتظرون﴾ أي انتظر يوم الفتح، يوم يحكم الله لك عليهم. ابن عباس: "فأعرض عنهم" أي عن مشركي قريش مكة، وأن هذا منسوخ بالسيف في "براءة" في قولـه: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥). "وانتظر" أي موعدي لك. قيل: يعني يوم بدر. ﴿إنهم منتظرون﴾ أي ينتظرون بكم حوادث الزمان. وقيل: الآية غير منسوخة؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالـهدنة وغيرها. وقيل: أعرض عنهم بعدما بلغت الحجة، وانتظر إنهم منتظرون. إن قيل: كيف ينتظرون القيامة وهم لا يؤمنون؟ ففي هذا جوابان: أحدهما: أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من أسباب القيامة؛ فيكون هذا مجازاً. والآخر: أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة؛ فيكون هذا جواباً لـهذين الصنفين. والله أعلم. وقرأ ابن السميقع: "إنهم منتظَرون" بفتح الظاء. ورويت عن مجاهد وابن محيصن. قال الفراء: لا يصح هذا إلا بإضمار، مجازه: إنهم منتظرون بهم. قال أبو حاتم: الصحيح الكسر؛ أي انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك. وقد قيل: إن قراءة ابن السميقع (بفتح الظاء) معناها: وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم؛ يعني أنهم هالكون لا محالة، وانتظر ذلك فإن الملائكة في السماء ينتظرونه؛ ذكره الزمخشري. وهو معنى قول الفراء. والله أعلم.

سورة الأحزاب

مقدمة السورة:

مدنية في قول جميعهم. نزلت في المنافقين وإيذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها. وهي ثلاث وسبعون آية. وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة. وكانت فيها آية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم)؛ ذكره أبو بكر الأنباري عن أبي بن كعب[1]. وهذا يحمله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من الأحزاب إليه ما يزيد على ما في أيدينا، وأن آية الرجم رفع لفظها. وقد حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن[2]. قال أبو بكر: فمعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة: أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا.

قلت: هذا وجه من وجوه النسخ، وقد تقدم في "البقرة" القول فيه مستوفى والحمد لله. وروى زرّ قال: قال لي أبي بن كعب: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قلت ثلاثاً وسبعين آية؛ قال: فوالذي يحلف به أبي بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم. أراد أبي أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾ ضمت "أي" لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها. و"النبي" نعت لأي عند النحويين؛ إلا الأخفش فإنه يقول: إنه صلة لأي. مكيّ: ولا يعرف في كلام العرب اسم مفرد صلة لشيء. النحاس: وهو خطأ عند أكثر النحويين؛ لأن الصلة لا تكون إلا جملة، والاحتيال له فيما قال إنه لما كان نعتاً لازماً سمي صلة؛ وهكذا الكوفيون يسمون نعت النكرة صلة لها. ولا يجوز نصبه على الموضع عند أكثر النحويين. وأجازه المازني، جعله كقولك: يا زيد الظريف، بنصب "الظريف" على موضع زيد. مكيّ: وهذا نعت يستغنى عنه، ونعت "أي" لا يستغنى عنه فلا يحسن نصبه على الموضع. وأيضاً فإن نعت "أي" هو المنادى في المعنى فلا يحسن نصبه. وروي أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود: قريظة والنضير وبني

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٣/ ٤٦٥) وعزاه إلى أحمد وحسَّن إسناده.

(٢) "ضعيف" لضعف ابن لهيعة، ونوح بن أبي مريم كذبوه.

قينقاع؛ وقد تابعه ناس منهم على النفاق، فكان يلين لـهم جانبه؛ ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه، وكان يسمع منهم؛ فنزلت. وقيل؛ إنها نزلت فيما ذكر الواحدي والقشيري والثعلبي والماوردي وغيرهم في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمرو بن سفيان، نزلوا المدينة على عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بعد أُحُد، وقد أعطاهم النّبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطُعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلـهتنا اللات والعزى ومناة، وقل إن لـها شفاعة ومنعة لمن عبدها، وندعك وربك. فشق على النبي ﷺ ما قالوا. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي في قتلـهم. فقال النبي ﷺ: "إني قد أعطيتهم الأمان" فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه. فأمر النبي ﷺ أن يخرجوا من المدينة؛ فنزلت الآية. ﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾[1] أي خف الله. ﴿ولا تطع الكافرين﴾ من أهل مكة، يعني أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة. ﴿والمنافقين﴾ من أهل المدينة، يعني عبد الله بن أُبي وطُعمة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نهيت عنه، ولا تمل إليهم. ﴿إن الله كان عليماً﴾ بكفرهم ﴿حكيما﴾ فيما يفعل بهم. الزمخشري: وروي أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا على النبي ﷺ في الموادعة التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم عبد الله ابن أبي ومعتب بن قشير والجد بن قيس، فقالوا لرسول الله ﷺ: ارفض ذكر آلـهتنا. وذكر الخبر بمعنى ما تقدم. وأن الآية نزلت في نقض العهد ونبذ الموادعة. "ولا تطع الكافرين" من أهل مكة. "والمنافقين" من أهل المدينة فيما طلبوا إليك. وروي أن أهل مكة دعوا رسول الله ﷺ إلى أن يرجع عن دينه ويعطوه شطر أموالـهم، ويزوجه شيبة بن ربيعة بنته، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع؛ فنزلت. النحاس: ودل بقولـه "إن الله كان عليماً حكيماً" على أنه كان يميل إليهم استدعاء لـهم إلى الإسلام؛ أي لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه؛ لأنه حكيم. ثم قيل: الخطاب لـه ولأمته.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك ﴾ يعني القرآن. وفيه زجر عن اتباع مراسم الجاهلية، وأمر بجهادهم ومنابذتهم، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص. والخطاب له ولأمته. ﴿إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ قراءة العامة بتاء على الخطاب، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق: "يعملون" بالياء على الخبر؛ وكذلك في قولـه: ﴿ بما تعملون بصيرا ﴾ (الفتح: ٢٤). ﴿وتوكل على الله﴾ أي اعتمد عليه في كل أحوالك؛ فهو الذي يمنعك ولا يضرك من خذلك. ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ حافظا. وقال شيخ من أهل الشام: قدم على النبّي ﷺ وفد من ثقيف فطلبوا منه أن يمتعهم باللات سنة ـ وهي الطاغية التي كانت ثقيف تعبدها ـ وقالوا:

---

(١) ضعيف.

لتعلم قريش منزلتنا عندك؛ فهم النبي ﷺ بذلك، فنزلت ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ أي كافياً لك ما تخافه منهم. و "بالله" في موضع رفع لأنه الفاعل. و "وكيلا" نصب على البيان أو الحال.

قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قال مجاهد: نزلت في رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه، وكان يقول: إن لي في جوفي قلبين، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد. قال: وكان من فهر. الواحدي والقشيري وغيرهما: نزلت في جميل بن معمر الفهري، وكان رجلاً حافظاً لما يسمع. فقالت قريش: ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان. وكان يقول: لي قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد. فلما هزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر، رآه أبو سفيان في العير وهو معلق إحدى نعليه في يده والأخرى في رجله؛ فقال أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال انهزموا. قال: فما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ قال: ما شعرت إلا أنهما في رجليّ؛ فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده. وقال السهيلي: كان جميل بن معمر الجمحي، وهو ابن معمر بن حبيب بن وهب ابن حذافة بن جمح، واسم جمح: تيم؛ وكان يدعى ذا القلبين فنزلت فيه الآية، وفيه يقول الشاعر:

وكيف ثوائي بالمدينة بعد ما قضى وطراً منها جميل بن معمر

قلت: كذا قالوا جميل بن معمر. وقال الزمخشري: جميل بن أسد الفهري. وقال ابن عباس: سببها أن بعض المنافقين قال: إن محمداً له قلبان؛ لأنه ربما كان في شيء فنزع في غيره نزعة ثم عاد إلى شأنه الأول؛ فقالوا ذلك عنه فأكذبهم الله عز وجل. وقيل: نزلت في عبد الله بن خطل. وقال الزهري وابن حبان: نزل ذلك تمثيلاً في زيد بن حارثة لما تبناه النبي ﷺ؛ فالمعنى: كما لا يكون لرجل قلبان كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين. قال النحاس: وهذا قول ضعيف لا يصح في اللغة، وهو من منقطعات الزهري، رواه معمر عنه. وقيل: هو مثل ضرب للمُظاهر؛ أي كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى تكون له أمان. وقيل: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرني بكذا، وقلب يأمرني بكذا؛ فالمنافق ذو قلبين؛ فالمقصود رد النفاق. وقيل: لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب، كما لا يجتمع قلبان في جوف؛ فالمعنى: لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب. ويظهر من الآية بجملتها نفي أشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلام بحقيقة الأمر، والله أعلم.

الثانية: القلب بضعة صغيرة على هيئة الصَّنوبرة، خلقها الله تعالى في الآدمي وجعلها محلاً للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يسع في أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهي، ويضبطه فيه بالحفظ الرباني، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئاً. وهو بين لمتين: لمة من الملك، ولمة من الشيطان؛ كما قال ﷺ. خرّجه الترمذي؛ وقد مضى في "البقرة". وهو محل الخطرات والوساوس ومكان الكفر

والإيمان، وموضع الإصرار والإنابة، ومجرى الانزعاج والطمأنينة. والمعنى في الآية: أنه لا يجتمع في القلب الكفر والإيمان، والهدى والضلال، والإنابة والإصرار، وهذا نفي لكل ما توهمه أحد في ذلك من حقيقة أو مجاز، والله أعلم.

الثالثة: أعلم الله عز وجل في هذه الآية أنه لا أحد بقلبين، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم؛ أي إنما هو قلب واحد، فإما فيه إيمان وإما فيه كفر؛ لأن درجة النفاق كأنها متوسطة، فنفاها الله تعالى وبيَّن أنه قلب واحد. وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية، متى نسي شيئاً أو وهم. يقول على جهة الاعتذار: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ يعني قول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي. وذلك مذكور في سورة "المجادلة" على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة. وروى الأئمة أن ابن عمر قال: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[1] (الأحزاب: ٥) وكان زيد فيما روي عن أنس بن مالك وغيره مسبياً من الشام، سبته خيل من تهامة، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمته خديجة فوهبته خديجة للنبي ﷺ فأعتقه وتبناه، فأقام عنده مدة، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبي ﷺ وذلك قبل البعث: "خيراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء". فاختار الرق مع رسول الله ﷺ على حريته وقومه؛ فقال محمد رسول الله ﷺ عند ذلك: "يا معشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه" وكان يطوف على حلَق قريش يشهدهم على ذلك، فرضي ذلك عمه وأبوه وانصرفا. وكان أبوه لما سبي يدور الشام ويقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما أفعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله لا أدري وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل
فيا ليت شعري هل لك الدهر أوبة ... فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
وإن هبت الأرياح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزني عليه وما وجل
سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتيَ أو تأتي علي منيتي ... فكل امرئ فان وإن غره الأمل

فأخبر أنه بمكة؛ فجاء إليه فهلك عنده. وروي أنه جاء فخيَّره النبي ﷺ كما ذكرنا وانصرف. وسيأتي من ذكره وفضله وشرفه شفاء عند قوله: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾ (الأحزاب: ٣٧) إن شاء الله تعالى. وقتل زيد بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة، وكان النبي ﷺ أمره في تلك الغزاة، وقال: "إن قتل زيد فجعفر فإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة"[2]. فقتل الثلاثة في تلك

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦١).

الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ولما أتى رسول الله ﷺ نعي زيد وجعفر بكى وقال: "أخواي ومؤنساي ومحدثاي".

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ نزلت في زيد بن حارثة، على ما تقدّم بيانه. وفي قول ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، دليل على أن التبني كان معمولاً به في الجاهلية والإسلام، يتوارث به ويتناصر، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله. ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ أي أعدل. فرفع الله حكم التبني ومنع من إطلاق لفظه، وأرشد بقوله إلى أن الأولى والأعدل أن ينسب الرجل إلى أبيه نسباً؛ فيقال: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظرفه ضمه إلى نفسه، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال فلان بن فلان. وقال النحاس: هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التبني، وهو من نسخ السنة بالقرآن؛ فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه، فإن لم يكن له ولاء معروف قال له يا أخي؛ يعني في الدين، قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات: ١٠).

الثانية: لو نسبه إنسان إلى أبيه من التبني فإن كان على جهة الخطأ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد فلا إثم ولا مؤاخذة؛ لقوله تعالى: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم﴾ وكذلك لو دعوت رجلاً إلى غير أبيه وأنت ترى أنه أبوه فليس عليك بأس؛ قاله قتادة. ولا يجري هذا المجرى ما غلب عليه اسم التبني كالحال في المقداد بن عمرو فإنه كان غلب عليه نسب التبني، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تبناه في الجاهلية وعرف به. فلما نزلت الآية قال المقداد: أنا ابن عمرو؛ ومع ذلك فبقي الإطلاق عليه. ولم يسمع فيمن مضى من عصّى مطلق ذلك عليه وإن كان متعمداً. وكذلك سالم مولى أبي حذيفة، كان يدعى لأبي حذيفة. وغير هؤلاء ممن تُبُنِّي وانتسب لغير أبيه وشُهر بذلك وغَلب عليه. وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد، فإن قاله أحد متعمداً عصى لقوله تعالى: ﴿ولكن ما تعمدت قلوبكم﴾ أي فعليكم الجناح. والله أعلم. ولذلك قال بعده: ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ أي "غفوراً" للعمد، "رحيماً" برفع إثم الخطأ.

الثالثة: وقد قيل: إن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم﴾ مجمل؛ أي وليس عليكم جناح في شيء أخطأتم، وكانت فتيا عطاء وكثير من العلماء. على هذا إذا حلف رجل ألا يفارق غريمه حتى يستوفي منه حقه، فأخذ منه ما يرى أنه جيد من دنانير فوجدها زيوفاً أنه لا شيء عليه. وكذلك عنده إذا حلف ألا يسلم على فلان فسلم عليه وهو لا يعرفه أنه لا يحنث؛ لأنه لم يتعمد ذلك. و"ما" في موضع خفض رداً على "ما" التي مع "أخطأتم". ويجوز أن تكون في موضع رفع

على إضمار مبتدأ؛ والتقدير: ولكن الذي تؤاخذون به ما تعمدت قلوبكم. قال قتادة وغيره: من نسب رجلاً إلى غير أبيه، وهو يرى أنه أبوه خطأً فذلك من الذي رفع الله فيه الجناح. وقيل: هو أن يقول له في المخاطبة: يا بنيَّ؛ على غير تبنٍّ.

الرابعة : قوله تعالى: ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ "بأفواهكم" تأكيد لبطلان القول؛ أي أنه قول لا حقيقة له في الوجود، إنما هو قول لسانيّ فقط. وهذا كما تقول: أنا أمشي إليك على قدم؛ فإنما تريد بذلك المبرة. وهذا كثير. وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع. ﴿والله يقول الحق﴾ "الحق" نعت لمصدر محذوف؛ أي يقول القول الحق. ﴿وهو يهدي السبيل﴾ معناه يبين؛ فهو يتعدى بغير حرف جر.

الخامسة : قوله تعالى: الأدعياء جمع الدّعيّ وهو الذي يدعي ابناً لغير أبيه أو يدّعي غير أبيه والمصدر الدِّعوة بالكسر فأمر تعالى بدعاء الأدعياء إلى آبائهم للصلب فمن جهل ذلك فيه ولم تشتهر أنسابهم كان مولى وأخاً في الدين. وذكر الطبري أن أبا بكرة قرأ هذه الآية وقال أنا ممن لا يعرف أبوه فأنا أخوكم في الدين ومولاكم. قال الراوي عنه: ولو علم ـ والله ـ أن أباه حمارٌ لانتمى إليه. ورجال الحديث يقولون في أبي بكرة: نُفَيع بن الحارث.

السادسة : روي في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة كلاهما قال: سمعته أذناي ووعاه قلبي محمداً ﷺ يقول: "من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام"[1]. وفي حديث أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: "ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر"[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ فيه تسع مسائل:

الأولى : قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ هذه الآية أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام؛ منها: أنه ﷺ كان لا يصلي على ميت عليه دين، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: "أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفِّي وعليه دين فعليّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته" أخرجه الصحيحان[3]. وفيهما أيضاً "فأيكم ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه". قال ابن العربي: فانقلبت الآن الحال بالذنوب، فإن تركوا مالاً ضويق العصبة فيه، وإن تركوا ضياعاً أسلموا إليه؛ فهذا تفسير الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبي ﷺ وتنبيهه؛ (ولا عطر بعد عَرُوس). قال ابن عطية: وقال بعض العلماء العارفين هو أولى بهم من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة. قال ابن عطية: ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: "أنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها تقحم الفراش".

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٦)، ومسلم (٦٣).
(٢) أخرجه مسلم (٦١).
(٣) أخرجه البخاري (٦٧٣١)، وفي غير موضع، ومسلم (١٦١٩).

قلت: هذا قول حسن في معنى الآية وتفسيرها، والحديث الذي ذكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه»[١]. وعن جابر مثله؛ وقال: «وأنتم تفلّتون من يدي»[٢]. قال العلماء: الحجزة للسراويل، والمعقد للإزار؛ فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه. وهذا مثل لاجتهاد نبينا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا، وحرصه على تخلصنا من الهلكات التي بين أيدينا؛ فهو أولى بنا من أنفسنا؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدونا اللعين بناصرنا أحقر من الفراش وأذل من الفَرَاش، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! وقيل: أولى بهم أي أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبي ﷺ أولى. وقيل أولى بهم أي هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم؛ أي فيما يحكمون به لأنفسهم مما يخالف حكمه.

الثانية: قال بعض أهل العلم: يجب على الإمام أن يقضي من بيت المال دين الفقراء اقتداء بالنبي ﷺ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال: «فعليّ قضاؤه». والضَّياع (بفتح الضاد) مصدر ضاع، ثم جعل اسماً لكل ما هو بصدد أن يضيع من عيال وبنين لا كافل لهم، ومال لا قَيِّم له. وسميت الأرض ضيعة لأنها معرضة للضياع، وتجمع ضياعاً بكسر الضاد.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ شرف الله تعالى أزواج نبيه ﷺ بأن جعلهن أمهات المؤمنين؛ أي في وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال، وحجبهن رضي الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات. وقيل: لما كانت شفقتهن عليهم كشفقة الأمهات أنزلن منزلة الأمهات، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثاً كأمومة التبني. وجاز تزويج بناتهن، ولا يجعلن أخوات للناس. وسيأتي عدد أزواج النبي ﷺ في آية التخيير إن شاء الله تعالى. واختلف الناس هل هن أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة؛ على قولين: فروى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة قالت لها: يا أمه؛ فقالت لها: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم. قال ابن العربي: وهو الصحيح.

قلت: لا فائدة في اختصاص الحصر في الإباحة للرجال دون النساء، والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء. يدل عليه صدر الآية: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة. ويدل على ذلك حديث أبي هريرة وجابر؛ فيكون قوله: «وأزواجه أمهاتهم» عائداً إلى الجميع. ثم إن في مصحف أُبي بن كعب «وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم». وقرأ ابن عباس: «من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم». وهذا كله يوهن ما رواه مسروق إن صح من جهة الترجيح، وإن لم يصح فيسقط الاستدلال به في التخصيص، وبقينا على الأصل الذي هو العموم الذي يسبق إلى الفهوم. والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨٥).

الرابعة : قولـه تعالى: ﴿ وأولـو الأرحـام بعضـهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ﴾ قيل: إنه أراد بالمؤمنين الأنصار، وبالمهاجرين قريشاً. وفيه قولان: أحدهما: أنه ناسخ للتوارث بالـهجرة. حكى سعيد عن قتادة قال: كان نزل في سورة الأنفال ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ (الأنفال: ٧٢) فتوارث المسلمون بالـهجرة؛ فكان لا يرث الأعرابي المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئاً حتى يهاجر، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقولـه: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ . الثاني: أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين؛ روى هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير: "وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله" وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم؛ فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخيت أنا كعب بن مالك، فجئت فوجدت السلاح قد أثقلـه؛ فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا. وثبت عن عروة أن رسول الله ﷺ آخى بين الزبير وبين كعب بن مالك، فارتث كعب يوم أحد فجاء الزبير يقوده بزمام راحلته؛ فلو مات يومئذ كعب عن الضِّح والريح لورثه الزبير، فأنزل الله تعالى: ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ . فبين الله تعالى أن القرابة أولى من الحلف، فتركت الوراثة بالحلف وورثوا بالقرابة. وقد مضى في "الأنفال" الكلام في توريث ذوي الأرحام. وقولـه: "في كتاب الله" يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذي قضى فيه أحوال خلقه. و"من المؤمنين" متعلق بـ "أولى" لا بقولـه: "وأولو الأرحام" بالإجماع؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين، ولا خلاف في عمومها، وهذا حل إشكالـها؛ قالـه ابن العربي. النحاس: "وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين" يجوز أن يتعلق "من المؤمنين" بـ "أولو " فيكون التقدير: وأولو الأرحام من المؤمنين والمهاجرين. ويجوز أن يكون المعنى أولى من المؤمنين. وقال المهدوي: وقيل إن معناه: وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إلا ما يجوز لأزواج النبي ﷺ أن يدعين أمهات المؤمنين. والله تعالى أعلم.

الخامسة : واختلف في كونهن كالأمهات في المحرم وإباحة النظر؛ على وجهين: أحدهما: هن محرم، لا يحرم النظر إليهن. الثاني: أن النظر إليهن محرم، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظاً لحق رسول الله ﷺ فيهن، وكان من حفظ حقه تحريم النظر إليهن؛ ولأن عائشة رضي الله عنها كانت إذا أرادت دخول رجل عليها أمرت أختها أسماء أن ترضعه ليصير ابناً لأختها من الرضاعة، فيصير محرماً يستبيح النظر. وأما اللاتي طلقهنّ رسول الله ﷺ في حياته فقد اختلف في ثبوت هذه الحرمة لـهن على ثلاثة أوجه: أحدها: ثبتت لـهن هذه الحرمة تغليباً لحرمة رسول الله ﷺ. الثاني: لا يثبت لـهن ذلك، بل هن كسائر النساء؛ لأن النبي ﷺ قد أثبت عصمتهن، وقال: (أزواجي في الدنيا هن أزواجي في الآخرة). الثالث: من دخل بها رسول الله ﷺ منهن ثبتت حرمتها وحرم نكاحها وإن طلقها؛ حفظاً لحرمته وحراسة لخلوته. ومن لم يدخل بها لم تثبت لـها هذه الحرمة؛ وقد همَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجم امرأة فارقها رسول الله ﷺ فتزوجت فقالت: لم هذا! وما ضرب عليَّ رسول الله ﷺ حجاباً ولا سميت أم المؤمنين؛ فكفّ عنها عمر رضي الله عنه.

السادسة : قال قوم: لا يجوز أن يسمَّى النبي ﷺ أباً لقولـه تعالى: ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾(الأحزاب: ٤٠). ولكن يقال: مثل الأب للمؤمنين؛ كما قال: "إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم..."[1] الحديث. خرَّجه أبو داود. والصحيح أنه يجوز أن يقال: إنه أب للمؤمنين، أي في الحرمة، وقولـه تعالى: ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ (الأحزاب: ٤٠) أي في النسب. وسيأتي. وقرأ ابن عباس: "من أنفسهم وهو أب لـهم وأزواجه". وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال: حكمها يا غلام؟ فقال: إنها في مصحف أُبي؛ فذهب إليه فسألـه فقال لـه أُبي: إنه كان يلـهيني القرآن ويلـهيك الصفق بالأسـواق؟ وأغلظ لعمر. وقد قيل في قول لوط ﷺ ﴿ هؤلاء بناتي ﴾(الحجر: ٧١): إنما أراد المؤمنات؛ أي تزوجوهن. وقد تقدّم.

السابعة : قال قوم: لا يقال بناته أخوات المؤمنين، ولا أخوالـهن أخوال المؤمنين وخالاتهم. قال الشافعّي ﷺ: تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي أخت عائشة، ولم يقل هي خالة المؤمنين. وأطلق قوم هذا وقالوا: معاوية خال المؤمنين؛ يعني في الحرمة لا في النسب.

الثامنة : قولـه تعالى: ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ يريد الإحسان في الحياة، والوصية عند الموت؛ أي إن ذلك جائز؛ قالـه قتادة والحسن وعطاء. وقال محمد ابن الحنفية، نزلت في إجازة الوصية لليهودي والنصراني؛ أي يفعل هذا مع الولي والقريب وإن كان كافراً؛ فالمشرك وليّ في النسب لا في الدين فيوصى لـه بوصية. واختلف العلماء هل يجعل الكافر وصياً؛ فجوّز بعض ومنع بعض. ورد النظر إلى السلطان في ذلك بعض؛ منهم مالك رحمه الله تعالى. وذهب مجاهد وابن زيد والرماني إلى أن المعنى: إلى أوليائكم من المؤمنين. ولفظ الآية يعضد هذا المذهب، وتعميم الولي أيضاً حسن. وولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنما تدفع أن يلقى إليه بالمودة كولي الإسلام.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ "الكتاب" يحتمل الوجهين المذكورين المتقدمين في "كتاب الله". و"مسطوراً" من قولك سطرت الكتاب إذا أثبته أسطاراً. وقال قتادة: أي مكتوباً عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلماً. قال قتادة: وفي بعض القراءة "كان ذلك عند الله مكتوبا". وقال القرظي: كان ذلك في التوراة.

قولـه تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾ أي عهدهم على الوفاء بما حملوا، وأن يبشر بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً؛ أي كان مسطوراً حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء. ﴿ومنك﴾ يا محمد ﴿ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ وإنما خص هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النبيين تفضيلاً لـهم. وقيل: لأنهم أصحاب الشرائع والكتب، وأولو العزم من الرسل وأئمة الأمم. ويحتمل أن يكون هذا تعظيماً في قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أي هذا مما لم تختلف فيه الشرائع، أي شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) "حسن" انظر صحيح الجامع (٢٣٤٦).

أي كان في ابتداء الإسلام توارث بالهجرة، والهجرة سبب متأكد في الديانة، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن في دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق؛ فلا تداهنوا في الدين ولا تمالئوا الكفار. ونظيره: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ﴾ إلى قوله ﴿ ولا تتفرقوا فيه ﴾ (الشورى: ١٣). ومن ترك التفرق في الدين ترك موالاة الكفار. وقيل: أي النبّي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك في الكتاب مسطوراً ومأخوذاً به المواثيق من الأنبياء. ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا﴾ أي عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضاً. والميثاق هو اليمين بالله تعالى؛ فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأول باليمين. وقيل: الأول هو الإقرار بالله تعالى، والثاني في أمر النبوة. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾ (آل عمران: ٨١) الآية. أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمداً رسول الله ﷺ، ويعلن محمد ﷺ أن لا نبيّ بعده. وقدّم محمداً في الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ قال: «كنت أولهم في الخلق وآخرهم في البعث»[1]. وقال مجاهد: هذا في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم؛ حكاه النقاش. وفي هذا تنبيه؛ أي إذا كان الأنبياء يسألون فكيف من سواهم. الثاني: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم؛ حكاه علّي بن عيسى. الثالث: ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم؛ حكاه ابن شجرة. الرابع: ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة، وفي التنزيل: ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ (الأعراف: ٦). وقد تقدّم. وقيل: فائدة سؤالهم توبيخ الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ (المائدة: ١١٦). ﴿ وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ وهو عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

يعني غزوة الخندق والأحزاب وبني قريظة، وكانت حالاً شديدة معقبة بنعمة ورخاء وغبطة، وتضمنت أحكاماً كثيرة وآيات باهرات عزيزة، ونحن نذكر من ذلك بعون الله تعالى ما يكفي في عشر مسائل.

الأولى: اختلف في أي سنة كانت؛ فقال ابن إسحاق: كانت في شوال من السنة الخامسة. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله: كانت وقعة الخندق سنة أربع، وهي وبنو قريظة في يوم واحد، وبين بني قريظة والنضير أربع سنين. قال ابن وهب وسمعت مالكاً يقول: أمر رسول الله ﷺ بالقتال

(١) ضعيف.

من المدينة، وذلك قولـه تعالى: ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ (الأحزاب: ١٠). قال: ذلك يوم الخندق، جاءت قريش من ها هنا واليهود من ها هنا والنجدية من ها هنا. يريد مالك: إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغطفان. وكان سببها: أن نفراً من اليهود منهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وسلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وحييّ بن أخطب النضريون وهوذة بن قيس وأبو عمار من بني وائل، وهم كلـهم يهود، هم الذين حزبوا الأحزاب وألبوا وجمعوا، خرجوا في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل فأتوا مكة فدعوا إلى حرب رسول الله ﷺ، وواعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك؛ فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم؛ فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة ابن بدر الفزاري على فزارة، والحارث بن عوف المري على بني مرة، ومسعود بن رخيلة على أشجع. فلما سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم وخروجهم شاور أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق فرضي رأيه. وقال المهاجرون يومئذ: سلمان منا. وقال الأنصار: سلمان منا! فقال رسول الله ﷺ: "سلمان منا أهل البيت"[(١)]. وكان الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذ حر. فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا؛ فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين، ونكص المنافقون وجعلوا يتسللون لواذًا فنزلت فيهم آيات من القرآن ذكرها ابن إسحاق وغيره. وكان من فرغ من المسلمين من حصته عاد إلى غيره، حتى كمل الخندق. وكانت فيه آيات بينات وعلامات للنبوات.

قلت: ففي هذا الذي ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهي:

الثانية: مشاورة السلطان أصحابه وخاصته في أمر القتال؛ وقد مضى ذلك في "آل عمران، والنمل". وفيه التحصن من العدو بما أمكن من الأسباب واستعمالـها؛ وقد مضى ذلك في غير موضع. وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوماً على الناس؛ فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ، فالمسلمون يد على من سواهم؛ وفي البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا[(٢)]

وأما ما كان فيه من الآيات وهي:

الثالثة: فروى النسائي عن أبي سكينة رجل من المحررين عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لما أمر رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لـهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله ﷺ وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا ﴾ (الأنعام: ١١٥)

---

(١) "ضعيف جداً مرفوعاً" انظر ضعيف الجامع (٣٢٧٢) والصحيح وقفه على عليّ.
(٢) أخرجه البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣).

الآية؛ فندر ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله ﷺ برقة، ثم ضرب الثانية وقال: ﴿ وتمت ﴾ (الأنعام: ١١٥) الآية؛ فندر الثلث الآخر؛ فبرقت برقة فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة وقال: "وتمت كلمة ربك صدقا" الآية؛ فندر الثلث الباقي، وخرج رسول الله ﷺ فأخذ رداءه وجلس. قال سلمان: يا رسول الله، رأيتك حين ضربت! ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة؟ قال لـه رسول الله ﷺ: "رأيت ذلك يا سلمان"؟ فقال: أي والذي بعثك بالحق يا رسول الله! قال: "فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى وما حولـها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني" ـ قال لـه من حضره من أصحابه: يا رسول الله، ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم؛ فدعا رسول الله ﷺ ـ "ثم ضربت الضربة الثانية فرفعت لي مدائن قيصر وما حولـها حتى رأيتها بعيني" ـ قالوا: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم؛ فدعا رسول الله ﷺ ـ "ثم ضربتُ الضربة الثالثة فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولـها من القرى حتى رأيتها بعيني" قال رسول الله ﷺ عند ذلك: "دعوا الحبشة ما ودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم"[1]. وخرّجه أيضاً عن البراء قال: لما أمرنا رسول الله ﷺ أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ؛ فجاء رسول الله ﷺ فألقى ثوبه وأخذ المعول وقال: "باسم الله" فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال: "الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكاني هذا" قال: ثم ضرب أخرى وقال: "باسم الله" فكسر ثلثاً آخر ثم قال: "الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض". ثم ضرب الثالثة وقال: "باسم الله" فقطع الحجر وقال: "الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر باب صنعاء". صححه أبو محمد عبد الحق.

الرابعة: فلما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق أقبلت قريش في نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أُحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى نزلوا بظهر سلع في ثلاثة آلاف وضربوا عسكرهم والخندق بينهم وبين المشركين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ـ في قول ابن شهاب ـ وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي، وكان صاحب عقد بني قريظة ورئيسهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ وعاهده؛ فلما سمع كعب بن أسد حيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه وأبى أن يفتح لـه؛ فقال لـه: افتح لي يا أخي؛ فقال لـه: لا أفتح لك، فإنك رجل مشؤوم، تدعوني إلى خلاف محمد وأنا قد عاقدته وعاهدته، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، فلست بناقض ما بيني وبينه. فقال حيي: افتح لي حتى أكلمك وأنصرف عنك؛ فقال: لا أفعل؛ فقال: إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك؛ فغضب كعب وفتح لـه؛ فقال: يا كعب! إنما جئتك بعزّ الدهر، جئتك بقريش وسادتها، وغطفان وقادتها؛ قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمداً ومن معه؛ فقال لـه كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام لا غيث فيه! ويحك يا حيّي؟ دعني فلست بفاعل ما تدعوني إليه؛ فلم يزل حيّي بكعب يعده ويغره حتى رجع إليه وعاقده على خذلان محمد ﷺ وأصحابه وأن يسير معهم، وقال لـه حيّي بن أخطب: إن انصرفت

---

(١) ضعيف، دون قوله: "دعو الحبشة... الخ"، فإنه حسن كما في صحيح الجامع (٣٣٨٤).

قريش وغطفان دخلت عندك بمن معي من اليهود. فلما انتهى خبر كعب وحيي إلى النبي ﷺ بعث سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وسيد الأوس سعد بن معاذ، وبعث معهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير، وقال لـهم رسول الله ﷺ: "انطلقوا إلى بني قريظة فإن كان ما قيل لنا حقا فالحنوا لنا لحناً ولا تفتّوا في أعضاد الناس. وإن كان كذباً فاجهروا به للناس" فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما قيل لـهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهد لـه عندنا؛ فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه؛ وكانت فيه حدة فقال لـه سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فالذي بيننا وبينهم أكثر من ذلك، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله ﷺ في جماعة المسلمين فقالا: عضل والقارة ـ يعرضان بغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ـ فقال النبّي ﷺ. "أبشروا يا معشر المسلمين" وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتى المسلمين عدوهم من فوقهم؛ يعني من فوق الوادي من قبل المشرق، ومن أسفل منهم من بطن الوادي من قبل المغرب، حتى ظنوا بالله الظنونا؛ وأظهر المنافقون كثيراً مما كانوا يسرون، فمنهم من قال: إن بيوتنا عورة، فلننصرف إليها، فإنا نخاف عليها.

وممن قال ذلك: أوس بن قيظي. ومنهم من قال: يعدنا محمد أن يفتح كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط! وممن قال ذلك: معتب بن قشير أحد بني عمرو بن عوف. فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى. فلما رأى رسول الله ﷺ أنه اشتد على المسلمين البلاء بعث إلى عيينة بن حصن الفزاري، وإلى الحارث بن عوف المري، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلان قريشاً ويرجعا بقومهما عنهم. وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقداً؛ فلما رأى رسول الله ﷺ منهما أنهما قد أنابا ورضيا أتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لـهما واستشارهما فقالا: يا رسول الله، هذا أمر تحبه فنصنعه لك، أو شيء أمرك الله به فنسمع لـه ونطيع، أو أمر تصنعه لنا؟ قال: "بل أمر أصنعه لكم، والله ما أصنعه إلا أني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة" فقال لـه سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا شراء أو قرى، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا لـه وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم!! فسرّ رسول الله ﷺ بذلك وقال: "أنتم وذاك". وقال لعيينة والحارث: "انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف". وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فمحاها.

الخامسة: فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون على حالـهم، والمشركون يحاصرونهم ولا قتال بينهم؛ إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود العامري من بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب الفهري، وكانوا فرسان قريش وشجعانهم، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: إن هذه لمكيدة، ما كانت العرب تكيدها. ثم تيمموا مكاناً ضيقا من الخندق، فضربوا خيلـهم فاقتحمت بهم، وجاوزوا الخندق وصاروا بين الخندق وبين سلع،

وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها، وأقبلت الفرسان نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قد أثبتته الجراح يوم بدر فلم يشهد أحداً، وأراد يوم الخندق أن يُرى مكانه، فلما وقف هو وخيله؛ نادى: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب وقال له: يا عمرو، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تدعى إلى إحدى خلتين إلا أخذت إحداهما؟ قال نعم. قال: فإني أدعوك إلى الله والإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. قال: فأدعوك إلى البراز. قال: يا ابن أخي، والله ما أحب أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك. فقال له علي: أنا والله أحب أن أقتلك. فحمي عمرو بن عبد ود ونزل عن فرسه، فعقره وصار نحو علي، فتنازلا وتجاولا وثار النقع بينهما حتى حال دونهما، فما انجلى النقع حتى رئي علي على صدر عمرو يقطع رأسه، فلما رأى أصحابه أنه قد قتله عليّ اقتحموا بخيلهم الثغرة منهزمين هاربين. وقال عليّ ﷺ في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ... ونصرت دين محمد بضراب
نازلته فتركته متجدلا ... كالجذع بين دكادك وروابي
وعففت عن أثوابه ولو أنني ... كنت المقطر بَزّني أثوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه ... ونبيه يا معشر الأحزاب

قال ابن هشام: أكثر أهل العلم بالسير يشك فيها لعليّ. قال ابن هشام: وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو؛ فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فر وألقى لنا رمحه ... لعلك عكرم لم تفعل
ووليت تعدو كعدو الظّليم ما إن تجور عن المعدل
ولم تلق ظهرك مستأنسا ... كأن قفاك قفا فرعل

قال ابن هشام: فرعل صغير الضباع. وكانت عائشة رضي الله عنها في حصن بني حارثة، وأم سعد بن معاذ معها، وعلى سعد درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه، وفي يده حربته وهو يقول:

لَبِّث قليلاً يلحق الهيجا جمل ... لا بأس بالموت إذا كان الأجل

ورُمي يومئذ سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل. واختلف فيمن رماه؛ فقيل: رماه حبان بن قيس ابن العرقة، أحد بني عامر بن لؤي، فلما أصابه قال له: خذها وأنا ابن العرقة. فقال له سعد: عرّق الله وجهك في النار. وقيل: إن الذي رماه خفاجة بن عاصم بن حبان. وقيل: بل الذي رماه أبو أسامة الجشميّ، حليف بني مخزوم. ولحسان مع صفية بنت عبد المطلب خبر طريف يومئذ؛ ذكره ابن إسحاق وغيره. قالت صفية بنت عبد المطلب ﵂: كنا يوم الأحزاب في حصن حسان بن ثابت، وحسان معنا في النساء والصبيان، والنبي ﷺ وأصحابه في نحر العدّو لا يستطيعون الانصراف إلينا، فإذا يهودي يدور، فقلت لحسان: انزل إليه فاقتله؛ فقال: ما أنا بصاحب هذا يا ابنة عبد المطلب! فأخذت عموداً ونزلت من الحصن فقتلته، فقلت: يا حسان، انزل فاسلبه، فلم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. فقال: ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب! قال: فنزلت فسلبته. قال أبو عمر بن عبد البر: وقد أنكر هذا عن حسان جماعة من أهل السير وقالوا: لو كان في حسان من الجبن ما وصفتم لهجاه بذلك الذين كان

يهاجيهم في الجاهلية والإسلام، ولـهجي بذلك ابنه عبد الرحمن؛ فإنه كان كثيراً ما يهاجي الناس من شعراء العرب؛ مثل النجاشي وغيره.

السادسة: وأتى رسول الله ﷺ نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعّي فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بما شئت؛ فقال لـه رسول الله ﷺ: "إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذلت عنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فاخرج فإن الحرب خدعة". فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ـ وكان ينادمهم في الجاهلية ـ فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودّي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم؛ قالوا: قل فلست عندنا بمتهم؛ فقال لـهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً. ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لـهم: قد عرفتم ودّي لكم معشر قريش، وفراقي محمداً، وقد بلغني أمر أرى من الحق أن أبلغكموه ونصحاً لكم، فاكتموا عليّ؛ قالوا نفعل؛ قال: تعلمون أن معشر يهود، قد ندموا على ما كان من خذلانهم محمداً، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلـهم. ثم أتى غطفان فقال مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسولـه والمؤمنين، أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لـهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا صبيحة غد للقتال حتى نناجز محمداً؛ فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما نال منا من تعدّى في السبت، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً؛ فلما رجع الرسول بذلك قالوا: صدقنا والله نعيم بن مسعود؛ فردوا إليهم الرسل وقالوا: والله لا نعطيكم رهناً أبداً فاخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم. فقال بنو قريظة: صدق والله نعيم بن مسعود. وخذل الله بينهم، واختلفت كلمتهم، وبعث الله عليهم ريحاً عاصفاً في ليال شديدة البرد؛ فجعلت الريح تقلب آنيتهم وتكفأ قدورهم.

السابعة: فلما اتصل برسول الله ﷺ اختلاف أمرهم، بعث حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبرهم، فأتاهم واستتر في غمارهم، وسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، ليتعرف كل امرئ جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد جليسي وقلت: ومن أنت؟ فقال أنا فلان. ثم قال أبو سفيان: ويلكم يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة، ولقينا من هذه الريح ما ترون، ما يستمسك لنا بناء، ولا تثبت لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، فارتحلوا فإني مرتحل؛ ووثب على جملـه فما حل عقال يده إلا وهو قائم. قال حذيفة: ولولا عهد رسول الله ﷺ لي إذ بعثني، قال لي: (مر إلى القوم فاعلم ما هم عليه ولا تحدث شيئا) ـ لقتلته بسـهم؛ ثم أتيت رسول الله ﷺ عند رحيلـهم، فوجدته قائماً يصلي في مرط لبعض نسائه مراجل ـ قال ابن هشام: المراجل ضرب من وشي اليمن ـ فأخبرته فحمد الله.

قلت: وخبر حذيفة هذا مذكور في صحيح مسلم، وفيه آيات عظيمة، رواه جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت. فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقرّ. فقال رسول الله ﷺ: "ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعلـه الله معي يوم القيامة"؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: "ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعلـه الله معي يوم القيامة"؟ فسكتنا فلم يجبه أحد. فقال: "قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم" فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: "اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم علي" قال: فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمّام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: "ولا تذعرهم علي" ولو رميته لأصبته: فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمّام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: "قم يا نومان"[1]. ولما أصبح رسول الله ﷺ وقد ذهب الأحزاب، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم، فأتاه جبريل عليه السلام في صورة دحية بن خليفة الكلبّي، على بغلة عليها قطيفه ديباج فقال لـه: يا محمد، إن كنتم قد وضعتم سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها. إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة، وإني متقدم إليهم فمزلزل بهم حصونهم. فأمر رسول الله ﷺ وهي:

الثامنة: منادياً فنادى: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة؛ فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قريظة. وقال آخرون: لا نصلّي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت. قال: فما عنف واحداً من الفريقين. وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين. وقد مضى بيانه في "الأنبياء".
وكان سعد بن معاذ إذ أصابه السهم دعا ربه فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش فأبقني لـها؛ فإنه لا قوم أحب أن أجاهدهم من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه. اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلـها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة. وروى ابن وهب عن مالك قال: بلغني أن سعد بن معاذ مر بعائشة رضي الله عنها ونساء معها في الأطم (فارع)، وعليه درع مقلصة مشمر الكمين، وبه أثر صفرة وهو يرتجز:

لَبِّث قليلاً يدرك الـهيجا جمل   لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت عائشة رضي الله عنها: لست أخاف أن يصاب سعد اليوم إلا في أطرافه؛ فأصيب في أكحلـه. وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلا أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله ﷺ. فأصيب في أكحلـه ثم قال: اللهم إن كان حرب قريظة لم يبق منه شيء فاقبضني إليك، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقني حتى أجاهد مع رسولك أعداءه؛ فلما حكم في بني قريظة توفي؛ ففرح الناس وقالوا: نرجو أن يكون قد استجيبت دعوته.

التاسعة: ولما خرج المسلمون إلى بني قريظة أعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ونهض علي وطائفة معه حتى أتوا بني قريظة ونازلوهم، فسمعوا سب الرسول ﷺ، فانصرف علي إلى رسول الله ﷺ فقال لـه: يا رسول الله، لا تبلغ إليهم،

---

(١) أخرجه مسلم في "الجهاد والسير"، (١٧٨٨).

وعرَّض لـه. فقال لـه: "أظنك سمعت منهم شتمي. لو رأوني لكفوا عن ذلك" ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا. فقال لـهم: "نقضتم العهد يا إخوة القرود أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته" فقالوا: ما كنت جاهلاً يا محمد فلا تجهل علينا؛ ونزل رسول الله ﷺ فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة. وعرض عليهم سيدهم كعب ثلاث خصال ليختاروا أيها شاءوا: إما أن يسلموا ويتبعوا محمداً على ما جاء به فيسلَموا. قال: وتحرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذي تجدونه مكتوباً في كتابكم. وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدموا فيقاتلون حتى يموتوا من آخرهم. وإما أن يبيتوا المسلمين ليلة السبت في حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلاً. فقالوا لـه: أما الإسلام فلا نسلم ولا نخالف حكم التوراة، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلـهم، ونحن لا نتعدى في السبت. ثم بعثوا إلى أبي لبابة، وكانوا حلفاء بني عمرو بن عوف وسائر الأوس، فأتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالـهم وقالوا لـه: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ فقال نعم، - وأشار بيده إلى حلقه - إنه الذبح إن فعلتم. ثم ندم أبو لبابة في الحين، وعلم أنه خان الله ورسولـه، وأنه أمر لا يستره الله عليه عن نبيه ﷺ. فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبي ﷺ فربط نفسه في سارية وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه فكانت امرأته تحلـه لوقت كل صلاة. قال ابن عيينة وغيره: فيه نزلت: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم ﴾ (الأنفال: ٢٧) الآية. وأقسم ألا يدخل أرض بني قريظة أبداً مكاناً أصاب فيه الذنب. فلما بلغ ذلك النبي ﷺ من فعل أبي لبابة قال: "أما إنه لو أتاني لاستغفرت لـه وأما إذ فعل ما فعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى" فأنزل الله تعالى في أمر أبي لبابة: ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾[1] (التوبة: ١٠٢) الآية. فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله ﷺ بإطلاقه، فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثب الأوس إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله، وقد علمت أنهم حلفاؤنا، وقد أسعفت عبد الله بن أبي ابن سلول في بني النضير حلفاء الخزرج، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا، فهم موالينا. فقال لـهم رسول الله ﷺ: "يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم" قالوا بلى. قال: "فذلك إلى سعد بن معاذ". وكان رسول الله ﷺ قد ضرب لـه خيمة في المسجد، ليعوده من قريب في مرضه من جرحه الذي أصابه في الخندق. فحكم فيهم بأن تقتل المقاتلة، وتسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالـهم. فقال لـه رسول الله ﷺ: "لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرقعة"[2]. وأمر رسول الله ﷺ فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم - زمن ابن إسحاق - فخندق بها خنادق، ثم أمر ﷺ فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، وقتل يومئذ حيي بن أخطب وكعب بن أسد، وكانا رأس القوم، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة. وكان على حيي حلة فقاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة، أنملة أنملة لئلا يسلبها. فلما نظر إلى رسول الله ﷺ حين أتي به ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبل قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك. ولكنه من يخذل الله يخذل.

---

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

ثم قال: يا أيها الناس، لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبت على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه. وقتل من نسائهم امرأة، وهي بنانة امرأة الحكم القرظي التي طرحت الرحى على خلاد ابن سويد فقتلته. وأمر رسول الله ﷺ بقتل كل من أنبت منهم وترك من لم ينبت. وكان عطية القرظي ممن لم ينبت، فاستحياه رسول الله ﷺ، وهو مذكور في الصحابة. ووهب رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس ولد الزبير بن باطا فاستحياهم؛ منهم عبد الرحمن بن الزبير أسلم وله صحبة. ووهب أيضاً ﷺ رفاعة بن سموأل القرظي لأم المنذر سلمى بنت قيس، أخت سليط بن قيس من بني النجار، وكانت قد صلت إلى القبلتين؛ فأسلم رفاعة وله صحبة ورواية. وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال: أتى ثابت بن قيس بن شماس إلى ابن باطا ـ وكانت له عنده يد ـ وقال: قد استوهبتك من رسول الله ﷺ ليدك التي لك عندي، قال: ذلك يفعل الكريم بالكريم، ثم قال: وكيف يعيش رجل لا ولد له ولا أهل؟ قال: فأتى ثابت إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فأعطاه أهله وولده؛ فأتى فأعلمه فقال: كيف يعيش رجل لا مال له؟ فأتى ثابت النبي ﷺ فطلبه فأعطاه ماله، فرجع إليه فأخبره؛ قال: ما فعل ابن أبي الحقيق الذي كأن وجهه مرآة صينية؟ قال: قتل. قال: فما فعل المجلسان، يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؟ قال: قتلوا. قال: فما فعلت الفتتان؟ قال: قتلتا. قال: برئت ذمتك، ولن أصبّ فيها دلواً أبداً، يعني النخل، فألحقني بهم، فأبى أن يقتله فقتله غيره. واليد التي كانت لابن باطا عند ثابت أنه أسره يوم بعاث فجز ناصيته وأطلقه.

العاشرة: وقسم ﷺ أموال بني قريظة فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً. وقد قيل: للفارس سهمان وللراجل سهم. وكانت الخيل للمسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرساً. ووقع للنبي ﷺ من سبيهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة أحد بني عمرو بن قريظة، فلم تزل عنده إلى أن مات ﷺ. وقيل: إن غنيمة قريظة هي أول غنيمة قسم فيها للفارس والراجل، وأول غنيمة جعل فيها الخمس. وقد تقدم أن أول ذلك كان في بعث عبد الله بن جحش؛ فالله أعلم. قال أبو عمر: وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أول غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾ (الأنفال: ٤١) الآية. وكان عبد الله بن جحش قد خمّس قبل ذلك في بعثه، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله؛ وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه.

وكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة من الهجرة. فلما تم أمر بني قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ، فانفجر جرحه، وانفتح عرقه، فجرى دمه ومات ﷺ. وهو الذي أتى الحديث فيه: «اهتز لموته عرش الرحمن»[1] يعني سكان العرش من الملائكة فرحوا بقدوم روحه واهتزوا له. وقال ابن القاسم عن مالك: حدثني يحيى بن سعيد قال: لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملك، ما نزلوا إلى الأرض قبلها. قال مالك: ولم يستشهد يوم الخندق من المسلمين إلا أربعة أو خمسة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦).

قلت: الذي استشهد يوم الخندق من المسلمين ستة نفر فيما ذكر أهل العلم بالسير: سعد بن معاذ أبو عمرو من بني عبد الأشهل، وأنس بن أوس بن عتيك، وعبد الله بن سهل، وكلاهما أيضاً من بني عبد الأشهل، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة، وكلاهما من بني سلمة، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار، أصابه سهم غرب فقتله، ﷺ. وقتل من الكفار ثلاثة: منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهم مات منه بمكة. وقد قيل: إنما هو عثمان بن أمية بن منبه بن عبيد بن السباق. ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، اقتحم الخندق فتورط فيه فقتل، وغلب المسلمون على جسده؛ فروي عن الزهري أنهم أعطوا رسول الله ﷺ في جسده عشرة آلاف درهم فقال: (لا حاجة لنا بجسده ولا بثمنه) فخلى بينهم وبينه. وعمرو بن عبد ود الذي قتله عليّ مبارزة، وقد تقدم. واستشهد يوم قريظة من المسلمين خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج؛ طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحى فقتلته. ومات في الحصار أبو سنان بن محصن بن حرثان الأسدي، أخو عكاشة بن محصن، فدفنه رسول الله ﷺ في مقبرة بني قريظة التي يتدافن فيها المسلمون السكان بها اليوم. ولم يصب غير هذين، ولم يغز كفار قريش المؤمنين بعد الخندق. وأسند الدارمي أبو محمد في مسنده: أخبرنا يزيد بن هارون عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي من الليل حتى كفينا؛ وذلك قول الله عز وجل: ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزا ﴾ (الأحزاب: ٢٥) فأمر النبي ﷺ بلالاً فأقام فصلّى الظهر فأحسن كما كان يصليها في وقتها، ثم أمره فأقام العصر فصلاّها، ثم أمره فأقام المغرب فصلاّها، ثم أمره فأقام العشاء فصلاّها، وذلك قبل أن ينزل: ﴿ فإن خفتم فرجالا أو ركبانا ﴾ (البقرة: ٢٣٩) خرّجه النسائي أيضا[1]. وقد مضت هذه المسألة في "طه". وقد ذكرنا في هذه الغزاة أحكاماً كثيرة لمن تأملها في مسائل عشر. ثم نرجع إلى أول الآي وهي تسع عشرة آية تضمنت ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿ إذ جاءتكم جنود ﴾ يعني الأحزاب. ﴿فأرسلنا عليهم ريحا﴾ قال مجاهد: هي الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم. قال: والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذ. وقال عكرمة: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقي لنصرة النبّي ﷺ، فقالت الشمال: إن محوة لا تسري بليل. فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا. وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: "نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور"[2] وكانت هذه الريح معجزة للنبّي ﷺ؛ لأن النبّي ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها، ولا خبر عندهم بها. ﴿وجنودا لم تروها﴾ وقرئ بالياء؛ أي لم يرها المشركون. قال المفسرون: بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر؛ حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إلي

(١) وكذا أخرجه البخاري (٥٩٦)، وفي غير موضع، ومسلم (٢٠٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، وفي غير موضع، ومسلم (٩٠٠)

فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء؛ لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب. ﴿وكان الله بما تعملون بصيرا﴾ وقرئ: "يعملون" بالياء على الخبر، وهي قراءة أبي عمرو. الباقون بالتاء؛ يعني من حفر الخندق والتحرز من العدو.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ "إذ" في موضع نصب بمعنى واذكر. وكذا ﴿وإذ قالت طائفة منهم﴾ (الأحزاب: ١٣). ﴿من فوقكم﴾ يعني من فوق الوادي، وهو أعلاه من قبل المشرق، جاء منه عوف بن مالك في بني نصر، وعيينه بن حصن في أهل نجد، وطليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد. ﴿ومن أسفل منكم﴾ يعني من بطن الوادي من قبل المغرب، جاء منه أبو سفيان بن حرب على أهل مكة، ويزيد بن جحش على قريش، وجاء أبو الأعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة مع عامر بن الطفيل من وجه الخندق. ﴿وإذ زاغت الأبصار﴾ أي شخصت. وقيل: مالت؛ فلم تلتفت إلا إلى عدوها دهشاً من فرط الهول. ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهي الحلاقيم، واحدها حنجرة؛ فلولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت؛ قاله قتادة. وقيل: هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد؛ قال:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

أي كادت تقطر. ويقال: إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلاً؛ ولهذا يقال للجبان: انتفخ سحره. وقيل: إنه مثل مضروب في شدة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة. قال معناه عكرمة. روى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال: بلغ فزعها. والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه، أي كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة. والحنجرة والحنجور (بزيادة النون) حرف الحلق. ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ قال الحسن: ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون. وقيل: هو خطاب للمنافقين؛ أي قلتم هلك محمد وأصحابه. واختلف القراء في قوله تعالى: "الظنونا، والرسولا، والسبيلا" آخر السورة؛ فأثبت ألفاتها في الوقف والوصل نافع وابن عامر. وروي عن أبي عمرو والكسائي تمسكا بخط المصحف، مصحف عثمان، وجميع المصاحف في جميع البلدان. واختاره أبو عبيد؛ إلا أنه قال: لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن. قالوا: ولأن العرب تفعل ذلك في قوافي أشعارهم ومصاريعها؛ قال:

نحن جلبنا القرح القوافلا تستنفر الأواخر الأوائلا

وقرأ أبو عمرو والجحدري ويعقوب وحمزة بحذفها في الوصل والوقف معاً. قالوا: هي زائدة في الخط كما زيدت الألف في قوله تعالى: ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ (التوبة: ٤٧) فكتبوها كذلك، وغير هذا. وأما الشعر فموضع ضرورة، بخلاف القرآن فإنه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه. قال ابن

الأنباري: ولم يخالف المصحف من قرأ. "الظنون. والسبيل. والرسول" بغير ألف في الحروف الثلاثة، وخطهن في المصحف بألف لأن الألف التي في "أطعنا" والداخلة في أول "الرسول. والظنون. والسبيل" كفى من الألف المتطرفة المتأخرة كما كفت ألف أبي جاد من ألف هواز. وفيه حجة أخرى: أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يلحق دعامة للحركة التي تسبق والنية فيه السقوط؛ فلما عمل على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشيء الواحد يوجب الوقف سقوطهما ويعمل على أن صورة الألف في الخط لا توجب موضعاً في اللفظ، وأنها كالألف في "سحران" وفي "فطر السموات والأرض" وفي "وعدنا موسى" وما يشبههن مما يحذف من الخط وهو موجود في اللفظ، وهو مسقط من الخط. وفيه حجة ثالثة هي أنه كتب على لغة من يقول لقيت الرجلا. وقرئ على لغة من يقول: لقيت الرجل، بغير ألف. أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنهم رووا عن العرب قام الرجلو، بواو، ومررت بالرجلي، بياء، في الوصل والوقف. ولقيت الرجلا؛ بألف في الحالتين كلتيهما. قال الشاعر:

أسائلة عميرة عن أبيها خلال الجيش تعترف الركابا

فأثبت الألف في "الركاب" بناء على هذه اللغة. وقال الآخر:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره. وقرأ ابن كثير وابن محيصن والكسائي بإثباتها في الوقف وحذفها في الوصل. قال ابن الأنباري: ومن وصل بغير ألف ووقف بألف فجائز أن يحتج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصاً على بقاء الفتحة، وأن الألف تدعمها وتقويها.

قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هنالك ابتلي المؤمنون ﴾ "هنا" للقريب من المكان. و"هنالك" للبعيد. و"هناك" للوسط. ويشار به إلى الوقت؛ أي عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق. وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال. ﴿وزلزلوا زلزالاً شديدا﴾ أي حركوا تحريكاً. قال الزجاج: كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر والفتح؛ نحو قلقلته قلقالاً وقَلقالاً، وزلزلوا زلزالاً وزَلزالاً. والكسر أجود؛ لأن غير المضاعف على الكسر نحو دحرجته دحراجاً. وقراءة العامة بكَسر الزاي. وقرأ عاصم والجحدري "زلزالاً" بفتح الزاي. قال ابن سلام: أي حركوا بالخوف تحريكاً شديداً. وقال الضحاك: هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق. وقيل: إنه اضطرابهم عما كانوا عليه؛ فمنهم من اضطرب في نفسه ومنهم من اضطرب في دينه. و"هنالك" يجوز أن يكون العامل فيه "ابتلي" فلا يوقف على "هنالك". ويجوز أن يكون "وتظنون بالله الظنونا" فيوقف على "هنالك".

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك ونفاق. ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾ أي باطلاً من القول. وذلك أن طُعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير وجماعة نحو من سبعين رجلاً قالوا يوم الخندق: كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرّز؟ وإنما

قالوا ذلك لما فشا في أصحاب النبي ﷺ من قوله عند ضرب الصخرة، على ما تقدم في حديث النسائي؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ﴾ الطائفة تقع على الواحد فما فوقه. وعني به هنا أوس بن قيظي والد عرابة بن أوس؛ الذي يقول فيه الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاهـا عرابة باليمين

و "يثرب" هي المدينة؛ وسماها رسول الله ﷺ طيبة وطابة. وقال أبو عبيدة: يثرب اسم أرض، والمدينة ناحية منها. السهيلي: وسميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم. وفي بعض هذه الأسماء اختلاف. وبنو عميل هم الذين سكنوا الجحفة فأجحفت بهم السيول فيها. وبها سميت الجحفة. ﴿لا مقام لكم﴾ بفتح الميم قراءة العامة. وقرأ حفص والسلمي والجحدري وأبو حيوة: بضم الميم؛ يكون مصدراً من أقام يقيم؛ أي لا إقامة، أو موضعاً يقيمون فيه. ومن فتح فهو اسم مكان؛ أي لا موضع لكم تقيمون فيه. ﴿فارجعوا﴾ أي إلى منازلكم. أمروهم بالهروب من عسكر النبي ﷺ. قال ابن عباس: قالت اليهود لعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه من المنافقين: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه! فارجعوا إلى المدينة فإنا مع القوم فأنتم آمنون.

قوله تعالى: ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ في الرجوع إلى منازلهم بالمدينة، وهم بنو حارثة ابن الحارث، في قول ابن عباس. وقال يزيد بن رومان: قال ذلك أوس بن قيظي عن ملأ من قومه. ﴿يقولون إن بيوتنا عورة﴾ أي سائبة ضائعة ليست بحصينة، وهي مما يلي العدو. وقيل: ممكنة للسراق لخلوها من الرجال. يقال: دار معورة وذات عورة إذا كان يسهل دخولها. يقال: عور المكان عوراً فهو عور. وبيوت عورة. وأعور فهو معور. وقيل: عورة ذات عورة. وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة؛ قاله الهروي. وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو رجاء العطاردي: "عورة" بكسر الواو؛ يعني قصيرة الجدران فيها خلل. تقول العرب: دار فلان عَوِرة إذا لم تكن حصينة. وقد أعور الفارس إذا بدا فيه خلل للضرب والطعن؛ قال الشاعر:

متى تلقهم لم تلق في البيت معـورا ولا الضيف مفجوعاً ولا الجار مرملا

الجوهري: والعورة كل خلل يتخوف منه في ثغر أو حرب. النحاس: يقال أعور المكان إذا تبينت فيه عورة، وأعور الفارس إذا تبين فيه موضع الخلل. المهدوي: ومن كسر الواو في "عورة" فهو شاذ؛ ومثله قولهم: رجل عور؛ أي لا شيء له، وكان القياس أن يعلّ فيقال: عار؛ كيوم راح، ورجل مال؛ أصلهما روح ومول. ثم قال تعالى ﴿ وما هي بعورة ﴾ تكذيباً لهم ورداً عليهم فيما ذكروه. ﴿إن يريدون إلا فرارا﴾ أي ما يريدون إلا الهرب. قيل: من القتل. وقيل: من الدِّين. وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار: بني حارثة وبني سلمة؛ وهموا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ (آل عمران: ١٢٢) الآية. فلما نزلت هذه الآية قالوا: والله ما ساءنا ما كنا هممنا به؛ إذ الله ولينا. وقال السدي: الذي استأذنه

منهم رجلان من الأنصار من بني حارثة أحدهما: أبو عرابة بن أوس، والآخر أوس بن قيظي. قال الضحاك: ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ﴾ وهي البيوت أو المدينة؛ أي من نواحيها وجوانبها، الواحد قطر، وهو الجانب والناحية. وكذلك القتر لغة في القطر. ﴿ثم سئلوا الفتنة لآتوها﴾ أي لجاءوها؛ هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر. وقرأ الباقون بالمد؛ أي لأعطوها من أنفسهم، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقد جاء في الحديث: أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يعذبون في الله ويُسألون الشرك، فكل أعطى ما سألوه إلا بلالاً. وفيه دليل على قراءة المد، من الإعطاء. ويدل على قراءة القصر قوله: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار﴾؛ فهذا يدل على "لأتوها" مقصوراً. وفي "الفتنة" هنا وجهان: أحدهما: سئلوا القتال في العصبية لأسرعوا إليه؛ قاله الضحاك. الثاني: ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين؛ قاله الحسن. ﴿وما تلبثوا بها إلا يسيرا﴾ أي بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا؛ قاله السدي والقتيبي والحسن والفراء. وقال أكثر المفسرين: أي وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلاً ولأجابوا بالشرك مسرعين؛ وذلك لضعف نياتهم ولفرط نفاقهم؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴾ أي من قبل غزوة الخندق وبعد بدر. قال قتادة: وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن. وقال يزيد بن رومان: هم بنو حارثة، هموا يوم أُحد أن يفشلوا مع بني سلمة، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم. ﴿وكان عهد الله مسؤولا﴾ أي مسؤولاً عنه. قال مقاتل والكلبي: هم سبعون رجلاً بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك ولربك ما شئت. فقال: "أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم" فقالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك يا نبي الله؟ قال: "لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة"[(١)]. فذلك قوله تعالى: ﴿وكان عهد الله مسؤولا﴾ أي أن الله ليسألهم عنه يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ﴾ أي من حضر أجله مات أو قتل؛ فلا ينفع الفرار. ﴿وإذاً لا تمتعون إلا قليلا﴾ أي في الدنيا بعد الفرار إلى أن تنقضي آجالكم؛ وكل ما هو آت فقريب. وروى الساجي عن يعقوب الحضرمي "وإذاً لا يمتعون" بياء. وفي بعض الروايات "وإذاً لا تمتعوا" نصب بـ "إذاً" والرفع بمعنى ولا تمتعون. و"إذاً" ملغاة، ويجوز إعمالها. فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء. فإذا كانت مبتدأة نصبت بها فقلت: إذاً أكرمك.

---

(١) ضعيف.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ﴾ أي يمنعكم منه. ﴿إن أراد بكم سوءا﴾ أي هلاكاً. ﴿أو أراد بكم رحمة﴾ أي خيراً ونصراً وعافية. ﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا﴾ أي لا قريباً ينفعهم ولا ناصراً ينصرهم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ أي المعترضين منكم لأن يصدوا الناس عن النبي ﷺ وهو مشتق من عاقني عن كذا أي صرفني عنه. وعوق على التكثير ﴿والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾ على لغة أهل الحجاز. وغيرهم يقولون: "هلموا" للجماعة، وهلمي للمرأة؛ لأن الأصل: "ها" التي للتنبيه ضمت إليها "لُمَّ" ثم حذفت الألف استخفافاً وبنيت على الفتح. ولم يجز فيها الكسر ولا الضم لأنها لا تنصرف. ومعنى "هلم" أقبل؛ وهؤلاء طائفتان؛ أي منكم من يثبط ويعوق. والعوق المنع والصرف؛ يقال: عاقه يعوقه عوقاً، وعوقه واعتاقه بمعنى واحد. قال مقاتل: هم عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقون. "والقائلين لإخوانهم هلم" فيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم المنافقون؛ قالوا للمسلمين: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، وهو هالك ومن معه، فهلم إلينا. الثاني: أنهم اليهود من بني قريظة؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين: هلم إلينا؛ أي تعالوا إلينا وفارقوا محمداً فإنه هالك، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحداً. والثالث: ما حكاه ابن زيد: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بين الرماح والسيوف؛ فقال أخوه ـ وكان من أمه وأبيه ـ: هلم إلي، قد تُبع بك وبصاحبك؛ أي قد أحيط بك وبصاحبك. فقال له: كذبت، والله لأخبرنه بأمرك؛ وذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا﴾. ذكره الماوردي والثعلبي أيضاً. ولفظه: قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب، انطلق رجل من عند النبي ﷺ فوجد أخاه بين يديه رغيف وشواء ونبيذ؛ فقال له: أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف؟ فقال: هلم إلى هذا فقد تبع لك ولأصحابك، والذي تحلف به لا يستقل بها محمد أبداً. فقال: كذبت. فذهب إلى النبي ﷺ يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية. ﴿ولا يأتون البأس إلا قليلا﴾ خوفاً من الموت. وقيل: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة.

قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أشحة عليكم ﴾ أي بخلاء عليكم؛ أي بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله؛ قاله مجاهد وقتادة. وقيل: بالقتال معكم. وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم. وقيل: أشحة

بالغنائم إذا أصابوها؛ قاله السدي. وانتصب على الحال. قال الزجاج: ونصبه عند الفراء من أربع جهات: إحداها: أن يكون على الذم؛ ويجوز أن يكون عنده نصباً بمعنى يعوقون أشحة. ويجوز أن يكون التقدير: والقائلين أشحة. ويجوز عنده "ولا يأتون البأس إلا قليلا" أشحة؛ أي أنهم يأتونه أشحة على الفقراء بالغنيمة. النحاس: ولا يجوز أن يكون العامل فيه "المعوقين" ولا "القائلين"؛ لئلا يفرق بين الصلة والموصول. ابن الأنباري: "إلا قليلا" غير تام؛ لأن "أشحة" متعلق بالأول، فهو ينتصب من أربعة أوجه: أحدها: أن تنصبه على القطع من "المعوقين" كأنه قال: قد يعلم الله الذين يعوقون عن القتال ويشحون عن الإنفاق على فقراء المسلمين. ويجوز أن يكون منصوباً على القطع من "القائلين" أي وهم أشحة. ويجوز أن تنصبه على القطع مما في "يأتون"؛ كأنه قال: ولا يأتون البأس إلا جبناء بخلاء. ويجوز أن تنصب "أشحة" على الذّم. فمن هذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله: "إلا قليلا". "أشحة عليكم" وقفٌ حسن. ومثله "أشحة على الخير" حال من المضمر في "سلقوكم" وهو العامل فيه. ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ وصفهم بالجبن؛ وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدداً بصره، وربما غشي عليه. وفي "الخوف" وجهان: أحدهما: من قتال العدو إذا أقبل؛ قاله السّدي. الثاني: الخوف من النبّي ﷺ إذا غلب؛ قاله ابن شجرة. "رأيتهم ينظرون إليك" خوفاً من القتال على القول الأول. ومن النبّي ﷺ على الثاني. "تدور أعينهم" لذهاب عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة. وقيل: لشدّة خوفهم حذراً أن يأتيهم القتل من كل جهة. ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾ وحكى الفراء "صلقوكم" بالصاد. وخطيب مسلاق ومصلاق إذا كان بليغاً. وأصل الصلق الصوت؛ ومنه قول النبي ﷺ: "لعن الله الصالقة والحالقة والشاقة"[1]. قال الأعشى:

فيهم المجد والسماحة والنجـ ـــدة فيهم والخاطب السلاق

قال قتادة: ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطنا أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم. فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم. قال النحاس: هذا قول حسن؛ لأن بعده "أشحة على الخير" وقيل: المعنى بالغوا في مخاصمتكم والاحتجاج عليكم. وقال القتبي: المعنى آذوكم بالكلام الشديد. السلق: الأذى. ومنه قول الشاعر:

ولقد سلقنا هوازنا بنواهل حتى انحنينا

﴿أشحة على الخير﴾ أي على الغنيمة؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله؛ قاله السّدي. ﴿أولئك لم يؤمنوا﴾ يعني بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان؛ والمنافق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم بالكفر. ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أي لم يثبهم عليها؛ إذا لم يقصدوا وجه الله تعالى بها. ﴿وكان ذلك على الله يسيرا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: وكان نفاقهم على الله هيناً. الثاني: وكان إحباط عملهم على الله هيناً.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤).

قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ أي لجبنهم؛ يظنون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا، ولكنهم لم يتباعدوا في السير. ﴿وإن يأت الأحزاب﴾ أي وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال. ﴿يودوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾ تمنوا أن يكونوا مع الأعراب حذراً من القتل وتربصاً للدوائر. وقرأ طلحة بن مصرف "لو أنهم بُدًّى في الأعراب"؛ يقال: باد وبُدًّى؛ مثل غاز وغُزى. ويمد مثل صائم وصوام. بدا فلان يبدو إذا خرج إلى البادية. وهي البداوة والبَداوة؛ بالكسر والفتح. وأصل الكلمة من البدو وهو الظهور. ﴿يسألون﴾ وقرأ يعقوب في رواية رويس "يتساءلون عن أنبائكم" أي عن أخبار النبي ﷺ. يتحدثون: أما هلك محمد وأصحابه، أما غلب أبو سفيان وأحزابه! أي يودوا لو أنهم بادون سائلون عن أنبائكم من غير مشاهدة القتال لفرط جبنهم. وقيل: أي هم أبداً لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين، وهل أصيبوا. وقيل: كان منهم في أطراف المدينة من لم يحضر الخندق، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين. ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾ أي رمياً بالنبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة؛ ولو كان ذلك لله لكان قليله كثيراً.

قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ هذا عتاب للمتخلفين عن القتال؛ أي كان لكم قدوة في النبي صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله في خروجه إلى الخندق. والأسوة القدوة. وقرأ عاصم "أُسوة" بضم الهمزة. الباقون بالكسر؛ وهما لغتان. والجمع فيهما واحد عند الفراء. والعلة عنده في الضم على لغة من كسر في الواحدة: الفرق بين ذوات الواو وذوات الياء؛ فيقولون كسوة وكُساً، ولحية ولحىً. الجوهري: والأسوة والإسوة بالضم والكسر لغتان. والجمع أُسى وإسى. وروى عقبة بن حسان الهجري عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر "لقد كان لكم في رَسول الله أسوة حسنة" قال: في جوع النبي ﷺ؛ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال: تفرد به عقبة بن حسان عن مالك، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أسوة ﴾ الأسوة القدوة. والأسوة ما يتأسى به؛ أي يتعزى به. فيقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله؛ فلقد شج وجهه، وكسرت رباعيته، وقتل عمه حمزة، وجاع بطنه، ولم يُلفَ إلا صابراً محتسباً، وشاكراً راضياً. وعن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر؛ فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. خرَّجه أبو عيسى الترمذي وقال فيه: حديث غريب. وقال ﷺ لما شج: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[1] وقد تقدم. ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه ويصدق بالبعث الذي فيه جزاء الأفعال. وقيل: أي لمن كان يرجو ثواب الله في اليوم

---

(١) أخرجاه في الصحيحين وقد سبق.

الآخر . ولا يجوز عند الحذاق من النحويين أن يكتب "يرجو" إلا بغير ألف إذا كان لواحد؛ لأن العلة التي في الجمع ليست في الواحد. ﴿وذكر الله كثيرا﴾ خوفاً من عقابه، ورجاء لثوابه. وقيل: إن "لمن" بدل من قوله: "لكم" ولا يجيزه البصريون؛ لأن الغائب لا يبدل من المخاطب، وإنما اللام من "لمن" متعلقة بـ "حسنة"، و"أسوة" اسم "كان" و"لكم" الخبر. واختلف فيمن أريد بهذا الخطاب على قولين: أحدهما: المنافقون؛ عطفاً على ما تقدم من خطابهم. الثاني: المؤمنون؛ لقوله: "لمن كان يرجو الله واليوم الآخر"

واختلف في هذه الأسوة بالرسول ﷺ، هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؛ على قولين: أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب. الثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب. ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب ﴾ ومن العرب من يقول: "راء" على القلب. ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله﴾ يريد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ (البقرة: ٢١٤) الآية. فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق فقالوا: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾، قاله قتادة. وقول ثان رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله ﷺ عام ذكرت الأحزاب فقال: (أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها - يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى - فأبشروا بالنصر" فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله، موعد صادق، إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر. فطلعت الأحزاب فقال المومنون: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾). ذكره الماوردي. و"ما وعدنا" إن جعلت "ما" بمعنى الذي فالهاء محذوفة. وإن جعلتها مصدراً لم تحتج إلى عائد ﴿وما زادهم إلا إيماناً وتسليما﴾ قال الفراء: وما زادهم النظر إلى الأحزاب. وقال علي بن سليمان: "رأى" يدل على الرؤية، وتأنيث الرؤية غير حقيقي، والمعنى: ما زادهم الرؤية إلا إيمانا بالرب وتسليماً، قاله الحسن. ولو قال: ما زادوهم لجاز. ولما اشتد الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق، قام ﷺ على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال: "من يذهب ليأتينا بخبرهم وله الجنة" فلم يجبه أحد. وقال ثانياً وثالثاً فلم يجبه أحد، فنظر إلى جانبه وقال: "من هذا"؟ فقال حذيفة. فقال: "ألم تسمع كلامي منذ الليلة"؟ قال حذيفة: فقلت يا رسول الله، منعني أن أجيبك الضّر والقُرّ. قال: "انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم. اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلي، انطلق ولا تحدث شيئاً حتى تأتيني". فانطلق حذيفة بسلاحه، ورفع رسول الله ﷺ يده يقول: (يا صريخ المكروبين ويا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي) فنزل جبريل وقال: (إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك) فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه وبسط يديه وأرخى عينيه

وهو يقول: (شكراً شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي)[١]. وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً، فبشر أصحابه بذلك قال حذيفة: فانتهيت إليهم وإذا نيرانهم تتقد، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يتترسون من الحصباء. وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش: النجاء النجاء! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس. وتفرقت الأحزاب، وأصبح رسول الله ﷺ فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله، فجاءته فاطمة بغسول فكانت تغسل رأسه، فأتاه جبريل فقال: "وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء، ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء، ثم قال: انهض إلى بني قريظة". وقال أبوسفيان: ما زلت أسمع قعقعة السلاح حتى جاوزت الروحاء.

قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ من المؤمنين رجال ﴾ رفع بالابتداء، وصَلُح الابتداء بالنكرة لأن "صدقوا" في موضع النعت. ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ "من" في موضع رفع بالابتداء. وكذا "ومنهم من ينتظر" والخبر في المجرور. والنَّحب: النذر والعهد، تقول منه: نحبت أنحب، بالضم. قال الشاعر:

وإذا نحبت كلب على الناس إنهم　　أحق بتاج الماجد المتكرم

وقال آخر:

قد نحب المجد علينا نحبا

وقال آخر:

أَنَحْبٌ فيقضى أم ضلال وباطل

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: قال عمي أنس بن النضر - سميت به - لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فكبر عليه فقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد من العام القابل، فاستقبله سعد بن مالك فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واهاً لريح الجنة! أجدها دون أُحُد، فقاتل حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت عمتي الرُّبَيِّع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾[٢] لفظ الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا

(١) ضعيف، وأصله عند مسلم بغير هذا اللفظ وقد مضى.
(٢) أخرجه البخاري في "التفسير"، (٤٧٨٤)، ومسلم (١٩٠٣).

ما عاهدوا الله عليه ﴾ الآية: منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول، الله ﷺ حتى أصيبت يده، فقال النبي ﷺ: "أوجب طلحة الجنة"[1]. وفي الترمذي عنه: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته، يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إني اطلعت من باب المسجد وعلي ثياب خضر، فلما رآني النبي ﷺ قال: "أين السائل عمن قضى نحبه"؟ قال الأعرابي: أنا يا رسول الله. قال: "هذا ممن قضى نحبه"[2] قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير. وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد، مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه ودعا له، ثم تلا هذه الآية: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ـ إلى – تبديلا ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: "أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه"[3]. وقيل: النحب الموت، أي مات على ما عاهد عليه، عن ابن عباس. والنحب أيضاً الوقت والمدة يقال: قضى فلان نحبه إذا مات. وقال ذو الرمة:

عشية فر الحارثيون بعد ما قضى نحبه في ملتقى الخيل هوبر

والنحب أيضاً الحاجة والهمة، يقول قائلهم: ما لي عندهم نحب، وليس المراد بالآية. والمعنى في هذا الموضع بالنحب النذر كما قدمنا أولاً، أي منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قتل، مثل حمزة وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم. ومنهم من ينتظر الشهادة وما بدلوا عهدهم ونذرهم. وقد روي عن ابن عباس أنه قرأ "فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومنهم من بدل تبديلا". قال أبو بكر الأنباري: وهذا الحديث عند أهل العلم مردود، لخلافه الإجماع، ولأن فيه طعناً على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرفهم بالصدق والوفاء، فما يعرف فيهم مغير وما وجد من جماعتهم مبدل، ﷺ. ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾ أي أمر الله بالجهاد ليجزي الصادقين في الآخرة بصدقهم. ﴿ويعذب المنافقين﴾ في الآخرة ﴿إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما﴾ أي إن شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة، وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت. ﴿إن الله كان غفوراً رحيما﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾ قال محمد بن عمرو يرفعه إلى عائشة: قالت "الذين كفروا" ها هنا أبو سفيان وعيينة بن بدر، رجع أبو سفيان إلى تهامة، ورجع

(١) صحيح.
(٢) صحيح.
(٣) ضعيف.

عيينة إلى نجد ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ بأن أرسل عليهم ريحاً وجنوداً حتى رجعوا ورجعت بنو قريظة إلى صياصيهم، فكفى أمر قريظة بالرعب. ﴿وكان الله قويا﴾ أمره ﴿عزيزا﴾ لا يغلب.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ﴾ يعني الذين عاونوا الأحزاب: قريشاً وغطفان وهم بنو قريظة وقد مضى خبرهم "من صياصيهم" أي حصونهم واحدها صيصة. قال الشاعر:

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت ... نساء تميم يبتدرن الصياصيا

ومنه قيل لشوكة الحائك التي بها يسوي السداة واللحمة: صيصة. قال، دريد بن الصِّمَّة:

فجئت إليه والرماح تنوشه ... كوقع الصياصي في النسيج الممدد

ومنه: صيصة الديك التي في رجله. وصياصي البقر قرونها، لأنها تمتنع بها. وربما كانت تركب في الرماح مكان الأسنة، ويقال: جذ الله صئصئه، أي أصله ﴿وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون﴾ وهم الرجال. ﴿وتأسرون فريقاً﴾ وهم النساء والذرية، على ما تقدم. ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها﴾ بعد. قال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل: يعني حنين، ولم يكونوا نالوها، فوعدهم الله إياها. وقال قتادة: كنا نتحدث أنها مكة. وقال الحسن: هي فارس والروم. وقال عكرمة: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ﴿وكان الله على كل شيء قديرا﴾ فيه وجهان: أحدهما: على ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير، قاله محمد بن إسحاق. الثاني: على ما أراد أن يفتحه من الحصون والقرى قدير، قاله النقاش. وقيل: "وكان الله على كل شيء" مما وعدكموه "قديراً" لا ترد قدرته ولا يجوز عليه العجز تعالى. ويقال تأسرون وتأسرون (بكسر السين وضمها) حكاه الفراء.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ فيه ثماني مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي﴾ قال علماؤنا: هذه الآية متصلة: بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي ﷺ وكان قد تأذى ببعض الزوجات. قيل: سألنه شيئاً من عرض الدنيا. وقيل: زيادة في النفقة. وقيل: أذينه بغيرة بعضهن على بعض. وقيل: أمر ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهن وتخييرهن بين الدنيا والآخرة. وقال الشافعي رحمه الله تعالى،: إن مَنْ مَلَك زوجة فليس عليه تخييرها. أمر ﷺ أن يخير نساءه فاخترنه. وجملة ذلك أن الله سبحانه خير النبي ﷺ بين أن يكون نبياً مِلكاً وعرض عليه

مفاتيح خزائن الدنيا، وبين أن يكون نبياً مسكيناً، فشاور جبريل فأشار عليه بالمسكنة فاختارها، فلما اختارها وهي أعلى المنزلتين، أمره الله عز وجل أن يخير زوجاته، فربما كان فيهن من يكره المقام معه على الشدة تنزيهاً لـه. وقيل: إن السبب الذي أوجب التخيير لأجلـه، أن امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لـها حلقة من ذهب، فصاغ لـها حلقة من فضة وطلاها بالذهب ـ وقيل بالزعفران ـ فأبت إلا أن تكون من ذهب، فنزلت آية التخيير فخيرهن، فقلن اخترنا الله ورسولـه. وقيل: إن واحدة منهن اختارت الفراق. فالله أعلم. روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن لـه، فوجد النبي ﷺ جالساً حولـه نساؤه واجماً ساكتاً. قال: فقال والله لأقولن شيئاً أضحك رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأتُ عنقها، فضحك رسول الله ﷺ وقال: "هن حولي كما ترى يسألنني النفقة" فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده!! فقلن: والله لا نسأل رسول الله شيئاً أبداً ليس عنده. ثم اعتزلن شهراً أو تسعاً وعشرين ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك ـ حتى بلغ ـ للمحسنات منكن أجراً عظيما﴾.
قال: فبدأ بعائشة فقال: "يا عائشة، إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك" قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: "لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً"[1].
وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: "يا عائشة، إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك" قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه، قالت ثم قال: "إن الله يقول: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ـ حتى بلغ ـ للمحسنات منكن أجراً عظيما﴾ فقلت: أفي هذا أستأمر أبوي فإني أريد الله ورسولـه والدار الآخرة، وفعل أزواج النبي ﷺ ما فعلت"[2]. قال: هذا حديث حسن صحيح. قال العلماء: وأما أمر النبي ﷺ عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها، وكان يخاف أن يحملـها فرط الشباب على أن تختار فراقه، ويعلم من أبويها أنهما لا يشيران عليها بفراقه.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ قل لأزواجك ﴾ كان للنبي ﷺ أزواج، منهن من دخل بها، ومنهن من عقد عليها ولم يدخل بها، ومنهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها. فأولـهن: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب. وكانت قبلـه عند أبي هالة واسمه زرارة بن النباش الأسدي، وكانت قبلـه عند عتيق بن عائذ، ولدت منه غلاماً اسمه عبد مناف. وولدت من أبي هالة هند بن أبي هالة، وعاش إلى زمن الطاعون فمات فيه. ويقال: إن الذي عاش إلى زمن الطاعون هند بن هند، وسمعت نادبته تقول حين مات: واهند بن هنداه، واربيب رسول الله. ولم يتزوج رسول الله ﷺ على

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٧٨) واللفظ له.
(٢) صحيح، أخرجه الترمذي (٣٢٠٤).

خديجة غيرها حتى ماتت. وكانت يوم تزوجها رسول الله ﷺ بنت أربعين سنة، وتوفيت بعد أن مضى من النبوة سبع سنين، وقيل: عشر. أو كان لـها حين توفيت خمس وستون سنة. وهي أول امرأة آمنت به. وجميع أولاده منها غير إبراهيم. قال حكيم بن حزام: توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلـها حتى دفناها بالحجون، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها، ولم تكن يومئذ سنة الجنازة الصلاة عليها.

ومنهن: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرية، أسلمت قديماً وبايعت، وكانت عند ابن عم لـها يقال لـه السكران بن عمرو، وأسلم أيضاً، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة في الـهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها. وقيل: مات بالحبشة، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ، فتزوجها ودخل بها بمكة، وهاجر بها إلى المدينة، فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألا يفعل وأن يدعها في نسائه، وجعلت ليلتها لعائشة حسبما هو مذكور في الصحيح[1] فأمسكها، وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين.

ومنهن: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكانت مسماة لجبير بن مطعم، فخطبها رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، دعني أَسُلّـها من جبير سلاً رفيقاً، فتزوجها رسول الله ﷺ بمكة قبل الـهجرة بسنتين، وقيل بثلاث سنين، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع، وبقيت عنده تسع سنين، ومات رسول الله ﷺ وهي بنت ثمان عشرة، ولم يتزوج بكراً غيرها. وماتت سنة تسع وخمسين، وقيل ثمان وخمسين.

ومنهن: حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية، تزوجها رسول الله ﷺ ثم طلقها، فأتاه جبريل فقال: (إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة)[2] فراجعها. قال الواقدي: وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية، وهي ابنة ستين سنة. . وقيل: ماتت في خلافة عثمان بالمدينة.

ومنهن: أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية واسم أبي أمية سهيل تزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال سنة أربع، زوجها منه ابنها سلمة على الصحيح، وكان عُمَرُ ابنها صغيراً، وتوفيت في سنة تسع وخمسين. وقيل: سنة ثنتين وستين، والأول أصح. وصلى عليها سعيد بن زيد، وقيل أبو هريرة. وقبرت بالبقيع وهي ابنة أربع وثمانين سنة.

ومنهن، أم حبيبة، واسمها رملة بنت أبي سفيان. بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضميري إلى النجاشي، ليخطب عليه أم حبيبة فزوجه إياها، وذلك سنة سبع من الـهجرة، وأصدق النجاشي عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وتوفيت سنة أربع وأربعين. وقال الدارقطني: كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة على النصرانية، فزوّجها النجاشي النبي ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة.

ومنهن: زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، وكان اسمها بَرّة فسماها رسول الله ﷺ زينب، وكان اسم أبيها بُرّة، فقالت: يا رسول الله، بدل اسم أبي فإن البرة حقيرة، فقال لـها النبي ﷺ: (لو كان أبوك مؤمناً سميناه باسم رجل منا أهل البيت ولكني قد سميته جحشاً والجحش من البُرة) ذكر

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢١٢)، ومسلم (١٤٦٣).

(٢) صحيح.

هذا الحديث الدارقطني[1]. تزوجها رسول الله ﷺ بالمدينة في سنة خمس من الـهجرة، وتوفيت سنة عشرين، وهي بنت ثلاث وخمسين.

ومنهن: زينب بنت خذيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الـهلالية، كانت تسمى في الجاهلية أم المساكين، لإطعامها إياهم. تزوجها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهراً من الـهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في حياته في آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين شهراً، ودفنت بالبقيع.

ومنهن: جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية المصطلقية، أصابها في غزوة بني المصطلق فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها وتزوجها، وذلك في شعبان سنة ست، وكان اسمها برة فسماها رسول الله ﷺ جويرية، وتوفيت في ربيع الأول سنة ست وخمسين. وقيل: سنة خمسين وهي ابنة خمس وستين.

ومنهن: صفية بنت حيي بن أخطب الـهارونية، سباها النبي ﷺ يوم خيبر واصطفاها لنفسه، وأسلمت وأعتقها، وجعل عتقها صداقها، وفي الصحيح: أنها وقعت في سهم دحية الكلبي فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس، وماتت في سنة اثنتين وخمسين. وقيل: سنة اثنتين وخمسين، ودفنت بالبقيع.

ومنهن: ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة من بني النضير، سباها رسول الله ﷺ وأعتقها، وتزوجها في سنة ست، وماتت مرجعه من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع. وقال الواقدي: ماتت سنة ست عشرة وصلّى عليها عمر. قال أبو الفرج الجوزي: وقد سمعت من يقول: إنه كان يطأها بملك اليمين ولم يعتقها.

قلت: ولـهذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السهلي في عداد أزواج النبي ﷺ.

ومنهن: ميمونة بنت الحارث الـهلالية، تزوجها رسول الله ﷺ بسرف على عشرة أميال من مكة، وذلك في سنة سبع من الـهجرة في عمرة القضية، وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، وقدر الله تعالى أنها ماتت في المكان الذي بنى فيه رسول الله ﷺ بها، ودفنت هنالك، وذلك في سنة إحدى وستين. وقيل: ثلاث وستين. وقيل ثمان وستين.

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبي ﷺ، وهن اللاتي دخل بهن، رضي الله عنهن. فأما من تزوجهن ولم يدخل بهن فمنهن: الكلابية. واختلفوا في اسمها، فقيل فاطمة. وقيل عمرة. وقيل العالية. قال الزهري: تزوج فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعاذت منه فطلقها، وكانت تقول: أنا الشقية. تزوجها في ذي القعدة سنة ثمان من الـهجرة، وتوفيت سنة ستين.

ومنهن: أسماء بنت النعمان بن الجون بن الحارث الكندية، وهي الجونية. قال قتادة: لما دخل عليها دعاها فقالت: تعال أنت، فطلّقها. وقال غيره: هي التي استعاذت منه. وفي البخاري قال: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر

---

(١) ضعيف.

أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين[1]. وفي لفظ آخر قال أبو أسيد: أُتي رسول الله ﷺ بالجونية، فلما دخل عليها قال: "هبي لي نفسك" فقالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك! فقال: "قد عذت بمعاذ" ثم خرج علينا فقال: "يا أبا أسيد، اكسها رازقيين وألحقها بأهلها"[2].

ومنهن: قتيلة بنت قيس، أخت الأشعث بن قيس، زوَّجها إياه الأشعث، ثم انصرف إلى حضرموت، فحملها إليه فبلغه وفاة النبي ﷺ فردّها إلى بلاده، فارتد وارتدت معه. ثم تزوجها عكرمة بن أبي جهل، فوجد من ذلك أبو بكر وجداً شديداً. فقال له عمر: إنها والله ما هي من أزواجه، ما خيرها ولا حجبها. ولقد برأها الله منه بالارتداد. وكان عروة ينكر أن يكون تزوجها.

ومنهن: أم شريك الأزدية، واسمها غزية بنت جابر بن حكيم، وكانت قبله عند أبي بكر بن أبي سلمى، فطلقها النبي ﷺ ولم يدخل بها. وهي التي وهبت نفسها. وقيل: إن التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم.

ومنهن: خولة بنت الهزيل بن هبيرة، تزوجها رسول الله ﷺ، فهلكت قبل أن تصل إليه.

ومنهن: شراف بنت خليفه، أخت دحية، تزوجها ولم يدخل بها.

ومنهن: ليلى بنت الخطيم، أخت قيس، تزوجها وكانت غيوراً فاستقالته فأقالها.

ومنهن: عمرة بنت معاوية الكندية، تزوجها النبي ﷺ قال الشعبي: تزوج امرأة من كندة فجيء بها بعد ما مات.

ومنهن: ابنة جندب بن ضمرة الجندعية. قال بعضهم: تزوجها رسول الله ﷺ وأنكر بعضهم وجود ذلك.

ومنهن: الغفارية. قال بعضهم: تزوج امرأة من غفار، فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بياضاً فقال: "الحقي بأهلك". ويقال: إنما رأى البياض بالكلابية. فهؤلاء اللاتي عقد عليهن ولم يدخل بهن، ﷺ

فأما من خطبهن فلم يتم نكاحه معهن، ومن وهبت له نفسها:

فمنهن: أم هانئ بنت أبي طالب، واسمها فاختة. خطبها النبي ﷺ فقالت: إني امرأة مصبية واعتذرت إليه فعذرها.

ومنهن: ضباعة بنت عامر.

ومنهن: صفية بنت بشامة بن نضلة، خطبها النبي ﷺ وكان أصابها سباء، فخيرها النبي ﷺ، فقال: "إن شئت أنا وإن شئت زوجك"؟ قالت: زوجي. فأرسلها، فلعنتها بنو تميم، قاله ابن عباس.

ومنهن: أم شريك. وقد تقدم ذكرها.

ومنهن: ليلى بنت الخطيم، وقد تقدم ذكرها.

ومنهن: خولة بنت حكم بن أمية، وهبت نفسها للنبي ﷺ فأرجأها، فتزوجها عثمان بن مظعون.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٥٥).

ومنهن: جمرة بنت الحارث بن عوف المري، خطبها النبي ﷺ فقال أبوها: إن بها سوءاً ولم يكن بها، فرجع إليها أبوها وقد برصت، وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر.

ومنهن: سودة القرشية، خطبها رسول الله ﷺ وكانت مصبية. فقالت: أخاف أن يضغو صبيتي عند رأسك. فحمدها ودعا لـها.

ومنهن: امرأة لم يذكر اسمها. قال مجاهد: خطب رسول الله ﷺ امرأة فقالت: أستأمر أبي. فلقيت أباها فأذن لـها، فلقيت رسول الله ﷺ فقال: (قد التحفنا لحافاً غيرك). فهؤلاء جميع أزواج النبي ﷺ وكان لـه من السراري سريتان: مارية القبطية، وريحانة، في قول قتادة. وقال غيره: كان لـه أربع: مارية، وريحانة، وأخرى جميلة أصابها في السبي، وجارية وهبتها لـه زينب بنت جحش.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ "إن" شرط، وجوابه "فتعالين"، فعلق التخيير على شرط. وهذا يدل على أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان، فينفذان ويمضيان، خلافاً للجهال المبتدعة الذين يزعمون أن الرجل إذا قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار، أنه لا يقع الطلاق إن دخلت الدار، لأن الطلاق الشرعي هو المنجّز في الحال لا غير.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ فتعالين ﴾ هو جواب الشرط، وهو فعل جماعة النساء، من قولك تعالي، وهو دعاء إلى الإقبال إليه يقال: تعال بمعنى أقبل، وضع لمن لـه جلالة ورفعة، ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال، وأما في هذا الموضع فهو على أصلـه، فإن الداعي هو رسول الله ﷺ ﴿أمتعكن﴾ وقرئ "أمتعُكن" بضم العين. وكذا "أسرحكن" بضم الحاء على الاستئناف. والسراح الجميل: هو أن يكون طلاقاً للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لـها.

الخامسة: اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه على قولين: الأول: أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق، فاخترن البقاء، قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي وابن شهاب وربيعة. ومنهن من قال: إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكهن، لتكون لـهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن، ولم يخيرهن في الطلاق، ذكره الحسن وقتادة. ومن الصحابة علي فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال: لم يخير رسول الله ﷺ نساءه إلا بين الدنيا والآخرة.

قلت: القول الأول أصح، لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت: قد خيرنا رسول الله ﷺ أفكان طلاقاً! في رواية: فاخترناه فلم يعده طلاقاً ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق، لذلك قال: "يا عائشة إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ألا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك"[1] الحديث. ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة. فثبت أن الاستئمار إنما وقع في الفرقة، أو النكاح. والله أعلم.

السادسة: واختلف العلماء في المخيرة إذا اختارت زوجها، فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمة الفتوى: إنه لا يلزمه طلاق، لا واحدة ولا أكثر، هذا قول عمر بن الخطاب وعلي وابن

(١) أخرجاه في الصحيحين وقد تقدم.

مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وعائشة. ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وابن شهاب. وروي عن علي وزيد أيضاً: إن اختارت زوجها فواحدة بائنة، وهو قول الحسن البصري والليث، وحكاه الخطابي والنقاش عن مالك. وتعلقوا بأن قوله: اختاري، كناية عن إيقاع الطلاق، فإذا أضافه إليها وقعت طلقة، كقوله: أنت بائن. والصحيح الأول، لقول عائشة: خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه فلم يعده علينا طلاقاً. أخرجه الصحيحان[1]. قال ابن المنذر: وحديث عائشة دل على أن المخيرة إذا اختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقاً، ويدل على أن اختيارها نفسها يوجب الطلاق، ويدل على معنى ثالث، وهو أن المخيرة إذا اختارت نفسها أنها تطليقة يملك زوجها رجعتها، إذ غير جائز أن يطلق رسول الله ﷺ بخلاف ما أمره الله. وروي هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس. وبه قال ابن أبي ليلى والثوري والشافعي. وروي عن علي أنها إذا اختارت نفسها أنها واحدة بائنة. وهو قول أبي حنيفة وأصحابه. ورواه ابن خويز منداد عن مالك. وروي عن زيد بن ثابت أنها إذا اختارت نفسها أنها ثلاث. وهو قول الحسن البصري، وبه قال مالك والليث، لأن الملك إنما يكون بذلك. وروي عن علي ﷺ أنها إذا أختارت نفسها فليس بشيء. وروي عنه أنها إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية.

السابعة: ذهب جماعة من المدنيين وغيرهم إلى أن التمليك والتخيير سواء، والقضاء ما قضت فيهما جميعاً، وهو قول عبد العزيز بن أبي سلمة. قال ابن شعبان: وقد اختاره كثير من أصحابنا، وهو قول جماعة من أهل المدينة. قال أبو عمر: وعلى هذا القول أكثر الفقهاء. والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما، وذلك أن التمليك عند مالك وهو قول الرجل لامرأته: قد ملكتك، أي قد ملكتك ما جعل الله لي من الطلاق واحدة أو اثنتين أو ثلاثا، فلما جاز أن يملكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك، كان القول قوله مع يمينه إذا ناكرها. وقالت طائفة من أهل المدينة: له المناكرة في التمليك وفي التخيير سواء في المدخول بها. والأول قول مالك في المشهور. وروى ابن خويز منداد. عن مالك أن للزوج أن يناكر المخيَّرة في الثلاث، وتكون طلقة بائنة كما قال أبو حنيفة. وبه قال أبو الجهم. قال سحنون: وعليه أكثر أصحابنا.

وتحصيل مذهب مالك: أن المخيرة إذا اختارت نفسها وهي مدخول بها فهو الطلاق كله، وإن أنكر زوجها فلا نكرة له. وإن اختارت واحدة فليس بشيء، وإنما الخيار البتات، إما أخذته وإما تركته، لأن معنى التخيير التسريح، قال الله تعالى في آية التخيير: ﴿فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا﴾ فمعنى التسريح البتات، قال الله تعالى: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ (البقرة: ٢٢٩). والتسريح بإحسان هو الطلقة الثالثة، روي ذلك عن النبي ﷺ كما تقدم. ومن جهه المعنى أن قوله: اختاريني أو اختاري نفسك يقتضي ألا يكون له عليها سبيل إذا اختارت نفسها، ولا يملك منها شيئاً، إذ قد جعل إليها أن تخرج ما يملكه منها أو تقيم معه إذا اختارته، فإذا اختارت البعض من الطلاق لم تعمل بمقتضى اللفظ، وكانت به بمنزل من خير بين شيئين فاختار غيرهما. وأما التي لم يدخل بها فله مناكرتها في التخيير والتمليك إذا زادت على واحدة، لأنها تبين في الحال.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٢)، ومسلم (١٤٧٧) واللفظ له.

الثامنة : واختلفت الرواية عن مالك متى يكون لـها الخيار، فقال مرة: لـها الخيار ما دامت في المجلس قبل القيام أو الاشتغال بما يدل على الإعراض. فإن لم تختر ولم تقض شيئاً حتى افترقا من مجلسهما بطل ما كان من ذلك إليها، وعلى هذا أكثر الفقهاء. وقال مرة: لـها الخيار أبداً ما لم يعلم أنها تركت، وذلك يعلم بأن تمكنه من نفسها بوطء أو مباشرة، فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختر شيئاً كان لـه رفعها على الحاكم لتوقع أو تسقط، فإن أبت أسقط الحاكم تمليكها. وعلى القول الأول إذا أخذت في غير ذلك من حديث أو عمل أو مشي أو ما ليس في التخيير بشيء كما ذكرنا سقط تخييرها. واحتج بعض أصحابنا لـهذا القول بقولـه تعالى: ﴿ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ (النساء: ١٤٠). وأيضاً فإن الزوج أطلق لـها القول ليعرف الخيار منها، فصار كالعقد بينهما، فإن قبلته وإلا سقط، كالذي يقول: قد وهبت لك أو بايعتك، فإن قبل وإلا كان الملك باقياً بحاله. هذا قول الثوري والكوفيين والأوزاعي والليث والشافعي وأبي ثور، وهو اختيار ابن القاسم ووجه الرواية الثانية أن ذلك قد صار في يدها وملكته على زوجها بتمليكه إياها فلما ملكت ذلك وجب أن يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها.

قلت: وهذا هو الصحيح لقولـه ﷺ لعائشة: (إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك)[1] رواه في الصحيح، وخرَّجه البخاري، وصححه الترمذي. وقد تقدم في أول الباب. وهو حجة لمن قال: إنه إذا خير الرجل امرأته أو ملكها أن لـها أن تقضي في ذلك وإن افترقا من مجلسهما، روي هذا عن الحسن والزهري، وقاله مالك في إحدى روايتيه. قال أبو عبيد: والذي عندنا في هذا الباب اتباع السنة في عائشة في هذا الحديث، حين جعل لـها التخيير إلى أن تستأمر أبيها، ولم يجعل قيامها من مجلسها خروجاً من الأمر. قال المروزي. هذا أصح الأقاويل عندي، وقاله ابن المنذر والطحاوي.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى : قال العلماء: لما اختار نساء النبي رسول الله ﷺ شكرهن الله على ذلك فقال تكرمة لـهن: ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ (الأحزاب: ٥٢) الآية. وبين حكمهن عن غيرهن فقال: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ﴾ (الأحزاب: ٥٣) وجعل ثواب طاعتهن وعقاب معصيتهن أكثر مما لغيرهن فقال: ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لـها العذاب ضعفين ﴾فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبي ﷺ بفاحشة ـ والله عاصم رسولـه ﷺمن ذلك كما مر في حديث الإفك ـ يضاعف لـها العذاب ضعفين، لشرف منزلتهن وفضل درجتهن، وتقدمهن على سائر النساء أجمع. وكذلك بينت الشريعة في غير ما

(١)تقدم.

موضع حسبما تقدم بيانه غير مرة، أنه كلما تضاعفت الحرمات فهتكت تضاعفت العقوبات، ولذلك ضوعف حد الحر على العبد والثيب على البكر. وقيل: لما كان أزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه، قوي الأمر عليهن ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب. وقيل، إنما ذلك لعظم الضرر في جرائمهن بإيذاء رسول الله ﷺ، فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة في إيذاء رسول الله ﷺ، وقال تعالى: ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ﴾ (الأحزاب: ٥٧). واختار هذا القول الكيا الطبري.

الثانية : قال قوم: لو قدر الزنى من واحدة منهن ـ وقد أعاذهن الله من ذلك ـ لكانت تحد حدين لعظم قدرها، كما يزاد حد الحرة على الأمة. والعذاب بمعنى الحد، قال الله تعالى: ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ (النور: ٢). وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثلين أو المرتين، وقال أبو عبيدة: ضعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة. وقاله أبو عمرو فيما حكى الطبري عنه، فيضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة. وضعفه الطبري. وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلق الاحتمال. وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول، لأن العذاب في الفاحشة بإزاء الأجر في الطاعة، قاله ابن عطية. وقال النحاس: فرق أبو عمرو بين "يضاعف ويضعّف" قال: "يضاعف" للمرار الكثيرة. و"يضعف" مرتين. وقرأ "يضعف" لهذا. وقال أبو عبيدة: "يضاعف لها العذاب" يجعل ثلاثة أعذبة. قال النحاس: التفريق الذي جاء به أبو عمرو وأبو عبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللغة علمته، والمعنى في "يضاعف ويضعف" واحد، أي يجعل ضعفين، كما تقول: إن دفعت إلي درهماً دفعت إليك ضعفيه أي مثليه، يعني درهمين. ويدل على هذا ﴿نؤتها أجرها مرتين﴾ ولا يكون العذاب أكثر من الأجر. وقال في موضع آخر ﴿ آتهم ضعفين من العذاب ﴾ (الأحزاب: ٦٨) أي مثلين. وروى معمر عن قتادة "يضاعف لها العذاب ضعفين" قال: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. قال القشيري أبو نصر: الظاهر أنه أراد بالضعفين المثلين، لأنه قال: "نؤتها أجرها مرتين، ". فأما في الوصايا، لو أوصي لإنسان بضعفي نصيب ولده فهو وصية بأن يعطى مثل نصيبه ثلاث مرات، فإن الوصايا تجري على العرف فيما بين الناس، وكلام الله يرد تفسيره إلى كلام العرب، والضعف في كلام العرب المثل إلى ما زاد، وليس بمقصور على مثلين. يقال: هذا ضعف هذا، أي مثله. وهذا ضعفاه، أي مثلاه، فالضعف في الأصل زيادة غير محصورة قال الله تعالى: ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف ﴾ (سبأ: ٣٧) ولم يرد مثلاً ولا مثلين. كل هذا قول الأزهري. وقد تقدم في "النور" الاختلاف في حد من قذف واحدة منهن، والحمد لله.

الثالثة : قال أبو رافع: كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصبح، وكان إذا بلغ ﴿يا نساء النبي﴾ رفع بها صوته، فقيل له في ذلك فقال: (أذكرهن العهد). قرأ الجمهور: "من يأت" بالياء. وكذلك "من يقنت" حملاً على لفظ "مَن". والقنوت الطاعة، وقد تقدم. وقرأ يعقوب: "من تأت" و"تقنت" بالتاء من فوق، حملاً على المعنى. وقال قوم: الفاحشة إذا وردت معرفة فهي الزنى واللواط. وإذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي. وإذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج وفساد عشرته. وقالت فرقة: بل قوله "فاحشة مبينة" تعم جميع المعاصي. وكذلك

الفاحشة كيف وردت. وقرأ ابن كثير "مبينة" بفتح الياء. وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها. وقرأت فرقة: "يُضاعف" بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة "نضاعف" بالنون المضمومة ونصب "العذاب" وهذه قراءة ابن محيصن. وهذه مفاعلة من واحد، كطارقت النعل وعاقبت اللص. وقرأ نافع وحمزة والكسائي "يضاعف" بالياء وفتح العين، "العذاب" رفعاً. وهي قراءة الحسن وابن كثير وعيسى. وقرأ ابن كثير وابن عامر "نضعف" بالنون وكسر العين المشددة، "العذاب" نصباً. قال مقاتل هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة، لأن إيتاء الأجر مرتين أيضاً في الآخرة. وهذا حسن، لأن نساء النبي ﷺ لا يأتين بفاحشة توجب حداً. وقد قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وإنما خانت في الإيمان والطاعة. وقال بعض المفسرين: العذاب الذي توعدن به "ضعفين" هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فكذلك الأجر. قال ابن عطية: وهذا ضعيف، اللهم إلا أن يكون أزواج النبي ﷺ لا ترفع عنهن حدود الدنيا عذاب الآخرة، على ما هي حال الناس عليه، بحكم حديث عبادة بن الصامت. وهذا أمر لم يرو في أزواج النبي ﷺ ولا حفظ تقرره. وأهل التفسير على أن الرزق الكريم الجنة، ذكره النحاس.

قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (٣٢)﴾

قوله تعالى: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن﴾ يعني في الفضل والشرف. وقال: "كأحد" ولم يقل كواحدة، لأن أحداً نفي من المذكر والمؤنث والواحد والجماعة. وقد يقال على ما ليس بآدمي، يقال: ليس فيها أحد، لا شاة ولا بعير. وإنما خصّ النساء بالذكر لأن فيمن تقدم آسية ومريم. وقد أشار إلى هذا قتادة، وقد تقدم في "آل عمران" الاختلاف في التفضيل بينهن، فتأمله هناك. ثم قال: "إن اتقيتن" أي خفتن الله. فبين أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى، لما منحهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه، ونزول القرآن في حقهن.

قوله تعالى: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ في موضع جزم بالنهي، إلا أنه مبني كما بني الماضي، هذا مذهب سيبويه، أي لا تلنّ القول. أمرهن الله أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يظهر في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين، كما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه، مثل كلام المريبات والمومسات، فنهاهن عن مثل هذا. ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ "فيطمع" بالنصب على جواب النهي. ﴿الذي في قلبه مرض﴾ أي شك ونفاق، عن قتادة والسدي. وقيل: تشوّف الفجور، وهو الفسق والغزل، قاله عكرمة. وهذا أصوب، وليس للنفاق مدخل في هذه الآية. وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ "فيطمع" بفتح الياء وكسر الميم. النحاس: أحسب هذا غلطاً، وأن يكون قرأ "فيطمَعِ" بفتح الميم وكسر العين بعطفه على "تخضعن" فهذا وجه جيد حسن. ويجوز "فيطمع" بمعنى فيطمعَ الخضوع أو القول. ﴿وقلن قولاً معروفا﴾ قال ابن عباس: أمرهن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول، من غير رفع صوت، فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام. وعلى الجملة فالقول المعروف: هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ "وقرن" قرأ الجمهور "وقرن" بكسر القاف. وقرأ عاصم ونافع بفتحها. فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون من الوقار، تقول: وقر يقر وقاراً أي سكن، والأمر قر، وللنساء قرن، مثل عدن وزن. والوجه الثاني: وهو قول المبرد، أن يكون من القرار، تقول: قَررت بالمكانَ (بفتح الراَء) أقرَ، والأصل أقررن، بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً، كما قالوا في ظللت: ظلت، ومسست: مست، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف. قال أبو علي: بل على إن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف، كما أبدلت في قيراط ودينار، ويصير للياء حركة الحرف المبدل منه، فالتقدير: إقيرن، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحرك الياء بالكسر، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين، وتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها فيصير "قرن". وأما قراءة أهل المدينة وعاصم، فعلى لغة العرب: قررت في المكان إذا أقمت فيه (بكسر الراء) أقر (بفتح القاف)، من باب حمد يحمد، وهي لغة أهل الحجاز ذكرها أبو عبيد في "الغريب المصنف" عن الكسائي، وهو من أجلّ مشايخه، وذكرها الزجاج وغيره، والأصل "اقررن" حذفت الراء الأولى لثقل التضعيف، وألقيت حركتها على القاف فتقول: قرن. قال الفراء: هو كما تقول: أحَسْتَ صاحبك، أي هل أحسست. وقال أبو عثمان المازني: قررت به عيناً (بالكسر لا غير)، من قرة العين. ولا يجوز قررت في المكان (بالكسر) وإنما هو قررت (بفتح الراء)، وما أنكره من هذا لا يقدح في القراءة إذا ثبتت عن النبي ﷺ، فيستدل بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة. وذهب أبو حاتم أيضاً أن "قرن" لا مذهب له في كلام العرب. قال النحاس: وأما قول أبي حاتم: "لا مذهب له" فقد خولف فيه، وفيه مذهبان: أحدهما ما حكاه الكسائي، والآخر ما سمعت علي بن سليمان يقول، قال: وهو من قررت به عيناً أقر، والمعنى: واقررن به عيناً في بيوتكن. وهو وجه حسن، إلا أن الحديث يدل على أنه من الأول. كما روي أن عماراً قال لعائشة رضي الله عنها: إن الله قد أمرك أن تقرّي في منزلك، فقالت: يا أبا اليقظان، ما زلت قوّالاً بالحق! فقال: الحمد لله الذي جعلني كذلك على لسانك. وقرأ ابن أبي عبلة "واقررن" بألف وصل وراءين، الأولى مكسورة.

الثانية: معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى. هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة، على ما تقدم في غير موضع. فأمر الله تعالى نساء النبي ﷺ بملازمة بيوتهن، وخاطبهن بذلك تشريفاً لهن، ونهاهن عن التبرج، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى فقال: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾. وقد تقدم معنى التبرج في "النور". وحقيقته إظهار ما

ستره أحسن، وهو مأخوذ من السعة، يقال: في أسنانه بَرَج إذا كانت متفرقة، قاله المبرد. واختلف الناس في "الجاهلية الأولى"، فقيل: هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال. وقال الحكم بن عيينة: ما بين آدم ونوح، وهي ثمانمائة سنة، وحكيت لهم سيَر ذميمة. وقال ابن عباس: ما بين نوح وإدريس. الكلبي: ما بين نوح وإبراهيم. قيل: إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين، وتلبس الثياب الرقاق ولا تواري بدنها. وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى. الشعبي: ما بين عيسى ومحمد ﷺ أبو العالية: هي زمان داود وسليمان، كان فيه للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبين. وقال أبو العباس المبرد: والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء، قال: وكان النساء في الجاهلية الجهلاء يظهرن ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخلها، فينفرد خلها بما فوق الإزار إلى الأعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل. وقال مجاهد: كان النساء يتمشين بين الرجال، فذلك التبرج. قال ابن عطية: والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحقنها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة، لأنهم كانوا لا غيرة عندهم؛ وكان أمر النساء دون حجاب، وجعلها أولى بالنسبة إلى ما كن عليه، وليس المعنى أن ثَمَّ جاهلية أخرى وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهلي في الشعراء وقال ابن عباس في البخاري: سمعت أبي في الجاهلية يقول، إلى غير هذا.

قلت: وهذا قول حسن. ويعترض بأن العرب كانت أهل قشف وضنك في الغالب، وأن التنعم وإظهار الزينة إنما جرى في الأزمان السابقة، وهي المراد بالجاهلية الأولى، وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهن من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعاً. وذلك يشمل الأقوال كلها ويعمها فيلزمن البيوت، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبذل وتستر تام. والله الموفق.

الثالثة: ذكر الثعلبي وغيره: أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تبل خمارها. وذكر أن سودة قيل لها: لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني الله أن أقر في بيتي. قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها. رضوان الله عليها. قال ابن العربي: لقد دخلت نيفاً على ألف قرية فما رأيت نساء أصون عيالاً ولا أعف نساء من نساء نابلس، التي رمي بها الخليل عليه السلام بالنار، فإني أقمت فيها فما رأيت امرأة في طريق نهاراً إلا يوم الجمعة فإنهن يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن، فإذا قضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى. وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفائف ما خرجن معتكفهن حتى استشهدن فيه.

الرابعة: قال ابن عطية: بكاء عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمار: إن الله قد أمرك أن تقري في بيتك. قال ابن العربي: تعلق الرافضة ـ لعنهم الله ـ بهذه الآية على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ قالوا: إنها خالفت أمر رسول الله ﷺ حين خرجت تقود

الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مأزق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها، ولا يجوز لـها. قالوا: ولقد حصر عثمان، فلما رأت ذلك أمرت برواحلـها فقربت لتخرج إلى مكة، فقال لـها مروان: أقيمي هنا يا أم المؤمنين، وردي هؤلاء الرعاع، فإن الإصلاح بين الناس خير من حجك. قال ابن العربي قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن عائشة رضي الله عنها نذرت الحج قبل الفتنة، فلم تر التخلف عن نذرها، ولو خرجت في تلك الثائرة لكان ذلك صواباً لـها. وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس، ورجوا بركتها، وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق، وظنت هي ذلك فخرجت مقتدية بالله في قولـه: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ (النساء: ١١٤)، وقولـه: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ (الحجرات: ٩) والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى؛ حر أو عبد فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان، فعمّد بعضهم إلى الجمل فعرقبه، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة رضى الله تعالى عنها، فاحتملـها إلى البصرة، وخرجت في ثلاثين امرأة، قرنهن علي بها حتى أوصلوها إلى المدينة برة تقية مجتهدة، مصيبة مثابة فيما تأولت، مأجورة فيما فعلت، إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب. وقد تقدم في "النحل" اسم هذا الجمل، وبه يعرف ذلك اليوم.

قولـه تعالى: ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسولـه ﴾ أي فيما أمر ونهى ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ قال الزجاج: قيل يراد به نساء النبي ﷺ وقيل: يراد به نساؤه وأهلـه الذين هم أهل بيته، على ما يأتي بيانه بعد و"أهل البيت" نصب على المدح قال: وإن شئت على البدل. قال: ويجوز الرفع والخفض. قال النحاس: إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجز عند أبي العباس محمد بن يزيد، قال لا يبدل من المخاطبة ولا من المخاطب، لأنهما لا يحتاجان إلى تبيين. ﴿ويطهركم تطهيرا﴾ مصدر فيه معنى التوكيد.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ هذه الألفاظ تعطي أن أهل البيت نساؤه. وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت، من هم؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس: هم زوجاته خاصة، لا رجل معهن. وذهبوا إلى أن البيت أريد به مسكن النبي ﷺ، لقولـه تعالى: ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن ﴾. وقالت فرقة منهم الكلبي: هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة، وفي هذا أحاديث. عن النبي ﷺ، واحتجوا بقولـه تعالى: ﴿ ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم ﴾ بالميم ولو كان للنساء خاصة لكان "عنكن ويطهركن"، إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل، كما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك، أي امرأتك ونساؤك، فيقول: هم بخير، قال الله تعالى: ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ (هود: ٧٣).

والذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم. وإنما قال: "ويطهركم" لأن رسول الله ﷺ وعلياً وحسناً وحسيناً كان فيهم، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلّب المذكر، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت، لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن يدل عليه سياق الكلام. والله أعلم. أما أن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فدخل معهم تحت كساء خيبري وقال: "هؤلاء أهل بيتي" ـ وقرأ الآية ـ وقال: "اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا" فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: "أنت على مكانك وأنت على خير"(١) أخرجه الترمذي وغيره وقال: هذا حديث غريب. وقال القشيري: وقالت أم سلمة أدخلت رأسي في الكساء وقلت: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: "نعم". وقال الثعلبي: هم بنو هاشم، فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم. وروي نحوه عن زيد بن أرقم ﷺ أجمعين. وعلى قول الكلبي يكون قوله: "واذكرن" ابتداء مخاطبة الله تعالى، أي مخاطبة أمر الله عز وجل أزواج النبي ﷺ، على جهة الموعظة وتعديد النعمة بذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله تعالى والحكمة. قال أهل العلم بالتأويل: "آيات الله" القرآن. "والحكمة" السنة. والصحيح أن قوله: "واذكرن" منسوق على ما قبله. وقال "عنكم" لقوله "أهل" فالأهل مذكر، فسماهن وإن كن إناثاً باسم التذكير فلذلك صار "عنكم". ولا اعتبار بقول الكلبي وأشباهه، فإنه توجد له أشياء في هذا التفسير ما لو كان في زمن السلف الصالح لمنعوه من ذلك وحجروا عليه. فالآيات كلها من قوله: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك ـ إلى قوله ـ إن الله كان لطيفا خبيرا﴾ منسوق بعضها على بعض، فكيف صار في الوسط كلاماً منفصلاً لغيرهن وإنما هذا شيء جرى في الأخبار أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين، فعمد النبي ﷺ إلى كساء فلفها عليهم، ثم ألوى بيده إلى السماء فقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)(٢). فهذه دعوة من النبي ﷺ لهم بعد نزول الآية، أحب أن يدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيرها لهم خاصة، وهي دعوة لهم خارجة من التنزيل.

الثانية: لفظ الذكر يحتمل ثلاثة معان: أحدها: أي اذكرن موضع النعمة، إذ صيركن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة. الثاني: اذكرن آيات الله واقدرن قدرها، وفكرن فيها حتى تكون منكن على بال لتتعظن بمواعظ الله تعالى، ومن كان هذا حاله ينبغي أن تحسن أفعاله. الثالث: "اذكرن" بمعنى احفظن واقرأن وألزمنه الألسنة، فكأنه يقول: احفظن أوامر الله تعالى، ونواهيه، وذلك هو الذي يتلى في بيوتكن من آيات الله. فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن في بيوتهن، وما يرين من أفعال النبي عليه الصلاة والسلام، ويسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس، فيعملوا ويقتدوا. وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين.

---

(١) صحيح.

(٢) صحيح.

الثالثة : قال ابن العربي: في هذه الآية مسألة بديعة، وهي أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن، وتعليم ما علمه من الدين، فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره، ولا يلزمه أن يذكره لجميع أصحابه، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا، ولهذا قلنا: يجوز العمل بخبر بسرة في إيجاب الوضوء من مس الذكر، لأنها روت ما سمعت وبلغت ما وعت. ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال، كما قال أبو حنيفة، على أنه قد نقل عن سعد بن أبي وقاص وابن عمر.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى : روى الترمذي عن أمّ عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ﷺ، فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء! فنزلت هذه الآية: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ الآية. هذا حديث حسن غريب. و"المسلمين" اسم "إن". "والمسلمات" عطف عليه. ويجوز رفعهن عند البصريين، فأما الفراء فلا يجوز عنده إلا فيما لا يتبين فيه الإعراب.

الثانية : بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذي يعمّ الإيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر الإيمان تخصيصاً له وتنبيهاً على أنه عظم الإسلام ودعامته. والقانت: العابد المطيع. والصادق: معناه فيما عوهد عليه أن يفي به. والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات في المكره والمنشط. والخاشع: الخائف لله. والمتصدق بالفرض والنفل. وقيل. بالفرض خاصة، والأول أمدح. والصائم كذلك. ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أي عما لا يحل من الزنى وغيره. وفي قوله: "والحافظات" حذف يدل عليه المتقدم، تقديره: والحافظاتها، فاكتفى بما تقدم. وفي "الذاكرات" أيضاً مثله، ونظيره قول الشاعر:

وكمتاً مدماة كأن متونها ... جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

وروى سيبويه: "لون مذهب" بالنصب. وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء، كأنه قال: واستشعرته، فيمن رفع لوناً. والذاكر قيل في أدبار الصلوات وغدواً وعشياً، وفي المضاجع وعند الانتباه من النوم. وقد تقدم هذا كله مفصلاً في مواضعه، وما يترتب عليه من الفوائد والأحكام، فأغنى عن الإعادة. والحمد لله رب العالمين. قال مجاهد: لا يكون ذاكراً لله تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع ركعات كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: روى قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمته، فظنت أن الخطبة لنفسه، فلما تبين أنه يريدها لزيد، كرهت وأبت وامتنعت، فنزلت الآية. فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته. في رواية: فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش، وأن زيداً كان بالأمس عبداً، إلى أن نزلت هذه الآية، فقال له أخوها: مرني بما شئت، فزوّجها من زيد. وقيل: إنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت وهبت نفسها للنبي ﷺ، فزوّجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا غيره، فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد، قاله ابن زيد. وقال الحسن: ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ بأمر أن يعصياه.

الثانية: لفظة "ما كان، وما ينبغي" ونحوهما، معناها الحظر والمنع. فتجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون، كما في هذه الآية وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً كقوله تعالى: ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ (النمل: ٦٠) وربما كان العلم بامتناعه شرعاً كقوله تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ (الشورى: ٥١). وربما كان في المندوبات، كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل، ونحو هذا.

الثالثة: في هذه الآية دليل بل نص في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان، خلافاً لمالك والشافعي والمغيرة وسحنون. وذلك أن الموالي تزوجت في قريش، تزوج زيد زينب بنت جحش. وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير. وزوج أبو حذيفة سالماً من فاطمة بنت الوليد بن عتبة. وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ قرأ الكوفيون: "أن يكون" بالياء. وهو اختيار أبي عبيد، لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله. الباقون بالتاء، لأن اللفظ مؤنث فتأنيث فعله حسن. والتذكير على أن الخيرة بمعنى التخيير، فالخيرة مصدر بمعنى الاختيار. وقرأ ابن السميقع "الخيْرة" بإسكان الياء. وهذه الآية في ضمن قوله تعالى: ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (الأحزاب: ٦). ثم توعد تعالى وأخبر أن مَنْ يعص الله ورسوله فقد ضل. وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهائنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصوليين، من أن صيغة "أفعل" للوجوب في أصل وضعها، لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلف عند سماع أمره وأمر رسوله ﷺ، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية، ثم علق على المعصية بذلك الضلال، فلزم حمل الأمر على الوجوب. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ **فيه تسع مسائل:**

الأولى : روى الترمذي قال : حدثنا علي بن حجر قال حدثنا داود بن الزبرقان عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية : ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ يعني بالإسلام ﴿وأنعمت عليه﴾ بالعتق فأعتقته. ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ـ إلى قوله ـ وكان أمر الله مفعولاً﴾ وأن رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (الأحزاب : ٤٠). وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ (الأحزاب : ٥) فلان مولى فلان، وفلان أخو فلان، هو أقسط عند الله يعني أعدل. قال أبو عيسى : هذا حديث غريب قد روي عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها. قالت : لو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه﴾ هذا الحرف لم يرو بطوله.

قلت : هذا القدر هو الذي أخرجه مسلم في صحيحه[١]، وهو الذي صححه الترمذي في جامعه. وفي البخاري[٢] عن أنس بن مالك أن هذه الآية ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن : ما أنزل الله على رسوله آية أشد عليه من هذه الآية. وقال الحسن وعائشة : لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية لشدتها عليه. وروي في الخبر أنه : أمسى زيد فأوى إلى فراشه، قالت زينب : ولم يستطعني زيد، وما امتنع منه غير ما منعه الله مني، فلا يقدر عليَّ. هذه رواية أبي عصمة نوح بن أبي مريم، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك. وفي بعض الروايات : أن زيداً تورم ذلك منه حين أراد أن يقربها، فهذا قريب من ذلك. وجاء زيد إلى رسول الله ﷺ فقال : إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل! وإني أريد أن أطلقها، فقال له : ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ الآية. فطلقها زيد فنزلت : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه ﴾ الآية.

واختلف الناس في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين، منهم الطبري وغيره إلى أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر، وأذى باللسان وتعظماً بالشرف، قال له : «اتق الله أي فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك»[٣] وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها. وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. وقال مقاتل زوَّج النبي ﷺ زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٠).
(٣) صحيح.

ثم إنه ﷺ أتى زيداً يوماً، فأبصر زينب قائمة، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قريش، فهويها وقال: "سبحان الله مقلب القلوب"! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد، ففطن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبراً، تعظم علي وتؤذيني بلسانها، فقال ﷺ: (أمسك عليك زوجك واتق الله). وقيل: إن الله بعث ريحاً فرفعت الستر وزينب متفضلة[1] في منزلها، فرأى زينب فوقعت في نفسه، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي ﷺ وذلك لما جاء يطلب زيداً، فأخبرته بذلك، فوقع في نفس زيد أن يطلقها[2]. وقال ابن عباس: ﴿وتخفي في نفسك﴾ الحب لها. ﴿وتخشى الناس﴾ أي تستحييهم وقيل: تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلت طلقها، ويقولون أمر رجلاً بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها. ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ في كل الأحوال. وقيل والله أحق أن تستحي منه، ولا تأمر زيداً بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك، فعاتبه الله على جميع هذا. وروي عن علي بن الحسين: أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكّى زيد للنبي ﷺ خُلُق زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: "اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك" وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له، بأن قال: "أمسك" مع علمه بأنه يطلّق. وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال. قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿ وتخشى الناس ﴾ إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة ابنه. فأما ما روي أن النبي ﷺ هوي زينب امرأة زيد وربما أطلق بعض المجان لفظ عشق فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته. قال الترمذي الحكيم[3] في نوادر الأصول، وأسند إلى علي بن الحسين قوله: فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهراً من الجواهر، ودراً من الدرر، أنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد: "أمسك عليك زوجك" وأخذتك خشية الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه، والله أحق أن تخشاه. وقال النحاس: قال بعض العلماء: ليس هذا من النبي

---

(١) متفضلة: تفضلت المرأة لبست ثياب مهنتها أو كانت فى ثوب واحد.

(٢) هذه الأخبار المخترعة لا تصح بأي وجه من الوجوه إذ إنها منافية لعصمة الأنبياء ولا ينبغي أن يوصف بها نبي منهم، لأنهم هم المعصمون المنزهون عن كل نقيصة، قال ابن العربى: فى أحكامه (٣/ ٥٧٧) بعد ما ذكر طرفًا من هذه الروايات: "وهذه الروايات كلها ساقطة الأسانيد. وقال أيضًا: لا ينبغي أن يذكر نبي إلا بما ذكره الله، لا يزيد عليه، فإن أخبارهم مروية وأحاديثهم منقولة بزيادات تولاها أحد رجلين: إما غبي عن مقدارهم، وإما بدعي لا رأي له فى برهم ووقارهم، فيدس تحت الوقار المطلق الدواهي، ولا يراعي الأدلة ولا النواهي... وقد ضرب ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٩١) عن هذه الروايات الذكر صفحًا لعدم صحتها.

(٣) قال الحافظ في "الفتح"، (٨/ ٥٢٤): وقد أطنب فى تحسين هذه الرواية وقال إنها من جواهر العلم المكنون، وكأنه لم يقف على تفسير السدي، وقال: وهو أوضح سياقاً وأصح إسناداً إليه لضعف على زيد بن جدعان.

ﷺ خطيئة، ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه. وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس.

الثانية : قال ابن العربي: فإن قيل لأي معنى قال لـه: (أمسك عليك زوجك) وقد أخبره الله أنها زوجه. قلنا: أراد أن يختبر منه ما لم يعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها، فأبدى لـه زيد من النُّفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها.

فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه؟ وهذا تناقض. قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة، لإقامة الحجة ومعرفة العاقبة، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يكون، فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلاً وحكماً. وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه وقوله: "واتق الله" أي في طلاقها، فلا تطلقها. وأراد نهي تنزيه لا نهي تحريم، لأن الأولى ألا يطلق. وقيل: "اتق الله" فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج. "وتخفي في نفسك" قيل تعلق قلبه. وقيل: مفارقة زيد إياها. وقيل: علمه بأن زيداً سيطلقها، لأن الله قد أعلمه بذلك.

الثالثة : روي عن النبي ﷺ أنه قال لزيد: (ما أجد في نفسي أوثق منك فاخطب زينب عليّ) قال: فذهبت ووليتها ظهري توقيراً للنبي ﷺ، وخطبتها ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، فتزوجها النبي ﷺ ودخل بها[1].

قلت: معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح. وترجم لـه النسائي (صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها) روى الأئمة ـ واللفظ لمسلم ـ عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: "فاذكرها عليّ" قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمّر عجينها. قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، أن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن. وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. قال: فقال ولقد رأيتنا أن رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار. الحديث[2]. في رواية (حتى تركوه). وفي رواية عن أنس أيضاً قال: ما رأيت رسول الله ﷺ أَوْلَمَ على امرأة من نسائه ما أَوْلَمَ على زينب، فإنه ذبح شاة[3]. قال علماؤنا: فقولـه عليه السلام لزيد: "فاذكرها عليّ" أي اخطبها، كما بينه الحديث الأول. وهذا امتحان لزيد واختبار لـه، حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه.

قلت: وقد يستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه: اخطب عليّ فلانة، لزوجه المطلقة منه، ولا حرج في ذلك. والله أعلم.

الرابعة : لما وكلت أمرها إلى الله وصح تفويضها إليه تولى الله إنكاحها، ولذلك قال: ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾. وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ "وطراً زوجتكها".

---

(١) صحيح، أخرجه بنحوه النسائي (٦/ ٧٩).
(٢) أخرجاه في الصحيحين.
(٣) أخرجاه في الصحيحين.

ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا وهذا من خصوصياته ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين. ولـهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول: زوجكن آباؤكن وزوجني الله تعالى. أخرجه النسائي عن أنس بن مالك قال: كانت زينب تفخر على نساء النبي ﷺ تقول: إن الله عز وجل أنكحني من السماء. وفيها نزلت آية الحجاب[١]، وسيأتي.

الخامسة: المنعَم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة، كما بيناه، وقد تقدم خبره في أول السورة. وروي أن عمه لقيه يوماً وكان قد ورد مكة في شغل لـه، فقال: ما اسمك يا غلام؟ قال: زيد، قال: ابن من؟ قال: ابن حارثة. قال ابن من؟ قال: ابن شراحيل الكلبي. قال: فما اسم أمك؟ قال: سعدى، وكنت في أخوالي طي، فضمه إلى صدره، وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا، وأرادوا منه أن يقيم معهم، فقالوا: لمن أنت؟ قال: لمحمد بن عبد الله، فأتوه وقالوا: هذا ابننا فرده علينا. فقال: "أعرض عليه فإن اختاركم فخذوا بيده" فبعث إلى زيد وقال: "هل تعرف هؤلاء"؟ قال نعم! هذا أبي، وهذا أخي، وهذا عمي. فقال لـه النبي ﷺ: "فأي صاحب كنت لك"؟ فبكى وقال: لمَ سألتني عن ذلك؟ قال: "أخيرك فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق وإن أردت أن تقيم فأنا من قد عرفت" فقال: ما أختار عليك أحداً. فجذبه عمه وقال: زيد، اخترت العبودية على أبيك وعمك! فقال: أي والله العبودية عند محمد أحب إليّ من أن أكون عندكم. فقال رسول الله ﷺ: (اشهدوا أني وارث وموروث). فلم يزل يقال: زيد بن محمد إلى أن نزل قولـه تعالى: ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ (الأحزاب: ٥) ونزل ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

السادسة: قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي ﷺ: كان يقال زيد بن محمد حتى نزل ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ (الأحزاب: ٥) فقال: أنا زيد بن حارثة. وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمد. فلما نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخص بها أحداً من أصحاب النبي ﷺ وهي أنه سماه في القرآن، فقال تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطرا﴾ يعني من زينب. ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يتلى في المحاريب، نوه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس لـه وعوض من الفخر بأبوة محمد ﷺ لـه. ألا ترى إلى قول أُبي بن كعب حين قال لـه النبي ﷺ: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا" فبكى وقال: أوَذُكرت هنالك[٢]؟ وكان بكاؤه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يتلى مخلداً هل يبيد؟ يتلوه أهل الدنيا إذا قرأوا القرآن، وأهل الجنة كذلك أبداً، لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند رب العالمين، إذ القرآن كلام الله القديم، وهو باق لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السفرة الكرام البررة. وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى لـه مما

---

(١) صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٧٩٩).

نزع عنه. وزاد في الآية أن قال: "وإذ تقول للذي أنعم الله عليه" أي بالإيمان، فدل على أنه من أهل الجنة، علم ذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى.

السابعة: قولـه تعالى: ﴿ وطراً ﴾ الوطر كل حاجة للمرء لـه فيها همة، والجمع الأوطار. قال ابن عباس: أي بلغ ما أراد من حاجته، يعني الجماع. وفيه إضمار، أي لما قضى وطراً منها وطلقها ﴿زوجناكها﴾ وقراءة أهل البيت "زوجتكها". وقيل: الوطر عبارة عن الطلاق، قاله قتادة.

الثامنة: ذهب بعض الناس من هذه الآية، ومن قول شعيب: ﴿ إني أريد أن أنكحك ﴾ (القصص: ٢٧) إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أن يكون: "أنكحه إياها" فتقدم ضمير الزوج كما في الآيتين. وكذلك قولـه ﷺ لصاحب الرداء "اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن"[١]. قال ابن عطية: وهذا غير لازم، لأن الزوج في الآية مخاطب فحسن تقديمه، وفي المهور الزوجان سواء، فقدم من شئت، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال، وأنهم القوامون.

التاسعة: قولـه تعالى: ﴿ زوجناكها ﴾ دليل على ثبوت الوارث في النكاح، وقد: تقدم الخلاف في ذلك. روي أن عائشة وزينب تفاخرتا، فقالت عائشة: أنا التي جاء بي الملك إلى النبي ﷺ في سرقة من حرير فيقول: "هذه امرأتك"[٢] خرَّجه الصحيح. وقالت زينب: أنا التي زوجني الله من فوق سبع سموات[٣]. وقال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ إني لأدلّ عليك بثلاث، ما من نسائك امرأة تدل بهن: إن جدي وجدك واحد، وإن الله أنكحك إياي من السماء، وإن السفير في ذلك جبريل. وروي عن زينب أنها قالت: لما وقعت في قلب رسول الله ﷺ لم يستطعني زيد، وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى مني فلا يقدر عليّ.

قولـه تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة. أعلمهم أن هذا ونحوه هو السَّنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحلـه لـهم، أي سن لمحمد ﷺ التوسعة عليه في النكاح سنة الأنبياء الماضية، كداود وسليمان. فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سرية، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية[٤]. وذكر الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام، حيث جمع الله بينه وبين من فتن بها[٥]. و"سنة" نصب على المصدر، أي سن الله لـه سنة واسعة و"الذين خلوا" هم الأنبياء، بدليل وصفهم بعد بقولـه: ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٩٥)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (٢٤٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٠) وغيره.

(٤) ثبت في الصحيحين أن سليمان عليه السلام قال: "لأطوفن الليلة على مائة امرأة..." وفي رواية أخرى: "سبعين امرأة...".

(٥) هذا كذب قبح الله من وضعه، وسيأتي مفصلاً في ص .

قولـه تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: لما تزوج زينب قال الناس: تزوج امرأة ابنه، فنزلت الآية، أي ليس هو بابنه حتى تحرم عليه حليلته، ولكنه أبو أمته في التبجيل والتعظيم، وأن نساءه عليهم حرام فأذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم، وأعلم أن محمداً لم يكن أبا أحد من الرجال المعاصرين لـه في الحقيقة. ولـم يقصد بهذه الآية أن النبي ﷺ لم يكن لـه ولد، فقد ولد لـه ذكور. إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهر، ولكن لم يعش لـه ابن حتى يصير رجلاً. وأما الحسن والحسين فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرين لـه.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ ولكن رسول الله ﴾ قال الأخفش والفراء: أي ولكن كان رسول الله. وأجازا "ولكن رسول الله وخاتم" بالرفع وكذلك قرأ ابن أبي عبلة وبعض الناس "ولكن رسول الله" بالرفع، على معنى هو رسول الله وخاتم النبيين. وقرأت فرقة "ولكنّ" بتشديد النون، ونصب "رسول الله" على أنه اسم "لكن" والخبر محذوف "وخاتم" قرأ عاصم وحده بفتح التاء، بمعنى أنهم به ختموا، فهو كالخاتم والطابع لـهم. وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم، أي جاء آخرهم. وقيل: الخاتم والخاتِم لغتان، مثل طابع وطابِع، ودانق ودانِق، وطابَق من اللحم وطابق.

الثالثة: قال ابن عطية: هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفاً وسلفاً متلقاة على العموم التام مقتضية نصاً أنه لا نبي بعده ﷺ وما ذكره القاضي أبو الطيب في كتابه المسمى بالـهداية. من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف، وما ذكره الغزالي في هذه الآية، وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بالاقتصاد، إلحاد عندي، وتطرق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد ﷺ النبوة، فالحذر الحذر منه! والله الـهادي. برحمته.

قلت: وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (لا نبوّة بعدي إلا ما شاء الله)[١]. قال أبو عمر: يعني الرؤيا والله أعلـم التي هي جزء منها، كمـا قـال ﷺ: (ليس يبقى بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة)[٢]. وقرأ ابن مسعود "من رجالكم ولكن نبياً ختم النبيين". قال الرماني: ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح، فمن لم يصلح به فميؤوس من صلاحه.

قلت: ومن هذا المعنى قولـه ﷺ: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٣]. وفي صحيح مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة! قال رسول الله ﷺ فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء"[٤]. نحوه عن أبي هريرة، غير أنه قال: (فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين).

---

(١) ضعيف.

(٢) صحيح.

(٣) "صحيح" أخرجه البخاري في الأدب المفرد والحاكم في المستدرك والبيهقي كما في صحيح الجامع (٢٣٤٩).

(٤) أخرجاه في الصحيحين.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم. وجعل تعالى ذلك دون حد لسهولته على العبد. ولعظم الأجر فيه قال ابن عباس: لم يعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غُلب على عقلـه. وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ: "أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون"[1]. وقيل: الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان.

قولـه تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أي اشغلوا ألسنتكم في معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير. قال مجاهد: وهذه كلمات يقولـهن الطاهر والمحدث والجنب. وقيل: ادعوه. قال جرير:

فلا تنس تسبيح الضحى إن يوسفاً دعـا ربـه فـاختـاره حـين سبحـا

وقيل: المراد صلوا لله بكرة وأصيلا، والصلاة تسمى تسبيحاً. وخص الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها، لاتصالـها بأطراف الليل. وقال قتادة والطبري: الإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر. والأصيل: العشي وجمعه أصائل. والأُصل بمعنى الأصيل، وجمعه آصال، قالـه المبرد. وقال غيره: أصل جمع أصيل، كرغيف ورغف. وقد تقدم.

مسألة: هذه الآية مدنية، فلا تعلق بها لمن زعم أن الصلاة إنما فرضت أولاً صلاتين في طرفي النهار. والرواية بذلك ضعيفة فلا التفات إليها ولا معول عليها. وقد مضى الكلام في كيفية فرض الصلاة وما للعلماء في ذلك في "الإسراء" والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هو الذي يصلي عليكم ﴾ قال ابن عباس: لما نزل ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ (الأحزاب: ٥٦) قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصة، وليس لنا فيه شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قلت: وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم، ودليل على فضلـها على سائر الأمم. وقد قال: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (آل عمران: ١١٠). والصلاة من الله على العبد هي رحمته لـه وبركته لديه. وصـلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لـهم، كما قال: ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ (غافر: ٧) وسيأتي. وفي الحديث: أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: أيصلي ربك جل وعز؟ فأعظم ذلك، فأوحى الله جل وعز: "إن صلاتي بأن رحمتي سبقت غضبي" ذكره النحاس. وقال ابن عطية: وروت فرقة أن النبي ﷺ قيل لـه: يا رسول الله، كيف صلاة الله على

(١) "ضعيف"، أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم كما في ضعيف الجامع (١١٠٨).

عباده. قال: "سبوح قدوس ـ رحمتي سبقت غضبي"[1]. واختلف في تأويل هذا القول، فقيل: إنه كلمة من كلام الله تعالى وهي صلاته على عباده. وقيل سبوح قدوس من كلام محمد ﷺ وقدمه بين يدي نطقه باللفظ الذي هو صلاة الله وهو "رحمتي سبقت غضبي" من حيث فهم من السائل أنه توهم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله عز وجل، فقدم التنزيه والتعظيم بين يدي إخباره. ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي من الضلالة إلى الهدى. ومعنى هذا التثبيت على الهداية، لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية. ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم فقال: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾.

قوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

اختلف في الضمير الذي في "يلقونه" على من يعود، فقيل على الله تعالى، أي كان بالمؤمنين رحيماً، فهو يؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة. وفي ذلك اليوم يلقونه. و﴿تحيتهم﴾ أي تحية بعضهم لبعض. ﴿سلام﴾ أي سلامة لنا ولكم من عذاب الله. وقيل: هذه التحية من الله تعالى، المعنى: فيسلمهم من الآفات، أو يبشرهم بالأمن من المخافات ﴿يوم يلقونه﴾ أي يوم القيامة بعد دخول الجنة. قال معناه الزجاج، واستشهد بقوله جل وعز: ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ (يونس: ١٠). وقيل: "يوم يلقونه" أي يوم: يلقون مَلَك الموت، وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلّم عليه. روي عن البراء بن عازب قال: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يسلم عليه.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

هذه الآية فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريم لجميعهم. وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ست أسماء ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة، ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة. وقد سماه الله في كتابه محمداً وأحمداً. وقال ﷺ فيما روى عنه الثقات العدول: (لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب)[2]. وفي صحيح مسلم حديث جبير بن مطعم: وقد سماه الله (رؤوفا رحيما)[3]. وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعري قال: كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماء، فيقول: (أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة)[4]. وقد تتبع القاضي أبو الفضل عياض في كتابه المسمى (بالشفا) ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ ومما نقل في الكتب المتقدمة، وإطلاق الأمة أسماء

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ٥٠٦) من رواية ابن أبي حاتم عن عطاء بن أبي رباح موقوفاً.
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤).
(٣) أخرجه مسلم في الموضع السابق.
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٥٥).

كثيرة وصفات عديدة، قد صدقت عليه ﷺ مسمياتها، ووجدت فيه معانيها. وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي في أحكامه في هذه الآية من أسماء النبي ﷺ سبعة وستين اسماً وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس أن لمحمد ﷺ مائة وثمانين اسماً، من أرادها وجدها هناك. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ علياً ومعاذاً، فبعثهما إلى اليمن، وقال: "اذهبا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا فإنه قد أنزل عليّ"[1] وقرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ شاهداً ﴾ قال سعيد عن قتادة: "شاهداً" على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم، ونحو ذلك ﴿ومبشرا﴾ معناه للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ﴿ونذيراً﴾ معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد. ﴿وداعياً إلى الله﴾ الدعاء إلى الله هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة. ﴿بإذنه﴾ هنا معناه: بأمره إياك، وتقديره ذلك في وقته وأوانه. ﴿وسراجاً منيرا﴾ هنا استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه. وقيل: "وسراجاً" أي هادياً من ظلم الضلالة، وأنت كالمصباح المضيء. ووصفه بالإنارة لأن من السُّرُج ما لا يضيء، إذا قل سليطه ودقت فتيلته. وفي كلام بعضهم: ثلاثة تضني. رسول بطيء، وسراج لا يضيء، ومائدة ينتظر لها من يجيء. وسئل بعضهم عن الموحشين فقال: ظلام ساتر وسراج فاتر، وأسند النحاس قال: حدثنا محمد بن إبراهيم الرازي قال حدثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدي قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن شيبان النحوي قال حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً*وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا" دعا رسول الله ﷺ علياً ومعاذاً فقال: "انطلقا فبشرا ولا تعسرا فإنه قد نزل عليّ الليلة آية ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ـ من النار ـ وداعياً إلى الله ـ قال ـ شهادة أن لا إله إلا الله ـ بإذنه ـ بأمره ـ وسراجاً منيرا ـ قال ـ بالقرآن﴾. وقال الزجاج: "وسراجاً" أي وذا سراج منير، أي كتاب نير. وأجاز أيضاً أن يكون بمعنى: وتالياً كتاب الله).

قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الواو عاطفة جملة على جملة، والمعنى منقطع من الذي قبله. أمره تعالى أن يبشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى. وعلى قول الزجاج: ذا سراج منير، أو وتالياً سراجاً منيراً، يكون معطوفاً على الكاف لا في "أرسلناك". قال ابن عطية: قال لنا أبي رضي الله عنه: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى، لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً، وقد بين تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴾ (الشورى: ٢٢). فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في "حم. عسق" تفسير لها. ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي لا تطعهم فيما يشيرون عليك من المداهنة في الدين ولا تمالئهم. "الكافرين": أبي سفيان وعكرمة وأبي الأعور

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨) وليس فيه ذكر نزول الآية.

السلمي، قالوا: يا محمد، لا تذكر آلهتنا بسوء نتبعك. "والمنافقين": عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد وطعمة بن أبيرق، حثوا النبي ﷺ على إجابتهم بتعلة المصلحة. ﴿ودع أذاهم﴾ أي دع أن تؤذيهم مجازاة على إذايتهم إياك. فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم، والصفح عن زللهم؛ فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول. ونسخ من الآية على هذا التأويل ما يخص الكافرين، وناسخه آية السيف. وفيه معنى ثان: أي أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك، ولا تشتغل به، فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل. وهذا تأويل مجاهد، والآية منسوخة بآية السيف. ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ أمره بالتوكل عليه وآنسه بقوله ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ وفي قوة الكلام وعد بنصر. والوكيل: الحافظ القاسم على الأمر.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ لما جرت قصة زيد وتطليقه زينب، وكانت مدخولاً بها، وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها ـ كما بيناه ـ خاطب الله المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء، وبين ذلك الحكم للأمة، فالمطلقة إذا لم تكن ممسوسة لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك. فإن دخل بها فعليها العدة إجماعاً.

الثانية: النكاح حقيقة في الوطء، وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث إنه طريق إليه. ونظيره تسميتهم الخمر إثماً لأنه سبب في اقتراف الإثم. ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد، لأنه في معنى الوطء، وهو من آداب القرآن، الكناية عنه بلفظ: الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والإتيان.

الثالثة: استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ ثم طلقتموهن ﴾ وبمهلة "ثم" على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح وأن من طلق المرأة قبل نكاحها وإن عينها، فإن ذلك لا يلزمه. وقال هذا نيف على ثلاثين من صاحب وتابع وإمام. سمى البخاري منهم اثنين وعشرين. وقد روي عن النبي ﷺ (لا طلاق قبل نكاح)[1] ومعناه: أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح. قال حبيب بن أبي ثابت: سئل علي بن الحسين رضي الله عنه عن رجل قال لامرأة: إن تزوجتك فأنت طالق؟ فقال: ليس بشيء، ذكر الله عز وجل النكاح قبل الطلاق. وقالت طائفة من أهل العلم: إن طلاق المعينة الشخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح، منهم مالك وجميع أصحابه، وجمع عظيم من علماء الأمة. وقد مضى في "التوبة" الكلام فيها ودليل الفريقين. والحمد لله. فإذا قال: كل امرأة أتزوجها طالق وكل عبد أشتريه حر، لم يلزمه شيء. وإن قال كل امرأة أتزوجها إلى عشرين سنة، أو إن تزوجت من بلد فلان أو من بني فلان

---

(١) "صحيح" أخرجه ابن ماجه عن علي، والحاكم عن جابر، وراجع الإرواء (٢٠٧٠).

فهي طالق، لزمه الطلاق ما لم يخف العنت على نفسه في طول السنين، أو يكون عمره في الغالب لا يبلغ ذلك، فلـه أن يتزوج. وإنما لم يلزمه الطلاق إذا عمم لأنه ضيق على نفسه المناكح، فلو منعناه ألا يتزوج لحرج وخيف عليه العنت. وقد قال بعض أصحابنا: إنه إن وجد ما يتسرر به لم ينكح، وليس بشيء وذلك أن الضرورات والأعذار ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورة كمن لم يحلف، قالـه ابن خويز منداد.

الرابعة: استدل داود ـ ومن قال بقولـه ـ إن المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدتها ثم فارقها قبل أن يمسها، أنه ليس عليها أن تتم عدتها ولا عدة مستقبلة، لأنها مطلقة قبل الدخول بها. وقال عطاء بن أبي رباح وفرقة: تمضي في عدتها من طلاقها الأول ـ وهو أحد قولي الشافعي ـ؛ لأن طلاقه لـها إذا لم يمسها في حكم من طلقها في عدتها قبل أن يراجعها. ومن طلق، امرأته في كل طهر مرة بنت ولم تستأنف. وقال مالك: إذا فارقها قبل أن يمسها إنها لا تبني على ما مضى من عدتها، وإنها تنشئ من يوم طلقها عدة مستقبلة. وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان ارتجعها ولا حاجة لـه بها. وعلى هذا أكثر أهل العلم، لأنها في حكم الزوجات المدخول بهن في النفقة والسكنى وغير ذلك، ولذلك تستأنف العدة من يوم طلقت، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام. وقال الثوري: أجمع الفقهاء عندنا على ذلك.

الخامسة: فلو كانت بائنة غير مبتوتة فتزوجها في العدة ثم طلقها قبل الدخول فقد اختلفوا في ذلك أيضاً، فقال مالك والشافعي وزفر وعثمان البتي: لـها نصف الصداق وتتم بقية العدة الأولى. وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثوري والأوزاعي: لـها مهر كامل للنكاح الثاني وعدة مستقبلة. جعلوها في حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه. وقال داود: لـها نصف الصداق، وليس عليها بقية العدة الأولى ولا عدة مستقبلة. (والأولى ما قالـه مالك والشافعي)، والله أعلم.

السادسة: هذه الآية مخصصة لقولـه تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ (البقرة: ٢٢٨)، ولقولـه: ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ﴾ (الطلاق: ٤). وقد مضى في "البقرة"، ومضى فيها الكلام في المتعة، فأغنى عن الإعادة هنا. ﴿وسرحوهن سراحا جميلا﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه دفع المتعة بحسب الميسرة والعسرة، قاله ابن عباس. الثاني: أنه طلاقها طاهراً من غير جماع، قاله قتادة وقيل: فسرحوهن بعد الطلاق إلى أهلـهن، فلا يجتمع الرجل والمطلقة في موضع واحد.

السابعة: قولـه تعالى: ﴿ فمتعوهن ﴾ قال سعيد: هي منسوخة بالآية التي في البقرة، وهي قولـه: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لـهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ (البقرة: ٢٣٧) أي فلم يذكر المتعة. وقد مضى الكلام فيه. وقولـه "وسرحوهن" طلقوهن. والتسريح كناية عن الطلاق عند أبي حنيفة، لأنه يستعمل في غيره فيحتاج إلى النية. وعند الشافعي صريح. "جميلاً" سُنّة، غير بدعة.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ **فيه تسع عشرة مسألة:**

الأولى : روى السدي عن أبي صالح عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك﴾ قالت: فلم أكن أحل لـه؛ لأني لم أهاجر، كنت من الطلقاء. خرّجه أبو عيسى وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه. قال ابن العربي: وهو ضعيف جداً ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتج بها.

الثانية : لما خير رسول الله ﷺ نساءه فاخترنه، حرم عليه التزوج بغيرهن والاستبدال بهن، مكافأة لـهن على فعلـهن. والدليل على ذلك قولـه تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ (الأحزاب: ٥٢) الآية. وهل كان يحل لـه أن يطلق واحدة منهن بعد ذلك؟ فقيل: لا يحل لـه ذلك جزاء لـهن على اختيارهن لـه. وقيل: كان يحل لـه ذلك كغيره من النساء ولكن لا يتزوج بدلـها. ثم نسخ هذا التحريم فأباح لـه أن يتزوج بمن شاء عليهن من النساء، والدليل عليه قولـه تعالى: ﴿ إنا أحللنا لك أزواجك ﴾ والإحلال يقتضي تقدم حظر. وزوجاته اللاتي في حياته لم يكنَّ محرمات عليه، وإنما كان حرم عليه التزويج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن، ولأنه قال في سياق الآية ﴿وبنات عمك وبنات عماتك﴾ الآية. ومعلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمه ولا من بنات عماته ولا من بنات خالـه ولا من بنات خالاته، فثبت أنه أحل لـه التزويج بهذا ابتداء. وهذه الآية وإن كانت مقدمة في التلاوة فهي متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها، كآيتي الوفاة في "البقرة".

وقد اختلف الناس في تأويل قولـه تعالى: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾ فقيل: المراد بها أن الله تعالى أحل لـه أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، قاله ابن زيد والضحاك. فعلى هذا تكون الآية مبيحة جميع النساء حاشا ذوات المحارم. وقيل: المراد أحللنا لك أزواجك، أي الكائنات عندك، لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة، قاله الجمهور من العلماء. وهو الظاهر، لأن قولـه: ﴿آتيت أجورهن﴾ ماض، ولا يكون الفعل الماضي بمعنى الاستقبال إلا بشروط. ومجيء الأم على هذا التأويل ضيقاً على النبي ﷺ. ويؤيد هذا التأويل ما قالـه ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يتزوج في أي الناس شاء، وكان يشق ذلك على نسائه، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا من سُمِّي، سُرَّ نساؤه بذلك.

قلت: والقول الأول أصح لما ذكرناه ويدل أيضاً على صحته ما خرجه الترمذي عن عطاء قال قالت عائشة رضي الله عنها: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله تعالى لـه النساء. قال: هذا حديث حسن صحيح.

الثالثة : قولـه تعالى: ﴿ وما ملكت يمينك ﴾ أحل الله تعالى السراري لنبيه ﷺ ولأمته مطلقاً، وأحل الأزواج لنبيه عليه الصلاة والسلام مطلقاً، وأحلـه للخلق بعده. ﴿مما أفاء الله عليك﴾ أي رده عليك من الكفار. والغنيمة قد تسمى فيئاً، أي مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة.

الرابعة : قولـه تعالى: ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك ﴾ أي أحللنا لك ذلك زائداً من الأزواج اللاتي أتيت أجورهن وما ملكت يمينك، على قول الجمهور، لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وأتيت أجرها، لما قال بعد ذلك: "وبنات عمك وبنات عماتك" لأن ذلك داخل فيما تقدم.

قلت: وهذا لا يلزم، وإنما خص هؤلاء بالذكر تشريفاً، كما قال تعالى: ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ (الرحمن: ٦٨). والله أعلم.

الخامسة : قولـه تعالى: ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ فيه قولان: الأول: لا يحل لك من قرابتك كبنات عمك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب، وبنات أولاد بنات عبد المطلب، وبنات الخال من ولد بنات عبد مناف بن زهرة إلا من أسلم، لقولـه ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه)[١]. الثاني: لا يحل لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة، لقولـه تعالى. ﴿ والذين آمنوا ولـم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ (الأنفال: ٧٢) ومن لم يهاجر لم يكمل، ومن لم يكمل لم يصلح للنبي ﷺ الذي كمل وشرف وعظم ﷺ.

السادسة : قولـه تعالى: ﴿ معك ﴾ المعية هنا الاشتراك في الـهجرة لا في الصحبة فيها، ومن هاجر حلّ لـه، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن. يقال: دخل فلان معي وخرج معي، أي كان عملـه كعملي وإن لم يقترن فيه عملكما. ولو قلت: خرجنا معاً لاقتضى ذلك المعنيين جميعاً: الاشتراك في الفعل، والاقتران فيه.

السابعة : ذكر الله تبارك وتعالى العمّ فرداً والعمات جمعاً. وكذلك قال: "خالك"، "وخالاتك" والحكمة في ذلك: أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز، وليس كذلك العمة والخالة. وهذا عرف لغوي، فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال، وهذا دقيق فتأملوه، قالـه ابن العربي.

الثامنة : قولـه تعالى: ﴿ وامرأة مؤمنة ﴾ عطف على "أحللنا" المعنى وأحللنا كل امرأة تهب نفسها من غير صداق. وقد اختلف في هذا المعنى، فروي عن ابن عباس أنه قال: لم تكن عند رسول الله ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين. فأما الـهبة فلم يكن عنده منهن أحد. وقال قوم: كانت عنده موهوبة.

---

(١) أخرجه البخاري في "الإيمان"، (١٠).

قلت: والذي في الصحيحين يقوي هذا القول ويعضده، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أما تستحي امرأة تهب نفسها لرجل! حتى أنزل الله تعالى: ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ﴾ (الأحزاب: ٥١) فقلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك[1]. وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ فدل هذا على أنهن كن غير واحدة. والله تعالى أعلم. الزمخشري: وقيل الموهبات أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم.

قلت: وفي بعض هذا اختلاف. قال قتادة: هي ميمونة بنت الحارث. وقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة أم المساكين امرأة من الأنصار. وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل: هي أم شريك بنت جابر الأسدية. وقال عروة بن الزبير: أم حكيم بنت الأوقص السلمية.

التاسعة: وقد اختلف في اسم الواهبة نفسها، فقيل هي أم شريك الأنصارية، اسمها غزية. وقيل غزيلة. وقيل ليلى بنت حكيم. وقيل: هي ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبي ﷺ، فجاءها الخاطب وهي على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ. وقيل: هي أم شريك العامرية، وكانت عند أبي العكر الأزدي. وقيل عند الطفيل بن الحارث فولدت لـه شريكاً. وقيل: إن رسول الله ﷺ تزوجها، ولم يثبت ذلك. والله تعالى أعلم، ذكره أبو عمر بن عبد البر. وقال الشعبي وعروة: وهي زينب بنت خزيمة أم المساكين. والله تعالى أعلم.

العاشرة: قرأ جمهور الناس "إن وهبت" بكسر الألف، وهذا يقتضي استئناف الأمر، أي إن وقع فهو حلال لـه. وقد روي عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة موهوبة، وقد دللنا على خلافه. وروى الأئمة من طريق سهل وغيره في الصحاح: أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ: جئت أهب لك نفسي، فسكت حتى قام رجل فقال: زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة[2]. فلو كانت هذه الـهبة غير جائزة لما سكت رسول الله ﷺ لأنه لا يقر على الباطل إذا سمعه، غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظراً بياناً، فنزلت الآية بالتحليل والتخيير، فاختار تركها وزوجها من غيره. ويحتمل أن يكون سكت ناظراً في ذلك حتى قام الرجل لـها طالباً. وقرأ الحسن البصري وأُبي بن كعب والشعبي "أن" بفتح الألف. وقرأ الأعمش "وامرأة مؤمنة وهبت". قال النحاس: وكسر "إن" أجمع للمعاني، لأنه قيل إنهن نساء. وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها، لأن الفتح على البدل من امرأة، أو بمعنى لأن.

الحادية عشرة: قولـه تعالى: ﴿ مؤمنة ﴾ يدل على أن الكافرة لا تحل لـه. قال إمام الحرمين: وقد اختلف في تحريم الحرة الكافرة عليه. قال ابن العربي: والصحيح عندي تحريمها عليه. وبهذا يتميز علينا، فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٢١) وقد تقدم.

أطهر؛ فجوز لنا نكاح الحرائر الكتابيات، وقصر هو ﷺ لجلالته على المؤمنات. وبهذا كان لا يحل لـه من لم تهاجر لنقصان فضل الـهجرة فأحرى ألا تحل لـه الكافرة الكتابية لنقصان الكفر.

الثانية عشرة: قولـه تعالى: ﴿ إن وهبت نفسها ﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة، قد تقدمت في "النساء" وغيرها. وقال الزجاج: معنى "إن وهبت نفسها للنبي" حلت. وقرأ الحسن: "إن وهبت" بفتح الـهمزة. و"أن" في موضع نصب. قال الزجاج: أي لأن. وقال غيره: "إن وهبت" بدل اشتمال من "امرأة".

الثالثة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ أي إذا وهبت المرأة نفسها وقبلـها النبي ﷺ حلت لـه، وإن لم يقبلـها لم يلزم ذلك. كما إذا وهبت لرجل شيئاً فلا يجب عليه القبول، بيد أن من مكارم أخلاق نبينا أن يقبل من الواهب هبته. ويرى الأكارم أن ردها هجنة في العادة، ووصمة على الواهب وأذية لقلبه، فبين الله ذلك في حق رسوله ﷺ وجعلـه قرآنا يتلى، ليرفع عنه الحرج، ويبطل بطل الناس في عادتهم وقولـهم.

الرابعة عشرة: قولـه تعالى ﴿ خالصة لك ﴾ أي هبة النساء أنفسهن خالصة ومزية لا تجوز، فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل. ووجه الخاصية أنها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لـها ذلك. فأما فيما بيننا فللمفوضة طلب المهر قبل الدخول، ومهر المثل بعد الدخول.

الخامسة عشرة: أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز، وأن هذا اللفظ من الـهبة لا يتم عليه نكاح، إلا ما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا: إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز. قال ابن عطية: فليس في قولـهم إلا تجويز العبارة ولفظة الـهبة، وإلا فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه، وقد تقدمت هذه المسألة في "القصص" مستوفاة. والحمد لله.

السادسة عشرة : خص الله تعالى رسولـه في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد ـ في باب الفرض والتحريم والتحليل ـ مزية على الأمة وهبت لـه، ومرتبة خص بها، ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وحللت لـه أشياء لم تحلل لـهم، منها متفق عليه ومختلف فيه.

فأما ما فرض عليه فتسعة: الأول: التهجد بالليل، يقال: إن قيام الليل كان واجباً عليه إلى أن مات، لقولـه تعالى: ﴿ يا أيها المزمل قم الليل ﴾ (المزمل: ١ ـ ٢) الآية. والمنصوص أنه كان واجباً عليه ثم نسخ بقولـه تعالى: ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ (الإسراء: ٧٩) وسيأتي. الثاني: الضُحى. الثالث: الأضحى. الرابع: الوتر، وهو يدخل في قسم التهجد. الخامس: السواك. السادس: قضاء دين من مات معسراً. السابع: مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. الثامن: تخيير النساء. التاسع: إذا عمل عملاً أثبته. زاد غيره: وكان يجب عليه إذا رأى منكراً أنكره وأظهره، لأن إقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه، ذكره صاحب البيان.

وأما ما حرم عليه فجملته عشرة: الأول: تحريم الزكاة عليه وعلى آلـه. الثاني: صدقة التطوّع عليه، وفي آلـه تفصيل باختلاف. الثالث: خائنة الأعين، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر، أو ينخدع

عما يجب. وقد ذم بعض الكفار عند إذنه ثم ألان لـه القول عند دخوله. الرابع: حرم الله عليه إذا لبس لأمته أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه. الخامس: الأكل متكئاً. السادس: أكل الأطعمة الكريهة الرائحة. السابع: التبدل بأزواجه، وسيأتي. الثامن: نكاح امرأة تكره صحبته. التاسع: نكاح الحرة الكتابية. العاشر: نكاح الأمة.

وحرّم الله عليه أشياء لم يحرمها غيره تنزيهاً لـه وتطهيراً. فحرم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه، تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته قال الله تعالى: ﴿ وما كنت تتلو من قبلـه من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ (العنكبوت: ٤٨). وذكر النقاش أن النبي ﷺ ما مات حتى كتب، والأول هو المشهور. وحرم عليه أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس، قال الله تعالى: ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ (الحجر: ٨٨) الآية.

وأما ما أحلّ لـه ﷺ فجملته ستة عشر: الأول: صفي المغنم. الثاني: الاستبداد بخُمس الخُمس أو الخُمس. الثالث: الوصال. الرابع: الزيادة على أربع نسوة. الخامس: النكاح بلفظ الـهبة. السادس: النكاح بغير ولي. السابع: النكاح بغير صداق. الثامن: نكاحه في حالة الإحرام. التاسع: سقوط القسم بين الأزواج عنه، وسيأتي. العاشر: إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها، وحل لـه نكاحها. قال ابن العربي: هكذا قال إمام الحرمين، وقد مضى ما للعلماء في قصة زيد من هذا المعنى. الحادي عشر: أنه أعتق صفية وجعل عتقها صداقها. الثاني عشر: دخول مكة بغير إحرام، وفي حقنا فيه اختلاف. الثالث عشر: القتال بمكة. الرابع عشر: أنه لا يورث. وإنما ذكر هذا في قسم التحليل لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض زال عنه أكثر ملكه، ولم يبق لـه إلا الثلث خالصاً، وبقي ملك رسول الله ﷺ على ما تقرر بيانـه في آية المواريـث، وسـورة "مريـم" بيانه أيضاً. الخامس عشر: بقاء زوجيته من بعد الموت. السادس عشر: إذا طلق امرأة تبقى حرمته عليها فلا تنكح. وهذه الأقسام الثلاثة تقدم معظمها مفصلاً في مواضعها. وسيأتي إن شاء الله تعالى.

وأبيح لـه عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام، والشراب من الجائع والعطشان، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الـهلاك، لقولـه تعالى: ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ (الأحزاب: ٦). وعلى كل أحد من المسلمين أن يقي النبي ﷺ بنفسه. وأبيح لـه أن يحمي لنفسه. وأكرمه الله بتحليل الغنائم. وجعلت الأرض لـه ولأمته مسجداً وطهوراً. وكان من الأنبياء من لا تصح صلاتهم إلا في المساجد. ونصر بالرعب، فكان يخافه العدو من مسيرة شهر. وبعث إلى كافة الخلق، وقد كان من قبلـه من الأنبياء يبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض. وجعلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبلـه وزيادة. وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجار الماء من الصخرة وقد انشق القمر للنبي ﷺ وخرج الماء من بين أصابعه ﷺ وكانت معجزة عيسى ﷺ إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. وقد سبح الحصى في يد النبي ﷺ، وحن الجذع إليه، وهذا أبلغ. وفضلـه الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة لـه، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة، ولـهذا جعلت نبوته مؤبدة لا تنسخ إلى يوم القيامة.

السابعة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ أن يستنكحها ﴾ أي ينكحها، يقال: نكح واستنكح، مثل عجب واستعجب، وعجل واستعجل. ويجوز أن يرد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح، أو طلب الوطء. و﴿خالصة﴾ نصب على الحال، قاله الزجاج. وقيل: حال من ضمير متصل بفعل مضمر دل عليه المضمر، تقديره: أحللنا لك أزواجك، وأحللنا لك امرأة مؤمنة أحللناها خالصة، بلفظ الـهبة وبغير صداق وبغير وليّ.

الثامنة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ من دون المؤمنين ﴾ فائدته أن الكفار وإن كانوا مخاطبين بفروع الشريعة عندنا فليس لـهم في ذلك دخول، لأن تصريف الأحكام إنما يكون فيهم على تقدير الإسلام.

قولـه تعالى : ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم ﴾ أي ما أوجبنا على المؤمنين، وهو ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة بمهر وبينة وولي. قال معناه أُبي بن كعب وقتادة وغيرهما.

التاسعة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ أي ضيق في أمر أنت فيه محتاج إلى السعة، أي بينا هذا البيان وشرحنا هذا الشرح "لكيلا يكون عليك حرج". فـ "لكيلا" متعلق بقولـه: "إنا أحللنا أزواجك" أي فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أثمت عند ربك في شيء.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ثم آنس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى: ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ فيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ ترجي من تشاء ﴾ قرئ مهموزاً وغير مهموز، وهما لغتان، يقال: أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته. ﴿وتؤوي﴾ تَضُمّ، يقال: آوى إليه. (ممدودة الألف) ضم إليه. وأوى (مقصورة الألف) انضم إليه.

الثانية : واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، وأصح ما قيل فيها. التوسعة على النبي ﷺ في ترك القسم، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته. وهذا القول هو الذي يناسب ما مضى، وهو الذي ثبت معناه في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كنت أغار على اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أوَ تهب المرأة نفسها لرجل؟ فلما أنزل الله عز وجل ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن أبتغيت ممن عزلت﴾ قالت: قلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. قال ابن العربي: هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعول عليه. والمعنى المراد: هو أن النبي ﷺ كان مخيراً في أزواجه، إن شاء أن يقسم قسم، وإن شاء أن يترك القسم ترك. فخص النبي ﷺ بأن جعل الأمر إليه فيه، لكنـه كان يقسم من قبل نفسه دون أن فرض ذلك عليه، تطيبا لنفوسهن،

وصوناً لـهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي. وقيل: كان القسم واجباً على النبي ﷺ ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية. قال أبو رزين: كان رسول الله قد هم بطلاق بعض نسائه فقلن لـه: اقسم لنا ما شئت. فكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، فكان قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن. وكان ممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية، فكان يقسم لـهن ما شاء. وقيل: المراد الواهبات. روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله: "ترجي من تشاء منهن" قالت: هذا في الواهبات أنفسهن. قال الشعبي: هن الواهبات أنفسهن، تزوج رسول الله ﷺ منهن وترك منهن. وقال الزهري: ما علمنا أن رسول الله ﷺ أرجأ أحداً من أزواجه، بل آواهن كلـهن. وقال ابن عباس وغيره: المعنى في طلاق من شاء ممن حصل في عصمته، وإمساك من شاء. وقيل غير هذا. وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة على رسول الله ﷺ والإباحة. وما اخترناه أصح والله أعلم.

الثالثة: ذهب هبة الله في الناسخ والمنسوخ إلى أن قوله: "ترجي من تشاء" الآية، ناسخ لقوله: ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ (الأحزاب: ٥٢) الآية. وقال: ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا. وكلامه يضعف من جهات. وفي "البقرة" عدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشر، وهو ناسخ للحول وقد تقدم عليه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت ﴾ "ابتغيت" طلبت، والابتغاء الطلب. و"عزلت" أزلت، والعزلة الإزالة، أي إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن من القسمة وتضمها إليك فلا بأس عليك في ذلك. كذلك حكم الإرجاء، فدل أحد الطرفين على الثاني.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ فلا جناح عليك ﴾ أي لا ميل، يقال: جنحت السفينة أي مالت إلى الأرض. أي لا ميل عليك باللوم والتوبيخ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ﴾ قال قتادة وغيره: أي ذلك التخيير الذي خيرناك في صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين، لأن المرء إذا علم أنه لا حق لـه في شيء كان راضياً بما أوتي منه وإن قل. وإن علم أن لـه حقاً لم يقنعه ما أوتي منه، واشتدت غيرته عليه وعظم حرصه فيه. فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لـهن، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه وقرئ: "تقر أعينهن" بضم التاء ونصب الأعين. "وتقر أعينهن" على البناء للمفعول. وكان ﷺ مع هذا يشدد على نفسه في رعاية التسوية بينهن، تطييباً لقلوبهن كما قدمناه، ويقول: "اللهم هذه قدرتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"[1] يعني قلبه، لإيثاره عائشة رضي الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك في شيء من فعله. . وكان في مرضه الذي توفي فيه يطاف به محمولاً على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنهن أن يقيم في بيت عائشة. قالت عائشة: أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فاستأذن أزواجه أن يمرض في بيتها ـ يعني في

(١) ضعيف، أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠).

بيت عائشة ـ فأذنَّ لـه . . . الحديث، خرجه في الصحيح[1]. وفي الصحيح أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد، يقول: (أين أنا اليوم أين أنا غداً) استبطاء ليوم عائشة رضي الله عنها. قالت: فلما كان يومي قبضه الله تعالى بين سحري ونحري[2] ﷺ.

السابعة : على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوماً وليلة، هذا قول عامة العلماء. وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار. ولا يسقط حق الزوجة مرضها ولا حيضها، ويلزمه المقام عندها في يومها وليلتها وعليه أن يعدل بينهن فى مرضه . . . كما يفعل في صحته، إلا أن يعجز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض، فإذا صح استأنف القسم. والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات في ذلك سواء. قال عبد الملك: للحرة ليلتان وللأمة ليلة. وأما السراري فلا قسم بينهن وبين الحرائر، ولا حظ لـهن فيه.

الثامنة : ولا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن، ولا يدخل لإحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة. واختلف في دخوله لحاجة وضرورة، فالأكثرون على جوازه، مالك وغيره. وفي كتاب ابن حبيب منعه. وروى ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت لـه امرأتان، فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء. قال ابن بكير: وحدثنا مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت لـه امرأتان ماتتا في الطاعون. فأسهم بينهما أيهما تدلَّى أول.

التاسعة : قال مالك: ويعدل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال، ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب. وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل. فأما الحب والبغض فخارجان عن الكسب فلا يتأتى العدل فيهما، وهو المعنيّ بقولـه ﷺ في قسمه: "اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"[3]. أخرجه النسائي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها. وفي كتاب أبي داود "يعني القلب"، وإليه الإشارة بقولـه تعالى: ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ (النساء: ١٢٩) وقولـه تعالى: ﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾. وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا، تنبيهاً منه لنا على أنه يعلم ما في قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض من عندنا من النساء دون بعض، وهو العالم بكل شيء ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ (آل عمران: ٥) ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ (طه: ٧) لكنه سمح في ذلك، إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميل، وإلى ذلك يعود قولـه: ﴿وكان الله غفوراً رحيما﴾. وقد قيل في قوله ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن﴾ وهي:

العاشرة : قولـه: ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ﴾ أي ذلك أقرب ألا يحزنَّ إذا لم يجمع إحداهن مع الأخرى ويعاين الأثرة والميل. وروى أبو داود عن أبي هريره عن النبي ﷺ قال: "من كانت لـه امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل"[4] ﴿ويرضين بما آتيتهن كلـهن﴾ توكيد

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨)، وفي مواضع كثيرة من صحيحة، ومسلم (٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٩)، ومسلم (٢٤٤٣).

(٣) ضعيف، وتقدم تخريجه قريباً.

(٤) "صحيح" أخرجه أحمد وأصحاب السنن، كما في صحيح الجامع (٦٥١٥).

للضمير، أي ويرضين كلهن. وأجاز أبو حاتم والزجاج "ويرضين بما آتيتهن كلهن" على التوكيد للمضمر الذي في "آتيتهن". والفراء لا يجيزه، لأن المعنى ليس عليه، إذ كان المعنى وترضى كل واحدة منهن، وليس المعنى بما أعطيتهن كلهن. النحاس: والذي قاله حسن.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿ والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً ﴾ خبر عام، والإشارة إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص. وكذلك يدخل في المعنى أيضاً المؤمنون. وفي البخاري عن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت، : أي الناس أحب إليك؟ فقال: "عائشة" فقلت: من الرجال؟ قال: "أبوها" قلت: ثم مَنْ؟ قال: "عمر بن الخطاب. . ." فعدَّ رجالاً[1]. وقد تقدم القول في القلب بما فيه كفاية في أول "البقرة"، وفي أول هذه السورة. يروى أن لقمان الحكيم كان عبداً نجاراً قال له سيده: اذبح شاة وائتني بأطيبها بضعتين، فأتاه باللسان والقلب. ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له: ألق أخبثها بَضعتين، فألقى اللسان والقلب. فقال: أمرتك أن تأتيني بأطيبها بضعتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي بأخبثها بضعتين فألقيت اللسان والقلب! فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ اختلف العلماء في تأويل قوله: "لا يحل لك النساء من بعد" على أقوال سبعة:

الأول: إنها منسوخة بالسنة، والناسخ لها حديث عائشة، قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له النساء وقد تقدم.

الثاني: أنها منسوخة بآية أخرى، روى الطحاوي عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء من شاء، إلا ذات محرم، وذلك قوله عز وجل: ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ﴾. قال النحاس: وهذا والله أعلم أولى ما قيل في الآية، وهو وقول عائشة واحد في النسخ. وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحل له ذلك بالقرآن. وهو مع هذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وعلي بن الحسين والضحاك. وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال: محال أن تنسخ هذه الآية يعني "ترجي من تشاء منهن" "لا يحل لك النساء من بعد" وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون ورجح قول من قال نسخت بالسنة. قال النحاس: وهذه المعارضة لا تلزم وقائلها غالط، لأن القرآن بمنزلة صورة واحدة، كما صح عن ابن عباس: أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان. ويبين لك أن اعتراض هذا المعترض لا يلزم أن قوله عز وجل: ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ﴾ (البقرة: ٢٤٠) منسوخة على قول أهل التأويل ـ لا نعلم بينهم خلافاً ـ بالآية التي قبلها: ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ (البقرة: ٢٣٤).

---

(١) صحيح.

الثالث: أنه ﷺ حظر عليه أن يتزوج على نسائه، لأنهن اخترن الله ورسولـه والدار الآخرة، هذا قول الحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. قال النحاس: وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ.

الرابع: أنه لما حرم عليهن أن يتزوجن بعده حرم عليه أن يتزوج غيرهن، قالـه أبو أمامة بن سهل بن حنيف.

الخامس: قولـه تعالى: ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ أي من بعد الأصناف التي سميت، قالـه أُبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين، وهو اختيار محمد بن جرير. ومن قال إن الإباحة كانت لـه مطلقة قال هنا: "لا يحل لك النساء" معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات. وهذا تأويل فيه بُعد. وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة أيضاً. وهو القول السادس. قال مجاهد: لئلا تكون كافرة أمًّا للمؤمنين. وهذا القول يبعد، لأنه يقدره: من بعد المسلمات، ولم يجر للمسلمات ذكر. وكذلك قدر "ولا أن تبدل بهن" أي ولا أن تطلق مسلمة لتستبدل بها كتابية.

السابع: أن النبي ﷺ كان لـه حلال أن يتزوج من شاء ثم نسخ ذلك. قال: وكذلك كانت الأنبياء قبلـه ﷺ قاله محمد بن كعب القرظي.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ قال ابن زيد: هذا شيء كانت العرب تفعلـه، يقول أحدهم: خذ زوجتي وأعطني زوجتك، روى الدارقطني عن أبي هريرة قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك، فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ قال: فدخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله ﷺ وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال لـه رسول الله ﷺ: (يا عيينة فأين الاستئذان)؟ فقال: يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت. قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ قال رسول الله ﷺ: (هذه عائشة أم المؤمنين) قال: أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق. فقال: "يا عيينة، إن الله قد حرم ذلك". قال فلما خرج قالت عائشة: يا رسول الله، من هذا؟ قال: "أحمق مطاع وإنه على ما ترين لسيد قومه"[1]. وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب، من أنها كانت تبادل بأزواجها. قال الطبري: وما فعلت العرب قط هذا. وما روي من حديث عيينة بن حصن من أنه دخل على رسول الله ﷺ وعنده عائشة... الحديث، فليس بتبديل، ولا أراد ذلك، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول.

قلت: وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة من أن البدل كان في الجاهلية يدل على خلاف ما أنكر من ذلك، والله أعلم. قال المبرد: وقرئ "لا يحل" بالياء والتاء. فمن قرأ بالتاء فعلى معنى جماعة النساء، وبالياء من تحت على معنى جميع النساء. وزعم الفراء قال: اجتمعت القراء على أن القراءة بالياء، وهذا غلط، وكيف يقال: اجتمعت القراء وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلاف عنه.

---

(١) "ضعيف جداً" أخرجه الدارقطني (٣/ ٢١٨) وفي سنده إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، قال البخاري: تركوه، ونهى أحمد عن حديثه، و انظر "الفتح"، (٩/ ١٨٤).

الثالثة : قولـه تعالى: ﴿ ولو أعجبك حسنهن ﴾ قال ابن عباس: نزل ذلك بسبب أسماء بنت عميس، أعجب رسول الله ﷺ حين مات عنها جعفر بن أبي طالب حسنها، فأراد أن يتزوجها، فنزلت الآية، وهذا حديث ضعيف قاله ابن العربي.

الرابعة : في هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها. وقد أراد المغيرة بن شعبة زواج امرأة، فقال لـه النبي ﷺ: (انظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما)[١]. وقال ﷺ لآخر: (انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا)[٢] أخرجه الصحيح. قال الحميدي وأبو الفرج الجوزي. يعني صفراء أو زرقاء. وقيل رمصاء.

الخامسة : الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة، فإنه إذا نظر إليها فلعلـه يرى منها ما يرغبه في نكاحها. ومما يدل على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل)[٣]. فقولـه: "فإن استطاع فليفعل" لا يقال مثلـه في الواجب. وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعي والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر. وقد كره ذلك قوم لا مبالاة بقولـهم، للأحاديث الصحيحة، وقولـه تعالى: "ولو أعجبك حسنهن". وقال سهل بن أبي خيثمة: رأيت محمد بن مسلمة يطارد ثُبيتة بنت الضحاك على إجّار من أجاجير المدينة فقلت لـه: أتفعل هذا؟ فقال نعم! قال النبي ﷺ: (إذا ألقى الله في قلب أحدكم خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها)[٤]. الإجّار: السطح، بلغة أهل الشام والحجاز. قال أبو عبيد: وجمع الإجار أجاجير وأجاجرة.

السادسة : اختلف فيما يجوز أن ينظر منها، فقال مالك: ينظر إلى وجهها وكفيها، ولا ينظر إلا بإذنها. وقال الشافعي وأحمد: بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة. وقال الأوزاعي: ينظر إليها ويجتهد وينظر مواضع اللحم منها. قال داود: ينظر إلى سائر جسدها، تمسكاً بظاهر اللفظ. وأصول الشريعة ترد عليه في تحريم الاطلاع على العورة. والله أعلم.

السابعة : قولـه تعالى: ﴿ إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا ﴾ اختلف العلماء في إحلال الأمَة الكافرة للنبي ﷺ على قولين: تحل لعموم قولـه: "إلا ما ملكت يمينك"، قالـه مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم. قالوا: قولـه تعالى: ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ أي لا تحل لك النساء من غير المسلمات، فأما اليهوديات والنصرانيات والمشركات فحرام عليك، أي لا يحل لك أن تتزوج كافرة فتكون أُمًّا للمؤمنين ولو أعجبك حسنها، إلا ما ملكت يمينك، فإن لـه أن يتسرى بها.
القول الثاني: لا تحل، تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة، وقد قال الله تعالى: ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ (المتحنة: ١٠) فكيف به ﷺ. و"ما" في قولـه: ﴿ إلا ما ملكت يمينك ﴾ في موضع رفع بدل من "النساء". ويجوز أن يكون في موضع نصب على استثناء، وفيه ضعف. ويجوز أن تكون مصدرية، والتقدير: إلا ملك يمينك، وملك بمعنى مملوك، وهو في موضع نصب لأنه استثناء من غير الجنس الأول.

---

(١) "صحيح" أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم.
(٢) أخرجه مسلم (١٤٢٤).
(٣) "حسن" أخرجه أبو داود والحاكم والبيهقي كما في صحيح الجامع (٥٠٦).
(٤) "صحيح" أخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي، وانظر صحيح الجامع (٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) ﴾ فيه ست عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ "أن" في موضع نصب على معنى: إلا بأن يؤذن لكم، ويكون الاستثناء ليس من الأول. ﴿إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ نصب على الحال، أي لا تدخلوا في هذه الحال. ولا يجوز في "غير" الخفض على النعت للطعام، لأنه لو كان نعتاً لم يكن بدّ من إظهار الفاعلين، وكان يقول: غير ناظرين إناه أنتم. ونظير هذا من النحو: هذا رجل مع رجل ملازم له، وإن شئت قلت: هذا رجل مع رجل ملازم له هو.

وهذه الآية تضمنت قصتين: إحداهما: الأدب في أمر الطعام والجلوس. والثانية: أمر الحجاب. وقال حماد بن زيد: هذه الآية نزلت في الثقلاء. فأما القصة الأولى فالجمهور من المفسرين على أن: سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولَم عليها، فدعا الناس، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ قال أنس: فما أدري أأنا أخبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب. قال: ووعظ القوم بما وعظوا به، وأنزل الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي - إلى قوله - إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ أخرجه الصحيح[(١)]. وقال قتادة ومقاتل في كتاب الثعلبي: إن هذا السبب جرى في بيت أم سلمة. والأول الصحيح، كما رواه الصحيح. وقال ابن عباس: نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون قبل أن يدرك الطعام، فيقعدون إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون. وقال إسماعيل بن أبي حكيم: وهذا أدب أدَّبَ الله به الثقلاء. وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم. وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة: سببها أمر القعود في بيت زينب، القصة المذكورة آنفاً. وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة: سببها أن عمر قال قلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت الآية. وروى الصحيح عن ابن عمر قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر[(٢)]. هذا أصح ما قيل في أمر الحجاب، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٩٤)، ومسلم (١٤٢٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٩٩).

فواهية، لا يقوم شيء منها على ساق، وأضعفها ما روي عن ابن مسعود: أن عمر أمر نساء النبي ﷺ بالحجاب، فقالت زينب بنت جحش: يا ابن الخطاب، إنك تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا فأنزل الله تعالى: ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ وهذا باطل، لأن الحجاب نزل يوم البناء بزينب، كما بيناه. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم. وقيل: إن رسول الله ﷺ كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصاب يد رجل منهم يد عائشة، فكره النبي ﷺ فنزلت آية الحجاب. قال ابن عطية: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه. وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لانتظار نضج الطعام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ بيوت النبي ﴾ دليل على أن البيت للرجل، ويحكم له به، فإن الله تعالى أضافه إليه. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيرا ﴾ (الأحزاب: ٣٤) قلنا: إضافة البيوت إلى النبي ﷺ إضافة ملك، وإضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محل، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي ﷺ والإذن إنما يكون للمَالك.

الثالثة: واختلف العلماء في بيوت النبي ﷺ إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته، هل هي ملك لهن أم لا؟ على قولين: فقالت طائفة: كانت ملكاً لهن، بدليل أنهن سكنَّ فيها بعد موت النبي ﷺ إلى وفاتهن، وذلك أن النبي ﷺ وهب ذلك لهن في حياته. الثاني: أن ذلك كان إسكاناً كما يسكن الرجل أهله ولم يكن هبة، وتمادى سكناهنّ بها إلى الموت. وهذا هو الصحيح، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربي وغيرهم، فإن ذلك من مؤونتهن التي كان رسول الله ﷺ استثناها لهنّ، كما استثنى لهن نفقاتهن حين قال: (لا تقسم ورثتي ديناراً ولا درهماً، ما تركت بعد نفقة أهلي ومؤونة عاملي فهو صدقة)[1]. هكذا قال أهل العلم، قالوا: ويدل على ذلك أن مساكنهن لم يرثها عنهن ورثتهن. قالوا: ولو كان ذلك ملكاً لهن كان لا شك قد ورثه عنهن ورثتهن. قالوا: وفي ترك ورثتهن ذلك دليل على أنها لم تكن لهن ملكاً. وإنما كان لهن سكنى حياتهن، فلما توفين جعل ذلك زيادة في المسجد الذي يعم المسلمين نفعه، كما جعل ذلك الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول الله ﷺ لما مضين لسبيلهن، فزيد إلى أصل المال فصرف في منافع المسلمين مما يعم جميعهم نفعه. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿غير ناظرين إناه﴾ أي غير منتظرين وقت نضجه. و"إناه" مقصور، وفيه لغات:

"إِنَى" بكسر الهمزة. قال الشيباني:

وكسرى إذ تقسّمه بنوه ... أسياف كما اقتُسم اللّحام
تمخضت المنون له بيوم ... أنى ولكل حاملة تمام

(١) أخرجه البخاري وقد تقدم.

وقرأ ابن أبي عبلة: "غير ناظرين إناه". مجروراً صفة لـ "طعام". الزمخشري: وليس بالوجه، لأنه جرى على غير ما هو لـه، فمن حق ضمير ما هو لـه أن يبرز إلى اللفظ، فيقال: غير ناظرين إناه أنتم، كقولك: هندٌ زيدٌ ضاربته هي. وأنى (بفتحها)، وأناء (بفتح الـهمزة والمد) قال الحطيئة:

وأخرت العشاء إلى سهيل أو الشِّعري فطال بي الأناء

يعني إلى طلوع سهيل. وإناه مصدر أنى الشيء يأنى إذا فرغ وحان وأدرك.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ﴾ فأكد المنع، وخص وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب، وحفظ الحضرة الكريمة من المباسطة المكروهة. قال ابن العربي: وتقدير الكلام: ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذناً كافياً في الدخول. والفاء في جواب "إذا" لازمة لما فيها من معنى المجازاة.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ أمر تعالى بعد الإطعام بأن يتفرق جميعهم وينتشروا. والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل. والدليل على ذلك أن الدخول حرام، وإنما جاز لأجل الأكل، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصلـه.

السادسة: في هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه، لأنه قال: ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ فلم يجعل لـه أكثر من الأكل، ولا أضاف إليه سواه، وبقي الملك على أصلـه.

السابعة: قولـه تعالى: ﴿ ولا مستأنسين لحديث ﴾ عطف على قولـه: "غير ناظرين" و"غير" منصوبة على الحال من الكاف والميم في "لكم" أي غير ناظرين ولا مستأنسين، والمعنى المقصود: لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله ﷺ في وليمة زينب. ﴿إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق﴾ أي لا يمتنع من بيانه وإظهاره. ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر. وفي الصحيح عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: (إذا رأت الماء)[1].

الثامنة: قولـه تعالى: ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً ﴾ روى أبو داود الطيالسي عن أنس بن مالك قال قال عمر: وافقت ربي في أربع...، الحديث. وفيه: قلت يا رسول الله، لو ضربت على نسائك الحجاب، فإنه يدخل عليهن البر والفاجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوه من وراء حجاب ﴾.

واختلف في المتاع، فقيل: ما يتمتع به من العواريّ وقيل فتوى. وقيل: صحف القرآن. والصواب أنه عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠)، وفي غير موضع من صحيحه.

التاسعة : في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض، أو مسألة يستفتين فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة، بدنها وصوتها، كما تقدم، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها، أو داء يكون ببدنها، أو سؤالها عما يعرض وتعيَّن عندها.

العاشرة : استدل بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبي ﷺ من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها. وعلى إجازة شهادته أكثر العلماء، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعي وغيرهما. قال أبو حنيفة: تجوز في الأنساب. وقال الشافعي: لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره.

الحادية عشرة : قوله تعالى: ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ يريد من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال، أي ذلك أنفى للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية. وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له فإن مجانبة ذلك أحسن لحال وأحصن لنفسه وأتم لعصمته.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ الآية. هذا تكرار للعلة وتأكيد لحكمها، وتأكيد العلل أقوى في الأحكام.

الثالثة عشرة : قوله تعالى: ﴿ ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ﴾ روى إسماعيل بن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلاً قال: لو قُبض رسول الله ﷺ تزوجتُ عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ الآية. ونزلت: ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ (الأحزاب: ٦). وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن: قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حراء ـ في نفسه ـ لو توفي رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة، وهي بنت عمي. قال مقاتل: هو طلحة بن عبيد الله. قال ابن عباس: وندم هذا الرجل على ما حدث به في نفسه، فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأعتق رقيقاً فكفَّر الله عنه. وقال ابن عطية: روي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال: لو مات رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فتأذى به، هكذا كنى عنه ابن عباس ببعض الصحابة. وحكى مكي عن معمر أنه قال: هو طلحة بن عبيد الله.

قلت: وكذا حكى النحاس عن معمر أنه طلحة، ولا يصح. قال ابن عطية: لله در ابن عباس! وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله. قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة، وحاشاهم عن مثله! والكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال. يروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبي سلمة، وحفصة بعد خنيس بن حذافة: ما بال محمد يتزوج نساءنا! والله لو قد مات لأجَلنا السهام على نسائه، فنزلت الآية في هذا، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده، وجعل لهن حكم الأمهات. وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتنبيهاً على مرتبته ﷺ. قال الشافعي رحمه الله: وأزواجه ﷺ اللاتي مات عنهن

لا يحل لأحد نكاحهن، ومن استحل ذلك كان كافراً، لقولـه تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ . وقد قيل: إنما منع من التزوج بزوجاته، لأنهن أزواجه في الجنة، وأن المرأة في الجنة لآخر أزواجها. قال حذيفة لامرأته: إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوّجي من بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها. وقد ذكرنا ما للعلماء في هذا في (كتاب التذكرة) من أبواب الجنة.

الرابعة عشرة : اختلف العلماء في أزواج النبي ﷺ بعد موته، هل بقين أزواجه أم زال النكاح بالموت، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهن عدة أم لا؟ فقيل: عليهن العدة، لأنه توفي عنهن، والعدة عبادة. وقيل: لا عدة عليهن، لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة. وهو الصحيح، لقولـه ﷺ : "ما تركت بعد نفقة عيالي"[1] وروي "أهلي" وهذا اسم خاص بالزوجية، فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن لكونهن نساءه، وحُرِّمْنَ على غيره، وهذا هو معنى بقاء النكاح. وإنما جعل الموت في حقه ﷺ لـهن بمنزلة المغيب في حق غيره، لكونهن أزواجاً لـه في الآخرة قطعاً بخلاف سائر الناس، لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهلـه في دار واحدة، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار، فبهذا انقطـع السبب فـي حـق الخلـق وبقـي فـي حق النبي ﷺ وقد قال ﷺ : "زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة". وقـال ﷺ : "كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي فإنه باق إلى يوم القيامة"[٢] .

فرع: فأما زوجاته ﷺ اللاتي فارقهن في حياته مثل الكلبية وغيرها، فهل كان يحل لغيره نكاحهن؟ فيه خلاف. والصحيح جواز ذلك، لما روي أن الكلبية التي فارقها رسول الله ﷺ تزوجها عكرمة بن أبي جهل على ما تقدم. وقيل: إن الذي تزوجها الأشعث بن قيس الكندي. قال القاضي أبو الطيب: الذي تزوجها مهاجر بن أبي أمية، ولم ينكر ذلك أحد، فدل على أنه إجماع.

الخامسة عشرة : قولـه تعالى: ﴿ إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ يعني أذية رسول الله ﷺ أو نكاح أزواجه، فجعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه.

السادسة عشرة : قد بينا سبب نزول الحجاب من حديث أنس وقول عمر، وكان يقول لسودة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة: قد رأيناك يا سودة، حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. ولا بُعد في نزول الآية عند هذه الأسباب كلـها ـ والله أعلم ـ بَيْد أنه لما ماتت زينب بنت جحش قال: لا يشهد جنازتها إلا ذو محرم منها، مراعاة للحجاب الذي نزل بسببها. فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش في القبة، وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة فصنعه عمر. وروي أن ذلك صنع في جنازة فاطمة بنت النبي ﷺ .

قولـه تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

---

(١) صحيح، وقد تقدم.

(٢) "صحيح" أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي كما في صحيح الجامع (٤٥٢٧).

الباريء سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفي وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماض تقضّى، ولا مستقبل يأتي. وهذا على العموم تمدّح به، وهو أهل المدح والحمد. والمراد به ها هنا التوبيخ والوعيد لمن تقدم التعريض به في الآية قبلـها، ممن أشير إليه بقولـه: ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾، ومن أشير إليه في قولـه: ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ﴾ فقيل لـهم في هذه الآية: إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ويجازيكم عليها. فصارت هذه الآية منعطفة على ما قبلـها مبينة لـها. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ: ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية.

الثانية: ذكر الله تعالى في هذه الآية من يحل للمرأة البروز لـه، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد يسمى العم أباً، قال الله تعالى: ﴿ نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل ﴾ (البقرة: ١٣٣) وإسماعيل كان العم. قال الزجاج: العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لـهما الرؤية. وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالـها. وقد ذكر في هذه الآية بعض المحارم وذكر الجميع في سورة "النور"، فهذه الآية بعض تلك، وقد مضى الكلام هناك مستوفى، والحمد لله.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ واتقين الله ﴾ لما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف والجزمت الإباحة، عطف يأمرهن بالتقوى عطف جملة. وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره. وخص النساء بالذكر وعينهنّ في هذا الأمر، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالـهن. والله أعلم. ثم توعّد تعالى بقولـه: ﴿ إن الله كان على كل شيء شهيدا ﴾.

قولـه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾

هذه الآية شرّف الله بها رسولـه ﷺ حياته وموته، وذكر منزلته منه، وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك. والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره.

مسألة: واختلف العلماء في الضمير في قولـه: "يُصلُّون" فقالت فرقة: الضمير فيه لله والملائكة، وهذا قول من الله تعالى شرف به ملائكته، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب: من يطع الله ورسولـه فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال لـه رسول الله ﷺ: "بئس الخطيب أنت، قل

ومن يعص الله ورسولـه"[1] أخرجه الصحيح. قالوا: لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير، ولله أن يقع في ذلك ما يشاء. وقالت فرقة: في الكلام حذف، تقديره إن الله يصلي وملائكته يصلون، وليس في الآية اجتماع في ضمير، وذلك جائز للبشر فعلـه. ولم يقل رسول الله ﷺ "بئس الخطيب أنت" لـهذا المعنى، وإنما قال لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما، وسكت سكتة. واستدلوا بما رواه أبو داود عن عدي بن حاتم أن خطيباً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسول ومن يعصهما. فقال: "قم - أو اذهب - بئس الخطيب أنت"[2]. إلا أنه يحتمل أن يكون لما خطأه في وقفه وقال لـه: "بئس الخطيب" أصلح لـه بعد ذلك جميع كلامه، فقال: "قل ومن يعص الله ورسوله" كما في كتاب مسلم. وهو يؤيد القول الأول بأنه لم يقف على "ومن يعصهما". وقرأ ابن عباس: "وملائكته" بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول "إن". والجمهور بالنصب عطفاً على المكتوبة.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾ أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد ﷺ دون أنبيائه تشريفاً لـه، ولا خلاف في أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلـها إلا من لا خير فيه. الزمخشري: فإن قلت: الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة أم مندوب إليها؟ قلت: بل واجبة. وقد اختلفوا في حال وجوبها، فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره. وفي الحديث: "من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ فدخل النار فأبعده الله"[3]. وروي أنه قيل لـه: يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ فقال النبي ﷺ: "هذا من العلم المكنون ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم به إن الله تعالى وكّل بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي علي إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين. ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلِّي علي إلا قال ذلك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لذينك الملكين آمين"[4]. ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره، كما قال في آية السجدة وتشميت العاطس. وكذلك في كل دعاء في أولـه وآخره ومنهم من أوجبها في العمر. وكذلك قال في إظهار الشهادتين. والذي يقتضيه الاحتياط: الصلاة عند كل ذكر، لما ورد من الأخبار في ذلك.

الثانية: واختلفت الآثار في صفة الصلاة عليه ﷺ فروى مالك عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال لـه بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسألـه، ثم قال رسول

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٠).
(٢) صحيح.
(٣) ضعيف، بلفظ: "من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليِّ فقد شقي"، وانظر ضعيف الجامع (٥٥٨٥).
(٤) ضعيف.

الله ﷺ: (قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم)[١]. ورواه النسائي عن طلحة مثله، بإسقاط قوله: "في العالمين" وقوله: "والسلام كما قد علمتم". وفي الباب عن كعب بن عجرة وأبي حميد الساعدي وأبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وبريدة الخزاعي وزيد بن خارجة، ويقال ابن حارثة أخرجها أئمة أهل الحديث في كتبهم. وصحح الترمذي حديث كعب بن عجرة. أخرجه مسلم في صحيحه مع حديث أبي حميد الساعدي[٢] قال أبو عمر: روى شعبة والثوري عن الحكم ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة؟ فقال: (قل اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد) وهذا لفظ حديث الثوري لا حديث شعبة وهو يدخل في التفسير المسند إليه لقول الله تعالى: ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ فبين كيف الصلاة عليه وعلمهم في التحيات كيف السلام عليه، وهو قوله: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته"[٣]. وروى المسعودي عن عون بن عبد الله عن أبي فاختة عن الأسود عن عبد الله أنه قال: إذا صليتم على النبي ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه. قالوا فعلّمنا، قال: "قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ونبيك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد". ورويناه بالإسناد المتصل في كتاب (الشفا) للقاضي عياض عن علي ابن أبي طالب ﷺ قال: عدّهن في يدي رسول الله ﷺ وقال: "عدهن في يدي جبريل وقال هكذا أنزلت من عند رب العزة اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم وتحنن على محمد وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد"[٤]. قال ابن العربي: من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم، وأصحها ما رواه مالك فاعتمدوه. ورواية غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها لا يقوى، وإنما على الناس أن ينظروا في أديانهم نظرهم في أموالهم، وهم لا يأخذون في البيع ديناراً معيباً، وإنما يختارون السالم

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٥).
(٢) أخرجه مسلم (٤٠٧).
(٣) أخرجه مسلم (٤٠٣).
(٤) ضعيف.

الطيب، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبي ﷺ إلا ما صح عن النبي ﷺ سنده، لئلا يدخل في حيز الكذب على رسول الله ﷺ فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص، بل ربما أصاب الخسران المبين.

الثالثة : في فضل الصلاة على النبي ﷺ ثبت عنه ﷺ أنه قال: «من صلّى علي صلاة صلّى الله عليه بها عشراً»[١]. وقال سهل بن عبد الله: الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات، لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليس كذلك. قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ فإن الله تعالى يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما. وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الدعاء يحجب دون السماء حتى يصلّى على النبي ﷺ، فإذا جاءت الصلاة على النبي ﷺ رفع الدعاء. وقال النبي ﷺ: (من صلّى علي وسلّم علي في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب)[٢].

الرابعة : واختلف العلماء في الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة، فالذي عليه الجمّ الغفير والجمهور الكثير: أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها. قال ابن المنذر: يستحب ألا يصلّي أحد صلاة إلا صلّى فيها على رسول الله ﷺ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزية في مذاهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم. وهو قول جُلّ أهل العلم. وحكي عن مالك وسفيان أنها في التشهد الأخير مستحبة، وأن تاركها في التشهد مسيء وشذ الشافعي فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان. وقال أبو عمر: قال الشافعي: إذا لم يصلّ على النبي ﷺ في التشهد الأخير بعد التشهد وقبل التسليم أعاد الصلاة. قال: وإن صلّى عليه قبل ذلك لم تجزه. وهذا قول حكاه عنه حرملة بن يحيى، لا يكاد يوجد هكذا عن الشافعي إلا من رواية حرملة عنه، وهو من كبار أصحابه الذين كتبوا كتبه. وقد تقلده أصحاب الشافعي ومالوا إليه وناظروا عليه، وهو عندهم تحصيل مذهبه. وزعم الطحاوي أنه لم يقل به أحد من أهل العلم غيره. وقال الخطابي وهو من أصحاب الشافعي: وليست بواجبة في الصلاة، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي، ولا أعلم لـه فيها قدوة. والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه، وقد شنع عليه في هذه المسألة جداً. وهذا تشهد ابن مسعود الذي اختاره الشافعي وهو الذي علمه النبي ﷺ ليس فيه الصلاة على النبي ﷺ وكذلك كل من روي التشهد عنه ﷺ. وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما تعلمون الصبيان في الكتّاب. وعلمه أيضاً على المنبر عمر، وليس فيه ذكر الصلاة على النبي ﷺ.

قلت: قد قال بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة محمد بن المواّز من أصحابنا فيما ذكر ابن القصار وعبد الوهاب، واختاره ابن العربي للحديث الصحيح: إن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلّي عليك؟ فعلم الصلاة ووقتها فتعينت كيفية ووقتاً. وذكر الدارقطني عن أبي جعفر محمد بن

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٨).

(٢) ضعيف.

علي بن الحسين أنه قال: لو صليت صلاة لم أصلِّ فيها على النبي ﷺ ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم[١] وروي مرفوعاً عنه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ. والصواب أنه قول أبي جعفر، قاله الدارقطني.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وسلّموا تسليما﴾ قال القاضي أبو بكر بن بكير: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه. وكذلك من بعدهم أمروا أن يسلموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره. وروى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبِشْرِ يُرَى في وجهه، فقلت: إنا لنرى البشرى في وجهك! فقال: (إنه أتاني المَلَك فقال يا محمد إن ربكَ يقول أما يرضيك إنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا)[٢]. وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ قال: (ما منكم من أحد يسلم علي إذا مت إلا جاءني سلامه مع جبريل يقول يا محمد هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليه السلام ورحمة الله وبركاته)[٣] وروى النسائي عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلّغوني من أمتي السلام)[٤]. قال القشيري والتسليم قولك: سلام عليك.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في أذية الله بماذا تكون؟ فقال الجمهور من العلماء: معناه بالكفر ونسبة الصاحبة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود لعنهم الله: وقالت اليهود يد الله مغلولة. والنصارى: المسيح ابن الله. والمشركون: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه. وفي صحيح البخاري قال الله تعالى: (كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك. . .) الحديث. وقد تقدم في سورة "مريم" وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال الله تبارك وتعالى: (يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما)[٥]. هكذا جاء هذا الحديث موقوفاً على أبي هريرة في هذه الرواية. وقد جاء مرفوعاً عنه (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار)[٦] أخرجه أيضاً مسلم. وقال عكرمة: معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها، وقد قال رسول الله ﷺ: (لعن الله المصورين)[٧].

---

(١) أخرجه الدارقطني (١/ ٣٥٥) وضعفه.

(٢) له شواهد يتقوى بها.

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير (٣/ ٥١٤) بنحوه وقال: "تفرد به أبو داود وصححه النووي في الأذكار.

(٤) "صحيح" أخرجه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم كما في صحيح الجامع (٢١٧٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٦) التخريج السابق.

(٧) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٠٨٦)، وفي مواضع أخر من صحيحه.

قلت: وهذا مما يقوي قول مجاهد في المنع من تصوير الشجر وغيرها؛ إذ كل ذلك صفة اختراع وتشبه بفعل الله الذي انفرد به سبحانه وتعالى. وقد تقدم هذا في سورة "النمل" والحمد لله. وقالت فرقة: ذلك على حذف مضاف تقديره: يؤذون أولياء الله. وأما أذية رسوله ﷺ فهي كل ما يؤذيه من الأقوال في غير معنى واحد، ومن الأفعال أيضاً. أما قولهم: "فساحر شاعر. كاهن مجنون. وأما فعلهم: فكسر رباعيته وشج وجهه يوم أُحُد، وبمكة إلقاء السَّلَى على ظهره وهو ساجد" إلى غير ذلك. وقال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتخذ صفية بنت حُيَيّ. وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً. وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه . . ومنه . .

الثانية: قال علماؤنا: والطعن في تأمير أسامة بن زيد أذية له ﷺ. وروى الصحيح عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أسامة بن زيد فطعن الناس في إمرته؛ فقام رسول الله ﷺ فقال: (إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلي وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده)[١]. وهذا البعث ـ والله أعلم ـ هو الذي جهزه رسول الله ﷺ مع أسامة وأمّره عليهم وأمره أن يغزو "أُبنى" وهي القرية التي عند مؤتة، الموضع الذي قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة. فأمره أن يأخذ بثأر أبيه فطعن من في قلبه ريب في إمرته؛ من حيث إنه كان من الموالي، ومن حيث إنه كان صغير السن؛ لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة؛ فمات النبي ﷺ وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعد عنها؛ فنفذه أبو بكر بعد رسول الله ﷺ.

الثالثة: في هذا الحديث أوضح دليل على جواز إمامة المولى والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى. وقدم رسول الله ﷺ مولى أبي حذيفة على الصلاة بقباء، فكان يؤمهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبراء قريش. وروى الصحيح عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة فقال: من استعملت على هذا الوادي؟ قال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى! قال: إنه لقارئ لكتاب الله وإنه لعالم بالفرائض، قال: أما إن نبيكم قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين"[٢].

الرابعة: كان أسامة ﷺ الحب ابن الحب وبذلك كان يُدْعى، وكان أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيض من القطن. هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. وقال غير أحمد: كان زيد أزهر اللون وكان أسامة شديد الأدمة. ويروى أن النبي ﷺ كان يحسّن أسامة وهو صغير ويمسح مخاطه، وينقي أنفه ويقول: "لو كان أسامة جارية لزيناه وجهزناه وحببناه إلى الأزواج"[٣]. وقد ذكر أن سبب

---

(١) أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم.

(٢) أخرجه مسلم (٨١٧).

(٣) "صحيح" أخرجه أحمد وابن ماجه بلفظ: "لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى أنفقه" انظر صحيح الجامع (٥٢٧٩)، وراجع الصحيحة (١٠١٩).

ارتداد العرب بعد النبي ﷺ، أنه لما كان عليه السلام في حجة الوداع بجبل عرفة عشية عرفة عند النفر، احتبس النبي ﷺ قليلاً بسبب أسامة إلى أن أتاه؛ فقالوا: ما احتبس إلا لأجل هذا! تحقيراً لـه. فكان قولـهم هذا سبب ارتدادهم. ذكره البخاري في التاريخ بمعناه. والله أعلم.

الخامسة : كان عمر ﷺ يفرض لأسامة في العطاء خمسة آلاف، ولابنه عبد الله ألفين؛ فقال لـه عبد الله: فضلت علي أسامة وقد شهدت ما لم يشهد! فقال: إن أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وأباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، ففضل ﷺ محبوب رسول الله ﷺ على محبوبه. وهكذا يجب أن يحب ما أحب رسول الله ﷺ ويبغض من أبغض. وقد قابل مروان هذا الحب بنقيضه؛ وذلك أنه مر بأسامة بن زيد وهو يصلي عند باب بيت النبي ﷺ فقال لـه مروان: إنما أردت أن نرى مكانك، فقد رأينا مكانك، فعل الله بك! وقال قولاً قبيحاً. فقال لـه أسامة: إنك آذيتني، وإنك فاحش متفحش، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله تعالى يبغض الفاحش المتفحش"[1]. فانظر ما بين الفعلين وقس ما بين الرجلين، فقد آذى بنو أمية النبي ﷺ في أحبابه، وناقضوه في محابه.

قولـه تعالى: ﴿ لعنهم الله ﴾ معناه أبعدوا من كل خير. واللعن في اللغة: الإبعاد، ومنه اللعان. ﴿وأعد لـهم عذابا مهينا﴾ تقدم معناه في غير موضع. والحمد لله رب العالمين.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

أذية المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق. وهذه الآية نظير الآية التي في النساء: ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ (النساء: ١١٢) كما قال هنا. وقد قيل: إن من الإذاية تعييره بحسب مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه، لأن أذاه في الجملة حرام. وقد ميز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين فجعل الأول كفراً والثاني كبيرة، فقال في أذى المؤمنين: ﴿فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبينا﴾ وقد بيناه. وروي أن عمر بن الخطاب قال لأبي بن كعب: قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ الآية، والله إني لأضربهم وأنهرهم. فقال لـه أبي: يا أمير المؤمنين، لست منهم، إنما أنت معلم ومقوم. وقد قيل: إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها، فخرج أهلها فآذوا عمر باللسان؛ فأنزل الله هذه الآية. وقيل: نزلت في علي، فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه ﷺ.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ فيه ست مسائل:

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (١٨٧٧)، وراجع الصحيحة (٨٧٦).

الأولى : قولـه تعالى: ﴿ قل لأزواجك وبناتك ﴾ قد مضى الكلام في تفضيل أزواجه واحدة واحدة. قال قتادة: مات رسول الله ﷺ عن تسع. خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من سائر العرب: ميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرية. وواحدة من بني هارون: صفية. وأما أولاده فكان للنبي صلى الله عليه وسلم أولاد ذكور وإناث.

فالذكور من أولاده: القاسم، أمه خديجة، وبه كان يكنى ﷺ، وهو أول من مات من أولاده، وعاش سنتين. وقال عروة: ولدت خديجة للنبي ﷺ القاسم والطاهر وعبد الله والطيب. وقال أبو بكر البرقي: ويقال إن الطاهر هو الطيب وهو عبد الله. وإبراهيم أمه مارية القبطية، ولد في ذي الحجة سنة ثمان من الـهجرة، وتوفي ابن ستة عشر شهراً، وقيل ثمانية عشر؛ ذكره الدارقطني. ودفن بالبقيع. وقال ﷺ: (إن لـه مرضعاً تُتم رضاعه في الجنة)[1]. وجميع أولاد النبي ﷺ من خديجة سوى إبراهيم. وكل أولاده ماتوا في حياته غير فاطمة.

وأما الإناث من أولاده فمنهنّ: فاطمة الزهراء بنت خديجة، ولدتها وقريش تبني البيت قبل النبوة بخمس سنين، وهي أصغر بناته، وتزوجها علي ﷺ في السنة الثانية من الـهجرة في رمضان، وبنى بها في ذي الحجة. وقيل: تزوجها في رجب، وتوفيت بعد رسول الله ﷺ بيسير، وهي أول من لحقه من أهل بيته. رضي الله عنها. .

ومنهن: زينب ـ أمها خديجة ـ تزوجها ابن خالتها أبو العاصي بن الربيع، وكانت أم العاصي هالة بنت خويلد أخت خديجة. واسم أبي العاصي لقيط. وقيل هاشم. وقيل هشيم وقيل مقسم. وكانت أكبر بنات رسول الله ﷺ، وتوفيت سنة ثمان من الـهجرة، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها.

ومنهن: رُقيه ـ أمها خديجة ـ تزوجها عتبة بن أبي لـهب قبل النبوة، فلما بعث رسول الله ﷺ وأنزل عليه: ﴿ تبت يدا أبي لـهب ﴾ (المسد: ١) قال أبو لـهب لابنه: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته؛ ففارقها ولم يكن بنى بها. وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت رسول الله ﷺ هي وأخواتها حين بايعه النساء، وتزوجها عثمان بن عفان، وكانت نساء قريش يقلن حين تزوجها عثمان:

أحسن شخصين رأى إنسان   رقيـة وبعـلها عثـــمان

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الـهجرتين، وكانت قد أسقطت من عثمان سقطاً، ثم ولدت بعد ذلك عبد الله، وكان عثمان يكنى به في الإسلام، وبلغ ست سنين فنقره ديك في وجهه فمات، ولم تلد لـه شيئاً بعد ذلك. وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله ﷺ يتجهز إلى بدر فخلف عثمان عليها، فتوفيت ورسول الله ﷺ ببدر، على رأس سبعة عشر شهراً من الـهجرة. وقدم زيد بن حارثة بشيراً من بدر، فدخل المدينة حين سوّى التراب على رقية. ولم يشهد دفنها رسول الله ﷺ.

ومنهن: أم كلثوم ـ أمها خديجة ـ تزوجها عتيبة بن أبي لـهب ـ أخو عتبة ـ قبل النبوة، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور في أمر رقية، ولم يكن دخل بها، حتى نزل بمكة مع رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٢).

وأسلمت حين أسلمت أمها، وبايعت رسول الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ﷺ. فلما توفيت رقية تزوجها عثمان، وبذلك سمي ذا النورين. وتوفيت في حياة النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة. وجلس رسول الله ﷺ على قبرها، ونزل في حفرتها علي والفضل وأسامة. وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبي ﷺ: القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، وكان يقال له الطيب والطاهر، وولد بعد النبوة ومات صغيراً ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية. فمات القاسم بمكة ثم مات عبد الله.

الثانية: لما كانت عادة العربيات التبذل، وكن يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن، وتشعب الفكرة فيهن، أمر الله رسوله ﷺ أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن، وكنّ يتبرزن في الصحراء قبل أن تتخذ الكنف، فيقع الفرق بينهن وبين الإماء، فتعرف الحرائر بسترهن، فيكف عن معارضتهن من كان عزباً أو شاباً. وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرز للحاجة فيتعرض لها بعض الفجار يظن أنها أمة، فتصيح به فيذهب، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ ونزلت الآية بسبب ذلك. قال معناه الحسن وغيره.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ من جلابيبهن ﴾ الجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار. وروي عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء. وقد قيل: إنه القناع. والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن. وفي صحيح مسلم عن أم عطية: قلت: يا رسول الله. إحدانا لا يكون لها جلباب؟ قال: (لتلبسها أختها من جلبابها)(١).

الرابعة: واختلف الناس في صورة إرخائه؛ فقال ابن عباس وزبيدة السلماني: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها. وقال ابن عباس أيضاً وقتادة: ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه. وقال الحسن: تغطي نصف وجهها.

الخامسة: أمر الله سبحانه جميع النساء بالستر، وأن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدها، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء. ثبت أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال: "سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة"(٢). وروي أن دحية الكلبي لما رجع من عند هرقل فأعطاه النبي ﷺ قبطية؛ فقال: "اجعل صديعاً لك قميصاً وأعط صاحبتك صديعاً تختمر به". والصديع النصف. ثم قال له: "مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف". وذكر أبو هريرة رقة الثياب للنساء فقال: الكاسيات العاريات الناعمات الشقيات. ودخل نسوة من بني تميم على عائشة رضي الله عنها عليهن ثياب رقاق، فقالت عائشة: إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كنتن غير مؤمنات فتمتعينه. وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضي الله عنها وعليها خمار قبطي معصفر، فلما رأتها

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري (١١٥)، وفي مواضع أخر من صحيحه.

قالت: لم تؤمن بسورة "النور" امرأة تلبس هذا. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن مثل أسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها"[١]. وقال عمر رضي الله عنه: ما يمنع المرأة المسلمة إذ كانت لها حاجة أن تخرج في أطمارها[٢] أو أطمار جارتها مستخفية، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ذلك أدنى أن يعرفن﴾ أي الحرائر، حتى لا يختلطن بالإماء؛ فإذا عرفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية، فتنقطع الأطماع عنهن. وليس المعنى أن تعرف المرأة حتى تعلم من هي. وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة قد تقنعت ضربها بالدرة، محافظة على زي الحرائر. وقد قيل: إنه يجب الستر والتقنع الآن في حق الجميع من الحرائر والإماء. وهذا كما أن أصحاب رسول الله ﷺ منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله ﷺ مع قوله: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"[٣] حتى قالت عائشة رضي الله عنها: لو عاش رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا لمنعهن من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل. ﴿وكان الله غفوراً رحيما﴾ تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع.

قوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ الآية. أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد؛ كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال: ﴿المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة﴾ قال: هم شيء واحد، يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء. والواو مقحمة، كما قال:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة، وقد مضى في "البقرة". وقيل: كان منهم قوم يرجفون، وقوم يتبعون النساء للريبة وقوم يشككون المسلمين. قال عكرمة وشهر بن حوشب: "الذين في قلوبهم مرض" يعني الذين في قلوبهم الزنى. وقال طاوس: نزلت هذه الآية في أمر النساء. وقال سلمة بن كهيل: نزلت في أصحاب الفواحش، والمعنى متقارب. وقيل: المنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد، عبر عنهم بلفظين؛ دليله آية المنافقين في أول سورة "البقرة". والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوءهم من عدوهم، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول

---

(١) أخرجه مسلم في "اللباس"، (٢١٢٨).
(٢) الأطمار: جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق.
(٣) أخرجه مسلم وغيره.

الله ﷺ: إنهم قد قتلوا أو هزموا، وإن العدو قد أتاكم، قاله قتادة وغيره. وقيل كانوا يقولون: أصحاب الصفة قوم عزَّاب، فهم الذين يتعرضون للنساء. وقيل: هم قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حباً للفتنة. وقد كان في أصحاب الإفك قوم مسلمون ولكنهم خاضوا حباً للفتنة. وقال ابن عباس: الإرجاف التماس الفتنة، والإرجاف: إشاعة الكذب والباطل للاغتمام به. وقيل: تحريك القلوب، يقال: رجفت الأرض ـ أي تحركت وتزلزلت ـ ترجف رجفاً. والرجفان: الاضطراب الشديد. والرجاف: البحر، سمي به لاضطرابه. قال الشاعر:

المطعمون اللحم كل عشـــــية حتى تغيب الشمس في الرجاف

والإرجاف: واحد أراجيف الأخبار. وقد أرجفوا في الشيء، أي خاضوا فيه. قال الشاعر:

فإنــا وإن عــيرتمـــونا بقتلـــه وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

وقال آخر:

أبا الأراجيف يا ابن اللؤم توعدني وفي الأراجيف خلت اللؤم والخور

فالإرجاف حرام، لأن فيه إذاية. فدلت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ لنغرينَّك بهم ﴾ أي لنسلطنك عليهم فتستأصلـهم بالقتل. وقال ابن عباس: لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهم. ثم إنه قال عز وجل: ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ (التوبة: ٨٤) وإنه أمره بلعنهم، وهذا هو الإغراء؛ وقال محمد بن يزيد: قد أغراه بهم في الآية التي تلي هذه مع اتصال الكلام بها، وهو قولـه عز وجل: ﴿ أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾. فهذا فيه معنى الأمر بقتلـهم وأخذهم؛ أي هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف وفي الحديث عن النبي ﷺ: (خمس يقتلن في الحل والحرم)[١]. فهذا فيه معنى الأمر كالآية سواء. النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في الآية. وقيل: إنهم قد انتهوا عن الإرجاف فلم يغر بهم. ولام "لنغرينك" لام القسم، واليمين واقعة عليها، وأدخلت اللام في "إن" توطئة لـها.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ أي في المدينة. "إلا قليلا" نصب على الحال من الضمير في "يجاورونك"؛ فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى؛ لأنهم لم يكونوا إلا أقلاء. فهذا أحد جوابي الفراء، وهو الأولى عنده، أي لا يجاورونك إلا في حال قلتهم. والجواب الآخر: أن يكون المعنى إلا وقتاً قليلاً، أي لا يبقون معك إلا مدة يسيرة، أي لا يجاورونك فيها إلا جواراً قليلاً حتى يهلكوا، فيكون نعتاً لمصدر أو ظرف محذوف. ودل على أن من كان معك ساكناً بالمدينة فهو جار. وقد مضى في "النساء".

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ ملعونين ﴾ هذا تمام الكلام عند محمد بن يزيد، وهو منصوب على الحال. وقال ابن الأنباري: "قليلا ملعونين" وقف حسن. النحاس: ويجوز أن يكون التمام "إلا قليلا" وتنصب "ملعونين" على الشتم. كما قرأ عيسى بن عمر: "وامرأته حمالة الحطب". وقد

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم مراراً.

حكي عن بعض النحويين أنه قال: يكون المعنى أينما ثقفوا أخذوا ملعونين. وهذا خطأ لا يعمل ما كان مع المجازاة فيما قبله وقيل: معنى الآية إن أصروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدنية إلا وهم مطرودون ملعونون. وقد فعل بهم هذا، فإنه لما نزلت سورة "التوبة" جمعوا، فقال النبي ﷺ: "يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ويا فلان قم" فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا إخراجهم من المسجد.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ سنة الله ﴾ نصب على المصدر؛ أي سن الله جل وعز فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل. ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ أي تحويلاً وتغييراً، حكاه النقاش. وقال السدي: يعني أن من قتل بحق فلا دية على قاتله. المهدوي: وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات. والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم، وقد مضى هذا في "آل عمران" وغيرها.

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يسألك الناس عن الساعة ﴾ هؤلاء المؤذون لرسول الله ﷺ لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة، استبعاداً وتكذيباً، موهمين أنها لا تكون. ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أي أجبهم عن سؤالهم وقل علمها عند الله، وليس إخفاء الله وقتها عني ما يبطل نبوتي، وليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جل وعز. ﴿وما يدريك﴾ أي ما يعلمك. ﴿لعل الساعة تكون قريبا﴾ أي في زمان قريب. وقال ﷺ: ﴿بعثت أنا والساعة كهاتين﴾[1] وأشار إلى السبابة والوسطى، خرّجه أهل الصحيح. وقيل: أي ليست الساعة تكون قريباً، فحذف هاء التأنيث ذهاباً بالساعة إلى اليوم؛ كقوله: ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ (الأعراف: ٥٦) ولم يقل قريبة ذهاباً بالرحمة إلى العفو، إذ ليس تأنيثها أصلياً. وقد مضى هذا مستوفى. وقيل: إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعداً لها في كل وقت.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الله لعن الكافرين ﴾ أي طردهم وأبعدهم. واللعن: الطرد والإبعاد عن الرحمة. وقد مضى في "البقرة" بيانه. ﴿وأعد لهم سعيرا﴾ أنث السعير لأنها بمعنى النار. ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيرا﴾ خالدين في السعير لا يجدون من ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾

(١) أخرجاه في الصحيحين.

قولـه تعالى: ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار ﴾ قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام، على الفعل المجهول. وقرأ عيسى الـهمداني وابن إسحاق: "نقلب" بنون وكسر اللام. "وجوههم" نصباً. وقرأ عيسى أيضاً: "تقلب" بضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم. وهذا التقليب تغيير ألوانهم بلفح النار، فتسودّ مرة وتخضرّ أخرى. وإذا بدلت جلودهم بجلود أخر فحينئذ يتمنون أنهم ما كفروا ﴿يقولون ياليتنا﴾ ويجوز أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوههم في النار يا ليتنا. ﴿أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ أي لم نكفر فننجو من هذا العذاب كما نجا المؤمنون. وهذه الألف تقع في الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها. وكذا "السبيلا" وقد مضى في أول السورة. وقرأ الحسن: "ساداتنا" بكسر التاء، جمع سادة. وكان في هذا زجر عن التقليد. والسادة جمع السيد، وهو فعلة، مثل كتبة وفجرة. وساداتنا جمع الجمع. والسادة والكبراء بمعنى. وقال قتادة: هم المطعمون في غزوة بدر. والأظهر العموم في القادة والرؤساء في الشرك والضلالة، أي أطعناهم في معصيتك وما دعونا إليه ﴿فأضلونا السبيلا﴾ أي عن السبيل وهو التوحيد، فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب. والإضـلال لا يتعـدى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر، كقولـه: ﴿ لقد أضلني عن الذكر ﴾ (الفرقان: ٩٢).

قولـه تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ قال قتادة: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. وقيل: عذاب الكفر وعذاب الإضلال؛ أي عذبهم مثلي ما تعذبنا فإنهم ضلوا وأضلوا. ﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء. الباقون بالثاء، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس، لقولـه تعالى: ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ (البقرة: ١٥٩) وهذا المعنى كثير. وقال محمد بن أبي السري: رأيت في المنام كأني في مسجد عسقلان وكأن رجلاً يناظرني فيمن يبغض أصحاب محمد فقال: والعنهم لعناً كثيراً، ثم كررها حتى غاب عني، لا يقولـها إلا بالثاء. وقراءة الباء ترجع في المعنى إلى الثاء؛ لأن ما كبر كان كثيراً عظيم المقدار.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله ﷺ والمؤمنين، حذر المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في أذيتهم نبيهم موسى. واختلف الناس فيما أوذي به محمد ﷺ وموسى، فحكى النقاش أن أذيتهم محمداً ﷺ قولـهم: زيد بن محمد. وقال أبو وائل: أذيته أنه ﷺ قسم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي ﷺ فغضب وقال: "رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر"[١]. وأما أذية موسى ﷺ فقال ابن

(١) أخرجه البخاري في "الأدب"، (٦٠٥٩).

عباس وجماعة: هي ما تضمنه حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، وذلك أنه قال: "كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى ﷺ يتستر كثيراً ويخفي بدنه فقال قوم هو آدر وأبرص أو به آفة، فانطلق ذات يوم يغتسل في عين بأرض الشام وجعل ثيابه على صخرة ففر الحجر بثيابه واتبعه موسى عرياناً يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فنظروا إليه وهو من أحسنهم خلقاً وأعدلهم صورة وليس به الذي قالوا فهو قوله تبارك ﴿فبرأه الله مما قالوا﴾"[1] أخرجه البخاري ومسلم بمعناه. ولفظ مسلم: قال: قال رسول الله ﷺ: "كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى ﷺ يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب يوماً يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه قال فجمح موسى ﷺ بإثره يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نظر إليه قال فأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً"[2] قال أبو هريرة: والله إنه بالحجر ندب ستة أو سبعة ضَرْبُ موسى بالحجر. فهذا قول. وروي عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: آذوا موسى بأن قالوا: قتل هارون؛ وذلك أن موسى وهارون خرجا من فحص التيه إلى جبل فمات هارون فيه، فجاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى: أنت قتلته وكان ألين لنا منك وأشد حباً. فآذوه بذلك فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به في بني إسرائيل، ورأوا آية عظيمة دلتهم على صدق موسى، ولم يكن فيه أثر القتل. وقد قيل: إن الملائكة تكلمت بموته ولم يعرف موضع قبره إلا الرخم، وإنه تعالى جعله أصم أبكم. ومات هارون قبل موسى في التيه، ومات موسى قبل انقضاء مدة التيه بشهرين. وحكى القشيري عن علي بن أبي طالب ﷺ: أن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله، ثم مات. وقد قيل: إن أذية موسى ﷺ رميهم إياه بالسحر والجنون. والصحيح الأول. ويحتمل أن فعلوا كل ذلك فبرأه الله من جميع ذلك.

مسألة: في وضع موسى ﷺ ثوبه على الحجر ودخوله في الماء عرياناً دليل على جواز ذلك، وهو مذهب الجمهور. ومنعه ابن أبي ليلى واحتج بحديث لم يصح؛ وهو قوله ﷺ: "لا تدخلوا الماء إلا بمئزر فإن للماء عامراً". قال القاضي عياض: وهو ضعيف عند أهل العلم.

قلت: أما إنه يستحب التستر لما رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن علي دخل غديراً وعليه برد له متوشحاً به، فلما خرج قيل له، قال: إنما تسترت ممن يراني ولا أراه؛ يعني من ربي والملائكة. فإن قيل: كيف نادى موسى ﷺ الحجر نداء من يعقل؟ قيل: لأنه صدر عن الحجر فعل من يعقل. و"حجر" منادى مفرد محذوف حرف النداء، كما قال تعالى: ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ (يوسف: ٢٩). و"ثوبي" منصوب بفعل مضمر؛ التقدير: أعطني ثوبي، أو اترك ثوبي، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه.

قوله تعالى: ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ أي عظيماً. والوجيه عند العرب: العظيم القدر الرفيع المنزلة. ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئاً أعطاه إياه. وقرأ ابن مسعود: "وكان عبداً لله". وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩).

(٢) أخرجه مسلم، الموضع السابق.

معنى "وجيهاً" أي كلمه تكليماً. قال أبو بكر الأنباري في (كتاب الرد): زعم من طعن في القرآن أن المسلمين صحفوا "وكان عند الله وجيها" وأن الصواب عنده "وكان عبداً لله وجيهاً" وذلك يدل على ضعف مقصده ونقصان فهمه وقلة علمه، وذلك أن الآية لو حملت على قول وقرئت: "وكان عبداً" نقص الثناء على موسى عليه السلام؛ وذلك أن "وجيهاً" يكون عند أهل الدنيا وعند أهل زمانه وعند أهل الآخرة، فلا يوقف على مكان المدح، لأنه إن كان وجيها عند بني الدنيا كان ذلك إنعاماً من الله عليه لا يبين عليه معه ثناء من الله. فلما أوضح الله تعالى موضع المدح بقوله: "وكان عند الله وجيها" استحق الشرف وأعظم الرفعة بأن الوجاهة عند الله، فمن غيّر اللفظ صرف عن نبي الله أفخر الثناء وأعظم المدح.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا ﴾ أي قصداً وحقاً. وقال ابن عباس: أي صواباً. وقال قتادة ومقاتل: يعني قولوا قولاً سديداً في شأن زينب وزيد، ولا تنسبوا النبي إلى ما لا يحل. وقال عكرمة وابن عباس أيضاً: القول السداد لا إله إلا الله. وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه. وقيل: هو ما أريد به وجه الله دون غيره. وقيل: هو الإصلاح بين المتشاجرين. وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض. والقول السداد يعم الخيرات، فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك.

وظاهر الآية يعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهة المؤمنين. ثم وعد جل وعز بأنه يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب؛ وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة. ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ أي فيما أمر به ونهى عنه ﴿فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

لما بيَّن تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بيَّن، أمر بالتزام أوامره. والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور. روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله: حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال وما فيها يا رب قال إن حملتها أجرت وإن ضيعتها عذبت فاحتملها بما

فيها فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها"[1] فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد. وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال؛ فقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنها في كل الفرائض، وأشدها أمانة المال. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها. وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، وإن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها. وفي حديث مرفوع "الأمانة الصلاة"[2] إن شئت قلت قد صليت وإن شئت قلت لم أصلِّ. وكذلك الصيام وغسل الجنابة. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها، فلا تلبسها إلا بحق. فإن حفظتها حفظتك فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرِّجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له. وقال السدي: هي ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده وأهله، وخيانَته إياه في قتل أخيه. وذلك أن الله تعالى قال له: (يا آدم، هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض) قال: اللهم لا قال: (فإن لي بيتاً بمكة فأته) فقال للسماء: احفظي ولدي بالأمانة؟ فأبت، وقال للأرض: احفظي ولدي بالأمانة فأبت، وقال للجبال كذلك فأبت. فقال لقابيل: احفظ ولدي بالأمانة، فقال نعم، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك. فرجع فوجده قد قتل أخاه، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ﴾. الآية. وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال، قالت: وما فيها؟ قيل لها: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت. فقالت لا. قال مجاهد: فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه، قال: وما هي؟ قال: إن أحسنت أجرتك وإن أسأت عذبتك. قال: فقد تحملتها يا رب. قال مجاهد: فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر. وروى علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ﴾ قال: الأمانة الفرائض، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال، إن أدوها أثابهم، وإن ضيعوها عذبهم. فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله عز وجل ألا يقوموا به. ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها. قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير. وقيل: لما حضرت آدم عليه السلام أمر أن يعرض الأمانة على الخلق، فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه. وقيل: هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض والجبال والخلق، من الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها، إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها؛ قال بعض المتكلمين. ومعنى "عرضنا" أظهرنا، كما تقول: عرضت الجارية على البيع. والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن ﴿فأبين أن يحملنها﴾ أي أن يحملن وزرها، كما قال جل وعز: ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ (العنكبوت: ١٣).

قوله تعالى: ﴿ وحملها الإنسان ﴾ قال الحسن: المراد الكافر والمنافق. ﴿إنه كان ظلوماً﴾ لنفسه ﴿جهولا﴾ بربه. فيكون على هذا الجواب مجازاً، مثل: ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢). وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٢) من رواية ابن أبي حاتم عن الحسن البصري من قوله.

(٢) ضعيف.

الثواب والعقاب، أي أظهر لـهن ذلك فلم يحملن وزرها، وأشفقت وقالت: لا.أبتغي ثواباً ولا عقاباً، وكلٌ يقول: هذا أمر لا نطيقه، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أمرن به وسخرن لـه، قاله الحسن وغيره. قال العلماء: معلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير. وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام. والعرض على الإنسان إلزام. وقال القفال وغيره: العرض في هذه الآية ضرب مَثَلْ، أي أن السموات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب، أي أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل. وهذا كقول: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ (الحشر: ٢١) ـ ثم قال: ـ ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ (الحشر: ٢١). قال القفال: فإذا تقرر في أنه تعالى يضرب الأمثال، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل، وجب حملـه عليه. وقال قوم: إن الآية من المجاز، أي إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال، رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت، فعبر عن هذا المعنى بقولـه: "إنا عرضنا الأمانة" الآية.

وهذا كما تقول: عرضت الحمل على البعير فأباه، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل، فرأيت أنها تقصر عنه. وقيل: "عرضناَ" بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلـها عليها. وقيل: إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، إنما كان من آدم عليه السلام. وذلك أن الله تعالى لما استخلفه على ذريته، وسلطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والطير والوحش، وعهد إليه عهداً أمره فيه ونهاه وحرم وأحل، فقبلـه ولـم يزل عاملاً به. فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه من يستخلف بعده، ويقلده من الأمانة ما تقلده، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى، فأبين أن يقبلنه شفقاً من عذاب الله. ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلـها فأبياه. ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبلـه بالشرط، ولـم يهب منه ما تهيبت السموات والأرض والجبال. ﴿إنه كان ظلوماً﴾ لنفسه ﴿جهولا﴾ بعاقبة ما تقلد لربه. قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله محمد بن علي: عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بعيداً مما قال! وذلك أنه ردد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة، إلا أنه يومئ في مقالته إلى أنه سلطه على جميع ما في الأرض، وعهد الله إليه عهداً فيه أمره ونهيه وحلّـه وحرامه، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السموات والأرض والجبال؛ فما تصنع السمواتَ والأرض والجبال بالحلال والحرام؟ وما التسليط على الأنعام والطير والوحش! وكيف إذا عرضه على ولده فقبلـه في أعناق ذريته من بعده. وفي مبتدأ الخبر في التنزيل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أن الإنسان حملها، أي من قِبَل نفسه لا أنه حمِّل ذلك، فسماه "ظلوماً" أي لنفسه، "جهولاً" بما فيها.

وأما الآثار التي هي بخلاف ما ذكر، فحدثني أبي رحمه الله قال حدثنا الفيض بن الفضل الكوفي حدثنا السري بن إسماعيل عن عامر الشعبي عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: لما خلق الله الأمانة مثَّلها صخرة، ثم وضعها حيث شاء ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها، وقال لهن: إن هذه "الأمانة"، ولها ثواب وعليها عقاب؛ قالوا: يا رب، لا طاقة لنا بها؛ وأقبل الإنسان من قبل أن يُدعى فقال للسموات والأرض والجبال: ما وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقنا منها ولم نطقها؛ قال: فحركها بيده وقال: والله لو شئت أن أحملها لحملتها؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لازددت؛ قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حقويه[1]، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لازددت؛ قالوا: دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها، قالوا: مكانك! إن هذه "الأمانة" ولها ثواب وعليها عقاب وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقنا منها، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها، فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلوماً جهولاً. وذكر أخباراً عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها. ﴿وحملها الإنسان﴾ أي التزم القيام بحقها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه. وقال قتادة: للأمانة جهول بقدر ما دخل فيه. وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير. وقال الحسن: جهول بربه. قال: ومعنى "حملها" خان فيها. وقال الزجاج: والآية في الكافر والمنافق والعصاة على قدرهم على هذا التأويل. وقال ابن عباس وأصحابه والضحاك وغيره: "الإنسان" آدم، تحمَّل الأمانة فما تم له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة. وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له: أتحمل هذه الأمانة بما فيها. قال: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت. قال: أنا أحملها بما فيها بين أذني وعاتقي. فقال الله تعالى له: إني سأعينك، قد جعلت لبصرك حجاباً فأغلقه عما لا يحل لك، ولفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك. وقال قوم: "الإنسان" النوع كله. وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أولاً. وقال السدي: الإنسان قابيل. فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات﴾ اللام في "ليعذب" متعلقة بـ "حمل" أي حملها ليعذب العاصي ويثيب المطيع؛ فهي لام التعليل؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة. وقيل بـ "عرضنا"؛ أي عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلدناها الإنسان ليظهر شرك المشرك ونفاق المنافقين ليعذبهم الله، وإيمان المؤمن ليثيبه الله. ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ قراءة الحسن بالرفع، يقطعه من الأول؛ أي يتوب الله عليهم بكل حال. ﴿وكان الله غفوراً رحيما﴾ خبر بعد خبر لـ "كان". ويجوز أن يكون نعتاً لغفور، ويجوز أن يكون حالاً من المضمر. والله أعلم بالصواب.

---

(١) حَقْوَيه: (بفتح الحاء وكسرها): الخاصرة.

سورة سبأ

مقدمة السورة:

مكية في قول الجميع، إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ الآية. فقالت فرقة: هي مكية، والمراد المؤمنون أصحاب النبي ﷺ؛ قاله ابن عباس. وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة؛ كعبد الله بن سلام وغيره؛ قاله مقاتل. وقال قتادة: هم أمة محمد ﷺ المؤمنون به كائناً من كان. وهي أربع وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ "الذي" في موضع خفض على النعت أو البدل. ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ، وأن يكون في موضع نصب بمعنى أعني. وحكى سيبويه "الحمد لله أهل الحمد" بالرفع والنصب والخفض. والحمد الكامل والثناء الشامل كله لله؛ إذ النعم كلها منه. وقد مضى الكلام فيه في أول الفاتحة. ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ قيل: هو قوله تعالى: ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ (الزمر: ٤٧). وقيل: هو قوله ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (يونس: ١٠) فهو المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للأولى. ﴿ وهو الحكيم ﴾ في فعله ﴿الخبير﴾ بأمر خلقه.

قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أي ما يدخل فيها من قَطْر وغيره، كما قال: ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ (الزمر: ٢١) من الكنوز والدفائن والأموات وما هي له كفات. ﴿وما يخرج منها﴾ من نبات وغيره ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات. وقرأ علي بن أبي طالب "وما ننزل" بالنون والتشديد. ﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة وأعمال العباد؛ قاله الحسن وغيره ﴿وهو الرحيم الغفور﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ قيل: المراد أهل مكة. قال مقاتل: قال أبو سفيان لكفار مكة: واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نبعث. ﴿قل بلى وربي لتأتينكم﴾ "قل" يا محمد "بلى وربي لتأتينكم" وروى هارون عن طلق المعلم قال: سمعت أشياخنا يقرأون "قل بلى وربي ليأتينكم" بياء، حملوه على المعنى، كأنه قال: ليأتينكم البعث أو أمره. كما قال: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ (الأنعام: ١٥٨). فهؤلاء الكفار مقرون بالابتداء منكرون الإعادة، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث، وقالوا: وإن قدر لا يفعل. فهذا تحكم بعد أن أخبر على ألسنة الرسل أن يبعث الخلق، وإذا ورد الخبر بشيء وهو ممكن في الفعل مقدور، فتكذيب من وجب صدقه محال. ﴿عالم الغيب﴾ بالرفع قراءة نافع وابن كثير على الابتداء، وخبره "لا يعزب عنه" وقرأ عاصم وأبو عمرو "عالم" بالخفض، أي الحمد لله عالم، فعلى هذه القراءة لا يحسن الوقف على قوله: "لتأتينكم". وقرأ حمزة والكسائي: "علام الغيب" على المبالغة والنعت. ﴿لا يعزب عنه﴾ أي لا يغيب عنه، "ويعزب" أيضاً. قال الفراء: والكسر أحب إليّ. النحاس: وهي قراءة يحيى بن وثاب، وهي لغة معروفة. يقال عزَب يعزب ويعزُب إذا بَعُد وغاب. ﴿مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ أي قدر نملة صغيرة. ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ وفي قراءة الأعمش "ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ" بالفتح فيهما عطفاً على "ذرة". وقراءة العامة بالرفع عطفاً على "مثقال". ﴿إلا في كتاب مبين﴾ فهو العالم بما خلق ولا يخفى عليه شيء. ﴿ليجزي﴾ منصوب بلام كي، والتقدير: لتأتينكم ليجزي. ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بالثواب، والكافرين بالعقاب. ﴿أولئك﴾ يعني المؤمنين. ﴿لـهم مغفرة﴾ لذنوبهم. ﴿ورزق كريم﴾ وهو الجنة.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذين سعوا في آياتنا ﴾ أي في إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا. ﴿معاجزين﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا، وأن الله لا يقدر على بعثهم في الآخرة، وظنوا أنا نهملـهم؛ فهؤلاء ﴿لـهم عذاب من رجز أليم﴾ يقال: عاجزه وأعجزه إذا غالبه وسبقه ﴿أولئك لـهم عذاب من رجز أليم﴾ "أليم" قراءة نافع بالكسر نعتاً للرِّجز، فإن الرجز هو العذاب، قال الله تعالى: ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ (البقرة: ٥٩). وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم "عذاب من رجز أليم" يرفع الميم هنا وفي "الجاثية" نعتاً للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد بن قيس ومجاهد وأبوعمرو "معجزين" مثبطين؛ أي ثبطوا الناس عن الإيمان بالمعجزات وآيات القرآن.

قولـه تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

لما ذكر الذين سعوا في إبطال النبوة بيَّن أن الذين أوتوا العلم يرون أن القرآن حق. قال مقاتل: ﴿الذين أوتوا العلم﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب. وقال ابن عباس: هم أصحاب محمد ﷺ وقيل جميع المسلمين، وهو أصح لعمومه. والرؤية بمعنى العلم، وهو في موضع نصب عطفاً على "ليجزي" أي ليجزي وليرى، قال الزجاج والفراء. وفيه نظر، لأن قولـه: "ليجزي" متعلق بقول: "لتأتينكم

الساعة"، ولا يقال: لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق، فإنهم يرون القرآن حقاً وإن لم تأتهم الساعة. والصحيح أنه رفع على الاستئناف، ذكره القشيري.

قلت: وإذا كان "ليجزي" متعلقاً بمعنى أثبت ذلك في كتاب مبين، فيحسن عطف "ويرى" عليه، أي وأثبت أيضاً ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق. ويجوز أن يكون مستأنفاً. ﴿الذي﴾ في موضع نصب على أنه مفعول أول لـ "يرى" و ﴿وهو الحق﴾ مفعول ثان، و"هو" فاصلة. والكوفيون يقولون "هو" عماد. ويجوز الرفع على أنه مبتدأ. و"الحق" خبره، والجملة في موضع نصب على المفعول الثاني، والنصب أكثر فيما كانت فيه الألف واللام عند جميع النحويين، وكذا ما كان نكرة لا يدخله الألف واللام فيشبه المعرفة. فإن كان الخبر اسماً معروفاً نحو قولك: كان أخوك هو زيد، فزعم الفراء أن الاختيار فيه الرفع. وكذا كان محمد هو عمرو. وعلته في اختياره الرفع أنه لم تكن فيه الألف واللام أشبه النكرة في قولك: كان زيد هو جالس، لأن هذا لا يجوز فيه إلا الرفع. ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي يهدي القرآن إلى طريق الإسلام الذي هو دين الله. ودل بقوله: "العزيز" على أنه لا يغالب. وبقوله: "الحميد" على أنه لا يليق به صفة العجز.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ﴾ وإن شئت أدغمت اللام في النون لقربها منها ﴿ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق﴾ هذا إخبار عمن قال: ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ (سبأ: ٣) أي هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم، أي يقول لكم: إنكم تبعثون بعد البلى في القبور. وهذا صادر عن فرط إنكارهم. الزمخشري: فإن قلت: كان رسول الله ﷺ مشهوراً علماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قولهم: "هل ندلكم على رجل ينبئكم" فنكروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه، كما يدل على مجهول في أمر مجهول. قلت: كانوا يقصدون بذلك الطنز[1] والهزؤ والسخرية، فأخرجوه مخرج التحكي ببعض الأحاجي التي يتحاجى بها للضحك والتلهي، متجاهلين به وبأمره. و"إذا" في موضع نصب والعامل فيها "مزقتم" قاله النحاس. ولا يجوز أن يكون العامل فيها "ينبئكم"، لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت. ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد "إن"، لأنه لا يعمل فيما قبله، وألا يتقدم عليها ما بعدها ولا معمولها. وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها محذوفاً؛ التقدير: إذا مزقتم كل ممزق بعثتم، أو ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مزقتم. المهدوي: ولا يعمل فيه "مزقتم"؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. وأجازه بعضهم على أن يجعل "إذا" للمجازاة، فيعمل فيها حينئذ ما بعدها لأنها غير مضافة إليه. وأكثر ما تقع "إذا" للمجازاة في الشعر. ومعنى ﴿مزقتم كل ممزق﴾ فرقتم كل تفريق. والمزق خرق الأشياء؛ يقال: ثوب مزيق وممزوق ومتمزق وممزق.

---

(١) الطنز: السخرة.

قوله تعالى: ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أفترى على الله كذباً ﴾ لما دخلت ألف الاستفهام استغني عن ألف الوصل فحذفتها، وكان فتح ألف الاستفهام فرقاً بينها وبين ألف الوصل. وقد مضى هذا في سورة "مريم" عند قوله تعالى: ﴿ أطلع الغيب ﴾ (مريم: ٧٨) مستوفى. ﴿أم به جنة ﴾ وقيل هذا مردود على ما تقدم من قول المشركين، والمعنى: قال المشركون "افترى على الله كذبا". والافتراء الاختلاق. "أم به جنة" أي جنون، فهو يتكلم بما لا يدري. ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ أي ليس الأمر كما قالوا، بل هو أصدق الصادقين، ومن ينكر البعث فهو غداً في العذاب، واليوم في الضلال عن الصواب؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإلـه ونسبة الافتراء إلى من أيده الله بالمعجزات.

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

أعلم الله تعالى أن الذي قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث وعلى تعجيل العقوبة لـهم، فاستدل بقدرته عليهم، وأن السموات والأرض ملكه، وأنهما محيطتان بهم من كل جانب، فكيف يأمنون الخسف والكسف. كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة. وقرأ حمزة والكسائي "إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط" بالياء في الثلاث؛ أي إن يشأ الله أمر الأرض فتنخسف بهم، أو السماء فتسقط عليهم كسفاً. الباقون بالنون على التعظيم. وقرأ السلمي وحفص "كسَفاً" بفتح السين. الباقون بالإسكان. وقد تقدم بيانه في "الإسراء" وغيرها. ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي في هذا الذي ذكرناه من قدرتنا "لآية" أي دلالة ظاهرة. ﴿لكل عبد منيب﴾ أي تائب رجّاع إلى الله بقلبه. وخص المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة في حجج الله وآياته.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا داود منّا فضلاً ﴾ بيّن لمنكري نبوة محمد ﷺ أن إرسال الرسل ليس أمراً بدعاً، بل أرسلنا الرسل وأيدناهم بالمعجزات، وأحللنا بمن خالفهم العقاب. "آتينا" أعطينا. "فضلاً" أي أمراً فضلناه به على غيره. واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال: الأول: النبوة. الثاني: الزبور. الثالث: العلم، قال الله تعالى: ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ﴾ (النمل: ١٥). الرابع: القوة، قال الله تعالى: ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ (ص: ١٧). الخامس: تسخير الجبال والناس، قال الله تعالى: ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾. السادس: التوبة، قال الله تعالى: ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ (ص: ٢٥). السابع: الحكم بالعدل، قال الله تعالى: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ (ص: ٢٦) الآية. الثامن: إلانة الحديد، قال تعالى: ﴿ وألنا لـه الحديد ﴾. التاسع: حسن الصوت، وكان،

داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن. وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه، وهو المراد بقولـه تبارك وتعالى: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ (فاطر: ١) على ما يأتي إن شاء الله تعالى. وقال ﷺ لأبي موسى: "لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود"[1]. قال العلماء: المزمار والمزمور الصوت الحسن، وبه سميت آلة الزمر مزماراً. وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بالتزيين والترجيع. وقد مضى هذا في مقدمة الكتاب والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ ياجبال أوبي معه ﴾ أي وقلنا يا جبال أوبي معه، أي سبحي معه، لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ﴾ (ص: ١٨). قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة، ومعنى تسبيح الجبال: هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه الصلاة والسلام. وقيل: المعنى سيري معه حيث شاء؛ من التأويب الذي هو سير النهار أجمع ومنزل الليل. قال ابن مقبل:

لحقنا بحـي أوبـوا السـير بعدمـا دفعنا شعاع الشمس والطرف يجنح

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما: "أوبي معه" أي رجِّعي معه؛ من آب يؤوب إذا رجع، أوباً وأوبة وإياباً. وقيل: المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار، فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير، فكأنها فعلت ما فعل. وقال وهب بن منبه: المعنى نوحي معه والطير تساعده على ذلك، فكان إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها، وعكفت الطير عليه من فوقه. فصدى الجبال الذي يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة؛ فأيد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فترة، فإذا دخلت الفترة اهتاج، أي ثار وتحرك، وقوي بمساعدة الجبال والطير. وكان قد أعطي من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته، وكان الماء الجاري ينقطع عن الجري وقوفاً لصوته. ﴿والطير﴾ بالرفع قراءة ابن أبي إسحاق ونصر عن عاصم وابن هرمز ومسلمة ابن عبد الملك، عطفاً على لفظ الجبال، أو على المضمر في "أوبي" وحسنه الفصل بمع. الباقون بالنصب عطفاً على موضع "يا جبال" أي نادينا الجبال والطير، قال سيبويه. وعند أبي عمرو بن العلاء بإضمار فعل على معنى وسخرنا لـه الطير. وقال الكسائي: هو معطوف، أي وآتيناه الطير، حملاً على "ولقد آتينا داود منَّا فضلا". النحاس: ويجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبة. وسمعت الزجَاج يجيز: قمت وزيداً، فالمعنى أوبي معه ومع الطير.

قولـه تعالى: ﴿ وألنا لـه الحديد ﴾ قال ابن عباس: صار عنده كالشمع. وقال الحسن: كالعجين، فكان يعملـه من غير نار. وقال السدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع، يصرفه كيف شاء، من غير إدخال نار ولا ضرب بمطرقة. وقالـه مقاتل. وكان يفرغ من الدرع في بعض اليوم أو بعض الليل، ثمنها ألف درهم. وقيل: أعطي قوة يثني بها الحديد، وسبب ذلك أن داود عليه السلام، لما ملك بني إسرائيل لقي مَلَكاً وداود يظنه إنساناً، وداود متنكر خرج يسأل عن نفسه وسيرته في بني إسرائيل في خفاء، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثل لـه: (ما قولك في هذا الملك داود)؟ فقال لـه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨) معلقاً، ووصله مسلم في صحيحه (٧٩٣).

المَلَك (نعم العبد لولا خلة فيه) قال داود: (وما هي)؟ قال: (يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لتمت فضائلـه). فرجع فدعا الله في أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه، فعلمه صنعة لبوس كما قال جل وعز في سورة الأنبياء، فألان لـه الحديد فصنع الدروع، فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوي ألف درهم، حتى ادخر منها كثيراً وتوسعت معيشة منزلـه، وتصدق على الفقراء والمساكين، وكان ينفق ثلث المال في مصالح المسلمين، وهو أول من اتخذ الدروع وصنعها وكانت قبل ذلك صفائح. ويقال: إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف. والدرع مؤنثة إذا كانت للحرب. ودرع المرأة مذكر.

مسألة: في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلـهم وفضائلـهم؛ إذ يحصل لـهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[1]. وقد مضى هذا في «الأنبياء» مجوّداً والحمد لله.

قولـه تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ أن اعمل سابغات ﴾ أي دروعاً سابغات، أي كوامل تامات واسعات؛ يقال: سبغ الدرع والثوب وغيرهما إذا غطى كل ما هو عليه وفضل منه. ﴿وقدر في السرد﴾ قال قتادة: كانت الدروع قبلـه صفائح فكانت ثقالاً؛ فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة. أي قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه. أي لا تقصد الحصانة فتثقل، ولا الخفة فتزيل المنعة. وقال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة، أي لا تعملـها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع، ولا تعملـها كبيرة فينال لابسها. وقال ابن عباس: التقدير الذي أمر به هو في المسمار، أي لا تجعل مسمار الدرع رقيقاً فيقلق، ولا غليظاً فيفصم الحلق. روي «يقصم» بالقاف، والفاء أيضاً رواية. ﴿في السرد﴾ السرد نسج حلق الدروع، ومنه قيل لصانع حلق الدروع: السرّاد والزرّاد، تبدل من السين الزاي، كما قيل: سرّاط وزرّاط. والسرد: الخرز، يقال: سرد يسرد إذا خرز. والمِسْرَد: الإشفى، ويقال سراد؛ قال الشماخ:

فظلـت تباعـاً خيلنا في بيوتكم كما تابعت سرد العنان الخوارز

والسِّراد: السير الذي يخرز به؛ قال لبيد:

يشك صفاحها بالروق شزرا كما خـرج السـراد من النقال

ويقال: قد سرد الحديث والصوم؛ فالسرد فيهما أن يجيء بهما ولاء في نسق واحد، ومنه سرد الكلام. وفي حديث عائشة: لم يكن النبي ﷺ يسرد الحديث كسردكم، وكان يحدث الحديث لو أراد العاد أن يعده لأحصاه. قال سيبويه: ومنه رجل سردي أي جريء، قال: لأنه يمضى قدمًا. وأصل ذلك في سرد الدرع، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف. قال لبيد:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

صنع الحديد مضاعفاً أسراده لينال طول العيش غير مروم

وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما داودُ أو صَنَعُ السوابغ تبَّع

قوله تعالى: ﴿ واعملوا صالحا ﴾ أي عملاً صالحاً. وهذا خطاب لداود وأهله، كما قال: ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ (سبأ: ١٣). ﴿إني بما تعملون بصير﴾ وقال العلماء: وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيات الأمور.

قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولسليمان الريح ﴾ قال الزجاج، التقدير وسخرنا لسليمان الريح. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه: "الريحُ" بالرفع على الابتداء، والمعنى له تسخير الريح، أو بالاستقرار، أي ولسليمان الريح ثابتة، وفيه ذلك المعنى الأول. فإن قال قائل: إذا قلت أعطيت زيداً درهماً ولعمرو دينار؛ فرفعته فلم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تعطه الدينار. وقيل: الأمر كذا ولكن الآية على خلاف هذا من جهة المعنى، لأنه قد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عز وجل. ﴿غدوها شهر ورواحها شهر﴾ أي مسيرة شهر. قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ثم يروح من إصطخر ويبيت بكابل، وبينهما شهر للمسرع. قال السدي: كانت تسير به في اليوم مسيرة شهرين. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمائة ألف كرسي، ثم جلس رؤساء الإنس مما يليه، وجلس سفلة الإنس مما يليهم، وجلس رؤساء الجن مما يلي سفلة الإنس، وجلس سفلة الجن مما يليهم، وموكل بكل كرسي طائر لعمل قد عرفه، ثم تقلهم الريح، والطير تظلهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر، فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس: "غدوها شهر ورواحها شهر". وقال وهب بن منبه: ذكر لي أن منزلاً بناحية دجلة مكتوباً فيه كتبه بعض صحابة سليمان؛ إما من الجن وإما من الإنس: نحن نزلنا وما بنيناه، ومبنيًا وجدناه، غُدُونا من إصطخر فَقِلْنَاه، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون في الشام. وقال الحسن: شغلت سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاة العصر، فعقر الخيل فأبدله الله خيراً منها وأسرع، أبدل الريح تجري بأمره حيث شاء، غدوها شهر ورواحها شهر. وقال ابن زيد: كان مستقر سليمان بمدينة تدمر، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفّاح والعمد والرخام الأبيض والأصفر. وفيه يقول النابغة:

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فأحددها عن الفند

وخيِّس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وأدلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

ووجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بأرض يشكر، أنشأهن بعض أصحاب سليمان عليه الصلاة والسلام:

ونحـن ولا حـول سـوى حـول ربـنا ... نـروح إلى الأوطـان مـن أرض تدمر
إذا نحـن رحـنا كـان ريـث رواحـنا ... مسـيرة شـهر والغـدو لآخـر
أنـاس شـروا لله طوعـاً نفوسـهم ... بنصـر ابـن داود الـنبي المطهـر
لـهم في معـالي الديـن فضـل ورفعـة ... وإن نسـوا يومـاً فمـن خـير معشـر
مـتى يركـبوا الـريح المطـيعة أسـرعت ... مـبادرة عـن شـهرها لم تقصِّـر
تظلـهم طـير صفـوف علـيهم ... متى رفـرفت مـن فوقـهم لم تنفرِ

قولـه تعالى: ﴿وأسلنا لـه عين القطر﴾ القطر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره. أسيلت لـه مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يذب النحاس فيما روي لأحد قبلـه، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب؛ وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله تعالى لسليمان. قال قتادة: أسال الله عيناً يستعملها فيما يريد. وقيل لعكرمة: إلى أين سالت؟ فقال: لا أدري! وقال ابن عباس ومجاهد والسدي: أجريت لـه عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن. قال القشيري: وتخصيص الإسالة بثلاثة أيام لا يدرى ما حدّه، ولعلـه وهم من الناقل؛ إذ في رواية عن مجاهد: أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يليها؛ وهذا يشير إلى بيان الموضع لا إلى بيان المدة. والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عيناً تسيل كعيون المياه، دلالة على نبوته أو قال الخليل: القطر: النحاس المذاب.

قلت: دليلـه قراءة من قرأ: "من قطر آن". ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ أي بأمره ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ الذي أمرناهُ بهِ من طاعة سليمان. ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ أي في الآخرة، قاله أكثر المفسرين. وقيل ذلك في الدنيا، وذلك أن الله تعالى وكل بهم ـ فيما روى السدي ـ مَلَكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته. و"من" في موضع نصب بمعنى وسخرنا لـه من الجن من يعمل. ويجوز أن يكون في موضع رفع، كما تقدم في الريح.

قولـه تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ فيه ثماني مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ من محاريب وتماثيل ﴾ المحراب في اللغة: كل موضع مرتفع. وقيل للذي يصلّى فيه: محراب؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظم. وقال الضحاك: "من محاريب" أي من مساجد. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: المحاريب دون القصور. وقال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار. قال:

وماذا عليه أن ذكرت أوانسـاً ... كغزلان رمل في محاريب أقيال

وقال عدي بن زيد:

كدُمى العاج في المحاريب أوكالـ ـــبَيْض في الروض زهره مستنير

وقيل: هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة؛ كما قال: ﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ (ص: ٢١) وقولـه: ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ (مريم: ١١) أي أشرف عليهم. وفي الخبر "أنه أمر أن يعمل حول كرسيه ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسوح يصرخون إلى الله دائباً، وهو على الكرسي في موكبه والمحاريب حولـه، ويقول لجنوده إذا ركب: سبحوا الله إلى ذلك العَلَم، فإذا بلغوه قال: هللوه إلى ذلك العَلَم فإذا بلغوه قال: كبروه إلى ذلك العَلَم الآخر، فتلج الجنود بالتسبيح والتهليل لجة واحدة".

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ وتماثيل ﴾ جمع تمثال. وهو كل ما صور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان. وقيل: كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء. ليست بحيوان. وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهاداً، قال ﷺ: "إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور"[1]. أي ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة. وهذا يدل على أن التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ونسخ ذلك بشرع محمد ﷺ. وسيأتي لـهذا مزيد بيان في سورة "نوح" عليه السلام. وقيل: التماثيل طلسمات كان يعملـها، ويحرم على كل مصوّر أن يتجاوزها فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالاً للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبداً ما دام ذلك التمثال قائما. وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء. قال:

ويا رب يوم قد لـهوت وليلة بآنسة كـأنهـا خـط تمثـال

وقيل: إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا في سبيل الله ولا يحيك فيهم السلاح. ويقال: إن اسفنديار كان منهم؛ والله أعلم. وروي أنهم عملوا لـه أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان لـه ذراعيهما، وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما.

الثالثة: حكى مكي في الـهداية لـه: أن فرقة تجوز التصوير، وتحتج بهذه الآية. قال ابن عطية: وذلك خطأ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوّزه.

قلت: ما حكاه مكي ذكره النحاس قبلـه، قال النحاس: قال قوم عمل الصور جائز لـهذه الآية، ولما أخبر الله عز وجل عن المسيح. وقال قوم: قد صح النهي عن النبي ﷺ عنها والتوعد لمن عملـها أو اتخذها، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحاً قبلـه، وكانت الحكمة في ذلك لأنه بعث ﷺ والصور تُعبد، فكان الأصلح إزالتها.

الرابعة: التمثال على قسمين: حيوان وموات. والموات على قسمين: جماد ونام؛ وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه؛ لعموم قولـه: "وتماثيل". وفي الإسرائيليات: أن التماثيل من الطير كانت على كرسي سليمان. فإن قيل: لا عموم لقولـه: "وتماثيل" فإنه إثبات في نكرة، والإثبات في النكرة

(١) أخرجه البخاري وقد تقدم.

لا عموم لـه، إنما العموم في النفي النكرة. قلنا: كذلك هو، بيد أنه قد اقترن بهذا الإثبات في النكرة ما يقتضي حمله على العموم، وهو قولـه: "ما يشاء" فاقتران المشيئة به يقتضي العموم لـه. فإن قيل: كيف استجاز الصُّور المنهي عنها؟ قلنا: كان ذلك جائزاً في شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا، والله أعلم. وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصُّوَر إذ ذاك محرماً.

الخامسة: مقتضى الأحاديث يدل أن الصّور ممنوعة، ثم جاء "إلا ما كان رقماً في ثوب"[1] فخص من جملة الصور، ثم ثبتت الكراهية فيه بقولـه ﷺ لعائشة في الثوب: "أخريه عني فإني كلما رأيته ذكرت الدنيا"[2]. ثم بهتكه الثوب المصوّر على عائشة منع منه، ثم بقطعها لـه وسادتين تغيرت الصورة[3] وخرجت عن هيئتها، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الـهيئة، ولو كانت متصلة الـهيئة لم يجز، لقولـها في النمرقة المصورة: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها، فمنع منه وتوعد عليه. وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز في الرقم في الثوب ثم نسخه المنع منه. فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم؛ قاله ابن العربي.

السادسة: روى مسلم عن عائشة قالت: كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبلـه، فقال رسول الله ﷺ: "حوّلي هذا فإني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا". قالت: وكانت لنا قطيفة كنا نقول علمها حرير، فكنا نلبسها[4]. وعنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مستترة بقرام فيه صورة، فتلون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال: "إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبّهون بخلق الله عز وجل". وعنها: أنه كان لـها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سهوة، فكان النبي ﷺ يصلّي إليه فقال: "أخريه عني" قالت: فأخرته فجعلته وسادتين[5]. قال بعض العلماء: ويمكن أن يكون تهتيكه ﷺ الثوب وأمره بتأخيره ورعاً؛ لأن محل النبوة والرسالة الكمال. فتأملـه.

السابعة: قال المزني عن الشافعي: إن دعي رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صوراً ذات أرواح، لم يدخل إن كانت منصوبة. وإن كانت توطأ فلا بأس، وإن كانت صور الشجر. ولم يختلفوا أن التصاوير في الستور المعلقة مكروهة غير محرمة. وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء. واستثنى بعضهم "ما كان رقماً في ثوب"، لحديث سهل بن حنيف.

قلت: لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن. وقولـه: "إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لـهم أحيوا ما خلقتم"[6] ولم يستثن. وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يخرج عنق من النار يوم القيامة لـه عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول: إني وكلت بثلاث: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلـها آخر وبالمصورين"[7] قال أبو عيسى: هذا

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢١٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

(٤) أخرجه مسلم الموضع السابق.

(٥) أخرجه مسلم الموضع السابق.

(٦) أخرجه مسلم (٢١٠٧).

(٧) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٨٠٥١)، وراجع الصحيحه.

حديث حسن غريب صحيح. وفي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود. قال: قال رسول الله ﷺ: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرون". يدل على المنع من تصوير شيء، أي شيء كان. وقد قال جل وعز: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ (النمل: ٦٠) على ما تقدم بيانه فاعلمه.

الثامنة: وقد استثني من هذا الباب لُعَب البنات، لما ثبت، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي تزوجها وهي بنت سبع سنين، وزفت إليه وهي بنت تسع ولعبها معها، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة[١]. وعنها أيضاً قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه فيسربهن إلي فيلعبن معي[٢] خرَّجهما مسلم. قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن. ثم إنه لا بقاء لذلك، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له، فرخص في ذاك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وجفان كالجواب﴾ قال ابن عرفة: الجوابي جمع الجابية، وهي حفيرة كالحوض. وقال: كحياض الإبل. وقال ابن القاسم عن مالك: كالجوبة من الأرض، والمعنى متقارب. وكان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل. النحاس: "وجفان كالجواب" الأولى أن تكون بالياء، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها، فلما كان يقال جواب ودخلت الألف واللام أقر على حال فحذف الياء. وواحد الجوابي جابية، وهي القدر العظيمّة، والحوض العظيم الكبير الذي يجبى فيه الشيء أي يجمع؛ ومنه جبيت الخراج، وجبيّت الجراد؛ أي جعلت الكساء فجمعته فيه. إلا أن ليثاً روى عن مجاهد قال: الجوابي جمع جوبة، والجوبة الحفرة الكبيرة تكون في الجبل فيها ماء المطر. وقال الكسائي: جبوت الماء في الحوض وجبيته أي جمعته، والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل، قال:

تروح على آل الملحق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

ويروى أيضاً:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية السيح . . . .

ذكره النحاس.

قوله تعالى: ﴿وقدور راسيات﴾ قال سعيد بن جبير: هي قدور النحاس تكون بفارس. وقال الضحاك: هي قدور تعمل من الجبال. غيره: قد نحتت من الجبال الصم مما عملت له الشياطين، أثافيها منها منحوتة هكذا من الجبال. ومعنى "راسيات" ثوابت، لا تحمل ولا تحرك لعظمها. قال ابن العربي: وكذلك كانت قدور عبد الله بن جدعان، يصعد إليها في الجاهلية بسُلّم. وعنها عبّر طرفة بن العبد بقوله:

كالجوابي لا تني مترعة لقرَى الأضياف أو للمحتضر

قال ابن العربي: ورأيت برباط أبي سعيد قدورَ الصوفية على نحو ذلك، فإنهم يطبخون جميعاً ويأكلون جميعاً من غير استئثار واحد منهم على أحد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٠)، وفي غير موضع، ومسلم (٢٤٤٠).

قولـه تعالى: ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ قد مضى معنى الشكر في "البقرة" وغيرها. وروي أن النبي ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال: "ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود" قال فقلنا: ما هن؟ فقال: "العدل في الرضا والغضب. والقصد في الفقر والغنى. وخشية الله في السر والعلانية". خرّجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة[1]. وروي أن داود عليه السلام قال: (يا رب كيف أطيق شكرك على نعمك. وإلـهامي وقدرتي على شكرك نعمة لك) فقال: (يا داود الآن عرفتني). وقد مضى هذا المعنى في سورة "إبراهيم". وأن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للمنعم واستعمالـها في طاعته، والكفران استعمالـها في المعصية. وقليل من يفعل ذلك؛ لأن الخير أقل من الشر، والطاعة أقل من المعصية، بحسب سابق التقدير. وقال مجاهد: لما قال الله تعالى: ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ قال داود لسليمان: أن الله عز وجل قد ذكر الشكر فاكفني صلاة النهار أكفك صلاة الليل، قال: لا أقدر، قال: فاكفني ـ قال الفاريابي، أراه قال إلى صلاة الظهر ـ قال نعم، فكفاه. وقال الزهري: "اعملوا آل داود شكرا" أي قولوا الحمد لله. و"شكرا" نصب على جهة المفعول؛ أي اعملوا عملاً هو الشكر. وكأن الصلاة والصيام والعبادات كلـها هي في نفسها الشكر إذ سدت مسدّه، ويبين هذا قولـه تعالى: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ (ص: ٢٤) وهو المراد بقولـه ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾. وقد قال سفيان بن عيينة في تأويل قولـه تعالى: ﴿ أن اشكر لي ﴾ (لقمان: ١٤) أن المراد بالشكر الصلوات الخمس. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطر قدماه؛ فقالت لـه عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً"[2]. انفرد بإخراجه مسلم. فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان؛ فالشكر بالأفعال عمل الأركان، والشكر بالأقوال عمل اللسان. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ يحتمل أن يكون، مخاطبة لآل داود، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد ﷺ قال ابن عطية: وعلى كل وجه ففيه تنبيه وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل؛ فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردت قولـه تعالى: ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾. فقال عمر رضي الله عنه: كل الناس أعلم منك يا عمر! وروي أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهلـه الخشكار ويطعم المساكين الدرمك. وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويتوسده، والأول أصح، إذ الرماد ليس بقوت. وروي أنه ما شبع قط، فقيل لـه في ذلك فقال: أخاف إن شبعت أن أنسى الجياع. وهذا من الشكر ومن القليل، فتأملـه، والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٢٥٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٠).

قولـه تعالى: ﴿ فلما قضينا عليه الموت ﴾ أي فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿ما دلـهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته﴾ وذلك أنه كان متكئاً على المنسأة (وهي العصا بلسان الحبشة، في قول السدي. وقيل: هي بلغة اليمن، ذكره القشيري) فمات كذلك وبقي خافي الحال إلى أن سقط ميتاً لانكسار العصا لأكل الأرضة إياها، فعلم موته بذلك، فكانت الأرضة دالة على موته، أي سبباً لظهور موته، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضي عليه سنة. واختلفوا في سبب سؤالـه لذلك على قولين: أحدهما ما قالـه قتادة وغيره، قال: كانت الجن تدعي علم الغيب، فلما مات سليمان عليه السلام وخفي موته عليهم ﴿تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب﴾ ابن مسعود: أقام حولاً والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأرضة منسأته فسقط. ويروى أنه لما سقط لم يعلم منذ مات؛ فوضعت الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة. وقيل: كان رؤساء الجن سبعة، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام أسس بيت المقدس فلما مات أوصى إلى سليمان في إتمام مسجد بيت المقدس، فأمر سليمان الجن به؛ فلما دنا وفاته قال لأهلـه: لا تخبروهم بموتي حتى يتموا بناء المسجد، وكان بقي لإتمامه سنة. وفي الخبر أن مَلَك الموت كان صديقه فسأل عن آية موته فقال: أن تخرج من موضع سجودك شجرة يقال لـها الخرنوبة، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا تنبت في بيت المقدس شجرة فيسألـها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا وكذا؛ فيقول: ولأي شيء أنت؟ فتقول: لكذا ولكذا؛ فيأمر بها فتقطع، ويغرسها في بستان لـه، ويأمر بكتب منافعها ومضارها واسمها وما تصلح لـه في الطب؛ فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه فقال لـها: ما اسمك؟ قالت: الخرنوبة؛ قال: ولأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا المسجد، فقال سليمان: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وهلاك بيت المقدس! فنزعها وغرسها في حائطه ثم قال. اللهم عم عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. وكانت الجن تخبر أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غد؛ ثم لبس كفنه وتحنط ودخل المحراب وقام يصلي واتكأ على عصاه على كرسيه، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أحسن ما قيل في الآية، ويدل على صحته الحديث المرفوع، روى إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "كان نبي الله سليمان بن دواد عليهما السلام إذا صلَّى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألـها ما اسمك؟ فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت؛ فبينما هو يصلي ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه قال ما اسمك؟ قالت: الخرنوبة؛ فقال: لأي شيء أنت؟ فقالت: لخراب هذا البيت؛ فقال: اللهم عم عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ فنحتها عصاً فتوكأ عليها حولاً لا يعلمون فسقطت، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة"[١].

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٣/٥٢٩) وعزاه للسدي من طريق أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنه،

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس "تبينت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب". وقرأ يعقوب في رواية رويس "تُبُيِّنَت الجن" غير مسمى الفاعل. ونافع وأبو عمرو "تأكل منساته" بألف بين السين والتاء من غير همز. والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف، لغتان، إلا أن ابن ذكوان أسكن الهمزة تخفيفاً، قال الشاعر في ترك الهمزة:

إذا دببت على المنساة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وقال آخر فهمز وفتح:

ضربنا بمنسأة وجهه فصار بذاك مهينا ذليلا

وقال آخر:

أمن أجل حَبْل لا أباك ضربته بمنسأة قد جر حبلك أحبلا

وقال آخر فسكّن همزها:

وقائم قد قام من تكأته كقومة الشيخ إلى منسأته

وأصلها من: نسأت الغنم أي زجرتها وسقتها، فسميت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشيء ويساق. وقال طرفة:

أمون كألواح الإران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

فسكن همزها. قال النحاس: واشتقاقها يدل على أنها مهموزة؛ لأنها مشتقة من نسأته أي أخرته ودفعته فقيل لها منسأة لأنها يدفع بها الشيء ويؤخر. وقال مجاهد وعكرمة: هي العصا، ثم قرأ "منساته" أبدل من الهمزة ألفاً، فإن قيل: البدل من الهمزة قبيح جداً وإنما يجوز في الشعر على بُعد وشذوذ، وأبو عمرو بن العلاء لا يغيب عنه مثل هذا لا سيما وأهل المدينة على هذه القراءة. فالجواب على هذا أن العرب استعملت في هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا كما يقع البدل في غير هذا ولا يقاس عليه حتى قال أبو عمرو: ولست أدري ممن هو إلا أنها غير مهموزة لأن ما كان مهموزاً فقد يترك همزه وما لم يكن مهموزاً لم يجز همزه بوجه. المهدوي: ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذ بعيد؛ لأن هاء التأنيث لا يكون ما قبلها إلا متحركاً أو ألفاً، لكنه يجوز أن يكون ما سكن من المفتوح استخفافاً، ويجوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفاً على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها في قولهم العألم والخأتم، وروي عن سعيد بن جبير "من" مفصولة "سأته" مهموزة مكسورة التاء؛ فقيل: إنه من سئة القوس في لغة من همزها، وقد روي همز سية القوس عن رؤبة. قال الجوهري: سية القوس ما عطف من طرفيها، والجمع سيات، والهاء عوض عن الواو، والنسبة إليها سيوي. قال أبو عبيدة: كان رؤبة يهمز "سية القوس" وسائر العرب لا يهمزونها. وفي دابة الأرض قولان: أحدهما: أنها الأرضة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وقد قرئ "دابة الأرض" بفتح الراء، وهو جمع الأرضة؛ ذكره الماوردي. الثاني: أنها دابة تأكل العيدان. قال الجوهري: والأرضة (بالتحريك): دويبة تأكل الخشب؛ يقال: أرضت الخشبة تؤرض أرضاً (بالتسكين) فهي مأروضة إذا أكلتها.

قوله تعالى: ﴿ فلما خر ﴾ أي سقط ﴿تبينت الجن﴾ قال الزجاج: أي تبينت الجن موته. وقال غيره: المعنى تبين أمر الجن؛ مثل: ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢). وفي التفسير - بالأسانيد

وذكره من رواية ابن جرير بسنده وقال: وفي رفعه غرابة ونكارة، والأقرب أن يكون موقوفًا.

الصحاح ـ عن ابن عباس قال: أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يعلم بموته وهو متكئ على عصاه، والجن منصرفة فيما كان أمرها به، ثم سقط بعد حول؛ فلما خر تبينت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين. وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير. وفي الخبر: أن الجن شكرت ذلك للأرضة فأينما كانت، يأتونها بالماء. قال السدي: والطين، ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فإنه مما يأتيها به الشياطين شكراً؛ وقالت: لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما. و "أن" في موضع رفع على البدل من الجن، والتقدير: تبين أمر الجن، فحذف المضاف، أي تبين وظهر للإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب. وهذا بدل الاشتمال. ويجوز أن تكون في موضع نصب على تقدير حذف اللام. ﴿ما لبثوا﴾ أقاموا. ﴿في العذاب المهين﴾ السخرة والحمل والبنيان وغير ذلك. وعمَّر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة ملكه أربعون سنة؛ فملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ابن سبع عشرة سنة. وقال السدي وغيره: كان عمر سليمان سبعاً وستين سنة، وملك وهو ابن سبع عشرة سنة. وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ابن عشرين سنة، وكان ملكه خمسين سنة. وحكي أن سليمان عليه السلام ابتدأ بنيان بيت المقدس في السنة الرابعة من ملكه، وقرب بعد فراغه منه اثني عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة، واتخذ اليوم الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهم أنت وهبت لي هذا السلطان وقويتني، على بناء هذا المسجد، اللهم فأوزعني شكرك على ما أنعمت علي وتوفني على ملتك ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال: لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه، ولا خائف إلا أمنته. ولا سقيم إلا شفيته، ولا فقير إلا أغنيته، والخامسة: ألا تصرف نظرك عمن دخله حتى يخرج منه؛ إلا من أراد إلحاداً أو ظلماً، يا رب العالمين؛ ذكره الماوردي.

قلت: وهذا أصح مما تقدم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة، والدليل على صحة هذا ما خرَّج النسائي وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ "أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالاً ثلاثة: حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه"[1] وقد ذكرنا هذا الحديث في "آل عمران" وذكرنا بناءه في "الإسراء".

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾

قوله تعالى: ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ﴾ قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على أنه اسم حي، وهو في الأصل اسم رجل؛ جاء بذلك التوقيف عن النبي ﷺ روى الترمذي قال: حدثنا

(١) "صحيح" أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وانظر صحيح الجامع (٢٠٩٠).

أبو كريب وعبد بن حميد قالا حدثنا أبو أسامة عن الحسن بن الحكم النخعي قال حدثنا أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك المرادي قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؛ فأذن لي في قتالهم وأمرني؛ فلما خرجت من عنده سأل عني: "ما فعل الغطيفي"؟ فأخبر أني قد سرت، قال: فأرسل في أثري فردني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال: ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك؛ قال: وأنزل في سبأ ما أنزل؛ فقال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ أرض أو امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا بامرأة ولكنه رجل ولَد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة. فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة. وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار. فقال رجل: يا رسول الله وما أنمار؟ قال: "الذين منهم خثعم وبجيلة"[1]. وروي هذا عن ابن عباس عن النبي ﷺ. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "لسبأ" بغير صرف، جعله اسماً للقبيلة، وهو اختيار أبي عبيد، واستدل على أنه اسم قبيلة بأن بعده "في مساكنهم". النحاس: ولو كان كما قال لكان في مساكنها. وقد مضى في "النمل" زيادة بيان لهذا المعنى. وقال الشاعر في الصرف:

الواردون وتَيْمٌ في ذرى سبأ قد عض أعناقهم جلد الجواميس

وقال آخر في غير الصرف:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيلها العرما

وقرأ قنبل وأبو حيوة والجحدري "لسبأْ" بإسكان الهمزة. "في مساكنهم" قراءة العامة على الجمع، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم؛ لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد. وقرأ إبراهيم وحمزة وحفص "مسكنهم" موحداً، إلا أنهم فتحوا الكاف. وقرأ يحيى والأعمش والكسائي موحداً كذلك، إلا أنهم كسروا الكاف. قال النحاس: والساكن في هذا أبين؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى، فإذا قلت "مسكنهم" كان فيه تقديران: أحدهما: أن يكون واحداً يؤدي عن الجمع. والأخر: أن يكون مصدراً لا يثنّى ولا يُجمع؛ كما قال الله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم﴾ (البقرة: ٧) فجاء بالسمع موحداً. وكذا ﴿مقعد صدق﴾ (القمر: ٥٥) و"مسكِن" مثل مسجد، خارج عن القياس، ولا يوجد مثله إلا سماعاً. ﴿آية﴾ اسم كان، أي علامة دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر. ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ يجوز أن يكون بدلاً من "آية"، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، فوقف على هذا الوجه على "آية" وليس بتمام. قال الزجاج: أي الآية جنتان، فجنتان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف. وقال الفراء: رفع تفسيراً للآية، ويجوز أن تنصب "آية" على أنها خبر كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضاً في غير القرآن. وقال عبد الرحمن ابن زيد: إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط ولا ذباباً ولا برغوثاً ولا

---

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي (٣٢٢٢)، وقد سبق.

قملة ولا عقرباً ولا حية ولا غيرها من الـهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب. وقيل: إن الآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مكتل فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها؛ قال قتادة. وروي أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن. قال سفيان: وجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما: نحن بنينا سلحين في سبعين خريفاً دائبين، وعلى الآخر مكتوب: نحن بنينا صروح، مقيل ومراح؛ فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله. قال القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة؛ أي كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار؛ تستتر الناس بظلالـها. ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ أي قيل لـهم كلوا، ولم يكن ثَمّ أمر، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لـهم قد أباح الله تعالى لـهم ذلك؛ أي أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة. ﴿كلوا من رزق ربكم﴾ أي من ثمار الجنتين. ﴿واشكروا لـه﴾ يعني على ما رزقكم. ﴿بلدة طيبة﴾ هذا كلام مستأنف؛ أي هذه بلدة طيبة أي كثيرة الثمار. وقيل: غير سبخة. وقيل: طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها. قال مجاهد: هي صنعاء. ﴿ورب غفور﴾ أي والمنعم بها عليكم رب غفور يستر ذنوبكم؛ فجمع لـهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه. وقيل: إنما ذكر المغفرة مشيراً إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. وقد. مضى القول في هذا في أول "البقرة". وقيل: إنما امتن عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا.

قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فأعرضوا ﴾ يعني عن أمره واتباع رسلـه بعد أن كانوا مسلمين قال السدي ووهب: بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم. قال القشيري: وكان لـهم رئيس يلقب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ وقيل: كان لـه ولد فمات فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر؛ ولـهذا يقال: أكفر من حمار. وقال الجوهري: وقولـهم "أكفر من حمار" هو رجل من عاد مات لـه أولاد فكفر كفراً عظيماً، فلا يمر بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلا قتلـه. ثم لما سال السيل بجنتيهم تفرقوا في البلاد؛ على ما يأتي بيانه. ولـهذا قيل في المثل: "تفرقوا أيادي سبا". وقيل: الأوس والخزرج منهم. ﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ والعرم فيما روي عن ابن عباس: السد فالتقدير: سيل السد العرم. وقال عطاء: العرم اسم الوادي. قتادة: العرم وادي سبأ؛ كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية، قيل من البحر وأودية اليمن؛ فردموا ردماً بين جبلين وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قدر حاجاتهم؛ فأخصبوا وكثرت أموالـهم، فلما كذبوا الرسل سلط الله عليهم الفأر فنقب الردم. قال وهب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرة؛ فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الـهرر فساورتها حتى استأخرت عن الصخرة ودخلت في الفرجة التي كانت عندها ونقبت السد حتى

أوهنته للسيل وهم لا يدرون؛ فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالـهم فغرقها ودفن بيوتهم. وقال الزجاج: العرم اسم الجرذ الذي نقب السِّكر عليهم، وهو الذي يقال لـه الخُلد ـ وقاله قتادة أيضاً ـ فنسب السيل إليه لأنه بسببه. وقد قال ابن الأعرابي أيضاً: العرم من أسماء الفأر. وقال مجاهد وابن أبي نجيح: العرم ماء أحمر أرسلـه الله تعالى في السد فشقه وهدمه. وعن ابن عباس أيضاً أن العرم المطر الشديد. وقيل العرم بسكون الراء. وعن الضحاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام. وقال عمرو بن شرحبيل: العرم المسناة؛ وقالـه الجوهري، قال: ولا واحد لـها من لفظها، ويقال واحدها عرمة. وقال محمد بن يزيد: العرم كل شيء حاجز بين شيئين، وهو الذي يسمى السِّكْر، وهو جمع عرمة. النحاس: وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مسنّاة فهو العَرِم، والمسناة هي التي يسميها أهل مصر الجسر؛ فكانوا يفتحونها إذا شاءوا فإذا رويت جنتاهم سدّوهاَ. قال الـهروي: المسناة الضفيرة تبنى للسيل ترده، سميت مسناة لأن فيها مفاتح الماء. وروي أن العرم سد بنته بلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام، وهو المسناة بلغة حمير، بنته بالصخر والقار، وجعلت لـه أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض، وهو مشتق من العرامة وهي الشدة، ومنه: رجل عارم، أي شديد، وعرمت العظم أعرمه وأعرُمه عرماً إذا عرقته، وكذلك عرمت الإبل الشجر أي نالت منه. والعرام بالضم: العراق من العظم والشجر. وتعرمت العظم تعرقته. وصبي عارم بيِّن العرام (بالضم) أي شرس. وقد عرم يعرم ويعرم عرامة (بالفتح). والعرم العارم؛ عن الجوهري.

قولـه تعالى: ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ﴾ وقرأ أبو عمرو (أكُلِ خَمْط) بغير تنوين مضافاً. قال أهل التفسير والخليل: الخمط الأراك. الجوهري: الخمط ضرب من الأراك لـه حمل يؤكل. وقال أبو عبيدة: هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة. الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكلـه. المبرد: الخمط كل ما تغير إلى ما لا يشتهى. واللبن خمط إذا حمض. والأولى عنده في القراءة "ذواتي أكل خمط" بالتنوين على أنه نعت لـ "أكل" أو بدل منه؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه عنده، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون تقديرها ذواتي أكل حموضة أو أكل مرارة. وقال الأخفش: والإضافة أحسن في كلام العرب؛ نحو قولـهم: ثوب خز والخمط: اللبن الحامض وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحلب ولم يتغير طعمه فهو سامط؛ وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامط وخميط، فإن أخذ شيئاً من طعم فهو ممحل، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فوّهة. وتخمّط الفحل: هدر. وتخمط فلان أي غضب وتكبر. وتخمط البحر أي التطم. وخمطت الشاة أخمطها خمطاً: إذا نزعت جلدها وشويتها فهي خميط، فإن نزعت شعرها وشويتها فهي سميط. والخمطة: الخمر التي قد أخذت ريح الإدراك كريح التفاح ولم تدرك بعد. ويقال هي الحامضة؛ قالـه الجوهري. وقال القتبي في أدب الكاتب: يقال للحامضة خمطة، ويقال: الخمطة التي قد أخذت شيئاً من الريح؛ وأنشد:

عقـار كماء النِّيء ليست بخمطة ولا خلة يكوي الشروب شهابها

قولـه تعالى: ﴿ وأثل﴾ قال الفراء: هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً؛ ومنه اتخذ منبر النبي ﷺ ، وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، وورقه كورق الطرفاء، الواحدة أثلة والجمع أثلات. وقال الحسن: الأثل الخشب. قتادة: هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء رأيته بفيد. وقيل هو

السمر. وقال أبو عبيدة: هو شجر النضار. النضار: الذهب. والنضار: خشب يعمل منه قصاع، ومنه: قدح نضار. ﴿وشيء من سدر قليل﴾ قال الفراء: هو السمر؛ ذكره النحاس. وقال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بري لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول ولـه ثمر عفص لا يؤكل، وهو الذي يسمى الضال. والثاني: سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب. قال قتادة: بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالـهم، فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلـها الأراك والطرفاء والسدر. القشري: وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستاناً ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقولـه تعالى: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلـها ﴾ الشورى: ٤٠). ويحتمل أن يرجع قولـه "قليل" إلى جملة ما ذكر من الخمط والأثل والسدر.

قولـه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ﴾ أي هذا التبديل جزاء كفرهم. وموضع "ذلك" نصب؛ أي جزيناهم ذلك بكفرهم. "وهل يجازى إلا الكفور" قراءة العامة "يجازى" بياء مضمومة وزاي مفتوحة، "الكفورُ" رفعاً على ما لم يسم فاعلـه. وقرأ يعقوب وحفص وحمزة والكسائي: "نجازي" بالنون وكسر الزاي، "الكفورَ" بالنصب، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأن قبلـه "جزيناهم" ولم يقل جوزوا. النحاس: والأمر في هذا واسع، والمعنى فيه بين، ولو قال قائل: خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين، وقال آخر: خُلق آدم من طين، لكان المعنى واحداً.

مسألة: في هذه الآية سؤال ليس في هذه السورة أشد منه، وهو أن يقال: لم خص الله تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصي؟ فتكلم العلماء في هذا؛ فقال قوم: ليس يجازى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلام والإهلاك إلا من كفر. وقال مجاهد: يجازى بمعنى يعاقب؛ وذلك أن المؤمن يكفّر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوء عملـه؛ فالمؤمن يجزى ولا يجازى لأنه يثاب. وقال طاوس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب. وقال قطرب خلاف هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار، وقال: المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر. النحاس: وأولى ما قيل في هذه الآية وأجل ما روي فيها: أن الحسن قال مثْلاً بمثل. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من حوسب هلك" فقلت: يا نبي الله، فأين قولـه جل وعز: ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ (الانشقاق: ٨)؟ قال: "إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك"[1]. وهذا إسناد صحيح، وشرحه: أن الكافر يكافأ على أعمالـه ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير؛ ويبين هذا قولـه تعالى في الأول: "ذلك جزيناهم بما كفروا" وفي الثاني: "وهل يجازى إلا الكفور" ومعنى "يجازى": يكافأ بكل عمل عملـه، ومعنى "جزيناهم". وفيناهم؛ فهذا حقيقة اللغة، وإن كان "جازى" يقع بمعنى "جزى". مجازاً.

(١) أخرجه البخاري (٣٥) وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (٢٨٧٦).

قولـه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ (١٨)﴾

قولـه تعالى: ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ﴾ قال الحسن: يعني بين اليمن والشام. والقرى التي بورك فيها: الشام والأردن وفلسطين. والبركة: قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء. ويحتمل أن يكون "باركنا فيها" بكثرة العدد. ﴿قرى ظاهرة﴾ قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام. وقال قتادة: معنى "ظاهرة": متصلة على طريق، يغدون فيقيلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية. وقيل: كان على كل ميل قرية بسوق، وهو سبب أمن الطريق. قال الحسن: كانت المرأة تخرج معها مغزلـها وعلى رأسها مكتلـها ثم تلتهي بمغزلـها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلـها من كل الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك. وقيل "ظاهرة" أي مرتفعة، قاله المبرد. وقيل: إنما قيل لـها "ظاهرة" لظهورها، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى، فكانت قرى ظاهرة أي معروفة، يقال: هذا أمر ظاهر أي معروف. ﴿وقدرنا فيها السير﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيراً مقدراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، أي جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى. وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد. ﴿سيروا فيها﴾ أي وقلنا لـهم سيروا فيها، أي في هذه المسافة فهو أمر تمكين، أي كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمر بمعنى الخبر، وفيه إضمار القول. ﴿ليالي وأياما آمنين﴾ ظرفان "آمنين" نصب على الحال. وقال: "ليالي وأياما" بلفظ النكرة تنبيهاً على قصر أسفارهم؛ أي كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحركه.

قولـه تعالى: ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾

قولـه تعالى: ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ﴾ لما بطروا وطغوا وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة؛ كقول بني إسرائيل: ﴿ فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلـها ﴾ (البقرة: ٦١) الآية. وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ (الأنفال: ٣٢) فأجابه الله تبارك وتعالى، وقتل يوم بدر بالسيف صبراً؛ فكذلك هؤلاء تبددوا في الدنيا ومزقوا كل ممزق، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون الأزواد. وقراءة العامة "ربنا" بالنصب على أنه نداء مضاف، وهو منصوب لأنه مفعول به، لأن معناه: ناديت ودعوت. "باعد" سألوا المباعدة في أسفارهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وهشام عن ابن عامر: "ربنا" كذلك على الدعاء "بعّد" من التبعيد. النحاس: وباعد وبعّد واحد في المعنى، كما تقول: قارب وقرب. وقرأ أبو

صالح ومحمد ابن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب، ويروى عن ابن عباس: "ربنا" رفعاً "باعد" بفتح العين والدال على الخبر، تقديره: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، كأن الله تعالى يقول: قربنا لـهم أسفارهم فقالوا أشراً وبطراً: لقد بوعدت علينا أسفارنا. واختار هذه القراءة أبو حاتم قال: لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بطراً وعجباً مع كفرهم. وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس "ربنا بعّد بين أسفارنا" بشد العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال: شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم. وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري "ربنا بَعُد بين أسفارنا. "ربنا" نداء مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: "بَعُدَ بين أسفارنا" ورفع "بين" بالفعل، أي، بَعُدَ ما يتصل بأسفارنا. وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التي قبلـها في ضم العين إلا أنك تنصب "بين" على ظرف، وتقديره في العربية: بعد سيرنا بين أسفارنا. النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن خبر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم بطراً وأشراً، وخبر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكوا، كما قال ابن عباس. ﴿وظلموا أنفسهم﴾ أي بكفرهم ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ أي يتحدث بأخبارهم، وتقديره في العربية: ذوي أحاديث. ﴿ومزقناهم كل ممزق﴾ أي لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا. قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، والأسد بعمان، وخزاعة بتهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، أي مذاهب سبأ وطرقها. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ الصبار الذي يصبر عن المعاصي، وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم. فإن أردت أنه صبر عن المعصية لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا. ﴿شكور﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في "البقرة".

قولـه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ﴾ فيه أربع قراءات: قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر ويروى عن مجاهد، "ولقد صدق عليهم" بالتخفيف "إبليس" بالرفع "ظنه" بالنصب؛ أي في ظنه. قال الزجاج: وهو على المصدر أي صدق عليهم ظناً ظنه إذ صدق في ظنه؛ فنصب على المصدر أو على الظرف. وقال أبو علي: "ظنه" نصب لأنه مفعول به؛ أي صدق الظن الذي ظنه إذ قال: ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ (الأعراف: ١٦) وقال: ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ (الحجر: ٣٩)؛ ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به، ويقال: صدق الحديث، أي في الحديث. وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثاب والأعمش وعاصم وحمزة والكسائي: "صدّق" بالتشديد "ظنه" بالنصب بوقوع الفعل عليه. قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه. وقرأ جعفر بن محمد وأبو الـهجهاج "صدق عليهم" بالتخفيف "إبليس" بالنصب "ظنه" بالرفع. قال أبوحاتم: لا وجه لـهذه القراءة عندي، والله تعالى أعلم.

وقد أجاز هذه القراءة الفراء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل "صدق" "إبليس" مفعول به؛ والمعنى: أن إبليس سوَّل لـه ظنه فيهم شيئاً فصدق ظنه، فكأنه قال: ولقد صدق عليهم ظن إبليس. و"على" متعلقة بـ "صدق"، كما تقول: صدقت عليك فيما ظننته بك، ولا تتعلق بالظن لاستحالة

تقدم شيء من الصلة على الموصول. والقراءة الرابعة: "ولقد صدق عليهم إبليس ظنه" برفع إبليس والظن، مع التخفيف في "صدق" على أن يكون ظنه بدلاً من إبليس وهو بدل الاشتمال. ثم قيل: هذا في أهل سبأ، أي كفروا وغيروا وبدلوا بعد أن كانوا مسلمين إلا قوماً منهم آمنوا برسلهم. وقيل: هذا عامّ، أي صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله تعالى؛ قاله مجاهد. وقال الحسن: لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حواء وهبط إبليس قال إبليس: أما إذ أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف! فكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله تعالى: "ولقد صدق عليهم إبليس ظنه". وقال ابن عباس: إن إبليس قال: خلقت من نار وخلق آدم من طين والنار تحرق كل شيء. ﴿ لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ (الإسراء: ٦٢) فصدق ظنه عليهم. وقال زيد بن أسلم: إن إبليس قال: يا رب أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم وشرفتهم وفضلتهم علي لا تجد أكثرهم شاكرين، ظناً منه فصدق عليهم إبليس ظنه. وقال الكلبي: إنه ظن أنه إن أغواهم أجابوه وإن أضلهم أطاعوه، فصدق ظنه. ﴿فاتبعوه﴾ قال الحسن: ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظناً فكان كما ظن بوسوسته.

﴿إلا فريقاً من المؤمنين﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان: أحدهما أنه يراد به بعض المؤمنين، لأن كثيراً من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي، أي ما سلم من المؤمنين أيضاً إلا فريق وهو المعني بقوله تعالى: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الحجر: ٤٢). فأما ابن عباس فعنه أنه قال: هم المؤمنون كلهم، فـ "من" على هذا للتبيين لا للتبعيض، فإن قيل: كيف علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب؟ قيل له: لما نفذ له في آدم ما نفذ غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته، وقد وقع له تحقيق ما ظن. وجواب آخر وهو ما أجيب من قوله تعالى: ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ (الإسراء: ٦٤) فأعطي القوة والاستطاعة، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك، فلما رأى أنه تاب على آدم وأنه سيكون له نسل. يتبعونه إلى الجنة وقال: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ (الحجر: ٤٢) علم أن له تبعاً ولآدم تبعاً؛ فظن أن تبعه أكثر من تبع آدم، لما وضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهوات في أجواف الآدميين، فخرج على ما ظن حيث نفخ فيهم وزين في أعينهم تلك الشهوات، ومدهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذي ظنه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين. والسلطان: القوة. وقيل: الحجة، أي لم تكن له حجة يستتبعهم بها، وإنما اتبعوه بشهوة وتقليد وهوى نفس؛ لا عن حجة ودليل. ﴿إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ يريد علم الشهادة الذي يقع به الثواب والعقاب، فأما الغيب فقد علمه تبارك وتعالى. ومذهب الفراء

أن يكون المعنى: إلا لنعلم ذلك عندكم؛ كما قال: ﴿ أين شركائي ﴾ (النحل: ٢٧)، على قولكم وعندكم، وليس قولـه: "إلا لنعلم" جواب "وما كان لـه عليهم من سلطان" في ظاهره إنما هو محمول على المعنى؛ أي وما جعلنا لـه سلطاناً إلا لنعلم، فالاستثناء منقطع، أي لا سلطان لـه عليهم ولكنا ابتليناهم بوسوسته لنعلم، فـ "إلا" بمعنى لكن. وقيل هو متصل، أي ما كان لـه عليهم من سلطان، غير أنا سلّطناه عليهم ليتم الابتلاء. وقيل: "كان" زائدة؛ أي وما لـه عليهم من سلطان، كقولـه: ﴿ كنتم خير أمة ﴾ (آل عمران: ١١٠) أي أنتم خير أمة. وقيل: لما اتصل طرف منه بقصة سبأ قال: وما كان لإبليس على أولئك الكفار من سلطان. وقيل: وما كان لـه في قضائنا السابق سلطان عليهم. وقيل: "إلا لنعلم" إلا لنظهر، وهو كما تقول: النار تحرق الحطب، فيقول آخر لا بل الحطب يحرق النار؛ فيقول الأول تعال حتى نجرب النار والحطب لنعلم أيهما يحرق صاحبه، أي لنظهر ذلك وإن كان معلوماً لـهم ذلك. وقيل: إلا لتعلموا أنتم. وقيل: أي ليعلم أولياؤنا والملائكة؛ كقولـه: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ (المائدة: ٣٣) أي يحاربون أولياء الله ورسولـه. وقيل: أي ليميز؛ كقولـه: ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ (الأنفال: ٣٧) وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" وغيرها. وقرأ الزهري "إلا ليعلم" على ما لم يسم فاعلـه. ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ أي أنه عالم بكل شيء. وقيل: يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه عليه.

قولـه تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ أي هذا الذي مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتي، فقل يا محمد لـهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك. وهذا خطاب توبيخ، وفيه إضمار: أي ادعوا الذين زعمتم أنهم آلـهة لكم من دون الله لتنفعكم أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك، و﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما لـه منهم من ظهير﴾ أي ما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء، بل الله المنفرد بالإيجاد؛ فهو الذي يعبد، وعبادة غيره محال.

قولـه تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولا تنفع الشفاعة ﴾ أي شفاعة الملائكة وغيرهم. ﴿عنده﴾ أي عند الله. ﴿إلا لمن أذن لـه﴾ قراءة العامة "أذن" بفتح الـهمزة؛ لذكر الله تعالى أولاً. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي "أُذن" بضم الـهمزة على ما لم يسم فاعلـه. والآذن هو الله تعالى. و(مَن) يجوز أن ترجع إلى الشافعين، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لـهم. ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ قال ابن عباس: خلي عن قلوبهم الفزع. قطرب: أخرج ما فيها من الخوف. مجاهد: كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة؛ أي

إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام؛ إلا أن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله؛ كما قال: ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ (الأنبياء: ٢٨) والمعنى: أنه إذا أذن لـهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا؛ لما يقترن بتلك الحال من الأمر الـهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لـهم فيه تقصير، فإذا سري عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن: ﴿ماذا قال ربكم﴾ أي ماذا أمر الله به، فيقولون لـهم: ﴿قالوا الحق﴾ وهو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين. ﴿وهو العلي الكبير﴾ فلـه أن يحكم في عباده بما يريد. ثم يجوز أن يكون هذا إذناً لـهم في الدنيا في شفاعة أقوام، ويجوز أن يكون في الآخرة. وفي الكلام إضمار؛ أي ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن لـه ففزع لما ورد عليه من الإذن تهيباً لكلام الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزع عن قلوبهم أجاب بالانقياد. وقيل: هذا الفزع يكون اليوم للملائكة في كل أمر يأمر به الرب تعالى؛ أي لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون، مطيعون لله تعالى دون الجمادات والشياطين. وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: "إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنها سلسلة على صفوان فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ـ قال ـ والشياطين بعضهم فوق بعض"[1] قال: حديث حسن صحيح. وقال النواس بن سمعان قال النبي ﷺ: "إن الله إذا أراد أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو رعدة شديدة خوفاً من الله تعالى فإذا سمع أهل السموات ذلك صعقوا وخروا لله تعالى سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول لـه من وحيه ما أراد ثم يمر جبريل بالملائكة كلما مر بسماء سألـه ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلي الكبير، قال فيقول كلـهم كما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره الله تعالى"[2]

وذكر البيهقي عن ابن عباس في قولـه تعالى: ﴿حتى إذا فُزّع عن قلوبهم﴾ قال: كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحي، وكان إذا نزل الوحي سمع لـه صوت كإمرار السلسلة على الصفوان، فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير، ثم يقول يكون العام كذا ويكون كذا فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنة والكهنة الناس يقولون يكون العام كذا وكذا فيجدونه كذلك؛ فلما بعث الله محمداً ﷺ دُحروا بالشُهب فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك: هلك من في السماء، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة، وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة؛ حتى أسرعوا في أموالـهم فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب: أيها الناس! أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من في السماء، وإن هذا ليس بانتثار، ألستم ترون معالمكم من النجوم كما هي والشمس والقمر والليل والنهار! قال فقال إبليس: لقد حدث في الأرض اليوم حدث، فأتوني من تربة كل أرض فأتوه بها، فجعل يشمها

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٠٠).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٧)، وهو ضعيف.

فلما شم تربة مكة قال من ها هنا جاء الحدث؛ فنصتوا فإذا رسول الله ﷺ قد بعث. وقد مضى هذا المعنى مرفوعا مختصراً في صورة "الحجر"، ومعنى القول أيضاً في رميهم بالشهب وإحراقهم بها، ويأتي في سورة "الجن" بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: إنما يفزعون من قيام الساعة. وقال الكلبي وكعب: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام فترة خمسمائة وخمسون سنة لا يجيء فيها الرسل، فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ كلم الله تعالى جبريل بالرسالة، فلما سمعت الملائكة الكلام ظنوا أنها الساعة قد قامت، فصعقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فلم يدروا ما قال ولكنهم قالوا قال الحق وهو العلي الكبير، وذلك أن محمداً ﷺ عند أهل السموات من أشراط الساعة. وقال الضحاك: إن الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الرب تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين هم أسفل من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سجداً ويصعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة. وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكن أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صعقوا، وكان هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤملون أنتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة. وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين. قال الحسن ومجاهد وابن زيد: في الآخرة عند نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا قالوا الحق وهو العلي الكبير، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، أي قالوا قال الحق.

وقراءة العامة "فزع عن قلوبهم". وقرأ ابن عباس "فزع عن قلوبهم" مسمى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى. ومن بناه للمفعول فالجار والمجرور في موضع رفع، والفعل في المعنى لله تبارك وتعالى، والمعنى في القراءتين: أزيل الفزع عن قلوبهم، حسبما تقدم بيانه. ومثله: أشكاه، إذا أزال عنه ما يشكوه. وقرأ الحسن: "فزع" مثل قراءة العامة، إلا أنه خفف الزاي، والجار والمجرور في موضع رفع أيضاً؛ وهو كقولك: انصرف عن كذا إلى كذا. وكذا معنى "فرغ" بالراء والغين المعجمة والتخفيف، غير مسمى الفاعل، رويت عن الحسن أيضاً وقتادة. وعنهما أيضاً "فرغ" بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل، والمعنى: فرغ الله تعالى قلوبهم أي كشف عنها، أي فرغها من الفزع والخوف، وإلى ذلك يرجع البناء للمفعول، على هذه القراءة وعن الحسن أيضاً "فرغ" بالتشديد.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قل من يرزقكم من السماوات والأرض ﴾ لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة مما يقدر عليه الرب قرر ذلك فقال: قل يا محمد للمشركين "من يرزقكم من السموات والأرض" أي من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السموات؛ أي عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع. "والأرض" أي الخارجة من الأرض عن الماء والنبات ـ أي لا يمكنهم أن يقولوا هذا فعل

آلـهتنا ـ فيقولون لا ندري، فقل إن الله يفعل ذلك الذي يعلم ما في نفوسكم وإن قالوا: إن الله يرزقنا فقد تقررت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يعبد. ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ هذا على وجه الإنصاف في الحجة؛ كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن والآخر ضال وهو أنتم؛ فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب، والمعنى: أنتم الضالون حين أشركتم بالذي يرزقكم من السموات والأرض. "أو إياكم" معطوف على اسم "إن" ولو عطف على الموضع لكان "أو أنتم" ويكون "لعلى هدى" للأول لا غير وإذا قلت: "أو إياكم" كان للثاني أولى، وحذفت من الأول ويجوز أن يكون للأول، وهو اختيار المبرد، قال: ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالحجة الواضحة: أحدنا كاذب، قد عرف المعنى، كما تقول: أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأحدنا مخطئ، وقد عرف أنه هو المخطئ، فهكذا "وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين". و"أو" عند البصريين على بابها وليست للشك، ولكنها على ما تستعمل العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى. وقال أبو عبيدة والفراء: هي بمعنى الواو، وتقديره: وإنا على هدى وإياكم لفي ضلال مبين. وقال جرير:

أثعلبة الفوارس أو رياحاً   عدلت بهم طهية والربابا

يعني أثعلبة ورياحاً وقال آخر:

فلما اشتد أمر الحرب فينا   تأمـــلنا رياحا أو رزاما

قولـه تعالى: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ﴾ أي اكتسبنا، ﴿ولا نسأل﴾ نحن أيضاً ﴿عما تعملون﴾ أي إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم، لا أنه ينالني ضرر كفركم، وهذا كما قال: ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ (الكافرون: ٦) والله مجازي الجميع. فهذه آية مهادنة ومتاركة، وهي منسوخة بالسيف وقيل: نزل هذا قبل آية السيف.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ يريد يوم القيامة ﴿ثم يفتح بيننا بالحق﴾ أي يقضي فيثيب المهتدي ويعاقب الضال ﴿وهو الفتاح﴾ أي القاضي بالحق ﴿العليم﴾ بأحوال الخلق. وهذا كلـه منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ يكون "أروني" هنا من رؤية القلب، فيكون "شركاء" المفعول الثالث، أي عرفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء لله عز وجل، وهل شاركت في خلق شيء، فبينوا ما هو؟ وإلا فلم تعبدونها. وجوز أن تكون من رؤية البصر، فيكون

"شركاء" حالا. ﴿كلا﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم. وقيل: إن "كلا" رد لجوابهم المحذوف، كأنه قال: أروني الذين ألحقتم به شركاء. قالوا: هي الأصنام. فقال كلا، أي ليس لـه شركاء ﴿بل هو الله العزيز الحكيم﴾.

قولـه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ أي وما أرسلناك إلا للناس كافة أي عامة؛ في الكلام تقديم وتأخير. وقال الزجاج: أي وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ. والكافة بمعنى الجامع. وقيل: معناه كافًا للناس، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام. والـهاء للمبالغة. وقيل: أي إلا ذا كافة، فحذف المضاف، أي ذا منع للناس من أن يشذوا عن تبليغك، أو ذا منع لـهم من الكفر، ومنه: كف الثوب، لأنه ضم طرفيه. ﴿بشيراً﴾ أي بالجنة لمن أطاع. ﴿ونذيرا﴾ من النار لمن كفر. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ لا يعلمون ما عند الله وهم المشركون؛ وكانوا في ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عدداً. ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ يعني موعدكم لنا بقيام الساعة. ﴿إن كنتم صادقين﴾ فقال الله تعالى: ﴿قل﴾ أي قل لـهم يا محمد ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ فلا يغرنكم تأخيره. والميعاد الميقات. ويعني بهذا الميعاد وقت البعث وقيل وقت حضور الموت؛ أي لكم قبل يوم القيامة وقت معين تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولي. وقيل: أراد بهذا اليوم يوم بدر؛ لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم في الدنيا في حكم الله تعالى. وأجاز النحويون "ميعاد يوم" على أن يكون "ميعاد" ابتداء و"يوم" بدل منه، والخبر "لكم". وأجازوا "ميعاد يوماً" يكون ظرفاً، وتكون الـهاء في "عنه" ترجع إلى "يوم" ولا يصح "ميعاد يوم لا تستأخرون" بغير تنوين، وإضافة "يوم" إلى ما بعده إذا قدرت الـهاء عائدة على اليوم، لأن ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أجل الـهاء التي في الجملة. ويجوز ذلك على أن تكون الـهاء للميعاد لا لليوم.

قولـه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ

لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿وقال الذين كفروا﴾ يريد كفار قريش. ﴿لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ قال سعيد عن قتادة: "ولا بالذي بين يديه" من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل من الآخرة. وقال ابن جريج: قائل ذلك أبو جهل بن هشام. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبلـه من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولـهم، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم. ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالـهم فيما لـهم فقال ﴿ولو ترى﴾ يا محمد ﴿إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾ أي محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين. وجواب "لو" محذوف؛ أي لرأيت أمراً هائلاً فظيعاً. ثم ذكر أي شيء يرجع من القول بينهم قال: ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿للذين استكبروا﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ أي أنتم أغويتمونا وأضللتمونا. واللغة الفصيحة "لولا أنتم" ومن العرب من يقول "لولاكم" حكاها سيبويه؛ تكون "لولا" تخفض المضمر ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره. ومحمد بن يزيد يقول: لا يجوز "لولاكم" لأن المضمر عقيب المظهر، فلما كان المظهر مرفوعاً بالإجماع وجب أن يكون المضمر أيضاً مرفوعاً. ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الـهدى بعد إذ جاءكم﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار، أي ما رددناكم نحن عن الـهدى بعد إذ جاءكم، ولا أكرهناكم. ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي مشركين مصرين على الكفر. ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ المكر أصلـه في كلام العرب الاحتيال والخديعة، وقد مكر به يمكر فهو ماكر ومكّار. قال الأخفش: هو على تقدير: هذا مكر الليل والنهار. قال النحاس: والمعنى ـ والله أعلم ـ بل مكركم في الليل والنهار، أي مسارّتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا. وقال سفيان الثوري: بل عملكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكركم بالليل والنهار صدنا؛ فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما، وهو كقولـه تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾ (نوح: ٤) فأضاف الأجل إلى نفسه، ثم قال: ﴿فإذا جاء أجلـهم لا يستأخرون ساعة﴾ (الأعراف: ٣٤) إذ كان الأجل لـهم. وهذا من قبيل قولك: ليلـه قائم ونهاره صائم. قال المبرد: أي بل مكركم الليل والنهار، كما تقول العرب: نهاره صائم وليلـه قائم. وأنشد لجرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ... ونمـت ومـا ليل المطي بنائم

وأنشد سيبويه:

فنام ليلي وتجلى همي

أي نمت فيه. ونظيره: ﴿ والنهار مبصرا ﴾ (يونس: ٦٧). وقرأ قتادة: "بل مكرٌ الليلَ والنهارَ" بتنوين "مكر" ونصب "الليل والنهار"، والتقدير: بل مكر كائن في الليل والنهار، فحذف. وقرأ سعيد بن جبير "بل مكَرُّ" بفتح الكاف وشد الراء بمعنى الكرور، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف. ويجوز أن يرتفع بفعل مضمر دل عليه "أنحن صددناكم" كأنهم لما قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صدنا مكر الليل والنهار. وروي عن سعيد بن جبير "بل مكر الليل والنهار" قال: مر الليل والنهار عليهم فغفلوا. وقيل: طول السلامة فيهما كقوله: ﴿ فطال عليهم الأمد ﴾ (الحديد: ١٦). وقرأ راشد "بل مكَرَّ الليل والنهار" بالنصب، كما تقول: رأيته مقدم الحاج، وإنما يجوز هذا فيما يعرف، لو قلت: رأيته مقدم زيد، لم يجز؛ ذكره النحاس.

قوله تعالى: ﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ أي أشباهاً وأمثالاً ونظراء. قال محمد بن يزيد: فلان ند فلان، أي مثله. ويقال نديد؛ وأنشد:

أينما تجعلون إليّ ندا وما أنتم لذي حسب نَديد

وقد مضى هذا في "البقرة". ﴿وأسروا الندامة﴾ أي أظهروها، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء. قال امرؤ القيس:

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر عليّ حراصا لو يسرون مقتلي

وروي "يشرون". وقيل: "وأسروا الندامة" أي تبينت الندامة في أسرار وجوههم. قيل: الندامة لا تظهر، وإنما تكون في القلب، وإنما يظهر ما يتولد عنها، حسبما تقدم بيانه في سورة "يونس، وآل عمران". وقيل: إظهارهم الندامة قولهم: ﴿ فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾ (الشعراء: ١٠٢). وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال: ﴿ وأسروا النجوى ﴾ (الأنبياء: ٣).

قوله تعالى: ﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ الأغلال جمع غل، يقال: في رقبته غل من حديد. ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق: غل قمل، وأصله أن الغل كان يكون من قد وعليه شعر فيقمل وغللت يده إلى عنقه؛ وقد غل فهو مغلول، يقال: ما له ألّ وغُلّ. والغل أيضاً والغلة: حرارة العطش، وكذلك الغليل؛ يقال منه: غل الرجل يغل غللاً فهو مغلول، على ما لم يسم فاعله؛ عن الجوهري. أي جعلت الجوامع في أعناق التابعين والمتبوعين. قيل من غير هؤلاء الفريقين. وقيل يرجع "الذين كفروا" إليهم. وقيل: تم الكلام عند قوله: "لما رأوا العذاب" ثم ابتدأ فقال: "وجعلنا الأغلال" بعد ذلك في أعناق سائر الكفار. ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ

جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها ﴾ قال قتادة: أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل: ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون*وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولادا﴾ أي فضلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضياً بما نحن عليه من الدين والفضل لم يخولنا ذلك. ﴿وما نحن بمعذبين﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه، فرد الله عليهم قولـهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيه ﷺ: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق﴾ أي يوسعه ﴿لمن يشاء ويقدر﴾ أي يقتّر أي إن الله هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحاناً لـهم، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغني عنكم غداً شيئاً. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ لا يعلمون هذا لأنهم لا يتأملون. ثم قال تأكيداً: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾ قال مجاهد: أي قربى. والزلفة القربة. وقال الأخفش: أي إزلافاً، وهو اسم المصدر، فيكون موضع "قربى" نصباً كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريباً. وزعم الفراء أن "التي" تكون للأموال والأولاد جميعاً. ولـه قول آخر وهو مذهب أبي إسحاق الزجاج، يكون المعنى: وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه. وأنشد الفراء:

نحـــن بمـا عندنـــا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

ويجوز في غير القرآن: باللتين وباللاتي وباللواتي وباللذين وبالذين؛ للأولاد خاصة أي لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة، ولا تقربكم تقريباً. ﴿إلا من آمن وعمل صالحا﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى إلا من أمن وعمل صالحاً فلن يضره مالـه وولده في الدنيا. وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول: اللهم ارزقني الإيمان والعمل، وجنبني المال والولد، فإني سمعت فيما أوحيت ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عدنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا﴾ .

قلت: قول طاوس فيه نظر، والمعنى والله أعلم: جنبني المال والولد المطغيين أو اللذين لا خير فيهما؛ فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فنعم هذا وقد مضى هذا في "آل عمران ومريم والفرقان". و"مَنْ" في موضع نصب على الاستثناء المنقطع، أي لكن من آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعملـه يقربانه مني. وزعم الزجاج أنه في موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في "تقربكم". النحاس: وهذا القول غلط؛ لأن الكاف والميم للمخاطب فلا يجوز البدل، ولو جاز هذا لجاز: رأيتك زيداً. وقول أبي إسحاق هذا هو قول الفراء. إلا أن الفراء لا يقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين، ولكن قوله يؤول إلى ذلك، وزعم أن مثلـه ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء: ٨٩) يكون منصوباً عنده بـ "ينفع". وأجاز الفراء أن يكون "من" في موضع رفع بمعنى: ما هو إلا من آمن، كذا قال، ولست أحصل معناه. ﴿فأولئك لـهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ يعني قوله: ﴿ من

جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ (الأنعام: ١٦٠) فالضعف الزيادة، أي لهم جزاء التضعيف، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول. وقيل: لهم جزاء الأضعاف، فالضعف في معنى الجمع، وإضافة الضعف إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نفسه، نحو: حق اليقين، وصلاة الأولى. أي لهم الجزاء المضعف، للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة.

وبهذه الآية استدل من فضل الغنى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إن المؤمن إذا كان غنياً تقياً أتاه الله أجره مرتين بهذه الآية. ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ قراءة العامة "جزاء الضعف" بالإضافة. وقرأ الزهري ويعقوب ونصر ابن عاصم "جزاء" منوناً منصوباً "الضعف" رفعاً؛ أي فأولئك لهم الضعف جزاء على التقديم والتأخير. "وجزاء الضعف" على أن يجازوا الضعف. و"جزاء الضعف" مرفوعان، الضعف بدل من جزاء. وقرأ الجمهور "في الغرفات" على الجمع، وهو اختيار أبي عبيد؛ لقوله: ﴿ لنبوئنهم من الجنة غرفا ﴾ (العنكبوت: ٥٨). الزمخشري: وقرئ "في الغرفات" بضم الراء وفتحها وسكونها. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وخلف "في الغرفة" على التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿ أولئك يجزون الغرفة ﴾ (الفرقان: ٧٥). والغرفة قد يراد بها اسم الجمع واسم الجنس. قال ابن عباس: هي غرف من ياقوت وزبرجد ودر وقد مضى بيان ذلك. "آمنون" أي من العذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿والذين يسعون في آياتنا﴾ في إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا. ﴿معاجزين﴾ معاندين، يحسبون أنهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أي في جهنم تحضرهم الزبانية فيها.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ كرر تأكيداً. ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها في طاعة الله، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه. وفيه إضمار، أي فهو يخلفه عليكم؛ يقال: أخلف له وأخلف عليه، أي يعطيكم خلفه وبدله، وذلك البدل إما في الدنيا وإما في الآخرة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملَكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً"[1]. وفيه أيضاً عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: "إن الله قال لي أنفق أنفق عليك..."[2] الحديث. وهذه إشارة إلى الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة في طاعة الله. وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء ـ كما تقدم ـ سواء في الإجابة أو التكفير أو الادخار؛ والادخار ها هنا مثله في الأجر.

مسألة: روى الدارقُطني وأبو أحمد بن عدي عن عبد الحميد الهلالي عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما

---

(١) أخرجه مسلم في "الزكاة"، (١٠١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٥٢)، ومسلم (٩٩٣) واللفظ له.

وقى به الرجل عرضه فهو صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية"[1] . قال عبد الحميد: قلت لابن المنكدر: "ما وقى الرجل عرضه"؟ قال: يعطي الشاعر وذا اللسان. عبد الحميد وثقه ابن معين.

قلت: أما ما أنفق في معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف لـه. وأما البنيان فما كان منه ضرورياً يكنّ الإنسان ويحفظه، فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه. وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته، قال ﷺ: "ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال، بيت يسكنه وثوب يواري عورته وجلفُ الخبز والماء"[2] . وقد مضى هذا المعنى في "الأعراف" مستوفى.

قولـه تعالى: ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ لما كان يقال في الإنسان: إنه يرزق عيالـه والأمير جنده؛ قال: "وهو خير الرازقين" والرازق من الخلق يرزق، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى. ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة، كما قال: ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (الذاريات: ٥٨).

قولـه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ﴾ هذا متصل بقولـه: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون ﴾ (سبأ: ٣١). أي لو تراهم في هذه الحالة لرأيت أمراً فظيعاً. والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمته ثم قال: ولو تراهم أيضاً "يوم نحشرهم جميعا" العابدين والمعبودين، أي نجمعهم للحساب ﴿ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قال سعيد عن قتادة: هذا استفهام؛ كقوله عز وجل لعيسى: ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلـهين من دون الله ﴾ (المائدة: ١١٦) قال النحاس: فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت لـهم؛ فهو استفهام توبيخ للعابدين. ﴿قالوا سبحانك﴾ أي تنزيهاً لك. ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ أي أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونعبده ونخلص في العبادة لـه. ﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ أي يطيعون إبليس وأعوانه. وفي التفاسير: أن حيًّا يقال لـهم بنو مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تتراءى لـهم، وأنهم ملائكة، وأنهم بنات الله؛ وهو قولـه: ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ (الصافات: ١٥٨).

قولـه تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ﴾ أي شفاعة ونجاة. ﴿ولا ضرا﴾ أي عذاباً وهلاكاً. وقيل: أي لا تملك الملائكة دفع ضر عن عابديهم؛ فحذف المضاف ﴿ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ يجوز أن يقول الله لـهم أو الملائكة: ذوقوا.

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٤٢٥٤).

(٢) ضعيف، وقد سبق.

قولـه تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ يعني القرآن. ﴿قالوا ما هذا إلا رجل﴾ يعنون محمداً ﷺ. ﴿يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾ أي أسلافكم من الآلـهة التي كانوا يعبدونها. ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾ يعنون القرآن؛ أي ما هو إلا كذب مختلق. ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ فتارة قالوا سحر، وتارة قالوا إفك. ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفك.

قولـه تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾

قولـه تعالى: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها﴾ أي لم يقرأوا في كتاب أوتوه بطلان ما جئت به، ولا سمعوه من رسول بعث إليهم، كما قال: ﴿ أم آتيناهم كتابا من قبلـه فهم به مستمسكون ﴾ (الزخرف: ٢١) فليس لتكذيبهم وجه يتشبث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين: نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله، ثم توعدهم على تكذيبهم بقولـه الحق: ﴿وكذب الذين من قبلـهم﴾ أي كذب قبلـهم أقوام كانوا أشد من هؤلاء بطشاً وأكثر أموالاً وأولادا وأوسع عيشاً، فأهلكتهم كثمود وعاد. ﴿وما بلغوا﴾ أي ما بلغ أهل مكة ﴿معشار ما آتيناهم﴾ تلك الأمم. والمعشار والعشر سواء، لغتان. وقيل: المعشار عشر العشر. الجوهري: ومعشار الشيء عشره، ولا يقولون هذا في شيء سوى العشر. وقال: ما بلغ الذين من قبلـهم معشار شكر ما أعطيناهم؛ حكاه النقاش. وقيل: ما أعطى الله تعالى من قبلـهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان. قال ابن عباس: فليس أمة أعلم من أمة، ولا كتاب أبين من كتابه. وقيل: المعشار هو عشر العشير، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءاً من ألف جزء. الماوردي: وهو الأظهر، لأن المراد به المبالغة في التقليل. ﴿فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾ أي عقابي في الأمم، وفيه محذوف وتقديره: فأهلكناهم فكيف كان نكيري.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة ﴾ تمم الحجة على المشركين؛ أي قل لـهم يا محمد: ﴿إنما أعظكم﴾ أي أذكركم وأحذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه. ﴿بواحدة﴾ أي بكلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام، تقتضي نفي الشرك لإثبات الإلـه قال مجاهد: هي لا إلـه إلا الله وهذا قول ابن عباس والسدي. وعن مجاهد أيضاً: بطاعة الله. وقيل: بالقرآن؛ لأنه يجمع كل المواعظ. وقيل: تقديره

بخصلة واحدة، ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾ "أن" في موضع خفض على البدل من "واحدة"، أو في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أي هي أن تقوموا. ومذهب الزجاج أنها في موضع نصب بمعنى لأن تقوموا. وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذي هو ضد القعود، وهو كما يقال: قام فلان بأمر كذا؛ أي لوجه الله والتقرب إليه. وكما قال تعالى: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ (النساء: ١٢٧). ﴿مثنى وفرادى﴾ أي وحداناً ومجتمعين قاله السدي. وقيل: منفرداً برأيه ومشاوراً لغيره، وهذا قول مأثور. وقال القتبي: مناظراً مع غيره ومفكراً في نفسه، وكله متقارب. ويحتمل رابعاً أن المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل، لأنه في النهار معانٌ وفي الليل وحيدٌ، قال الماوردي. وقيل: إنما قال: "مثنى وفرادى" لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة، وإذا كانوا مثنى تقابل الذهنان فتراءى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد؛ والله أعلم. ﴿ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ الوقف عند أبي حاتم وابن الأنباري على "ثم تتفكروا". وقيل: ليس هو بوقف لأن المعنى: ثم تتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذباً، أو رأيتم فيه جنة، أو في أحواله من فساد، أو اختلف إلى أحد ممن يدعي العلم بالسحر، أو تعلم الأقاصيص وقرأ الكتب، أو عرفتموه بالطمع في أموالكم، أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة. ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية "﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء: ٢١٤) ورهطك منهم المخلصين"[1] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: "يا صباحاه؟" فقالوا: من هذا الذي يهتف!؟ قالوا محمد؛ فاجتمعوا إليه فقال: "يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب" فاجتمعوا إليه فقال: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي"؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". قال فقال أبو لهب: تباً لك! أما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قال فنزلت هذه السورة: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾[2] (المسد: ١) كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل ما سألتكم من أجر﴾ أي جُعل على تبليغ الرسالة ﴿فهو لكم﴾ أي ذلك الجعل لكم إن كنت سألتكموه ﴿إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾ أي رقيب وعالم وحاضر لأعمالي وأعمالكم، لا يخفى عليه شيء فهو يجازي الجميع.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

---

(١) قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ : ظاهر هذه العبارة أن قوله (ورهطك منهم المخلصين) كان قرآناً أنزل ثم نسخت تلاوته، ولم تقع هذه الزيادة في روايات البخاري (صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٤٨٥ ط الشعب).

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

قولـه تعالى: ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق ﴾ أي يبين الحجة ويظهرها. قال قتادة: بالحق بالوحي. وعنه: الحق القرآن. وقال ابن عباس: أي يقذف الباطل بالحق علام الغيوب. وقرأ عيسى بن عمر ﴿علام الغيوب﴾ على أنه بدل، أي قل إن ربي علام الغيوب يقذف بالحق. قال الزجاج. والرفع من وجهين على الموضع، لأن الموضع موضع رفع، أو على البدل مما في يقذف. النحاس: وفي الرفع وجهان آخران: يكون خبراً بعد خبر، ويكون على إضمار مبتدأ. وزعم الفراء أن الرفع في مثل هذا أكثر في كلام العرب إذا أتى بعد خبر "إن" ومثله ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ (ص: ٦٤) وقرئ: "الغيوب" بالحركات الثلاث، فالغيوب كالبيوت، والغيوب كالصبور، وهو الأمر الذي غاب وخفي جداً.

قولـه تعالى: ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل جاء الحق ﴾ قال سعيد عن قتادة: يريد القرآن. النحاس: والتقدير جاء صاحب الحق أي الكتاب الذي فيه البراهين والحجج. ﴿وما يبدئ الباطل﴾ قال قتادة: الشيطان؛ أي ما يخلق الشيطان أحداً ﴿وما يعيد﴾ فـ "ما" نفي. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى أي شيء؛ أي جاء الحق فأي شيء بقي للباطل حتى يعيده ويبدئه أي فلم يبق منه شيء، كقولـه: ﴿ فهل ترى لـهم من باقية ﴾ (الحاقة: ٨) أي لا ترى.

قولـه تعالى: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ﴾ وذلك أن الكفار قالوا تركت دين آبائك فضللت. فقال لـه: قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسي. وقراءه العامة "ضللت" بفتح اللام. وقرأ يحيى بن وثاب وغيره: "قل إن ضللت" بكسر اللام وفتح الضاد من "أضل"، والضلال والضلالة ضد الرشاد. وقد ضللت (بفتح اللام) أضل (بكسر الضاد)، قال الله تعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي ﴾ فهذه لغة نجد وهي الفصيحة. وأهل العالية يقولون "ضللت" بالكسر "أضل"، أي إثم ضلالتي على نفسي. ﴿وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي﴾ من الحكمة والبيان ﴿إنه سميع قريب﴾ أي سميع ممن دعاه قريب الإجابة. وقيل وجه النظم: قل إن ربي يقذف بالحق ويبين الحجة، وضلال من ضل لا يبطل الحجة، ولو ضللت لأضررت بنفسي، لا أنه يبطل حجة الله، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتني على الحجة إنه سميع قريب.

قولـه تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق. والمعنى: لو ترى إذا فزعوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم، روي معناه عن ابن عباس. الحسن: هو فزعهم في القبور من الصيحة. وعنه أن ذلك الفزع إنما هو إذا

خرجوا من قبورهم؛ وقاله قتادة. وقال ابن مغفل: إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة. السدي: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة. سعيد ابن جبير: هو الجيش الذي يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فزعهم. ﴿فلا فوت﴾ فلا نجاة؛ قاله ابن عباس. مجاهد: فلا مهرب. ﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي من القبور. وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريب لا يعزبون عنه ولا يفوتونه. وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين ألفاً يغزون في آخر الزمان الكعبة ليخربوها، وكما يدخلون البيداء يخسف بهم؛ فهو الأخذ من مكان قريب.

قلت: وفي هذا المعنى خبر مرفوع عن حذيفة وقد ذكرناه في كتاب التذكرة، قال: قال رسول الله ﷺ؛ وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب: "فبينا هم كذلك إذ خرج عليهم السفياني من الوادي اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين، جيشاً إلى المشرق؛ وجيشاً إلى المدينة، فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة ـ يعني مدينة بغداد، قال ـ فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من ولد العباس، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليلتين فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم ويحل جيشه الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول يا جبريل اذهب فأبدهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب﴾ فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جهينة، ولذلك جاء القول: وعند جهينة الخبر اليقين وقيل: "أخذوا من مكان قريب" أي قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت[1]، وهذا على قول من يقول: هذا الفزع عند النزع. ويحتمل أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة؛ يقال: فزع الرجل أي أجاب الصارخ الذي يستغيث به إذا نزل به خوف. ومنه الخبر إذ قال للأنصار: "إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع"[2]. ومن قال: أراد الخسف أو القتل في الدنيا كيوم بدر قال: أخذوا في الدنيا قبل أن يؤخذوا في الآخرة. ومن قال: هو فزع يوم القيامة قال: أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها. وقيل: "أخذوا من مكان قريب" من جهنم فألقوا فيها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وقالوا آمنا به﴾ أي القرآن. وقال مجاهد: بالله عز وجل. الحسن: بالبعث. قتادة: بالرسول ﷺ ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ قال ابن عباس والضحاك: التناوش الرجعة؛ أي يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك! ومنه قول الشاعر:

---

(١) "موضوع" أشار إليه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٤٤) بقوله: "وحكى ابن جرير عن بعضهم، قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس ﷺ، ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكلية ثم لم ينبه على ذلك وهذا أمر عجيب غريب منه".

(٢) ضعيف.

تمنى أن تؤوب إلي ميّ وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السدي: هي التوبة؛ أي طلبوها وقد بعدت، لأنه إنما تقبل التوبة في الدنيا. وقيل: التناوش التناول؛ قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشه ينوشه نوشاً. وأنشد:

فهي تنوش الحوض نوشاً من علا نوشـاً به تقطـع أجـواز الفلا

أي تتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شرباً كثيراً، وتقطع بذلك الشرب فلوات فلا تحتاج إلى ماء آخر. قال: ومنه المناوشة في القتال؛ وذلك إذا تدانى الفريقان. ورجل نَوُوش أي ذو بطش. والتناوش. التناول. والانتياش مثلـه. قال الراجز:

كانت تنوش العنق انتياشا

قولـه تعالى: ﴿ وأنى لـهم التناوش من مكان بعيد﴾ يقول: أنَّى لـهم تناول الإيمان في الآخرة وقد كفروا في الدنيا. وقرأ أبو عمرو والكسائي والأعمش وحمزة: "وأنى لـهم التناؤش" بالـهمز. النحاس: وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة؛ لأن "التناؤش" بالـهمز البعد، فكيف يكون: وأنى لـهم البعد من مكان بعيد. قال أبو جعفر: والقراءة جائزة حسنة، ولـها وجهان في كلام العرب، ولا يتأول بها هذا المتأول البعيد. فأحد الوجهين أن يكون الأصل غير مهموز، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها خفية، وذلك كثير في كـلام العرب. وفي المصحف الذي نقلته الجماعة عن الجماعة ﴿ وإذا الرسل أقتت﴾ (المرسلات: ١١) والأصل "وقتت" لأنه مشتق من الوقت. ويقال في جمع دار: أدؤر. والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال: يكون مشتقاً من النئيش وهو الحركة في إبطاء؛ أي من أين لـهم الحركة فيما قد بَعُد، يقال: نأشت الشيء أخذته من بُعد والنئيش: الشيء البطيء. قال الجوهري: التناؤش (بالهمز) التأخر والتباعد. وقد نأشت الأمر أنأشه نأشاً أخرته؛ فانتأش. ويقال: فعلـه نئيشاً أي أخيراً. قال الشاعر:

تمنى نئيشاً أن يكون أطاعـني وقد حدثت بعد الأمور أمور

وقال آخر:

قعدت زماناً عن طلابك للعلا وجئت نئيشاً بعدما فاتك الخُبر

وقال الفراء: الـهمز وترك الـهمز في التناؤش متقارب؛ مثل: ذمت الرجل وذأمته أي عبته. ﴿من مكان بعيد﴾ أي من الآخرة. وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال: "وأنَّى لـهم" قال: الرد، سألوه وليس بحين رد.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقد كفروا به﴾ أي بالله عز وجل وقيل: بمحمد ﴿من قبل﴾ يعني في الدنيا. ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ العرب تقول لكل من تكلم بما لا يحقه: هو يقذف ويرجم بالغيب. "من مكان بعيد" على جهة التمثيل لمن يرجم ولا يصيب، أي يرمون بالظن فيقولون: لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، رجماً منهم بالظن؛ قال قتادة. وقيل: "يقذفون" أي يرمون في القرآن

فيقولون: سحر وشعر وأساطير الأولين. وقيل: في محمد؛ فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون. ﴿من مكان بعيد﴾ أي إن الله بعَّد لـهم أن يعلموا صدق محمد. وقيل: أراد البعد عن القلب، أي من مكان بعيد عن قلوبهم. وقرأ مجاهد "ويقذفون بالغيب" غير مسمى الفاعل، أي يُرمون به. وقيل: يقذف به إليهم من يغويهم ويضلـهم.

قولـه تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤)﴾

قولـه تعالى: ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ قيل: حيل بينهم وبين النجاة من العذاب. وقيل: حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالـهم وأهليهم. ومذهب قتادة أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك؛ لأن ذلك إنما كان في الدنيا أو قد زالت في ذلك الوقت. والأصل "حُول" فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثم حذفت حركتها لثقلـها. ﴿كما فعل بأشياعهم﴾ الأشياع جمع شيع، وشيع جمع شيعة. ﴿من قبل﴾ أي بمن مضى من القرون السالفة الكافرة. ﴿إنهم كانوا في شك﴾ أي من أمر الرسل والبعث والجنة والنار. قيل: في الدين والتوحيد، والمعنى واحد. ﴿مريب﴾ أي يستراب به، يقال: أراب الرجل أي صار ذا ريبة، فهو مريب. ومن قال هو من الريب الذي هو الشك والتهمة قال: يقال شك مريب؛ كما يقال: عجب عجيب وشعر شاعر؛ في التأكيد. ختمت السورة، والحمد لله رب العالمين.

سورة فاطر

مكية في قول الجميع، وآياتها خمس وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض ﴾ يجوز في "فاطر" ثلاثة أوجه: الخفض على النعت، والرفع على إضمار مبتدأ، والنصب على المدح. وحكى سيبويه: الحمد لله أهل الحمد مثله وكذا "جاعل الملائكة". والفاطر: الخالق. وقد مضى في "يوسف" وغيرها. والفَطْرُ. الشق عن الشيء؛ يقال: فطرته فانفطر. ومنه: فطر ناب البعير طلع، فهو بعير فاطر. وتفطر الشيء تشقق. وسيف فُطار، أي فيه تشقق. قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة فهو كمْعي سلاحي لا أفلّ ولا فُطَارا

والفطر: الابتداء والاختراع. قال ابن عباس: كنت لا أدري ما "فاطر السموات والأرض" حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأتها. والفطر: حلب الناقة بالسبابة والإبهام. والمراد بذكر السموات والأرض العالم كله، ونبه بهذا على أن من قدر على الابتداء قادر على الإعادة. ﴿جاعل الملائكة﴾ لا يجوز فيه التنوين، لأنه لما مضى. ﴿رسلاً﴾ مفعول ثان، ويقال على إضمار فعل؛ لأن "فاعلا" إذا كان لما مضى لم يعمل فيه شيئاً، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منه تخفيفاً. وقرأ الضحاك "الحمد لله فطر السموات والأرض" على الفعل الماضي. "جاعل الملائكة رسلا" الرسل منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، صلى الله عليهم أجمعين. وقرأ الحسن: "جاعلُ الملائكة" بالرفع. وقرأ خُليد بن نشيط "جعل الملائكة" وكله ظاهر. ﴿أولي أجنحة﴾ نعت، أي أصحاب أجنحة. ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة. قال قتادة: بعضهم له جناحان، وبعضهم ثلاثة، وبعضهم أربعة؛ ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون من الأرض إلى السماء، وهي مسيرة كذا في وقت واحد، أي جعلهم رسلا. قال يحيى بن سلام: إلى الأنبياء. وقال السدي: إلى العباد برحمة أو نقمة. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح[1]. وعن الزهري أن جبريل عليه السلام قال له: (يا محمد، لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعلى كاهله وإنه في الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع - والوصع عصفور صغير - حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته)[2]. و"أولو" اسم جمع لذو، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا، ونظيرهما في المتمكنة: المخاض والخلفة. وقد مضى الكلام في "مثنى وثلاث ورباع" في "النساء" وأنه غير منصرف.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسيره (٤٨٥٧)، ومسلم (١٧٤).

(٢) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ أي في خلق الملائكة، في قول أكثر المفسرين؛ ذكره المهدوي. وقال الحسن: "يزيد في الخلق" أي في أجنحة الملائكة ما يشاء. وقال الزهري وابن جريج: يعني حسن الصوت. وقد مضى القول فيه في مقدمة الكتاب. وقال الـهيثم الفارسي: رأيت النبي ﷺ في منامي، فقال: "أنت الـهيثم الذي تزين القرآن بصوتك جزاك الله خيراً". وقال قتادة: "يزيد في الخلق ما يشاء" الملاحة في العينين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم. وقيل: الخط الحسن. وقال مهاجر الكلاعي قال النبي ﷺ: "الخط الحسن يزيد الكلام وضوحاً"[1]. وقيل: الوجه الحسن. وقيل في الخبر في هذه الآية: هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن؛ ذكره القشيري. النقاش هو الشعر الجعد. وقيل: العقل والتميز. وقيل: العلوم والصنائع. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ من النقصان والزيادة. الزمخشري: والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق؛ من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأت في مزاولة الأمور؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف.

قولـه تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لـها ﴾ وأجاز النحويون في غير القرآن "فلا ممسك لـه" على لفظ "ما" و"لـها" على المعنى. وأجازوا ﴿وما يمسك فلا مرسل لـها﴾ وأجازوا" ما يفتح الله للناس من رحمة" (بالرفع) تكون "ما" بمعنى الذي. أي إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالـهم غير الله. وقيل: ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه، وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسلـه. وقيل: هو الدعاء: قالـه الضحاك. ابن عباس: من توبة. وقيل: من توفيق وهداية.

قلت: ولفظ الرحمة يجمع ذلك إذ هي منكرة للإشاعة والإبهام، فهي متناولة لكل رحمة على البدل، فهو عام في جميع ما ذكر. وفي موطأ مالك: أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مُطر الناس: مطرنا بنوء الفتح، ثم يتلو هذه الآية ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لـها ﴾. ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تقدم.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ معنى هذا الذكر الشكر. ﴿هل من خالق غير الله﴾ يجوز في "غير" الرفع والنصب والخفض، فالرفع من وجهين: أحدهما: بمعنى هل من خالـق

(١) "ضعيف" بلفظ: "الخط الحسن يزيد الحق وضحاً"، كما في ضعيف الجامع (٢٩٤٢).

إلا الله؛ بمعنى ما خالق إلا الله. والوجه الثاني: أن يكون نعتاً على الموضع؛ لأن المعنى: هل خالق غير الله، و"من" زائدة. والنصب على الاستثناء. والخفض، على اللفظ. قال حميد الطويل: قلت للحسن: من خلق الشر؟ فقال سبحان الله! هل من خالق غير الله جل وعز، خلق الخير والشر. وقرأ حمزة والكسائي: "هل من خالق غير الله" بالخفض. الباقون بالرفع. ﴿يرزقكم من السماء﴾ أي المطر. ﴿والأرض﴾ أي النبات. ﴿لا إلـه إلا هو فأنى تؤفكون﴾ من الإفك (بالفتح) وهو الصرف؛ يقال: ما أفكك عن كذا، أي ما صرفك عنه. وقيل: من الإفك (بالكسر) وهو الكذب، ويرجع هذا أيضاً إلى ما تقدم؛ لأنه قول مصروف عن الصدق والصواب، أي من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله. والآية حجة على القدرية لأنه نفى خالقاً غير الله وهم يثبتون معه خالقين، على ما تقدم في غير موضع.

قولـه تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإن يكذبوك ﴾ يعني كفار قريش. ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ يعزّي نبيه ويسليه ﷺ وليتأسى بمن قبلـه في الصبر. ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائي وخلف (بفتح التاء) على أنه مسمى الفاعل. واختاره أبو عبيد لقولـه تعالى: ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (الشورى: ٥٣) الباقون "تُرْجَع" على الفعل المجهول.

قولـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق ﴾ هذا وعظ للمكذبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحة قولـه: إن البعث والثواب والعقاب حق. ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة، حتى يقول: يا ليتني قدمت لحياتي. ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم: "الغرور" الشيطان. وغرور جمع غرّ، وغرٌّ مصدر. ويكون "الغرور" مصدراً وهو بعيد عند غير أبي إسحاق؛ لأن "غررته" متعد، والمصدر المتعدي إنما هو على فعل؛ نحو: ضربته ضرباً، إلا في أشياء يسيرة لا يقاس عليها؛ قالوا: لزمته لزوماً، ونهكه المرض نهوكاً. فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيه ما قالـه سعيد بن جبير، قال: الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنى على الله المغفرة. وقراءة العامة "الغرور" (بفتح الغين) وهو الشيطان؛ أي لا يغرنكم بوساوسه في أنه يتجاوز عنكم لفضلكم. وقرأ أبو حيوة وأبو السمّال العدوي ومحمد بن السَّميقع "الغرور" (برفع الغين) وهو الباطل؛ أي لا يغرنكم الباطل. وقال ابن السكيت: والغُرور (بالضم) ما اغتر به من متاع الدنيا. قال الزجاج: ويجوز أن يكون الغرور جمع غار؛ مثل قاعد وقعود. النحاس: أو جمع غر، أو يشبّه بقولـهم: نهكه المرض نهوكاً ولزمه لزوماً. الزمخشري: أو مصدر "غره" كاللزوم والنهوك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ أي فعادوه ولا تطيعوه. ويدلكم على عداوته إخراجه أباكم من الجنة، وضمانه إضلالكم في قوله: ﴿ ولأضلنهم ولأمنينهم ﴾ (النساء: ١١٩) الآية. وقوله: ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم* ثم لآتينهم من بين أيديهم ﴾ (الأعراف: ١٦ ـ ١٧) الآية. فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدو مبين؛ واقتص علينا قصته، وما فعل بأبينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوتنا وغرورنا من قبل وجودنا وبعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا. وكان الفضيل بن عياض يقول: يا كذاب يا مفتر، اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر. وقال ابن السماك: يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه! وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته! وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مجوداً. و"عدو" في قوله: "إن الشيطان لكم عدو" يجوز أن يكون بمعنى معاد، فيثنّى ويجمع ويؤنث. ويكون بمعنى النسب فيكون موحداً بكل حال؛ كما قال جل وعز: ﴿ فإنهم عدو لي ﴾ (الشعراء: ٧٧). وفي المؤنث على هذا أيضاً عدو. النحاس: فأما قول بعض النحويين إن الواو خفية فجاؤوا بالهاء فخطأ، بل الواو حرف جلد. ﴿إنما يدعو حزبه﴾ كفّت "ما" "إن" عن العمل فوقع بعدها الفعل. ﴿حزبه﴾ أي أشياعه. ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾ فهذه عداوته. ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ يكون "الذين" بدلاً "من أصحاب" فيكون في موضع خفض، أو يكون بدلاً من "حزبه" فيكون في موضع نصب، أو يكون بدلاً من الواو فيكون في موضع رفع وقول رابع وهو أحسنها يكون في موضع رفع بالابتداء ويكون خبره "لهم عذاب شديد"؛ وكأنه سبحانه بيّن حال موافقته ومخالفته، ويكون الكلام قد تم في قوله: ﴿من أصحاب السعير﴾ ثم ابتدأ فقال: "الذين كفروا لهم عذاب شديد". ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في موضع رفع بالابتداء أيضاً، وخبره ﴿لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم. ﴿وأجر كبير﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ "من" في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف. قال الكسائي: والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ فالمعنى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ذهبت نفسك عليهم حسرات. قال: وهذا كلام عربي طريف لا يعرفه إلا قليل. وذكره الزمخشري عن الزجاج. قال النحاس: والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية، لما ذكره من الدلالة على المحذوف، والمعنى أن

الله جل وعز نهى نبيه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم، كما قال جل وعز: ﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ (الكهف: ٦) قال أهل التفسير: قاتل. قال نصر بن علي: سألت الأصمعي عن قول النبي ﷺ في أهل اليمن: "هم أرق قلوبا وأبخع طاعة"(١) ما معنى أبخع؟ فقال: أنصح. فقلت لـه: إن أهل التفسير مجاهداً وغيره يقولون في قول الله عز وجل: ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾: معناه قاتل نفسك. فقال: هو من ذاك بعينه، كأنه من شدة النصح لـهم قاتل نفسه. وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديم وتأخير، مجازه: أفمن زين لـه سوء عملـه فرآه حسنا، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. وقيل: الجواب محذوف؛ المعنى أفمن زين لـه سوء عملـه كمن هدى، ويكون يدل على هذا المحذوف "فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء". وقرأ يزيد بن القعقاع: "فلا تذهب نفسك" وفي "أفمن زين لـه سوء عملـه" أربعة أقوال، أحدها: أنهم اليهود والنصارى والمجوس؛ قال أبو قلابة. ويكون "سوء عملـه" معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام. الثاني: أنهم الخوارج؛ رواه عمر بن القاسم. فيكون "سوء عملـه" تحريف التأويل. الثالث: الشيطان؛ قاله الحسن. ويكون "سوء عملـه" الإغواء. الرابع: كفار قريش؛ قالـه الكلبي. ويكون "سوء عملـه" الشرك. وقال: إنها نزلت في العاص بن وائل السهمي والأسود بن المطلب. وقال غيره: نزلت في أبي جهل بن هشام. ﴿فرآه حسناً﴾ أي صواباً؛ قاله الكلبي. وقيل: جميلاً.

قلت: والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال؛ لقولـه تعالى: ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ (البقرة: ٢٧٢)، وقولـه: ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ (آل عمران: ١٧٦)، وقال: ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (الكهف: ٦)، وقولـه: ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ (الشعراء: ٣)، وقولـه في هذه الآية: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وهذا ظاهر بيّن، أي لا ينفع تأسفك على مقامهم على كفرهم، فإن الله أضلـهم. وهذه الآية ترد على القدرية قولـهم على ما تقدم؛ أي أفمن زين لـه سوء عملـه فرآه حسناً تريد أن تهديه، وإنما ذلك إلى الله لا إليك، والذي إليك هو التبليغ. وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن محيصن: "فلا تُذهب" بضم التاء وكسر الـهاء "نفسك" نصباً على المفعول، والمعنيان متقاربان. "حسرات" منصوب مفعول من أجلـه؛ أي فلا تذهب نفسك للحسرات. و"عليهم" صلة "تذهب"، كما تقول: هلك عليه حباً ومات عليه حزناً. وهو بيان للمتحسر عليه. ولا يجوز أن يتعلق بالحسرات؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته. ويجوز أن يكون حالاً كأن كلـها صارت حسرات لفرط التحسر؛ كما قال جرير:

مَشَقَ الـهواجر لحمَهن مع السُّرى حتى ذهبن كلاكلاً وصدورا

يريد: رجعن كلاكلاً وصدوراً؛ أي لم يبق إلا كلاكلـها وصدورها. ومنه قول الآخر:

فعلى إثرهم تساقط نفسي حسرات وذكرهم لي سقام

أو مصدراً. ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٩٠)، ومسلم (٥٢) بلفظ: "أضعف قلوبًا وأرق أفئدة".

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت ﴾ ميّت وميْت واحد، وكذا ميّتة وميْتة؛ هذا قول الحذاق من النحويين. وقال محمد بن يزيد: هذا قول البصريين، ولم يستثن أحداً، واستدل على ذلك بدلائل قاطعة. وأنشد:

ليس من مات فاستراح بميْت ... إنما الميْت ميّت الأحياء

إنما الميْت من يعيش كئيباً ... كاسفاً باله قليل الرجاء

قال: فهل ترى بين ميّت وميْت فرقاً، وأنشد:

هينون لينون أيسار بنو يَسَر ... سواس مكرمة أبناء أيسار

قال: فقد أجمعوا على أن هينون ولينون واحد، وكذا ميّت وميْت، وسيّد وسيْد. قال: "فسقناه" بعد أن قال: "والله الذي أرسل الرياح" وهو من باب تلوين الخطاب. وقال أبو عبيدة: سبيله "فتسوقه"، لأنه قال: "فتثير سحاباً". الزمخشري: فإن قلت: لم جاء "فتثير" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدوة الربانية؛ وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب، أو تهم المخاطب أو غير ذلك؛ كما قال تأبط شرًّا:

بأني قد لقيت الغول تهوي ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعاً لليدين وللجران

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إيا ما، ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب. من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: "فسقنا" و"أحيينا" معدولاً بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه. وقراءة العامة "الرياح". وقرأ ابن محيصن وابن كثير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي "الريح" توحيداً. وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى. ﴿كذلك النشور﴾ أي كذلك تحيون بعدما متم؛ من نشر الإنسان نشوراً. فالكاف في محل الرفع؛ أي مثل إحياء الموت نشر الأموات. وعن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: "أما مررت بوادي أهلك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً" قلت: نعم يا رسول الله. قال "فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه"[1] وقد ذكرنا هذا الخبر في "الأعراف" وغيرها.

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾ التقدير عند الفراء: من كان يريد علم العزة. وكذا قال غيره من أهل العلم. أي من كان يريد علم العزة التي لا ذلة معها؛ لأن العزة إذا كانت تؤدي إلى ذلة فإنما هي تعرض للذلة، والعزة التي لا ذل معها لله عز وجل. ﴿جميعاً﴾ منصوب على الحال. وقدر الزجاج معناه: من كان يريد بعبادته الله عز وجل العزة ـ والعزة له سبحانه ـ فإن الله عز وجل يعزه في الآخرة والدنيا.

قلت: وهذا أحسن، وروي مرفوعاً على ما يأتي. ﴿فلله العزة جميعا﴾ ظاهر هذا إيئاس السامعين من عزته، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به سبحانه وبما وجب له من ذلك، وهو المفهوم من قوله الحق في سورة يونس: ﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله ﴾ (يونس: ٦٥). ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تستحق؛ فتكون الألف واللام للاستغراق، وهو المفهوم من آيات هذه السورة. فمن طلب العزة من الله وصدقه في طلبها بافتقار وذل، وسكون وخضوع، وجدها عنده إن شاء الله غير ممنوعة ولا محجوبة عنه؛ قال ﷺ: "من تواضع لله رفعه الله"[1]. ومن طلبها من غيره وكَلَه إلى من طلبها عنده. وقد ذكر قوماً طلبوا العزة عند من سواه فقال: ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ﴾ (النساء: ١٣٩). فأنبأك صريحاً لا إشكال فيه أن العزة له يعز بها من يشاء ويذل من يشاء. وقال ﷺ مفسراً لقوله ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا﴾: "من أراد عز الدارين فليطع العزيز". وهذا معنى قول الزجاج. ولقد أحسن من قال:

وإذا تذللت الرقاب تواضعاً منا إليك فعزها في ذلها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة ولله العزة فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به؛ فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه الله.

قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴿١٠﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ وتم الكلام. ثم تبتدئ ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ على معنى: يرفعه الله، أو يرفع صاحبه. ويجوز أن يكون المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فيكون الكلام متصلاً على ما يأتي بيانه. والصعود هو الحركة إلى فوق، وهو العروج أيضاً. ولا يتصور ذلك في الكلام لأنه عرض، لكن ضرب صعوده مثلاً لقبوله؛ لأن موضع الثواب فوق، وموضع العذاب أسفل. وقال الزجاج: يقال ارتفع الأمر إلى القاضي أي علمه؛ فهو بمعنى العلم. وخص الكلام والطيب بالذكر لبيان الثواب عليه. وقوله "إليه" أي إلى الله يصعد. وقيل: يصعد إلى

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم. وقيل: أي يحمل الكتاب الذي كتب فيه طاعات العبد إلى السماء. و"الكلم الطيب" هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة. وقيل: هو التحميد والتمجيد، وذكر الله ونحوه. وأنشدوا:

لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يزين ما يقول فعال
فإذا وزنت فعاله بمقاله فتوازنا فإخاء ذاك جمال

وقال ابن المقفع: قول بلا عمل، كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر. وفيه قيل:

لا يكون المقال إلا بفعل كل قول بلا فعال هباء
إن قولاً بلا فعالٍ جميل ونكاحاً بلا وليٍّ سواء

وقرأ الضحاك "يُصعد" بضم الياء. وقرأ جمهور الناس "الكلم" جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن "الكلام".

قلت: فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكلم وبالعكس؛ وعليه يخرج قول أبي القاسم: أقسام الكلام ثلاثة؛ فوضع الكلام موضع الكلم، والله أعلم. ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب. وفي الحديث "لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا يقبل قولاً وعملاً إلا بنية، ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة"[1]. قال ابن عباس: فإذا ذكر العبدُ اللهَ وقال كلاماً طيباً وأدى فرائضه، ارتفع قوله مع عمله وإذا قال ولم يؤد فرائضه ردّ قوله على عمله. قال ابن عطية: وهذا قول يرده معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس. والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوب له متقبل منه، وله حسناته وعليه سيئاته، والله تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك. وأيضاً فإن الكلام الطيب عمل صالح، وإنما يستقيم قول من يقول: إن العمل هو الرافع للكلم، بأن يتأول أنه يزيده في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه. كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك، إذا تخلل أعماله كَلِمٌ طيب وذكر الله تعالى كانت الأعمال أشرف؛ فيكون قوله: "والعمل الصالح يرفعه" موعظة وتذكِرة وحضًّا على الأعمال. وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها؛ كالتوحيد والتسبيح فمقبولة. قال ابن العربي: "إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه. وتحقيق هذا: أن العمل إذا وقع شرطاً في قبول القول أو مرتبطاً، فإنه لا قبول له إلا به وإن لم يكن شرطاً فيه فإن كَلِمه الطيب يكتب له، وعمله السيء يكتب عليه، وتقع الموازنة بينهما، ثم يحكم الله بالفوز والربح والخسران".

قلت: ما قاله ابن العربي تحقيق. والظاهر أن العمل الصالح شرط في قبول القول الطيب. وقد جاء في الآثار (أن العبد إذا قال: لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة إلى عمله، فإن كان العمل موافقاً لقوله صعدا جميعاً، وإن كان عمله مخالفاً وقف قوله حتى يتوب من عمله). فعلى هذا العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله. والكناية في "يرفعه" ترجع إلى الكلم الطيب. وهذا قول

---

(١) انظر تذكرة الموضوعات (٩٩٦).

ابن عباس وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبي العالية والضحاك. وعلى أن "الكلم الطيب" هو التوحيد، فهو الرافع للعمل الصالح؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد. أي والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب؛ فالكناية تعود على العمل الصالح. وروي هذا القول عن شهر بن حوشب قال: "الكلم الطيب" القرآن "والعمل الصالح يرفعه" القرآن. وقيل: تعود على الله جل وعز؛ أي أن العمل الصالح يرفعه الله على الكلم الطيب؛ لأن العمل تحقيق الكلم، والعامل أكثر تعباً من القائل، وهذا هو حقيقة الكلام؛ لأن الله هو الرافع الخافض. والثاني والأول مجاز، ولكنه سائغ جائز. قال النحاس: القول الأول أولاها وأصحها لعلو من قال به، وأنه في العربية أولى؛ لأن القراء على رفع العمل. ولو كان المعنى: والعمل الصالح يرفعه الله، أو العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب، لكان الاختيار نصْب العمل. ولا نعلم أحداً قرأه منصوباً إلا شيئاً روي عن عيسى بن عمر أنه قال: قرأه أناس "والعمل الصالح يرفعه الله". وقيل: والعمل الصالح يرفع صاحبه، وهو الذي أراد العزة وعلم أنها تطلب من الله تعالى؛ ذكره القشيري.

الثانية : ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة، فقرأ هذه الآية: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾. وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف في القول بالعموم، وقد دخل في الصلاة بشروطها، فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يوجب ذلك؛ من مثل ما انعقدت به من قرآن أو سنة أو إجماع. وقد تعلق من رأى ذلك بقوله ﷺ: "يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود" فقلت: ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر؟ فقال: "إن الأسود شيطان"[1] خرَّجه مسلم. وقد جاء ما يعارض هذا، وهو ما خرَّجه البخاري عن ابن أخي ابن شهاب أنه سأل عمه عن الصلاة يقطعها شيء؟ فقال: لا يقطعها شيء، أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لقد كان رسول الله ﷺ يقوم فيصلي من الليل، وإني لمعترضة بينه وبين القبلة على فراش أهله[2].

قوله تعالى: ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ ذكر الطبري في (كتاب آداب النفوس): حدثني يونس ابن عبد الأعلى قال حدثنا سفيان عن ليث بن أبي سليم عن شهر بن حوشب الأشعري في قوله عز وجل: ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ قال: هم أصحاب الرياء؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقال أبو العالية: هم الذين مكروا بالنبي ﷺ لما اجتمعوا في دار الندوة. وقال الكلبي: يعني الذين يعملون السيئات في الدنيا. مقاتل: يعني الشرك، فتكون "السيئات" مفعولة. ويقال: بار يبور إذا هلك وبطل. وبارت السوق أي كسدت، ومنه: نعوذ بالله من بوار الأيم. وقوله: ﴿ وكنتم قوماً بورا ﴾ (الفتح: ١٢) أي هلكى. والمكر: ما عمل على سبيل احتيال وخديعة. وقد مضى في "سبأ".

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٥١٠).
(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٥١١).

قولـه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

قولـه تعالى: ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ قال سعيد عن قتادة قال: يعني آدم عليه السلام، والتقدير على هذا: خلق أصلكم من تراب. ﴿ثم من نطفة﴾ قال: أي التي أخرجها من ظهور آبائكم. ﴿ثم جعلكم أزواجا﴾ قال: أي زوّج بعضكم بعضاً، فالذكر زوج الأنثى ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضاء مدتها. ﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي جعلكم أزواجاً فيتزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به، فلا يخرج شيء عن تدبيره. ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ سماه معمراً بما هو صائر إليه. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: "وما يعمر من معمر" إلا كتب عمره، كم هو سنة كم هو شهراً كم هو يوماً كم هو ساعة ثم يكتب في كتاب آخر: نقص من عمره يوم، نقص شهر، نقص سنة، حتى يستوفي أجلـه. وقاله سعيد ابن جبير أيضاً، قال: فما مضى من أجلـه فهو النقصان، وما يستقبل فهو الذي يعمره؛ فالـهاء على هذا للمعمر. وعن سعيد أيضاً: يكتب عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي على آخره. وعن قتادة: المعمر من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة. ويذهب الفراء في معنى "وما يعمر من معمر" أي ما يكون من عمره "ولا ينقص من عمره" بمعنى آخر، أي ولا ينقص الآخر من عمره إلا في كتاب. فالكناية في "عمره" ترجع إلى آخر غير الأول. وكنى عنه بالـهاء كأنه الأول، ومثلـه قولك: عندي درهم ونصفه، أي نصف آخر. وقيل: إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع، وتسعين إن عصى، فأيهما بلغ فهو في كتاب. وهذا مثل قولـه عليه الصلاة والسلام: "من أحب أن يبسط لـه في رزقه وينسأ لـه في أثره فليصلْ رحمه"[1] أي أنه يكتب في اللوح المحفوظ: عمر فلان كذا سنة، فإن وصل رحمه زيد في عمره كذا سنة. فبين ذلك في موضع آخر من اللوح المحفوظ، إنه سيصل رحمه فمن اطلع على الأول دون الثاني ظن أنه زيادة أو نقصان وقد مضى هذا المعنى عند قولـه تعالى: ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ (الرعد: ٣٩) والكناية على هذا ترجع إلى العمر. وقيل: المعنى وما يعمر من معمر أي هرم، ولا ينقص آخر من عمر الـهرم إلا في كتاب؛ أي بقضاء من الله جل وعز. روي معناه عن الضحاك واختاره النحاس، قال: وهو أشبهها بظاهر التنزيل. وروي نحوه عن ابن عباس. فالـهاء على هذا يجوز أن تكون للمعمر، ويجوز أن تكون لغير المعمر.

قولـه تعالى: ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه. وقراءة العامة "ينقص" بضم الياء وفتح القاف. وقرأت فرقة منهم يعقوب "ينقص" بفتح الياء وضم القاف، أي لا ينقص من عمره شيء. يقال، نقص الشيء بنفسه ونقصه غيره، وزاد بنفسه وزاده غيره، متعد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٧).

ولازم. وقرأ الأعرج والزهري "من عمْره" بتخفيف الميم وضمها الباقون. وهما لغتان مثل السحْق والسحُق. و"يسير" أي إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه شيء منها ولا يعزب. والفضل منه: يَسُر ولو سميت به إنساناً انصرف؛ لأنه فعيل.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات ﴾ قال ابن عباس: "فرات" حلو، و"أجاج" مر. وقرأ طلحة: "هذا مَلح أجاج" بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف. وأما المالح فهو الذي يجعل فيه الملح. وقرأ عيسى وابن أبي إسحاق "سيغ شرابه" مثل سيد وميت. ﴿ومن كل تأكلون لحماً طريا﴾ لا اختلاف في أنه منهما جميعاً. وقد مضى في "النحل" الكلام فيه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ مذهب أبي إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح، فقيل منهما لأنهما مختلطان. وقال غيره: إنما تستخرج الأصداف التي فيها الحلية من الدر وغيره من المواضع التي فيها العذب والملح نحو العيون، فهو مأخوذ منهما؛ لأن في البحر عيوناً عذبة، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج. وقيل: من مطر السماء. وقال محمد بن يزيد قولاً رابعاً، قال: إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة. النحاس: وهذا أحسنها وليس هذا عنده، لأنهما مختلطان، ولكن جمعا ثم أخبر عن أحدهما كما قال جل وعز: ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ (القصص: ٧٣). وكما تقول: لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيراً وشراً. وكما تقول: لو رأيت الأعمش وسيبويه لملأت يدك لغة ونحواً. فقد عرف معنى هذا، وهو كلام فصيح كثير، فكذا: ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ فاجتمعا في الأول وانفرد الملح بالثاني.

الثالثة: وفي قوله: ﴿ تلبسونها ﴾، دليل على أن لباس كل شيء بحسبه؛ فالخاتم يجعل في الإصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرجل. وفي البخاري والنسائي عن ابن سيرين قال قلت لعبيدة: افتراش الحرير كلبسه؟ قال: نعم[1]. وفي الصحاح عن أنس "فقمت على حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس"[2]. الحديث.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ قال النحاس: أي ماء الملح خاصة، ولولا ذلك لقال فيهما. وقد مخرت السفينة تمخر إذا شقت الماء. وقد مضى هذا في "النحل". ﴿لتبتغوا من فضله﴾ قال مجاهد: التجارة في الفلك إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة؛ كما تقدم في "البقرة". وقيل: ما يستخرج من حليته ويصاد من حيتانه. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ على ما آتاكم من فضله. وقيل: على ما أنجاكم من هوله.

---

(١) ذكره البخاري في اللباس (باب: ٢٧) معلقاً، وقال الحافظ في (١٠/ ٢٩٢) وصله الحارث بن أبي أسامة من طريق محمد بن سيرين.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٨٠) وفي مواضع كثيرة.

قوله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ تقدم. ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ تقدم في "لقمان" بيانه. ﴿ذلكم الله ربكم له الملك﴾ أي هذا الذي من صنعه ما تقرر هو الخالق المدبر، والقادر المقتدر؛ فهو الذي يعبد. ﴿والذين تدعون من دونه﴾ يعني الأصنام. ﴿ما يملكون من قطمير﴾ أي لا يقدرون عليه ولا على خلقه. والقطمير القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسرين. وقال ابن عباس: هو شَقّ النواة؛ وهو اختيار المبرد، وقاله قتادة. وعن قتادة أيضاً: القطمير القِمْع الذي على رأس النواة. الجوهري: ويقال: هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة، تنبت منها النخلة.

قوله تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ أي إن تستغيثوا بهم في النوائب لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع. ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ إذ ليس كل سامع ناطقاً. وقال قتادة: المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم. وقيل: أي لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولما استجابوا لكم على الكفر. ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرأون منكم. ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وأنهم أمروكم بعبادتهم؛ كما أخبر عن عيسى بقوله: ﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ (المائدة: ١١٦) ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً، أي يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلاً للعبادة. ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ هو الله جل وعز؛ أي لا أحد أخبر بخلق الله من الله، فلا ينبئك مثله في عمله.

قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ أي المحتاجون إليه في بقائكم وكل أحوالكم. الزمخشري: "فإن قلت: لم عرّف الفقراء؟ قلت: قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله: ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ (النساء: ٢٨)، وقال: ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ﴾ (الروم: ٥٤) ولو نكّر لكان المعنى: أنتم بعض الفقراء. فإن قلت: قد قوبل "الفقراء" بـ "الغني" فما فائدة "الحميد"؟

قلت: لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم، وليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد. ذكر "الحميد" ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه، الجواد المنعم عليهم، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه. وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند الخليل، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما وتحقيقهما جميعاً. ﴿والله هو الغني الحميد﴾ تكون "هو" زائدة، فيكون لها موضع من الإعراب، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعاً.

قوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ فيه حذف؛ المعنى إن يشأ أن يذهبكم يذهبكم؛ أي يفنيكم. ﴿ويأت بخلق جديد﴾ أي أطوع منكم وأزكى. ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي ممتنع عسير متعذر. وقد مضى هذا في (إبراهيم).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ تقدم الكلام فيه، وهو مقطوع مما قبله. والأصل "توزر" حذفت الواو اتباعاً ليزر. "وازرة" نعت لمحذوف، أي نفس وازرة. وكذا ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها﴾ قال الفراء: أي نفس مثقلة أو دابة. قال: وهذا يقع للمذكر والمؤنث. قال الأخفش: أي وإن تدع مثقلة إنساناً إلى حملها وهو ذنوبها. والحِمْل ما كان على الظهر، والحَمْل حمل المرأة وحمل النخلة؛ حكاهما الكسائي بالفتح لا غير. وحكى ابن السكيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر. ﴿لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ التقدير على قول الأخفش: ولو كان الإنسان المدعو ذا قربى. وأجاز الفراء ولو كان ذو قربى. وهذا جائز عند سيبويه، ومثله ﴿وإن كان ذو عسرة﴾ (البقرة: ٢٨٠) فتكون "كان" بمعنى وقع، أو يكون الخبر محذوفاً؛ أي وإن كان فيمن تطالبون ذو عسرة. وحكى سيبويه: الناس مجزيون بأعمالهم إن خير فخير؛ على هذا. وخيراً فخير؛ على الأول. وروي عن عكرمة أنه قال: بلغني أن اليهودي والنصراني يرى الرجل المسلم يوم القيامة فيقول له: ألم أكن قد أسديت إليك يداً، ألم أكن قد أحسنت إليك؟ فيقول بلى. فيقول: انفعني؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه. وأن الرجل ليأتي إلى أبيه يوم القيامة فيقول: ألم أكن بك باراً، وعليك مشفقاً، وإليك محسناً، وأنت ترى ما أنا فيه، فهب لي حسنة من حسناتك، أو احمل عني سيئة؛ فيقول: إن الذي سألتني يسير؛ ولكني أخاف مثل ما تخاف. وأن الأب ليقول لابنه مثل ذلك فيرد عليه نحواً من هذا. وأن الرجل ليقول لزوجته: ألم أكن أحسن العشرة لك، فاحملي عني خطيئة لعلي أنجو؛ فتقول: إن ذلك ليسير ولكني أخاف مما تخاف منه. ثم تلا عكرمة: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ وقال الفضيل بن عياض: هي المرأة تلقى ولدها فتقول:

يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاء، ألم يكن ثديي لك سقاء، ألم يكن حجري لك وطاء؛ فيقول: بلى يا أماه؛ فتقول: يا بني، قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً؛ فيقول: إليك عني يا أماه، فإني بذنبي عنك مشغول.

قوله تعالى: ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ أي إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾ (يس: ١١). "ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه" أي من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه. وقرئ: "ومن ازَّكَّى فإنما يزَّكَّى لنفسه". "وإلى الله المصير" أي إليه مرجع جميع الخلق.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي الكافر والمؤمن والجاهل والعالم. مثل: ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ﴾ (المائدة: ١٠٠). ﴿ ولا الظلمات ولا النور ﴾ قال الأخفش سعيد: "لا" زائدة؛ والمعنى ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور. قال الأخفش: والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسموم يكون بالليل، أو قيل بالعكس. وقال رؤبة بن العجاج: الحرور تكون بالنهار خاصة، والسموم يكون بالليل خاصة، حكاه المهدوي. وقال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما. النحاس: وهذا أصح؛ لأن الحرور فعول من الحر، وفيه معنى التكثير، أي الحر المؤذي.

قلت: وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: "قالت النار رب أكل بعضي بعضاً فأذن لي أتنفس فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فما وجدتم من برد أو زمهرير فمن نفس جهنم وما وجدتم من حر أو حرور فمن نفس جهنم"[1]. وروي من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة: "فما تجدون من الحر فمن سمومها وشدة ما تجدون من البرد فمن زمهريرها" وهذا يجمع تلك الأقوال، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار؛ فتأمله. وقيل: المراد بالظل والحرور الجنة والنار؛ فالجنة ذات ظل دائم، كما قال تعالى: ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ (الرعد: ٣٥) والنار ذات حرور، وقال معناه السدّي. وقال ابن عباس: أي ظل الليل، وحر السموم بالنهار. قطرب: الحرور الحر، والظل البرد.

قوله تعالى: ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ قال ابن قتيبة: الأحياء العقلاء، والأموات الجهال. قال قتادة: هذه كلها أمثال؛ أي كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ أي يسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته. ﴿ وما أنت بمسمع من في

---

(١) أخرجه مسلم (٦١٧)، وهو أيضًا في البخاري.

القبور﴾ أي الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم؛ أي كما لا تُسمع من مات، كذلك لا تُسمع من مات قلبه. وقرأ الحسن وعيسى الثقفي وعمرو بن ميمون: "بمسمع من في القبور" بحذف التنوين تخفيفاً؛ أي هم بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

أي رسول منذر؛ فليس عليك إلا التبليغ، ليس لك من الهدي شيء إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً بالجنة أهل طاعته، ونذيراً بالنار أهل معصيته. ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أي سلف فيها نبي. قال ابن جريج: إلا العرب.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن يكذبوك ﴾ يعني كفار قريش. ﴿فقد كذب الذين من قبلهم﴾ أنبياءهم، يسلّي رسوله ﷺ. ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات. ﴿وبالزبر﴾ أي الكتب المكتوبة. ﴿وبالكتاب المنير﴾ أي الواضح. وكرر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين. وقيل: يرجع البينات والزبر والكتاب إلى معنى واحد، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب. ﴿ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾ أي كيف كانت عقوبتي لهم. وأثبت ورش عن نافع وشيبة الياء في "نكيري" حيث وقعت في الوصل دون الوقف. وأثبتها يعقوب في الحالين، وحذفها الباقون في الحالين. وقد مضى هذا كله، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ هذه الرؤية رؤية القلب والعلم؛ أي ألم ينته علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل؛ فـ "أنّ" واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي الرؤية. ﴿فأخرجنا به ثمرات﴾ هو من باب تلوين الخطاب. ﴿مختلفا ألوانها﴾ نصبت "مختلفا" نعتاً لـ "ثمرات". "ألوانها" رفع بمختلف، وصلح أن يكون نعتاً لـ "ثمرات" لما دعا عليه من ذكره. ويجوز في غير القرآن رفعه؛ ومثله رأيت رجلاً خارجاً أبوه. ﴿به﴾ أي بالماء وهو واحد،

والثمرات مختلفة. ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها﴾ الجدد جمع جدة، وهي الطرائق المختلفة الألوان، وإن كان الجميع حجراً أو تراباً. قال الأخفش: ولو كان جمع جديد لقال: جدد (بضم الجيم والدال) نحو سرير وسرر. وقال زهير:

كأنه أسفع الخدين ذو جدد طاو ويرتع بعد الصيف عريانا

وقيل: إن الجدد القطع، مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته؛ حكاه ابن بحر قال الجوهري: والجدة الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه. والجدة الطريقة، والجمع جدد؛ قال تعالى: "ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها" أي طرائق تخالف لون الجبل. ومنه قولهم: ركب فلان جدة من الأمر؛ إذا رأى فيه رأياً. وكساء مجدد: فيه خطوط مختلفة. الزمخشري: وقرأ الزهري "جدد" بالضم جمع جديدة، هي الجدة؛ يقال: جديدة وجدد وجدائد كسفينة وسفن وسفائن. وقد فسّر بها قول أبي ذؤيب:

جون السراة له جدائد أربع

وروي عنه "جدد" بفتحتين، وهو الطريق الواضح المسفر، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض. ﴿ومن الناس والدواب﴾ وقرئ: "والدواب" مخففاً. ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ: "ولا الضألين" لأن كل واحد منهما فر من التقاء الساكنين، فحرك ذلك أولهما، وحذف هذا آخرهما؛ قاله الزمخشري. ﴿والأنعام مختلف ألوانه﴾ أي فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك، وكل ذلك دليل على صانع مختار. وقال: "مختلف ألوانه" فذكّر الضمير مراعاة لـ "من"؛ قاله المؤرِّج. وقال أبو بكر بن عياش: إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى "ما" مضمرة؛ مجازه: ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه، أي أبيض وأحمر وأسود. ﴿وغرابيب سود﴾ قال أبو عبيدة: الغربيب الشديد السواد؛ ففي الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: ومن الجبال سود غرابيب. والعرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب: أسود غربيب. قال الجوهري: وتقول هذا أسود غربيب؛ أي شديد السواد. وإذا قلت: غرابيب سود، تجعل السود بدلاً من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم. وفي الحديث عن النبي ﷺ: "إن الله يبغض الشيخ الغربيب"[1] يعني الذي يخضب بالسواد. قال امرؤ القيس:

العين طامحة واليد سابحة والرِّجل لافحة والوجه غربيب

وقال آخر يصف كرماً:

ومن تعاجيب خلق الله غاطية يعصر منها ملاحي وغربيب

قوله تعالى: ﴿ كذلك ﴾ هنا تمام الكلام؛ أي كذلك تختلف أحوال العباد في الخشية، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ يعني بالعلماء الذين يخافون قدرته؛ فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس "إنما يخشى الله من عباده العلماء" قال: الذين علموا أن الله على كل شيء قدير. وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم. وقال

---

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (١٦٨٨).

مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل. وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علماً وبالاغترار جهلاً. وقيل لسعد بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أتقاهم لربه عز وجل. وعن مجاهد قال: إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل. وعن علي ﷺ قال: إن الفقيه حق الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره؛ إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها. وأسند الدارمي أبو محمد عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: "إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ـ ثم تلا هذه الآية ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ إن الله وملائكته وأهل سمواته وأهل أرضيه والنونَ في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير" الخبر مرسل(١). قال الدارمي: وحدثني أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثني عمي جرير بن زيد أنه سمع تُبيعاً يحدث عن كعب قال: إني لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل، ويتفقهون لغير العبادة، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبسون جلود الضأن، قلوبهم أمرّ من الصبر؛ فبي يغترون، وإياي يخادعون، فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران. خرّجه الترمذي مرفوعاً من حديث أبي الدرداء(٢) وقد كتبناه في مقدمة الكتاب. الزمخشري: فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ "إنما يخشى اللهُ" بالرفع "من عباده العلماءَ" بالنصب، وهو عمر بن عبد العزيز. وتحكى عن أبي حنيفة. قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس من بين جميع عباده. ﴿إن الله عزيز غفور﴾ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم. والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل، وكذا في الإنفاق. وقد مضى في مقدمة الكتاب ما ينبغي أن يتخلق به قارئ القرآن. ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ قال أحمد بن يحيى: خبر "إن" "يرجون". ﴿ويزيدهم من فضله﴾ قيل: الزيادة الشفاعة في الآخرة. وهذا مثل الآية الأخرى: ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ إلى قوله﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ (النور: ٣٧ ـ ٣٨)، وقوله في آخر النساء: ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ (النساء: ١٧٣) وهناك بيناه. ﴿إنه غفور﴾ للذنوب. ﴿شكور﴾ يقبل القليل من العمل الخالص، ويثيب عليه الجزيل من الثواب.

---

(١) "صحيح" بنحوه في صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٢) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ يعني القرآن. ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾.

قولـه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: هذه الآية مشكلة؛ لأنه قال جل وعز: ﴿ اصطفينا من عبادنا ﴾ ثم قال: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. قال النحاس: فإن أصح ما روي في ذلك ما روي عن ابن عباس "فمنهم ظالم لنفسه" قال: الكافر؛ رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضاً. وعن ابن عباس أيضاً ﴿فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات﴾ قال: نجت فرقتان، ويكون التقدير في العربية: فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه؛ أي كافر. وقال الحسن: أي فاسق. ويكون الضمير الذي في "يدخلونها" يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم. وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفراء أن المقتصد المؤمن العاصي، والسابق التقي على الإطلاق. قالوا: وهذه الآية نظير قولـه تعالى في سورة الواقعة ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ (الواقعة: ٧) الآية. قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفي ظالم. ورواه مجاهد عن ابن عباس. قال مجاهد: "فمنهم ظالم لنفسه" أصحاب المشأمة، "ومنهم مقتصد" أصحاب الميمنة، "ومنهم سابق بالخيرات" السابقون من الناس كلـهم. وقيل: الضمير في "يدخلونها" يعود على الثلاثة الأصناف، على ألا يكون الظالم ها هنا كافراً ولا فاسقاً. وممن روي عنه هذا القول عمر وعثمان وأبو الدرداء، وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة، والتقدير على هذا القول: أن يكون الظالم لنفسه الذي عمل الصغائر. و"المقتصد" قال محمد بن يزيد: هو الذي يعطي الدنيا حقها والآخرة حقها؛ فيكون ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ عائداً على الجميع على هذا الشرح والتبيين؛ وروي عن أبي سعيد الخدري. وقال كعب الأحبار: استوت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالـهم. وقال أبو إسحاق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلـهم ناج. وروى أسامة بن زيد أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال:

"كلهم في الجنة"[١]. وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: "سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له"[٢]. فعلى هذا القول يقدر مفعول الاصطفاء من قوله: ﴿ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ مضافاً حذف كما حذف المضاف في ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف: ٨٢) أي اصطفينا دينهم فبقي اصطفيناهم؛ فحذف العائد إلى الموصول كما حذف في قوله: ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ (هود: ٣١) أي تزدريهم، فالاصطفاء إذاً موجه إلى دينهم، كما قال تعالى: ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ (البقرة: ١٣٢). قال النحاس: وقول ثالث: يكون الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته؛ فيكون: "جنات عدن يدخلونها" للذين سبقوا بالخيرات لا غير. وهذا قول جماعة من أهل النظر؛ لأن الضمير في حقيقة النظر بما يليه أولى.

قلت: القول الوسط أولاها وأصحها إن شاء الله؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطفَوا بحمد الله، ولا اصطفى دينهم. وهذا قول ستة من الصحابة، وحسبك. وسنزيده بياناً وإيضاحاً في باقي الآية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب ﴾ أي أعطينا. والميراث، عطاء حقيقة أو مجازاً؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر. و"الكتاب" ها هنا يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد ﷺ القرآن، وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة، فكأنه ورث أمة محمد ﷺ الكتاب الذي كان في الأمم قبلنا. ﴿اصطفينا﴾ أي اخترنا. واشتقاقه من الصفو، وهو الخلوص من شوائب الكدر. وأصله اصتفونا، فأبدلت التاء طاء والواو ياء. ﴿من عبادنا﴾ قيل المراد أمة محمد ﷺ، قاله ابن عباس وغيره. وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد ﷺ، والأول لم يرثوه. وقيل: المصطفون الأنبياء، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر، قال الله تعالى: ﴿ وورث سليمان داود ﴾ (النمل: ١٦)، وقال: ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ (مريم: ٦) فإذا جاز أن تكون النبوة موروثة فكذلك الكتاب. ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ من وقع في صغيرة. قال ابن عطية: وهذا قول مردود من غير ما وجه. قال الضحاك: معنى "فمنهم ظالم لنفسه" أي من ذريتهم ظالم لنفسه وهو المشرك. الحسن: من أممهم، على ما تقدم ذكره من الخلاف في الظالم. والآية في أمة محمد ﷺ وقد اختلفت عبارات أرباب القلوب في الظالم والمقتصد والسابق، فقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المعلم، والظالم الجاهل. وقال ذو النون المصري: الظالم الذاكر الله بلسانه فقط، والمقتصد الذاكر بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال. وقال ابن عطاء: الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحبه من أجل العقبى، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق. وقيل: الظالم الذي يعبد الله خوفاً من

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٣/ ٥٥٥) بأتم منه، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي إسناده من لم يسمّ".

(٢) ضعيف.

النار، والمقتصد الذي يعبد الله طمعاً في الجنة، والسابق الذي يعبد الله لوجهه لا لسبب. وقيل: الظالم الزاهد في الدنيا، لأنه ظلم نفسه فترك لـها حظاً وهي المعرفة والمحبة، والمقتصد العارف، والسابق المحب. وقيل: الظالم الذي يجزع عند البلاء، والمقتصد الصابر على البلاء، والسابق المتلذذ بالبلاء. وقيل: الظالم الذي يعبد الله على الغفلة والعادة، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق الذي يعبده على الـهيبة. وقيل: الظالم الذي أعطي فمنع، والمقتصد الذي أعطي فبذل، والسابق الذي مُنع فشكر وآثر.

يروى أن عابدين التقيا فقال: كيف حال إخوانكم بالبصرة؟ قال: بخير، إن أُعطوا شكروا وإن مُنعوا صبروا. فقال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ! عُبادنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا. وقيل: الظالم من استغنى بماله، والمقتصد من استغنى بدينه، والسابق من استغنى بربه. وقيل: الظالم التالي للقرآن ولا يعمل به، والمقتصد التالي للقرآن ويعمل به، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به. وقيل: السابق الذي يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن، والمقتصد الذي يدخل المسجد وقد أذن، والظالم الذي يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصل لـها ما حصّلـه غيره. وقال بعض أهل العلم في هذا: بل السابق الذي يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين، والمقتصد الذي إن فاتته الجماعة لم يفرط في الوقت، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة، فهو أولى بالظلم. وقيل: الظالم الذي يحب نفسه، والمقتصد الذي يحب دينه، والسابق الذي يحب ربه. وقيل: الظالم الذي ينتصف ولا ينصف، والمقتصد الذي ينتصف وينصف، والسابق الذي ينصف ولا ينتصف. وقالت عائشة رضي الله عنها: السابق الذي أسلم قبل الـهجرة، والمقتصد من أسلم بعد الـهجرة، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف؛ وهم كلـهم مغفور لـهم.

قلت: ذكر هذه الأقوال وزيادة عليها الثعلبي في تفسيره. وبالجملة فهم طرفان وواسطة، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل؛ ومنه قول جابر بن حُنَي التغلبي:

نعاطي الملوك السِّلم ما قصدوا لنا ... وليس علينا قتلـهم بمحرم

أي نعاطيهم الصلح ما ركبوا بنا القصد، أي ما لم يجوروا، وليس قتلـهم بمحرم علينا إن جاروا؛ فلذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات. ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ يعني إتياننا الكتاب لـهم. وقيل: ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير. وقيل: وعد الجنة لـهؤلاء الثلاثة فضل كبير.

الثالثة: وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق فقيل: التقدير في الذكر لا يقتضي تشريفاً؛ كقولـه تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ (الحشر: ٢٠). وقيل: قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقين أقل من القليل؛ ذكره الزمخشري ولم يذكره غيره وقيل: قدم الظالم لتأكيد الرجاء في حقه، إذ ليس لـه شيء يتكل عليه إلا رحمة ربه. واتكل المقتصد على حسن ظنه، والسابق على طاعته. وقيل: قدم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله، وأخر السابق لئلا يعجب بعملـه. وقال جعفر بن محمد بن علي الصادق ﷺ: قدم الظالم

ليخبر أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثَمَّ عناية، ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص: "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وقال محمد بن علي الترمذي: جمعهم في الاصطفاء إزالة للعلل عن العطاء؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث، لا الإرث يوجب الاصطفاء، ولذلك قيل في الحكمة: صحح النسبة ثم ادّع في الميراث. وقيل: أخر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب، كما قدم الصوامع والبيع في "سورة الحج" على المساجد، لتكون الصوامع أقرب إلى الهدم والخراب، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله. وقيل: إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدموا الأدنى؛ كقوله تعالى: ﴿ لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ (الأعراف: ١٦٧)، وقوله: ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ (الشورى: ٤٩)، وقوله: ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ (الحشر: ٢٠).

قلت: ولقد أحسن من قال:

وغاية هـــذا الجود أنت وإنما يوافي إلى الغايات في آخر الأمر

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ جمعهم في الدخول لأنه ميراث، والعاق والبار في الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب؛ فالعاصي والمطيع مقرّون بالرب. وقرئ: "جنة عدن" على الإفراد، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقلتهم؛ على ما تقدم. و"جنات عدن" بالنصب على، إضمار فعل يفسره الظاهر؛ أي يدخلون جنات عدن يدخلونها. وهذا للجميع، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. وقرأ أبو عمرو "يُدخلونها" بضم الياء وفتح الخاء. قال: لقوله "يحلون". وقد تقدم فى (الحج) الكلام فى قوله تعالى: ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾. (الحج: ٢٣).

قوله تعالى: ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ قال أبو ثابت: دخل رجل المسجد فقال: اللهم ارحم غربتي وآنس وحدتي ويسر لي جليساً صالحاً. فقال أبو الدرداء: لئن كنت صادقاً فلأنا أسعد بذلك منك، سمعت النبي ﷺ يقول: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ قال: فيجيء هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ويوبخ ويقرع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ وفي لفظ آخر وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ إلى قوله ﴿ولا يمسنا فيها لغوب﴾.

وقيل: هو الذي يؤخذ منه في مقامه؛ يعني يكفر عنه بما يصيبه من الهم والحزن، ومنه قوله تعالى: ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ (النساء: ١٢٣) يعني في الدنيا. قال الثعلبي: وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ لأنه قال: "جنات عدن يدخلونها"، ولقوله: "الذين اصطفينا من عبادنا" والكافر والمنافق لم يصطفوا.

قلت: وهذا هو الصحيح، وقد قال ﷺ: "ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر"[1]. فأخبر أن المنافق يقرأه، وأخبر الحق سبحانه وتعالى أن المنافق في الدرك الأسفل من النار، وكثير من الكفار واليهود والنصارى يقرأونه في زماننا هذا. وقال مالك: قد يقر القرآن من لا خير فيه. والنَّصَب: التعب. واللغوب: الإعياء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقالتهم، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقالتهم. ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ مثل: ﴿لا يموت فيها ولا يحيا﴾ (الأعلى: ١٣). ﴿ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ مثل: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (النساء: ٥٦). ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي كافر بالله ورسوله. وقرأ الحسن "فيموتون" بالنون، ولا يكون للنفي حينئذ جواب، ويكون "فيموتون" عطفاً على "يُقْضَى" تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون؛ كقوله تعالى: ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ (المرسلات: ٣٦). قال الكسائي: "ولا يؤذن لهم فيعتذرون" بالنون في المصحف لأنه رأس آية "لا يقضى عليهم فيموتوا" لأنه ليس رأس آية. ويجوز في كل واحد منهما ما جاز في صاحبه. ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي يستغيثون في النار بالصوت العالي. والصراخ الصوت العالي، والصارخ المستغيث، والمصرخ المغيث. قال:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع   كان الصراخ له قرع الظنابيب

﴿ربنا أخرجنا﴾ أي يقولون ربنا أخرجنا من جهنم وردّنا إلى الدنيا. ﴿نعمل صالحا﴾ قال ابن عباس: أي نقل: لا إله إلا الله. ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ أي من الشرك، أي نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمتثل أمر الرسل. ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾ هذا جواب دعائهم؛ أي فيقال لهم، فالقول مضمر. وترجم البخاري: (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله عز وجل ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ يعني الشيب) حدثنا عبد السلام بن مطهر قال حدثنا عمر بن علي قال حدثنا معن بن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة"[2].
قال الخطابي: "أعذر إليه" أي بلغ به أقصى العذر، ومنه قولهم: قد أعذر من أنذر؛ أي أقام عذر

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٩)، ومسلم (٧٩٧).
(٢) أخرجه البخاري في "الرقائق"، (٦٤١٩).

نفسه في تقديم نذارته. والمعنى: أن من عمره الله ستين سنة لم يبق لـه عذر؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا، وهو سن الإنابة والخشوع وترقب المنية ولقاء الله تعالى؛ ففيه إعذار بعد إعذار، الأول بالنبي ﷺ، والموتـان فـي الأربعين والستين. قال علي وابن عباس وأبو هريرة في تأويل قولـه تعالى: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾: إنه ستون سنة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال في موعظته: "ولقد أبلغ في الإعذار من تقدم في الإنذار وإنه لينادي مناد من قبل الله تعالى أبناء الستين ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾"[(١)]. وذكر الترمذي الحكيم من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا كان يوم القيامة نودي أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر﴾"[(٢)]. وعن ابن عباس أيضاً أنه أربعون سنة. وعن الحسن البصري ومسروق مثلـه. ولـهذا القول أيضاً وجه، وهو صحيح؛ والحجة لـه قولـه تعالى: ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ (الأحقاف ١٥) الآية. ففي الأربعين تناهي العقل، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه، والله أعلم. وقال مالك: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت. وقد مضى هذا المعنى في سورة "الأعراف". وخرَّج ابن ماجة عـن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلـهم من تجاوز ذلك"[(٣)].

قولـه تعالى: ﴿ وجاءكم النذير ﴾ وقرئ "وجاءتكم النذر" واختلف فيه؛ فقيل القرآن. وقيل الرسول؛ قال زيد بن علي وابن زيد. وقال ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين بن الفضل والفراء والطبري: هو الشيب. وقيل: النذير الحمى. وقيل: موت الأهل والأقارب. وقيل: كمال العقل. والنذير بمعنى الإنذار.

قلت: فالشيب والحمى وموت الأهل كلـه إنذار بالموت؛ قال ﷺ: "الحمَّى رائد الموت"[(٤)]. قال الأزهري: معناه أن الحمى رسول الموت، أي كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه. والشيب نذير أيضاً؛ لأنه يأتي في سن الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذي هو سن اللهو واللعب. قال:

رأيت الشيب من نذر المنايا   لصاحبه وحسبك من نذير

وقال آخر:

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٩) من رواية ابن جرير بسنده عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس ، وقال: وكذا رواه ابن جرير عن علي بن شعيب عن إسماعيل بن أبي فديك به، وكذا رواه الطبري من طريق ابن أبي فديك به. وضعفه بإبراهيم بن الفضل وهو أحد رجال إسناده.

(٢) "ضعيف" أخرجه الحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي كما في ضعيف الجامع (٦٦٨).

(٣) "صحيح" انظر صحيح الجامع (١٠٧٣)، وراجع الصحيحة (٧٥٧).

(٤) "ضعيف" أخرجه ابن السنى وأبو نعيم في "الطب" عن أنس، وأخرجه أيضًا هناد بن السري في "الزهد" وابن أبي الدنيا في "المرض والكفارات" والبيهقي عن الحسن مرسلاً، كما في ضعيف الجامع (٢٧٩٧، ٢٧٩٨).

فقلت لها المشيب نذير عمري   ولست مسوداً وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل في كل وقت وأوان، وحين وزمان. قال:

وأراك تحملهم ولست تردهم   فكأنني بك قد حملت فلم ترد

وقال آخر:

الموت في كل حين ينشر الكفنا   ونحن في غفلة عما يراد بنا

وأما كمال العقل فبه تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات؛ فالعاقل يعمل لآخرته ويرغب فيما عند ربه؛ فهو نذير. وأما محمد ﷺ فبعثه الله بشيراً ونذيراً إلى عباده قطعاً لحججهم؛ قال الله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (النساء: ١٦٥) وقال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ (الإسراء: ١٥). ﴿فذوقوا﴾ يريد عذاب جهنم؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا اتعظتم. ﴿فما للظالمين من نصير﴾ أي مانع من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾

تقدم معناه في غير موضع. والمعنى: علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ (الأنعام: ٢٨). و﴿عالم﴾ إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضي والمستقبل، وإذا كان منوناً لم يجز أن يكون للماضي.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَـٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ قال قتادة: خلفاً بعد خلف، قرناً بعد قرن. والخلف هو التالي للمتقدم، ولذلك قيل لأبي بكر: يا خليفة الله؛ فقال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ، وأنا راض بذلك. ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾ أي جزاء كفره وهو العقاب والعذاب. ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا﴾ أي بغضاً وغضباً. ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا﴾ أي هلاكاً وضلالاً.

قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَـٰهُمۡ كِتَـٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون ﴾ "شركاءكم" منصوب بالرؤية، ولا يجوز رفعه، وقد يجوز الرفع عند سيبويه في قولهم: قد علمت زيداً أبو من هو؟ لأن زيداً في المعنى مستفهم عنه. ولو قلت: أرأيت زيداً أبو من هو؟ لم يجز الرفع. والفرق بينهما أن معنى هذا أخبرني عنه،

وكذا معنى هذا أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله، أعبدتموهم لأن لـهم شركة في خلق السموات، أم خلقوا من الأرض شيئاً ﴿أم آتيناهم كتابا﴾ أي أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة. وكان في هذا رد على من عبد غير الله عز وجل؛ لأنهم لا يجدون في كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يعبد غيره. ﴿فهم على بينة منه﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم "على بينة" بالتوحيد، وجمع الباقون. والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى؛ لأنه لا يخلو من قرأه "على بينة" من أن يكون خالف السواد الأعظم، أو يكون جاء به على لغة من قال: جاءني طلحت، فوقف بالتاء، وهذه لغة شاذة قليلة؛ قال النحاس. وقال أبو حاتم وأبو عبيد: الجمع أولى لموافقته الخط، لأنها في مصحف عثمان "بينات" بالألف والتاء. ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غرورا﴾ أي أباطيل تغر، وهو قول السادة للسفلة: إن هذه الآلـهة تنفعكم وتقربكم. وقيل: إن الشيطان يعد المشركين ذلك. وقيل: وعدهم بأنهم ينصرون عليهم.

قولـه تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ لما بيَّن أن آلـهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض بين أن خالقهما وممسكهما هو الله، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده، ولا يبقى إلا ببقائه. و"أن" في موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولا، أو لئلا تزولا، أو يحمل على المعنى؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا، فلا حاجة على هذا إلى إضمار، وهذا قول الزجاج. ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا﴾ قال الفراء: أي ولو زالتا ما أمسكهما من أحد. و"إن" بمعنى ما. قال: وهو مثل قولـه: ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون ﴾ (الروم: ٥١). وقيل: المراد زوالـهما يوم القيامة. وعن إبراهيم قال: دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأحبار يتعلم منه العلم، فلما رجع قال لـه ابن مسعود: ما الذي أصبت من كعب؟ قال سمعت كعباً يقول: إن السماء تدور على قطب مثل قطب الرحى، في عمود على منكب ملك؛ فقال لـه عبد الله: وددت أنك انقلبت براحلتك ورحلـها، كذب كعب، ما ترك يهوديته! إن الله تعالى يقول: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ إن السموات لا تدور، ولو كانت تدور لكانت قد زالت. وعن ابن عباس نحوه، وأنه قال لرجل مقبل من الشام: من لقيت به؟ قال: كعباً. قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: إن السموات على منكب ملك. قال: كذب كعب، أما ترك يهوديته بعد! إن الله تعالى يقول: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ والسموات سبع والأرضون سبع، ولكن لما ذكرهما أجراهما مجرى شيئين، فعادت الكناية إليهما، وهو كقولـه تعالى: ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ (الأنبياء: ٣٠) ثم ختم الآية بقولـه: ﴿إنه كان حليماً غفورا﴾ لأن المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل: أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين، وقولـهم اتخذ الله ولداً. قال الكلبي: لما قالت اليهود عزير ابن

الله وقالت النصارى المسيح ابن الله، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما، فمنعهما الله، وأنزل هذه الآية فيه؛ وهو كقوله تعالى: ﴿ لقد جئتم شيئاً إدّا تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ (مريم: ٩٠) الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ﴾ هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمداً ﷺ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فلعنوا من كذب نبيه منهم، وأقسموا بالله جل اسمه ﴿لئن جاءهم نذير﴾ أي نبي ﴿ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾ يعني ممن كذب الرسل من أهل الكتاب. وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل، فلما جاءهم ما تمنوه وهو النذير من أنفسهم، نفروا عنه ولم يؤمنوا به. ﴿استكبارا﴾ أي عتوا عن الإيمان ﴿ومكر السيئ﴾ أي مكر العمل السيئ وهو الكفر وخدع الضعفاء، وصدهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم. وأنث "من إحدى الأمم" لتأنيث أمة؛ قاله الأخفش. وقرأ حمزة والأخفش "ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ" فحذف الإعراب من الأول وأثبته في الثاني. قال الزجاج: وهو لحن؛ وإنما صار لحناً لأنه حذف الإعراب منه. وزعم المبرد أنه لا يجوز في كلام ولا في شعر؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها، لأنها دخلت للفرق بين المعاني. وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا، قال: إنما كان يقف عليه، فغلط من أدى عنه، قال: والدليل على هذا أنه تمام الكلام، وأن الثاني لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق، والحركة في الثاني أثقل منها في الأول لأنها ضمة بين كسرتين. وقد احتج بعض النحويين لحمزة في هذا بقول سيبويه، وأنه أنشد هو وغيره:

إذا اعوججن قلت صاحبْ قَوِّم

وقال الآخر:

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل

وهذا لاحجة فيه؛ لأن سيبويه لم يجزه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه. وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده:

إذا اعوججن قلت صاح قوم

وأنه أنشد:

فاليوم اشرب غير مستحقب

بوصل الألف على الأمر؛ ذكر جميعه النحاس. الزمخشري: وقرأ حمزة "ومكر السيءْ" بسكون الـهمزة، وذلك لاستثقالـه الحركات، ولعلـه اختلس فظن سكوناً، أو وقف وقفة خفيفة ثم ابتدأ "ولا يحيق". وقرأ ابن مسعود "ومكراً سيئاً" وقال المهدوي: ومن سكن الـهمزة من قولـه: "ومكر السيءْ" فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الـهمزة لتوالي الكسرات والياءات، كما قال:

فاليوم اشرب غير مستحقب

قال القشيري: وقرأ حمزة "ومكر السيءْ" بسكون الـهمزة، وخطأه أقوام. وقال قوم: لعلـه وقف عليه لأنه تمام الكلام، فغلط الراوي وروى ذلك عنه في الإدراج، وقد سبق الكلام في أمثال هذا، وقلنا: ما ثبت بالاستفاضة أو التواتر أن النبي ﷺ قرأه فلا بد من جوازه، ولا يجوز أن يقال: إنه لحن، ولعل مراد من صار إلى التخطئة أن غيره أفصح منه، وإن كان هو فصيحاً. ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهلـه﴾ أي لا ينزل عاقبه الشرك إلا بمن أشرك. وقيل: هذا إشارة إلى قتلـهم ببدر. وقال الشاعر:

وقد دفعوا المنية فاستقلت ذراعـاً بعد ما كانت تحيق

أي تنزل، وهذا قول قطرب. وقال الكلبي: "يحيق" بمعنى يحيط. والحوق الإحاطة، يقال: حاق به كذا أي أحاط به. وعن ابن عباس أن كعباً قال لـه: إني أجد في التوراة "من حفر لأخيه حفرة وقع فيها"؟ فقال ابن عباس: فإني أوجدك في القرآن ذلك. قال: وأين؟ قال: فاقرأ "ولا يحيق المكر السيء إلا بأهلـه" ومن أمثال العرب "من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً" وروى الزهري أن النبي ﷺ قال: "لا تمكر ولا تعن ماكراً فإن الله تعالى يقول: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهلـه﴾، ولا تبغ ولا تعن باغياً فإن الله تعالى يقول: ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ (الفتح: ١٠) وقال تعالى: ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾" (يونس: ٢٣)[1] وقال بعض الحكماء:

يـــا أيهـــا الظـــالم في فعلـــه والظـلم مـردود على من ظلم
إلـــى مـــتى أنـــت وحتى متى تحصـــي المصائب وتنسى النعم

وفي الحديث "المكر والخديعة في النار"[2]. فقولـه: "في النار" يعني في الآخرة تدخل أصحابها في النار؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار؛ ولـهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث: "وليس من أخلاق المؤمن المكر والخديعة والخيانة". وفي هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة، والخروج عن أخلاق الإيمان الكريمة.

قولـه تعالى: ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ أي إنما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار الأولين. ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ أي أجرى الله العذاب على الكفار، وجعل ذلك سنة فيهم، فهو يعذب بمثلـه من استحقه، لا يقدر أحد أن يبدل ذلك، ولا أن يحول

(١) ضعيف لإرساله.

(٢) "صحيح" أخرجه البيهقي عن قيس بن سعد، وأخرجه أيضًا أبو داود في مراسيله وزاد: "والخيانة في النار" وسنده حسن، كما في صحيح الجامع (٦٧٢٥، ٦٧٢٦).

العذاب عن نفسه إلى غيره. والسنة الطريقة، والجمع سنن. وقد مضى في "آل عمران" وأضافها إلى الله عز وجل. وقال في موضع آخر: ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا﴾ (الإسراء: ٧٧) فأضاف إلى القوم لتعلق الأمر بالجانبين؛ وهو كالأجل، تارة يضاف إلى الله، وتارة إلى القوم؛ قال الله تعالى: ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ (العنكبوت: ٥) وقال: ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ (النحل: ٦١).

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾

بين السنة التي ذكرها؛ أي أوَ لَمْ يروا ما أنزلنا بعاد وثمود، ومَدْيَن وأمثالهم لما كذبوا الرسل، فتدبروا ذلك بنظرهم إلى مساكنهم ودورهم، وبما سمعوا على التواتر بما حل بهم، أفليس فيه عبرة وبيان لهم؛ ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى، بل كان أولئك أقوى؛ دليله قوله: ﴿وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض﴾ أي إذا أراد إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك. ﴿إنه كان عليماً قديرا﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ﴾ يعني من الذنوب. ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوان مما دب ودرج. قال قتادة: وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام وقال الكلبي: ﴿من دابة﴾ يريد الجن والإنس دون غيرهما؛ لأنهما مكلفان بالعقل. وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل: أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم.

قلت: والأول أظهر؛ لأنه عن صحابي كبير. قال ابن مسعود: كاد الجُعَل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم. وقال يحيى بن أبي كثير: أمر رجل بالمعروف ونهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك فإن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال أبو هريرة: كذبت والله الذي لا إله إلا هو ثم قال والذي نفسي بيده إن الحبارى لتموت هزلاً في وكرها بظلم الظالم. وقال الثمالي ويحيى بن سلام في هذه الآية: يحبس الله المطر فيهلك كل شيء. وقد مضى في "البقرة" نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ (البقرة: ١٥٩) هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم. وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ قال: "دواب الأرض". ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم﴾ قال مقاتل: الأجل المسمى هو ما وعدهم في اللوح المحفوظ. وقال يحيى: هو يوم القيامة. ﴿فإن الله كان بعباده﴾ أي بمن يستحق العقاب منهم ﴿بصيرا﴾ ولا يجوز أن يكون العامل في "إذا" "بصيراً"

كما لا يجوز : اليوم إن زيداً خارج . ولكن العامل فيها " جاء " لشبهها بحروف المجازاة ، والأسماء التي يجازى بها يعمل فيها ما بعدها . وسيبويه لا يرى المجازاة بـ " إذا " إلا في الشعر ، كما قال :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلـها   خــطانا إلـى أعـدائنا فنضارب

ختمت سورة " فاطر " والحمد لله .

المجلد السابع

الموضـــــــــوع	الصفحة
تفسير سورة الفرقان	
تفسير قوله تعال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده...﴾الآيات	٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا...﴾الآية	١٥
تفســـير قوله تعالى: ﴿وعادا وثمود وأصحاب الرس...﴾الآية. معنى الرس في كلام العرب. الأقوال في أصحاب الرس	٢٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا﴾ المياه وأحكامها	٢٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين...﴾الآية	٤٠
تفسير قوله تعالى: ﴿والذين لا يشهدون الزور...﴾الآية. الكلام على شهادة الزور	٥٤
تفسير سورة الشعراء	٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿طسم. تلك آيات الكتاب المبين...﴾الآيات	٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي...﴾الآية	٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾الآية	٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿أوفوا الكيل...﴾الآية	٩٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾بيان الحكمة في اختصاص العشيرة بالإنذار.	٩٥
تفسير قوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾بيان. ما يجوز إنشاده من الشعر وما لا يجوز	٩٧
تفسير سورة النمل	١٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين...﴾الآيات	١٠٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود...﴾الآية. بيان المراد من الوراثة. قصص عن منطق الطير	١١٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده...﴾ الآية. بيان معنى الحشر. من هم	١١٢

جند سليمان –عليه السلام	
تفسير قوله تعالى: ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل...﴾الآيات. قصة سيدنا سليمان –عليه السلام– والنملة. حكم قتل النمل. التبسم ضحك الأنبياء	١١٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد...﴾الآيات. سبب تفقد الطير. الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته. العقوبة على قدر الذنب، الأنبياء لا تعلم الغيب. حكم كون المرأة خليفة	١١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قال سننظر أصدقت...﴾الآية	١١٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فما كان جواب قومه...﴾الآية	١٤٦
تفسير قوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه...﴾الآية. الأقوال في المضطر وإجابة الله لدعائه	١٤٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم...﴾الآية. اختلاف العلماء في الدابة	١٥٦
تفسير سورة القصص	١٦٦
تفسير قوله تعالى: ﴿طسم. تلك آيات الكتاب المبين..﴾ الآيات	١٦٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع...﴾الآية	١٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين...﴾ الآيات. قصة سيدنا موسى –عليه السلام– في مدين.	١٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد وصلنا لهم القول...﴾الآية	١٩٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فلما قضى موسى الأجل...﴾الآية	١٨٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إن قارون كان من قوم موسى...﴾الآية	٢٠٦
تفسير سورة العنكبوت	٢١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا...﴾الآيات	٢١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿فآمن له لوط...﴾الآيات	٢٢٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن...﴾الآيات. الكلام على أن الآية محكمة أو منسوخة	٢٣٣

تفسير قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا...﴾الآية. الأقوال في معنى الجهاد في الآية	٢٤٣
تفسير سورة الروم	٢٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿الم. غلبت الروم...﴾ الآيات. بيان ما وقع بين فارس والروم ومراهنة أبي بكر –رضي الله عنه- سبب غلبة الروم فارس	٢٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا...﴾الآيات. الأمر باتباع الدين الحنيف. اختلاف العلماء في معنى "الفطرة"	٢٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿منيبين إليه واتقوه...﴾الآية	٢٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر...﴾الآيات. الاختلاف في معنى الفساد في البر والبحر	٢٧٠
تفسير قوله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف...﴾الآية. الاستدلال على قدرة الله تعالى بتطور حال الإنسان من الضعف إلى القوة، ثم من القوة إلى الضعف	٢٧٤
سورة لقمان	٢٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث...﴾المعنى المراد من "لهو الحديث" استدل العلماء بهذه الآية على كراهة الغناء والمنع منه. بيان ما ورد من الآثار في ذمه. ما أبيح من الغناء.	٢٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة...﴾الآيات. الكلام على نسب "لقمان"، وهل كان حكيمًا أم نبيا. الاختلاف في صنعته. شيء من حكمه. نهي لقمان ابنه عن الشرك. الكلام على طاعة الأبوين	٢٨٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله...﴾الآية	٢٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام...﴾الآيات. بيان أن معاني كلام الله تعالى لا تنفد. بيان المراد بكلمات الله	٢٩٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة...﴾الآية. بيان مفاتح الغيب الخمس التي لا يعلمها إلا الله تعالى	٢٩٧
سورة السجدة	٢٩٨

تفسير قوله تعالى: ﴿الم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾	٢٩٨
تفسير قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت...﴾	٣٠٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها...﴾ القول في هداية الخلق	٣٠٥
تفسير قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع...﴾الآية. المراد بيجافي الجنوب. القيام لصلاة النوافل بالليل.	٣٠٧
تفسير قوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقا...﴾ نفي المساواة بين المؤمن والكافر. احتج العلماء بهذه الآية على أبي حنيفة في قتله المسلم بالذمي	٣١١
سورة الأحزاب	٣١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين...﴾ الآيات. الزجر عن اتباع مراسم الجاهلية والأمر بجهادهم	٣١٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه...﴾ الآيات. الكلام على سبب نزول هذه الآية. حقيقة القلب. ذكر خبر زيد بن حارثة. الكلام على التبني ومن ادعى إلى غير أبيه	٣١٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم...﴾الآية. بيان ما أخذ من المواثيق على الأنبياء -عليهم السلام	٣٢٤
تفسير قوله تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم...﴾الآية	٣٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿يأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا...﴾الآيات. بيان السبب الذي أوجب تخيير الرسول ﷺ زوجاته. الكلام على أزواج الرسول ﷺ، من دخل بها، ومن عقد عليها ولم يدخل بها، ومن خطبها فلم يتم نكاحه معها. سراريه ﷺ. أقوال العلماء في المخيرة إذا اختارت زوجها هل يكون ذلك طلاقًا؛ ومتى يكون لها الخيار	٣٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يقنت منكن...﴾الآية	٣٥٢
تفسير قوله تعالى: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن...﴾الآيات. نهى الله أمهات المؤمنين عن مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه. أمرهن بملازمة البيوت، ونهيهن عن التبرج. اختلاف الناس في الجاهلية الأولى. حقيقة	٣٥٤

خروج أم المؤمنين عائشة إلى وقعة الجمل. اختلاف العلماء في أهل البيت من هم. أمر أمهات المؤمنين بذكر الكتاب والحكمة والمراد بالذكر	
تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه...﴾الآيات. بيان أن لو كان النبي ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية. قصة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش. زواجها من رسول الله ﷺ بدون عقد ولا صداق. نسب زيد وبيان فضله. في الآية دليل على ثبوت الولي في النكاح	٣٦٠
تفسير قوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن...﴾الآية	٣٧٧
تفسير قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم...﴾ الآية. بيان أن الآية تضمنت الأدب في أمر الطعام والجلوس وأمر الحجاب. نهى الله المؤمنين عن دخول بيت النبي ﷺ بغير إذن. حرص عمر –رضي الله عنه– على نزول الحجاب. إذن الله في مسألة أمهات المؤمنين من وراء حجاب فيما يعرض من المسائل. من خصائصه ﷺ تحريم نكاح أزواجه من بعده.	٣٨٣
تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي...﴾ الآية. بيان تعظيم قدر النبي ﷺ. بيان أن الأمر بالصلاة عليه فرض في العمر مرة. اختلاف الآثار في صفة الصلاة عليه، فضل الصلاة عليه	٣٨٨
تفسير قوله تعالى: ﴿يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك...﴾الآية. بيان زوجات النبي ﷺ وأولاده. أمر الحرائر بالتستر وإرخاء الجلابيب عليهن حتى لا يختلطن بالإماء. صورة إرخاء الجلباب عليهن	٣٩٤
تفسير قوله تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون...﴾الآية	٣٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض...﴾الآية. أقوال العلماء في معنى الأمانة	٤٠٢
سورة سبأ	٤٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض...﴾ الآيات	٤٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا...﴾ الآية. اختلاف العلماء في الفضل الذي أعطاه الله لداود. في الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع	٤٠٩

تفسير قوله تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية...﴾الآيات. بيان نسب سبأ والآية التي كانت في مساكنهم. الكلام على سدهم والسيل الذي أرسل عليهم	٤٢٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض...﴾الآية	٤٣٠
تفسير قوله تعالى: ﴿قل إنما أعظكم...﴾الآية	٤٣٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت...﴾الآيات. ذكر أحوال الكفار وخروج السفياني بجيشه آخر الزمان وخسف الأرض بهم	٤٤٠
سورة فاطر	٤٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض...﴾الآيات. الكلام على قوله "يزيد في الخلق"	٤٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿من كان يريد العزة...﴾ الآية. بيان أن العزة لا تكون إلا في طاعة الله تعالى. القول في الكلم الطيب والعمل الصالح	٤٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿وما يستوي البحران...﴾ الآيات. بيان معنى "القطمير"	٤٥٤
تفسير قوله تعالى: ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء...﴾الآية	٤٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتب الذين اصطفينا...﴾الآيات. الكلام على الظالم والمقتصد والسابق بالخيرات	٤٦١
تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا...﴾الآية	٤٦٨
تفسير قوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا...﴾الآية	٤٧١